وزارة
الثقافة
والإرشاد
القومي

تاريخ بخارى

تأليف

أرمينيوس فامبري

ترجمة

الدكتور أحمد محمود الساداتي

مراجعة وتقديم

الدكتور يحيى الخشاب

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

تاريخ بخارى

منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر

تأليف
ارمينيوس فامبرى
Arminius Vàmbéry

ترجمه وعلق عليه
الدكتور احمد محمود الساداتى

راجعه وقدم له
الدكتور يحيى الخشاب

تقـــديم

مؤلف هذا الكتاب هو المستشرق المجـرى المعروف ارمينيـوس فامبرى الذى عاش فى القرن التاسع عشر ، واشـتهر بكتابته عن البلاد الشرقية عامة والتركية بوجه خاص ، والذى زار تركيا أكثر من مرة وزار بلاد التركستان وكتب عن هذه البلاد كتابة العالم الذى يرجع الى المصادر التى تتناول موضوعه ، وخاصة المخطوطات ، وفى الوقت نفسه يدرس دراسة عملية البلاد التى يتحدث عنها .

والكتاب الذى نقدمه اليوم الى المكتبة العربية يتناول تاريخ بخارى (تركستان) قبل الاسلام وحتى عام ١٨٧٠ . يجد فيه القـارىء العصر السامانى بمدنيته العظيمـة ثم العهـود : السلجوقى ، والأويغورى ، والخوارزمشـاهى . ويتحـدث المؤلف بعد ذلك عن الغزو المغولى : الجنـكيزيين ثم التيموريين . وينتقـل الى الأوزبك ، والشـيبانيين ، والاشترخانيين والمنغيتيين . وبعد هذا يذكر خـانات خيـوه وخوقنـد وكاشغر وينهى حديثه بما كان من خضوع هذه المنطقة لأسرة رومانوف .

وأسلوب الكاتب علمى خالص ، فهو مؤرخ سياسى وحضارى يضع أمام القارىء صورة للحياة السياسية للعصر الذى يتحدث عنه كما تأخذ الأوضاع الاجتماعية والحضارية من جهده الكثير وهى أكثر مشـقة فى البحث من السرد السياسى للتاريخ . وفامبرى فى كتابه يمتاز بسعة الاطلاع والصبر على التدقيق وتحمل مشاق الرحلة فى سبيل كشـف ما يريد أن يصل اليه من اعطاء قارئه صورة كاملة لكل عصر تناوله . وحسـبنا أن نتصور أن أكثر المراجع الشرقية التى رجع اليها كانت مخطوطة وقتذاك ولم يكن الاطلاع عليها والافادة منها ميسرتين هذا التيسير الذى نجده

فى المطبوعات الحديثة من هذا التراث الشرقى ، عربيا كان أو تركيا أو فارسيا .

لقد ازدهرت الحضارة الاسلامية فى التركستان ، وكانت بخارى مركزا من المراكز الرئيسية فى هذه الحضارة واذا كنا نحن العرب نعرف مراكز الحضارة فى بلادنا ، فى بغداد والقاهرة والقيروان وفاس ، فان علينا أن نذكر بخارى التى كانت قبلة لعلماء هذه المراكز كلها والتى أينعت فيها حضارة المسلمين فترة طويلة من الزمان امتدت حتى منتصف القرن التاسع عشر . والتذكير بالماضى الحضارى المجيد لهذه البلاد هو الذى حدا بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، لجنة الترجمة والتبادل الثقافى ، أن تشير باخراج هذا السفر النفيس الى اللغة العربية حفاظا على تاريخ حضارتنا العربية الاسلامية .

أما المترجم فهو الاستاذ الدكتور أحمد محمود الساداتى من أساتذة قسم الدراسات الشرقية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وهو يمتاز بسعة الاطلاع والجلد على البحث والتدقيق العلمى الذى يكلف الكثير من المشقة والجهد . أكمل دراسته الثانوية بالقاهرة ثم سافر الى النمسا وألمانيا حيث أخذ يدرس بجامعتى ميونيخ وفينا وعاد الى القاهرة ليدرس من جديد فى كلية الآداب وليظفر آخر الأمر بأعلى الدرجات منها ثم يلتحق بهيئة التدريس فيها . وهو يجيد من اللغات الأوربية الألمانية والانجليزية والفرنسية ، ومن اللغات الشرقية الفارسية والتركية والأوردوية . وله ترجمات كثيرة سابقة على هذه الترجمة .

والحق انه لم يكن فى هذا الكتاب مترجما فحسب ، فهو عالم مدقق فاحص ملم بالموضوع الذى ينقله الى العربية الماما تاما يكاد يكون قرينا لمؤلف الكتاب نفسه . وهو محب للتاريخ الاسلامى حبا أخذ عليه أكثر وقته فى محاضراته وكتبه ، ولعله أول من كتب تاريخ الهند بالعربية وأول من ألقى عندنا ضوء على تاريخ المغول والمسلمين فى هذه البلاد ،

ونحن فى كلية الآداب نعده الاستاذ المتخصص فى هذا القسم من تاريخ المسلمين ، لذلك لم يكن غريبا أن تزخر هـذه الترجمـة بالملاحظات والحواشى القيمة التى نجدها فيها . فهو قد أضاف الى الترجمة أكثر من مائة حاشية تناول فى بعضها شرح النقاط التاريخية التى تركها المؤلف دون توضيح ، وعرض فى بعضها الآخر آراء المؤرخين الثقاة فيها ، وأثبت فى ذلك كله أسماء المراجع الأصلية التى رجع اليها. ثم انهحقق النصوص التاريخية التى أوردها المؤلف وذلك بالرجوع الى المصادر الأصلية التى أورد نصوصها العربية كما وردت فى الطبرى وابن الأثير وغيرهما . وحقق الأعلام وأسماء الأماكن راجعا الى المصادر الرئيسة فى ذلك عربية وفارسية وتركيـة .

وأشهد أنى راجعت هذه الترجمة وأنا قرير العين بها فانى وجدتها مطابقة للنص خير التطابق ، جارية فى أسلوب عربى لا يشـعر القارىء بنقل عن لغة أخرى ، انما كأنه هو صاحب الكتاب لا مترجم له ، وكان تزويده الترجمة بهذه الاضافات القيمة التى أضافها خير دليل على تعمقه الموضوع الذى ينقله الى العربية .

يحيى الخشـاب
العميد السابق لكلية الآداب بجامعة القاهرة
ورئيس قسم اللغات الشرقية

مقدمة

ان معلوماتنا عن التاريخ الغابر لشعوب آسيا على اختلافهـا تزداد باطراد تقدم الأبحاث العلمية الخاصـة بالأقاليم التى نعنيهـا فى نواحى الجغرافية والسلالات البشرية واللغة . فهذه هى الدولة العثمانية ، برغم اتصالها الوثيق الطويل بكل أجزاء أوربا ، فان المؤرخين لم يعنوا — لأول مرة — عناية جدية بالوقوف على أحوالها الا فى القرن الماضى ، وحتى فى ذلك الوقت كانت أخبارها عندهم سطحية طفيفة ، فلم يتأكد لديهم ما كتبه عنها پتى دولاكروا Petis de la Croix وكانتمير Cantemir حتى جاء من بعد ذلك هامر وتزنكايزن Hammer and Zinkeisen فوثقوها بأبحاثهم . واستطاع ج. وايل G. Weil بدوره أن يخرج للناس عمله الضخم فى تاريخ بلاد العرب ومصر ، وهو لا يتعرض فيه الا للعصور الماضية . فى حين لبث خضم التاريخ الفارسى يفتقر الى مثل هذه الجهود ، حتى انبرى له آخر الأمر الأريب الجنرال مالكولم Malcolm وراح يتقصى الموضوعات التى تناولها من قبل تيفينـــوت Thevenot وشردان Chardin ونيبور Nielluhr ويفسرها بعد أن جاب بنفسه بلاد فارس كلها مرات عديدة دارسا ومنقبا . ولايزال الاقليم الواقع فيما وراء جيحون أرضا لا يعرف عنها التاريخ شيئا مذكورا بالقيـاس الى غيرها . ولقد بدا لنا أول هذا القرن بعض ومضات من ضوء من خلال تلك الظلمة التى تلف تلك المنطقة بأسرها . ومنذ أن هتك سيف الغزو ، حدا ما ، ذلك القناع الذى كان يحيط بتلك البقاع ، لنا أن نتصور بسهولة مدى تهافت المثقفين من الأوربيين على التعرف على الأحوال الحاضرة لهذه البلاد تعرفا صحيحا ، رغم أن مبلغ علمنا عنها وعن أهلهـا لا يزال غير أكيد . ولا بأس عندهم من أن يضاف الى ذلك بعض البيانات عن فجر

تاريخ تلك الأمة التى تقطن آسيا الوسطى ، تلك البلاد التى وثقت مجريات السياسة الحديثة من صلاتها بنا برغم موقعها الجغرافى القصى .

ولتحقيق هذه الرغبة ، أقدمت ، برغم قلة المصادر وضآلة الامكانيات، على محاولة الاضطلاع بهذا العمل الذى لا يخلو من مشقة ، ألا وهو تدوين أول تاريخ لبخارى . وكنت أفكر فى الواقع منذ أول شبابى فى شئون هـذه المنطقة البعيدة ، حتى لقد أمضيت كل شبابى فى التأهب والاعداد النشيط لهذا العمل ، فضلا عما قمت به من رحلات مضنية فى سبيل ذلك . حتى اذا ما اكتملت لى السنون بان لى أنه لم يكن يجدر بى أن أخاطر فأزج بنفسى فى عمل أدبى له مثل هذا الاعتبار البالغ . ويبدو أن القدر هو الذى هيأ لى أن أقتحم مناطق لم يسبقنى اليها أحد من قبل ، تقريبا أو على الاطلاق . وها أنذا على الآن أن أستكشف بالقلم حقولا جديدة كل الجدة مكتفيا فى ذلك ، مع الاعتذار الشديد ، ببيان المراجع القليلة التى لا تجدى بدونها أية طريقة للدرس مهما عظمت .

ينقسم تاريخ بخارى الى قسمين : التاريخ القديم ، وهو تاريخ بلاد ما وراء النهر ، ثم التاريخ الحديث ، وهو تاريخ خانية بخارى . وبرغم أن الفترة التى تختم بنهاية حكم تيمور لم تكن فيها آسيا الوسطى موضع اهتمام المؤرخين المتخصصين أبدا، فلا ينبغى مع هذا أن نهمل شأنها . ذلك أن تاريخ هذه الفترة يتصل اتصالا وثيقا بتاريخ داخل العالم الاسلامى عامة فضلا عن تاريخ المسلمين فى المغرب فى بعض الأحيان . ولئن كان مؤرخو تلك الحقبة لم يخصوا مجريات الحوادث السياسية ببلاد ما وراء النهر بنفس العناية التى بذلوها لحوادث خراسان والعراق وبلاد العرب ، فاننا مع ذلك قد استطعنا أن نستخلص من عنـدهم أهم ملامح ذلك الماضى هناك . وعلى سبيل المثال ، تقع فى هذه الفترة العهود التى يصدر فيها السامانيون والأمير تيمور من بخارى وسمرقند المراسيم التى حكموا بها نصف آسيا الاسلامية (بل كلها فى بعض الأوقات) ، ولكنا لا نجـد لتاريخ بلاد ما وراء النهر الخالص فى تلك الآونة قدرا كافيا من العناية . أما الفترة الثانية من تاريخ هذه البلاد ، وهى التى تبدأ بظهور الأوزبك ، فالمعلومات الخاصة بها قليلة حدا ما . ذلك أن خانية بخارى التى لم يكن لها

اذ ذاك خطورة سياسية تذكر ، كانت قد غدت فى عزلة عن جيرانها الذين لم يكونوا بدورهم يلتفتون فى الغالب الى ما كانت تمارسه بين ظهرانيهم من نشاط ضئيل حينا بعد حين . وعلى أساس هاتين الفترتين تنقسم المصادر التاريخية الى قسمين منفصلين ، هما :

ا) مصادر قديمة مشهورة ، ومنها تلك التى قام بنشرها المستشرقون أو نقلوها الى لغاتهم ، أو التى اعتمدت عليها المخطوطات الأصلية فى تفصيل مسألة بعينها .

ب) مخطوطات جديدة أو غير معروفة جلبهــا الرحالة حديثا من آسيا الوسطى ، فهى بذلك غير معروفة عند جمهرة المستشرقين .

أما الأولى ، فالمصادر الآتية هى ممــا أفدت منــه ما استطعت فى تعرضها لتاريخ بلاد ما وراء النهر :

١ — تاريخ الطبرى ، الترجمة التركية التى نشرت حديثا ، لاسيما فترة غزوات العرب عبر جيحون فيه . ذلك أنه برغم أهمية تاريخ النرشخى فى هذه الفترة الا أن حوليات هذا الكاتب المسلم فى تاريخه الجامع هذا لها بدورها أهميتها كذلك لاختلاف بعض روایاته من جهة ولانفراده بايراد بعض التفصيلات من جهة أخرى .

٢ — تاريخ بيهقى(١) الذى نشره مورلى وناماو ضمن منشورات المكتبة الهندية بكلكتا عام ١٨٦٢ م .

Captain W. Nassau Iees, W.H. Morley "Bibliotheca Indica"

وأهمية هــذا الكتاب بوصفه تاريخا لبلاد ما وراء النهر ، هى فيما يفصله من سيرة محمود بن سبكتكين الأولى ، وما كان من أمر العلاقات السياسية بين السلطان مسعود الغزنوى ، وأمراء كاشغر وســـمرقند المستقلين . وهذا الكتاب لا يحوى على كل حال الا أجزاء بعينها من تاريخ آل سبكتكين وهو من تأليف أبى الفضل البيهقى .

٣ — روضة الصفا لميرخوند ،وتكملة هذا الكتاب حتى العصور الحديثة نقلا عن مؤلفات خوندامير وعلم آراى عباسى وتاريخ صــفوى

---

(١) نقله الى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت ــ القاهرة ١٩٥٦ (المترجم)

وتاريخ نادرشــاه وكتب أخرى نشرت جميعهـا مع الكتاب الأصلى فى مجلدين فى طبعة حجرية بطهران عام ١٢٧٤/١٨٥٧ . كذلك كان فى متناول يدى أجـزاء من كتاب ميرخـوند نشرها فـولرز وكاترمير Vullers and Quatremère . ولـكنى لم أفد من ميرخوند بخاصة الا من الفصـل الخاص بالسلاجقة عنده . ذلك أنه فيما عدا هذا الفصل ، فكل ما ورد عنده قد نقله عن مراجع أخرى معروفة (١)،وآثرت فى ذلك أن أرجع الى المصادر الأصلية نفسها .

٤ — تاريخ جهانكشا لعلاء الدين عطاملك الجوينى . والمعروف أن هذا الكتاب هو المرجع الأول الذى اعتمد عليه رشيد الدين ووصـاف وحافظ آبرو وغيرهم من مؤرخى المغول . وبرغم ما أورده رشيد الدين ووصاف من التفصيلات التى لا نجدها عنده ، فان هذا الكتاب لا يزال يعد مرجعا هاما فى تاريخ بلاد ما وراء النهر وتاريخ الترك عموما . وقد أفدت من نسخة هذا الكتاب الموجودة فى المـكتبة الامبراطورية بمدينة ڤينا(٢) وهى التى أفاد منها كذلك هامر فى كتابه «تاريخ القبيلةالذهبية» Hammer "History of the Golden Horde" .

٥ — ظفر نامه لشرف الدين على يزدى . وهو سيرة تيمور المشهورة. وقد نقله الى الفرنسية (نقلا غير دقيق) پتى دولا كرواPetis de La Croix ونشره بباريس عام ١٧٢٢ . وقد اطلعـت فى خيـوه كالذلك على نسخة بالجغتائية لهذا الكتاب .

٦ — مطلع السعدين (السـعدان هما عند البعض جنكيز وتيمور وعند غيرهم تيمور وشاهرخ) للشيخ كمال الدين عبد الرازق الذى عاش

---

(١) أمعن ميرخوند فى النقـل عن غيره حتى لتراه ينقـل من عبارات بأكملها حرفا بحرف . فتـاريخه عن جنكيز وحروبه هو عـلى سبيل المثال ، صورة طبق الأصل لما ورد عند الجوينى بعد أن حذف منهـا بكل بساطة قدرا من عبارات المديح والاطناب التى وردت فى الأصل .

(٢) نشر هذا الكتاب فى مجموعة جب التذكارية بليـدن ١٩١١ ـ ١٩٣٧ فى ثلاثة مجلدات .

(المترجم)

بهراة وسمرقند ابان فترة ازدهار الحكم التيموري . ويعد هذا الكتاب من أمتع الكتب العلمية التي كتبت عن فترة بعينهـا في تاريخ الشعوب الاسلامية بآسيا . والمجلد الثاني منه ، وهو الذي يتناول الفترة ما بين وفاة تيمور ووفاة أبي سعيد ميرزا ، له أهميته البالغة . ففيه يعرض علينا المؤلف ، باضطلاع الأديب المتمكن وفي تفصيل كامل ، صورة مثيرة لحياة وأعمال خليفة تيمور هذا الذي عرف بشغفه بالعلوم والفنون . وقد ولد عبد الرازق ، مؤلف هذا الكتاب، بهراة عام ٨١٦/١٤٢٣ وتوفى بسمرقند عام ٨٨٧/١٤٨٢ .

٧ — بابرنامه — وذلك عن النص الأصـلي المشهور الذي نشره المنسكي (١) . وقد أطلعت بعد ذلك على ترجمة فرنسية ممتازة لهـذا الكتاب نشرها بافيه دولاكورتي Pavet de la Courteille في العام الماضي لأول مرة .

٨ — شيباني نامه — وذلك عن النسخة التي نشرها بريزن Berezin مع ترجمة روسية لها . والأصل الجغتائي ، ويقع في ورقات قليلة ، يفصل ، الى حد ما ، في أصل الأوزبك وتاريخهم وسيرة بطلهم شيبـاني خـان المبكرة منذ بدء تجواله في حوض سيجون الأدنى . وينتهي هذا الكتاب بموت شيباني . غير أن المؤلف يعرض حروب هذا البطل المهمة ونهـايته المفجعة عرضا سطحيا عجلا .

٩ — شجر تركي (النسب التركي) لأبي الغازي بهادرخان . وقد نشر الأصل الكونت رومـاتزوف Count Romazoff في كاشـان عام ١٨٢٥ ، وهـذا الكتاب هو في مجموعه صورة متواضعة من كتاب رشيد الدين ، ولا سيما القسم الخاص منه بأصل الترك . وما يصح أن

---

(١) نشرت السيدة انيت بفريدج أكمل نص لهذه السيرة عام ١٩٠٥م وهي التي استندت عليها هنا في بعض التعليقات كما نقلتـــه كذلك الى الانجليزية وأضافت اليه تعليقات كثيرة وشروحا قيمة وظهرت هذه الترجمة بلندن عام ١٩٢٢ (المترجم)

يكون له قيمة تاريخية منه هو تلك الفصول التى تتناول عصر أبى الغازى ومغامراته الشخصية .

١٠ — تاريخ نادرشاه ، لميرزا محمد مهدى خان ، عن نسخة حجرية نشرت فى طهران عام ١٢٦٠/١٨٤٤ .

١١ — ناسخ التواريخ ، تاريخ قاجارى ، وهو تاريخ الأسرة التى تحكم ايران الآن [1] . وفيه نجد اشارات قليلة الى بخارى فى نهاية القرن الماضى وبداية القرن الحالى . ويتضح لنا من المصادر التى استخدمها مالكولم أن مؤرخى الفرس لا ترد عندهم الا روايات قليلة خاصة بتلك الحقبة فى تاريخ إيران ، حتى لم أوفق فى الحصول عندهم على مايستحق الذكر .

والى جانب تلك المراجع المهمة أفدت بطبيعة الحال من كل مايشير الى تاريخ بلاد ما وراء النهر فى أسفار الشرق ، مما هو منشور منها وما هو مخطوط ، أو فى كتب التاريخ الأوربية وكتب التراجم والرحلات . ذلك أنه لا معدى اليوم لأى كاتب ، يتصدى للكتابة فى أى موضوع ، من الاطلاع الواسع على كل ما تصل اليه يده من المراجع التى تتناول الموضوع الذى يعالجه . ولقد كفيت القارىء مؤونة الاطلاع على قائمة طويلة بأسماء المراجع كلها ، وهو على كل حال سيطلع على كل واحد منها فى موضعه المناسب بهذا الكتاب .

أما مراجع القسم الثانى فهى لا تزيد فى الواقع على خمسة لسوء الحظ . وهى أساسا مخطوطات جديدة غير معروفة وتختص بتاريخ بخارى القومى :

١ — كتاب النرشخى . ومؤلفه هو أبو بكر محمد بن جعفر النرشخى . وقد كتبه (فى رواية عام ٣٣٧هـ وفى رواية أخرى عام ٣٣٢هـ) بعنوان (كتاب أخبار بخارى) بأمر من نوح بن نصر السامانى الذى حكم ببخارى باسم الأمير حميد ٣٣١ — ٣٤٣ هـ . وقد ألف هذا الكتاب أصلا

---

١ — أى قبل الأسرة البهلوية الحالية (المترجم) .

بالعربية ، ثم نقل الى اللغة الفارسية بعد الفراغ من تأليفه بمائة وتسعين عاما . والترجمة الفارسية التى بين أيدينا وهى التى ابتاعها سير الكسندر بيرنز Sir Alexander Burnes فى مدينة بخارى عام ١٨٣٢ والتى هى الآن فى حوزة الجمعية الملكية الآسيوية لبريطانيا العظمى وايرلنده ، تتناول : أولا ، مبدأ تاريخ بخارى وما حولها . ويبدو فيها أن المؤلف يهتم اهتماما كبيرا بدراسة أسوار بخارى وأبوابها وقصورها وقنواتها ونظام الحكومة فيها وطريقة جمع الخراج بها . والمخطوط يتحدث بخاصة فى شيء من التفصيل عن هذا الجزء من بلاد ما وراء النهر أيام السامانيين فى عهد ازدهارهم ، وبوجه التحديد ، عن تلك المدينة وما يتاخمها مباشرة حتى لا نجده يذكر مناطق ميانكل والصغد .

وفى القسم الثانى من الكتاب يتحدث المؤلف عن الفتح العربى لتلك البلاد فى تفصيل لا نجده عند غيره . وتاريخ القرن الأول للحكم العربى عنده يسوده الغموض والاضطراب ، ولكنه يتحدث عن المقنّع ، النبى المزعوم ، حديثا شائقا يشمل كذلك بعض حوادث تلك الفترة ، ويلى هذا القسم تاريخ السامانيين الذى استطاع المؤلف أن يصل به الى بداية حكم الأمير الحميد ليتمه من بعد ذلك مترجم الكتاب (الى الفارسية) حتى سقوط تلك الأسرة . وبآخر الكتاب فصل مستقل عن مزارات بخارى وعن الصالحين والعلماء المدفونين هناك . وقد علمت كذلك بوجود نسخة من هذا الكتاب فى حوزة الأستاذ خانيكوف Khanikoff ومن الأسف أن كلتا النسختين اللتين نقلت منهما كتبتا كتابة رديئة بخط نسخ لا يقرأ .

٢ — شيبانى نامه ١) وهو شعر جغتانى حماسى كتبه الأمير محمد صالح الخوارزمى . وهو مخطوط يقع فى ٢١٨ صفحة يروى أعمال البطولة التى اضطلع بها شيبانى خان ويصفها ، منذ أول ظهوره أمام سمرقند حتى زحفه على حاضرة خراسان . وهى لا تحكى بذلك الا حوادث

---

١ — ذكر المؤلف فى الصفحات السابقة كتابا آخر يحمل هذا الاسم ، وهو أيضا سيرة شيبانى ولكنها كتبت نثرا (المترجم)

ثماني سنوات من عمره . ولما كان كل ماوصلنا من أخبارالشيباني مصدره اما بابرنامه أو كتب التاريخ الفارسية ، وكلها لا تضمر له أي ود ، فقد لقى هذا المؤلف أكثر الترحيب بوصفه أول مصدر موثوق به حقيقة في هذا الشأن . ذلك أن الأمير محمد صالح كان يقوم على ديوان رسائل البطل الأوزبكي . ولئن كان يتحدث عنه ، بطبيعة الحال ، بعبارات التفخيم والمبالغة ، الا أنه يعطينا في الوقت نفسه صورة لا مغالاة فيها عن الأحوال الخلقية والاجتماعية التي كانت تسود بلاد ما وراء النهر اذ ذاك ، حتى لآمل بذلك أن أنشر هذا المخطوط الأصلي مع ترجمته والتعليق عليه في أقرب وقت . والنسخة التي اطلعت عليها ملك المكتبة الأمبراطورية في فينا ، وهي النسخة الوحيدة بأوربا . ولم أعثر على أخت لها بآسيا الوسطى كذلك . ويذكرها فليجل Fluegel في فهرسه بالمجلد الثاني ص ٣٢٣ . ويبدو أنه لا يلم بالجغتائية اذ أن تعليقاته عليها قليلة ناقصة .

٣ — تاريخ سيد راقم . وهو مجموعة من التواريخ تبدأ من عام ٧٠٠/١٠٥٥ وصل بها سيد راقم الى عام ١٠١٣/١٦٠٤ ثم استكملت من بعد ذلك حتى عام ١٠٥٥/١٦٤٥ . وبرغم أنها مجرد حوليات فارسية تؤرخ بعض الحوادث ، الا أن التعليقات التاريخية على هذه الرباعيات أو المقطوعات الشعرية لها اعتبارها ، ولاسيما ما يشير منها على الخصوص الى العلماء والشيوخ المبرزين من أعيان هذه الحقبة ، والذين لم نكن لندري من أمرهم شيئا لولا هذه التضمينات .

ولئن كانت هذه التواريخ في صورة حوليات ، الا أنها حين تتصدى للحديث عن بعض الشخصيات من أمثال تيمور وشيباني وعبد الله خان وعبد المنعم خان نراها تفصل من أمرهم في أمانة تامة . وهذا المخطوط ، وهو في حوزتي ، يذكر عرضا بعض أعيان خراسان ، ولكنه يتناول أساسا البلاد الواقعة فيما وراء جيحون فهو لهذا يعد من بين المراجع الخاصة بتاريخ بخاري وبلاد ما وراء النهر .

٤ — تاريخ مقيم خاني ، لمحمد يوسف منشيء (رئيس ديوان رسائل) مقيم خان ، أحد أولاد سبحانقلي خان . وكان المؤلف قد اتصل

بهذا الأمير حين كان نائبا لأبيه على بلخ . وهذا المخطوط الفارسى كان قد ابتاعه بيرنز فى بخـارى ، وهو اليوم فى حوزة الجمعية الآسـيوية لبريطانيا العظمى . ويبدأ بذكر جنكيز خان ، بوصفه جد الأشترخانيين ، وينحدر منه حتى يصل الى أبى الخير جد الشيبانيين . وهـذه الأسرة ، برغم أن تاريخها معروف بالتفصيل ، الا أن هذا المخطوط ، المكتوب بخط التعليق ، يطلعنا على بيانات هامة بخصوص أصل الاشترخانيين وأهم أمرائهم المشهورين مثل باقى محمد خان وامام قلى خان وسبحانقلى خان ، ثم محمد مقيم خان الذى لم يستطع أبدا أن يرقى عرش بخارى . وهـذا المخطوط يتناول فترة طولها مائتا عام . وأسلوبه بليغ الى حد ما وان لم يخل من الاطناب الشرقى المعهود .

٥ — دخمه شاهان (ضريح السلاطين) لمنشى محمد صادق ميرزا الذى كان ملتحقا بخدمة الأمير معصوم فى الغالب . ويبدأ هذا الكتاب بأنشودة فى مديح الاشترخانيين المتأخرين ، ويصورهم فى شعره وكأنهم وهم فى قبورهم يتأملون فى أحوال هذه الدنيا الفانية وفى فضائل الأمراء ويلى ذلك تاريخ منظوم لأهم وقائع الأمير معصوم مع الفرس والأفغان . وليس لهذا الشعر مع الأسف قيمة تاريخية . أما القسم الثانى منه فهو شعر مناسبات قيل فى بعض الأعياد وفى مولد بعض أبنـاء السلطان أو أحفاده وحفلات طهورهم . وهذا المخطوط الفارسى المنسق المكتوب بخط التعليق قد ابتعته فى سمرقند ، وهو اليوم فى حوزتى .

وكما تتنوع المراجع التى استخدمتها تنوعا شـديدا فى طبيعتها ، فكذلك تختلف فصول كتابى هذا فى أهميتها من موضع لآخر على تفاوت .. فالقسم الأول منـه ، باستثناء بعض استدلالات منقولة عن مخطوط النرشخى ، لا ترى فيه ما يعد جديدا على المستشرقين الا القليل ، وان كان أغلبه جديدا على الجمهور . ذلك أن المراجع المخطوطة الخاصة بآسيا الوسطى لم يسبق أن استخدمت على نطاق واسع من قبل كما استخدمت فى هذه المرة . أما القسم الثانى فهو يتناول على كل حال من المسائل مالم يصل اليه العلماء من قبل على الاطلاق ، أو كان علمهم بها ضئيلا . فهى تتعرض لذكر مجموعات من الأمراء بل ومن أسر حاكمة برمتها لم يدون

من تاريخهم الاالقليل بآسيا، وناهيك بأوربا التى لم يكتب عنها بها كلمة واحدة . أما من ناحية اخراج هذا الكتاب فقد جعلت نصب عينى أن ألتزم صفاء الأسلوب وتناسق تناول الموضوعات(١) وعلى أساس التباين الكبير فى قيمة المراجع التى تحت يدى ، لعله كان بمقدورى أن أعمد الى الاسهاب فى بعض أجزاء الكتاب حيث تتوافر المراجع ، فكنت أتتبع على سبيل المثال ، فى تفصيل أكثر ، تاريخ السلاجقة لميرخوند أو سيرة تيمور لشرف الدين أو الحديث عن عصر التيموريين فى مخطوط عبد الرازق القيم . ولكنى لم أخاطر بهذا الصنيع . ذلك لأن قلة المصادر القوية التى تتناول العصور الأخرى كانت ستؤدى حتما الى الاخلال بتناسق الكتاب. كما سيتجلى واضحا للعيان جفاف بعض الفصول وضآلة شأنها بالنسبة لغيرها ، وكان هذا ما دعانى الى أن أمسك عن تفصيل أية واقعة من وقائع الخانيات المجاورة لبخارى أو تناول شئونها . ولما كان فى حوزتى قدر من البيانات عن تاريخ خوقند وخيوه ، فحين يزداد مقدار ما عندى منها ، فانى عازم على كتابة خلاصة تاريخية عن أجزاء آسيا الوسطى الشرقية والغربية هذه .

وفى الختام أود أن أعبر عن شكرى وامتنانى لكل أولئك الذين عاونونى بمختلف الطرق فى اخراج هذا السفر . كما أشكر خالص الشكر الكولونيل هـ. يول H. yule ، أقدر متخصص فى المسائل الخاصة بآسيا فى العصر الوسيط ، لما أفدته مما استخلصته من رسائله الخاصة أو مؤلفاته القيمة على السواء .كما أشكر كذلك كلا من البارون أوتاكر فون

---

(١) حرصت على الأخذ بأبسط طريقة ممكنة فى كتابة الكلمات الأجنبية بالحروف اللاتينية ، فاستعضت عن الأخذ بهذه الطريقة أو تلك من الطرائق المقررة فى كتابة الهجاء العربى باللاتينية بأن حاولت ببساطة أن أكتب هذه الكلمات بالحروف الانجليزية التى تجعل نطقها أقرب الى الصحة . من ذلك أنى جعلت dj مقابل الجيم و tch مقابل الجيم المثلثة S ـ للسين و Z للزاى و th للثاء . وعلامة (،) للعين . ولعلى أختلف مع المستشرقين الآخرين عموما الى حد ما حين أكتب الألفاظ العربية على النطق الذى سمعته من أفواه الفرس والتركستانيين .

شلشتا Ottaker V. Sehlechta سكرتير المفوضية والسيد ا. بارب A. Barb والسيد م. ا. بيرك M.E. Birk والجمعية الملكية الآسيوية لبريطانيا العظمى والسيد ج. ووسين J. Wussin لأريحتهم البالغة حين وضعوا تحت تصرفى هنا فى بست مواد لولاها لمـا تيسر لى أن أصل الى المراجع الضرورية فى عملى .

وها أنذا أقدم الآن ثمار عمل سنين طويلة الى جمهور كريم. ولكم تمنيت أن يتم هذا العمل وفيه من الخطأ والزلل أقل قدر ممكن . ومهما يكن من شيء فان كتابة تاريخ أى قطر من الأقطار لأول مرة هو دون شك عمل صعب شاق . ويضاعف من تلك المشقة أن يكون هذا القطر المعنى لم تنجل عنه ، الا فى الجيل الحاضر ، تلك الظلمة الكثيفة التى ظلت تكتنف تاريخه لقرون .

المؤلف

پست فى ٢٨ ابريل سنة ١٨٧٢

محتويات الكتاب

مدخـــل الى الكتاب

حين نقول اننا نستطيع أن تتمثل تقويم آسيا الوسطى عموما فانما ندعى بذلك أمرا لا يمكن أن يقوم أصلا على التأكيد أو التحديد . وكذلك الحال بازاء الدلالة السياسية لعبارة « ما وراء النهر » اذ يكتنفها الغموض بدورها . فهذا التعريف العربى يقصد به البلاد الواقعة عبر النهر أى فيما وراء نهر جيحون وعند شاطئه الأيمن . ولكنك ترى الأمر ، عند التحديد ، يغاير هذا المدلول فهذا هو البلخى ، فى مخطوطه الجغرافى(١) يدخل عنده تحت هذا التعريف قسما من الشاطىء الأيسر بحوض النهر الأعلى . وهو وضع سليم لا شبهة فيه من ناحية الحدود السياسية للاقليم . ذلك أنه منـــذ عهد السامانيين حتى العصر الحديث كانت منـــاطق الطالقـــان

---

(١) ما يلاحظ من تطابق التواريخ وتماثلها بتقاويم بعض الجغرافيين العرب القدامى لأقسام بعينها من بلاد آسيا الاسلامية ، قد أوقع علمـــاء أوروبا فى الحيـــرة ، حتى لم يســـتطيعوا أن يقـــرروا من يكون من الجغرافيين القدماء الثلاثة ، البلخى والاصطخرى وابن حـــوقل ، هو الذى سبق زميليه الى ذلك فنقل الاخرون عنه . وقد تصدى حديثا لدراســـة هذا الموضوع العالم الهولندى دى جويه .

I. de Goeje. The Journal of the German oriental Society Vol. XXV PP. 42-95

وانتهى من دراسته بأن ذهب الى أن أبازيد البلخى المتوفى عام ٣٢٢هـ (٩٣٣م) هو صاحب أقدم مخطوط جغرافى عربى . وتوجد نســـخه من هذا المخطوط فى المكتبة الامبراطورية فى فينا ، وقد اطلعت عليها ، وبالنسبة لما تحويه من معلومات بالغة القيمة ، فان جميع المشتغلين بالثقافة الآسيوية سوف يسرهم أن يعلموا أنه يبدو من المقال المشار اليه آنفا أن الاســـتاذ دى جويه مهتم بنشر هذا المخطوط . هذا ومقـــال الاصـــطخرى عن آســـيا أو بلاد ما وراء النهر (وأقصـــد هنـــا الترجمـــة التى قام بها موردتمـــان Mordtmann ليس الا نقلا هزيلا عن الأصل .

وطخارستان وزم تعتبر آجزاء مكملة لبخارى برغم وقوع أقسام منها أو وقوعها كلها على الشاطىء الأيسر لجيحون . وتؤكد أبحاثنا التاريخية فى الغالب بدورها قيام هذا الوضع ابتداء من عهد السامانيين الذين كانوا هم أنفسهم إصلا من أبناء هذا الجزء من خراسان . وهم حين استولوا على بلاد ما وراء النهر جعلوا من امارتهم ومن البلاد التى استولوا عليها ملكا موحدا . وبقي الحال كذلك حتى سقوط دولتهم . وفى عهد الغزنويين الأول : أيام محمود وابنه مسعود ، صار الشاطىء الأيسر لجيحون كله جزءا من خراسان . وبقى هذا الوضع على حاله فى عهد السلاجقة والجنكيزيين ثم التيموريين الذين استطاعوا ، بوصفهم حكاما لايران ، أن يعيدوا لخراسان حدودها القديمة دون أن يعرضوا مصالحهم للخطر . وفى عهد الشيبانيين والاشترخانيين ، وهى فترة امتدت ثلاثة قرون ، ضم الى بخارى كل شاطىء جيحون الأيسر من بدخشان الى جهار جوى . وبقيت الحال كذلك حتى حكم بيت منغيت (باستثناء فترات قليلة) . الى أن أخذ التفكك والضعف ، منذ وقت قريب ، يدب فى بلاد ما وراء النهر مما أتاح لأمير كابل أن يستحوذ على كل ملحقات بخارى موضع الخلاف هذه . ونخرج من هذا كله الى أن الحدود السياسية لبلاد ما وراء النهر يرسمها خط يمتد فى اتجاه مناطق جيحون عند خط عرض ٧١° وخط طول ٣٥° ؛ أى من بدخشان حتى شاطىء مرغاب الأيسر . وهى أرض كانت تضم فى القديم الولايات الآتية :

١ — ختلان أو وخش(١) .

٢ — أوجان أو على الأصح وجان فى الغالب .

---

(١) يبدو أن لفظ "Okus" اليونانى مشتق من لفظ وخش أو يواخش، وهو اسم ولاية ورافد من روافد جيحون Oxus . على أن البعض يحتج بأن هذا النهر الذى كان العرب يعرفونه باسم جيحون (Djihun) اسمه مشتق من اللفظ التركى القديم أوكيس Oekues أو أوجيس Oegues أى النهر ، ولا يزال أهل هذه البلاد يعرفونه كذلك باسم دريا أو آمو بمعنى النهر .

٣ — طخارستان ، وقصبتها بلخ ، وأهم مراكـزها اليوم قندز وخولم .

٤ — زم ، وتضم كركى الحديثة واندخوى وميمنة .

٥ — آمل التى عرفت من بعد ذلك باسم آموى ، وهى جهارجوى الحديثة ، ويحدها من الشرق والجنوب صحراء خوارزم(١) .

ولا يهون كذلك تحـديد التخوم الشمالية لبلاد ما وراء النهر على وجه دقيق .

ففى العصور القديمة كان اقليم أشروسنة الحالى يحد ، على ما ذكره البلخى ، بفرغانة فى الشرق ، وبكش فى الجنوب ، وبجج فى الشمال ، ثم بالصغد فى الغرب أو فى الجنوب الغربى تحقيقا . وكانت أشروسنة هى القسم الجبلى من خانية بخارى الحالية ، الذى يمتد من شرق سمر قند حتى تيان شان على أسماء مختلفة(٢) . وكانت أهم مراكزه هى بومخت ، وهى

---

(١) يجب أن يكتب هذا اللفظ (فى اللغات الاوربية) باهمال الواو ، لا باثباتها على ما يفعل مورتمان وغيره من المستشرقين ، وذلك للأسـباب الآتيـة :

ا) ينطق أهل ايران وأهل خوارزم هذا اللفـظ على الحال الذى ذكرته ، ولا مجال للقول بأنهم يخطئون فى نطق اسـم بلد من بلادهم اللهم الا اذا سلمنا فى ذلك بأن الفرنسيين أو الانجليز قد ينطقون الأسماء الألمانية أصح مما ينطقها الألمان أنفسهم .

ب) توجد فى الفارسية كلمات تهمـل واوها فى النطق مثل هـذا الاسم ، ومنها : خواه (راغب) ، خواهر (أخت) ، خـوار (حقير) .

حـ) نبه ياقوت فى معجم البلدان ج ٢ ص ٤٨٠ الى أن المقطع الأول من هذه الكلمة مفتوح الأول ، أى باهمال الواو ، أما من ناحية معنى هذا اللفظ فانى أصر على الرأى الذى سبق أن قلت به وهو أن خوارزم معناها المحارب .

(٢) أشهر هذه الأسماء هى : بتم (أسفرا القديمة) وآق تاو ، وفان، والتبا (فى الجنوب) ثم جنكر طاغ ، وسلطان حضرت طاغ ، وسوز نغيران .

العاصمة (ولا يعرف موضعها) ، ثم سبكث أوسوت (وهى سرود الحالية وتقع فى أقصى الشرق بالجبال) ، ثم ديزق (جزاق جذك الحاليـة) ، وزمين التى تقع على حدود فرغانة القديمة ، وتتاخم اليوم خانية خوقند . والى الشمال ، فيما وراء أشراسنة ، يقع اقليم جج (١) (بوادى سيحون) وفيه مدن كثيرة نجد منها اليوم جخند وبناكت وأترار وسغناق وسيرام وسربان وتراز . ولم أسمع شيئا أبدا عن ذلك السور الكبير الذى يذكر البلخى أن عبد الله بن حميد كان قد أقامه بين الجبال وسيحون ليتقى به غارات البدو فى الغالب . وبرغم أن أقدم المخطوطات الجغرافية هذا يضع هذين الاقليمين ضمن حدود بلاد ما وراء النهر فان تاريخ خضوعهما لتلك العاصمة التى تقوم على شـاطىء زرفشان (أى بخـارى) يحوطه نفس الغموض الذى يكتنف تاريخ الأقسام الأخرى التى تتبع هذا القطر فى الجنوب . والمعروف أن أشروسنة كانت تتبع بخارى على الدوام . أما جج فغالبا ما تداولتها أيد مختلفة . وفى الفترة السابقة على الفتح الاسلامى لتلك البلاد ، كان يضم شواطىء سيحون دولة مستقلة أصحابها من الترك . وقد ألحقت هذه الأراضى ببخارى أيام السامانيين فى ظل الحكم العربى هناك . واستردت هذه الامارة استقلالها أيام السلاجقة ، وبزغ بها نجم الأمير التركى قدرخان . وبقيت جج ابتداء من الغزو المغولى مثار نزاع بين الخوارزميين فى الغرب والأويغور فى الشرق . ودخل الأمير قدرخان وخلفاؤه من بعده بدورهم ، بعد وفاة جنكيز ، فى حرب شعواء مع بنى جلدتهم من الجغتائيين بسبب هـذه المنطقة نفسها . ولم يستطع تيمور نفسه أن يضم هذا الجزء من بلاد ما وراء النهر الى ملكه الا بعد معـارك دامية مع جيرانه فى ناحيتى الجنوب الشرقى أو الشمال الغربى . وتجددت تلك المعارك هناك من بعده فى وحشية زائدة . وبرغم أن الأمراء الأشداء من بين الشيبانيين والاشترخانيين كان يتم لهم الاستحواذ بعض الوقت على كل ذلك القسم من تركستان ، الذى يعرف باسم بلاد ما وراء النهر ، دون منازع ، فان ذلك لم يحل دون تعرض هـذه البلاد مرتين لتخريب المغول من أمراء القلموق والقرغيز الذين كانوا يقيمون عنـد حدودها .

(١) وهو اقليم الشاش (المترجم) .

والواقع أن وادي سيحون ، وقصبته طشقند ، قد ظلا منذ منتصف القرن الماضي حتى وقتنا هذا يخضعان فى سلام لخانية فرغانة ، وهى خانية خجند الحديثة ، فيما عدا بعض فترات عابرة .

يتضح على ضوء ما بيناه استحالة الاعتماد على تقويم البلدان فى الغالب لرسم حدود هذا الاقليم على وجه الدقة . وعلى هذا يمكننا أن نعبر عن مفهومنا لاقليم ما وراء النهر بلفظ واحد هو « بخارى » أو خانية بخارى ، وهو ما سوف نسير عليه . ذلك أن هذا القطر ، برغم أنه يشتهر باسم بخارى منذ عهد شيبانى والأوزبك ، فان شواطىء زرفشان وكافة المنطقة الممتدة جنوبا حتى جيحون وشمالا حتى صحراء قزل قم ، انما تمثل الأجزاء الوحيدة من المنطقة التى كانت على الدوام قسما من اقليم ما وراء النهر الأصلى الموحد منذ فجر التاريخ . وتشتهر المناطق الآتية فيه منذ بداية تاريخ هذه البلاد :

بخارى ، وهى حاضرة الاقليم منذ عهد السامانيين . وتشير أقدم الكتب الجغرافية الخاصة ببلاد ما وراء النهر الى أن هذه المدينة كانت أيام ازدهارها تعد أعظم مدن العالم الاسلامى كله . والبلدة الداخلية ، التى كان يحيط بها سور له سبعة أبواب ، لم تكن هى مناط شهرتها ، فذلك شأن ضواحيها وما كان يجرى فيها من القنوات العديدة وما كانت تزخر به من المنشآت الفخمة ، الى جوار ما حبتها به الطبيعة من رونق وبهاء . ولقد أشاد الرحالة العرب القدامى بذكر بساتين بخارى الفسيحة وما كان يزينها من أشجار الفاكهة القليلة بعددها الممتازة بثمارها . وناهيك بثمار البرقوق الذى تذيع شهرته منذ ألف عام حتى اليوم ، فهو أفخر ثمر من نوعه بآسيا . ولم تكن بخارى مدينة فخمة تمتاز بخصائصها الطبيعية العظيمة فحسب ، بل كانت كذلك سوقا رئيسيا تلتقى فيها تجارة الصين وآسيا الغربية ، فضلا عما كان بها من مصانع كبيرة للحرير والديباج والمنسوجات القطنية وأجود أنواع الأبسطة والمصنوعات الفضية والذهبية من كل نوع . وكانت كذلك مركزا مهما للصيرفة يستبدل فيها سكان آسيا الشرقية والغربية سكتهم بوساطة أهلها حتى لتسمع هناك الى اليوم المثل القديم « أشد يقظة من سمسار بخارى » .

وكانت أهم البلدان الأخرى هى : توائس (طواويس) على مسافة سبعة فراسخ الى الشمال الشرقى من بخارى فى طريق سمرقند . وكانت تعرف قبل الفتح العربى باسم كوت (وهو فى التركية ، السعيد أو الحظ الحسن) . وكانت موقعا حصينا . وتشتهر بسوقها السنوى الذى كان يقام لعشرة أيام كل عام ، ويزيد غدد زواره على عشرة آلاف نسمة .

وفى الجنوب تقع بيكند ، ثانى مدن بخارى التجارية ، وكان أهلها يتاجرون مع الصين فى الشرق ونواحى شاطىء البحر فى الغرب . وتقع هذه المدينة على طريق آمل ومرو وكانت تشتهر بثرائها العظيم . وفى زمن السلاجقة اهتم أرسلان خان اهتماما كبيرا بتعمير الطريق الذى يصلها بفاراب عبر الصحراء . وكان العرب قد انزلوا ببيكند الخراب الشديد فلم تستطع أن تنهض من كبوتها الا لصحوة قصيرة . ولا تزال خرائبها تشاهد حتى اليوم .

وفى الشمال تقع زندين التى تعرف اليوم باسم زندانى . وبها كان يزرع القطن ، كما كانت منسوجاتها القطنية تصدر الى كل مناطق آسيا الغربية . وقد فقدت وردانزى ورامتن ونوركل ما كان لها من أهمية وأصبحت أماكن غير ذات شأن .

وثانى هذه الولايات كانت تعرف باسم ميانكل — الاقليم الأوسط — وتقع بين بخارى وسمرقند . وتشتهر بهذا الاسم منذ أيام السامانيين ولاتزال تعرف به حتى اليوم . وأهم مدنها ، كانت ولاتزال ، كرمينية . وتقع فى بقعة خصبة. وقد ذاع صيتها فى جميع أدوار التاريخ الاسلامى . ويقال انه قد ولد بها كثير من الشعراء المبرزين وان لم يصلنا من أسمائهم شىء . والى الشمال منها تقع نور (نوراته الحالية) ، وهى مزار مقدس يحج اليه الكثيرون . والى الشرق من كرمينية تقع فرخشة التى ذكرها النرشخى لشهرة أسواقها . وفى ناحية الشمال الشرقى ، على حدود الصحراء ، قامت سرتاق ، تلك المدينة القوية ، مع حصنها الذى كان يقوم على مرتفع يطلع الناظر منه على بساتين فسيحة تحيط به ، وتتناثر بين أشجارها الدور والقصور . وعند الشمال الغربى ، فى نفس البقعة التى

تقوم فيها اليوم غجديوان على وجه التقريب ، قامت من قبل مدينة جند ، حصن خوارزم الأمامى . وهى تسيطر على كل السهوب الغربية ، ويقطنها شعب يشتغل بالصناعة والزراعة والرعى . والى الشرق منها قامت اشناس وازقند [1] وسغناق .

وثالث هذه الولايات الصغد . وموضعها المنطقة الجبلية باقليم ما وراء النهر (وتوصف بأنها امتداد لتيان شان فى ناحية الغرب) . وليست لها حدود معينة فى الشرق . ويحدها فى الغرب ميان كل وفى الجنوب كش وفى الشمال اشروسنة ، وحاضرة الاقليم سمرقند ، وهى بلا شبهة مركندا التى يذكرها الاغريق عاصمة للصغد . وهذه المدينة تنافس بخارى على مدار تاريخ بلاد ما وراء النهر . وكانت أعظم المدن فيما وراء جيحون قبل عهد السامانيين . ولكنها أخذت تفقد أهميتها منذ أن اتخذ اسماعيل (السامانى) من بخارى قصبة له ، ويقال انها استردت مقامها من جديد فى حكم الخوارزميين حتى فاقت بخارى بكثير ، لتبلغ من بعد ذلك أوجها فى حكم تيمور .

وبسقوط التيموريين أخذ نجم سمرقند فى الأفول ، لتصبح بخارى من بعد ذلك العاصمة الرسمية من جديد . ولم يكن أمراء الشيبانيين والاشترخانيين والمنغيتيون يقصدون سمرقند لغير الاصطياف ، لما كانت تشتهر به من جمال مناظرها الطبيعية . وتشير أقدم الكتب الجغرافية الى أن جمال هذه البلدة انما هو كذلك فى ضواحيها . ذلك أن حصنها الذى كان يحوطه سور قوى ، كان يكتظ بالدور المبنية بالخشب والطين الى درجة صرح معها الاصطخرى بأنه لولا وجود أشجار الصفصاف هناك لفسد الهواء فسادا شديدا . ولما كانت سمرقند ترتفع فى موقعها عن بخارى ، فقد امتازت لذلك بمناخها الصحى المنشط . وان كان مرد شهرتها هو أساسا لما يجرى من تحتها من ماء غزير — على ما توصف به الجنة عند المسلمين — فى قنوات وجداول عديدة ، تنحدر اليها من الجبال ،

---

(١) وهى غير مدينة أزقند التى تقع فى شرقى فرغانة .

التى تجاورها ، صوب السهل . ويقول البلخى ان ذلك الماء كله يرد من نهر الصغد (١) الذي ينبع من التلال التى تعلو الصاغانيان. وكان هناك خزان يقوم غير بعيد من منبع النهر ، ومنه كان يجرى المـاء الى فرجاس (تعرف أيضا ببرجاس وبورجاس) حتى السد . كذلك كان يفيض الماء فى القنوات شرقا وغربا . وكان الخزان الرئيسى أشـبه ببحيرة صغيرة تزين حافتها القرى . وكانت القنوات الرئيسية كقناة بارمش ودكش ، تجلب الخصب الى متسع من الأرض يقطعه السارى طولا فى ستة أيام . ولما كانت سمرقند لا تقع رأسـا على الطريق الرئيسى الموصل الى الهنـد ، وانما على جانب غير بعيد منه ، ولما كانت القوافل تسلك على الدوام طريق بلخ أو قارشى وبخارى أو نيشابور وآمل وبيكند ، فعلى هذا لم تكن هذه المدينة أبدا سوقا للتجارة الداخلية . وانما اشتهرت بوصفها مدينة المسرات . وقد عرف أهلها بالوسامة والنظافة والتواضع والكرم . وهذا هو ابن بطوطة ، برغم كلفه ببخارى ومزاراتها ، نراه يفضل سمرقند عليها لما صادف عليه أهلها من جميل الخلال . ومن الغريب أنهم لا يزالون حتى اليوم على ذلك . فقد لقيت بنفسى من الترحيب وحسن اللقاء فى هذه المدينة أكثر مما صادفت ببخارى . وكان المغـول قد قضوا على ما كان لسمرقند من بهاء عرفت به قبل الفتح الاسلامى وفى أيام السامانيين ، فلم يشاهد ابن بطوطة منها الا أطلالها . وما عاد لها من رونق أيام التيموريين ، لا سيما على أيدى ألغ ميرزا ، ذلك الرونق الذى أبدع بابر فى وصفه لنا بسيرته (٢) ، ما غدا أن قضى عليه جند الأوزبك الشيبانيين الأجلاف .

ومن الأماكن الأخرى التى كانت تشتهر بهذه المنطقة موضع دبوس الذى صار فيما بعد حصن دبوسى ويقع الى الغرب من طريق بخارى .

---

(١) يخطىء مسالك الممالك ، فى مخطوط فينا ، ص ١٤٣ فيذكر السند بدل الصغد (وهو من تحريف النساخ : المترجم) .

(٢) انظر بابرنامه نشر بفريدج ٤٤ ب ــ ٤٧ ب . وفيها يقول عن سمرقند : بأنه قل نظيرها فى العالم المسكون ، ويصف بساتينها ومنشآت التيموريين بها ومن ظهر بها من العلماء . كما يتحـدث عن موقعهـا ويذكر كذلك أن أحسن أصناف الورق هو ما يرد من سمرقند. هذا والمعروف أن العرب عرفوا صناعة الورق أول ما عرفوه حين فتحوا هذه المدينة (المترجم)

كما كان يقوم فى ناحية الشرق فرجاس وسرواس وفموزى ثم ربود وهى المدينة الجميلة التى بنى بها الاخشيد ، أحد أمراء سمرقند ، عدة قصور. ونذكر أخيرا سروان التى قامت وسط التلال . وبرغم قسوة مناخها فقد سكنها قوم أشداء أقوياء . وفيما وراء هذه المدينة ، وعلى مسيرة عشرة فراسخ منها ، تقع زردكرد محلة النصارى المشهورة أيام السامانيين .

ورابع هذه الولايات كش التى تعرف اليوم باسم شهرسبز (١) . وكان أغلب سكانها حتى عهد السامانيين من العرب ، من قبيلة بكر ابن وائل . وكانت مدينة حصينة لها أربعة أبواب هى :

١ — دروازه اهنين (البوابة الحديدية) .

٢ — دروازه عبد الله .

٣ — دروازه قصابان (بوابةالقصابين) .

٤ — دروازه شهرستان (بوابة المدينة) .

ومحصول الفاكهة فى هذه المدينة كان يفوق فى كثرته محصول كل أجزاء بلاد ما وراء النهر الأخرى ، وذلك لطريقة الرى الفذة التى كانوا يستخدمونها فى الغالب . على أن هذا الحال لم يمتد طويلا . ويخترقها نهران يجريان حتى وادى نخشب ، وهما نهر قصابان ونهر خوش . وكانت كش عامرة بالقرى ، ومنها ورد وبالا وبدرين ورسوم وسام ، وبها تلال كانت لها نفس الأسماء اشتهرت بأنها كانت آخر ملاذ المقنع وأوزغان وجارودان وغيرهم .

والولاية الخامسة ، وهى نخشب ، كانت على الدوام محطا رئيسيا على الطريق بين بلخ وبخارى . ولكنها كانت أقل خصبا بالقياس الى مناطق بلاد ما وراء النهر التى ذكرناها . ذلك أن الأنهار التى كانت تجرى اليها من كش ، كانت تغيض فى رمال هذه المنطقة صيفا ، فكان عماد السكان

---

(١) وبها ولد تيمور . وعنى بتعميرها حتى فكر فى اتخاذها قصبة له (المترجم) .

حتى فى شربهم على مياه الآبار . وأطلق على نخشب اسـم قارشى أى القصر ، بواسطة الأمير المغولى قبق الذى بنى فى هذا المكان قصرا عام ٧٠٨هـ ١٣١٨م فصار من بعد ذلك علما على المدينة كلها . ومن أشهر أماكنها كذلك برك وكشى (١) . والى جانب المنـاطق التى ذكرناها نذكر كذلك المناطق الواقعة عند منابع جيحون مثل وخش وختلان وجغنانيان (ويذكرها الاصطخرى باسم الصاغانيان) وكلاب ، والى الشمال الغربى منها قامت فيما بعد حصار شادمان واشتهرأمرها . ولسوء الحظ أن تكون معلوماتنا عن كل هذه المنطقة الجبلية ضئيلة مضطربة حتى لا نعرف فى عصرنا الحاضر عن جغرافيتها الا القليل . وما يمكن الجزم به فى ذلك كله هو أن ترمد أو ترمذ كانت أقدم معبر على جيحون فى طريق الهنـد . والغالب أنها كانت أيام السامانيين مدينة عامرة بها مسجد جامع (مما يدل على وفرة سكانها) وسوق كبيرة أرضها مرصوفة بالحجارة .وفقدت هذه المدينة من بعد ذلك أهميتها فى عهد المغول ، وتحولت حركة العبور عندئذ الى كيليف وخوجه سالو .

والتقسيمات السياسية لبـلاد ما وراء النهر الحالية ، التى كانت تعرف فى عهـد التيموريين باسم خانية بخـارى ، قد تعرضت للتغيـير والتبديل باستمرار منذ أيام الأوزبك . فلم يبق على حاله الا وجه الاقليم عموما . وتقوم به اليـوم الولايات الآتية ، التى تنقسم كل واحدة منها بدورها الى تومانات ، أى أقضية ، وهى :

---

(١) مما يلفت النظر أن المغـول قد تركوا فيما وراء بلاد النهـر الأصلية ــ أى عند الشاطىء الشمالى لجيحون ــ آثارا لحكمهـم هناك أكثر مما تركوا ببلاد ما وراء النهر نفسها . فالأماكن المذكورة آنفا ، بالقياس الى أسمائها ، لا بد أنها كانت أصلا مستعمرات مغولية : أندخوى التى كانت تعرف باسم أندخود (هى فى المغولية أندا ــ خود = الطوالع المتحدة) ــ وكذلك ججكتو والمار (ميمنة الحالية) بل انهم تركوا كذلك أثرا حيا منهم فى أشخاص السكان المغول الذين يقطنون التلال الواقعة الى الجنوب الشرقى من هراة (**المؤلف**) .

انظر فى ذلك H.C. von der Gabelentz. Ueber die Sprache der Hazaras Z.D.M.G. Bd XXS. 326-28 (**المترجم**)

١ — بخارى وضواحيها كضواحي بهاء الدين وشهر اسلام وميتن وميرى قلل .

٢ — قضاء بخارى ، مع بلدان وردنزى ووفقند ورامتن وونغازى وخير آباد .

٣ — ميان كل وقصبتها ، كرمينه ، مع بلدان ضياء الدين ومير خاطرجه ونور أتا وينكى كورغان .

٤ — كته كورغان مع بلدان قراسو وينجشنبه وجلك .

٥ — سمرقند مع بنجقند وقراتبه وسويود وأمقند .

٦ — حصار مع شير آباد .

٧ — شهرسبز مع حصن كتاب وجراكجى ويكى باغ .

٨ — قارشى مع فيض آباد .

٩ — لباب مع قصبتها كرخى .

١٠ — جهارجوى .

١١ — قراقول مع بتيك والجيك .

وأضيف الى هذه كلها نواحي جزاق وزمين واوراتبه ، وظلت تتبعها حتى زمن متأخر الى أن ضاعت من بخارى منذ الفتوحات الروسية الأخيرة على كل حال .

والمطلع على معالم بخارى الحديثة وأحوالها قد يميل الى الظن بأن ما كتبه الجغرافيون القدماء عنها فيه الكثير من المبالغة والوهم ، وذلك لفرط ما بات يسود بلاد ما وراء النهر كله من الانحلال ، وما غدا يخيم على مواضع الفخار السابقة فيها من البؤس والشقاء . بل ان مدينة بخارى نفسها ، العاصمةومقر الحكومة ومنتدىالعلماء ومركز التجارة والصناعة المشهور ، قد غدت من أقذر الأماكن فىكلآسيا الوسطى وأشدها عفونة . وعدد سكانها اليوم ينيف على الثلاثين ألفا ، وأغلبهم من العنصر الايرانى الذى يرد اليه الفضل فى شهرة المدينة الصناعية والتجارية . وآثار هذه المدينة ، التى تنبىء عما كان لها من فخامة وروعة فى الماضى ، لا تجدها الا

فى ابنية بعض المساجد القديمة وبقايا قصـور ترجع الى ما قبل الفتح الاسلامى. وتعد قارشى ثانية مدن خانية بخارى من حيثأهميتها التجارية والصناعية وعدد سكانها . ويليها فى الأهمية سمرقند التى تزخر بالخرائب التى تشير خصوصا الى أضرحة مئات من الأولياء . وتشتهر هذه المدينة بفواكهها ومصنوعاتها الجلدية ومنسوجاتها القطنية وما تصنعه من الحلوى ، ثم سرجها الخشبية المشغولة بالميناء . ويقـدر فيجنكو Fedjenko عدد سكانها بثلاثين ألفا وعدد مساجدها بستة وثمانين وعدد مدارسها بثلاث وعشرين وحوانيتها بستة وأربعين وثمانمائة وألف ونزلها بسبعة وعشرين ولما كانت سمرقند وكته كورغان ، حيث تصنع أحسن الأحذية فى الخانية ، قد صارت الى حوزة النفوذ الأجنبى ، فعلى هذا تعد كرمينة ثالثة مدن بخارى . وهناك ثمة أماكن أخرى قليلة لها ماتشتهر به . فمن ذلكحصار التى تشتهر بمداها الماضية الممتازة وشفرات السيوف ، ثم جهارجوى التى تشتهر بأسواق الخيول فيها ، وقراقول وبها سوق واسع يعرض فيـه الرقيق الفارسى . ونجد من بعد دلك جملة قرى صغيرة فى الشمال تمتاز بحميرها القوية الممتازة النشطة حتى لا تستطيع الحمير المصرية بآذانها الطويلة أن تصبر على منافستها .

ووجه بلاد ما وراء النهر ، وهى النصف الشـمالى من هذا المجال الذى يطلق عليه عموما اسم آسيا الوسطى ، هو فى الأصل على هيئة سهل يمتد من سلسلة التلال الشرقية التى تعتبر امتدادا لتيان شان والتى ما تكاد تصل قريبا من سمرقند حتى تأخذ فى الانخفاض الشديد لتبلغ من بعد ذلك شواطىء بحر الجرز. وباستثناء الهضاب القليلة التىتتخلله وبعض المناطق الطفلية التى يعرفها الأهلون باسم « تكير = جاف » أى الأرض الجدباء ، فان تربته تتكون أساسا من الرمال السوداء أو الصفراء . فلا يصلح للزراعة ، فى الحقيقـة ، الا منحدرات التلال وشـطآن الأنهار والقنوات . والحال فى آسيا أن الأرض حين تترك وشأنها فانها لا تنتج شيئا مذكورا . لذلك كان استمرار قيام الحروب فى منطقة بعينها لسنوات عشر ، كفيلا بأن يحول أشد أراضيها خصوبة الى صحراء جرداء . بل ان أعظم الجهود تضيع فيها هباء ، اذا ما ظهرت بها شقوق الرمال . وهذه

تكون عادة ضيقة ، وانما بعيدة الغور ، وتتخلل هذه العوائق الرملية كل المناطق الزراعية ، وتوجد حول بخارى وسمرقند . وفى الطريق الموصل بين بخارى وسمرقند يمر السائر لعدة أميال فى رمال جرداء هى صحراء ملك التى تقع فى قلب الأراضى الزراعية .

وتقول الرواية ان هذه الصحراء كانت بحيرة مالحة لثلاثمائة عام خلت . ومع هذا كله فقد كانت خصوبة أراضى بخارى وأراضى الخانيتين الأخريين مضرب المثل ، لما كانت تنتجه أرضها من ثمار متنوعة ممتازة . فبخارى تنتج الحبوب والفاكهة والقمح والحرير والخضاب،وكلها لانظير لها فى الجودة ، ويصدق القول نفسه كذلك على أنعامها . ففضلا عن خيولها التى كانت تشتهر بكل آسيا ، فان بعيرها كان يمتاز فى نوعه على كل سلالات ذلك الحيوان النافع بجنوب شرقى آسيا . وناهيك بضأنها الذى لم يكن له ضريب فى العالم كله . ومناطق التلال ، عند الشرق والجنوب من سمرقند ، غنية بالمعادن التى أهمل أمرها ولم يسع أحد من قبل الى اكتشافها . ويذكر البلخى منها الحديد والنوشادر والزئبق والصفيح والرخام والذهب والنفط والقار وزيت الزاج وضرب من الحجارة كان يستخدم فى الوقود ، ولعله هو الفحم الذى كشف عن وجوده الروس بتلك المنطقة .

وخصب اقليم بخارى ، القاحل فى أغلبه نوعا ما ، مصدره فى المحل الأول هو بلاشك ذلك النهر الذى كان يعرف أولا بنهر الصغد ثم بنهر كوهك من بعد ذلك ، وهو اليوم نهر زرفشان « ناثر الذهب » . وقد أمدنا أخيرا العالم الألمانى الدكتور رادلوف Radloff والجواب الروسى فيجنكو ببعض المعلومات عن منابع هذا النهر . ويقول فيجنكو ان هذا النهر يعرف عند منبعه فى التلال باسم نهر فان . ومنها يخرج فيتفرع الى روافد أربعة تجرى على ارتفاع سبعة آلاف قدم فوق سطح البحرلتتدفق من بعد ذلك الى السهل باسم زرفشان . ويتفرع هذا النهر عند الشمال الشرقى من سمرقند الى روافد متعددة تجرى غربا وصوب الجنوب الغربى متجهة الى اقليم السهوب . وأكبر هذه الروافد يجرى عند الشمال

الغربى من سمرقند مارا ببنجشنبه وخاطرجه حتى يصب فى بحيرة قراقول، فى حين ينتهى رافد آخر أصغر منه الى بحيرة تقع عند حدود صحراء خلطه بين خواجة أبان وقرية خاكمير . ويجرى ثانى روافد هذا النهر الكبيرة الى الجنوب الغربى من سمرقند مارا بكته كورغان وبخارى صوب الصحراء .

وماء هذا الرافد غزير جدا ، فهو يغذى عددا كبيرا من القنوات الطبيعية والصناعية . ويأتى بعد زرفشان فى الأهمية نهر شهرسبز . وهو يمتلىء بالماء فقط حتى قارشى . ولو اهتم القوم بشأنه ، ولو قليلا ، لأفاد كل المنطقة المتاخمة له فائدة عظمى . وقد دلت التجربة على أن مداومة سقى الأرض هناك لعدة سنين يكسوها بطبقة من الغرين هو سر خصوبتها . وترى الحال نفسه كذلك بالنسبة لمياه جيحون ، وان كانت بخارى نفسها لا تفيد منه فائدة تذكر ، ذلك أن شاطئه الأيمن من ترمذ الى جهارجوى غير مسكون ، اذ أنه يرتفع فى الغالب عن سطح الماء ارتفاعا ملحوظا حتى ليتعسر بذلك رى أراضيه ان لم يستحل ، والمناخ فى ذلك الاقليم يناسب الزرع ، وان كان لا يمكن أن يوصف بالاعتدال الا أنه ليس قاسيا ، وتفاوت درجات الحرارة به يمكن تصنيفه اجمالا على الوجه الآتى :

فالمناخ معتدل حتى النقطة التى يقف عندها امتداد التلال الشرقية . أما فى الأراضى المنخفضة ، ولا سيما فى مناطق السهوب ، مثل بخارى وكركى وقراقول فتتفاوت درجات الحرارة والبرودة الشديدة فيها مما يجعل الجو غير محتمل على وجه العموم . وباستثناء بخارى فالجو هناك ليس بغير صحى فى كل وقت . وانتشار الأمراض هناك تسببه العادات المرذولة وعوز الكساء أكثر مما يسببه تأثير الجو .

والحديث عن وفرة محاصيل خانية بخارى يصدق كذلك على الأقاليم المجاورة لها من ناحيتى الشرق أو الغرب على السواء . وهذا هو سر السرعة المذهلة التى تفيق فيها هذه البلاد من دمار الحروب . ويشير البلخى الى هذه الحقيقة حيث يلاحظ أن أى جيش مندحر لا يتاح له أن

يسترد قواه بسرعة كما هي الحال في بلاد ما وراء النهر . وهو يضيف الى تقريره هذا أن عدد المدن في بلاد ماوراء النهر يصل الى ثلاثمائة ألف . وهو عدد فيه مبالغة . ولا يمنع هذا القول بأن عدد سكان بلاد ما وراء النهر ، وبخارى على الخصوص ، كان في الزمن السالف أكثر منه الآن بكثير . فعند الفتح العربي كانت قبائل عربية عدة تنزل في كل مدينة ، وكانت الدور مع ذلك تتوفر للسكان حتى كان الرجل يركب لعدة أميال ، صوب الجنوب أو الشمال على السواء بين صفوف من الدور. والغالب أن الثلاثمائة والستين مسجدا ، التي لايزال البخاريون يتحدثون عنها حتى اليوم ، كانت قائمة بالفعل هناك .

وأصاب الغزو المغولي بخارى بالخراب الشديد . ولكن لم تمض بضع سنين على ذلك حتى عادت تستوعب ستة عشر ألفا من الرجال (١) فضلا عن ألف طالب علم كانوا يترددون على مدارسها ، ولما يمض ربع قرن بعد على تخريبها . واستعادت بخارى صيتها القديم في عهد الاشترخانيين ، خصوصا أيام امام قلي خان ، ولكن لفترة قصيرة . وأخذ عدد سكانها يتناقص بالتدريج بعد سقوط هذه الأسرة فلم يزد في العصور الحديثة على خمسة وثلاثين ألفا . وما يقال في ذلك عن العاصمة يصدق كذلك على الاقليم كله ولابد أن عدد سكان بلاد ماوراء النهر كان فيما سبق خمسة أو ستة أضعاف ما هو عليه اليوم ، ذلك أنه برغم تلك الجيوش العظيمة التي ظلت منذ قيام الخلافة تتدفق ، دون انقطاع في الغالب ، صوب غرب آسيا حتى وادي النيل ، ومنها ما كان من المرتزقة ، ومنها ما كان قوات غازية مستديمة ، وهذه جميعا كانت تجلب من مناطق السهوب هناك، فان شوطىء جيحون وسيحون كان لها بدورها قواتها . وهذه جميعا لا يمكن

---

(١) يتحدث وصاف ، الذي نقلنا عنه ، عن السكان عموما . على أننا يجب أن ندخل في اعتبارنا أن الاحصاءات الشرقية من هذا النوع انما تشير الى عدد الرجال القادرين على حمل السلاح ، اذ لا يلتفت فيها أبدا الى عد النساء والأطفال (الأهل والعيال) .

بطبيعة الحال أن تتوافر الا فى اقليم مكتظ بالسكان . وأغلب سكان بلاد ما وراء النهر كانوا من الايرانيين . وكانت الفارسية هى اللغة السائدة فى بخارى وفرغانة وخوارزم ابان حكم العرب والسامانيين والسلاجقة والأمراء الخوارزميين حتى زمن الغزو المغولى ، وحلت محلها التركية هناك من بعد ذلك كما سنرى . وكما تغيرت اللغة فكذلك تبدل كثير من عادات السكان هناك الى درجة كبيرة . ولطالما أشاد الجغرافيون العرب الأوائل بما كان عليه الأهلون من رجحان العقل والصراحة والسخاء وحسن الضيافة . ولم يبق لهم اليوم من ذلك كله الا الصفة الأخيرة التى لا تزال فاشية فى الريف دون المدن ، فى حين لاتجد أثرا للصفات الأخرى فى أى مكان . ولقد ظلت موجات العناصر التورانية تتدفق على بلاد ما وراء النهر أجيالا مما عرض أحوالها الاجتماعية والسياسية لهزات عنيفة . ولم ينتج عن عنف الغزو مجرد جدب وديانها المزدهرة — كما يحدث فى كل مكان — بل أدى ذلك أيضا الى القضاء على كثير من الصفات الانسانية النبيلة بها .

الفصل الأول
عصر ما قبل الاسلام

بينما أزاحت أغلب أقاليم آسيا النقاب عن بداية تاريخها وكشفت عنه وسط ضباب الأساطير والخرافات الداكن الذى كان يكتنفه ، ترى بخارى تربط مبدأ قيامها كدولة بقصة خرافية لا يستبعد احتمال وقوعها بالقياس الى ما لأرضها من مميزات طبيعية . وهذه القصة تجرى على الوجه الآتى :

« كانت بخارى فى القديم خواء تسودها البرك والمستنقعات (١) وفيها الغاب والأحراش . أماأنهارها وغدرانها فكانت تغطيها ثلوج سلسلة الجبال الشرقية التى تجاور سمرقند الحالية ، وتفيض كل عام على أراضى الاقليم الواطئة ، ولم تكن هذه الأراضى تصلح للزراعة وانما كانت أكثر نفعا للصيادين والسماكين .

« حتى قدم اليها من تركستان البعيدة الصيادون فاتخذوا من أرضها شيئا فشيئا مقاما لهم ، ومهدوا بذلك لقيام قرى تركمرود وبروانه واسوانه

---

(١) هذه المستنقعات والبحيرات كانت تمتد صوب الجنوب الغربى فيما وراء بركنتى فرخ القديمة وقراقول الحالية . والظاهر أنها كانت تمتد لمسافة عشرين فرسخا طولا وتشتهر عن كافة اجزاء خراسان الأخرى بغزارة أسماكها وطيورها المائية . بل لقد كان القوم يقبلون عليها أيام جنكيز خان ليصيدوا البجع بها ، وقد بعث جغتاى واوكتاى ، الى أبيهما جنكيز خان ذات مرة بخمسين حمل بعير من هذه الطيور المائية هدية له ، وكان ذلك من محصول فصل واحد . ولا تزال بحيرة قراقول تزخر حتى اليوم بالأسماك .

ونور (١) . واختار هؤلاء من بينهم أميرا ونوه عليهم، وكان يدعى ابرزى فسكن بيكند ، أى مدينة الأمير . ذلك أن بخارى حاضرة الملك الحالية لم تكن قد قامت بعد . وأمعن أبرزى هذا فى الاستبداد شيئا فشيئا بازدياد سلطانه حتى اضطرت الطبقات الغنية ، بسبب عسـفه ، الى الفرار الى الأقسام الشمالية من الاقليم التركى حيث بنوا مدينة جموكيت أوجكنت ، ومعناها فى لسان تلك الأيام « المدينة الطيبة الجميلة » (٢) أما الطبقة الفقيرة فحين شعرت بعجزها عن الوقوف فى وجه هذا الأمير المستبد ، استعدت عليه الأمير التركى صاحب البلاد التى تجـاوز أرضهم ، وكان يدعى قراجورين ، فسير اليهم جيشا وعليه ابنه شيركشور . فأوقع أبرزى فى أسره ووضعه فى كيس ملىء بالأشواك انطلقوا يدحرجونه حتى أسلم الروح .

« وبعد الخلاص من هذا الظـالم استدعى شيركشور الأثرياء من منفاهم وسمح لهم بأن يجعلوا من أنفسهم طبقة من النبلاء عرفت باسـم « خـُدات » ، فى حين صار الفقراء الذين بقوا هناك هم الرعية . ويقال ان شيركشور حـكم قرابة ثلاثين عاما . وخلفـه من بعده أمير يدعى سكجكت (؟) ينسب اليه تعمير مدينتى رامتن وفراخشه بالمنشـآت ، وحين أتى هذا الأمير بخطيبته ابنة امبراطور الصين ، أودعت هذه الأميرة فى مدينة رامتن الأوثان التى كانت قد أتت بها مما كان يخصها » .

والمرجع التاريخى (٣) الذى نقلنا عنه ذلك ، يمضى فى روايته فيقول

---

(١) يصعب تحقيق هذه الأسماء والأعلام عند النرشخى بسبب رداءة خط المخطوط .

(٢) جمكنت هو حتى اليوم اسم مكان غير مشهور بسيحون الأدنى ، ويرد هذا الاسم علما على بخارى فى فصل آخر عند النرشخى . ويرجح العلامة شبيجل Fr. Spiegel ، وذلك فى رسالة تفضل بكتابتهـا الى ، أن هذه الكلمه هى بعينها هزوارشى جم كنت = (التى صنعها جم) . ويعلق على ذلك فى الوقت نفسه بأن جم كوت ، وفق رواية أبى الفدا ، وهى التى تكتب فى السنسكريتية « ياماكوتا » كانت تعتبر أقصى الحدود الشرقيـة للعالم المسكون .

(٣) النرشخى .

بأن حاكم بخارى ، الذى كان يعاصر ظهور الاسلام،كان يدعى «بندون» وقد خلد ذكره بتجديد القلعة التى أقامها افراسياب ، أوسياوش (١) فى رواية أخرى . وحفر اسمه على لوحة حديدية ثبتت بأعلى بوابة القلعة . وقد شاهد هذا الأثر صاحب مرجعنا هذا ، بعد مرور خمسمائة عام على اقامته . وكانت يد الخراب قد امتدت اليه والى القلعة على السواء .

وتقول الأسطورة : ان القلعة انهارت عدة مرات وبندون قائم على بنائها دون سبب ظاهر . وحين استشار الحكماء فى هذا الأمر آشاروا عليه باقامة أساطين حجرية سبعة ترمز الى السيارات السبع . ومن ثم استقامت القلعة ورست ، ولم يهاجمها ملك من بعد ذلك الا وهلك عند أسوارها .

وترك بندون من بعده ولدا يدعى طغشاد ، وكان حدثا ، فانفردت بشئون الملك زوجته التى يدعوها مصدرنا «خاتون» (٢) . ويقال ان حكمها استمر خمسين عاما ظهر العرب أثناءها بهذه الديار . وذاع صيت هذه السيدة لحكمتها واجلال الناس لها . وكانت تغادر حصنها كل يوم بعد الشروق فتقصد بوابة ريغستان — التى صارت تعرف فيما بعد بسوق العلافين — فتجلس فوق عرش ومن حولها رجال البلاط والأعيان وتقيم العدل بين الناس . وكان يقوم على حراستها فى الحضرة كل يوم مائتا شاب يتمنطقون بالذهب ومعهم سيوفهم الذهبية كذلك . وكانوا يستبدلون بغيرهم فى كل يوم . وعلى هذا الوضع كانت تتيح لكل قبيلة أن تشترك فى أداء هذا الواجب أربع مرات كل عام (٣) . وبهذه السيدة انتهى الحكم

---

١) تقول الأسطورة ان سياوش بن كيكاوس هرب من ايران عبر جيحون فجاء بخارى حيث أكرم افراسياب وفادته وزوجه من ابنته . وأراد سياوش أن يترك من ورائه أثرا فأقام مدينة بخارى . وقيل ان منشىء هذه المدينة هو أفراسياب نفسه .

(٢) يقول أغلب أصحاب المعاجم ان خاتون كلمة فارسية . وفى رأيى انها لفظة تركية مستمدة من الأصل « خت » بمعنى الخلط والادغام .

(٣) لا بد أن كان بامارة بخارى على ذلك تسعون قبيلة ، وبعبارة أدق تسعون من الأسر المرموقة فى الغالب .

الفعلي لأول أسرة حاكمة فى بخارى . فقد حفظ الحكم الاسلامى على من بقى من أعضائها ألقاب الامارة دون النفوذ والسلطان .

واحتفظ طغشاد باستقلاله الى حد ما مدى ثلاثين عاما نظير اعتناقه الاسلام . وقد اشتبك فى حروب مع الترك ، وعلى الخصوص مع من كان يدعى وروان أو دردان . والغالب أنه شن هذه الحروب بتحريض من العرب الذين ثبتوا ابنه على العرش من بعده تكريما له . وكان قد سمى ابنه هذا قتيبة تيمنا باسم القائد العربي المعروف . وحكم قتيبة هذا فى الوقت الذى كان يقوم فيه أبو مسلم في خراسان . ولم يبد منه أى ولاء حقيقى لا للعرب ولا لدينهم على السواء بخلاف ما كان عليه أبوه من قبل . وكان يتظاهر بالاسلام ليمارس طقوس المجوس من بعد ذلك فى الخفاء حتى قتل بالزندقة بأمر أبى مسلم عام ١٦٦ (٧٨٢) وأجلس مكانه ابنه ننات أو بنيات وكان يتظاهر بدوره بالتمسك بالاسلام ، وما لبث أن جهر من بعد ذلك بدينه القديم حتى أصبح من أعظم أنصار « المقنع » النبى المزعوم الذى سنتحدث عنه فيما بعد بالتفصيل . وحين بلغ الخليفة المهدى أمره أمر أن تسير اليه كوكبة من الفرسان فتباغته بداره فى فرخشة وتقطعه اربا . ولا يصل الينا من بعد هذا الحادث شيء يذكر عن هذه الأسرة الحاكمة القديمة فى بخارى . وآخر من ورد ذكرهم من أمراء هذا البيت هو أمير يدعى أبو اسحق (١) وذلك بمناسبة بيعه ضيعة كانت له الى اسماعيل السامانى على جعل سنوى يدفع له قدره عشرون ألف درهم . ومات هذا الأمير عام ٣٠١ (٩٠٤) ، وعاش أبناؤه من بعده فى بؤس وشقاء (٢) .

---

(١) يقال انه كان حفيدا لنينات أو بينيات .

(٢) كان أحمد بن الليث يرى فى مجرد السلطة الاسمية التى كان يمارسها وريث أسرة بخارى القديمه شوكة فى جنبه حتى سأل اسماعيل عن سر الاحتفاظ به . وبينما كان الأمير السامانى الكبير يجادل عامله فى ذلك ، قدم اليهما أبو اسحاق بنفسه ، هنالك سأله اسماعيل عن مقدار ما تغله أرضه كل عام . وحين أجابه بأنه يحصل منهـا على عشرين ألف درهم بشق النفس تعهد له بأن يدفع له هذا المبلغ كمعـاش سنوى فبان عليه البشر وقبل العرض مسرورا ..

والى هذا البيان التاريخى ، الذى لا يبـدو بحال ما تافهـا برغم ضآلته ، نضيف ملاحظـة تعيننا ، هى وما ينبثق من أضواء خافتـة هنا وهناك ، على الالمام بعض الشىء بحقبة ما قبل الاسلام ببلاد ما وراء النهر . فقـد قام لدينـا الدليل ، بالمحـل الأول ، فى أقدم آثار الفرس ، وهو الونديداد ، بأن الأراضى التى تقع على الجانب المقابل من جيحون سكنها فى عصر ما قبل التاريخ أناس ينحدرون من أصول ايرانية خالصة .

والفصل الأول من الونديداد ، الخاص بالتكوين ، والذى تناوله كثير من العلماء فى العصور الحديثة بالشرح والتعليق يتناول ستة عشر مكانا ظهرت فى الوجود بقوة أهورامزدا . فنجد هناك تحت رقم ٢ : كاو مع صغدا ، وهو الصغد أو صغدية الحديثة . ونجد ٣ : مورو وهو مرو المعروفة من قديم . ٤ : نجدى وهو بكتريا . ٥ : نسايو وهو نسا بكسر النون أو امالتها (١) . ٦ : هرويو وهو هرى أو هراة . ٩ : ورخانه وهى هيركانه (٢) ، ثم ١٦ : راغه الشرقية والمعتقد أنها جيحون (٣) .

وبرغم أن دراسة هذه القائمة المهمة وتحقيق ما بها من أسماء المواضع يفتح المجال لآراء كثيرة ، الا أنه من الثابت أن الباحث الذى يريد أن

---

(١) من رأى شبيجل فى مجلة اخبار ايران القديمة (Iranische Altertumkunde I94) أن هذا المكان لا وجود له الآن . ويذكر كذلك أنه كان يقع بين مرو وبخـدى ، وقد يلتمس كذلك بالقرب من اندخوى وشبورغان وميمنة .

(٢) أخذت بما قررته مراجع وثيقة بأن ورخانه هى هيركانه . وكان فى خاطرى أن ورخانه لا بد وأن تكون هى فرغانة ، وذلك على أساس أنى أعد كلمة هيركانه بدورها من أصل تركى . وهيركانه هى تحريف يونانى للفظ كوركن أو كورغن وهو نهر يجرى فى جبال الكرد ويصب فى بحـر الخزر . وكلمة كورغن هى جرجان (اسم مدينـة وولاية) عند العرب . ولا يزال التركمان يعرفون أطلالها حتى اليوم باسم كورغن ، وهناك أيضا برية كورغن جولو ، وتعرف كذلك الأراضى التى تقع عند حدود هذه البرية باسم كورغنج وهو الاسم الذى تعرف به خوارزم ــ خيوه الحديثـة ــ فى أقدم المخطوطات الجغرافية .

(٣) يعين خانيـكوف (Khanikoff, Mémoire sur l'ethnographie de la Perse. P. 37) هذا المكان عند درجة ١٦ درجة الى الشرق من راغه نقلا عن شبيجل (Spiegel. Iranische Altertuemer p. 195) فى حين يجعل شبيجل نفسه هذا الموضع تحت رقم ١٢ ولا يقول عنه بأنه سيحون بل يراه نهر رها فى ميديا .

يتقصى نشأة الثقافة الايرانية لن يبلغ غايته فى جنوب ايران الحديثة وغربها حيث تجذب أنظاره الآثار والنقوش المسمارية ، بل عليه أن يلتمسها فى شرق تلك البلاد وشمالها الشرقى . وكان الاغريق قد سمعوا عن قيام الحياة المتحضرة بآسيا الوسطى ، وبقيام دولة قوية هناك كذلك ، وذلك قبل زحف الاسكندر بزمن طويل . ولعلهم كانوا قد علموا بذلك كله فى بلاط الاكمينيين (١) . وفى بكتريا ظهر زرادشت بدينه الجديد بعد أن رفضت أن تستجيب له ولاية أتروباتنه ، آذربيجان الحديثة ، موطنه . ومن هذا الاقليم ذى الألف مدينة ، كما يسميه چستين Gust'n ، نفذت عبادة النار الى الصغد وخوارزم وانتشرت فيهما . ومن معبد نوبهار المشهور ، الذى يذكر المقدسى أن أسرة البرامكة كانت تقوم بالسدانة فيه قبل هجرتها الى بغداد ، حملت أنوار المذهب الجديد الى فارس القديمة وميديا . وهكذا نجد مهد الملحمة التى تؤرخ ايران القديمة — وهى التى شرع فيها حمزة الأصفهانى والدقيقى وأتمهـا من بعـد ذلك الفردوسى الشاعر الفذ — لا فى الغرب والجنوب وانمـا فى المنـاطق الشرقية من ايران الحديثة .

وما ورد عن الحروب مع توران وأفراسياب أقوى أمرائها ، ليس له فى الواقع من الناحية التاريخية الا قيمة يسيرة . على أن علم السلالات البشرية انما يجد شواهد مهمة فيما ورد فى « كتاب الملوك » من تفصيلات عن اللغة والرسوم والعـادات وعن هيئـة أعداء ايران ومظهرهم . وهى صورة قد نطمئن الى ما تجمله لنا من مقومات الحياة القديمة فى ايران . وقدم الحضارة البعيد فى هذه الأمصار يؤكده لنا بطريقة حاسمة الكاتب العربى أبو الريحان البيرونى ، أحد أبناء آسيا الوسطى والباحث الناقد الوحيد فى تاريخ آسيا الوسطى القديم . وهو يتحدث الينا ، فيما يتحدث ، عن التقويم الخوارزمى القديم الذى كان يراه أدق من تقويمى الاغريق والعرب على السواء . ويعطينا كذلك بيانا عن اللهجة القديمـة للصغد.

---

(١) انظر مقال بتوقيع مستعار لراولنسون Sir. Henry Rawlinson, Quarterly Review, 1868 p. 488.

ولخوارزم ، وذلك حين يربط بين أسماء الشهور الاثنى عشر والأيام الثلاثين لكل شهر وعلامات منطقة البروج — وهو جدول علمى فى أغلبه بلغة الزند وصورته فى ذلك أدق بكثير مما يحتفظ به البارسيون . كذلك نراه يتحدث عن النقوش الخوارزمية التى قيل ان غزاة هـذا الاقليم الأولين من العرب قد عنوا بالاطلاع عليها (١) .

وهذه جميعا كانت فى الغالب مكتوبة بلغة الزند ، وهى لغة عاشت بالأرجح على ضفاف جيحون أكثر مما عاشت بايران . ولم يأت القرن الثانى الهجرى حتى كانت هذه اللغة القديمة وأبجديتها بمنطقة جيحون قد عفى عليها النسيان . ونحن نسمع عن نقشين غامضين لم يصل أحد الى حل رموزهما ، وهما يرجعان الى عصر ما قبل الاسلام . ويرجح أنهما كتبا بلغة الزند أو بلغة بكتريا بالى . وأحد هـذين النقشين كان يقوم على بوابة سمرقند المصفحة بالحديد . وحين دمرها الحريق ضاع معها هذا الأثر . أما النقش الثانى فيقول النرشخى بأنه كان يعلو مدخل القصر الملكى القديم فى ريغستان ببخارى . ويحتمل أنه كان يحوى أكثر من مجرد ذكر اسم مؤسس القصر كما يشير هذا الكاتب . وأيا ما كان شأن هذه الاستنتاجات، فالثابت أن لهجة آسيا الوسطى الفارسية الحديثة تحوى من بقايا الفارسية القديمة ، قبل أن تتسرب اليها العناصر السامية والتورانية ، أكثر مما تحويه اللهجات الفارسية الأخرى مجتمعة ، وذلك رغم أن أصحاب اللهجة الأولى لبثوا قرونا عديدة على اتصال وثيق بالغالبية التورانية صاحبة السلطان هناك . فى حين لم يكن غيرهم من أصحاب اللهجات الفارسية الأخرى فى أقصى الجنوب يتصلون بجيرانهم من الساميين الا لماما ٢ .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩١ .

(٢) ان لهجة آسيا الوسطى التى يتحدث بها التاجيك لم تلق اهتماما يذكر من اللغويين الايرانيين . ولهـذه اللهجة خصائص كثيرة فى تراكيبها اللغوية والفاظها على السواء تذكرنا بلغة الفردوسى . والضمير والفعل فيها على الملاحظ ، نجد أثر التركيـة فيهما دون اثرها فى الفارسـية الحديثة بكثير .

حين نقارن بين ملامح الايرانيين الشرقيين الطبيعية وملامح الايرانيين الغربيين نجد التقارب ووجه الشبه بينهما ظاهرا . فسحن التاجيك الغلجا والوخانيين والجمشيديين والبراسوانيين قوام سكان ايران الشرقية ، تجد عندهم من ملامح الجنس الايرانى أكثر مما تجد فى النقوش التى تصور سحن العصر الساسانى(١) .

وما يقوله العلامة الجغرافى خانيكوف من أن مجال الشعب الايرانى الأول هو فى الوديان الخصبة بين الهندكوش وسلسلة جبال بغمان وكوه بابا ، مقبول حين نمد مهد الشعب الايرانى ، المفروض هذا ، حتى المناطق الخصبة بشواطىء كوهك أو زرفشان . أما الطريقة التى انتشر بها الجنس الايرانى من المناطق سالفة الذكر هذه صوب الجنوب والغرب فهو موضوع دراسة يخرج عن دائرة بحثنا . فما يعنينا هو أن نقف على مدى انتشار عناصر بلاد ما وراء النهر الايرانية صوب الشمال وصوب الشرق . ولئن كنا لا نجد لنا من معين فى سعينا هذا الا مجرد جدول جغرافى ، فانما نستمد من أسماء الأشخاص عونا قيما بدورها حين ندخل فى اعتبارنا أن السكان المتحضرين الذين سكنوا الجانب الأقصى من جيحون كانوا دائما من الايرانيين .

وأقدم المستعمرات هناك كانت تلك الرقعة من الأرض التى تمتد من اخسيكت القديمة عند حدود فرغانة الشرقية حتى بخارى . وهذه الرقعة التى تضم أغلب أراضى بلاد ما وراء النهر الخصبة تتخللها أنهار وقنوات طبيعية وصناعية عديدة . ونجد عند البلخى ، فى مخطوطه الجغرافى ، بيانا بأسماء جبالها وغدرانها وأنهارها فضلا عن مدنها ونواحيها وقراها . وجميع هذه الأسماء فارسية قديمة فى أصلها . وحال دون انتشار الحضارة من هذا المركز الى ما بعد بخارى غربا تلك الكثبان الرملية عند خوجه أبان التى تعد امتدادا لصحراء خلطه . وظهرت قراقول (البحيرة

---

(١) انظر فى ذلك بحث خانيكوف القيم الذى سبقت الاشارة اليه . وهو يرى فى التاجيك أنقى صفات الجنس ، فى حين يرى راولنس أن هذه لا تتوفر الا عند الوخانيين سكان بدخشان الذين لا يزالون على الفطرة . أما فى آسيا الوسطى فان الغلجا هم أقدم العناصر الفارسية (الايرانية) بالبلاد .

السوداء) وكذلك بيكند (مدينـــة الأمير) من بعـــد كما ينبىء بذلك اسماهما التركيان . وانتشرت حضارتهما صوب الشمال فيما وراء خجند (خوش جند أو خوب جند = المدينة الجميلة ؟) حتى شاش (وهذا الاسم هو من أسماء سيحون كما يعرف به كذلك احدى المدن التى تقع على شاطئه) وبناكت (بكسر الباء أو امالتها ، وهذا الاسم هو ، على ما يحتمل مشتق من كلمتى بناه كت ، أى الملجأ والملاذ) ، فى حين انتشرت هذه الحضارة فى الشرق ببعض وديان الجبال الشامخة . ولا مراء فى أن ختن وترفان وغيرها من أســـماء الأماكن الأخرى انمـــا تشير الى قيـــام المستعمرات الأولى هناك (١) .

كان الايرانيون ، وهم الكلفون بالمدنية بطبعهم ، يستقرون ماوسعتهم الأرض بامكانياتها وبعد عنهم خطر غارات التورانيين حدا ما . وأيا ما كان من ميل القوم الغريزى الى ممارسة الحرف والفنون الجميلة أو من تأثرهم بجيرانهم الصينيين أصحاب الابداع ، فالثابت المعروف أن تجارة الحرير ، التى كانت تقوم بين امبراطورية الصين وروميه أيام القيصر أغسطس، قد وجدت بين أبناء آسيا الوسطى من يقبل على الاشتغال بهـــا فى غـــيرة وجد ، ولم يكن هؤلاء من التورانيين على وجه اليقين . ويروى النرشخى أن تجار بيكند كانوا هم الوسطاء بين الصين والبحر الغربى (قزوين) [٢] وتقول المصادر البيزنطية ان أهل بخارى وصغـــديا كانوا فى القرنـــين الخامس والســـادس الميلاديين يسيرون بقـــوافل الحرير العظيمـــة عبر

---

(١) يرى آبل رموسات ، Abel Remusat, Hist de la Ville Khoten أن لفظ ختن هو تحريف للفظ السنسكريتى كو ــ ستانا ، أى صدر الأرض . ويرى أهل آسيا الوسطى أنه مشتق من اللفظ الفـــارسى « خوب تن » أى الجسد الجميل ، يشيرون بذلك الى عرق الرجال الوسماء ونتج عن اتصال هذا العرق الوثيق بكشمير أن صـــارت مدن ختن تتميز بطابعها الخاص على مدن تركستان الشرقية الأخرى .

(٢) لا أجزم بأنه هو بحر قزوين برغم ذكرى له ، ولا يبعد كذلك أن يكون المقصود هنا بحر آرال ، ذلك أن مخطوط البلخى فى القرن الثـــالث الهجرى يذكر أن بحر خوارزم ، أى بحر آرال ، كان متصلا ببحر الخزر، أى قزوين .

الامبراطورية الساسانية الى شرق بلاد الامبراطورية الرومانية . وحين شق العرب من بعد ذلك طريقهم عبر جيحون ، وجدوا هنـــاك نشاطا صناعيا وزراعيا مهما . والثابت المعروف أننا لم نعثر على آثار مثل آثار برسبوليس وسوس أو كتابات مسمارية تدل فى جلاء على ماكان لآسيا الوسطى من حضارة قديمة .

وليس لنا أن ننسى أن المدنية الايرانية قد تعرضت منـــذ العصور الأولى لغارات التورانيين فيما وراء جيحون . ففى الوقت الذى أقام فيه الايرانيون مدنهم على ضفاف جيحون وسيحون واستقروا فيها ، كان بدو التورانيين فى ذياك الوقت البعيد يتجولون ، على وجه اليقين ، فى مناطق السهوب المجاورة لها .

وليس ثمـــة دليل نستدل به على الوقت الذى بدأت فيـــه غارات التورانيين الأولى على المناطق الزراعية ببلاد ما وراء النهر . وقد تأكد سلطانهم واستقرارهم هناك ابان الاحتلال المغولى لتلك البلاد . وما نعلمه عن عرق هؤلاء البدو الذين كانوا يتجولون على حدود السهوب قليل ، اذ كانوا يعرفون بالغز حينا عند الشمال من سيحون وحينا آخر عنـــد الشمال من جيحون . ويذكر البلخى كذلك فى تقويمه أن البـــدو عند الشمال من جاج ، آخر مناطق الحضارة والاسلام ، كانوا يعرفون بالغز ، فى حين ظلت المصادر الفارسية لعدة قرون متأخرة تعرف بالغز بدو الترك الذين أسروا السلطان سنجر بالقرب من أندخوى الحديثة . ولا نلمس الا قدرا ضـــئيلا من الصـــواب فى القول بأن الترك كانوا قد انطلقوا عام ٧٠٠ ق.م (١) عبر جيحون ، وهو الحد القـــديم الذى كان يفصل بين ايران وتوران ، فبلغوا حدود الهند .

---

(١) يقول راولنسن فى مقاله الذى أشرنا اليه من قبل « فى هـــذا الكفاية لبيان أنه على مدى ألف عام فيما بين عام ٧٠٠ ق.م ، وعام ٣٠٠ م تدفق من سيحون قبائل من السيث ، تنتمى الى نفس العرق الذى ينتمى اليه قبائل الروس والفينين واللاب والمجر والاوربيين ، فاجتاحت مناطق آسيا الغربية ، وبلغ فريق منها الهند فى حين سار فريق آخر منها الى ســـــوريا وآسيا الصغرى » . ولا أعارض هذا القول من حيث الناحيـــة التاريخية =

وما وصلنا بعد ذلك من أخبار السيئ المعاصرين للرومان والسكا المعاصرين للاغريق ثم الهياطلة أو الهون البيض الذين كانوا يعاصرون

=ولكنى أجد أدلته اللغوية ضعيفة متخاذلة . فما أورده هذا المؤلف على أنه كشف للكتابات التورانية هو موضع شك بالغ . ولا مناص لى من أن أعلن بكل صراحة أنى لم أجد الا قليلا جدا من التورانية فيما اكتشفه أوبرن ونوريس ومورتمان Uppert, Noris and Mordtmann. وقالوا عنه بأنه ألفاظ تورانية . وما تحت يدى فى هذه اللحظة مما كتبه هؤلاء هو فقط بحث عن نقوش مسمارية من الطبقة الثانية نشره مورتمان فى المجلد الرابع من مجلة المستشرقين الالمانية Zeitschrift der deutschen morgenlaendischen Gesellschaft وسأورد هنا الشواهد التى احتج بها على تماثل الألفاظ التورانية وتشابهها لأقيم بذلك الدليل على مدى سطحية هذه النظرية كلها عنده ، وأن هذا المشتغل باللغويات الايرانية هو غير متمكن من فقه اللغة التورانية، فهو فى ص ٩ يقارن كلمة انجو = فرس بالكلمة التركية تنكيز . فلماذا لا يقارنها باللفظة التركية اتكين = البحر المفتوح . أو لعل السيد مورتمان قد اكتشف أن الكلمة الأخيرة مشتقة من اللفظ التركى القديم « آنجا » بمعنى الاتساع أو الامتداد . قارن انيرا = أن يرغب بالكلمة التركيه أوينامق ، وهو لسوء الطالع ليس معناها « أن يرغب » بل « أن يقنع » . وفى ص ١٥ يقارن كلمة أرتك = قاطن بالكلمة التركية أوتورمق = أن يسكن والأصح « أولتورمق » = أن يجلس . فهل أراد بذلك أن يقارن الأصل « آرت » بالأصل « اولتور » . وفى ص ١٨ يقارن انزاكا = واسع مع الكلمية التركية أوروزن = طويل فلماذا لا يقارنها مع كلمة « اجق » = مفتوح، عريض ، ويقارن كذلك كلمة اوراس = القلعة بالكلمة المجرية Var = الحصن ، والكلمة التركية « واروش » = بلدة . ولا حاجة بنا الى القول بأن اللفظ الأول مشتق من اللفظ الفارسى « بارو » ومعناها الخزان أو المتراس ، وأن الكلمه الثانية هى لفظ مجرى أصيل نقله العثمانيون عن المجريين حين كانوا يتزلون على ضفاف الدانوب . ويقارن كذلك فى ص ٢١ اويدووا = أن يفور بالكلمة التركية « طوتمق » = أن يمسك . وفى ص ٢٤ يقارن جت باللفظة التركية كوترمك . ولعل السيد مورتمان قد نسى أن هذه اللفظة معناها أساسا « أن يحمل أو أن يرفع » وانها ترتبط أساسا بكلمة « كوج » الحمل . أما كلمة « كتورمك » = أن يحضر فهى لا تفى بالغرض ذلك لأن الصيغة الأصلية هي كولترمك = أن يؤدى للمجىء . وفى ص ٢٥ نقارن ا = نهر باللفظة التركية « ايرمق » . ومن اللطيف كذلك مقارنته اللفظة التركية أياق = القدم مع ياجى ، ويج ، ياكى = عدو . والمعروف أن هذه الكلمات مشتقة من أصلين مختلفين تمام الاختلاف . فالأصل « أى » يدل على الفتح أو الشق فى حين يدل «ياو» و «ياك» على معنى «الشقى أو التعس» ولبيان بقايا الألفاظ المتخلفة من عصور قبل التاريخ ، ينبغى على الباحث ألا يرجع فى ذلك الى اللغة التركية أو أى لهجة من لهجات الترك الحديثة ، بل يطلع على قوتد قوبيليق (أقدم كتاب كتبه الترك بعد اسلامهم الجماعى : المترجم) ، وحتى هذا الأخير لا يزيد عمره على تسعمائة عام فى الغالب .

البيزنطيين ، ومن أخبار يوى — جى الصين كذلك ، نجد فيه جميعا كثيرا مما يؤيد صحته . ذلك أن الترك الذين تدفقوا فى القرن الثانى قبل الميلاد على بكتريا ، وكانوا يعرفون باسم أو آخر من تلك الأسماء التى كانت تطلق عليهم ، كانوا قد أقاموا لهم دولة ، على أنقاض دولة بكتريا الاغريقية ، ظلت قائمة حتى منتصف القرن السادس الميلادى على مايرويه رينو Reinaud.(١) . ونجد ما يؤيد هذه الدعوى فى وجود كلمة بلخ ، بفتح الباء أو امالتها ، فضلا عن الشواهد التى نجدها فى أسماء الملوك على سكة بكتريا .

وبلخ هذه ليست الا بالق أو بالخ التركية القديمة ، ومعناها المدينة أو العاصمة . وهو الاسم الذى كان يطلقه الترك على مقر أميرهم . وفعل المغول مثل ذلكمن بعد ذلك بعدة قرون فكانوا يعرفون مقر خانهمالأعظم باسم خان بالق (وهى التى يعرفها الأوربيون باسم Cambalec, Kambalu. يقصدون بذلك مدينة الخان .

وثمة دليل آخر على وجود العناصر التورانية منذ عصر مبكر عند الجنوب من جيحون نجده عند الجغرافيين العرب الأوائل الذين يقولون بأن تركا من قبيلة خلج (٢) (والأصح خلجى أو خلج=سيف) سكنوا فى أزمان متقدمة على شواطىء هلمند . ولعلهم كانوا من بقايا السكا الذين أطلق اسمهم على سكستان أو سجستان ، وهى سيستان الحالية .

وكذلك نجد على الشاطىء الآخر لسيحون دليلا آخر على وجود العناصر التركية فى زمن مبكر هناك وذلك فى تسمية العاصمة بخارى ، ذلك اللفظ الذى لا يقوم أدنى شك فى أصله التورانى . ونظيره كذلك

---

(١) Relations politiques et commerciales de l'Empire romain avec l'Asie orientale. Paris 1863, P227.

(٢) ذكروا باسم خلج بتعميم الكسر والأصح تعميم الفتح وعلى هذا قد تقارن هذه الكلمة بالكلمة التركية « قلج » أى السيف (المؤلف) . وينسب اليهم بعض المؤرخين بيت الخلجيين الذى حكم بالهند فى القرنين السابع والثامن الهجريين وكان لأصحابه فتوحات عظيمة هناك (المترجم) .

كلمة بيقند (بيــكند) التى ذكرناها من قبــل . وآمو الذى يعرف به الأهلون جيحون هو بدوره لفظ تركى كذلك ومعناه النهر . ولئن لم يكن من اليسير أن نجزم بأن الترك ، أول ظهورهم ببلاد ما وراء النهر ، كان لهم من السلطان نصيب أوكانوا مجرد جند مرتزق عند الأمراء الايرانيين، الا أننى مع ذلك أميل الى الأخذ بالرأى الأول وذلك للاعتبارات الآتية :

أولا : أن الترك ، بوصفهم طبقة ممتازة من المحاربين ، كانوا يصلون الى السلطان حيثما ظهروا — وهى قاعدة نجد لها أمثلة كثيرة فى القرون الوسطى وفى الأزمنة الحديثة على السواء .

ثانيا : هــذا الرأى تظهره الصــلات التى قامت بين الامبراطورية البيزنطية والترك فى الشرق الأقصى . ذلك أنه حين أدرك سكان الصغد أن تجــارة الحرير ، وهى التى كانت تدر عليهم أرباحا طائلة ، تتعرض للمتاعب بسبب سياسة الفرس ، استنجد أمير الصــغد التركى ، أولا وقبل كل شىء ، بالخان الأعظم ديزابول (١) .

وحين تبين لهذا الخان بدوره عجزه عن اقرار الأمور سلما مع ملك الفرس ، اتصل بجستنيان الثانى امبراطور القسطنطينية . واضطر السفير التركى ، لكى يتجنب المرور فى الأراضى الفارسية ، وهو فى رحلته من بلاط ديزابول الى شواطىء البسفور ، الى أن يسير بحذاء شاطىء قزوين الشمالى مخترقا ممرات القوقاز السرية التى لا يعرفها الا القليلون . وتؤيد هذه الواقعة مايقال ان هذا الأمير التركى القوى كان يحكم فى جبــال التاى وعلى شواطىء سيحون . ويدل اسم أمير صــغديا ، الذى ذكره الاغريق باسم مانياك ، على أنه بدوره لم يكن ايرانيــا بل هو تورانى .

---

(١) هذا الاسم الذى ورد عند المؤرخين البيزنطيين على هذا الرسم هو فى الغالب الرسم اليونانى للفظ التركى ديزاوول أو ديزاول المشتق من الأصل ديز/مك أو تيز/مك أى أن ينظم أو يهيىء . فهــو المنظم أو المهيىء (فى المعركة مثلا) . فهو بذلك يدل على المنصب الرفيع ، نظيره فى ذلك اللفظة الجديدة « يساول » تطلق على جنــدى الحرس الملكى فى الصــين ، فهى مشتقة من الأصل ياز/مق أن يصف أو يهىء .

قمانياك كلمة تركية معناها الأمير أو النبيل أو رفيع المقام . ولا يزال هذا اللفظ ، على تحوير بسيط فيه ، يروج عند القرغيز ، حيث يعرف أمراؤهم باسم ماناب (١) .

ثالثا : تردد الكتابات التاريخية الأولى عن بلاد ما وراء النهر ذكر وجود الترخانيين ، وهم أصحاب مرتبة تركية رفيعة معروفة . وكانوا يحكمون في سمرقند وبيكند ووفكند وقد تغلب العرب عليهم جميعا الواحد بعد الآخر .

ومع كل ما ذكرناه فان مبلغ علمنا عن أحوال الترك فى وسط آسيا قبل العهد الاسلامى هو ، بكل أسف ، جد قليل بوجه عام . ولو كان المسيحيون البيزنطيون قد أوتوا من العلم والميل الى المعرفة مثل ما أوتى العلماء المسلمون فى القرون الأولى من الهجرة ، لأفاد العلم فائدة جليلة من تلك الرحلة التى قام بها السفير البيزنطى زمارخوس حين زار بلاد ديزابول فى القرن السادس الميلادى . ولقد حال دون تحقيق هذا القصد جهل المسيحيين وغطرسة الاغريق ، فلم يترك لنا سفير جستنيان هذا الا مجرد بيان مضطرب عن العادات والأعياد بدلا من أن يطلعنا على صور من رحلته مع ملاحظاته عليها وأمثلة من لغات هؤلاء البرابرة .

أما عن أحوال سكان آسيا الوسطى الدينية الأولى ، فقد لاحظنا من قبل أن عقائد زرادشت كانت هى ديانة السكان الايرانيين القومية . ويتضح ذلك جليا فيما حول بلخ . وحين نذكر المقاومة الشديدة التى قابل بها السكان الايرانيون الحملات الاسلامية من بعد ذلك سوف لا نعجب حين نجد أن تعاليم زرادشت كانت قد انتشرت من بيوت النار فى بلاد ما وراء النهر صوب الشرق ، فبلغت من بعد ذلك منازل بدو الترك عند تيان شان ، كما انتشرت كذلك صوب الشمال الغربى حتى شواطىء بحر

---

(١) انظر فى ذلك رادلوف Observations sur le Kirghis par M. Radloff Journal asiatique, extrait No. 9 (1863) حيث يقول صراحة « المانابيون عندهم يتوارثون كما يتوارث سلاطين القازاق » . وان لم تخنى الذاكرة فقد سمعت بدورى لقب ماناب بين القراقلبق .

آرال . وتعرضت الزرادشتية قبل فجر التاريخ الى ضربة شديدة حتى فى بلاد ماوراء النهر نفسها وذلك بفعل البوذية التىقدمت من الشرق . وهو أمر ترى ذكره واضحا فى قصص الشاهنامة . ويكتب فى هذا الشأن العالم المتخصص (١) فى تاريخ ايران القديم وهو يتناول «كتاب الملوك» بالدرس فيقول « منذ ذلك الحين » ، أى منذ وفاة كيخسرو ، « تأكد لدينا أن التورانيين كانوا يعبدون الأوثان . وكان ملك التورانيين يدعى بغو نجاد ، أى من ينتسب الى بغو ، وأنه كان يكتب بأبجدية بغوية بما يشير بما لا يدع الشك الى أصله البوذى » .

ويحتمل كل الاحتمال أن النضال بين البوذية والزرادشتية فى بلاد ما وراء النهر اتخذ صورته بين عرقين لا بين عقيدتين فحسب . وكان أولياء العقيدة الأولى التورانيون الذين تلقوها فى التبت . وبازائهم طفق الايرانيون يدافعون فى حمية طبيعية عن دياناتهم القومية .

ولا نعلم التاريخ الذى أطلق فيه الاسم التورانى « بخارى » على المدينة الايرانية القديمة « جموكت » . ذلك أن « بخار » (٢) لا يزال حتى اليوم علما مغوليا على المعبد أو الدير البوذى . وعلى ضوء ما كان من أثر انتشار نفوذ الصين بين ترك الشمال ، فيما بين صحراء جوبى حتى بحر قزوين ، ذلك النفوذ كان يقوم قبل المسيح وابان حكم أسرة هان ١٦٣ ق.م — ١٩٦ م ، فان لنا أن نستنتج أن العقائد البوذية قد وجدت لها أتباعا على ضفاف زرفشان فى القرون المسيحية الأولى (٣) .

---

(١) يؤكد شبيجل فى مقال ظهر له فى مجلة Ausland بعنوان (تركستان الشرقية) ، أن القبائل الى التركية من تيان شان كانت تعبد النار فى القرن السابق الميلادى .

(٢) انظر مقال للاستاذ شبيجل فى Iranische Altertumkunde, p. 663.

(٣) يذكر الكتاب المسلمون اشتقاقا مماثلا لهذه الكلمة مؤكدين أن بخار هو فى لغة عبدة الأوثان معناه « مجمع العلم » أى مدرسة ، ولا يزال الترك حتى اليوم ينطقون كلمة بخارى نطقا صحيحا على خلاف الفرس الذين ينطقونها بامالة الباء نحو الكسر .

وقد يتصل بهذا ما سبق أن ذكرناه عن مقالة النرشخى وما ورد بها بشأن ابنة امبراطور الصين وما كان ضمن بائنتها من أوثان عرضتها فى رامتن .

ولا ننسى كذلك أن نشير الى تقرير الجوابين البوذيين فاهيان وهيون — سنغ ، وما ذكراه عن ازدهار البوذية فى تركستان الشرقية فى القرن الخامس الميلادى ، ذلك الازدهار الذى لا يستبعد امتداده كذلك حتى مناطق جيحون . وقد وجدت آثار البوذية آخر الأمر ببلاد ما وراء النهر عند الفتح الاسلامى . ذلك أن العرب ، حين فتحوا بيكند ، كان من بين ما استولوا عليه بها من الأوثان صنم عظيم الحجم من الذهب الخالص استرعى انتباههم ، اذ كان له عينان من جوهر ثمين . وقد بعثوا به الى الحجاج . بل لقد بقيت آثار البوذية بين سكان آسيا الوسطى حتى بعد انتشار الاسلام . ويحكى لنا النرشخى أنه كان يقوم ببخارى فى كل عام سوقان كبيران للدمى أو التصاوير . وكان ما يباع فى أحدهما تصل قيمته الى خمسين ألف درهم .

ويرى الكاتب العربى أن مرد ذلك هو الى العادات السائدة أيام كان أهل بخارى يعبدون الأوثان ، اذ كانوا يشترونها من هذه الأسواق .

ان الصورة التى نرسمها عن الأحوال الدينية فى آسيا الوسطى قبل العصر الاسلامى قد يزيد غموضها عما هو عليه حين نهمل الاشارة الى مسيحية النساطرة التى نفذت فى وقت مبكر الى داخل آسيا وبلغت الأراضى المتاخمة لسيحون وجيحون. ويلاحظ (١) العلامة الكولونيل هـ. يول H. Yule بحق فى مؤلفه القيم « الخطا والطريق اليها » "Cathay and the way thither" أن قصة نشاط القديس توما التبشيرى ، الذى امتد حتى الصين ، هى بيان انتشار عقيدة المسيح فى القرن الثالث بين الفرس والميديين والصينيين ، هذه كلها يجب أن لا تقبل على علاتها .

---

(١) انظر ص ٨٨ من مقدمة ذلك الكتاب .

ويصدق ذلك الى حد ما على القرن التالى لذلك حين أخذ شـــابور يضطهد المسيحيين ، وحين قامت الأسقفيات البابوية فى طوس ومرو عام ٣٣٤ م ، وقد رفعت هذه الأخيرة عام ٤٢٠ م الى ابراشية . هذا كما أدت مطاردة الامبراطورية البيزنطية للنساطرة المنشقين على الكنيسة — تلك المطاردة التى قامت بسبب الخلافات المذهبيـــة المريرة — الى أن انطلق هؤلاء يلتمسون مجالا لنشاطهم فى الشرق القصى . وقد مهدت كراهيتهم للبيزنطيين لكسب عطف الساسانيين عليهم . ولا بد أن جهودهم التبشيرية قد صادفت قبل ظهور الاسلام قدرا ملحوظا من التوفيق فى الجهات التى أدى فيها النضال بين البوذية والزرادشتية الى أن لم يعد لأيهما من سلطان على عقول الناس ، فهيأوا بذلك الفرصة للتأمل والتبصر فى أمر دينهم .

هذا هو ما كانت عليه الحال بآسيا الوسطى على وجه التخصيص . وكانت المسيحية ببلاد ما وراء النهر قد اتخذت لها مركزا فى سمرقند حيث أنشئت بها أسقفية بابوية ، وذلك فيما بين عامى ٤١١ و٤١٥م على ماذكره السريان وفيما بين عامى ٥٠٣ و٥٢٠م على مايقول به يول . كذلك نرى كوسماس يتحدث الينا بدوره عن المسيحيين عند شواطىء جيحون فى منتصف القرن السادس الميلادى . ووجد العرب بدورهم المسيحيين فى بخارى . ويذكر النرشخى ذلك بجلاء فيما كتبه عن الكشكوشان . ولم يكن هؤلاء ، على ما تقول الرواية ، من العرب أو من أهل البلاد ، ولم يكونوا كذلك من المسلمين أو من عبدة النار ، فهم قوم قدموا من الغرب واشتغلوا فى الغالب بالتجارة وكانوا موضع تقدير كبير من البخاريين . وحين أمر قتيبة البخاريين أن يتنازلوا عن نصف ديارهم لمهاجرى العرب أخرج الكشكوشان كلهم من ديارهم وأقاموا لهم دورا جديدة بظـــاهر المدينة حيث كانوا يملكون بساتين جميلة فيها الجواسق ، وقد بيعت هذه كلها بأسعار عالية حين نفوا من بعد ذلك من الاقليم كله .

ويستبين فى يسر مما سلف ذكره أن الحكم الاسلامى حين ثبت أقدامه فى مدائن بلاد النهر بعد الفتح الاســـلامى ، لم يستطع هـؤلاء

الكشكوشان (أى المتجولون) أن يحتفظوا بكيانهم معه . فلم يكن للمسيحيين فى القرن الثالث الهجرى الا جالية واحدة مهمة كانت تقطن مناطق سمرقند الجبلية ، وكانت هذه تدعى زردكرد (١) . وعاش هؤلاء آمنين زمنا طويلا فى شرق تركستان على كل حال . ولئن صار لهم السلطان على شانئيهم من المسلمين أيام حكم المغول البوذيين الا أننا نجد أن المسيحيين صاروا قلة ضئيلة بأواسط آسيا أواخر القرن الثالث عشر الميلادى (٢) .

بعد هذه المحاولة التى بذلتها ، لازاحة نقاب الغموض الكثيف الذى كان يحجب عنا شواهد الحياة القومية والاجتماعية ببلاد ما وراء النهر ابان العهد السابق للحكم الاسلامى بها ، ينبغى أن لا يعجب أحد حين يرانا من بعد ذلك عاجزين عن أن نورد شيئا عن الحياة السياسية فى تلك البلاد اذ ذاك . وبرغم أن الحروب والعلاقات السياسية التى قامت بين الساسانيين والامبراطورية الرومانية الشرقية فى القرن السابق على الفتح العربى قد وصلت ما بين آسيا والغرب حدا ما ، الا أنه فى هذه الفترة نفسها لا يصل الينا من أخبار تلك الأراضى التى تقع وراء جيحون ما نستطيع أن نتخذ منه بداية لمادة تاريخية . فنحن نعلم حقا أنه ابان حكم بهرام الخامس الذى يدعوه البيزنطيون باسم « ورانس » اندفع خان الترك أو خاقانهم فى جيش

---

(١) انظر مخطوط البلخى الجغرافى بدار الكتب الاهليه بفيننا ص ١٤٥ .

(٢) ينكر المؤرخون المسلمون هذه المسألة . ولكننا نجد عند الكولونيل يول فى كتابه Travels of Marco Polo, London Vol. I p. 172 ما يأتى :

« يذكر الأمير سنباذ صاحب العسس بأرمينيا فى رسالة له صدرت من سمرقند عام ١٢٤٦ .. أو عام ١٢٤٧ .. « أنهى اليك اننا وجدنا كثيرا من المسيحيين منتشرين فى الشرق كله ولهم كنائس جميلة شامخة قديمه حسنة العمارة ، وقد خربها الترك جميعا . وحين مثل المسيحيون بين يدى جد الخان الحالى (أى جنكيز) استقبلهم بالاكرام ومنحهم حرية العبادة وأصدر أوامره بمنع الحاق أى أذى بهم سواء بالقول أو الفعل . وهكذا تلقى العرب الذين الحقوا المهانة بهم الصاع صاعين » . (المؤلف) .

يشيد العالم المستشرق بارتولد فى كتابه عن تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٨٦ بتسامح المسلمين وأن المعتصم العباسى تشدد فى عقاب بعض من تعرضوا لمعابد المجوس ببلاد الصغد (المترجم) .

قوامه مائة وخمسون ألف مقاتل الى بلاد ما وراء النهر وخرب خراسان، حتى تصدى له الملك الفارسى فهزمه وأنزل به خسائر شديدة وطرده الى ما وراء جيحون . ولا يقل هذا الحادث فى غموض تفصيلاته عن الحرب التى وقعت بين فيروز ، الذى يعرفه الاغريق باسم بيروسس (كسرى أبرويز) وأمير الترك الذى يطلق مؤرخو الفرس عليه ذلك الاسم الايرانى الجميل « خوشنواز » أى طيب السجايا ، وهو اسم يشير الى صفات التتار النبيلة أكثر مما يشير الى شخص بعينه . وتذهب الرواية الى أن فيروز هذا كان قد قابل ما أسداه هذا الأمير التركى له من جميل ، حين عاونه على ارتقاء العرش ، بأن هاجم بلاد ما وراء النهر . ونزلت الهزيمة بفيروز ، ولكن خوشنواز أكرمه وعفا عنه ، وطلب اليه اقرار السلام بينهما .

ولم يهدأ للملك الساسانى بال حتى عاد الى حرب عدوه من جديد فخسر حياته وأضاع جيشه فى معركة حاسمة . ولم تخبرنا المراجع الفارسية عما اذا كان خوشنواز هذا كان خاقانا بالفعل على كل القبائل التركية فى آسيا الوسطى أم كان مجرد أمير على بعض الأراضى فيما وراء جيحون . ولا نسمع عند النرشخى والطبرى الا عن بعض أفراد من الطرخانيين كانوا يحكمون فى بيكند ورامتن ووردنزى وسمرقند وفرغانة عند قدوم العرب . ولا تفصح هذه المصادر عما اذا كان هؤلاء مستقلين فى بلادهم أو كانوا تابعين للخاقان . والأصل فى لقب طرخان (١) بمعناه الصحيح أنه علم على أمثال هؤلاء الأمراء والرؤساء الكبار . ويبدو أن تاريخ الفتح العربى يشير الى قيام الاستقلال المتبادل هناك . ذلك أن طرخان سمرقند حين اشتبك فى الحرب مع قتيبة اضطر الى الاستنجاد بحلفاء من بنى جلدته فى تركستان وفرغانة .

وغنى عن البيان أنه لو كان هؤلاء التورانيون الأشداء قد تكتلوا معا فى الدفاع عن بلادهم لاستطاعوا على الأقل أن يجعلوا نجاح حفنة من

---

(١) وهو من ألقاب الشرف التركية القديمة ، ويتميز صاحبه بالاعفاء من الضرائب . وقد ورد فى أقدم الوثائق التركية لفظ طركو بمعنى « براءة الحماية أو براءة العظمة . وفى المغولية (Kowalewsky p. I768 a) طرخالخو بمعنى « أن يمنح أى شخص امتيازا » .

المحاربين العرب أمرا مشــكوكا فيه برغم ما كان عليه هؤلاء من حمية دينية .

ومهما كان من أمر انقسامهم أو اتحادهم ، وأيا ما كان حالهم من الاستقلال أو التبعية ، فالثابت المؤكد أن الترك كانوا فى القرنين السادس والسابع الميلاديين يسودون مواطن كثيرة ببلاد ما وراء النهر . ولقد كان تيار الهجرة التركية الجديد الهابط من سهوب الشمال كفيلا من ناحيته بأن يطغى حتى يدفع السكان الايرانيين الأصليين هناك الى دائرة نفوذ الترك لولا أن ظهر الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) فى الوقت نفسه بدعوته فى بطاح جنوب غربى آسيا ، تلك الدعوة التى أحدثت انقلابا جديدا ساد أكثر من نصف هذه القارة المترامية الأطراف .

الفصل الثانى
غزوات العرب وانتشار الإسلام

٤٦ (٦٦٦) – ٩٦ (٧١٤)

لم يكد الاسلام يقيم عمد الأساس لصرحه الأشم فى آسيا الغربية حتى اندفعت كتائب المغامرين العرب المظفرة الى بلاد ما وراء النهر عبر الطريق التى سلكها الاسكندر المقدونى من قبل . ففى عام ٤٦/٦٦٦ سير زياد بن أبى سفيان القائد المقدام ربيع بن الحارث من العراق الى خراسان. ولسبب ماشاع من الذعر على اثر سقوط آخر الملوك الساسانيين تم لهذا القائد التغلب على كل عدو لقيه فى ايران الشرقية . وما زال يمضى الى غايته حتى خفقت راياته المظفرة فوق بلخ . واذ كانت هذه المدينة على الدوام باب بلاد ما وراء النهر الجنوبى ، فلا عجب أن نرى هؤلاء العرب يستهويهم ما عرف عن بلاد الصغد من الثراء فيغزونها . والغالب أنهم اقتحموا هذه البلاد حتى شواطىء جيحون دون خطة مبيتة للغزو . وأدى ما حملوه من كنوز هذه البلاد الوفيرة وما صادفوه بها من نجاح الى أن رأينا معاوية ، على اثر موت زياد عام ٥٠/ ٦٧٠ بعد ذلك بأربع سنوات ، يبعث بعبيد الله بن زياد هذا على رأس حملة جديدة الى بخارى .

وكان للغزو هذه المرة خطة مرسومة . ذلك أن عبيد الله بن زياد هاجم أول ما هاجم مدينة بيكند الغنية قصبة الحكومة ومركز التجارة . وتم له اخضاعها بعد نضال طويل ، ليسير من بعد ذلك الى بخارى ومعه غنائم عظيمة وفى ركابه أكثر من أربعة آلاف أسير . وقد وقع هذا كله أواخر عام ٥٣/ ٦٧٢ . هناك استنجدت الملكة خاتون ، التى سبق أن تحدثنا عنها ، بجيرانها الترك فدهموا العرب وهم فى شغل بحصار المدينة واعداد

مجانيقهم . ولكن عبيد الله بن زياد انبرى لهم وأخذ يدفعهم عنه فى شجاعة حتى ليقال كذلك انه أوقع الهزيمة بهؤلاء الكفار . ولكنه اضطر هذه المرة الى العودة الى مرو دون أن تخضع له بخارى (١) . وحمل المسلمون معهم عند رجوعهم الكنوز والأسلحة والثياب وأدوات الذهب والفضة . وكان من بين ذلك نعال للملكة مرصعة بالحجارة الكريمة قومت بعشرين ألف درهم ، وقد خلب منظرها لب أبناء الصحراء العربية أصحاب الفطرة حين اطلعوا عليها . وأنزل هؤلاء الغزاة الخراب بكل المناطق التى مروا بها فى تقهقرهم حتى اقتلعوا الأشجار التى صادفتهم فى طريقهم .

ويروى المؤرخون العرب أن الملكة خاتون رأت أن تنقذ بلادها من الدمار الذى كان يتهددها فصالحت عبيد الله على جزية سنوية مقدارها ألف ألف درهم تعهدت له بدفعها . ولم يكد يمر ثلاث سنوات على ذلك حتى انطلق العرب بقيادة سعيد بن عثمـان يتعرضون للملكة خاتون من جديد . وعبثا حاولت هذه الملكة أن تدفع عنها بالهدايا قائد هؤلاء العرب محتجة بما بينها وبن عبيد الله من عهد . فقد رد القائد العربى هديتها اليها ولم يلق بالا الى ما كان بينها وبين سلفه من عهد ثم جد فى مهاجمة المدينة . وفت فى عضد الملكة طول النضال مع تمرد الرعية فطلبت الصلح من جديد . وحين سألها سعيد أن تبعث اليه برهائن ضمانا لتنفيذ ما تصالحا عليه ، بعثت اليه بثمانين من أعيان بلادها ممن كانوا على رأس الخارجين عليها فتخلصت بذلك من أشد أعدائها خطرا عليها . وحين تم الصلح طلب القائد العربى المتكبر من الأميرة أن تقدم اليه بنفسها ، فطلعت عليه فى زينتها الملكية ، وكانت نادرة الجمال على ما يقال (٢) ، فشغف بها حبا

---

(١) يقول الطبرى أن عبيد الله بلغ فى زحفه طشقند .

(٢) يتعرض أحد العرب أو المسلمين لهذه الملكة فيقول انها كانت أيام زوجها على علاقة غير شرعية بأحد أتباعها ، ومنه رزقت بابنها طغشـاد ، وحين مات زوجها حاول البعض أن يجلسوا قائد الجيش على العرش ، لكنها نجحت برغم ما قام من الفتن فى أن تضمن العرش لابنها غير الشرعى هذا .

ملك عليه زمام قلبه وجرى ذكره فى الأغانى التى لا يزال أهل بخارى يرددونها حتى اليوم (١) .

وأقر القائد العربى الأمور فى بخارى الى حد ما ، ليتجه بجيوشه بعد ذلك الى بلاد الصغد قاصدا مدينتى الصغد وسمرقند . ولم يكن على سمرقند اذ ذاك ملك مستقل ، وانما كان يحكمها طرخان تركى هو طرخان الصغد وهو الذى هاجمه العرب وتغلبوا عليه آخر الأمر . وحين نزل سعيد ببخارى ، وهو فى طريقه الى خراسان ، طلب اليه أهلها أن يعيد اليهم الرهائن التى كان قد أخذها معه ، فوعدهم أن يفعل ذلك عند الشاطىء المقابل من جيحون . وحين ذكروه هناك بما وعدهم به ، استمهلهم حتى يبلغ مرو . وما زال يستمهلهم من مرو الى نيسابور الى الكوفة حتى انتهى المطاف بأعيان بلاد ماوراء النهر هؤلاء الى أن انتقلوا من شواطىء زرفشان البهيجة الى صحراء بلاد العرب المحرقة ليقوموا هناك من بعد ذلك على خدمة المنتصرين العائدين . وفى المدينـة « المنورة » جردهم سعيد من سيوفهم ومناطقهم المرصعة بالحجارة الكريمة وثيابهم وجواهرهم لينزل أبناء الأمراء الشم هؤلاء من بعد ذلك الى مرتبـة الرقيق . وأثار هـذا الصنيع ثائرتهم حتى أجمعوا أمرهم على أن يموتوا كراما حتى لا يعيشوا عيشة ذل ومهانة . وأدت بهم شهوة الانتقام الى أن باغتوا سعيدا فى داره فقتلوه ثم أهلكوا أنفسهم . وكان ذلك فى خلافة يزيد بن مروان .

ما كاد العرب يعودون الى ديارهم وينطلقون يروون للناس ما ببلاد الصغد الواسعة الغنية من عجائب حتى كانت بخارى قد استطاعت أن تخلع

---

(١) يحكى النرشخى حكاية عجيبة عن أول لقاء بين خاتون وسعيد ، فيقـول :

« أراد سعيد أن يثير فزع أميرة بخارى فأمر بمن يدعى عبد الله بن حزم أن يجلس وسط خيمة تحوطها النيران • وكان عبد الله هذا عريض المنكبين شديد حمرة العينين والشعر ، فزاد لهيب النار من هذا الاحمرار على صورة لم يألفها أهل بخارى حتى فزعت الملكة بدورها من هول هذا المنظر وانطلقت هاربة فلم تحمل على العودة من جديد الا بمشقة » .

عنها نيرهم مرة أخرى ، واضطر مسلم (١) بن زياد خلف سعيد فيخراسان أن يسير بالجند الى جيحون من جديد . هنالك استنجدت الملكة مرة أخرى بجيرانها فى الصغد . ويقال انها تلقت كذلك عونا من ترك الشمال بلغ مائة وعشرين ألف رجل . ولم يفت هذا العدد الضخم على كل حال فى عضد العرب ، الذين كانوا يؤمنون بحسن طالعهم ، فضربوا الحصار على بخارى دون الهجوم عليها حتى يقفوا أولا على عدد أعدائهم وبيان مواقعهم فيها . وعهد مسلم بن زياد الى قائد من خاصته يدعى المهلب باستطلاع أحوال العدو . وحين اعتذر هذا القائد بأن هذه المهمة هى من شأن من هم دونه فى المرتبة لم يقبل الأمير عذره هذا ، فاختار لمهمته رجلا من كل فرقة (٢) وانطلق بهم جميعا سرا فى الليل .

وحين أخبر مسلم باقى الجند فى الصباح بما عهد به الى المهلب سرى التذمر بينهم وقالوا له لقد أتحت بصنيعك هذا للمهلب الفرصة ليختص نفسه دوننا بأثمن الغنائم ، وأنه لو كان قد أتيح لنا القتال لكنا السباقين الى ذلك بلا جدال . واستبد الجشع بفريق منهم حتى خرجوا بالفعل فى طلب المهلب ولحقوا به . وقد نبههم الى أنهم بصنيعهم هذا قد أفسدوا عليه خططه اذ أنهم يسترعون بقدومهم هذا انتباه العدو مما يعرضهم جميعا للفشل . وأحصى المهلب من صار معه من الجند فكانوا تسعمائة . وما ان هيأهم للقتال حتى دوت طبول العدو الذى أفلح فى أول هجوم له أن يقتل أربعمائة من جند المسلمين ولاذ بالفرار من بقى منهم من بعد ذلك فى هلع زائد . وأحيط بالمهلب نفسه ومن بقى معه من أتباعه القليلين . وصاح المهلب بصوته القوى مستغيثا وهو فى غمرة اليأس ، فسمع فى معسكر العرب ، على رواية النرشخى ، وكان على مبعدة نصف فرسخ منه . وحين

---

(١) يذكره الطبرى باسم أسلم ، والغالب أن ما ذكره النرشخى الأصح ، وهو الذى نقلناه عنه .

(٢) تذكر النسخة الفارسية لفظ « علم » .

أسرع الى نجدته (١) على التو فريق من بنى قومه وعليهم عبـد الله بن جودان ورآهم ورفاقه مقبلين عليهم سرى الأمل فى نفوسهم واشـتد ساعدهم من جديد . وما غدا أن أقبل بقية جند العرب فقاتلوا الترك حتى هزموهم . وبلغت الغنائم من الكثرة حتى خص كل جندى ما يقوم بعشرة آلاف درهم . واضطرت الملكة خاتون بطبيعة الحال أن تعلن خضوعها للمنتصرين من جديد وتعقد الصلح معهم .

وآب العرب من بعد ذلك الى مرو لا ليتركوا سكان بلاد ما وراء النهر المنكوبين وشأنهم ، وانما ليعدوا حملة جديدة بقيادة قائد أدى حذره وشجاعته وقوة جلده الى اطفاء آخر بصيص لحضارة ايران القديمة كان يومض فى هذه المنطقة التى ظهرت فيها هـذه الحضارة أول ما ظهرت ، ويغرس من بعد ذلك تعاليم النبى العربى فى وديان تيان شان المترامية الأطراف .

كان هذا القائد هو قتيبة بن مسـلم الذى أمره الحجاج بفتح بلاد ما وراء النهر عام ٨٦/٧٠٤ . ولما كان قد عزم على أن يمضى فى فتح هذا الاقليم ونشر الاسلام فيه ، لا أن يغير عليه وينتهب ما فيه ، فقد كان عليه أولا أن يسيطر سيطرة تامة على بلخ الجنوبية . هنالك جمع جنده فى مرو فأخذ يذكرهم بآيات الله وأحاديث نبيه ثم نزل عن المنبر وامتطى فرسه ، فلم يكد يصل حدود بكتريا القديمة حتى أقبل عليـه أهل بلخ مرحبين وساروا فى ركابه الى مدينتهم . وفيها قرأ قتيبة الخطبة باسم أمير المؤمنين ثم قام بجولة عند جيحون ، وعاد الى مرو بطريق جهارجوى (٢) الحالية. ومن هذا الموضع بدأ قتيبة عام ٨٧ /٧٠٥ وقائعه فى بلاد ما وراء النهر ، وكان أول مكان غزاه هو بيكند .

---

(١) يقول النرشخى ان عبد الله بن زياد طلب غداءه فى الوقت الذى انطلقت فيه صيحة المهلب فأرهبت القوم . هنالك قال عبد الله بن جودان للأمير « عافاك الله ، انك تبدو وكأنك لا تدرى من أهوال الحرب شـيئا » وهو توبيخ مناسب صدر من ضابط الى قائده .

(٢) على رواية الطبرى فان قتيبة ، وهو فى طريق عودته الى مرو ، فتح كومسك ووارمش ، ولكنه تعرض من بعـد ذلك لهجمات ترك الصغد وفرغانة الذين ائتلفوا عليه .

بلغ قتيبة حدود الصحراء فاذا به يفاجأ بقوة عظيمة تحيط به وتحاصره حتى مضت أشهر دون أن يدرى أحد من أمره شيئا . وها هو ذا الحجاج يقيم صلاة الجماعة يسأل الناس فيها ربهم أن يكتب السلامة لذلك المجاهد فى سبيله والأخطار تتهدده . على أن قتيبة لم يجر فى خاطره أى تفكير فى الهرب برغم ما كان فيه من حرج . ولم يفلح البخاريون بدورهم فى حمله على الرجوع عنهم مع ما كانوا عليه من تفوق ساحق فى العدد وما انطلقوا يذيعونه من الشائعات عن موت الحجاج فلم يجدهم ذلك كله فتيلا تلقاء ماكان عليه قتيبة من شجاعة خارقة واقدام (١). واشترك الفريقان فى قتال انتهى بهزيمة الترك ، ففر فريق منهم وقد ملىء رعبا وتشتت شمله ، فى حين لاذ فريق آخر بمدينة بيكند الحصينة القوية . وحوصرت هذه المدينة لتوها فسقطت بأيدى العرب بعد قتال عنيف . فقد ثابر العرب أول الأمر على حصارها خمسين يوما دون أن يصـــلوا الى أية نتيجة ، حتى أفلحوا آخر الأمر فى فتح ثغرة أسوارها . وهنـــالك بذل قتيبـــة الوعد بالمكافأة السخية لأول جندى يقتحم الثغرة ، على أن تكون هذه لأولاده من بعده ان هو قتل . وكان لهذا أثره فى نفوس الجند حتى تم للعرب الاستيلاء على الحصن .

على أن قتيبة لم يكد يبعد عن المدينة حتى جاءته الأخبار بخروج أهل بيكند وقتلهم ورقة بن نصر وكان قد تركه عليها . والواقع أن العرب هم الذين جروا هذه الكارثة على أنفسهم ، اذ يقال ان ورقة كانقدحمل الى داره فتيات جميلات لم يصبر أبوهن على ما لحقه من تدنيس شرف أسرته فقتل المغتصب . وأيا ما كان الأمر فقد أثار ذلك الصنيع ثائرة قتيبة ، وهو ممن لا يعرف لغضبهم حدود حين يغضبون ، فأسرع بالعودة الى المدينة وأمر بنهبها واحراقها وبقتل كل من بها من البالغين وسبى النساء والأطفال فلم يسمح حتى لذلك الزعيم التركى الأعور بها أن يفتدى حياته .

---

(١) كان لقتيبة عين فارسى المولد يدعى تندر ، وكان يتجسس بدوره عليه لحساب البيكنديين . ولما وقف قتيبة على حقيقة أمره ، حين أتى اليه بأخبار كاذبة ، أمر به فقتل لوقته .

وتخبرنا الرواية أن أهل بيكند كان أكثرهم ، وهو الواقع ، من التجار الذين كانوا يمارسون التجارة مع الصين وبلاد أخرى من بلدان العالم . ولم يكن هؤلاء بالمدينة ابان الحرب ، فحين آبوا اليها افتدوا أولادهم وزوجاتهم . وأخذت هذه المدينة تتجدد من بعد ذلك شيئا فشيئا ، فكانت بيكند هى المكان الوحيد الذى عاد الى سيرته الأولى بعد الخراب الذى أنزله الغزو العربى بالاقليم كله . وكان سقوط هذه المدينة ذا أهمية بالغة بالنسبة للعرب ، اذ هى بمثابة الباب الجنوبى الغربى لبلاد ما وراء النهر ، فضلا عن أنها كانت أروج مواضع هذا الاقليم بعد الصغد ورامتن . وما وقع من غنائمها بأيدى الغزاة كان عظيما . وكان من بين هذه الغنائم معبد للأوثان به تماثيل عديدة من الذهب الخالص والفضة تزن أربعين ألف درهم . وكان لأحد هـذه الأوثان عينـان من الجوهر فى حجم بيضـة الحمام (١) وقد بعث قتيبة الى الحجاج بهاتين الجوهرتين مع قدر كبير من الغنائم فكتب اليه مثنيا عليه .

ولنا أن نتصور مبلغ ما كان عليه بدو الصحراء البسطاء من لهفـة للاسـتحواذ على كنوز المغلوبين المكدسـة . وكانت الأسـلحة أعظم ما استهواهم منها ، فأجودها ما كان يصنع فى تلك البقعة من آسيا . وبرغم استيلائهم على ما كان بمخزن أسلحة بيكند الكبير منها واقتسامهم لها فيما بينهم ، فقد اشتد طلبهم عليها حتى كان الرمح يباع بسبعين درهماوالدرع بمائتين والترس بما يزيد على ذلك . ولئن كان العرب فى غير حاجة الى محاربين جدد ، اذ كانت قبائل بنى تميم وبكر وعبد القيس التى اضطلعت بأكبر قسـط فى فتح بلاد ما وراء النهر تبلغ وحدها مجتمعـة واحدا ألف رجل (٢) الا أن ذلك لايعنى أنهم كانوا أصحاب تفوق فى العـدد .

(١) كان أهل بيكند يقولون ان هاتين الجوهرتين قد أتى بهما اليـهم طائران من بلاد نائية .

(٢) على رواية الطبرى ، كانت قوات العرب بخراسان على عهد قتيبة كالآتى : بنو علي وقوامهم تسعة آلاف رجل ، وبكر وأميرها هاشم بن المنذر وقوامها سبعة آلاف ، وبنو تميم وقوامها عشرة آلاف ، وعبد القيس وأميرها عبد الله بن جودان ومعه أربعة آلاف ، ومعهم سبعه آلاف من الكوفيين وبطن آخر من عبد القيس ومعه أربعة آلاف ، فجميعهم بذلك واحد وأربعون ألفا .

ولعل هذه الحقيقة هى التى جعلت قتيبة يتقدم ببطء فى فتوحه برغم ما صار له من السيطرة التامة على سهوب تركستان الجنوبيـــة ، حتى لنراه لا يعمد الى مهاجمة بخارى رأسا ، اذ كان قد رسم سياسته على أن يعزل هذه المدينة عن حلفائها من الترك فتعجز بذلك عن الدفاع عن نفسها . وعلى هذا فقد بدأ باخضاع الامارات الصغيرة المستقلة، وردان (وردانزى الحالية) ورامتن والصغد ، ليضمن من بعد ذلك نجاحه فى حملته على بخارى حين يهاجمها . وكانت هذه الخطة مما رسم الحجاج له . وتم له عام ٨٩/٦٩٨ اخضاع كش (شهرسبز) ونخشب (قارشى) (١) . وتقدم من بعد ذلك بسنوات عشر يهاجم وردان ليواجه عند ذلك ، وهو ينفذ خطته هذه ، أحداثا لم تكن فى حسبانه بادره الأمراء الترك بها . فقد أجمعوا أمرهم فيما بينهم وخرجوا وحلفاؤهم ليعترضوا طريقه . وهكذا انطلق أمراء بلاد ما وراء النهر والصغد جميعا ليشدوا من أزر بخارى هذه المرة . وانضم اليهم كذلك صـــاحب فرغانة ومن يدعى قورمغان (٢) قادما من الشرق الأقصى ، وهو الذى تقول عنه المراجع انه كان ابن أخى امبراطور الصين . وبهذا يبدو أن زعمـــاء الترك قد أدركوا مدى ما يتهددهم من أخطار فعقدوا العزم على أن يدفعوا الغزاة العرب عنهم مؤتلفين .

ويصف الطبرى مبلغ ما ركب قتيبة من الغم فى حصـــار وردان ، فيقول : ان العرب حين أحيط بهم من كل جانب وأيقنوا بهـــلاكهم أخذ نساؤهم يولولن فى فزع شديد ويشققن جيوبهن . وحال بين العرب وبين الهزيمة آخر الأمر أن ذهب قتيبة يشد من أزر الجند ويحرضهم على القتال ويستنهض همم رجال القبائل « للقضاء على هؤلاء الترك » . وكان يخص

---

(١) يذكره الطبرى باسم قوريجـــانون ، وكلا الاســـمين محرف فى الغالب . وعلى ضوء العلاقات التى قامت مع امبراطور الصين على ما يظن ، فيبدو أن المقصود بذلك شخص من المغول أو الأويغور . ولا يكون له هذا الاسم الغريب فى الغالب .

(٢) يذكر النرشخى هـــذا المكان باسم وردان ووردون ، أما الطبرى فيقول عنه وردانجزاد . ويعرف اليوم باسم وردانزى .

بتشجيعه قبيلة تميم بصفة خاصة . وقد ندب شيخها وكيع بن أبى الأسود قائدا من قواده يدعى خزيمة فكان أول من ألقى بنفسه على العدو (١) . ولئن كان لدينا أكثر من سبب للتشكك فيما زعمه الطبرى من نصر حاسم ، فالمؤكد على كل حال أنهم نجحوا فى تحطيم حلقة الحصار التى كان الترك قد ضربوها من حولهم . وأيا ما كان الحال فانهم لم يستطيعوا أن يخلصوا مما كانوا قد وقعوا فيه الا بطرائق دبلوماسية . فحين وضح لقتيبة عجزه عن خوض غمار الحرب من جديد عمل على فصم عرى الائتلاف القائم بين أعدائه . وبلغ غايته بعد أمد قصير لما هو ثابت معروف عن الترك اذ تراهم لا يصبرون مؤتلفين أمدا طويلا .

وكان أمير الصغد (٢) قد خرج الى الحرب فى حشد كبير من الجند لم يبلغه غيره من خلفائه ، فكان حمله على التخلى عن أصحابه هو بطبيعة الحال من الأهمية بمكان . وعهد قتيبة بهذه المهمة الى نبطى من خاصته يدعى حيان استطاع فى احدى المناوشات أن يبعث سرا الى هذا الأمير التركى برسالة حذره فيها بأن حلفاءه انما ينتوون اغتصاب أملاكه عند رحيل العرب عن هذه البلاد . فكان مما قال له فيها ان العرب لا يحتملون الاقامة فى هذه البلاد الا صيفا ، وانهم عند حلول الشتاء لابد متراجعون عنها ، ولا يغيب عن باله أن أصحابه وهم القادمون من الشمال سوف لا يتركون بلاد الصغد البديعة هذه عن طيب خاطر ، فأولى به والحالة هذه أن يصالح العرب ، ويعتذر لأصحابه من ذلك بخوفه من الامدادات التى سيرها الحجاج لنجدة العرب بطريق كش ونخشب ، وأن له أن يقول لهم ذلك لمجرد الاعتذار وهو آمن من ناحية العرب . وسواء أكان هذا الصغدى على بساطة أم كان الأمر أبعد غورا من ذلك ، فقد وقع فيما

---

(١) يظهر من مقال الطبرى أن العرب البدو كان لهم فى كل قبيلة رئيسان أحدهما هو شيخ القبيلة أو رئيسها ، والثانى هو أميرها فى الحرب . وكان وكيع هو شيخ تميم .

(٢) يذكر النرشخى والطبرى (طرخون) على انه اسم علم . وطرخون أو طرخان هو من ألقاب الشرف عند التورانيين — انظر فى ذلك هامش ١ ص ٥١ .

دبر له على كل حال وصالح العرب سرا على ألفى ألف درهم يدفعها لهم كل سنة . وما ان كف عن القتال حتى اضطر الباقون من بنى قومه الى الانسحاب بدورهم . وبهذا نجا قتيبة من ذلك الخطر الذى ظل يتهدده أشهرا أربعة .

ولك أن تدرك هنا أن ترخان سمرقند قد خدع بدوره كذلك فى تفاوضه مع أعدائه . فهاهو ذا قتيبة ، برغم تصالحه معه، يتذرع بضرورة الاسراع فى بناء المسجد الذى نص عليه فى العهد ، وبدلا من أن يبعث اليه بالبنائين فى ذلك سير اليه أربعة آلاف من جنـــد العرب بأسلحتهم فنزلوا المدينة . وحين أراد الترخان أن يرد على هذه الخيانة سقطوا عليه وعلى أتباعه وقتلوهم جميعا . وفى رواية أخرى ، أن رجاله ثاروا عليه لقبوله دفع الجزية للعرب فقاموا عليه وخلعوه ، وحين تبدى له مدى ما جره على نفسه من العار بذلك قتل بنفسه بسيفه . وتعرضت سمرقند من بعد ذلك للنهب . وكان من السبايا ابنة ليزدجرد ، آخر ملوك الساسانيين ، سيرت الى الوليد . ويقال ان ما كان بهذه المدينة من أوثان وغيرها من الأشياء المصنوعة من الذهب قد بلغ وزنه أكثر من خمسين ألف مثقال .

وآن الأوان لجند العرب من بعد ذلك أن يأخذوا نصيبهم من الراحة التى كانوا جديرين بها ، فرجع بهم قتيبة الى مرو فقضوا الشتاء بها . وبهذه المدينة تزود قتيبة بمدد قوى تقدم به فى الربيع التالى لغزو بخارى ، وقد عقد العزم على أن يقوم بعمل حاسم يعلى به ذكره وذكر أسلافه . وكانت الملكة خاتون ، على رواية النرشخى ، ما تزال تمارس الحكم فى هذه المدينة الملكية على ضفاف زرفشان ، وهو أمر لا نستطيع أن نقطع به اذ تكون بذلك قد تقدمت فى السن الى درجة غير مقبولة ، وعلى أى فان القابض على زمام الحكم هناك ، كائنا من كان ، قد تبين له عدم جدوى المقاومة . ولقد غزا المسلمون بخارى ثلاث مرات من قبل ونشروا دينهم بها ، ولكن أهلها كانوا يرتدون الى عقيدتهم القديمة عقب رحيل الغزاة عنهم فى كل مرة . وها هى تفتح أبوابها للمرة الرابعة لتستقبل الفاتحين

ومعهم تعاليم نبيهم ، تلك التعاليم التى قوبلت أول الأمر بمعارضة شديدة ثم أقبل القوم من بعد ذلك عليها فى غيرة شديدة ، حتى لترى الاسلام الذى أخذ شأنه اليوم يضعف فى جهات آسيا الأخرى ، وقد غدا فى بخارى اليوم عام ١٨٧٣ على الصورة التى كان عليها أيام الخلفاء الراشدين .

ولقد اتخذ نضال قتيبة مع اتباع بوذا وزرادشت المتعصبين صورا متعددة واستغرق زمنا طويلا . ولم تكن التغييرات السياسية التى اضطلع بها العرب هناك مثار متاعب كثيرة لهم فى الغالب . فقد تركوا حكم المدينة بأيدى الخدات (الأمير) حاكمها الأول على أن يشترك معه فى الحكم عامل من قبل الخليفة يأتى فى المنزلة من بعده . ولم يلبث عامل الخليفة هذا أن رقى الى مرتبة الامارة فيما بعد وصار صاحب السلطان الفعلى وأهمل أمر الخدات التركى .

وكان على الخدات كذلك أن يدفع جزية سنوية قدرها مائتا ألف درهم الى الخليفة وعشرة آلاف لأمير خراسان ونصف صافى دخل الحمامات العامة الى العرب المقيمين بالمدينة . وكان هذا كله هو عموما أخف وطأة مما فرضه بعض الفاتحين المسلمين على بخارى الاسلامية فيما بعد . ولا شك أن البخاريين الأباة كانوا قد أدركوا فى الوقت نفسه أنهم لا طاقة لهم بالطرق التي كانت تستخدم لحملهم على اعتناق الاسلام .

وحين أدرك الفاتحون أن كثيرين ، ممن دفع به خوف الفتح الى اعتناق الاسلام ، يمارسون طقوسهم الدينية القديمة بحماس أكثر من ذى قبل فى سكون الليل أو فى تكتم بالغ (١) أمروا بأن يساكن كل واحد من أهل بخارى فى داره أحد العرب . وبهذا صار الشريك الجديد عينا على الأسرة التى يساكنها ، يراقب سلوك هؤلاء الذين دخلوا فى الاسلام ويفقههم فى أمور دينهم وينبىء ولى الأمر عمن يرتد منهم عن الدين .

بيت نار تحت سطح الأرض يعرف ببيت نار مفان ، أى بيت نار المجوس .
بيت نار تحت سطح الأرض يعرف ببيت نار مفان ، أى بيت نار المجوس .

ورصدت كذلك جوائز مالية لمن يظهر تمسكه بدينه من الأهلين ، فكان كل من يصلى الجمعة منهم بمسجد قتيبة الذى بنى عام ٧٤٢/٩٤ يصيبه درهمان . وفى هذا المسجد الجامع وفى غيره من دور الصلاة ، التى كانت قد أقيمت فى ريغستان ، كان المصلون يقيمون صلاة الجماعة يؤمهم الأئمة . وكان القرآن يقرأ بالفارسية (١) لا بالعربية تيسيرا على الناس ، وهو أمر لو جرى اليوم لاستبد الفزع بالمسلمين الذين يعتقدون — على رأى شائع بينهم — أن ترجمة هذا السفر العظيم هى جرم عظيم . على أن نضال أتباع زرادشت بازاء تعاليم الاسلام التى دخلت عليهم كان فى الغالب عنيفا مستميتا .

ومن بين ما وصلنا من القليل من أخبار تلك الفترة أن المسلمين ليثوا سنين طويلة لايجرؤون على الظهور بغير أسلحتهم سواء فى المسجد أو الأماكن العامة . ولم يمنع حظر حمل السلاح على الأهلين ، حتى يدخلوا فى الاسلام ، من تكرار وقوع الصدام العنيف بين الفريقين مدة طويلة . وقد عرف أعيان بخارى بمقاومتهم الشديدة للعقيدة الجديدة . وحين دعوا الى المسجد ردوا على هذه الدعوة بسيل منهمر من الحجارة أثار من ثائرة العرب حتى سقطوا عليهم ونهبوا قصورهم وأعملوا فيها التخريب والدمار . واستخدمت انقاض هذه الأبنية فيما بعد فى بناء المساجد حتى كانت أبواب كثير منها تحمل — على رواية النرشخى — تصاوير ونقوش وثنية . والعجيب أن هذه الأبواب قد لبثت على حالها هذا قرابة قرون ثلاثة مما لا يليق بالمسلمين من أهل السنة (٢) . وحين رأى القوم أنهم لم

---

(١) لا تجد حتى اليوم (١٨٧٣) الا مصحفا طبع على الحجر فى بومباى ويتخلل سطوره ترجمة فارسية له . ولا تجد من يقبل عليه الا بسطاء التركستانيين اذ لا يقبله المسلمون الغربيون .

(٢) يتكرر هذا الحديث نفسه عند بعض من أرخوا للمسلمين فى الهند وغيرها . والواقع أن المسلمين لم يعمدوا فى الغالب الى تخريب معابد غيرهم واستخدام موادها فى اقامة مساجدهم . وكل ما فى المسألة أنهم استخدموا ما وجدوه من بقايا المنشآت هناك فى اقامة منشآتهم . وعمدوا الى تغطيه ما قد يوجد بها من علامات الوثنية بطبقة من الجص سقطت بفعل الزمن (المترجم) .

يحققوا أهدافهم برغم ما عمدوا اليه من هذا الاجراء الشـديد ، انتزعوا بخارى من أيدى أهلها وقسموها بين العرب . فصار للبصريين ذلك الجزء الذى كان يمتد من بوابة العطارين حتى الحصن . وصار لليمنيين قسم آخر ، فى حين استحوذ آخرون على قسم من ضواحيهـا وفيه الكنيسة المسيحية التى اتخذوا منها مسجدا لهم . وعوملت سمرقند نفسها على هذا المنوال . وألزم كل واحد من أهلها أن يسلم ما بيده من سلاح . وكان كل غريب بها — كما يقول الطبرى — توسم يداه بخاتم لمدة مفروضة . ومن كان يخرج من بيته فى الليل يقتل .

لم يصبر قتيبة حتى تستقر الأمور فى بخارى فانطلق صوب الشرق يتم ما بدأه من الفتوح . فغزا فرغانة عام ٩٥ هـ (٧١١ م) وهى خانية خوقند الحالية ، ليتجه من بعد ذلك الى ممر تيترك فى تركستان الشرقية التى نعرفها باسم التتار الصينية . هنالك هاجم أمراء الأويغور ، وقد يسر له تفرق كلمتهم التغلب عليهم جميعا الواحـد بعد الآخر برغم استنجاد كثير منهم بالقلموق الذين كانوا ينزلون فى جنغاريا الشمالية . ويقال ان العرب قد بلغوا فى غزوهم هذا ولاية قانسـو . وبرغم أن تعاليم النبى العربى لم تستطع أن ترسخ أقدامها فى كاشغروختن وترفان الا بعد مضى زمن طويل ، اذ لبثت البوذية والمسيحية ولهما أتباع عديدون بهذه المناطق لعدة قرون من بعد ذلك ، فهناك حقيقة مشهورة ، هى موضع فخر عند أهالى تركستان ، مفادها أن ترفان قد سارع أهلها الى الدخول فى الاسلام أول ظهور العرب عنـدهم . على أن ذلك لا ينفى وجود أشد البوذيين تمسكا بعقيدتهم فى وديان تيان شان .

من هذا الموضع ، الذى غدا آخـر حدود الاسلام الشرقية ، آب قتيبة الى مرو بطريق فرغانة . دعاه الى ذلك موت الخليفة الوليد . وخشى قتيبة مغبة غضب الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك عليه ، وكان يعلم

---

(١) در عطاران هى العبارة التى وردت فى الأصـل . والظاهر أنها كانت عند الجنوب الغربى الى جوار بوابة قراقول حيث يقوم اليوم هناك حى العطارين .

مدى كراهيته له فبادر باعلان خروجه عليه.ويبدو أن قتيبة انما دفعه اباؤه الى سلوك هذا المسـلك حين كشف عن محاولة الخليفة الجديد استمالة فريق من جنده اليه بعد أن فشل فى التغرير بأمير خراسان القوى نفسه . وكان قتيبة حتى فى ثورته هذه بصـيرا يتدبر العواقب . وحمل رسوله كتابين آخرين الى جانب كتاب التهديد الذى بعث به الى الخليفة . أما الأول فكان يعرض فيه ولاءه وأما الثانى فكان يسخر فيه من يزيد بن المهلب ، وكان قتيبة يخاف منافسته له بوجه خاص . وفى الكتاب الثالث أعلن قتيبة أنه لن يتردد فى الجهر بالخروج على الخليفة اذ ما بعث بيزيد مكانه . ولمـا كان قتيبة قد توقع بحق ، تقريب الخليفة ليزيد وملازمته له ، فقد أوصى رسوله بأن يتقدم الى سليمان بالكتاب الأول حتى اذا ما رآه يدفعه الى يزيد فليقدم اليه الكتاب الثانى كذلك فاذا ما جعل يزيد يقرؤه فليدفع اليه بالثالث (١) .

ووجد الرسول يزيد بالفعل عند الخليفة ، فسار على ما رسمه له أميره . ولم يبد سليمان للرسول شيئا وأذن له فى الرحيل بسلام . ولم يكد الرسول يعود الى بلده حتى كان قتيبة قد فرض فى نفسه أن الأمور قد انتهت بالفعل على الوجه الذى ظنه ، أول الأمر ، أو لعله كان قد أخبر بذلك قبل عودة رسوله ، فرفع راية العصيان . على أن أمله خاب الى درجـة كبيرة فى ذلك الجند الذى سار بهم فاحرز أعظم الانتصـارات الباهرة الكثيرة واستحوذ على الأموال الطائلة . ولو كان قد استمع الى نصيحة أخيه عبد الرحمن حين نصحه بالمسير الى بلاد ما وراء النهر واقامة ملك مستقل له بها لكان قد أفاد من روح التمرد والثورة وحب المغامرة التى كانت تغلب على أهل تلك البقـاع . ولكنه أصر على البقاء فى مرو

---

(١) انظر Weil, Geschichte der Chaliphen vol 1 P.5 565 Mannheim 1856 (المؤلف) .

كتب قتيبة الى سليمان كتابا يهنئه بالخلافة ويذكره ببلائه وطاعتـه لعبد الملك والوليد وأنه على ذلك ان لم يعزله ، وكتب كتابا آخر يعلمه بفتوحه وهيبته عند ملوك العجم ويذم أهل المهلب ويهدده بالخلع ان هو اسـتعمل يزيد ، وكتب كتابا ثالثا فيه خلعه ـ ابن الأثير ج ٥ طبع ليدن (المترجم) .

معتمدا على ولاء جنــده له . وفى مرو وقف قتيبــة يتحدث الى قومه ويبصرهم بحسن ادارته لحكومة خراسان وما ينتظرهم من بؤس وشقاء اذا ما صار الأمر الى خلفه العاجز الفاجر . وعبثــا أخذ يذكرهم بأنه قد ضمهم الى جيشه فقراء معوزين فأغناهم بكنوز أمراء الترك والفرس . بل لقد ألهبت كلماته هذه من حماس أولئك الذين تآمروا عليه وعلى رأسهم وكيع بن الأسود وحسن بن اياس . وحين بان له غدرهم فحاول أن يتمكن من ابن اياس ، سقط عليه المتآمرون وقتلوه بعد نضال مرير ســقط فيه أغلب اخوته وكانوا على رأس عدد قليــل من الموالين له الذين أسرعوا يدافعون عن داره (١) . وهكذا قضى فى شهر ذى الحجة من عام ٩٦ هـ (٧١٤ م) وهو فى الرابعة والسبعين من عمره المليء بالحياة ، ذلك الرجل الذى أقام للاسلام دولة قوية عظيمة فى الشرق وأجهز على دين زرادشت، ذلك الدين الذى أثخنته الجراح فى القادسية والنهروان ، وغرس مكانه تعاليم الاسلام فى أرض كانت على الدوام أخصب البقاع حمية وتحمسا لهذه العقيدة الجديدة .

(١) يروى الطبرى تفاصيل نهاية قتيبة المؤلمة فى أسلوب مؤثر جذاب فيقول : ان جنده الذين شاركهم الصعاب وركب معهم الأخطار هجروه ؛ وكذلك بنو قومه الذين أغناهم ، بل وأقاربه الذين نفروا بطبيعة الحال من فكرة الخروج على الخليفة ، فلم يبق الى جانبه حتى آخر ساعات حياته الا نفر قليل ، فأحيط بداره من كل جانب واشــتعلت النيران فى مرابط دوابه حتى لم يجد فرسا يركبه فقاتل أعداءه وهو عــلى قدميه ، وفطن للهيثم بن المنخل وكان ممن يعين عليه فأنشده هذا البيت :

أعلمه الرماية كل يوم   فلما اشتد ســاعده رمانى

وأصابه أول الأمر سهم من رجل يدعى جهم ثم أجهز عليه من بعد ذلك آخر بسيفه . (**المترجم**)

الفصل الثالث
الفتن السياسية والدينية
إبان الحكم العربي

٩٦ (٧١٤) – ٢٦١ (٨٧٤)

كانت بخارى وتركستان كلها تعد طوال مدة الفتح العربى مجرد أقسام من ولاية خراسان . فكانت الحاضرة المتشامخة على زرفشان وبيكند الغنية وفرغانة بلد الصناعة ، هذه جميعا كانت تخضع لما يصدر اليها من مروشاهجهان « مرو ملكة الدنيا » . وكان على بخارى أمير وعلى سمرقند أمير . ولكن هذين الأميرين كانا على سلطان محدود يخضعان فى كل أمورهما لحكومة خراسان . فتاريخ بلاد ما وراء النهر ، منذ ذلك الوقت ، هو تاريخ حكومة الأمراء العرب الذين كان يندبهم الخلفاء فى دمشق او فى بغداد لحكم تلك الولاية الشرقية التى تقوم عند حدود دولتهم (١)

ولم تسترد هذه الولاية استقلالها السياسى حتى أقام السامانيون عرشهم على الجانب الآخر من جيحون فلم يكونوا يقرون بولائهم للخلفاء الا لمجرد اعتبارات دينية . وكانت فترة الحكم العربى التى امتدت قرنا ونصف القرن سلسلة متصلة من الفتن ، والمنازعات الداخلية والاضطرابات بسبب سلوك أمير خراسان نفسه أو بما كان يثيره منها سكان تلك الولاية الذين لم يركنوا الى الهدوء أبدا . وقد تمكن حكام خراسان فى وقت ليس بالطويل من أن يجمعوا لأنفسهم ثروات طائلة . يدفعهم الى ذلك الجشع الشديد ميلهم الى الثراء الشخصى من ناحية ، وحرصهم على

---

(١) من الشواهد على ما أصابه الحكام العرب من الحظ الوافر بخراسان ، ما يذكره الطبرى بأنه فى فتنة رافع بن الليث نهب المتمردون دار أمير سمرقند فوجدوا فيها ما يقرب من ثلاثة آلاف ألف درهم .

تدعيم مراكزهم فى بلاط الخليفة بالبذل من ناحية أخرى . هذا كما أن بعد تلك الولاية بعدا شاسعا عن مركز الخلافة قد أغرى حكامها بالاستقلال بما بأيديهم من ملك . وقد وجد هؤلاء الحكام فى أهل هذه البلاد المحاربين بطبعهم استعدادا لمناصرة كل ثائر بدورهم . وفى هذا تعليل ظاهر للمتاعب التى تعرض لها الخلفاء فى خراسان من أول الأمر ، وسبب المصاعب الشديدة التى واجهتهم فى اقرار الأمور فيها لفترات طويلة .

ولقد اختار الخليفة سليمان ، يزيد بن المهلب عام ٧١٥/٩٧ مكان قتيبة الذى جنى عليه فى الغالب ما أصاب من توفيق باهر ، كما رأينا من قبل ، فأورده مورد التلف . واتجه عامل الخليفة الجديد أول ما اتجه الى التخلص بطبيعة الحال من عمال قتيبة ، فأبعدهم عن مناصبهم أول الأمر ثم صادر أملاكهم من بعد ذلك وألقى بهم فى الحبس . ولم يجرؤ أحد طوال مدة حكم سليمان على التعرض لما كان يرتكبه يزيد من مظالم . حتى اذا ما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز راح يكيل لابن المهلب بما كال به سليمان لقتيبة من قبل ، اذ كان قد أثار شكوكه بما صار له من النفوذ والثراء البالغ فى مدى عامين . وحين تأكد له اعتزام عامله هذا على الخروج عليه ، رأى أن يسبقه فى خططه ويفسدها عليه ، فعهد بخلع يزيد الى قائده مسلمة وكان يقود الجند فى حرب الروم اذ ذاك . وكتب الخليفة فى الوقت نفسه الى يزيد يستدعيه (١) ، فلبى الدعوة ، حتى اذا ما بلغ

---

(١) كان كتاب الاستدعاء على هذا النص الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى يزيد بن المهلب » ... اعلم يا يزيد أن سليمان كان عبدا من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفنى ويزيد بن عبد الملك من بعدى ان كان ، وان الذى ولانى الله من ذلك وقدر لى ليس على بهين ، ولو كانت رغبتى فى اتخاذ أزواج واعتقاد أموال كان فى الذى أعطانى من ذلك ما قد بلغ بى أفضل ما بلغ بأحد من خلقه ، وأنا أخاف فيما ابتليت به حسابا شديدا ومسئلة غليظة الا ما عافى الله ورحم ، وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك واستخلف على خراسان وأقبل » .

الطبرى حوادث سنة ١٠١ هـ . وأنبه هنا الى أنى أثبت فى مثل هذه المواضع النصوص على ما وردت فى أصولها العربية بمصادرها الاولى .

(المترجم)

البصرة ألقى القبض عليه وزج به فى السجن ، فلم يطلق سراحه حتى مات عمر عام ١٠١/٧١٩ . وطال الصراع بين يزيد ومسلمة فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك حتى غلب ابن المهلب على أمره وقتل . وقد اتخذ مسلمة مكانه فعهد بحكم بخارى وسمرقند الى سعيد بن عمر والجريشي .

واذ كانت فرغانة قد نفضت عنها حكم العرب ابان هذه الاضطرابات الأخيرة ، فقد سير سعيد الجند لحرب أميرها ، وكان يدعى خلج(١)وظلت الحرب بينهما سجالا بعض الوقت حتى قضوا عليه آخر الأمر ، ثم عادوا الى بخارى بغنائم وفيرة . كذلك ركن الترك الى الثورة من جديد ببلادهما وراء النهر ، وهم الذين لم يعرفوا الى الهدوء سبيلا ، وظلوا على هذا الحال بضع سنين فى عهد الخليفة هشام ١٠٦/٧٢٤ استولوا فيها على سمرقند ، الأمر الذى أدى الى تسيير جيش عربى كبير اليهم ، وقد سير اليهم خالد بن عبد الله أمير خراسان اذ ذاك أخاه أسدا وكان مسالما أكثر منه رجل حرب ، فجهد ، دون جدوى ، فى اقرار الأمور هناك ثلاث سنين اضطر من بعدها الى التراجع بخسائر كبيرة . واضطرب هشام للهزائم التى نزلت بأخيه فعزله وندب مكانه أسرش (٢) بن عبد الله فلم يكن حظه بأحسن من حظ سلفه .

وجمع ترك سمرقند يناصرهم خواقين فرغانة وتركستان الشرقية قوة تزيد على مائة ألف رجل فاضطر جندب أمير خراسان الجديد أن يخرج اليهم بنفسه . وندب على مقدمة جيشه مسور بن أبى بكر الدارمى فسار فى عشرة آلاف رجل الى سمرقند عن طريق بيكند ، فى حين سلك جندب نفسه طريق بلخ . ولم يجرؤ خاقان سمرقند على التعرض لقوات العرب

---

(١) هنا نرى الكتاب العرب يطلقون اسم القبيلة كذلك على ذلك الأمير ـ انظر هامشنا على هذا فى الفصل الأول .

(٢) يروى الطبرى أن أسرش خسر أول الأمر ألفا من رجاله وكانوا من بنى تميم التى كانت تنزل ببخارى . وقيل أنه هزم الترك من بعد ذلك ثم رجع الى بخارى ، وهو تعارض لا يفسر الا بأنه فشل فى مهمته .

الرئيسية وكان يلتف حول رايته مائة وعشرون ألفا على رواية الطبرى ، ولكنه انقض فى عنف بالغ على مسور وكان قد اعترض طريقه ، فانزل به هزيمة قاصمة سقط فيها القائد العربى نفسه وكل من كان معه من الجند فلم يفلت منهم أحد . وبكى جندب بكاء مريرا حين بلغه نبأ هذه الكارثة وظل يردد قوله تعالى « انا لله وانا اليه راجعون » . ولم يفته أن يجمع جموعا من المدن الكبيرة فى خراسان وطخارستان حتى اذ ما تم له جمع جيش بلغ أربعة وثلاثين ألف جندى ، انطلق يهاجم الترك من جديد فهزمهم هزيمة حاسمة (١) . وقد ترك عندئذ نصر بن سيار عاملا له على سمرقند ثم آب مظفرا الى مرو حيث مات بعد قليل . وخلفه أسد بن عبد الله على خراسان . وكان على أسد هذا أن يزيح من طريقه غريمه الحارث بن شريح ولكن الأجل وافاه ببلخ وهو فى طريقه اليه .

ولئن كانت قوة الترك قد تضعضعت الى حد ما عقب تلك المعركة التى هزمهم فيها العرب ، الا أن ذلك لم يمنع من وقوع بعض الاضطرابات ببلاد ما وراء النهر حتى عهد بحكومة خراسان الى نصر بن سيار وكان شديد المراس قوى الشكيمة . وهذا الرجل الذى تميز بعلو الهمة والحذر ، كان كما رأينا من قبل عاملا على سمرقند حتى اختاره لحكومة خراسان هشام قبل وفاته عام ١٢٥/٧٤٢ بزمن قصير (٢) . ولاأدل على كفايته من أنه

---

(١) كان الخاقان اذ ذاك منهمكا فى مهاجمة سمرقند ، وكانت زوجات المسلمين وأطفالهم قد احتموا فيها . وبهذا يكون جندب قد جاء فى الوقت المناسب . وقد غنم من وراء هزيمته للترك غنائم وفيرة .

(٢) يروى النرشخى أن نصر بن سيار نزل ببخارى وهو فى طريقه لغزو خوقند وبنى هناك بابنة طغشاد . وحدث وهو جالس أمام خيمته فى شهر رمضان ومعه طغشاد أن وفد عليه رجلان من أعيان بخارى يشكوان اليه من ظلم طغشاد لهما هو وأمير بخارى الفضل بن عمر . ولما كان هذان الرجلان قد اعتنقا الاسلام على يد نصر فكان يهتم بأمرهما اهتماما كبيرا ، تحدث من فوره الى طغشاد بهذا الشأن . هنالك جرى فى خاطرهما أن طغشاد انما يطعن فيهما حتى ينتهى بهما الحال الى التلف ، فعزما على الثأر منه وسقطا عليه وعلى الفضل أمام خيمة نصر . وأصيب طغشاد بجروح مميتة ، فقدم اليه نصر وسادته ليتكىء عليها ، وعهد الى طبيبه الخاص قراجه بتطبيبه ، ولكنه أسلم الروح . وينقل النرشخى هنا ما لاحظه « البيزار » من أن خدم طغشاد استخرجوا عظامه من جسده بعد موته .

استطاع أن يحتفظ بمنصبه هذا فى ظل خمسة من الخلفاء على التوالى ، وهم : هشام والوليد ويزيد وابراهيم ثم مروان بن محمد آخر بنى أمية الذى توفى عام ١٣٣/٧٤٩ ، فلم يخلع من منصبه فى الواقع الا على يد أبى مسلم عام ١٢٩/٧٤٦ حين سقطت الدولة الأموية ، وكان من اتباعها المخلصين . وأول ما ركن اليه نصر فى حكومته الجديدة هو العمل على اخضاع بدو الترك فى بلاده ما وراء النهر وفرغانة اخضاعا تاما . وكان هؤلاء هم أغلب المحاربين من بين السكان ، كما كانوا مثار متاعب كثيرة للعرب . وأصابه التوفيق فى حملته هذه التى بلغ بهـا حـدود فرغانة الشرقية وتخطاها الى كاشغر . ولم يكتب له الفوز فى ذلك لقوة جيشه فحسب ، وانما لما كان عليه كذلك من لين العريكة وميل الى العـدالة ، ولعل ما كان يتحلى به من هذه الصفات الحميدة هى التى عوقت أبا مسلم الخراسانى (١) من أن يكسب كل بلاد ماوراء النه لرصفه . وكان أبومسلم هذا صبى سراج فصار مؤسس دولة .

(١) كان أبو مسلم يدعى أصلا عبد الرحمن بن مسـلم ، وقد نسب نفسه الى خراسان . وهو من قبيلة بنى عجل ، وكان فى شـبابه سراجا . وكان قد صحب فريقا من متعصبى الشيعة فى خراسان خرج معهم الى الحج. وفى مكة وكل اليه محمد على بن عبد الله ، زعيم العباسيين أمر الدعوة لبنى العباس لما أدركه عنده من الذكاء والشـجاعة . وأوصى الزعيم العبـاسى أصحاب أبى مسلم بمعاونته ومساندته عند الحاجة . ورجع أبو مسلم الى خراسان ، وانتظر حتى انبرى الكرمانى يعادى نصر بن سيار فى العلن ، وكان الكرمانى هذا أميرا قويا فى جنوب فارس . حتى اذا ما بدآ لأبى مسلم رجحان كفة الكرمانى بادر بالانضـمام اليه ، فلم يعلن الحرب على نصر بن سيار فحسب ، بل جهر كذلك بحرب الأمويين ودعا أهل خراسان الى أن يبايعوا العباسيين . ولبى دعوته أول الأمر ألف رجل سـاروا معه . ثم غدت شيعته تزداد قوة حتى بدا لنصر بن سيار أن لا سبيل الى مقاومته . وحين تراخت الخلافة فى انجاده اضطر الى الانسحاب من الميدان حيث مات فى موضع بظاهر طهران الحالية . ووجد أبو مسلم فى قحطبه ، أمير أصفهان ، ظهيرا قويا ، فقد فتح باسمه جرجان وقم وقاشان وأصفهان أغلب بلاد فارس — فضلا عن أنه كان يعمل القتل فى كل من كان يصادفه من اتباع الأمويين فى كل مكان ، ويعلن أن أبا مسـلم هو عامل العباسيين الشرعى . واستمر قحطبة فى زحفه من بعد ذلك حتى بلغ الكوفة حيث وقعت المعركة الفاصلة بينه وبين الأمويين على ضفاف الفرات . ولئن كان قد قتل هو فى هذه المعركة الا أن ما أحرزه جنـده من نصر باهر قد أتى بالعباسيين الى عرش الخلافة .

ان انضواء أتراك ما وراء النهر هم وأتراك خـوارزم في يسر تحت راية العباسيين السوداء ، بل وتحمسهم كذلك لدعوتهم انما يستبين في اجلالهم البالغ لذكرى أبي مسلم (١) اجلالا تلمسه حتى اليوم عند الأوزبك والتركمان بدورهم . على أن المراجع التاريخية تقول بلا لبس بأن سكان هذه البلاد من الايرانيين ، اى التاجيك ، قد حاربوا تحت راية نصر بن سيار وبقوا على ولائهم للأمويين أمدا طويلا . وما أبداه نصر بن سيار من المقاومة ، لا بازاء القوات التي واجـهها فحسب ، وهي التي كانت تتفوق عليه في عددها ، بل وكذلك في وجه الدعايات التي كان يبثها أبو مسلم ، هذه كلها موضع تقديرنا واحترامنا . ذلك أن الموت ، الذي فاجأه وهو في انسحابه ، هو وحده الذي أنهى حكم الأمويين في خراسان . ولا يمنعنا ذلك من أن نشهد لأبي مسـلم اذ نجح نجاحا مذهلا في أن يكسب لصفه ، في وقت قصير ، أتـراك بلاد ما وراء النهر ، حتى ذهبت القصص التي تجدها الى يومنا هذا تجرى على لسان الأوزبك والتركمان ، تقرنه بالخليفة على (بن أبي طالب) لجرأته وما أتى به من عجيب الفعال . وعلى أى فان شخصية أبي مسلم القوية هي التي جعلت الناس لأول مرة يشعرون بتفوق الترك في آسيا الغربية (٢) ومن عجب أن الأقدار التي هيأت لراية العباسيين السوداء أن ترفرف عاليـة بعون من التوارنيين ، قدرت لها فيما بعد أن تمرغ في التراب ببطش أحـد الأمراء التورانيين كذلك .

ولئن سيطر على بلاد ما وراء النهر سيطرة تامة رجال من أمثال نصر

---

(١) اطلعت في آسيا الوسـطى على مخطوط يفصل حياة أبي مسلم وفعاله (انظر كتابي : (Chagatiscche Sprachstudien . p. 37 ، travels in : Central Asia p. 358

وأضيف الى ذلك فقط أن التركمان كانوا يعتبرونه واحـدا من بني جلدتهم حباه الله بصفات الرسل فأنقذ بذلك العقيدة الاسلامية من التلف . وفي الأغاني الشعبية الحماسية التي غناها شعراء الترك في مدحه ، جعلوه بطلا ، كرستم ، أفنى عمره في حرب المشركين من الفرس .

(٢) يذكر مخطوط أبي مسلم الذى أشرت اليه في الهامش السابق أن الجيش الذى هزم به قحطبة الأمويين كان في أكثره من الأتراك ، وهي واقعة يفسرها ما كان لأبي مسلم من نفوذ بالغ في خراسان وبلاد ما وراء النهر .

ابن سيار وأبى مسلم ، الا أن الاســلام كله كان قد تعرض لهزات عنيفة بسبب الصراع المذهبى الذى أثاره الشيعة والخوارج من جهة ، وبسبب تغيير أسرة الخلافة من جهة أخرى ، ذلك التغير الذى استند على دعوة دينية وقام عليها . ولم يكن من الطبيعى مع هذا كله أن تبقى نفوس أهل تركستان المضطربة بمنأى عن التأثر بتلك الفتنــة . وكما اتخذ الشعور القومى المكبوت فى ايران من حمــاس الشيعة المذهبى سترا يتستر به لمحاربة نفوذ العرب ، فقد توسل كذلك أهــل بلاد ما وراء النهر بالدين للتخلص من استبداد العرب . وتجلى أول مظهر من مظاهر هذا الشعور فى بخارى ، اذ انطلق أهلها ينادون بالثورة انصارا لمذهب الشيعة ، على ما فعل بنوجلدتهم بايران . وحدث ابان حكم أبى مسلم فى خراسان أن رفع علم الثورة شيعى متعصب يدعى شريك بن الشيخ المهدى داعيــا الى مبايعة خليفة من العلويين ، وكان يقول فى دعوته : « لقد أنزل بنا بنو مروان المذلة والهوان والحمد لله الذى كفانا أمرهم . وما على هذا اتبعنا بنى العباس ، على أن نسفك الدماء ونعمل بغير الحق ، ولا يكفينا ذلك كله الا خليفة من أهل البيت » ومما يسترعى النظر أنه لم ينضم اليه أغلب سكان العاصمة الواقعة على زرفشــان فحسب بل انضم اليه كذلك من الزعماء عبد الجبار بن شعيب وأمير خوارزم .

ويحتمل أن الحركة التى تزعمها شريك كان يسندها جيش قوى . وحين وقف أبو مسلم على أمرها بعث من فوره الى بخارى بالقائد زياد بن صالح على رأس عشرة آلاف من الجند لقى بهم العصاة بظاهر المدينة فى معركة استمرت ســبعة وثلاثين يوما نزل فيها بالمهاجمين خسارة جسيمة بسبب ما كان عليه اتباع شريك من تفــوق فى العدد . على أن انصار الشيعة هؤلاء ما لبثوا أن اضطروا بسبب الجوع الى التخلى عن مركزهم القوى ، فأخرجــوا منه ليتوجهوا من بعد ذلك الى نوقند ، وهى مكان يشتهر بوفرة فاكهته . وهناك نزلت بهم الهزيمة كذلك وأعمل فيهم القتل وترك زياد نوقند والنار تستعر فيها ، فلم يعرج على بخارى ، وانما استمر فى سيره الى سمرقند . ولعله انما فعل ذلك ليستأصل شأفة الشيعة بها وكان عددهم قد تزايد هناك الى درجة كبيرة .

ولئن كان الشـــيعة قد أخمدت أنفاسهم فى تركســتان وآمن كيان الاسلام من خطر التشيع فى الشرق القصى ، فقد هبت ثمة زوبعة عاتية أخرى استمرت قرابة ربع القرن وكادت تقتلع جذور الاسلام الغضة ، ولما يمض قرن من الزمان ، على غرسها هناك ، وهى التى ارتوت فى سبيلهــا تربة سهوب تركستان الصحراوية الرخوة بالدماء الغزيرة . وتمثلت تلك الزوبعة فى ظهور المقنع ، النبى المزعوم ، الذى يشتهر باسم « النبى المقنع » الخراسانى . وكان قد جهر أول الأمر بدعوته فى بلاد النهر عام ١٥٠/٧٦٧ فكانت دعواه هذه بداية نضال استمر أكثر من خمسة عشر عاما وأثار فتنة ظلت آثارها تلتمس لقرون كثيرة فيما بعد .

كان المقنع ، أو هاشم بن حكيم (١) ، كما كان يدعى فى الأصل ، من أهل حزه باقليم مرو . وقد عرف فى شبابه بذكائه الخارق وذاع عنه اطلاعه على معارف الأسرار (السحر) . وكان أبوه قائدا فى خدمة أبى جعفر الرواقى البلخى ، وقد شـــغل المقنع المنصب نفســـه أول الأمر عند أبى مسلم (٢) . ولا ندرى أكان ما صادفه من تجارب فى آسيا الغربية ابان التحاقه بخدمة حليف الخلافة العتيد هذا ، هو ما ذكى خياله وأوهامه ؛ اذ كانت هذه هى الفترة التى راجت فيها البدع من كل نوع فى العالم الاسلامى (٣) أم أن الأوقات المثيرة التى كان يعيش فيها قد انفعل بها حتى بات يخيل اليه أنه قد غدا وله قدرات علوية . وانما الثابت أنه قال

---

(١) كان حكيم ابنا لزيات فى مرو يدعى عطاء Weil, History of the Khalifs Vol. II p. 101.

(٢) يقول وايل انه كان حاجبا لأبى مسلم .

(٣) كان عهد الخليفة المهدى ، كما يلاحظ الطبرى بحق ، هو الفترة التى راجت فيها الأراجيف الدينيـــــة . وهو يحكى فزعا عن أناس أنكروا الرسول والقرآن ، ورأوا الزنادقة معصومين فلا تكليف عليهم بالصلاة أو الصيام وهو يقول ان هؤلاء الزنادقة كانوا أشد كفرا من اليهود وعبدة الأوثان وعبدة النار ، اذ أن هؤلاء لهم ما يعتقدون فيه على الأقل ، فى حين يؤكد هؤلاء الزنادقة ان العالم لا بداية له أو نهاية ، وأن الناس والدواب يظهرون فى الدنيا كما يظهر النبات فلا يعلم أحد شيئا عن كيفية مجيئهم أو ذهابهم ، وأنه لا حياة بعد الموت ولا عالم غير هذه الدنيا .

بصفات النبوة عنده فى عهد أبى مسلم . ولما كان يعلم تمام العلم أن أبا مسلم لا يطيق أى سلطان بجانب سلطانه فقد ركن فى البداية الى الهدوء حدا ما . حتى اذا ما مات أبو مسلم وافلت زمام النظام والطاعة فى خراسان ، رأى أن الفرصة بذلك قد واتته ، فانطلق يجهر بنبوته . ولكن ما غدا أن قبض عليه وسير فى القيد الى بغداد . ولا نعرف الوقت الذى قضاه هناك على وجه التحديد ، وكل ما نعلمه أنه رجع من هناك ، كما رجع الباب (١) فى العصور الحديثة ، وقد قويت أوهامه فى بعثته النبوية فجمع حوله بقايا اتباعه السريين من جديد وراح يروج لدعوته فى حماس بالغ .

حين ظهر المقنع بين اتباعه لأول مرة ، وكان ذلك حوالى عام ١٥٠/٧٦٠ وسألهم عن نفسه فأجابوه بأنه هو هشام بن حكيم ، رماهم عند ذلك بالجهل وقال لهم انه انما هو الههم ورب العالمين . وأنه يدعو نفسه بما يشاء من الأسماء . وأنه ظهر من قبل فى صورة آدم ثم فى صورة ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وأبى مسلم ، وهو اليوم على الصورة التى يرونها . وحين سألوه كيف بلغ هؤلاء درجة النبوة فقط فى حين بلغ هو درجة الربوبية ، أجابهم بأن هؤلاء جميعا مجرد متجسدين فى حين أنه هو روحانى كامل قدير على أن يتخذ الصورة التى تتراءى له . وبقى أول الأمر فى نواحى مرو وبعث رسله من هناك الى تركستان يدعون الناس الى الدخول فى ملته بهذه الدعوة « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هشام بن حكيم ملك الملوك ، الحمد لله الأحد الذى تحول فيما مضى فى صورة آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى وأبى مسلم . هو أنا المقنع رب

---

(١) كان الباب الذى أثار بمذهبه الجديد الاضطراب فى فارس كلها ، قد بدأ دعوته بدوره كذلك بعد ايابه من بغداد . وكما كان المقنع يبعث بضلالاته الى أتباعه وهو فى ملاذه الصخرى دون أن يتصل بهم ، فكذلك دفع الباب بأتباعه الى ارتكاب فعال غاية فى الجراة فى حين كان هو لعدة سنين سجينا بقلعة جريج . المؤلف .

والبابيه ظهرت فى منتصف القرن التاسع عشر أيام السلطان القاجارى ناصر الدين شاه الذى قضى بشنق « الباب » ، ومن بعده تطورت الدعوة الى البهائية . الخشاب .

القدرة والعظمة والحق ، فبادروا الى وآمنوا بى والتفوا من حــولى . واعلموا أن لى ملك الدنيا والعظمة والقدرة ، ولا اله غيرى ، فمن تبعنى دخل الجنة ومن عصانى دخل النار » .

وكان من أثر فورة التشيع العدائية التى عمت العالم الاسلامى فى ذياك الوقت ، وما صاحبها بخاصة من اضــطرابات بسبب تغيير الخلافة القائمة ، أن شجع ذلك كله الى حد كبير الطبقات الدنيا بتركستان على الارتداد عن الاسلام ، لتقبل جمــوعهم من بعد ذلك على اعتناق دعوة المقنع ، وكانت نفوســهم ما تزال بها رواسب قوية من عقيــدة المجوس القديمة . وحين حاول حميد ، أمير خراســان اذ ذاك ، أن يقبض عليه انطلقت قرى كثيرة تدعوه ليأوى اليها . ولم يقتصر الأمر عند هذا فحسب بل لقد صار له كذلك كثير من الأنصار من المبيضة (سفيد جامكان) عند الجانب الآخر من جيحون فى بخارى وسمرقند وكش ونخشب (١) ، حتى عزم على النزوج الى هناك حين شعر بأن لا سلامة له فى المقام عند مرو. وبرغم ما كان من تشديد الحراسة بمواضع عدة من النهر حين عرف ما اعتزم عليه ، فقد تمكن آخر الأمر من عبور الماء بسلام فى ستة وثلاثين من اتباعه آوى بهم الى حصــن مكين من حصــون كش يقع على جبل سام (٢) . وفى هذا المخبأ الحصين أقام ذلك النبى المزعوم وقد بقى يخفى

---

(١) طلب اليه أحد أتباعه أن يأتيهم بمعجزة فأخرج لهم من أحد الآبار جسما مضيئا على هيئة القمر . ولا يزال « ماه نخشب = قمر نخشب » مجازا رائجا عند الشعراء الفرس . والعجيب أن النرشخى ، وهو الذى أفاض فى الحديث عن المقنع ، نراه لا يشير الى هذا الحادث .

(٢) يذكر الطبرى هذا الحصن باسم نواكث ، ولما كان الحصن المقصود يقع عند الشمال من كش (ذلك أننا نعلم أن القائد العربى داود الذى كان عليه أن يسير من هذا الحصن الى بلخ كان عليه أن يمر بكش فى طريقــه) فلابد أنه كان اما حصن يمنى أو حصن كتاب . وكلاهما حصــنان قويان مهمان عند الشمال من شهرسبز الحالية .

هذا ويذكر الأستاذ وايل هذا الحصن باسم سنم فى كتابه
History of the Khalifs vol. II p. 103.

وجهه بقناع أخضر ، أو ذهبي على بعض الروايات حتى سمي بالمقنع (١) . وعاش في مخبئه هذا طوال الحرب الدينية التي استغرقت أربعة عشر عاما فلم يغادره أبدا . وحين انسحب من حياة العلن كان يدير شئونه في الغالب بواسطة نوابه الأقوياء . وكانوا هم قواده في الوقت نفسه . وكان على رأس فتنته ، التي انطلقت شرارتها الأولى أول ما انطلقت من قرية غير بعيدة من بخاري ، عربي من بخاري يدعى حكيم ومعه ثلاثة من قادة الجيش هم : حشرى وبغى وكيردك (٢) . وهاجم المبيضة من أتباعه أحد المساجد فقتلوا مؤذنه وخمسة عشر ممن كانوا به من المصلين ، فأشاعوا بصنيعهم هذا ، في مهاجمة المسلمين ، الرعب والفزع في كل تركستان . هنالك انطلق أمير بخاري حسين بن معاذ في أول محاولة لدفع هذا الخطر المتزايد ، فسار بكل القوات التي كانت تحت امرته ومعه أهل بخاري وعلى رأسهم القاضي عامر بن عمران ، فقصدوا جميعا قرية نرشخ ، وكان اتباع المقنع قد ركزوا أهم قواتهم بها . وأراد القاضي أول الأمر أن يقرع الحجة بالحجة معهم ، فحين خاب في مسعاه قام القتال . وانتهت أول هجمة في صالح العرب ، على رواية النرشخي ، حتى قيل ان سبعمائة من المبيضة سقطوا في الميدان . على أن ذلك لم يؤثر في الموقف الا القليل على كل حال . وسرعان ما بان عجز القوات المحلية ببلاد ما وراء النهر عن مواجهة الثوار ، وبات على أمير خراسان أن يقوم باجراء حاسم في هذه المسألة .

لم يقف نشاط المقنع السري ، — وهو الذي كان يحيط نفسه بهالة من القداسة اعتقد الناس معها بأنها من نور الله — عند الدرجة التي صار

---

(١) يحكي النرشخي والطبري أنه كان يسدل هذا النقاب على وجهه ليخفي به عينا مفقوءة . وحين نرد هذا القول السابق الى كراهية المسلمين له (وهو أمر محتمل) فاننا نستطيع أن نقول : لعله أراد بذلك أن ينهج نهج الخليفة (علي بن أبي طالب) الذي كان يسير في الغالب وعلى وجهه حجاب يبدو في تصاوير الشيعة له .

(٢) يذكر الطبري أمين سر المقنع باسم طخارجي ، كما يذكر قواده الثلاثة باسم سرخومي وحبوب وغيك أوكياك ، وقد أوردت هنا الأسماء التي ذكرها النرشخي فهي أوثق في كل ما يحكى عن المقنع .

معها اتباعه لا يحجمون عن ركوب أشد الأخطار والتعرض للموت عن طيب خاطر انتصارا لدعوتهم ، حتى استطاع ذلك المتنبىء أن يقوى من مركزه في ناحية أخرى وذلك بتحالفه مع الترك . وشارك في نصرة هذه الدعوة شيخ من شيوخ القبائل التركية يدعى خلـخ أو قلق (١) ومعه ألوف من بني قومه . ولا يعزب عن البال أن اسلام الترك فى تلك الآونة لم يكن فوق الشبهات ، فضلا عما كان يتيح لهم انضمامهم الى المقنع من فرص مواتية للسلب والنهب . وكانت جموعهم هى التى وقفت فى الحقيقة فى وجه القوات العربية طويلا . وبأمر مشدد من الخليفة المهدى سير عبد الملك أمير خراسان اذ ذاك القائد جبرئيل بن يحيى الى بخارى ، فما زال فى شد وجذب مع قوات المبيضة أمام سمرقند (٢) حتى أسقط فى يده . وبات فى عجز تام ، لتهب لنجدته من بعد ذلك قوة من بلخ قوامها سبعة آلاف من الرجال يقودهم عقبة بن مسلم . على أن هذا القائد لم يلبث أن نكص على عقبيه بعد أن توسط الطريق وذلك بتدبير ناجح (٣) عمد العدو اليه ، على رواية الطبرى . بل ان القوات العربية ، ومعها الامدادات التى بعث بها أمير خراسان وقوامها أربعة عشر ألف رجل تجمعت كلها فى ترمذ ولم يكن لها قبل بأتباع المقنع المتعصبين ، حتى أبيد كثير منها ، وأصيب العرب بهزيمة شديدة قبل أن يعبروا جيحون نفسه . وما غدا مركز جبرئيل

---

(١) هذه الأسماء هى وفق ما بأيدينا من وثائق . ولعل لفظ خلخ (بالضم) هو تحريف للفظ خلخ (بالكسر) التركى القديم أو الأيغورى ؛ وهو ينطق فى التركية الحديثة قلج . وكان خاقان خوقند الذى هزم سعيد ابن عمرو الحرشى عام ١٠١ هـ/٧١٩م يحمل اسما تركيا مشابها لهذا الاسم.

(٢) لا يتضح فيما بين أيدينا من مصادر ان كانت سمرقند بأيدى المبيضة أو بأيدى المسلمين اذ ذاك . ويقول النرشخى بالقول الأول حين يذكر أن جبرئيل بن يحيى كان يقيم مضاربه أمام سمرقند ، فى حين يشير الطبرى الى عكس ذلك اذ يؤكد أن حرب العرب أمام سمرقند انما كانت لدفع جيش المبيضة المهاجمين لهم .

(٣) تفصيل الامر أن رسولا كان قد سير الى المقنع على أن يسقط بأيدى عقبة . وحين أسر الرسول وجدوا معه رسالة تحوى التهنئة بانتصار قائد المقنع على جبرئيل وأن الجيش الظافر ينوى بعد انتهاب سمرقند الزحف جنوبا للقاء عقبة . واعتقد عقبة فى صحة الرسالة فخاف من ازدياد قوة عدوه وقفل راجعا من فوره .

ابن يحيى أن دق غاية الدقة أمام سمرقند وقد منعت عنه كل الامدادات والمساعدات وقطع اتصاله ببلخ وبمرو على السواء .

ونجح هذا القائد فى الاستيلاء على حصن نرشخ القوى بعد جهود كبيرة . فقد استطاع العرب أن يحدثوا نقبا كبيرا فى سور الحصن بعد حصار دام أربعة أشهر استخدموا فيه العرادات والألغام والنار وكل ما بأيديهم من وسائل وأدوات (١) . ومنه نفذ العرب الى المكان فوعدوا المبيضة فيه بأن يرفقوا بهم ان هم عادوا الى حظيرة الاسلام وسلموا زعماءهم وأسلحتهم الى الخليفة ، هناك سار هؤلاء المبيضة ، وحكيم على رأسهم ، فى ركب طويل الى معسكر العرب ، وهم يخفون أسلحتهم تحت ثيابهم ، على ما يقال . واقتيد حكيم تحت بصر أصحابه الى خيمة جبرئيل ، فما ان طال مكثه بها حتى تسرب الشك الى نفوس أصحابه . وحين انبرى حشرى (٢) يسأل ابن جبرئيل عن طول غياب صاحبه فرد عليه بأن أطاح برأسه ، انطلق هؤلاء الثائرون المتعصبون (٣) فتنادوا بالثأر وقد شهروا أسلحتهم من تحت ثيابهم . وتجدد القتال بين الفريقين فى عنف بالغ تمكن فيه أصحاب المقنع من أن يخلصوا أنفسهم من الأسر الذى وقعوا فيه . وبهذا ضاعت على جبرئيل ثمرة انتصاره الأول . وبرغم صدق مقال النرشخى فى أن بغى ، قائد المقنع ، قد لقى مصرعه فى هذا القتال وأن صاحبه كيردك قد فر بمفرده الى المقنع ، الا أن ما اظهره المبيضة من مقاومة

---

(١) يذكر النرشخى العرادات ، ولعلها هى العجلات الحربية التى ورد ذكرها فى الانجيل ولها على جوانبها صف المناجل الحادة .

(٢) يحكى النرشخى أن حشرى كان قد ركب الى ابن جبرئيل فى خفاف ذهبية كانت للملكة خاتون . وهو بذخ لا يصادفنا أبدا فى الدور الاسلامى بتاريخ آسيا .

(٣) يحكى النرشخى فى حديثه عن هذه المسأله بما يدل على مدى تعصب أصحاب المقنع ، وما كان عليه العرب بدورهم من القسوة والعنف . فقد أتى بعد المعركة الى ابن جبرئيل بامرأة وقعت فى الأسر ، وكانت أرملة لجندى يدعى سيرو . وحين سألها جبرئيل عما اذا كانت تقر بأن أبا مسلم هو أبو المسلمين جميعا ، فأنكرت عليه ذلك محتجة بأنه قد قتل زوجها ، أمر بها فقطت اربا بالسيف وقتل ابنها كذلك وكان معها .

عنيفة وما مارسوه من النفوذ والسلطان ببلاد ما وراء النهر من بعد ذلك يضعف ما ذكره المؤرخون المسلمون حين بالغـوا فى وصف انتصارات العـرب . فالثابت أن قوة المقنع قد أخـذت فى الازدياد من بعد ، وأن الاسلام قد تعرض بدوره الى محنة شديدة تبعا لذلك .

لم يكن مستغربا والحالة هذه أن يستبد القلق بالخليفة المهدى حتى قدم الى نيسابور بنفسه . فعزل عبد الملك عام ١٦١/٧٧٧ ونصب مكانه معاذ بن مسلم الذى بادر من فوره فجمع جيشا كبيرا أنزله الصحراء فيما بين مرو وبخارى على ضفاف جيحون ، ورصد ثلاثة آلاف عامل لتجهيزه بما يحتاج من السلاح ، لينضم اليه من بعد ذلك سعيد الحرشى أمير هراة الشجاع ويسرعا معا لنجدة العرب عند سمرقند . على أن المبيضة باغتوه فى سهل بيكند وهو فى طريقه . ولا تؤيد الحوادث ما ذكره الطبرى فى الغالب من انتصار المسلمين ، ذلك أن معاذا ارتد على اثر ذلك الى بخارى عجلا بدلا من أن يعاود سيره فى طريقه . وقد احتج هذا القائد على مالحق به من الفشل ، بسوء تصرف أمير بخارى حين أصر على اصطحاب ألوف كثيرة من رءوس الماشية معه برغم الحاحه الشديد عليه بالعدول عن ذلك. فقد أسـالت كثرتهم لعاب الترك وشجعتهم عـلى ما أقـدموا عليه من العدوان . ولم يكن لهذا القائد العربى من بعد ذلك الا أن يقبع فى بخارى فى انتظار فرصة مواتية . وقد ذكرنا من قبل أن الفلاحين ، وأبناء الطبقة الدنيا ، كانوا قد انضووا فى أغلبهم تحت لواء المقنع ، كما انضم اليهـم كذلك بدو الترك الذين كانوا يعيشون على السلب والنهب . وكان من أثر الاضطراب والفوضى التى اشاعتها الحرب هناك أن ساد الذعر بين أهل هذه المنطقة من الايرانيين المسالمين حتى باتت دعوة المقنع ولا مقام لها على شواطىء زرفشان حيث السكان اشد ميلا الى الحضارة الاسلامية وأكثر اتصالا بها .

وسرعان ما أخـذ الناس يتصيدون هؤلاء المبيضة حيث يلقونهم ، وحين دبت الفرقة فى معسكر هؤلاء عند سمرقند سارع معاذ الى هناك فى محاولة ثانية استطاع فيها أن يسيطر على المدينة . وتفرق هؤلاء على

أثر مقتل قائدهم . فترك من بعد ذلك معاذ قائده جبرئيل بن يحيى على سمرقند وانطلق هو بقواته الرئيسية ليهاجم الحصن الذى امتنع فيه المقنع على ما ذكرنا من قبل . وكان المقنع قد استقر فى قلعة الحصن الداخلية فى حين أنزل خيرة من جنوده المتاريس المحيطة بها . ويسوق الينا النرشخى حديثا شائقا عن المقنع وهو فى عزلته هذه ، فيقول انه كان هناك خمسون ألفا من الأتباع يرابطون بظاهر باب الحصن وكلهم فى شوق ملح الى اجتلاء طلعة زعيمهم ولو لمرة واحدة . على أن المقنع أبى عليهم ذلك وبعث اليهم بغلامه ومعه رسالة قال فيها . نبىء عبادى أن موسى أراد بدوره أن يرانى جهرة أنا الله فغشى بصره من شدة أنوارى فلم يرانى فمن يرانى يحترق بنورى » ورد عليه أتباعه بأنهم يبذلون حياتهم عن طيب خاطر فى سبيل تحقيق ما تصبو اليه نفوسهم من التطلع اليه .

ولم يجد المقنع بدا بازاء اصرارهم ، من أن يحقق لهم رغبتهم بالخروج اليهم فى يوم معلوم عند بوابة الحصن . وفى هذا اليوم اصطف نساؤه داخل الحصن وبيد كل واحدة منهن مرآة تنعكس على صفحتها أشعة الشمس الغاربة ، بتدبير منه . وحين أحكم هذا الانعكاس الى غايته أمر المقنع ففتحت أبواب الحصن . هنالك غشى الضوء القوى ، الناشىء عن هذا الانعكاس ، أعين أتباعه المتحمسين حتى خروا سجدا وهم يتصايحون ويسألونه أن يمنع عنهم هذا النور اذ أن طول نظرهم اليه سوف يوردهم مورد التلف والهلاك . ولبثوا على سجودهم هذا حتى بعث اليهم بغلامه ليقول لهم على لسانه بأن الله قد رضى عنهم ووهبهم نعيم الدنيا .

أحاط معاذ مكمن المقنع بجيش قوى أكثره من العرب ليحاول من بعد ذلك أن يحمله على الاستسلام دون قتال . وحين قدم رسول معاذ الى المقنع فسأله عن شخصه وما يبغيه منه ، أجابه الرسول بأنه وقد ادعى لنفسه صفة الربوبية فلابد والحالة هذه أن يحيط بكل شىء علما فلا يسائله : وقد حكى الطبرى هذا السلوك الجرىء الذى صدر عن مسلم فى معقل المقنع ، وهى رواية تقابل بكثير من الشك . وأجاب المقنع على

دعوة معـاذ بأنه قد عقد النيـة على المضى فى دعوته الى النهـاية برغم ما نزل باتباعه من المصائب . هنالك حزم معاذ أمره على اقتحام الحصن بكافة السبل وضرب القائد العربى الحصار حول الحصن ، لكن حلول الشتاء (١) ، وله قسوته الشديدة فى منطقة مدينة سبز ، اضطره الى تسيير الجند الى بلخ بأقصى الجنوب ليحتسوا فيها من برده وصقيعه . وأدى طول الحصار الى أن زاد قلق المهدى ونفد صبره بازاء هـذه المسألة شـديدة الخطورة ، حتى عزل معاذ بن مسلم ، من منصبه بعد أن أمضى عامين فيه ، واختار مكانه أمير خراسان سعيد الحرشى وكان على ادراك تام بمجريات الحوادث هناك . واظهر الأمير الجديد همةونشاطا فاق بهما سلفه ، فبدأ باقامة الدور لجند العرب هناك حتى تستطيع بذلك أن تواصـل حصار المكان . ومع هذا كله فقد كان عليه أن يمضى عامين آخرين عند أسوار هذا الحصن القوى قبل أن يستسلم له خصمه وكان كيزم ، احد اخوة المقنع (٢) هو أول من استسلم له ومعه ثلاثون ألفا من الرجال . وأدى تضييق الحصار على أتباع المقنع مع ما باتوا يعانونه من الجوع الشديد الى أن استسلموا جميعا ، دون قيد أو شرط ، ومعهم ثلاثة آلاف وثمانمائة من المتعصبين من أهل كش الذين كانوا يرون فى المسلمين ألد أعداء لهم . ولبث المقنع وحده معتصما بالقلعة الداخلية وكانت تقوم منيعة على قنة صخرة .

وتقول الرواية ان المقنع ، ابان أيامه الأخيرة هذه ، جمعزوجاتهحول الطعام بعد أن كان قد انصرف عنه أخلص خلصائه وسدت طرق الفرار فى وجهه . هنالك دعاهن الى شرب أعده من نبيذ خلطه بالسم ، فشربن منه جميعـا الا واحدة منهن تدعى بانوكه (٣) كانت قد عرفت بسر المسألة

---

(١) تشبه شهر سبز وما حولها سمرقند فى مناخها . وكلا المكانين يقع على منحدرات جبال كرهتو حيث الشتاء قارس طويل .

(٢) يذكره الطبرى باسم كردش . وننبه هنا الى أن هذه الكلمة فى الكتابات التركية القديمة وفى وسط آسيا تشير الى معنى القرابة .

(٣) هذا الاسم هو الذى ذكره الطبرى ، وهو ليس علما على كل حال. فهو مشتق من الكلمة الفارسية « بانو » بمعنى سيدة .

فسكبت الشراب فى عبها وتظاهرت بالموت ، فكانت من بعد ذلك هى الشاهد الوحيد الذى استطاع أن يروى تفاصيل اللحظات الأخيرة للنبى المزعوم وعلى ما رواه من يدعى أبو على محمد من أهالى كش ، نقلا عنها ، أن المقنع بعد أن ماتت كل زوجاته قطع رأس غلامه ، وكان هو الوحيد من الذكور بين خدمه المباشرين ، ثم اندفع الى فرن مستعر كان قد أوقد ناره لثلاثة أيام خلت ، فلم يخرج منه أبدا . ويقال انه كان قد أطلع نساءه على ماكان قد اعتزم عليه من قبل ، فقال لهن انه سوف يقبل على ارتكاب ذلك آخر لحظة ، فيجعل بذلك وزرهن أمام الله على الذين تخلوا عنه ، وانه سوف تكون له الغلبة آخر الأمر ، على كل حال ، وذلك بعون من الملائكة الذين سيأتى بهم معه . وأضافت بانوكه الى ذلك انها قد راقبت الفرن مدة طويلة ولكنه لم يخرج منه . وكانت بانوكه هذه هى التى فتحت أبواب القلعة للقائد سعيد الحرشى بعد أن وعدها بعشرة آلاف اكه من أموال المقنع . وقد استولى العرب على كل ما كان بالقلعة من أموال النبى المزعوم . وبهذه الخاتمة السعيدة لتلك الحرب التى طالت عدة سنين تخلصت حدود الاسلام الشرقية من محنة شديدة .

ليس لنا الا أن نسلم بما يلف تعاليم المقنع من ظلام يكتنف كذلك حقيقة ما كان ينتويه بشأن الدعوة الى مذهب جديد . والظاهر أنه فكر أول الأمر فى أن يضمن عقيدته مذهب التناسخ ، كما أنه لم يكن عموما متأثرا بالآراء الدينية الهندية القديمة فحسب بل وبالفارسية منها كذلك ، وان كان من الصعب أن نجزم بأى شىء فى هذا الموضوع على كل حال . وها هو ذا النرشخى الذى فصل لنا أمر هذا المذهب الغريب الذى أذاع الفتنة فى بلده ، بعد مرور ثلاثمائة عام من ظهوره ، نراه يتهم أتباع المقنع بنفس التهم التى يلصقها المسلمون المحدثون بالدروز فى لبنان والبابيين فى ايران . من ذلك ما أخبرنا به عن امتناعهم عن أداء الفروض ، ومناداتهم بشيوعية النساء بينهم ، واعتبارهم أن قتل المسلم هو تقرب الى الله . وهذه كلها هى وكل ما كتبه المؤرخون المسلمون عن المقنع تقوم على الأوهام فى الغالب . ومما يؤسف له أن يكتنف الغموض تعاليم المقنع برغم أن مذهبه ظل قائما من بعده لعدة قرون ، اذ يروى مترجم كتاب النرشخى أنه كان

هناك عام ١١٢٨/٥١٢ اتباع للمقنع اعتنقوا الاسلام من باب التقية ، وكان هؤلاء فى نواحى كش ونخشب وفى بعض القرى بظاهر بخارى مثل قرية كوشكى بونار .

وبالقضاء على المقنع انتهى أمر الشكوك الدينية فى تركستان ، وانحسرت موجات الفتن الدينية بالتدريج . ومع ذلك لم تستطع الدولة أن تقضى على الاضطرابات السياسية التى كان يثيرها سكان بلاد ما وراء النهر المحاربون بطبعهم ، الا فى فترات قصيرة ، برغم ما كان عليه الخلفاء العباسيون الأوائل من شدة وحزم وما كانت عليه حكومة البرامكة من كفاية كانت موضع التقدير والثناء الكثير . ففى آخر حكم الرشيد نرى رافع بن الليث ، حفيد نصر بن سيار ، يخرج على الخليفة . ولئن لم يفصح هذا الثائر فى ثورته هذه عن عزمه على الانتقام لمقتل جده بسبب وقوفه الى جانب الأمويين ، الا أن فعلته هذه قد عجلت بنهاية أعظم الخلفاء العباسيين (١) . ويقال ان رافع ، وكان جنديا شابا جميل الطلعة ، انما عمد الى العصيان لما أنزله به الخليفة من العقاب الشديد لعلاقة غير شرعية كانت بينه وبين احدى النساء (٢) . فقد أصدر هارون الرشيد أمره الى أمير خراسان ، الذى أنفذه بدوره الى سليمان عامل سمرقند ، بأن يطوف برافع المدينة وهو على حمار فى وضع عكسى (٣) ، وأن تطلق زوجته منه ويرمى به فى السجن . واستطاع رافع أن يفلت من هذا العقاب المشين

---

(١) يقال ان هارون الرشيد أصابه مرض الموت أثناء سيره من بغداد الى خراسان ، وكان فى طريقه لاخماد ثورة رافع .

(٢) كانت هذه السيدة زوجة لمن يدعى يحيى بن الاشعث ، وكانت قد ارتدت عن الاسلام ، وبهذا طلقت من زوجها . وقد حملها من بعد ذلك رافع على العودة الى حظيرة الدين من جديد ثم بنى بها ، فعد صنيعه هذا عملا مشينا .

(٣) كان عقاب القواد على هذا النمط شائعا بين المسلمين زمنا طويلا ، فهذا هو مراد الثالث يدين أحد قواده بتهمة الجبن بعد موقعة وارنة فيأمر بقص نصف لحيته وأن يطوف به فى المعسكر بثياب النساء على حمار ووجهه الى ذنب الدابة .

بالهرب ، ليعود من بعد ذلك مستخفيا ، ويستغل ما كان من كراهية الناس لعلى بن عيسى لجوره وظلمه ، فلا يجد صعوبة فى حمل أهل سمرقند على الثورة على على ثم على هارون الرشيد نفسه من بعد ذلك (١) . وكان التركستانيون قد شكوا الى الخليفة مرات عدة من ظلم على هذا الذى كان يفلح فى كل مرة فى تهدئة سخط الخليفة عليه بما كان يبذله من المال وقد كان على ثراء واسع . وحين عقد الخليفة العزم على عزله ، وكان يعرف مدى ما بلغه عامله هذا من نفوذ وسلطان ، عهد بأمره الى القائد الافريقى هرثمة بن أعين بعد أن رتب الأمر معه وحذره منه . وتقدم هرثمة بقواته وظاهر هدفه المساهمة فى القضاء على ثورة رافع . وحين ظن على بن عيسى أن لا خطر عليه فى ذلك ، فقصد الى هرثمة ، ناوله هذا كتاب الخليفة (٢) بعزله ثم قيده وسيره الى بغداد . هذا فى حين كان رافع ابن الليث قد قوى شأنه فى سمرقند ، وكسب كل بلاد ما وراء النهر الى صفه ، ونزل بجنده فى بخارى . وحين سار اليه هرثمة فعبر جيحون وجد نفسه يقف وحيدا وقد تخلى الناس جميعا عنه ، اذ كانوا قد هابهم ما بلغه رافع من القوة .

وأدت هذه الأحوال الى أن خطب المأمون ود أسرة السامانيين فى سبيل القضاء على رافع . فقد فشل القائد خزيمة بن حازم فى رد الثوار الى طاعة الخليفة ، ونتج عن فشله هذا أن استقر بتركستان تلك الأسرة التى يدين لها أقاليم جيحون ، وتاريخ بخارى المستقل بخاصة ، بأزهى عصوره .

---

١) انظر هامش ص ٦٩ .

(٢) كان نص كتاب هارون الرشيد كالآتى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، يا على بن عيسى ، يا ابن الزانية ، رفعت من قدرك ونوهت باسمك وأوطأت سادة العرب عقبك وجعلت أبناء ملوك العجم خولك وأتباعك ، فكان جزائى أن خالفت عهدى ونبذت وراء ظهرك أمرى حتى عثت فى الأرض وظلمت الرعية وأسخطت الله وخليفته بسوء سيرتك وظاهر خيانتك ، وقد وليت هرثمة بن أعين مولاى ثغر خراسان وأمرته أن يشد وطأته عليك وعلى ولدك وكتابك وعمالك ، ولا يترك وراء ظهوركم درهما وحقا لمسلم ولا معاهد الا أخذكم به حتى ترده الى أهله ، فلا تعرض نفسك للتى لا تسوى واخرج مما يلزمك طائعا أو مكرها » . (الطبرى حوادث عام ١٩١) المترجم .

الفصل الرابع
السامانيون والأمير اسماعيل

٢٦١ (٨٧٤) — ٢٩٥ (٩٠٧)

حين كان أسد بن عبد الله (ناصر المظلومين) أميرا على خراسان استنجد بهأحد أعيان(١) بلخ من بقايا الزرداشتين، ويدعى سامان، ليعينه على عدو له كان قد أخرجه من المدينة . واهتم أسد بأمر صاحبه حتى رده الى بلده ليقابل سامان هذا الصنيع من بعد ذلك بالدخول فى الاسلام (٢)، ويسمى أول من رزق به من الأبناء باسم أسد الذى ناصره . ورزق أسد بن سامان هذا بأربعة أبناء هم نوح وأحمد ويحيى والياس كانوا جميعا من حزب العرب على ما نهج عليه أبوهم من قبل حتى أوصى المأمون بهم أمير خراسان (٣) ، بحق ، بأنهم أصحاب نسب عريق وأنهم جديرون بأعلى المناصب . واستعان بهم الخليفة فى فتنة رافع كما أشرنا من قبل ، وسرعان ما أدت معونتهم الى اخضاع رافع ليكافىء المأمون من بعد ذلك أولاد أسد

---

(١) ينسب سامان نفسه الى بهرام جوبين الساسانى ، ومن هنا يشتهر بين العرب بعراقة النسب .

(٢) ان قيام سامان الوثنى بالأمر فى بلخ لمدة طويلة بعد الفتح العربى انما يدل على مدى التقدم البطىء الذى أحرزه الاسلام بين الزرادشتيين (المؤلف) . بل الأجدر أن يحمل ذلك على تسامح المسلمين الذى يتضح فى معونة أمير خراسان لسامان ، ذلك التسامح الذى نبه اليه بارتولد فى كتاب عن « تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٦ » (ترجمة حمزه طاهر) حيث يقول ان المستعصم عاقب بعض المسلمين عقابا شديدا لتعرضهم لمعبد من معابد المجوس بالصغد . (المترجم)

(٣) غسان بن عباد وهو ابن عم الفضل بن سهل وزير المأمون ذى الرياستين ، الرئاسة المدنية والرئاسة العسكرية .

على صنيعهم هذا كل بدوره ، فأقطع نوح سمرقند ، وأقطع أحمد فرغانة ، وأقطع يحيى جاج (طشقند) وأقطع الياس هراة ، وقد أقرهم الخلفاء من بعد المأمون على ما بأيديهم من أرضين . وحين مات نوح صارت سمرقند لأخيه ليخلفه من بعد ذلك عليها ابنه نصر ويقره الخليفة الواثق على ذلك ببراءة منه . وأدى ما أسبغه العرب على السامانيين من التكريم الى تقوية جانب هذه الأسرة الناهضة ، كما أدى تمكين الصلات بهم الى ازدهار أحوال بلاد النهر بدورها . فقد أخذ النظام يسود كافة الأقاليم حول سيحون وجيحون ، تلك البلاد التى كانت تعانى معاناة شديدة من الاضطرابات ، وبات من الواضح أنه سوف يشرق عليها عهد جديد فى ظل السامانيين .

كان نصر بن أحمد على صفات عالية ، ولكنه كان فى طبيعته ضعيفا متشككا حتى كاد يقنط من تثبيت عرشه تلقاء ما أثاره الطاهريون من الاضطرابات (برغم أن سلطانهم كان فى طريقه الى الزوال) من ناحية ، وخروج يعقوب بن الليث بخراسان من ناحية أخرى ، لولا ما كان من شد أخيه الأصغر اسماعيل لأزره ومداومة معونته له . وكان اسماعيل هذا قد ولد بفرغانة فى شوال من عام ٢٣٤/٨٤٨ ، ومات أبوه وهو فى الخامسة عشرة من عمره فتعلق بأخيه الأكبر فى حب خالص واجلال لم يتطرق اليهما أدنى تغيير حتى حين انقلب عليه نصر يحاربه . وأول ما ذاع صيت اسماعيل كان ببخارى ، وكان اذ ذاك فى الخامسة والعشرين من عمره . ذلك أن أهل هذه المدينة كانت قد شاعت فيه فرقة الفرق التى كانت تسود اذ ذاك شرقى الدولة الاسلامية ، ولاح الخطر على أشده فى تناحرهم وانقسامهم . وحين غزا حسين بن طاهر أمير خوارزم هذا الاقليم عام ٢٥٩/٨٧٢ فأعمل السلب والنهب فى بخارى كلها (١) ، استنجد فريق من أعيان هذه البلاد

(١) من ذلك أنه أمر الناس ، محتجا بجمع الخراج ، بأن يقدموا اليه ما عندهم من العملة الأشرقية ليستبدلها لهم بعملة فضية . وحين اضطر الى الهرب ليلا فجأة فترك أمواله من ورائه ، اقتسمها جميع الفقراء فيما بينهم فتبدل حالهم بذلك . وصار كل من يصيب من الثراء من بعد ذلك يكنى « بشريك حسين بن طاهر فى ماله » وذاعت هذه الكناية هناك زمنا طويلا .

بنصر السامانى فى سمرقند على ما نصح لهم به عبيد الله الفقيه وكان من العلماء المرموقين . وعرض عليهم نصر أن يبعث اليهم بأخيه اسماعيل ، وسيره الى بخارى من فوره . وحين علم العدو بقدومه عرض عليه الصلح ، لتدخل بخارى من بعد ذلك فى حوزة السامانيين وتجرى الخطبة فيها باسم نصر بدلا من يعقوب بن الليث . ودخل اسماعيل المدينة دخول الظافرين ، عاملا لنصر عليها ، فى غرة رمضان من عام ٢٦٠ هـ ، وقد زينها أهلها تكريما له .

وبرغم ما كان بين فرقها من الخلاف فقد استقبلوه جميعا بترحاب بالغ ونثروا الذهب والعطايا الثمينة بين يدى ذلك الضيف الذى سبقه اليهم ما ذاع عنه من الصفات العالية . وحق لبخارى ما فعلت حين عدت هذا اليوم من أعيادها ، فقد تم لبلاد ما وراء النهر بل ولتركستان كلها وحدتها فى تلك البراءة التى رسم بها الخليفة المعتمد نصرا أميرا على بلاد ما وراء النهر وجعل له كل البلاد الممتدة من شواطىء جيحون حتى أقصى بلاد المشرق .

وبرغم الظروف الدقيقة التى ظهر فيها اسماعيل أول الأمر ببخارى ، فانه ما غدا بعد قليل أن صار محبوبا من الجميع . على أنه عانى مشقة بالغة فى استرضاء أخيه نصر وكان الخلاف قد بلغ بينهما أشده . ذلك أن اسماعيل كان قد أقام له نائبا عنه ببخارى ، حين غاب عنها بعض الوقت ، فاستقبح(١) نصر ذلك منه حتى رغب فى عزله لولا توسط بعض المخلصين بينهم فى ذلك ، فسمح له بالقدوم الى بخارى على ريب كثيرة فى نفسه . وفيها استقبل اسماعيل من جديد بمظاهر الاجلال والتكريم من الجميع ، اذ كانوا يأملون فيه ، وهو المعروف بحزمه وعدله المطلق ، أن يضع حدا لنشاط قطاع الطرق ، وكان خطرهم قد استفحل فى غيابه حتى كان منهم

(١) يقول ميرخوند فى تاريخه للسامانيين أن مبدأ الخلاف مع نصر كان بسبب الصداقة الخالصة التى كانت بين اسماعيل ورافع بن هرثمة . وكان هناك من الدساسين من ادخل فى روع نصر أن اسماعيل كان يتآمر مع رافع لخلعه عن عرشه .

ما يقرب من أربعة آلاف يعيثون فى الأرض فسادا فيما بين رامتن وباركت فحسب . هنالك بعث اسماعيل بجنده لتوه فأبادوا أغلبهم . وما بقى منهم على قيد الحياة ساقوهم أسارى الى سمرقند . ولم يكد ينتهى من هذا الأمر حتى جاءته الأخبار بعبور طاهر بن الحسين جيحون فى ألفين من الخوارزميين وجهته بخارى ، فأسرع اليه وهزمه هزيمة حاسمة ، فكانت حربه هذه هى أول فرصة بانت فيها شجاعته الشخصية . وزاد من تعلق جنده به من بعد ذلك سخاؤه عليهم وبره بهم (١) .

عزم اسماعيل بعد أن آب الى بخارى على أن يمسك بزمام الحكومة ويحزم سير الأمور فيها ، ولكنه واجه عندئذ كثيرا من العقبات . فقد رأى أعيان هذه المدينة التى تقع على ضفاف زرفشان فى قيام النظام ما يقضى على المصالح التى كانوا يفيدون منها فى ظل ما كان من الفوضى فى السابق ، فقاموا بذلك يناهضونه ويعارضونه . هنالك حزم اسماعيل أمره على التخلص منهم ، فسيرهم الى سمرقند بدعوى ايفادهم الى أخيه نصر فى مهمة ، فألقى بهم فى الحبس على تدبير مرسوم . على أن هذا الاجراء لم يوفر لاسماعيل ما كان ينشده من الاستقرار فى حكومته .ذلك أن أخاه نصرا نفس عليه ما أصابه من التوفيق حتى أدت به شكوكه ، وكانت على غير أساس ، الى أن يختلق سببا للنزاع معه ، فاتهمه بالتقصير فى دفع الخراج اليه . وكان دخل بخارى اذ ذاك يصل الى خمسمائة ألف درهم نصيب اسماعيل منها كان أقله . وحين تقاعس اسماعيل عن ارسال مالأخيه من خراج المدينة برغم الحاحه عليه انتهى النزاع بين الأخوين الى الحرب فى التو .

هكذا نجد عام ٨٨٥/٢٧٢ أن نصرا ، وكان سهل الاستفزاز ، يتقدم الى بخارى فى جيشه ، فاذا باسماعيل ، وقد أخذ على غرة ، يفر الى بيكند عبر تاراب حيث أوفد رسولا له يدعى حمويه الى صديقه وحليفه رافع بن الليث (وكان ثائرا اقطاعيا فصار عاملا للخليفة على خراسان) . وسارع

(١) كان من بين هداياه لجنده كساوى من الكتان وكانت تعد اذ ذاك بأواسط آسيا اثمن من الحرير .

رافع بدوره فعبر جيحون وانضم الى اسماعيل . وفيما كان هذان الحليفان يهيئان قواتهما المؤتلفة لمهاجمة خصمهما ، عمد نصر الى خدعة استطاع بها أن يقطع اتصال خصومه بالجزء المسكون من بخارى عند توائس (طواويس) ، فاذا بهم يجدون أنفسهم وقد باتوا معزولين فى الصحراء . وأدى شح المحاصيل فى ذلك العام وقلة المؤن بالتالى الى أن قل عدد الجند بدوره فلم يعد يبق منهم معهم الا ما تدعو الضرورة اليه . ونظر رافع فيما قد يؤول عليه الحال اذا ما عمد الأخوان الى التفاهم من جديد ثم قاما عليه معا ، فعدل عن موقفه فجأة وتقدم يتوسط فى الصلح بين نصر واسماعيل (١) ، حتى نجح فى ذلك ، على أن يكون اسماعيل مستقبلا مجرد محصل لجمع الخراج ببخارى ويعهد بادارة حكومتها الى غيره . حدث ذلك عام ٢٧٣/٨٨٥ م ، ليتجدد الخلاف القديم بينهما مرة أخرى من بعد ذلك على أداء ذلك الخراج ، ولما يمض خمسة عشر شهرا بعد على الصلح ، وبادر نصر بالعدوان على عادته ، وكان له جيش قوى يقوده أبو الأشعث وتعززه امدادات قوية من خوقند . وكان اسماعيل قد احتاط لذلك فجلب نجدات من خوارزم استطاع بها فى النصف الثانى من عام ٢٧٥/٨٨٨ أن يهزم أبا الأشعث فى واقعة حاسمة . وكاد نصر نفسه يلقى حتفه على يد جماعة من الخوارزميين فى هجوم لهم ، لولا أن ردوا عنه فى صعوبة آخر لحظة ، فرمى نفسه من على سرجه واستسلم ، ليقدم اليه

---

(١) يرد مبرخوند قيام الصلح بين الأخوين الى سبب آخر ، فنجد فى ترجمة Depremery ص ١١٥ أنه « حين قدم حمويه بسفارته شخص رافع بنفسه الى ما وراء النهر وعبر نهر جيحون قامت فى نفس حمويه المخاوف من أن يتمكن رافع بجيشه هذا من اخضاع ما وراء النهر لسلطانه ، ووقر فى نفسه أنه بعد أن يهزم نصرا سوف يلقى القبض من بعد ذلك على اسماعيل ثم يهبه من بعد ذلك الامارات التى كان يطمع فيها ، فيخضعه بعد ذلك لسلطانه ، وفى ذلك عار كبير . هنالك أعمل ذهنه لافساد ما رجح وقوعه ، فتقدم الى رافع ونصحه أن يعمل على قيام الوئام بين الأخوين ، حتى لا يتعرض هو نفسه للمتاعب فى أرض غريبة عنه لو تم هذا الأمر من وراء ظهره . ووقعت نصيحة حمويه موقعا حسنا فى نفس رافع حتى بعث برسله الى نصر والى اسماعيل يبينون لهما أنه من الخير أن يقوم الوئام بينهما . وما زال بهما حتى نزلا على رأيه ، ومن ثم قفل راجعا بدوره الى خراسان .

عند ذلك أخوه اسماعيل عجلا ، فور سماعه بالحادث ، ويتلقاه بأعمق آيات الاحترام . فقد تقدم اليه وقبل أطراف الوسادة التى كان يجلس عليها وقال له « أيها الأمير انها ارادة الله التى شاءت أن أراك اليوم وأنت فى الأسر » ليجيبه عند ذلك نصر فيقول له « بل هى ارادتك أنت اذ خرجت على سيدك وأذنبت بذلك فى حق الله عز وجل » . هنالك أقر اسماعيل له بجرمه وسأله أن يصفح عنه . وفيما كان هذا الحديث يجرى بين الأخوين (وصورته لا تستبعد لما عرف به السامانيون من النبل وكريم الخصال) . أقبل اسحاق أصغر الاخوة ولبث على فرسه يشاهد ما كان يجرى ، لينهره اسماعيل عند ذلك اذ ظل على صهوة جواده ولم ينزل عنه فى حضرة أخيه الأكبر رأس الأسرة . فاذا باسحاق يعتذر عن خطئه بحرون جواده ويسارع بالترجل ، ثم يقدم على نصر فيقبل قدميه ويقف بين يديه فى خضوع تام . وتابع اسماعيل حديثه الى أسيره فعرض عليه أن يسيره من فوره الى قصبته قبل أن يصلها أنباء الحادث ، فلا تتعرض بذلك هيبته فيما وراء النهر الى شىء من المهانة . وبدت الدهشة على نصر تلقاء ذلك اذ لم يكن ليصدق أن خصمه قد يسمح له بالسير الى مقره ، ليعلنه عند ذلك اسماعيل بأنه ليس له الا أن يضع نفسه طوع أمره فيحقق له كل ما يرغب فيه .

هنالك جرت دموع نصر من فرط التأثر ، وقد أبدى أسفه لما تسبب فيه من اراقة الدماء ، ثم امتطى جواده واتجه به الى سمرقند ، وقد صحب أخوه أول مراحل الطريق . وقضى نصر من بعد ذلك أربع سنوات بسمرقند فى هدوء حتى وافاه أجله فى الثانى والعشرين من جمادى الأولى من عام ٢٧٩ هـ ٨٩٢/٨٩٣ م .

بسط اسماعيل سلطانه على كل خوارزم وبلاد ما وراء النهر عام ٢٨٠ هـ ٨٩٣/٨٩٤ م وذلك عقب وفاة أخيه ، فعهد بحكومة سمرقند الى أحد أبناء نصر ، واتخذ من بخارى قصبة له . وبها تقبل من الخليفة المعتضد بالله براءة التقليد والبنود والخلع المعتادة . وكان اسماعيل يرى فى خضوعه لأمير المؤمنين استجلابا لرضاء الله عليه ، وان كان يعرف تماما

مدى ما لبلاط بغداد من سلطان عليه في الواقع . كما كان الخليفة يدرك بدوره تمام الادراك أن البراءة التى أذن فيها لاسماعيل باجراء الخطبة وضرب السكة باسمه لم تكن الا مجرد تقليد محض . فقد كانت الخلافة اذ ذاك تنوء تحت أعباء من كل نوع ، فلا تكاد تتماسك نفسها الا اعتمادا على شبكة من المؤامرات والدسائس الصغيرة التى كانت تحبكها . وقد عاش خلفاء الرسول الضعاف هؤلاء فى رعب وفزع من تلك الدول الجديدة التى كانت تقوم فى القسم الشرقى من دولتهم ، حتى لنجد الخليفة المعتضد يفوض الى الأمير اسماعيل شئون بلاد ما وراء النهر ويلقبه بلقب حامى الملة والمدافع عن الخليفة من أعدائه ، ليكتب فى الوقت نفسه فى السر الى عمرو بن الليث الثائر السابق وأمير خراسان اذ ذاك ، يأمره بحرب اسماعيل وخلعه (١) .

ولم يكن اسماعيل ليأبه لشىء من هذا كله ، بطبيعة الحال ، حتى رأيناه ينطلق عقب ارتقائه العرش يتقرب الى الله بغزو النصارى عند طراز التى تقع عند الشمال من أراضيه وعلى مقربة من حضرة تركستان (مدينة تركستان) الحالية ، فأنزل بهم الهزيمة واتخذ كنيستهم مسجدا (٢) ثم عاد من بعد ذلك الى بلاده ومعه من الأسلاب الطائلة ما بلغ بها نصيب كل رجل من رجال جيشه ألف درهم . ورغب اسماعيل ، حين عاد الى بخارى أن ينصرف الى تنظيم حكومته لولا الحرب التى سرعان ما نشبت بينه وبين عمرو بن الليث فاستنفدت كل جهوده طوال سنوات سبع . وكان الخليفة

---

(١) أجابه الخليفة الى طلبه وحرضه على حرب اسماعيل . ولعله كان فى الوقت نفسه قد أقر اسماعيل على بلاد ما وراء النهر وحرضه على عمرو . Hist. of the Khalifs Vol II. p. 485.

(٢) يذكر النرشخى هنا « الكنيسة الكبيرة » كما يذكر معابد البارسيين باسم « بيوت النار » وبهذا يغلب على وجه الجزم أن الأمير التركى الذى غزاه اسماعيل كان نصرانيا ، وأن الكنيسة التى حولها اسماعيل الى مسجد كانت للنساطرة المسيحيين . وفى كتاب : Colonel Yule : Cathay and the Way thithr ما يبين بوضوح قيام أسقفية نسطورية فى نواحى مدينة تركستان الحالية حتى القرن الرابع عشر الميلادى . وهذه الفرقة قد ظهرت فى هذه النواحى منذ القرن الرابع الميلادى على ما هو معروف .

قد حرض عمرا على هذه الحرب كما ذكرنا من قبل . وكان عمرو بعد أن هزم رافع بن هرثمة قد بات يرى فى السامانيين ، وقوتهم الصاعدة ، مع محبة الناس لهم ، منافسا له لا بد من القضاء عليه بأي ثمن . وأدرك عمرو فى قيام صلات المودة بين رافع واسماعيل مايدل على فتور اسماعيل نحوه ، فأخذ يتحين الفرصة للاشتباك معه . حتى اذا ما بلغه ترحيب اسماعيل بأحد أتباعه حين فر من عنده الى بخارى ، عمد أول الأمر الى حرب الرسائل معه ، ولعله لم يكن مستعدا لغيرها . وحين رد اسماعيل عليه ردا عنيفا اصطنع المسالمة وناشده أن يعدل عن قيام النزاع بينهما ، وبين له أن الخليفة قد عهد اليهما بما بأيديهما من بلدان فهم بذلك قرناء أحرى بهما أن تقوم الصداقة والاخلاص بينهما ، واعتذر اليه بأنه لن يجعل للوشاة سبيلا الى افساد ما بينهما من ألفة أبدا ، وأنه لم يقصد الى ما فهمه مما كان قد صرح به اليه ، كما سأله كذلك أن يتناسى ذلك كله وتعهد له بعدم التعرض له مستقبلا فله أن يمارس سلطانه هادىء البال (١) .

وتلقى اسماعيل هذه الرسالة ، وكان قد سار بجنده فنزل على شاطىء جيحون ، وقد حملها اليه رسل عمرو وعلى رأسهم شيخ نيسابور المشهور ، فكشف ما بها من مكر وخداع ورد عليها ردا فاترا قصيرا ، ليأمر عند ذلك الصفارى الداهية قائده على بن شروان بالزحف الى بخارى على أن لا يتعرض لأهلها بسوء ما وسعه ذلك وأن يجهد فى كسبهم الى صفه بالمودة دون قتال . وما ان سمع اسماعيل بذلك حتى عبر جيحون لساعته . وبدأ على بن شيروان الهجوم بمجانيقه القوية ، واستمات الفريقان فى قتال عنيف انتهى بفوز اسماعيل . وهكذا استطاع أبناء الصحراء هؤلاء

---

(١) تقول بعض المصادر الأخرى أن اسماعيل هو الذى سعى أول الأمر للصلح ، وكتب الى عمرو : « انك قد وليت دنيا عريضه ، وأنا فى يدى ما وراء النهر ، وأنا فى ثغر ، فاقنع بما فى يدك واتركنى مقيما بهذا الثغر » فابى اجابته الى ذلك .

ويذكر النرشخى قائدا آخر يدعى محمد بن الليث كان قد وجه وجهة أخرى ومعه خمسة آلاف من الجند . ويذكر « زينة التواريخ » أن عمرا كان عنده سبعون ألفا واسماعيل عشرون ألفا .

بركائبهم الخشبية الغليظة أن ينتصروا انتصارا حاسما على جيش عمرو ويوقعوا فى أسرهم قائديه بشرا وعلى بن شيروان . وهنالك تبدت شهامة اسماعيل بازاء أعدائه على ما هو مألوف عنده ، فلم يسير فى أسره جيش عدوه كله ، على الرسم المعتاد ، وانما حمل هؤلاء الرجال بالهدايا وأطلق سراحهم ليعودوا من بعد ذلك الى ديارهم . وحين أعرب رجاله عن دهشتهم بازاء صنيعه هذا كان جوابه : « ما نصنع بهؤلاء المساكين ، فلندعهم يعودون الى بلادهم وهم من بعد ذلك لن يخرجوا لحربنا أبدا » .

وحين وصلت عمرو بن الليث أخبار هذه الهزيمة وكان بنيسابور ، بلغ به الحنق والغيظ مداه وملأ عليه الانتقام من عدوه كل تفكير . وحين طلب الى اسماعيل أن يفك اسار قائديه فرفض ، سار فى جيش جديد الى بخارى . وكان اسماعيل بدوره على أهبة تامة لهذا الأمر ، وكان قد استمال اليه الولايات المتاخمة له . فعبر عند ذلك جيحون من فوره وهاجم حصن بلخ وكان عمرو يتحصن فيه . وحين لم يفلح فى حمل سكان بلخ على تسليم عمرو اليه فعزم على قتالهم ، بادره عمرو بالخروج اليه واشتبك معه فى معركة شديدة انتهت بهزيمة عمرو هزيمة حاسمة ، حتى لم يستطع الفرار من الميدان ومعه رجلان من رجاله الا بمشقة بالغة . على أنه سرعان ما وقع فى الأسر ، فأتوا به الى اسماعيل يوم الأربعاء التاسع من جمادى الآخر عام٢٨٨/٩٠٠ (١) . وبلغ باسماعيل التأثر غايته حين طلع عليه خصمه الأسير . حتى اذا ما هم عمرو بالنزول عن دابته ليحييه منعه اسماعيل من ذلك وقال له انه من واجبه اليوم أن يكرمه . وما غدا أن أنزله قصرا له

---

(١) يروى كتاب زينة التواريخ قصة طريفة عما أصاب عمرا من غير مفاجاة ، فيقول ان عمرا جلس أول مساء له فى الأسر على الأرض فأخذ يراقب أحد حراسه وهو يعد له وجبة بسيطة فى صفحة مما يستخدم لسقى الخيل ، ولم يكن عنده غيرها ، وما ان وضعها على النار حتى قدم كلب فأدخل رأسه فيها فانحشر فلم يستطع فكاكا فانطلق بها هاربا . ولم يملك عمرو مع هذا المنظر الا أن يمعن فى الضحك . وحين أنكر عليه حارسه ذلك أوضح له ان تابعه كان قد شكا له فى الصباح بأن ثلاثمائة بعير لا تكفى لحمل أدوات مطبخه ، وها هو كلب واحد ينطلق بصفحته وبطعامه ..

فى سواد قريب وزاره مرة أخرى بعد مرور أيام أربعة ، وبذل ما فى وسعه ليخفف عن غريمه السابق هذا من وقع ما نزل به . وحين جرى الحديث بينهما عن كيفية وقوعه فى الأسر ، روى عمرو قصته فقال ان جواده كبا به وهو فى طريقه الى الفرار ، فما ان خلص منه حتى افترش الأرض من فرط التعب والجهد ، فلم ينتبه الا على قدوم فارسين شرعا رمحيهما فى وجهه ، فاستعطفهما وهو رجل شيخ كبير حتى عدلا عن قتله ، وأخذتهما الشفقة به فأركبه أحدهما خلفه . وحين اجتمع الناس من حوله فسألوه عما يحمل مما غلا ثمنه أطلعهم على جواهر كانت معه تقدر بثمانين ألف درهم فأخذوها منه كما انتزعوا منه كذلك خفه الثمين . وأوضح عمرو : انه حين وقفوا على حقيقة أمره ، عامله القوم بكل اجلال ، وفق أوامر اسماعيل ، حتى ردوا اليه أكثر ما أخذ منه . وكان لشهامة اسماعيل وقع كبير فى نفس عمرو حتى أفضى اليــه بأنه كان قد أخفى فى بلخ حمولة تسعة أتن من الذهب . وقد أمر اسماعيل باحضار هذا المال ورده عليه (١) .

ما من شك فى أن ذلك الأمير السامانى الكريم لم يكن ليكف عن مداومة عطفه البالغ على غريمه الذى وقع فى قبضته ، لولا أن كتب اليه الخليفة المعتضد بالله ، عند سماعه بانتصاره ، يأمره بأن يسير اليه عمرو محتجا بأنه بوصفه أميرا للمؤمنين هو وحده الذى له أن يعاقب المذنب . مع أنه هو نفسه الذى حرضه على تلك الحرب . ولنا أن نتصور مدى وقع هذا الأمر فى نفس اسماعيل . وان كان لم يملك ، بدافع من ورعه ، أن يتجاهل مطالب أمير المؤمنين مع علمه التام بدسـائسه ومؤامراته . ونفذ

---

(١) تقول بعض الروايات أن اسماعيل منعه اباؤه من قبـول هـذا المال وقال له « من أين لك ولأخيك هذا المال والدنيا كلها تعرف أن اباكما كان صفارا ، وان هى الا أيام قليلة تلك التى بسم لك الحظ فيها ، بتآمرك فى الواقع ، فبلغت الى السلطان . وقد صار لك هذا المال بجورك وظلمك. واليوم تريد أن تخلعه عنك وتلقى به على ، ولست أنا ممن يخدعون بزخرف القول » . والمعروف أن اسماعيل لم يكن أبدا ليتحدث الى أعدائه بمثـل هذه اللهجة العنيفة . والغالب أن هذه القصة من وضـع بعض المؤرخين الشرقيين هى وتلك الخرافة التى تعزو اكتشاف أموال عمرو عند بلخ الى أحد الجوارح ، وقد ذكرها دفرمارى فى كتابه المشـار اليه فى السابق Defrémery p. 121

اسماعيل أوامر الخليفة فأتى بعمرو الى بخارى فى هودج . ولم يجد اسماعيل فى نفسه القدرة الكافية ليصارح خصمه شخصيا بأمر الخليفة المؤلم . وأشار عليه من بعد ذلك بالاستسلام الذى لا مناص منه على مرارته ، وطلب اليه الصفح ، وسأله عما يرغب فيه . هنالك أوصى عمرو اسماعيل بأولاده وأتباعه المخلصين ثم سار الى بغداد تحوطه أبهة الأمراء . وسلمه الخليفة عند وصوله بغداد الى طواشيه صافى (الخرمى) فرمى به فى السجن ، فقضى به عامين حتى أمر المكتفى من بعد ذلك بقتله فى جمادى الأولى من عام ٢٩٠/٩٠٣ (١) .

بادر الخليفة عقب وصول عمرو الى بغداد بارسال البراءة الى اسماعيل بولاية خراسان ، وكانت تمتد اذ ذاك شرقا من بسطام . شاهرود الحالية) حتى بلخ ، وشمالا من كين الى سيستان والعراق ومازندران حتى جيحون . وقدم رسول الخليفة ومعه الخلع الفاخرة فاستقبله اسماعيل بالحفاوة والترحاب وأهداه بدوره الهدايا السنية . وما ان شرع اسماعيل فى الاحتفال بتقليده أمور هذه البلاد حتى جاءته الأخبار بزحف محمد بن زيد العلوى أمير طبرستان على بلاده . وحاول اسماعيل أول الأمر أن يرد هذا الأمير عنه سلما ، حتى اذا ما فشل فى ذلك سير اليه محمد بن هارون بالجند . وبدأ القتال أول الأمر فى صالح العلوى ، حتى اذا ما اندفع فيه من بعد ذلك دون تبصر أو تثبت انقلب الحال فخسر عرشه وأضاع حياته . هنالك عهد اسماعيل بطبرستان الى قائده المظفر الذى قابل صنيع سيده هذا من بعد ذلك بالتنكر له والخروج عليه . على أن اسماعيل سرعان ما استرجع هذه الامارة منه ، بعد أن دفع ذلك الثائر حياته جزاء ما قدمت يداه ، وبعث بأبى صالح منصور ابن أخيه عاملا عليها .

عاد اسماعيل من العراق ليسرع عام ٢٩١/٩٠٣ م بالخروج من جديد الى حدوده الشمالية عند مدينة تركستان وكان الترك قد أخذوا يتهددونها

---

(١) أهدى اسماعيل ، رسول الخليفة مائة الف درهم . وأدى به توقيره للخليفة مع فرط تقواه الى أنه كان يصلى ركعتين لله شكرا قبل أن يتسلم كل خلعة من الخلع المهداة اليه .

بالغزو . والواقع أن الترك كانوا على الدوام مصدرا للمتاعب لبلاد ماوراء النهر . وقد ظهروا فى هذه الواقعة فى جموع كثيفة على ما تقول الرواية العربية (١) . على أن حشودهم هذه لم تمنع اسماعيل من أن يوقع الهزيمة بهم ويشتت من شملهم ، ثم يعود من بعد ذلك الى بخارى محملا بالأسلاب. وبهـذه المعركة ختمت سلسلة الحروب التى اضطلع بها هـذا السامانى الكبير ، منذ أن ولى العرش ، واستطاع بها أن يضم ولايات غنية كثيرة الى ما ورثه من ملك عند جيحون ، ويجعل بذلك من بلاد ما وراء النهر دولة قوية حين لم تكن أيام العرب الا مجرد أيالة تتبع امارة خراسان .

غدت بخارى فى الواقع هى حاضرة كل ولايات آسيا الوسـطى . ذلك أن سلطان الحاكم المقيم عند زرفشان قد بات يمتد شمالا حتى مشارف الصحراء الكبرى ، وشرقا حتى وديان جبال تيان شـان ، وجنوبا حتى الخليج الفارسى وحدود الهند الشمالية (٢) ، وغربا الى ما وراء العراق (العجمى) حتى مسيرة يومين الى دار الخلافة . وهكذا كان عمال اسماعيل هم أصحاب الأمر فى مرو ونيسابور والرى وآمل وقزوين وأصـفهان وشيراز وهراة وبلخ . ونجح اسماعيل أولا فى توحيد ايرانيى الشرق مع بنى جلدتهم فى الغرب . وبدا اتحاد هذه الولايات ، بفضل ملكته الادارية وانتصاراته الحربية ، أشد رسوخا مما كانت عليه الدولة العربية التى لم تظهر موثقـة العرى الا لفترة قصـيرة ، وذلك بعـد معـارك الفتوح الأولى .

ولكى ندرك كنه ذلك النصر السياسى يجب أن لا يغيب عن بالنا أنه ابان المائتين والخمسين عاما التى انقضت منذ الفتح العربى ، أخذت الأفكار الفارسية الاسلامية تحل محل الثقافة الفارسية القديمة فى كل من ايران

---

(١) ينقل دفرمارى عن ابن الأثير أن معسكر الترك كان يضم سبعمائة سرادق كبير مما لا يستخدمه الا الرؤساء ، وعلى هذا قرر المؤلف عظم جيش الترك .

(٢) يذكر النرشخى « السند والهند » وهو تخبط منه ، اذ المعروف أن محمود الغزنوى هو أول من مد سلطانه الى ما وراء جبال سليمان **(المؤلف)** فتح العرب اقليم السند فقط فى أواخر القرن الأول الهجرى ، اى قبل قدوم محمود بثلاثة قرون ـ وبقيت دولتهم هناك حتى فتوح الغزنويين **(المترجم)**

وبلاد ما وراء النهر . ومرد ذلك كان الى أن العقيدة الاسلامية لم تقض القضاء كله على الشعور بالقومية بين الفرس ، ذلك أن عمال الخليفة من العرب كانوا مكروهين من الأهلين على خلاف العمال من أهل البلاد أنفسهم . وهذا هو السبب الحقيقى الذى مكن لحفنة من العسكريين ، حين تمردوا على الخليفة ، من أن ينجحوا فى تأسيس دولة جديدة لهم . وفى هذا كله تفسير للسهولة التى استطاع بها اسماعيل أن يؤسس له دولة مستقلة كان قيامها هدفه الحقيقى منذ أول الأمر برغم ما كان يظهره من الخضوع للخليفة .

ولم تعد بخارى مجرد حاضرة له فحسب ، وهى التى قد آثرها على غيرها من المدن ، وانما صارت كذلك مركزا لكل النشاط والحركات الفكرية التى ظهرت من بعد ذلك فى القسم الشرقى من بلاد الدولة الاسلامية .

وحين قضى العرب على كيان ايران القومى ، بعد واقعة القادسية ، واجتاح أبناء الصحراء العربية هؤلاء بلاد فارس ، بقى بصيص غير خاب من ذرات الحضارة الفارسية تحت المعابد فى ايران الشرقية وبخاصة عند بلخ وفى بلاد ما وراء النهر ، ليذكى من نارها السامانيون من بعد ذلك حتى أشرقت اسلامية خالصة فى اتجاهها ، ولا يصعب مع هذا تتبع منشئها فى بيوت النار الزرادشتية .

ان بخارى التى اشتهرت أيام الزرادشتيين بأنها « مثابة العلوم كلها » اشتاقت كذلك لاسترداد صيتها القديم فى ظل الاسلام . وسرعان ماأصبحت تعرف باسم « بخارى الشريفة التقية » ، وهو لقب ليس لها اليوم منه نصيب . وكان النشاط العقلى السائد فى ذياك الوقت وقفا على علوم الدين . وبهذا كان أوائل المشاهير الذين ازدانت بهم تلك المدينة التى تقع على نهر زرفشان هم من الأولياء الذين لا تزال قبورهم هناك أعظم المزارات حتى اليوم (١) . ومن هؤلاء أبو حفص البخارى المولودعام١٥٠/

(١) انظر الجزء الخاص بمزارات بخارى فى القسم الأخير من تاريخ النرشخى . ويقع قبر أبى حفص البخارى فى الجبانة التى تعرف باسم تل خواجه . وتحوى تلك الجبانة كذلك مقام الشيخ بيدار ، ويروى عنه أنه لم تغمض له عين مدى أربعين عاما كان يقضى لياليها كلها متهجدا .

٧٦٧ ، وكان من العلماء الذين تزعموا الحركة الفكرية فى مدينة بخارى زمنا طويلا . وهو من تلاميذ الامام محمد شيبانى ، وقد شهد له بأنه كان أقدر تلاميذه . ومات أبو حفص عام ٨٤١/٢٢٧ ، وترك من بعده ذكرى خالدة لنشاطه العقلى تمثلت فى تلميذه عبد الله الفقيه الملقب بالبخارى (١) شيخ المحدثين المسلمين الذى ولد عام ٨٠٩/١٩٤ فى بخارى . ويعد كتابه الكبير « جامع الصحيح » أعظم مرجع للحديث فى الثقافة الاسلامية كلها . ويذكر ابن خلكان أن أكثر من سبعين ألفا من طلبة العلم درسوا هـذا الكتاب على هذا الشيخ ، وأن هـذا الكتاب يحوى ستمائة ألف حديث أنفق البخـارى ستة عشر عاما فى جمعها وتصنيفهـا . ومات فى نواحى سمرقند عام ٨٦٩/٢٥٦ . ويأتى من بعده محمد السبدمونى العلامة قاضى القضاة فى عصر اسماعيل ، ومات عام ٩١٦/٣٠٤ م ، ثم محمد بن الفضل أعظم فقيه فى عصره ، وغير هؤلاء ممن صارت بهم بخارى ، ومدن العالم الاسلامى الأخرى تحسدها على وجودهم بها (٢) . ويقول مقرظو اسماعيل ان صيت بخارى بهؤلاء العلماء هو الذى حدا بالأمير السامانى الكبير الى أن يتخذها حاضرة له بدل سمرقند . ومهما يكن فقد عرف اسماعيل نفسه بالتقوى (٣) والاستمساك بالشرق وبرعايته للعلمـاء (٤) حتى قدم اليه كثير منهم من أماكن بعيدة ليستكملوا دراستهم فى مدرسته أو ليقضوا حياتهم فى التأمل والبحث بدار كتبه التى حبس عليها الحبوس .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى (المترجم)

(٢) يورد كتاب « ذكر علماء بخارى » وهو الذى نقل عنه النرشخى ، أسماء بضع مئات من الأولياء المدفونين ببخارى وما حولهـا . وأكثر من نصف هؤلاء عاش فى عهد السامانيين .

(٣) مما يروى عن تقوى اسماعيل انه كان حين يسمع أذان الصـلاة وهو يركب فى شوارع المدينة ، كان ينزل عن دابتـه حتى يفرغ المؤذن من أذانه .

(٤) مما يدل على بذل اسماعيل للشيوخ أن محمد بن الفضل البخارى مات عن أربعمائة الف دينار .

ويحدثنا التاريخ عمن يدعى حاشد الصوفى وكان أميرا عالى المقام بدمشق ، قدم بخارى ليقضى بقية أيامه فى عزلة وتأمل دينى . وبقى هناك حتى مات عام ٢٤٦/٨٠٩(١) . وما غدا هذا الشعور القومى الذى بعث من جديد بايران فى ظل السامانيين ، بالاضافة الى انعطافاته الدينية ، أن خطا أول خطوة لاحياء اللغة الفارسية وآدابها من جديد ، فاتتعش اللسان الفارسى المتناسق مرة أخرى فى عهد نصر واسماعيل بعد أن كان حكام العرب قد حرموه على الناس لأكثر من مائتى عام . وعلى خلاف ما حدث عند شعوب آسيا التى دخلت فى الاسلام فى وقت متأخر فدخل فى لغاتهم ، مع الثقافة الاسلامية ، قدر كبير من الكلمات والمصطلحات العربية ، فان الشعر الفارسى قد احتفظ أول الأمر بنقائه تاما ، ذلك النقاء الذى هو سر الجمال فى أشعار أبى الحسن الرودكى وأغلب أشعار الفردوسى الخالد الغنائية . ومن أسف أن هذه الظاهرة القومية ما تلبث أن تختفى ، فنرى الآداب الفارسية فى ظل السلاجقة وقد زخرت بالاصطلاحات الكثيرة الدخيلة التى استعادتها من غيرها من اللغات . ولا مراء فى أن السامانيين الأوائل ، بما بذلوه من جهود موفقة بازاء لغة ايران الأصلية ، جديرون بكل ثناء أكثر من غيرهم من الأمراء أصحاب اللسان الفارسى ممن حكموا آسيا حتى اليوم (٢) .

كان اسماعيل (أو الأمير اسماعيل على ما كان يلقبه المؤرخون الشرقيون باعتبار استقلاله الظاهر عن بغداد) هو الرجل الوحيد الجدير

---

(١) يروى عن حاشد هذا أنه عندما بلغ جيحون ألقى بكل متاعه فيه فلم يحتفظ منه الا بمشط (على رسم الدراويش اذ ذاك) كتب على وجه منه آية من آيات الذكر الحكيم فى حين خط على الوجه الآخر هذه العبارة « الكفارة عن الذنب أصعب من ارتكابه » .

(٢) يتجاهل المؤلف هنا التطور الطبيعى للغة ولعله لو فكر فى دخول الفرس فى الاسلام وذيوع القرآن بينهم وجريان آياته على ألسنتهم لقال بما يقول به علماء اللغة ، والفرس أنفسهم ، بأن من الطبيعى أن تدخل الألفاظ العربية اللغة الفارسية وتصبح اللغة الفارسية الاسلامية متميزة عن سابقتها البهلوية ولغة قومية للفرس فى الوقت نفسه . (الخشاب)

بهذه الحقبة المشهورة في تاريخ آسيا الوسطى . فلم يكن في شجاعته دون مؤسسي دول الصفاريين أو الديالمة أو البويهيين ، كما كان يشتهر فوق ذلك بتقواه وعدله ورحمته وميله الى العلم . ولقد ترامى الى سمعه ذات يوم أن جباة الخراج في الري يطففون بموازين ثقيلة زائفة ، فبعث برسوله من فوره ليأتيه بتلك الأثقال في حرز الى بخارى ويوقف الجابي عن عمله ويغلق ادارته حتى تصب الأثقال على حقيقتها وتعاد الى هناك . وثمة قصة أخرى مثيرة تروى عنه ، اذ دخل على ابنه أحمد وهو في الدرس فسمع مؤدبه وهو يسبه ويقول له : لا بارك الله فيك ولا فيمن ولدك ، هنالك لم يملك اسماعيل الا أن يسرع بالخروج من الغرفة كما دخلها ثم يستدعى ذلك المربي ويهدىء من روعه ويصله . وظلت ذكرى اسماعيل حية في خراسان وفي ايران بطبيعة الحال كذلك لعدة قرون من بعده ، وذلك بمثل هذه الفعال وغيرها مما كان يروى عنه ، ويغرم الشرقيون جميعا بأن يزيدوا فيها . فلا عجب أن نرى اسمه يذكره تاجيك بخارى حتى اليوم مقرونا بالتبجيل الذى يضفونه على الأولياء عندهم .

أشرنا من قبل الى كلف اسماعيل بتلك المدينة الواقعة على زرفشان وتفضيله لها على غيرها . وهو وان لم يستطع أن يبلغ بها ما بلغه تيمور ، مثلا ، بسمرقند ، الا أن ذكراه ستبقى ماثلة على الدوام في أذهان سكان بخارى الأصليين بوصفه الأمير العظيم الحقيقي الوحيد من أصلاب الايرانيين . ونذكر من بين المنشآت التى أقامها اسماعيل ، أولا ، ذلك القصر الذى يقع على ريغستان . وكان قد شرع في بنائه أصلا قبل الاسلام ، حتى جاء اسماعيل فقام بتوسيعه وزخرفته ليصير بذلك مقرا للأمير الحاكم وكبار رجال الدولة . ويأتى من بعده قصر موليان الذى أقامه على ضفاف القناة التى تعرف بهذا الاسم في بذخ يليق بعظمة الأمراء . ويشتهر هذا القصر بروعة بنائه . وكانت تحيط به الحدائق والمروج وأحواض الزهر وفيها النافورات والغدران الجارية . وعانى اسماعيل

مشقة شديدة لمدم بالماء (١) الذى جلب اليه فى قنوات أجروها ، بدقة ، اليه من النهر الذى يجرى بأعلى المدينة . كذلك مد اسماعيل أسوار المدينة وحصنها ، وكانت هذه قد بناها الحاكم أبو العباس الطوسى فى عهد الخليفة المهدى (٢) .

ويقال ان عدد المدارس الجامعة ببخارى كان فى عهد اسماعيل يزيد على نظائره فى كل مدن آسيا ، حتى لنرى بلخ وهى التى تعرف بقبة الاسلام ، لم تستطع أن تبرز لتنافسها الا بعد ذلك بكثير . وأخذت هذه المدينة التى تقوم على شاطىء زرفشان (٣) ، والتى غدت قلب نصف آسيا

---

(١) يجلب الماء اليوم غير نقى الى بخارى من زرفشان (الذى يجرى الى الشمال منها) بواسطة قنوات رديئة لا تفضل بالوعات الأقذار . فى حين كان يحمل الماء لتلك العاصمة القديمة لبلاد ما وراء النهر أيام السامانيين ما لا يقل عن احدى عشرة قناة عريضة هى : ١ — جوى موليان ، وكانت تجرى فى أجمل أجزاء بخارى وتقوم على ضفتيها القصور الجميلة وسط الرياض . وهذا الجزء من المدينة كان يعرف باسم موليان ، اذ كان اسماعيل قد وقفه على الملات (أى رجال الدين) . ٢ — رود شابور ، وتشتهر عموما باسم شفير غيام أوكيا فيرجام (على ما ورد فى كتاب المسالك والممالك) وهى تنسب الى أمير من السامانيين كان محبا للصيد عاش عند بخارى وأجرى تلك القناة بها . ٣ — فرقان العليا . ٤ — فرقان الدود . — ٥ جارجتفرود ، وهى طويلة جدا . ٦ — سمتجين وهى كبيرة كذلك . ٧ — بيقانرود . ٨ — فرايويز العليا (ويذكر كتاب المسالك والممالك فراوان السفلى وفراوان العليا بوصفهما قريتين بظاهر بخارى) وتفيد من مائها الضواحى . ٩ — فرايويز السفلى ، وتعرف أحيانا باسم زيمون . ١٠ — كيف أو كفذ . ١١ — رودزر . وجميع القنوات هى من صنع الانسان ، على رواية النرشخى صاحب هذا الثبت ، الا الخامسة فقد كانت مجرى طبيعيا فى الأصل .

(٢) أقيم سور المدينة بسبب توالى غزوات الترك عليها ، وكانت اقامته عام (٨٧٣/٢١٥) ، ثم عمر عمارة كبيرة عام (٨٤٩/٢٣٥) أى قبل زمن اسماعيل . وجدده من بعده قليج التامغانى عام ٥٦٠ (١١٦٤) حتى خربه جنكيز خان تخريبا تاما عام (١٢١٣/٦١٠) .

(٣) حكم بخارى من قبل أخيه مدة عشرين عاما ، ثم حكم من بعد ذلك سبع سنين ببلاد ما وراء النهر ثم سبعا أخرى فى خراسان ، فجميعها أربعة وثلاثون عاما .

الاسلامية ، تزدهر ويعلو قدرها يوما عن يوم بوصفها قصبة المال والعلم ومركز انتاج الحرير الذائع الصيت كذلك . ولقد جنى اسـماعيل خير الثمار من وراء حروبه الطويلة وان لم يمتد به الأجل طويلا لينعم بالملك ، فقد نزل به الداء فى قصره الواقع على قناة موليان فنصحه طبيبه أن يغادر المكان لرطوبته الى مصطاده فى زرمان ، حيث وافاه الأجل به بعـد قليل مساء الثلاثاء من صفر عام ٢٩٥/٩٠٧ وهو فى الحادية والستين من عمره ، بعد أن حكم أربعة وثلاثين عاما قضى بضع سنين منها عاملا لأخيه على بخارى ، وكان فى باقيها حاكما مستقلا على القسم الشرقى من آسـيا الاسلامية .

الفصل الخامس
سقوط السامانيين وظهور الترك

٢٩٥ (٩٠٧) – ٣٩٥ (١٠٠٤)

ان الدول والأسر الحاكمة ، فى الشرق والغرب على السواء ، كانت على الدوام تستطيع أن تحتفظ بما تكون قد بلغته من مجد وعظمة ماقويت فيها روح التآلف والاتحاد بين أبنائها فهدتهم الى العمــل المشترك لخير الصالح العام . وحين كانت هذه الظاهرة تغيب فان مواهب الأفراد ، مهما بلغت من السمو ، كانت لا تجدى ، مع هذه الأوضاع ، الا قليلا . لهذا نرى بيت السامانيين يأخذ فى الانهيار السريع منذ أن راح بعض رجاله ، ومعهم بعض أعيان دولتهم ، يتجاهلون ما يجب عليهم من اطاعة أوليائهم واحترامهم لهم ، حتى انطلقوا يدبرون من المكائد ما كانوا يرومون من ورائها الى اغتصاب الحكم لأنفسهم .

وما من شك فى أن قيام حاكم قوى ببلاد ما وراء النهر ، يحزم أمر جموع الترك هناك ، له نفعه العظيم ، ولا سيما فى تلك الفترة التى ساد فيها الاضطراب بهذا الجزء من آسيا بسبب ضعف الخلفاء . ولكنا نرى خلفاء اسماعيل من السامانيين قد صاروا ، الا نفرا قليلا منهم ، مجرد دمى لا حيلة لها بأيدى رجال دولتهم ، حتى صار الحال بالترك الى الصدر بعد أن كانوا مجرد خدم وأتباع . وسرعان ما تزايدت قوتهم ، فلم يتمكنوا من القضاء على السامانيين ببلاد ما وراء النهر فحسب ، بل لقد انطلقوا كذلك ينشرون نفوذهم فى كل ناحية حتى استولوا على عروش آسيوية أخرى كثيرة ، وهم يؤكدون دعواهم ، التى لا يزالون عليها حتى اليوم ، بأنهم أبناء جنس يتفوق على غيره من سائر الأجناس .

ولقد خلف اسماعيل ابنه أحمـد وكان خلوا من الحزم فى الادارة والتمرس بالحروب وان لم يخل من بعض فضائل أبيه . وأول ما فعل هذا الأمير حين أمسك بزمام الحكم هو أن قبض على عمه أمير سمرقند وحبسه ببخارى اذ كان يتوقع تآمره عليه فى الخفاء ، ومن ثم انطلق الى طبرستان ليعاقب بارس الكبير عامله هناك اذ كان قد بلغ الى ثراء فاحش(١)باغتصاب أموال الناس وظلمهم . هنالك لجأ هذا العامل الى بغداد بعد أن أذن له المكتفى بذلك ، فلم يغضب الأمير أحمد السامانى لهرب عامله بقـدر ما غضب لخروج أمواله من يده . وندب أبا العباس بن عبد الله مكانه على حكومة خراسان ، وكان رجلا قديرا ما غدا أن التف الناس حوله حتى لم يستطع الناصر الأطروش (٢) العلوى أن يناوىء الحكومة السامانية هناك . وعاد أحمد الى عاصمته من بعد ذلك ، ولكن حبه للفتوح لم يدعه يركن هناك الى الراحة طويلا ، فقد تطلع الى فتح سيستان فزحف عليهـا عام ٢٩٨ — ٩١٠/٩١١ بجيش كبير عليه أقدر قواده لحرب المعدل الصفارى أميرها ، فهزمه وحمله معه أسيرا الى بخارى بعد أن عهد بحكومته الى ابن أخيه أبى صالح منصور . وكان أبوه فى الحبس فأخرج منه وأعيد بدوره الى منصبه السابق .

وفيما كان أحمد يصطاد على شواطىء سيحون عام ٣٠١/٩١٣ جاءته الأخبار باستيلاء الأطروش العلوى على طبرستان وطرده لأميرها صـالح منها . وبلغ بالأمير السامانى التأثر عند سماع هذا الخبر حتى ليقال انه دعا الله أن يوافيه أجله ان كان قد كتب عليه ضياع ملكه . وكأن الله قد استجاب لدعائه ، فقد عاش بعض الوقت فى خوف من أقرب أتباعه اليه

---

(١) يروى مير خوند أنه هرب الى بغداد فى أربعة آلاف من الجنـد ومعه أمواله الكثيرة . ومات الخليفة المكتفى وهو فى طريقه الى هذه المدينة، فطمع خلفه المقتدر فى هذا المال وقتله بالسم .

(٢) اسمه الأصلى الحسن بن على وأبوه الحسين بن على ، وكان ينشر دعوته بين الديالم منذ عام ٢٨٧ (٩٠٠) حتى هدى كثيرا منهم الى الاسلام وكانت استمالته للناس وسيلة لغايتـه الحقيقية فى زيادة نفوذه الدنيوى ككل العلويين . انظر (Weil vol II. p. 613) Defrémery, Histoire des Samanides p. 136

حتى كان ينام وعلى بابه أسدان يقومان على حراسته . وأغفلوا احضار الأسدين ذات ليلة وهو فى مضاربه ، فانتهز غلمانه هذه الفرصة وهجموا عليه وقتلوه فى ليل ٢٣/٢٤ يناير من عام ٩١٤ (١) . وقد حكم ست سنوات وأربعة أشهر وسبعة أيام ولقب بالشهيد بسبب مقتله على هذا الوجه .

وخلفه على العرش ابنه أبو الحسن نصر (ولقب فيما بعد بالسعيد) وكان اذ ذاك حدثا فى العاشرة من عمره . وحين دخل عليه أعيان بخارى لتهنئته تملكه الرعب وصرخ فى وجههم اذ كان قد تبادر الى ذهنه أنهم انما قدموا اليه ليقتلوه كما قتلوا أباه من قبل ، وما زالوا به حتى هدأوا من روعه . وسار الحكم فى السنوات الأولى من عهده بالوصاية . وسرعان ما علا نجمه من بعد ذلك حتى أشاد بذكره المؤرخون الشرقيون أكثر مما أشادوا بغيره . ولم يكن هذا الأمير السعيد ، وكان يشتهر بهذا اللقب ، خلوا من المواهب ، كما صادفه كذلك توفيق ملحوظ فى كل أعماله . على أن تألق عهده كان فى الواقع أقرب الى ومضات لهب يخبو أكثر منه الى ضوء ثابت مستقر . فهو برغم امتلاكه التام لكل بلاد جده ، بل واضافته لأراض جديدة اليها (٢) ، فانه لم يبلغ بحكمه الطويل الى تقوية الدولة السامانية واستقرارها . فقد كان عليه أول حكمه أن يدفع عن نفسه خطر عمه اسحاق الذى كان يطالب بالعرش ومن ورائه حزب قوى يسانده بدعوى أنه كان أكبر أعضاء الأسرة الحاكمة سنا . ولم يستطع حمويه قائد الأمير السعيد أن يوقع باسحاق الا بعد أن واجهه فى حربين أسره من بعدهما وساقه الى الحبس فى بخارى حيث قضى بعد قليل . هذا كما شجع الثائر حسين (٣) الأمير منصور بن اسحاق على العصيان فنادى بالثورة فى

---

(١) Weil, p. 614. ــ ٧ جمادى الآخر عام ٣٠١ هـ : المترجم

(٢) يذكر مالكولم فى كتابه History of Persia ضمن ذلك أصفهان وقم (من مدن الرى)

(٣) هو حسين بن على مروردى وكان يطمع أيام الأمير احمد فى ولاية سيستان فلما خرجت من يده عمد فيما بعد الى العصيان ــ حبيب السير ثان ص ٣٥٧ تهران ١٣٣٣ ش (المترجم) .

نيسابور . عـلى أنه لقى أجله وحمـويه فى طريقه اليه ، لينصرف القائد السامانى من بعد ذلك الى الثائر حسين نفسه . وتطوع بالقضاء على هذا الثائر أمير هراة اذ ذاك أحمد بن سـهل وكان من أشـياع السامانيين المخلصين . وحين حمل حسين أسيرا الى بخارى عفى عنه الأمير السامانى بعد قليل وقلده منصبا فى بلاطه (١) . وكان الأمير نصر غالبا ما يخلف وعوده . وما ان عدل عما كان قد وعد به أحمد بن سهل حتى ثار هذا عليه عام ٣٧٠/٩١٩/ ٩٢٠ وما لبث حمـويه أن خرج اليه على كل حال فحاصر هراة وأوقعـه فى أسره ثم بعث به الى بخـارى حيث مات فى الحبس .

وأهم هذه الحملات جميعا على كل حال هى التى كان على نصر أن يسيرها الى العلويين فى طبرستان . ولم يكن هؤلاء قد أفاقوا فحسب مما نزل بهم من الهزائم منذ أن مات الأمير أحمد ، بل لقد استطاعوا كذلك أن يمدوا نفوذهم فعلا الى جـزء من خراسان وذلك بفضـل جهود قائدهم الشجاع ليلى بن النعمان على الخصوص . وتقدم هذا القائد من بعد ذلك بطريق دامغان حتى بلغ نيسابور ، ليسير اليه عند ذلك حمويه ويرغمه على الارتداد . وقد قتل أثناء انسحابه عام ٣٠٩/٩٢١ . وبمقتل هذا القائد العلوى لم يعد الهدوء الى طبرستان ، فقد ظل اشياع العلويين يظهرون هنا وهناك بها من حين الى آخـر . وها هو ذا الخليفة يستنجد كذلك بالأمير السامانى للضرب عـلى أيدى عماله الخارجين عليه ومنهم غلامه السابق فاتك الذى كان قد استولى بالفعل على مدينة الرى . وكان الأمير السعيد يرى نفسه كفؤا لمواجهة كل هذه المشاكل بفضل يقظته التامة حتى راقب بانتبـاه تام أبعد حدود دولته ، فضـلا عما كان يكنه له الأمراء

---

(١) طلب الأمير السعيد ماء ذات يوم فجىء له به فى آنية عادية ، فتعجب من ذلك حسين وقال لابن حمويه « ان أباك هو أمير نيسابور ، وبها تصنع الآنية الجميلة فكيف لايبعث ابوك بشىء منها الى الأمير » هنالك اشتد غضب ابن القائد المشهور ورد عليه بأن أباه حين يبعث بالهدايا من خراسان انما تكون عادة من أمثاله ، هذا وفخار نيسابور يذاع صيته حتى اليوم .

السامانيون من الاحترام البالغ مع طاعتهم التامة له (١) . وقد استمر حكمه ثمانية وعشرين عاما ، وكان على فضـائل ملكية عالية . وما بذله لأعظم شعراء عصره أبى الحسن الرودكى جدير بأن تسير بذكره الركبان ومات بالدرن فى سن مبكرة وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره فى شعبان من عام ٣٣١/٩٤٣ (٢) .

كان نصر قد جعل ولاية العهد من بعده لابنه الأصغر ، لكن الملك صار بالفعل الى أخيه الأكبر نوح الذى أدت به صفاته العالية الى أن لقبه الناس بالأمير الحميد . وقد بدأ حكمه بما يدل على شهامته حين عفا عن أبى الفضـل محمد أكبر أشـياع خصمه الأمير السـابق وندبه لحكومة سمرقند . وحـروبه الكثيرة والفتن التى صادفها ، وجميعها هى مدار تاريخ حكمه ، على ما كان الحال عليه عند اسلافه كذلك ، هذه كلها بدأت أواخر عام ٣٣٢/٩٤٣ بحربه مع ركن الدولة الديلمى وكان قد استولى على الرى . وكان قائد الأمير السامانى اذ ذاك هو أبو على حفيد الأمير محتاج وكان شجاعا طموحا . ولئن فشل فى أول حرب له مع ركن الدولة بظاهر

---

(١) يدلل ميرخوند على مدى احترام السامانيين لأميرهم وطاعتهم له بهذه الحكاية : « حين حاول ما كان بن كاكويه أن يضع يده على خراسان بالقوة ، سير القائد الكبير الامير على محتاج لحربه . وفيما كان هذا القائد فى حضرة الأمير ليتلقى منه أوامره قبل رحيله ، لاحظ عليه بعض أتبـاعه شدة انزعاجه . وحين انتهت المقابلة ودخل الأمير ، أخرج على محتاج من بين ثيابه عقربا كانت قد لدغته فى أكثر من موضع بجسده . ولما بلغ الأمير ذلك فسأله عن سبب عدم خروجه من حضرته حين شعر بذلك ، أجابه بأنه اذا لم يكن التابع ليحتمل بضع لدغات مثل هذه فى حضرة أمير فكيف له أن يحتمل طعنات السيوف فى غيابه .

(٢) أبوالحسن الرودكى هو أقدم شعراء الفرس ولايزال موضع التعظيم فى آسيا الوسطى . وهو يتميز بقريحته الخصبة ولغته الفارسية الخالصة ويقول هامر ، نقلا عن شراح اليمينى ، فى تاريخه للشعر الفارسى ، أن الرودكى نظم اكثر من الف الف بيت من الشعر جمعت فى مائة سنة وأنه كان يعيش فى ابهة وعظمة حتى كان يسير وبين يديه مئتان من الغلمـان ، ويحمل متاعه الفخم اربعمائة بعير .

نشر ديوانه مع دراسة وافية الأستاذ سعيد نفيسى فى طهران .
(الخشاب)

الري بسبب خيانة الجند الكرد له (١) ، فقد عاد الى هناك فى العام التالى من جديد وأرغم عدوه على الفرار وأقر الأمور فى تلك الولاية . وأطمع أبا على صنيعه هذا هو وصنيعه الآخر فى الغالب — حين حقق له رغباته فى مساعدة وشمكير الزيارى على الاستيلاء على حكومة طبرستان — فى أن يطالب فى كثير من الصلف والغرور بحقوق لا وجه له فيها جزاء له على فعاله هذه . وحين وجد حكومة خراسان تصير لغيره ، وكان يحسب أنها ستؤول اليه ، أعلن الخروج على أميره وانضم الى ابراهيم السامانى ، عم نوح وخصمه ، فوضعا أيديهما معا على العراق ثم على خراسان من بعد ذلك . وأمر ابراهيم بقراءة الخطبة باسمه فى كل مكان ، فى حين ترك نوح بخارى ولجأ الى سمرقند . وكاد يفقد عرشه على وجه اليقين لولا أن حالفه الحظ فدب الخلاف بين خصميه . ونتج عن هذا الخصام أن عاد الوئام بين الأمير وعمه ابراهيم من جديد ، ليعود نوح من بعد ذلك الى بخارى مرة أخرى وكان أهلها على ولاء تام له . وسعى أبو على بدوره فى العودة الى رحاب أميره حتى اشترك معه فى حربه لركن الدولة . وما لبثت العلاقات أن عادت الى التوتر بينهما من جديد حتى انتهى الأمر بأبى على الى انضمامه الى ركن الدولة فى ثورة جديدة على نوح . وحصل أبو على ، بتأييد من ركن الدولة ، على براءة من الخليفة باستقلاله بحكومة خراسان . وفى مساجدها أمر عام ٣٤٣ هـ بقراءة الخطبة باسم الخليفة المطيع . كما استطاع بمساندة الديالمة ، وكانوا قد بسطوا نفوذهم حتى شيراز ، أن يدفع السامانيين الى ما وراء حدودهم القديمة ببلاد ما وراء النهر .

ومات نوح ، أو الأمير الحميد ، عام ٣٤٣/٩٥٤ بعد أن حكم ثلاثين عاما فخلفه ابنه عبد الملك الملقب بالرشيد ، وكان اذ ذاك فى العاشرة من

---

(١) يبدو من هذا أن الكرد الذين يسكنون اليوم منطقة فى خراسان تمتد من نيسابور تجاه استراباد بامتداد حدود ايران الشمالية ، لم يكن السامانيون هم الذين جلبوهم من بلاد الكرد الأصلية كما يدعى بذلك الفرس المحدثون ، وانما كانوا يقيمون هناك من قبل ذلك وكانوا يكونون على الدوام قسما رئيسيا من قوات خراسان .

عمره . وجهد هذا الأمير بدوره عبثا فى أن يحتفظ بنفوذ السامانيين فى غربى الدولة ، فلم ينجح أشعث بن محمد ، وكان من خيرة قواده ، الا فى مصالحة الديلم وركن الدولة على شروط معقولة دون أن يستطيع حملهم على الولاء للأمير . وكان عبد الملك على شغف شديد بالتريض والفروسية حتى كانوا كثيرا ما يلقبونه بأبى الفوارس . ووافاه أجله على أثر سقوطه من فوق جواده (١) ، بعد أن حكم سبع سنوات ، فى الثامن من شوال عام ٩٦١/٣٥٠ . وخلفه أخوه منصور بن نوح الملقب بالأمير الشديد ، أى العادل . وما دفع بالدولة الى طريق التدهور بعد ما ذاع من صيتها انما كان فى الواقع بسبب سلوك البتكين. وكان البتكين هذا فى الأصل مملوكا (٢) ما زال يرتقى بجده حتى بلغ منصب الوزارة بعد أن ولى نيسابور . فهو بدلا من أن يساند الدولة ويحفظ عليها كيانها — وكان قادرا على ذلك — انطلق يهاجم أميره فى جيش كبير . ولئن كان نهر جيحون قد امتنع عليه عبوره بفضل فريق قوى من أتباع الأمير منصور حتى آب الى غزنه (٣) ، الا أن التوفيق حالفه فى محاولته الثانية حتى اضطر الأمير أن يصالحه على أن تصير له نيسابور على خراج سنوى قدره خمسون ألف دينار يؤديه . وانتهت حروب منصور مع ركن الدولة الى ما يشبه ما انتهت اليه مع البتكين . فدولة الديلم ، هذه التى كانت تسيطر على ما يقرب من نصف

---

(١) كانت سقطته هذه وهو يمارس لعبة جوكان أى « البولو » وكان اللاعبون فيها يضربون الكرة وهم يركضون بخيولهم وعليهم أن يقذفوها فى ضربتين خلال حلقتين مثبتتين بأوتاد ، الواحدة خلف الأخرى . وتستلزم هذه اللعبة مرونة فى الجسم أكثر مما تستلزمه لعبة جريد التركية ، وكلتا اللعبتين قد بطلت ممارستها .

(٢) البتكين كلمة مركبة من « الب » بمعنى البطل وتكين بمعنى المسمى . والكلمة الأخيرة وصحتها تكن أو تكن أو تين لاتزال تروج كاسم علم بين التركمان . فحين تسأل الواحد منهم عن اسمه مثلا ، يجيبك « أورازتكن من » يعنى « أنا أدعى اوراز » وتجد لفظ تكين يلحق بكثير من الأسماء التركية ، مثل قرة تكين ، نوشتكين ، اينالكتين ، سبكتكين بمعنى مثل أو شبيه .

(٣) يقول النرشحى أن البتكين كان قد قضى قضاء مبرما على قوات منصور عند بلخ ، ولكنه مع ذلك ارتد بعد قليل الى غزنه .

ايران ، كانت من القوة بحيث لا يقـوى بيت السامانيين المتدهور على الدخول فى نزاع معها . وانتهى منصـور آخر الأمر الى مصالحة ركن الدولة وبنى بحفيدته ابنة عضد الدولة . وقد وقع ذلك كله عام ٣٦١/ ٩٧١/٩٧٢ .

وعاش منصور فى سلام ابتداء من ذلك الوقت حتى مات ببخارى فى الرابع من شوال عام ٣٦٥/٩٧٦(١) بعد أن حكم خمسة عشر عاما . ولم يتمكن ابنه نوح بن منصور ، الملقب بالسعيد أبى القاسم ، من أن يصل الى حقه فى ارتقاء العرش الا بعد أن اجتاز أياما عصيبة ودخل فى عراك شديد كان كله مدخرا له . وفى ذياك الوقت صار نفوذ السامانيين الكبار الى الحضيض على وجه التحقيق .

كل ما فعله خلفاء وشـمكير فى جرجان وطبرسـتان هو أن نادوا باستقلالهم بمـا بأيديهم من أرضين ، كما بسط عضـد الدولة يده على العراقين وفيما كان زعماء هذه الطائفة القوية يجدون فى تحقيق مآربهم الخاصة ، اما بخروجهم على أميرهم أو بتطاحنهم فيما بينهم ، كان وزراء أبى القاسم بتشاحنهم وتحاسدهم يبذلون ما فى وسعهم لتحطيم ما بقى للدولة من سلطة عهد بها اليهم . وأخطر هذه المنازعات هو ما قام بين أبى العباس تاش الملقب بحسام الدولة وأبى الحسين سيمجور . فقد نصب أبو القاسم أبا العباس نائبا له على خراسان عام ٣٧١/٩٨٠/٩٨١ . وكان هذا على خلق قويم ونبل ، على خلاف غريمه الذى عرف بالجشع والدس ونجح سيمجور بالغش والخديعة فى أن يحمل أميره الضعيف آخر الأمر على عـزل عامله المخلص ، ليبلغ بتاش الغضب عند ذلك حتى عمد الى السـلاح ليدفع به غريمه عنه . وتم له بالفعـل طرد أبى الحسـين من خراسان بفضل معونة فخر الدولة الديلمى (٢) . ولكن سيمجور ما لبث أن عاد اليه من جديد ومعه مدد قوى من كرمان لم يستطع تاش معه أن يثبت أمامه ، ففر الى خير اصدقائه فخر الدولة بجرجان حيث مات مأسوفا عليه

(١) هذا التاريخ هو ما ورد عند النرشخى وهو عند ميرخوند ١١ رجب

(٢) وجد فخر الدولة أنه لزاما عليه أن يعين تاش فى حربه ، فقـد سبق له أن عاونه بدوره فى حربه مع مؤيد الدولة .

من الجميع عام ٣٧٩/٩٨٩/٩٩٠ . وكانت الصداقة القائمة بين تاش وفخر الدولة متينة مكينة . ومما يثير الاعجاب أن تاش كان قد استقبل فخر الدولة حين لجأ اليه ابان محنته في السابق فبذل له الكثير من الحماية ، ولم يتردد فخر الدولة بدوره من بعد ذلك في المبادرة الى انقاذ صديقه حين صادفه سوء الطالع وتعرض للخطر ، ليحيطه من بعد ذلك كذلك بكل مظاهر الأبهة بقية حياته . ولم يتح لأبي الحسين أن يستمتع طويلا بما بلغه من التشريف من وراء غدره وخيانته ، فقد أصيب بالفالج وهو بين يدى احدى جواريه ومات قبل خصمه بعام واحد ، وترك حكومة خراسان لابنه أبي علي . وكان أبو علي هذا يزيد في سوء الخلق على أبيه . فلم يكد يتولى أمر حكومته الا بعد أن سلك أحط سلوك بازاء نوح . وبدا واضحا منذ أول الأمر أنه انما يهدف الى القضاء التام على السامانيين ، لا يضيره في ذلك أن يسلك كل سبيل لتحقيق غرضه . وكان الأويغور (١)

---

(١) ان كل ما بأيدينا من معلومات يوثق بها عن الأويغور لا توجد الا في المخطوط الموجود بالمكتبة الامبراطورية في فينا بعنوان « قوداتقوبيليق أى العلم السعيد » وهو يتعرض لآداب السلوك والأحوال السياسية والاجتماعية في المجتمع التركي في عصر تاليفه • وتنحصر أهمية هذا الكتاب في ناحيتين ، اهمهما أنه مؤرخ عام ٤٦٢ (١٠٦٩) فهو بهذا يعد أقدم الوثائق التركية التي بين أيدينا . وقد كتب المؤلف القسم الأول من كتابه هذا عند اقصى حدود الاراضي التركية في نواحي كمول • أما القسم الثاني فقد كتب في الشعر • وقد ثبت أن هذا الكتاب هو أول ما كتب في التركية ، فهو بهذا وثيقة معتمدة تمدنا بمعلومات عن الأحوال الأولى لتلك القبائل التركية التي انتشرت الآن في أماكن مترامية الأطراف ، وتعاوننا معاونة جليلة في تتبع تطور الترك التاريخي العام • والناحية الثانية هو اننا نعلم من هذا الكتاب أن الأويغور كانوا منذ وقت باكر على قدر غير ضئيل من الحضارة التي غلب عليها فيما بعد المؤثرات المسيحية والاسلامية . فهي لم تكن ابدا نتيجة لهذه المؤثرات الاسلامية تلك التي يلاحظ اثرها واضحا في احياء اللغة الفارسية التي اخذت بها الثقافة الايرانية الحديثة في الانتشار . ومن أراد الاطلاع على معلومات أكثر عن الأويغور فليرجع الى كتابي، Uigurische sprachmonumente und Kudatku Bilik Innsbruck 1870. (المؤلف) • كتب الاستاذ قامبرى هذا قبل اكتشاف نقوش أورخون أواخر القرن الماضي ، وهي تتحدث عن الترك في القرن السابع الميلادى وعن حضارتهم فهي بهذا أقدم وثيقة عنهم انظر في ذلك « و. بارتولد . تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٤ وما بعدها الترجمة العربية لأحمد السعيد القاهرة ١٩٥٨ » « المترجم »

اذ ذاك يسكنون بأقصى الشرق فى الاقليم الذى يعرف الآن بتركستان الشرقية ، وهم قبيلة تركية كانت أول من انفصل عن جموع البدو الرئيسية التى تمثل الجنس التركى ، فاتخذت لها موطنا عند سفوح جبال تيان شان

ونجد عند هؤلاء الاويغور أول آثار لرسوم اجتماعية وسياسية نشأت تركية خالصة . وبرغم ظهور ولايات صغيرة لهم متفرقة ، أو العهد المسيحى الباكر ، كانت تنتشر حول المنطقة الواقعة بين مقاطعة كانسو الحالية والحدود الشرقية لخوقند ، الا أن قيام أول دولة أويغورية قوية بالمعنى المفهوم انما يرجع تاريخه الى وقت اضمحلال السامانيين . والظاهر أن ايليك (١) خان كان هو أول من وحدهم ولم شتاتهم . ويأتى من بعده بغرا أو قره بغراخان (٢) ، ويشتهر بجهاده حتى استطاع أن يحمل ألوفا من البوذيين والمسيحيين على الدخول فى الاسلام . فقد جمع كل القبائل التركية المختلفة تحت تاجه لينطلق بهم من بعد ذلك فى فتوحات صوب الغرب أمل من ورائها أن يضيف الى أملاكه بعض الأراضى مما بقى فى حوزة السامانيين حتى دخل فى نزاع مع تلك الدمية الذى كان يحكم ببخارى فتحالف عليه مع أبى على خصيم أبى القاسم الخارج عليه .

وفيما كان أبو على يعمل فى هدوء ضد نوح بخراسان ، زحف بغراخان فى جيش كبير من كاشغر الى ضفاف زرفشان وقد انضم اليه ترك خوقند . وخرج اليه أول الأمر اينانج (٣) الحاجب ولكنه هزم وسير أسيرا الى تركستان . هنالك عهد نوح بقيادة جيشه الى فائق ليقابل هذا القائد

---

(١) ايليك ، أو ايلك كما رسمه بعض من سبقونى خطأ وهو لفظ اويغورى معناه الأمير أو الحاكم أو الوصى ، فهو بهذا ليس باسم علم ، نظيره فى ذلك كلمات تركمان أو ترخان أو خاتون أو غيرها من الألقاب التى سمى بها العرب والفرس الحكام الترك اذ ذاك . ونحن نستخدمه هنا بدورنا حين لا نتأكد من الاسم الأصلى .

(٢) بغرا ، وعلى الأصح بقرا أو بخرا ، هو اسم الناقة فى اللغة التركية الشرقية ولم يكن من المستغرب قبل انتشار الاسلام بين الترك أن يطلقوا اسم حيوان على ضريح او شخص .

(٣) اخطأ ديفرماري حين ذكره « ايناتيج » وهو لفظ تركى يدل على الصدق والاخلاص .

عنـد ذلك صنيع سـيده معه بأحط أنواع الخيـانة والغـدر ، حتى اذا ما استولى بغراخان على سمرقند ، لم يكن على الأمير السامانى الا أن يهرب متنكرا فى صحبة عدد قليل من خلصـائه . والتمس أبو القاسم المعونة من كل وجه ، وحين اتجه أول الأمر الى أبى على تظاهر له هذا المخلوق الدنىء بالسذاجة واعتذر اليه بأن امارته هى بدورها مهددة . على أن الحظ ما غدا أن حالف أبا القاسم من جديد وهو فى محنته هذه ، اذ لم يحتمل بغراخان سوء مناخ بخارى فقضى . وبهذا استطاع أن يعود من جديد الى حاضرته ، وكانت قد بقيت على ولائها له . على أنه كان عليه أن يسعى الى محالفة حلفاء أقوياء ليواجه بهم غريميه ، أبا على وفائق ، اللذين حلا محل الأمير الأويغورى الراحل فى عـدائه له . ووجد أبو القاسم ضالته المنشودة فى مؤسس الدولة الغزنوية . وكان سبكتكين يحكم اذ ذاك كل المنطقة الواقعة بين غزنة وضفاف السند ، وقد ذاع صيته فوق ذلك بما جمعه من الثروة فى غزواته الهندية المتعددة (١) . وكان سبكتكين على اتصال وثيق ببيت السامانيين ، فاستجاب لذلك لأبى القاسم فى رضا وغبطة حتى سار الى جيحون فى جيش كبير ومعه مائتان من الفيلة ليقضى على هذين العاصيين ، وحين التقى بأبى القاسم عند كش بادر بالنزول عن دابته برغم انه كان يكبره بسنوات كثيرة وقبل ركابه فى احترام بالغ .

جاء تحـالف أبى القاسم مع سبكتكين بأعظم النفـع له ، حتى لم يستطع أبو على أن يصمد أمامهما برغم مساندة أمراء جرجان والعراق له مساندة قوية . وقد شارك محمود اباه سبكتكين فى حرب أبى على هذه التى وقعت فى سهل هراة . وفيها هـزم هؤلاء الخارجـون على الأمير هزيمة حاسمة واضطروا الى الفرار الى نيسابور ، ليدخل أبو القاسـم مدينة بخارى من بعد ذلك دخول الظافر وينعم عـلى سبكتكين الشيخ بلقب ناصر الدولة وعلى ابنه محمود بلقب سيف الدولة ، وما ان آب

---

(١) النرشخى . ويجعل آخرون غزوات الهند وقفا على محمود وحده « المؤلف) وهو قول ليس له سند من التاريخ ، والثابت أن محمودا كان قد شارك أباه أول الأمر غزواته الهندية (المترجم)

سبكتكين الى غزنة حتى برز أبو على من جديد ، وكان قد لجأ الى بلاط الديلم ، فانتهز فرصة خلو الميدان من صاحب غزنة وهاجم نيسابور . على أنه أخطأ فى حسابه خطأ كبيرا . ذلك أن شئون هذه الولاية كانت قد صارت بعد استرجاعها الى محمود ، وهو الذى أخذت فعاله تفصح عما ينتظره من مجد مقبل بلا مراء . وكان أن أخذ محمود على غرة ، حتى لم يستطع أن يخبر أباه بتلك الغزوة ، فاضطر الى الفرار تاركا كل متاعه لخصمه . وما غدا سبكتكين أن ظهر فى الميدان آخر الأمر فلقى أبا على عند طوس وهزمه هزيمة حاسمة وذهب من بعد ذلك يطارده حتى خوارزم وهنالك تبدت شهامة أبى القاسم الفائقة اذ أخذته الشفقة على أبى على فكتب الى عبد الله شاه خوارزم يوصيه به خيرا . على أن شاه خوارزم لم يلتفت الى ذلك ووضع ضيفه فى الأغلال . وأثار هـذا الاخلال بواجب الضيافة ثائرة الأمير مأمون بن محمد (لغاية فى نفسه) فهاجم الشاه وهزمه ووضعه فى نفس الأغلال التى كان فيها أبو على . وصحب مأمون أبا على معه الى جرجان ، وجىء بالشاه الأسير من بعد ذلك فقتل فى أحد الاحتفالات العامة(١) . ولم ينته حال أبى على بدوره الى نهاية حسنة. فقد عفا أبو القاسم عنه أول الأمر بتوسط مأمون ، ولكنه عاد فرمى به فى السجن من بعد ذلك بتحريض من بعض رجاله . وما غدا سبكتكين أن أبدى رغبته فى أن يحتفظ به عنده ، ومات فى سجنه هنالك عام ٩٩٧/٣٨٧ وظلت حكومة أبى القاسم تتهددها غزوات الأمير التركى ايليك(٢) بعض الوقت ، وذلك بتحريض من فايق ، وكان قد استدعاه من كاشغر ، ولكن سبكتكين كفاها هذا الخطر . ومات نوح بن منصور أو أبو القاسم ، كما كانوا يلقبونه ، فى هدوء عام ٣٨٧ بعد أن حكم اثنين وعشرين عاما .

وخلفه ابنه أبو الحارث منصور ، وكان غرا خلوا من التجارب فارتكب الغلطة الكبرى بمنازعته محمود بن سبكتكين القوى وخليفته

(١) يذكر ميرخوند أن أبا على قد أقلع اقلاعا تاما عن تناول الشراب ، ولكنه بهذه المناسبة سمح لأول مرة « ان يزعزع قارورة النبيذ الهشة كيان امتناعه الشاهق »

(٢) انظر هامش رقم (١) ص ١١٦ .

على أن محمودا ، لما كان يكنه من شعور حسن لبيت السامانيين ، ما لبث أن تغاضى عن فعلة هذا الأمير وتجنبه . وسرعان ما وقع أبو الحارث فريسة لحقد أحد رجال بلاطه عليه ، ويدعى بكتوزن ، وكان قد برم به ، فدعاه هذا الى داره وسمل عينيه (١) . وأجلس مكانه أخوه عبد الملك وكان طفلا صغيرا . وقد سانده بكتوزن وفايق ، أقوى رجلين فى دولته حتى نجح فى تهدئة ثائرة محمود بعـد ما لحقه من الاهانة على يد الأمير السامانى السابق من قبل ، وكان هذا الأمير الغزنوى قد أخذ نجمه يعلو . وسرعان ما سقط عبد الملك فريسة لغدر ايليك (٢) خان بدعوى حمايته له . فقد قدم هذا من كاشغر الى بخارى ، دون أن يدعوه أحد الى ذلك ، ليدفع عن جاره المحبوب أعداءه ، على حد قوله ، وما غدا أن كشف عن غرضه الحقيقى حين قبض على أهل بخارى الذين كانوا قد خرجوا لاستقباله والقى بهم فى الأغلال ، ثم دخل المدينة نفسها عام ٣٨٩/٩٩٩ وألقى بعبد الملك نفسه فى الحبس حيث مات (٣) . وحاول المنتصر (٤) ، ثالث أبناء أبى القاسم ، أن يستنقذ للسامانيين ما بقى لهم من دولتهم بعد أن تمكن من الهرب من السجن الذى كان ايليك خان قد رمى فيه مع الأسرة كلها . فقد انطلق الى خوارزم بصـحبة جارية صـغيرة له وفى خاطره أن يمتشق الحسام مع نفر من أتباعه المخلصين فى وجه من اغتصبوا عرشه . وتلقاه كثير من أتباع أسرته السابقين بعطف بالغ ، ومنهم شمس المعالى قابوس بن وشمكير ، ولكن ذلك وحده لم يفده بنفع يذكر . ومع ذلك فقد نجح مرتين فى أن ينزل الهزيمة بقوات ايليك خان . ولكن انتصاراته هذه لم تكن فى الواقع الا بمثابة ومضات متقطعة صدرت عن شمس السامانيين

---

(١) بكتوزن هو لفظ أويغورى معناه (الأمين العادل) .

(٢) كان عبد الملك قد ارتد الى بخارى مع فايق بعد أن هزم محمـود جيش السامانيين هزيمة عامة عند مرو . وكان هذا الجيش قد جمع من كافة انحاء بلاد النهر .

(٣) سجن فى أزكند على رواية ميرخوند (وقد اخطأ ديفرمارى فى رسمها) وهى اليوم قرية عند مرغولان فى خجند .

(٤) هو أبو ابراهيم

الغاربة ، فلم يكن له فى حقيقة الأمر قبل بالوقوف فى وجه ايليك خان وهو الذى امتد ملكه ، بعد فتحه لبخارى ، من داخل الصين حتى بحر الخزر . وظل هذا الأمير السامانى يتنقل فى طبرستان وسيستان وخراسان وحوله قلة من قدامى خلصائه حتى نجح عام ١٠٠١/٣٩١ فى الاستيلاء على نيسابور . وسرعان ما أخرجه منها من جديد نصر بن محمود ، حفيد سبكتكين ، فأخذ من بعد ذلك يضرب فى الأرض حتى غدر به رجاله فأوقعوه فى شراك ايليك خان حتى أحيط به . وسيق افراد أسرته واتباعه اسارى ، وتمكن هو من الهرب ليلقى من بعد ذلك حتفه فى مضارب قبيلة بنى بهيج حيث قتله من يدعى مهروى . وقد قتل القاتل بفعلته هذه بعد قليل .

هكذا قضى آخر الأمراء السامانيين فى ربيع الأول من عام ٣٩٥/ ١٠٠٤/١٠٠٥ . وبموته انقرضت أسرة كانت منذ وقت باكر صاحبة السلطان فى أجزاء بعينها من بلاد ما وراء النهر وفرغانة ، ثم ظلت ابتداء من الأمير نصر — أى قرابة مائة وخمسة وأربعين عاما — تحكم كل آسيا الوسطى . ويعد أمراؤها بحق أصحاب حكومة قامت على التقاليد الدينية والاجتماعية التى كان يعدها المسلمون فى القارات الثلاث فى قرون سابقة أقرب ما يكون الى ما كان عليه السلف الصالح فى عصر الاسلام الذهبى ، حتى لا تزال حكومتهم هذه موضع تقدير وتوقير عظيم الى اليوم . فحين صارت حاضرة الخلافة ومدن آسيا الغربية الأخرى مسرحا لنشاط المذاهب والفلاسفة على اختلاف مللهم ونحلهم ، كانت بخارى وبلخ وسمرقند ، تحت حكم السامانيين ، هى الملاذ الأثير عند العلماء المسلمين الحريصين على الاستمساك بأدق دقائق الشرع والسنة . وبهذا ازدهرت علوم الدين فى كل آسيا الغربية على الصورة الرائعة التى عرفتها مكة والمدينة نفسها . وشبيه بهذا ما صار لبخارى من السيادة السياسية كذلك على مختلف قبائل آسيا الوسطى تلك السيادة التى حافظ عليها حكام زرفشان حتى العصور الحديثة . وتعظيم سبكتكين العظيم لبخارى ، ذلك التعظيم الذى سار عليه فى العصور المتأخرة الأفغان والهنود والأوزبك ، انما قد بدأ أيام مجد السامانيين الذين ظهروا كخلفاء لآخر أسرة ايرانية

حكمت فى أرض الحضارة الايرآنية القديمة . وناهيك بما تركه هؤلاء السامانيون لخلفائهم على عرش بلاد ما وراء النهر ، من تتار الترك ، من تراث لا ينكر شـأنه . ولا نعجب بعد ذلك كله حين نرى بلاد ما وراء النهر ، بعد سـقوط السامانيين ، تجتاحهـا أعظم فوضى واضـطراب . ذلك أن هذا الاقليم كان منذ وقت باكر مسرحا لنشاط قوميتين مختلفتين فالايرانيون ، وهم أصحاب حضارة قديمة ، لم يفقدوا باعتناقهم الاسلام الا قليلا من شعورهم القوى بقوميتهم على ما ذكرنا من قبل . وهم كانوا ما يزالون على ميلهم الى الاشتغال بالتجارة والعلم وكل ما يمارس فى السلم عامة . وكانت القاعدة الحربية والقوة الفعـالة بالتالى تتمثل فى القسم الأكبر من السكان فى الغالب ، وهم الترك . وكان لهؤلاء القيادة منذ وقت باكر حتى كانت لهم أكبر مناصبها فى الغالب . وأخذت قوتهم تتزايد بالتدريج أواخر عهد السامانيين ، حتى اذا انقضت هذه الدولة لم يعد الأمر بالنسبة لهم الا أن صاروا يحكمون باسمهم لا باسم غيرهم ، وقد تم بذلك الاستقلال لهم .

وكانت بخارى العاصمة تخضع من الناحية النظرية لايليكخان وهو فى كاشغر . على أن سلطانه لم يكن له فى الحقيقة وجود يذكر فى مناطق كش وسمرقند وخوقند حيث صار الناس يتصرفون على هواهم . فمنهم من ائتلف مع غيره ليطردوا ايليكخان من بلادهم ، ومنهم من راح يستعين بالسلطان العظيم محمود . وكان الوقت مواتيا كل مواتاة لجندى شجاع حازم يهتبل هذه الفرصة . وظهر هذا الجندى على مسرح الحوادث قبل وقوع الطامة الكبرى . وسرعان ما بان أثر نفوذه فى مجريات الأحوال السياسية ببلاد ما وراء النهر .

الفصل السادس
السلاجقة

٣٩٥ (١٠٠٤) — ٥٢٨ (١١٣٣)

ان مجرى التاريخ فى آسيا الوسطى كان منذ أول عصوره يتأثر الى حد كبير بالدور الذى تلعبه فيه قبائل بدو الترك الذين يعرفهم العرب والفرس باسمهم العرقى « الغز » وكانت منازلهم فى الصحراء الواسعة والسهوب التى تبدأ عند حدود الصين وتمتد حتى شواطىء بحر الخزر . وظلت هجرات هؤلاء الترك الى شاطىء جيحون لا ينقطع سبيلها صوب الجنوب الشرقى ، خصوصا عند خجند وتركستان الشرقية ، وذلك قبل الغزو العربى بوقت طويل ومن بعده ، وفى أيام السامانيين بوجه خاص . وحين انهارت قوة السامانيين انطلق ترك الشمال فى حرية مع قطعانهم ينشدون المراعى فى الأجزاء المسكونة من خانية بخارى .

ان أصل السلاجقة يحيط تاريخه بالغموض خرافات كثيرة . ويظهر منه أن سلجوق ، وسيلجيق (١) على الأصح ، ابن تقماق وسوباش ، الذى

---

(١) ان قواعد اللغة التركية قد امتهنت كلها فى رسم كلمة «سلجوق» على هذا الوجه ، فهى اما سيلجيق أو سالجوق ، ذلك أن مقطعى جيق وجوق يفيدان التصغير ، ويستعمل الأول مع الكلمات التى تقع الياء فى مقطعها الأخير ، ويستعمل الثانى مع التى تقع الألف أو الواو فى مقطعها الأخير . ورسم الكلمات التركية التى وصلتنا عن طريق العرب والفرس شديد الغلط لجهل هؤلاء التام بالتركية عموما . وهم لايستطيعون حتى اليوم نطقها نطقا صحيحا (المؤلف) . يذكر بارتولد فى كتاب « تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١٠٠ أن النطق الصحيح هو «سالجوك» كما وجده فى كتاب محمود الكشغرى (المترجم)

كان قائدا لجش أمير يدعى بغو أو بوغو (١) كانا قد أخرجا من ديارهما بالسهوب لجرائم ارتكباها ، فكان عليهما بذلك أن يجربا حظهما فى بلاد غريبة عليهما . هنالك هاجر سلجوق ومعه ألف فارس وألف بعير وخمسون ألف رأس من الماشية فنزل عند المشارف الجنـوبية للصحراء الى جوار جند (٢) ، فاستقر بها ودخل واتباعه جميعا فى الاسلام (٣) . وبدت غيرته الدينية فيما بذله من جهود لحماية سكان المناطق المجاورة له الآمنين من غارات بنى جلدته من الكفار . وأخذت قوته تتزايد من يوم الى آخر ، وذاع صيته ، وغدا بلاطه ملاذا للمضطهدين جميعا حتى قصده المنتصر آخر الأمراء السامانيين يسأله أن يعينه فى حربه مع ايليك خان . ورق سلجوق لما كان يكابده الأمير السامانى من العنـاء فخرج معه لحرب صاحبه ، لينتهى به الحال على أثر ذلك الى الاستيلاء على منطقة بأسرها

---

(١) بغو ، معناه الغزال ، وقد أشرنا من قبل الى عادة اطلاق أسـماء الحيوانات القوية أو الجميلة على الاشخاص .. ونشير هنا كذلك الى ان هذا اللفظ كان يطلقه الفـرس والأتراك الشرقيون على البوذيين (المؤلف) يذكر الاستاذ حمزة طاهر فى مقال بمجلة الثقافة عدد ٤٦٩ـ٢٣ـ١٢ـ٤٧ أن السـلاجقة يعرفون رئيسهم باسم بغو وقائد الجيش باسم سـوباشى ونبلائهم باسم اينال وأن الأسماء التى اشتهروا بها أبناء سلجوق مثل طغرل وجغرى وجاولى هى فى الواقع القابا وليست أعلاما (المترجم)

(٢) يذكر ابن خلكان أن جند كانت على مسيرة عشرين فرسخا من بخارى . ولم أعثر على ذكر لها فى أقدم المراجع الجغرافية : المؤلف .

انظر تفصيلات عنها فى « بلدان الخلافة الاسلامية ، ترجمة بشـير فرنسيس وتوركسيس عواد ، ص ٥٢٩ ـ الخشاب

(٣) أسماء السلاجقة الأول ، موسى وميكائيل واسرافيل تشبه شبها كبيرا الأسماء المذكورة فى الانجيل حتى ليبدو من ذلك أن المسيحية كانت قد احرزت من النجاح فى آسيا الوسطى اكثر مما يشير اليه المؤرخـون المسلمون . وعلى هذا الاعتبار فهناك احتمالات كثيرة بأن بدو الترك حين انفصل عنهم سلجوق كان فيهم من أتباع النساطرة اكثر من أتباع الشامانية أو البوذية ، ويؤيد هذه الدعوى ما يذكره الجوينى بكتابه جهانكشا مؤكدا ان بعض القبائل التركية مثل النايمان وقنجلى كانوا على المسيحية ويؤكد هذه الحقيقة من بعد ذلك قائمة أسماء القادة العلانيين الذين بعثوا من بلاط الخان الأكبر الى البابا افينيون يعلنون ولاءهم له بوصفهم مسيحيين مؤمنين وذلك عام ٧٢٩ (١٣٣٨) . ويفصل يول Yule. أمر هذه السفارة فى الجزء الثانى من كتابه .

من أخصب بقاع الخانية صار بها أحد أمراء بلاد ما وراء النهر المستقلين مما أثار عليه ثائرة الأمراء الآخرين وحسدهم له وبغضاءهم .

وليس لدينا من التفاصيل الوثيقة فى الغالب ما نقف منه على مدى ما بلغه سلجوق من نفوذ ببخارى وهو الذى عاش حتى تقدمت به السن . وكل ما نعلمه على وجه اليقين أنه جهد غاية الجهد فى تنشئة حفيديه طغرل وجغرى (١) تنشئة عسكرية حتى لنراهما بعد موته يشتبكان فى حروب متلاحقة مع أقدر الأمراء بآسيا الوسطى اذ ذاك من أمثال ايليك خان فى بخارى وبغراخان فى كاشغر . بل لقد بدا من أمر هذين الفرعين الصغيرين فى شجرة قبيلة سلجوق ما ينبىء بأنهما سوف يبلغان فى الوقت المناسب بجنسهما الى ذروة القوة فتنتشر بطونه فيما بين قلب الصين شرقا وشواطىء البحر الأبيض المتوسط غربا ، وفيما بين بحر آرال شمالا والخليج الفارسى جنوبا ، ويستظل بحمايته أمم من أعرق الأمم صاحبة الماضى القديم بل وشيوخ الاسلام أنفسهم . ولقد مضى الأخـوان مؤتلفين تربطهما أوثق أواصر الاخلاص المتبادل على أهداف واحدة ، فصرفا حياتهما أول الأمر فى الهرب من وجه خصومهما اتقاء لعداوتهم ولما كان لهم من قوة وتفوق لينقلبا من بعد ذلك الى تدعيم مركزيهما بقوة السلاح . وبرغم اقامتهما فى منازل الحضر فقد بقيا على استمساك قوى برسوم البدو وعاداتهم ، وبذلك كان من اليسير عليهمـا أن يرتحلا من موضع الى آخر ، بل وأن يبعثا ، حين يدهمهما خطر شديد ، بزوجاتهما وأولادهما ومتاعهمـا جميعا الى مخابىء آمنة فى الصحراء ، ثم ينطلقا من بعد ذلك وحدهما معتمدين على خيولهما الصغيرة يغامران فى الحرب (٢) . وبهذا استطاع الأخوان أن

---

(١) طغرل وجغرى هما لفظان تركيان ، والأول مصغر دوغراول ، أى القصاب ، وهو مشتق من فعل « دوغرامق » اى أن يذبح ، أما الثـانى فمعناه اللامع أو المتألق من مصدر جقمق : اأن يلمع . واخطـأ المستشرقون الأوربيون خطأ شنيعا حين يربطون كلمة طغرل مع كلمة دوغرو : المستقيم ، وحين ظنوا خطأ أن (جغر) هو لفظ (جعفر) محرف .

(٢) لا يزال الترك يخضعون حروبهم حتى اليوم على هذا التقليد . ولعل هذا هو الذى جعل البعض يخلط فيجعل السلاجقة منهم .

يقيما أساس قوة السلاجقة المستقبلة تحت بصر فاتح قوى مثل محمود الغزنوى الذى أقلقه أشد القلق ظهور جموع أبنــاء الصحراء المخوفين هؤلاء وتزايد قوتهم ، حتى وجد نفسه آخر الأمر ولا قدرة له على كبح جماحهمأو ابعادهم عن مسرح الحوادث(١) . وحدث أن دخل عليتكينأمير سمرقند وحليف ايليك خان فى نزاع مع قدرخان بن بغراخان كاشــغر وخليفته ، لكلفه بالفتوح ، فما كان من محمود ، لصداقته مع قدر خان الا أن عبر جيحون مع جيشه فطرد ايليك ، وعقد النية فى الوقت نفسه ، لكى يحمى حليفه من خطر الســلاجقة ، أن يقطع الأخوين السلجوقيين منازل فى خراســان لعله يتيسر له بذلك ، بعــد أن يبعد بهما عن بنى جلدتهما ، أن يغلبهما على أمرهما . وارتأى الأخوان أول الأمر أن يستجيبا لرجاء السلطان الغزنوى الكبير ويتقبلا ما يبذله لهما من مودة حتى سيرا الى بلاطه عمهما اسرائيل وكان يلقب ببغو . وحين علما بما لقى عمهما من سوء المعاملة ، حتى ليذهب البعض الى القول بأنه مات فى سجن محمود ، عقدا العزم على البقاء حيث هما فى موضعهما السابق ببلاد ما وراء النهر ، برغم ما كان بينهما وبين جيرانهما من العداء ومع عليتكين بوجه خاص وكان قد عاد فى الوقت نفسه الى سمرقند .

هنالك حاول ايليك خان أن يغدر بهما من جديد فانطلق يبذر بذور الشقاق بين السلاجقة ولكنه خاب فى مسعاه هذا كما فشل حين هاجمهم علنا بقواته وكان عليها الب قرا . ولئن كان هذان الأخوان قد أرغما على

---

(١) ما يقال فى هذا من أن اسرائيل حين قدم الى محمود فى سفارة ، سأله هذا وهو يعرض عليه خططه لغزو الهند ، عن عدد السلاجقة من رجال الحرب ، هنالك انتزع اسرائيل سهما من جعبة وقال لمحمود « اطلق هــذا السهم يأتيك مائة الف فارس منهم » فقال له محمــود « فاذا أردت اكثر من ذلك » فقال أسرائيل اذن فاطلق هــذا الســهم الثانى يأتيك خمســون ومائة ألف » فقال محمود فاذا أردت اكثر فقال اسرائيل « فارسل قوسى هذا الى توران يأتيك مائتا الف منهم » ، هذه القصة تعد من الخرافات ، وقد ذاعت عند كل المؤرخين الشرقيين والغربيين تقريبا . ذلك أن الحديث عن الأقواس والســهام لم يكن عادة مما يدور فى السفارات السلمية على رسوم ذلك الوقت .

الارتداد أول الأمر الا أنهما سرعان ما جمعا أمرهما فأبادا قوات البقرا وقتلاه هو نفسه ، ليجلبا على نفسيهما بفوزهما الساحق هذا عداوة عدو جديد من بعد ذلك هو أمير خوارزم الذى هاجمهما فى قوة ساحقة عند الشاطىء الأيمن لجيحون فى الصحراء الواقعة بين بخارى وخيوه ، وأنزل بهما هزيمة شديدة أرغما من بعدها على الارتداد فى عجلة زائدة (١) .

هنالك لم يملك حفيدا سلجوق الشجاعان بازاء هذه الأحوال الا أن يودعا ذلك الاقليم الذى يقع بين جيحون وسيحون مع أراضيه التى ورثاها عن آبائهما وينطلقا بطريق أقصى حدود صحراء الهياطلة الى خراسان ، حيث قدر لهما بأرض ايران القديمة ذات الصيت الذائع ، أن يجنيا ثمار نشاط شبابهما بعد معارك دامية ومثابرة تبعث على الاعجاب . وقد حصدا هذه الثمار عن آخرها .

ففى عام ١٠٣٠/٤٢٢ وكان قد مضى عام على وفاة السلطان محمود ، نجد السلاجقة عند الغرب من مرو ، على تلك الأرض التى يعيش فيها التركمان اليوم ، والى جوار مدينتى نسا وأبيورد (٢) ، وهى المنطقة التى انطلقوا منها ، يتحرشون بامارة خراسان الغنية فى غارات متلاحقة هى فى عنفها على غرار ما يضطلع به التركمان اليوم(٣) . ويقال انهم بعد أن وضعوا

---

(١) لم تكن هزيمة السلاجقة بسبب ضعف اسلحتهم بقدر ما كانت بما دبره الخوارزميون من مكر وخداع . ذلك أن أمير خوارزم تظاهر أول الأمر بصداقته للسلاجقة فأنزل الأخوان وأتباعهما منازل ببلاده ليعزلهم بذلك عن بنى جلدتهم على الضفة اليسرى لسيحون . ولم يتوقع السلاجقة السوء من وراء ذلك اذ كانوا يعلمون بعداء أمير خوارزم لمسعود خليفة محمود الغزنوى ، فظنوا بذلك أنه يحتاج لمساندتهم له بازاء مسعود .

(٢) لا تزال مدينتا ابيورد ونسا تقومان الآن عند حدود ايران الشمالية وان هان شأنهما كثيرا . وهما تتعرضان على الدوام لغارات التركمان . ويمر بهما طريق القوافل بين ديرغوز وخيوه .

(٣) كان السلاجقة هم أول قوم من الترك استقروا عند حدود ايران الشمالية الشرقية كما هو معروف مشهور . وقد كان هناك بدو ينزلون الى جوار مرو ابان الحكم العربى وفى عهد السامانيين ولكنهم لم يكونوا من الترك . وكذلك كان الحال عند شمال غرب ايران كما أن غز الترك عند الشمال من بحر الخزر لم ينحدروا الى بلخان (فى صحراء الهباطلة) حتى بداية القرن العاشر الميلادى .

أيديهم على خراسان بعثوا بوفادة الى السلطان مسعود بن محمود وخليفته يعلنون ولاءهم واخلاصهم له ، ويسألونه أن يسمح لهم بالاقامة بخراسان ويقول أغلب المؤرخين ان مسعودا رد عليهم ردا غليظا ورفض طلبهم فى فتور أثار كبرياء طغرل وجغرى حتى بعثا بأسرهما وقطعانهما الى داخل صحراء قراقورم الرملية العظيمة واستعدا مع رجالهما من المحاربين لينتزعا بالقوة ما رفض الغزنويون الذين امتهنوهم أن يمنحوهم اياه سلما . ومن المشكوك فيه غالبا على كل حال ، أنه ، حتى ولو كانت الحوادث قد جرت على غير ذلك الوجه ، فان أبناء الصحراء هؤلاء المفطورين على النهب كانوا سيركنون الى الهدوء وأمام أنظارهم تقع خراسان بمدنها الغنية . فلم تتعرض لغاراتهم هذه منطقة ايران الشمالية الغربية وحدها فحسب بل وعلى الدوام كذلك كل بقعة فى الاقليم الذى يتاخم السهول التى ينزل بها البدو . وكانت خراسان تتعرض لأول مرة لمثل ذلك على كل حال . ويستبين مدى التلف الذى أصابها على أيدى هؤلاء الجيران المشاغبين فى الشكاوى المرة التى كان يبعث بها الخراسانيون الى بلاط مسعود ، حتى ثارت ثائرة السلطان الغزنوى المتكبر فبعث بقائده بكتغدى (١) مع جيش ضم ألف بعير تحمل السلاح ومائة تحمل الذهب وعديدا من الفيول ليلقى بها أبناء الصحراء المخوفين هؤلاء . على أن أبناء الجنوب المرهفين من الغزنويين الذين قدموا من المناطق الواقعة فيما بين هيلمند والسند عجزوا كل العجز عن نزال هؤلاء البدو الأشداء ، فنزلت الهزيمة ببكتغدى فى أول معركة ، حتى رأى مسعود أن يقود الجيش بنفسه . وحين انعقد مجلس الحرب فى نيسابور فانتهى الى الدخول فى الصلح مع السلاجقة (٢) رفض هؤلاء ما عرضه مسعود عليهم لما كان من سلوكه المهين فى حقهم حين تقدموا اليه يخطبون وده .

---

(١) بكتغدى ، هى كلمة تركية تشير الى الأصل الملكى .

(٢) تنازل هذا الغزنوى عن كثير من كبريائه حتى اقترح أن يرتبط برباط المصاهرة مع جنود الصحراء الخشنين هؤلاء، فعرض أن يزوج الامراء السلاجقة الثلاثة من أميرات غزنويات ثلاث ، ولكنهم رفضوا طلبه بطبيعة الحال .

وركن السلاجقة الى الهدوء شتاء عام ٤٢٣/١٠٢٣ ليعاودوا من بعد ذلك غاراتهم فى الخريف على نطاق أوسع من ذى قبل . وتردد مسعود فى الاضطلاع بقيادة الجيش فعهد بها الى سوباشيه (١) (قائده العام) ، فلم يكن بأكفأ منه ، اذ عجز بدوره عن وقف الغارات المفاجئة التى كانت تفد عليه من الصحراء ، كما عجز كذلك عن منع انسحاب التركمان المفاجىء من صفوفه . وظلت خراسان تتعرض بلا انقطـاع للسلب والنهب مدى سنوات ثلاث حتى طرد السوباشى من المناطق الشمالية منهـا واستولى جغرى بك على مدينة مرو الزاهرة الغنية وأصبح بذلك السيد الفعلى على كل شمال خراسان . ويقول ميرخوند ان سكان مرو حين أدركوا ما أصاب الغزنويين من الضعف التام استجابوا للزعماء الأتراك وفتحوا لهم أبواب مدينتهم وانضووا تحت لوائهم . ودخل الأخوان عاصمة خراسان القديمة فى موكب فخم واقتسما الحكومة فيما بينهما ، فاضطلع طغرل بك بشئون الادارة وأخذ جغرى على عاتقه مهمة الدفاع عن الاقليم . على أن ما أحرزه هذان الأخوان من النجاح ما غدا بعد قليل من الوقت أن تبـدد بازاء الجهود القوية التى بذلهامسعود ليسترد ما فقد من سلطان . فقد تقدم الى مرو بطريق بلخ عام ٤٢٩/١٠٣٧ على رأس جيش ضم سبعين ألف فارس وثلاثين ألفا من المشاة ، ليتدبر السلاجقة عند ذلك أمرهم ويروا الحكمة فى الانسحاب من أمام عدوهم لما كان لقواته من التفوق عليهم . واستطاع مسعود بذلك أن يسترد مدينتى بلخ ونيسابور ولكن الى حين . ذلك أن هذين الأخوين ، وكان كل منهما يعمل فى ناحيته ، ما ان واتتهما الفرصة فجمعا شتات قواتهما معا ، حتى انبرى جغرى من الصحراء عند دامغان فأخذ يستأنف أعماله العدوانية فى عنف . وقريب من هذا الموضع وقعت معركة حاسمة بين السلاجقة والغزنويين فى رمضان من عام ٤٣١/١٠٣٩ هزم فيها

---

(١) سوباشى لفظ أويغورى معناه قائد الجيش ، ويرسم Vullers هذا اللفظ فى كتاب السلاجقة لميرخوند الذى نشره (ص ٢٨) سياشى ويقـول فى الهامش أن سباشى أصلا هى سياشى أى قائد الجيش . واشتقاق هذه الكلمة تجده فى معجمى عن الاويغورية Uigurisch Sprach monumente

مسعود هزيمة تامة لاذ من بعدها بالفرار الى غزنه . وقد وافاه أجله بعد ذلك بقليل (١) .

بهذا صار الأخوان لا ينازعهما أحد اقليم خراسان ، ذلك الاقليم الذى يعد قاعدة كل العمليات الحربية فى آسيا الاسلامية ، وغدوا قادرين على أن يضعا الأساس لمجدهما المقبل دون أن يتعرض لهما أحد . وأقوى مراكز السلاجقة كانت بلخ فى الشرق ونيسابور فى الغرب . ومن هذين المركزين أخذ نفوذهما ينتشر فى تزايد . وحين دعيا الى خوارزم ليطفئا نار الفتنة التى قامت هناك بين الأمير وقائد جيشه (٢) ، استوليا على الاقليم كله دون صعوبة تذكر وضماه الى ملكهما ليتقدما من بعد ذلك عبر بقايا ملك البويهيين حتى يبلغا آذربيجان ، وتنفذ من بعد ذلك مقدمة الجيش التركى عام ٤٤٦/١٠٥٤ يقودها طغرل بك الى داخل الامبراطورية الرومانية (٣) .

وبرغم أن أبناء الصحراء الجسورين هؤلاء كانوا فى غاراتهم على أرض القياصرة يهدفون الى السلب والنهب أكثر مما يهدفون الى الفتح ، فان ما أحرزوه من فوز على روما العظيمة اذ ذاك — وهى التى كان اسمها موضع هيبة واجلال فى آسيا القديمة — قد أعلى من هيبة السلاجقة وزاد فى شهرتهم زيادة بالغة . ويقال ان طغرل كان قد اعتزم أداء فريضة الحج

---

(١) وقعت هذه المعركة عند دندانقان . وعلى أثرها أصر مسعود على الهجرة الى الهند فوثب عليه غلمانه فى الطريق وخلعوه ونادوا مكانه بأخيه محمد . وظل مسعود فى محبسه بقلعة كبرى حتى قتله ابن أخيه ، الأمير أحمد عام ٤٣٣ هـ (انظر فى ذلك تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم أول ص ١٠٤ ، ١٠٥) .

وارجع أيضا الى تاريخ البيهقى ترجمة الخشاب ونشأت ص ٦٨٨ وما بعدها . (المترجم)

(٢) ثار قائد جيش خوارزم على أميره حتى اضطره للاستنجاد بالسلاجقة وقد أعاد جفرى الأمير الى عرشه على أن يكون تابعا للسلاجقة.

(٣) يقول جيبون Gibson, Murray 1862, vol. VIII, p. 541 نقلا عن مصادر يونانية ، أن طغرل كان قد بعث رسولا الى القسطنطينية يطلب الى قيصر الروم الجزية والخضوع .

وحتى يعمل فى الوقت ذاته على تأمين طريق الحجاز ، وكانت تحف به الأخطار منذ زمن طويل بسبب الفوضى التى كانت تسود بغداد . وما غدا أن ظهر هذا الأمير السلجوقى لتوه بحاضرة الخلفاء كفاتح وكتايع متواضع من خدام الخـلافة (١) . وما ان أوقع بالملك الرحيم الديلمى وساعد فى اجلاس القائم بأمر الله على عرش الخلافة حتى انطلق عام ١٠٥٨/٤٥٠ وراء عمه الثائر اينال (٢) . وصحبه فى حملته هذه ألب أرسلان بن جغرى بك وكان أبوه قد مات بموطنه قبل ذلك بقليل . وسرعان ما انتهى طغرل من أمر عمه ابراهيم ليعود من بعد ذلك الى بغـداد ويطلق سراح القائم من سجنه (وكان قد عزل ابان ذلك) ويعيده الى العرش .

واستقبل أمير المؤمنين « ظل الله فى أرضه » ، قائد جموع الترك الجسور هـذا استقبالا حافلا لأول مرة عام ١٠٥٩/٤٥١ . وقد حرص الخليفة فى أول لقاء له معه على أن يسدل البرقع على وجهه ، وقد قنع طغرل بتقبيل يده فى خشوع . على أن ما اصطنعه القائم بالله من مظاهر الملوكية انما كان يقوم فى الواقع على خواء ، فقد اضطره طغرل الى أن يزوجه ابنته . وفيما كان طغرل يعد العدة لزواجه هذا فاجأه الردى بالرى عام ١٠٦٣/٤٥٥ وهو فى السبعين من عمره ، المليء بالأحداث ، والعام السادس والعشرين من حكمه . وكان خلفه ألب أرسلان جنديا مهـابا كفؤا ، استأنف فتوحات عمـه فى همة وتوفيق متزايد . ويخبرنا بعض مقرظيه الشرقيين أن رأسه من أعلى قلنسوته حتى أدنى لحيته كانت تبلغ الياردتين طولا(٣) ، فى حين يذكر آخرون أنه كان شديد الاعجاب ببطولة الاسكندر وعلى (بن أبى طالب) فثابر على دراسة سيرتيهما . وكان ألب

---

(١) فى أول لقاء بين الزعيم التركى والخليفة ، ظهر هذا والبرقع على وجهه وقد ألقى قباء العباسيين الأسود على كتفيه وفى يده راية الرسول ، وأخذ طغرل بهيبة أمير المؤمنين فتقدم اليه على قدميه فى خشوع ، ولم يجرؤ من بعد ذلك على الركوب حتى دعاه الخليفة الى ذلك .

(٢) لعله الأصوب بكسر أوله وهو اسم لا يزال يشيع فى آسيا الوسطى

(٣) انظر تاريخ السلاجقة لميرخوند ، نشر فولرز ص ٤٦ .

أرسلان هو أول زعيم تركي قاد فرسان الترك عبر الفرات وأخضع أراضى غرب آسيا القديمة المقدسة لذلك الجنس الذى لا يزال يحكمها حتى اليوم (١) .

يخبرنا بعض المؤرخين الشرقيين أن قيصر روما ، رومانوس ديوجينيس كان قد أخذ منه الحماس والاعتداد بالنفس مأخذهما حتى عزم على أن يغرس الصليب بنفسه فى مقر الخلافة بمدينة الاسلام المقدسة ويحرق المصاحف فلا يرجع حتى يبلغ سمرقند (٢) ولا يصعب تقصى حقيقة هذه الأخبار . على أن أبناء الصحراء الغلاظ هؤلاء ، وقد جربوا قوتهم مع تلك الدول المنهارة فى ايران والعراق ، لم يستطيعوا أن يكبحوا جماح أنفسهم من الاشتباك مع الامبراطورية البيزنطية التى كانت لا تزال تشتهر اذ ذاك بقوتها وثرائها . ولم يستطع الجيش البيزنطى ، ومعه الفرنجة والنورمانيون أن يصد هجمات الترك العنيفة ، فنزلت به هزيمة مروعة ، ووقع رومانوس نفسه فى الأسر(٣) . وعامل ألب أرسلان أسيره فى شهامة

---

(١) ابن خلكان (الترجمة التركية ـ استانبول ١٢٨٠ هـ) م ٢ ص ٢٢٢ • ويقول جيبون « عبر الفرات على رأس فرسان الترك فدخل قيصرية قصبة كبدوكية ، وقد جذبه اليها معبد سان بازيل بها وما اشتهر من أمره وما عرف به من ثراء »

(٢) أراد ألب أرسلان تسوية المسائل سلميا ولكنه لم يوفق فى ذلك وللرسائل المتبادلة بين الطرفين أهميتها ، وان كانت لاتدل على أن المسيحيين البيزنطيين كانوا يفوقون فى الحضارة جموع التتار بكثير • ويقول ألب أرسلان فى رسالته الى رومانوس ، على رواية ميرخوند « وبرغم كثافة جندك فانك تواجه أميرا انتصاراته شائعة ذائعة ، فاذا كنت ندمت على تعجلك فقر بالجزية واقلع عن العدوان ، وسيقرك عند ذلك السلطان على كل مابيدك من أرضين ولا يلحق بك أذى ، والا فستجلب الخراب على رأسك » وأجاب رومانوس ، برواية جيبون ، « اذا كان البربرى يرغب فى السلم فليترك الأراضى التى يحتلها لجند الرومان ويسلم مدينته الرى وقصره بها ضمانا على اخلاصه » •

(٣) كان جندى من حرس السلطان الخاص قد حمل عليه ، وحين وجه اليه ضربة ثانية صاح به « قف فأنا امبراطور الرومان » فاخذ على ذلك أسيرا •

زائدة(١)، وكانت هزيمة الرومان هذهفاتحة لسلسلة طويلة من الانتصارات التركية على الدولة البيزنطيــة بلغت غايتهــا بعــد ذلك بخمسمائة عام باستيلائهم على القسطنطينية . وبعد أن أرغم التركى المظفر بيزنطة على دفع الجزية له أخــذ ينشر الخراب والدمار فى طريق عودته الى قصبته نيسابور مارا بكرمان وطيا عبر الصحراء (٢) . وفيها استقبل حال وصوله ابنة خاقان (٣) سمرقند الأكبر فزفها الى ابنه ملكشاه باحتفاء باهر (٤) وجعل ولاية العهد من بعده لابنه هذا ، كما أقام من أبنائه الآخرين وذوى قرباه حكاما على مختلف امارات الدولة الواسعة ليخرج من بعد ذلك الى خوارزم عام ٤٥٨/١٠٦٥ فيقضى هناك على بعض الثائرين عليه (٥) وفعل مثل ذلك بعد هذا بسنين اذ سار لحرب شمس الملك أمير بخارى القدير . وفيما هو فى مسيره هذا راح ضحية لفرط ثقته فى نفسه ولانتقام جندى كان قد امتهنه (٥) ، وذلك ثانى المحرم من عام ٤٦٥/١٠٧٢ . وقد مات فى

(١) اجلس الب ارسلان اسيره على عرش الى جواره وعامله باحترام بالغ . وزوج ابنه ملكشاه من ابنة رومانوس ، وقد أقيمت احتفالات فخمــة بزواج الأمير التركى بالأميرة المسيحية .

(٢) أخطأ فولرز ومالكولم فى كتابة هــذه الأسماء فذكرا كمافرت ، وكادرت ، اعتمادا على مراجع فارسية خاطئة . وقد سلك ألب ، أرسلان هذا الطريق ليخضع أخاه كرد أمير كرمان وكان قد خرج عليه على ما يقال .

(٣) لما كان لقب خان لم يحمله أبدا الا الأمراء المستقلون فيمكننا بذلك أن نجزم مطمئنين بان سمرقند وما بقى من القسم الشرقىمن آسيا الوسطى لم يكن بعد قد صار الى حوزة السلاجقة بالفعل .

(٤) حين دخلت العروس نيسابور كان يتقدم موكب هــذه الأميرة الجميلة الف غلام والف جارية يحمل كل واحد منهم الهدايا الثمينة وينثرون المسك والعنبر والصبر فى طريقها .

(٥) كان ألب أرسلان قد توقف بعض الوقت باقليم زم (أو ولاية زم على الاصح) عند حصن صغير على مقربة من الموضع الذى قرر عبور جيحون عنده . واستغرق الاستيلاء على هذا الحصن وقتا طويلا مما حدا بالسلطان الى أن يستدعى اليه القائد يوسف خوارزمى ويعنفه على ذلك تعنيفا شديدا ثم يأمر بصلبه ، هنالك قرر هذا القائد أن ينتقم لنفسه قبل موته فسقط على الب أرسلان بخنجر فى يده . وحين هم خدم السلطان بقتله منعهم ألب أرسلان من ذلك ثقة منه فى نفسه ثم اطلق سهما على خصمه ولكنه لم يصبه . وقبل أن يتمكن السلطان من اطلاق سهمه الثانى انقض عليه الخوارزمى من جديد وأصابه بجرح قاتل .

الرابعة والأربعين من عمره والعـام الثانى عشر من حكمـه . وكان ألب أرسلان ثانى عاهل فى بيت سلجوق برز كجندى ممتاز وحاكم حازم . وانه لمثال فذ فى التاريخ الاسلامى أن نرى ملكشاه ثالث هؤلاء الحكام على صفات سلفيه حتى استطاع أن يزيد فى نفوذ أسرته وقوتها بنفس المقدرة التى كانت لأسلافه وبنفس النجاح الذى صادفوه .

كان عصر ملكشاه هو الذى بلغ فيـه السلاجقة أوج عظمتهم على التحقيق . ولقد أتيح لهذا السلطان أن يثبت عرشه الذى ورثه ، ولكن بعد أن ظل سنوات خمسا يكافح تآمر عمـه كرد عليه ، حتى اذا ما تمت له الغلبة عليه سار الى سمرقند عام ٤٧٠/١٠٧٧ ليهاجم فى شخص صـهره أقوى خصوم أسرته . وكان هدف ملكشاه الذى وضعه نصب عينيه أبدا هو تدعيم سلطانه فى دولته الواسعة ، وقد استطاع أن يحقق هدفه هذا الى درجة كبيرة بفضل نصائح وزيره القدير نظام الملك (١) حتى كانت الأعوام العشرون التى حكم فيهـا من أزهى عصور التاريخ الاسـلامى بانتعاش الحضارة فيها وتعميم السـلام والرخاء . ويدين العلم والشعر والصناعة والعمارة بازدهارها جميعا ، فى ايران ، الى هذا الأمير العظيم أكثر مما تدين به الى أى واحد من خلفائه . ويقال انه قد جاب اثنتى عشرة مرة أملاكه الواسعة من اليمن حتى جيحون . وكان الأمراء يتنافسون على شرف الالتحاق بخدمته ، بل ان الخليفة المقتدى ، وكان من صنع يديه ، رأى الشرف الأكبر فى أن يأذن له هذا الأمير بطلب يد ابنته (٢) . ولما كان

---

(١) وقد ضمن نصائحه هذه فى كتابه المعروف « سياست نامه » .
المترجم

(٢) نستطيع أن نقف على مدى ماكان عليه السلطان السلجوقى من الثراء والابهة بما كان عليه جهاز ابنته من البذخ . وكان يسير وراء هذه الأميرة وهى تدخل بغداد مائة وثلاثون فصيلا من الابل « الفصيل ما بين عشرة جمال وخمسة عشر) محملة بأرقى أنواع الحرير الرومى وسـبعة وأربعون من البغال أطواقها وأجراسها من الذهب تحمل اثنى عشر طبقـا كبيرا من الفضة مليئة بالحجارة الكريمة من كل صنف ، ويأتى من بعدها آخر الأمر ثلاث وثلاثون من ابل الركوب سروجها من القماش المذهب وتحمل مزيدا من الجواهر المتنوعة كذلك .

« لكل شيء اذا ما تم نقصان » على الحـكمة الشرقيـة المأثورة ، فان ملكشاه عزم غاية جهده على أن يتلافى فى حياته قيام الشقاق بين خلفـائه من بعده ، فقسم دولته بين مختلف أقاربه ، فجعل الأناضول لسليمان شاه ، وهو الذى حكمت أسرته غازان كذلك ، وسوريا لأخيـه توتوش عدو الصليبيين ، وخوارزم لنوشتكين غرجه ، وكان غلاما رقى بجده الى قيادة الجيش العليا وأسس بعد ذلك بيت الخوارزميين ، وحلب لآق سنقر (١) ، والموصل لجغرمش ، ودمشق لقبولمش ، وفارس لخمارتكين ، كما جعل لابنه سنجر حكومة خراسان وبلاد ماوراء النهر .

ولم يغن ملكشاه حذره هذا الدولة السلجوقية من أن تنتهى الى نفس المصير الذى تلاقيه الأجناس الحاكمة الشرقية عموما ، فلم يـكد يوسد الثرى عام ٤٨٥/١٠٩٢ ويرقى ابنه بركيارق (شديد اللمعـان) العرش ، حتى قام الخلاف على أشده بين أبناء الأسرة العديدين ،وسرعان ما سقطوا فريسة للقواد وغيرهم من أقرباء الأمير الراحل . وبرغم طول الفترة بين ذلك الوقت وموت السلطان سنجر عام ٥٥٢/١٠٦٠ وهى التى تبلغ أكثر من نصف القرن ، فان حوادثها لاتتصل اتصالا مباشرا بتاريخ بخارى الا فى القليل . ذلك أن آخر سلاطين السـلاجقة هـذا كان هو الوحيد من بينهم الذى أبدى بعض الاهتمام بمجريات الأحوال ببلاد ماوراء النهر طوال مدة حكمه غير المألوف فى طوله حتى امتد قرابة أربعين عاما ، كما اهتم بدوره اهتماما كبيرا كذلك ، دون بنى قومه كلهم فى الغالب ، بتقلص سلطانهم فى تلك البلاد التى كانوا قد ورثوها وبذل كذلك الجهد لتلافى ذلك .

وما يثير العجب حقا أن نرى أسرة شيوخ القبـائل التركية هؤلاء يعجزون كل العجز فى أن يحتفظوا بكيانهم بنجاح فى موطنهم القديم فيما وراء جيحون ، وهم الذين بلغوا الى تمكين نفوذهم فى كل أنحاء الشرق

---

(١) آقسنقر ، أو اقشنقر على الأصح ، (وليست اقسنجر كما ترد كثيرا ، وكما ذكرتها بدورى خطأ فى معجمى عن اللغة الجغتائية) هى لفظ تركى يستعمل كذلك كاسم علم ومعناه « الصقر الأبيض » .

الاسلامى أمدا طويلا ، بل وفى أفريقية نفسها ، وأسقطوا كثيرا من العروش القديمة وأقاموا أسرا حاكمة كثيرة . فمنذ اللحظة التى طرد فيها حفيدا سلجوق الشجاعان على أيدى خصومهما فنزحا مع قطعانهما وأتباعهما الى حدود ايران الشمالية ، بدأ نفوذ السلاجقة ببلاد ما وراء النهر يتقلص بنفس النسبة تماما التى أخذت بها فتوحاتهم تعم ايران وعربستان ، وتندفع اندفاعا مطردا نحو الغرب . ولقد أراد مؤرخو السلاجقة ، وكانوا فى الغالب من الفرس والعرب ، أن يزيدوا فى تفخيم عهد ألب ارسلان وملكشاه فمدوا حدودهما الشرقية الى ما وراء خوقند وادعوا أن سكة كاشغر كانت تحمل اسم ملكشاه ، وهى وقائع ليس لها ما يؤيدها فى الغالب على كل حال .

ويصف النرشخى دواما ، فى تاريخه الخاص ببخارى ، شمس الملك ، الذى أشرنا اليه من قبل ، بأنه كان أعظم السلاطين وأقواهم ، وأن بلاده كانت تمتد الى ما وراء خجندة ، وأن منشآته العامة ، من دور للضيافة وحمامات ومدارس وغيرها ، قد ظلت جميعها قائمة من بعده لعدة قرون ، وأنه قد مات حوالى حوام ٤٨٠/١٠٨٧ ولا يزال مزاره يقصده أهل الورع من سكان بخارى . ولم يكن خليفته أرسلان خان ، ختن السلطان سنجر ، دونه فى المقام ، وقد حمل نفس ألقابه من بعده ، وظل أهل بخارى يذكرونه بالتعظيم كذلك . ومات هذا الأمير عام ٥٢٥/١١٣٠ ودفن فى مرو . وعلى هذا فلم يكن للسلاجقة الا مجرد السلطان الاسمى فى بخارى وسمرقند وفرغانه ، وأن السلطة الفعلية بتلك البلاد كانت فى الواقع بأيدى الأمراء الوطنيين أو الأمراء الأويغوريين الذين كانوا يحكمون فى تركستان الشرقية (١) .

---

(١) يصف المؤرخون الشرقيون الامراء الذين كانوا يحكمون اذ ذاك فى تركستان الشرقية بأنهم أصلا من قره ختاى ، وهو الاقليم الذى يضم اليوم ولايتى شانسى وكانسو الصينيتين ويسلكون معهم كذلك كل الترك الذين كانوا يعيشون فى الشرق الأقصى • ولانوافق على هذا الرأى ، ذلك ان شواهد اللغة الاويغورية المذكورة فيما سبق تدل قطعا على أن الترك الذين كانوا يعيشون بفرغانة وتمتد منازلهم حتى الصين ، كانوا على وجه اليقين، قبيلة ممتازة يختلفون كل الاختلاف عن اخوانهم فى الغرب والجنوب • =

ان جغرى بك وطغرل بك السلجوقيين الأولين اللذين بلغت راياتهما المظفرة بلخ شرقا وأواسط أرمينية غربا لم يدر بخلدهما أبدا الالتفات الى الأقاليم الواقعـة فيما وراء جيحون . حتى جاء الب ارسـلان فأخضع الامبراطورية البيزنطية ثم حاول من بعد ذلك أن يثبت سلطانه فى بلاد ما وراء النهر سلما أول الأمر ، فارتبط فى سبيل ذلك برباط المصـاهرة مع سليمان خان سمرقند .

ولم تبد هذه الوسيلة ذات نفع على كل حال ، اذ وجد ألب أرسلان نفسه مضطرا بعد ذلك بسنوات قليلة الى أن يعبر جيحون بجيش كبير فى حملة كلفته حياته . وتابع ملكشاه الحملة ضد ختنه حتى غلبه آخر الأمر ، وان كان من المشكوك فيه أن نفوذه امتد عند ذلك حتى فرغانة ، ذلك أن التاريخ يذكر لنا اسمخضرخان بأنه كان معاصرا لملكشاه يحكم فىتركستان ويباريه فى القوة والأبهة (١) .

= وكانت لهم لهجة تركية واحدة هي لجنة قوتا دغوبيليق ، وكانت هذه لا تستعصي على الأفهام كذلك فى شرق بلاد الأويغور وغربها . ولم تنحط هذه اللهجة الا حين أخذ الأويغور يختلطون بغيرهم من الترك حوالى القرن السابع الهجرى . وما كتبه المؤرخون الشرقيون لا يتفق ورأينا هذا بطبيعة الحال . فالجويني ، وهو الذى تبعه كل المؤرخين المتأخرين ، يسلك تحت اسم الأويغور أو الأتراك الأويغور كل القبائل التركية التى كانت تنزل عند المالق وبيشبالق على الخصوص وهى التى يعرف رئيسها باسم « ايدى قوت » اى رب السعد ، وكاهنها باسم «كام» وهذان اللفظان وكل ماعرف به الجوينى ، ومن تبعوه ، الأويغور ، تجده فى كتابى عن شواهد اللغـة الأويغورية . "Monuments of Uigur Language" وذلك نقـلا عن مخطوط كتب قبل ذلك العهد بخمسين ومائة عام لأويغور كاشـغر ، مما يؤيد رأيى بقوة فى أن لغة بيشبالق كانت هى بذاتها لغة كاشـغر . وما يتميز به الاويغور عند الجويني عن بنى جلدتهم فى الغرب هو أنهم فى نظر المسلمين كفار ، على المسيحية أو الشامانية ، فى حين كان بنو جلدتهـم فى الغرب على التوحيد يدينون بدين الاسلام ويتحرجون من الاختلاط باخوانهم الوثنيين . وعلى هذا فاننا حين نطلق كلمة «الأويغور» على قسم من أقسام الترك فى الشرق فانما نعنى بذلك كل القبائل التى تكـون سلسلة السلالات البشرية فيما بين الصينيين والفرس فى فرغانة .

(١) استرعى انتباه جيبون قيام وجه الشبه بين خضرخان وملكشاه فى أحوالهما ، فكا نمن الطبيعى أن يقول بأن ملكشاه قد نظر الى ما بلغه من قوة هائلة فى الغرب فلم يقبل أن يقوم له فى الشرق منافس قوى مثل هذا .

وبقدر ما أظلته بنود السلاجقة من أرضين حتى غدت ترفرف فى زهو على آسيا الغربية ، فان حملاتهم على عنفها ، كتلك التى شنها السلطان سنجر لم تثمر فى الشرق الا قليلا أو لا شيء على الاطلاق . ولئن كانت بخارى والقسم الغربى من خانيتها قد اعترفت حقا بسيادة السلاجقة على الدوام ، الا أن القسم الشرقى من بلاد ما وراء النهر لم يعترف بسيادة هؤلاء الأمراء الذين كان مركز سلطانهم يقع فى الحقيقة بايران . ولم يكن هناك من أدرك هذه الحقيقة كما أدركها السلطان سنجر الذى كان يرى فى خراسان والجزء الشرقى من العالم الاسلامى أحب البلاد الى نفسه . وسار هذا الأمير سيىء الطالع عام ٥٢٤/١١٢٩ لحرب محمد أمير سمرقند وابن سليمان خان سالف الذكر ليرغمه على الدخول فى طاعته ، فحاصر سمرقند ، وكانت اذ ذاك حصنا خامل الذكر ، حتى اضطرها الجوع وانتشار الوباء الى الاستسلام . على أن سنجر ما غدا أن عفا عن محمد ، بعد أن سيره أسيرا الى خراسان ، ثم أعاده الى عرشه . وكانت هذه الواقعة أول حرب لسنجر ببلاد ما وراء النهر (١) .

وأما الثانية فقد جانبه الحظ بسبيلها . ذلك أن سمرقند عادت الى العصيان من جديد عام ٥٣٥/١١٤٠ . وبرغم أن أحمد زعيم الثوار بها كان يلزم فراشه بداء النقرس، فان غلمانه وكانوا اثنى عشر ألفا ،اضطلعوا بالدفاع عن المكان ، ولئن كان النصر قد كتب لسنجر فعهد بحكومة المدينة الى نصر ابن ذلك الثائر أحمد الا أن هذه المعركة قد أدت به الى الاشتباك فى حرب جرت عليه الكوارث من بعد ذلك وانتهت بالتالى الى القضاء التام على نفوذ السلاجقة ببلاد ما وراء النهر فى الغالب .

كان الاويغور الذين أشرنا اليهم فى الفصل السابق يحكمهم أمير

---

(١) يذكر كتاب جهانكشا أن بخارى كانت كذلك قد خرجت على سنجر بزعامة من يدعى تامكيج خان فلم يذهب السلطان السلجوقى الى سمرقند الا بعد أن أطفأ تلك الفتنة .

يدعى كرخان (١) . وعلى رواية جهانكشا ، وعنه نقل المؤرخون المتأخرون فى الغالب ، فان كرخان هـذا كان قد قدم من داخل خطاى (الصين الشمالية) فاستقر أول الأمر مع جموع أتباعه عند الحافة الشرقية لسهوب القرغيز . حتى اذا ما شعر بكراهية البدو له تابع رحلته جنوبا فنزل بمدينة ايميل . ولم يجد السلامة التى ينشدها فى منزله الجديد هذا كذلك حتى استقر به المطاف آخر الأمر فى بلاساغون (٢) فحارب قبائل قنغلى والقبجاق والقرلق القوية وانتصر عليهم ، ليمد من بعد ذلك سلطانه على قسم من الاقليم الذى يعرف باسم ختاى وعلى مدينتى بشبالق والمالق ثم يهاجم امارتى كاشغر وختن ، وكانتا تتحاربان معا ، فيخضعهما لسلطانه ثم يسير فى فتوحاته من بعد ذلك بالتدريج صوب الغرب فى اتجاه فرغانة وبلاد ما وراء النهر . هنالك خاف سنجر من تزايد قوة جاره الشرقى فى هذا فتاق الى كبح جماحه . ولم يكن كرخان بدوره أقل ميلا الى القتال ، ولم تكن الفرصة كذلك غير بعيدة المنال .

كان الاقليم الواقع عند الشمال الشرقى من خوقند ، موطن القبجاق والقره قرغيز ، يسكنه بطون بعينها من بدو القره ختاى . وكان سنجر قد أثقل كاهلهم بما فرضه عليهم من الخراج . وكان شيوخ قره ختاى حريصين على أن يقدموا للسطان ما يبلغ خمسة آلاف من الابل وعشرة آلاف من الغنم ليرضى . وحين رأوه لا يقنع بذلك استنجدوا بكرخان الذى استجاب لهم وسارع بغزو بلاد ما وراء النهر عام ٥٣٦/١١٤١ حيث أنزل بالسلطان سنجر هزيمة ساحقة ركن من بعدها الى الفرار تاركا من

---

(١) وليس كورخان كما ذكره المؤرخون الشرقيون الذين تابعوا الجوينى فى ذلك ، وهو يقول ان هذا اللفظ فى لغة قره ختاى معناه خان الخانات ويستدل على ذلك بكلمة كوركان الأويغورية بمعنى الحامى أو المدافع وهو قول لا يوثق به وما يذهب اليه كذلك كلابروت Klaproth, Journal Asiatique 1828 p. 292 فى هذه المسألة لايقوم على سند .

(٢) بلا ساغون يذكرها المغول باسم جوبالق ، أى المدينة الجميلة ، كما ذكرها ميرخوند على وجه الصحة . وفى خريطة آسيا فى القرن الرابع عشر التى حققها يول فى كتابه القيم Jule, Cathay تقع بلاساغون عند الشمال من أورمجى الحديثة .

ورائه نساءه وكل متاعه ، فلم يصحبه الا ثلثمائة من رجاله (أخذ عددهم يتناقص بالتدريج حتى انتهى الى خمسة عشر) عبر بهم سيحون فى مشقة بالغة . وقدرت خسائر السلاجقة في هذه المعركة بثلاثين ألف رجل . وبهذه الهزيمة انتهت الى غير رجعة شهرة سنجر العسكرية وهو الذى كانوا يعدونه يوما الاسكندر (المقدونى) الثانى ، وضاع معها كذلك كل نفوذ للسلاجقة ببلاد ما وراء النهر .

وتوالت المصائب على سنجر بعد هذه الهزيمة ، وكتب عليه أن يركبه العار اذ سقط أسيرا بأيدى بدو التركمان عند أندخوى فأمضى عندهم ثلاث سنوات فى شقاء وبؤس بالغين . ولئن أفلح آخر الأمر فى الهرب من محبسه هذا الا أن ما عاناه من الارزاء الجسام كان قد ذهب بعقله ، ووافاه أجله فى السادس والعشرين من ربيع الأول من عام ٥٢٢/١١٢٨ . وخلفه محمود خان ابن أخيه فحكم ست سنوات من بعده . وكان هذا الأمير على قرابة مع بغرا خان كاشغر من ناحية أمه . ومع هذا فقد احتال هذا الخان حتى سمل عينيه بواسطة أحد الخارجين عليه .

وفيما كانت خراسان نفسها قد سقط جزء منها بأيدى الخوارزميين ، واستولى أمراء الغور (وبلادهم فى القسم الشمالى من بلاد الأفغان الحالية) على جزء آخر منها (١) ، وانطلق لصوص جموع الغز يجتاحون جزءا ثالثا منها ، كان كرخان قد ثبت سلطاته على الجزء الأكبر من فرغانة وبلاد ما وراء النهر .

هكذا انتهى حكم أول أسرة تركية فى بلاد ما وراء النهر . ومن عجب أن نرى أصحابها لم يساهموا فى عهدهم بأى نصيب على الاطلاق لرفع شأن موطنهم القديم من الناحية السياسية أو فى تقدم مواطنيهم الحضارى . فهؤلاء السلاجقة ، وهم أنفسهم من الترك ، كانوا يتفاخرون بما استولوا عليه من أرضين فى آسيا الغربية ، ويرون ذلك الاقليم

---

(١) كتب الشاعر انورى مرثيته المشهورة « دموع خراسان » بسبب ما أصاب هذا الاقليم من الدمار اذ ذاك • ونقلها الى الانجليزية فى ترجمة جيدة بالمروكوويل E. H. Palmer and J. Cowell : The tears of Khorasan.

الصغير على جيحون غير جدير باهتمامهم فى الغالب . وقد حكم أعظم أمرائهم فى تلك الحقبة من الحضارة التى بدأت اللغـة الفارسية تزاحم العربية ، كلغة الأدب ، وذلك فى ايران وتوران . واذ كان السلاجقة من أعظم رعاة الشعر والعلم ، فقد رأينا لذلك طغرل بك وملكشاه وسنجر جميعا يعملون على احياء لسان ايران اللطيف الجميل ، ولم تكن هـذه الأسرة الحاكمة تستخدم اللغة التركية الا بوصفها لسان الحياة العامة . وكانت هذه اللغة تعتز بدورها بنهضتها الأدبية فى قسم آخر من آسيا (١). ونظير ذلك نجده كذلك عند أمراء خوارزم الترك والأمراء الاقطـاعيين الأقوياء من مدن بلاد ما وراء النهر . ذلك أنه برغم أن الحكومة كانت كلها فى الغالب بأيدى الترك الا أن السكان الترك المستقرين هناك كانوا على قلة عددية نسبية .

---

(١) وذلك فى تركستان الشرقية حيث نظم ذلك الشـعر الأخلاقى والسياسى « قوداتقوبيليق » عام ٤٦٠ـ١٠٩٦ أى قبل موت سنجر بما يقرب من مائة عام .

الفصل السابع
الأويغور وأمراء خوارزم

٥٢٨ (١١٣٣) – ٦١٥ (١٢١٨)

ظلت بخارى ، مركز الثقافة القديمة وفنون السلم ، هى وسمرقند ، التى ذاع صيتها فى الآفاق بما حبتها الطبيعة من جمال وفتنة ، تتعرضان على طول الزمن للخطر بسبب أطماع جيرانهما فى الشرق والغرب ، وكانوا جميعا رجال حرب وشغب ، وظلت هاتان المدينتان ، طوال الفترة التى انقضت بين سقوط السلاجقة والغزو المغولى موضع النزاع الأول بين جارين طموحين هما كرخان الأويغورى فى الشرق والخوارزميون فى الغرب . ولقد تحدثنا من قبل عن مبدأ ظهور كرخان ونتحدث الآن عن الخوارزميين بقدر ما يسمح به المقام معنيين بوجه خاص بذلك القدر من تاريخهم الذى يتصل اتصالا مباشرا بسياستهم بازاء بلاد ما وراء النهر .
كانت خوارزم ، وهى اليوم خانية خيوة الحديثة ، فى زمن السلاجقة مجرد اقطاع يخضع فى ادارته لحامل الطشت (١) (طشتدار)، وعلى هذا الاعتبار أقطعها ملكشاه لقائده نوشتكين غرجة . وخلفه ابنه محمد قطب الدين عام ١٠٩٧/٤٩١ فكحم خوارزم ثلاثين عاما . وحين بدأ نجم السلاجقة فى الأفول لم يعد هو وغيره من الأمراء الاقطاعيين فى هذه الدولة العظمى ولهم ما يربطهم بالبيت الحاكم عموما الا الولاء الاسمى . واتخذ هذا الأمير لنفسه لقب خوارزمشاه (أمير خوارزم) ، ولم يعد بعد حامل

---

(١) اى الخادم الذى يقدم لسيده « الطشت » ويقوم على وضوئه . وقد أخطأ مالكولم فى كتابه عن تاريخ فارس حين ذكره بأنه الساقى وهو فى الفارسية « جشنة كير » .

الطشت عند أمير خراسان السلجوقي الا بقدر ما هو عليه اليوم خان خيوه بالنسبة للسلطان برغم أنه يتلقى نفس اللقب منه (١) . وخلف قطب الدين ابنه أتسز وكان كفؤا ممتازا واسع الأطماع ، أذاع من صيت أسرته برعايته الفذة للآداب(٢)وعمل فى الوقت نفسه على الافادة من ازدياد قوته ليتحرر من سلطان سنجر أميره وظهيره . وبقدر ماكان يظهره من الاخلاص والولاء لسنجر فترة مواتاة الحظ له (٣) ، بقدر ما أبدى له من البغضاء والعداء الشديد حين قلب له الدهر ظهر المجن . ولقد خرج أتسز على أميره ثلاث مرات وغزا خراسان ، وكان سنجر يعفو عنه كل مرة فى سماحة تامة . وكان سلوك الخوارزميين هذا من الخطورة بمكان . ذلك أنهم بغاراتهم تلك التى قاموا بها انما مهدوا السبيل فى الواقع لعدو ثالث مشترك ليحقق أهدافه . وكان هذا هو كرخان الذى استولى على كل بلاد ما وراء النهر بعد أن هزم سنجر أول مرة ثم سير من بعد ذلك فرقا من جيشه عليها أوتوز أحد قواده الكبار فغزا بها خوارزم وأنزل بها ضربات شديدة ثم عاد الى سمرقند محملا بالأسلاب .

---

(١) يخلع سلطان استانبول على خان خيوه لقب « حامل الكأس السلطانية » وما يستلفت النظر فى غير قليل أن أبناء تابع السلاجقة السابق هؤلاء قد استطاعوا أن يحافظوا على امتيازات أسرتهم برغم انقطاع سلسلتهم لعدة قرون .

(٢) الشاعر رشيد الدين الوطواط الذى ذكره هامر فى كتابه عن تاريخ فنون القول الفارسية Hammer-Purgstal : Geschichte der persischen Redekuenste كما له مكانة مرموقة فى بلاط أتسز وغالبا ماهجا السلطان سنجر (ص١٢١ ـ هامر) حتى أقسم ان هو سقط فى يده حيا بعد معركة هزاراسب أن يقطعه الى سبع قطع . وحين سقطت هذه المدينة اختفى الوطواط . حتى فكر منتخب الدين حاجب سنجر فى أن يخفف من سخط سيده على الشاعر فعرض عليه ممازحا ، بأن يعتبر أن ذلك الشاعر هو ذلك الوطواط الطائر الصغير الهزيل البائس ويكتفى بقطعه الى نصفين بدلا من سبع هناك ضحك السلطان وعفا عن الشاعر

(٣) حين كان سنجر ببخارى وهو يقضى على ثورة تمغج ، عزم بعض المتآمرين على أن يباغتوه وهو فى الصيد ويقتلوه وتمثلت هذه المؤامرة لأتسز فى الرؤيا فاستيقظ فجأة ، وركب حصانه فوصل الى مكان الأمير فى الوقت المناسب وأفسد على المتآمرين خطتهم ودهش سنجر لهذه الرؤيا بقدر ما أظهر امتنانه لأتسز على اخلاصه له .

وجهد أتسز ما وسعه ليغسل ذلك العار الذى لحق به ، فسار عام ٥٤٦/١١٥١ الى جند وانضم الى كمال الدين (١) نائب السلطان هناك وكان قد تحالف معه سرا فى حرب الأويغور الكفار (٢) . لكن بجهوده ذهبت أدراج الرياح واضطر الى أن يتعهد لعدوه بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دينار . وبرغم أطماعه الواسعة فانه لم يستطع أن يتخلص منها فتركها عبئا ثقيلا على كواهل خلفائه من بعده .

ومات اتسز بخبوشان عام ٥٥١/١١٥٦ فخلفه ابنه ايل أرسلان . والظاهر أنه قام بمحاولة جديدة لتحرير بيت خوارزم من عبء الجزية التى فرضت عليهم تلقاء كرخان ولكنه فشل فى ذلك كما فشل أبوه من قبل .

ويقال ان بلاد ما وراء النهر بعثت بوفد من أهلها عام ٥٥٣/١١٥٨ الى ايل أرسلان تستنجد به من مظالم أمير سمرقند واعتداءاته ، وكان من اتباع كرخان . وأسرع ايل ارسلان الى هناك فى قوة كبيرة . وفتحت له بخارى أبوابها سلما ، الا أنه لم يستطع بعد ذلك أن يواجه ذلك الجيش الذى حشده له عدوه بظاهر سمرقند ، وكان يضم كل التركمان النازلين فيما بين قراقول وجند ، فعاد الى بلاده دون أن يحقق شيئا مما خرج له . وهكذا بقى الأويغور وفى حوزتهم الجزء الأكبر من بلاد ما وراء النهر وفرغانة ، على ما كانوا عليه من قبل ، فى حين كان على الخوارزميين أن يقنعوا بذلك الاقليم الواقع عند حدود بخارى الغربية (٣). وساد الهدوء

(١) كان كمال الدين صديقا حميما للشاعر الوطواط . وحين خان اتسز اتهم الشاعر باشتراكه فى هذه الخيانة حتى ركبته المهانة بعض الوقت .

(٢) بينا من قبل كيف أن لفظ « الكفار » بأدق مدلوله الاسلامى لا يمكن أن يعمم على كل الأيغور ، فأغلبهم ، وفيهم جرخان نفسه ، كانوا على المسيحية بخاصة ، ومن هؤلاء قبيلة النايمان التركية وكان أفرادها جميعا من النصارى على مايقال

(٣) يؤكد الجوينى ، وهو يميل فى الغالب الى الخوارزميين ، أن ايليك تركمان حين علم بقدوم ايل أرسلان استسلم له من فوره ، كما التمس السمرقنديون بدورهم صف الامير كذلك وهو قول غير صحيح . ذلك أن بخارى وسمرقند كانتا تقران بسيادة الخوارزميين طالما كانت قواتهم تحتل المدينة ، ولم يكن للخوارزميين أيام ايل أرسلان وتكش الا مناطق بخارى الغربية ، أى بلدان آموى وقواقول وجند فى ناحية الشمال الغربى .

بين هذين الاقليمين المتجاورين ست سنوات دعم فيها ايل ارسلان حكومته في خراسان وذلك بعد أن طرد محمودا (آخر سلاجقة خراسـان) عن عرشه وسمل عينيه .

وتجدد العدوان بين الفريقين مرة ثانية عام ٥٦٠/١١٦٤ حين اتهم الأويغور بغزو أراضى أمير خوارزم . هنالك سير ايل أرسلان قائده أيار بك الى آمويه على أن يلحق به هو بنفسه بعد قليل . ولكنه لم يكد يسير اليه حتى كان الأويغور قد هزموا جيش أيار وسقط ذلك القائد نفسه فى الأسر ، واضطر ايل أرسلان بدوره الى الفرار . وداهمه المرض وهو فى تراجعه هذا وقضى به فى العام نفسه . وكان ايل أرسلان قد عهد الملك من بعده الى أصغر أبنائه العالم القدير سلطان شاه ، ولكن ابنه الأكبر تكش (١) رفض أن يتخلى عن حقه الطبيعى فى وراثة العرش . وما أن ضـمن تكش عون الأويغور له بعـد أن وعدهم بأن يدفع لهم الجزية المفروضة فى مواعيدها ، حتى انطلق يحارب أخاه حربا دامت عشر سنوات تم له من بعدها ابعاده عن العرش والجلوس عليه مكانه ليصبح من بعد ذلك أعظم أمير بين بنى جلدته ، ويضيف الى امارته الصـغيرة ضئيلة الشأن ، عند مجرى جيحون الأدنى ، أراضى جديدة امتدت حدودها جنوبا حتى الهند والخليج الفارسى وغربا حتى الفرات وشمال الفولجا . وقد بدأ تكش حكمه بانتهاج سياسة الصداقة مع الأويغور . ولم يكن حرصه على المحافظة على وعوده لهم الا لما كان يشعر به من الضعف بازائهم اذذاك .

والغالب أنه وضع نصب عينيه أن يعمل على تثبيت عرشه أولا ، وأن يمد نفوذه من بعد ذلك صوب الغرب ليصبح من بعـد ذلك قادرا على

---

(١) وتكتب بالكسر لا بالفتح الذى رسمها به كاترمير العلامة خطأ فى هامش ترجمته المشهورة لكتاب رشيد الدين عن المغول فى ايران ، وهى لفظ تركى قديم معناه ، قتال أو حصار أو موقعة . ومصدر دوكشمك ، معناه أن يحارب أو يدخل فى معركة .

متابعة خططه الشرقية فى حرية أكبر . وتم له تحقيق غرضه الأول بعد حرب اتصلت ثمانى سنوات مع أخيه سلطان . وعاونه على بلوغ غرضه الثانى معاونة ملموسة اضطراب الأمور فى بلاط طغرل بن أرسلان آخر السلاجقة فى فارس . فقد استنجد به ثائر من أتباع الأمير السلجوقى يدعى قتلغ اينانج (١) ، فلم ينجح فى الاستيلاء بضربة جريئة على عرش ايران فحسب ، بل هاجم كذلك الحشاشين ، أولئك الفدائيين المتعصبين ، فى حصنهم القوى المعروف باسم أرسلان كشا (مروض الأسد) ، واضطر الخليفة العباسى ناصر الدين الى محالفته بعد أن هزمه ، وان كان هذا الأمير العباسى المتكبر ما لبث بعد قليل أن نبذ هذا الحلف فى غضب شديد .

هكذا نجح تكش فى أن يقيم له دولة لا تقل فى اتساع رقعتها عن دولة السلاجقة الأول أو دولة السامانيين ، برغم ما كان من ميل أتباعه الى اثارة الفتن ، بل وميل أبنائه بدورهم اليها كذلك . ومع هذا كله فانه لم يتوقف عن دفع الجزية الى جيرانه الشرقيين حتى لنراه عند موته الذى وقع فى العاشر من رمضان عام ٥٩٦/١١٩٩ بعد أن حكم ثمانية وعشرين

---

(١) قتلغ اينانج « المؤمن السيد » هو ابن عطابك ايلد ركوز (المشرف على الناس) كان قد تنكر اشد التنكر للسلطان طغرل ذى العقل الراجح برغم سوء حظه ، وكان هذا الثائر قد سجن من قبل لمحاولته الاعتداء على شخص السلطان وحين عفا عنه من بعد ذلك وكرمه قابل ذلك بالذهاب من فوره الى خراسان وكتب الى تكش ليمده بقوة يحارب بها سيده ٠ ويقال ان طغرل ركب حصانه فى هذه المعركة وهو ثمل وتقدم قواته متدرعا بدرع كان يتلألأ وهو يلوح بدبوسه الثقيل فى الهواء وينشد من شعر الشاهنامة ما يستنزل به الخراب على راس أعدائه . وسقط منه دبوسه وهو فى انفعاله هذا فأصاب فرسه فى ساقها فكبت به ورمته من فوقها هنالك أسرع قتلغ اليه وقتله . وأمر تكش بارسال رأسه الى الخليفة ببغداد وكان يضمر له عداء شديدا وقد رثاه أحد الشعراء حين رأى رأسه المقطوعة فقال :

ما أغرب أطوار الزمان أيها الملك
وما أسرع ما تحجب السحب هالات المجد فى السماء
فرأسك التى كانت بالأمس تطاول الجوزاء
ها هى قد سقطت اليوم على الحصباء .

عاما ، يوصى أولاده بأن « يتجنبوا كل نزاع مع كرخان وأن ينظروا اليه كمتراس قوى يقف فى وجه عدو جبار بعيد حتى قيام الساعة » ولئن يكن من الصعب أن تقرر بأن هذا التنبؤ الذى يشير الى الغزو المغولى قد جرى حقيقة على لسان هذا الأمير الخوارزمى القوى أو هو من وضع المؤرخين المتأخرين ، الا أن الثابت المعروف أن ابنه وخليفته محمد قطب الدين لم يكن هو ذلك الرجل الذى يحقق وصية أبيه . فقد كان هذا الأمير شجاعا من أولى العزم ، حتى أدى به طموحه الذى لا حد له وما كان يشعر به من الخزى بسبب التزاماته نحو جار هو فى نظره همجى جلف (١) ، الى أن بات يرتقب الفرصة ليشتبك مع كرخان ويفض ما بينهما .

وما ان اضطلع هذا الأمير الخوارزمى بشئون حكومته حتى عوقته الحوادث عن أن يزيح عن كاهله ما يثقل نفسه من أمر الجزية . فقد غزا خصمه شهاب الدين ، أمير الغور ، طوس وما حولها وأنزل بها الخراب والدمار الشامل . وخرج اليه محمد فوجد نفسه يدخل فى حرب طويلة المدى قدم فيها الأويغور لمساعدته ، فى حين انضم أمير سمرقند الثائر الى شهاب الدين بدوره وعبر معه جيحون عام ٦٠٠/١٢٠٧ فى جيش يزيد على سبعين ألف رجل . وكان أمير خوارزم قد جمع ، فى عجلة ، مايقرب من عشرة آلاف فارس فقط . ولكنه مع ذلك انتصر على خصمه انتصارا حاسما ، بفضل شجاعة الأويغور مناصريه ، حتى اضطر شهاب الدين الى الفرار تاركا كل متاعه من ورائه (٢) ، ولم يستطع من بعد ذلك أن يفيق

---

(١) أكرر هنا الرأى الذى ذكرته فى المقدمة بأن سكان خوارزم كانوا اذ ذاك غالبيتهم من الفرس أو ان الأمراء الخوارزميين برغم أنهم أنفسهم من الترك أصلا ، الا ان نفوسهم كانت قد أخذت تتشرب ثقافة الفرس وحضارتهم بالتدريج حتى باتوا ينظرون الى غيرهم من الترك نظرتهم الى الهمج .

(٢) رأى شهاب الدين أن المعركة لاتسير فى صالحه فاعتصم بأحد الحصون . ولكن الأويغور أحاطوا بذلك الحصن وسرعان ما فتحوا ثغرة فى أسواره . وأدت بأمير سمرقند غيرته الدينية ، وكان من أحلاف كرخان (بضم الكاف) ، الى أن بعث فى السر الى شهاب الدين يطلب اليه الا يتوانى فى انقاذ نفسه على الأقل ، ولو أدى ذلك الى ترك كل متاعه للكفار . وكان الأويغور الذين شرعوا فى دخول الحصن من النصارى فى الغالب .

من أثر هذه الضربة (١) . ومات عام ٦٠٣/١٢٠٥ . واستولى محمد بذلك على هراة وكل اقليم الغور . وتم له من بعد ذلك القضاء على فتن شتى بخراسان وكذلك حتى بسط نفوذه على ايران كلها . وهنالك بدا له أن الأوان قد آن ليفرغ من أمر توران .

قابل شاه خوارزم صنيع كرخان معه حين أعانه فى حربه مع شهاب الدين الغورى بكبرياء متعمد بدلا من الاعتراف له بجميله . وحين ظهر رسل الاويغور ببلاطه عام ٦٠٦/١٢٠٥ ليطالبـوا بدفع الجزية السنوية ، شعر هذا الخوارزمى المخلص أنه لم يعد له طاقة بتحمل هذه المذلة بعد ، وعزم على رفض أدائها . وحرص هذا الأمير على ألا يظهر بمظهر المخالف لوصية أبيه علنا ، فغادر قصبة ملكه فور وصول رسل الاويغور وترك على حكومته أمه فى الظاهر . وأصدر كل تعليماته سرا فى ذلك الى وكيله محمد ماى . واستقبلت ترخان خاتون ، أم السلطان ، رسـل الأويغور بترحاب عظيم وردتهم مكرمين الى بلادهم ، وكانت تسير فى ذلك وفق سياسة زوجها الراحل فى دقة تامة . على أن رسول خوارزم لم يكد يصل بلاط الأويغور ويعلن حقيقة رأى أميره فى هذه المسألة حتى رأى كرخان ، وقد أخذت منه الدهشة لذلك ، أن يستعد من فوره لمهاجمة الأمير محمد . ولم يتأخر هذا الهجوم فى الواقع كثيرا . فقد خرج أمير خوارزم الى بلاد ما وراء النهر بدعوى استنجاد أهلها به من مظالم الأويغور وعسفهم فغزا بخارى فى العام نفسه . وقد انحاز الأهلون الى صفه وفتحت له تلك العاصمة أبوابها . وسارت الأمور بسمرقند على هذا الوجه كذلك . ذلك أن أميرها اذ ذاك السلطان عثمان ، وكان أميرا عالى النفس اشاد بذكره كل المؤرخين الشرقيين ، كان على عداوة مع كرخان اذ رفض أن يزوجه ابنته ، فلم يتردد فى الترحيب بمقدم السلطان محمد الذى رضى بمصاهرته

---

(١) ضاعت بسبب ذلك كثير من الاراضى من يد شهـاب الدين حتى اقفلت غزنه قصبته نفسها ابوابها فى وجهه الى أن استطاع بهمة قواده بالهند أن يسترد أكثر أملاكه من بعـد ذلك وقد اغتاله أحد الهنادكة فى شـهر شعبان من عام ٦٠٢ وهو فى طريقه من لاهور الى غزنه وكان فى نيته أن يثأر لما أصابه فى الغرب (المترجم) .
تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية أول ص ١٢٠ .

فأصبح بذلك حليفا له وصحبه فى حربه فى الشمال ، تلك الحرب التى سار اليها بعد أن عهد بحكومة سمرقند الى ترتبه وكان قائدا خوارزميا قديرا . وحين بلغت كرخان هذه الانبـاء بعث بأوامره الى قائده الأكبر تاينكو وكان بطراز عاصـمة الشـاش ليسـتعد للمقاومة الشـديدة . ولكن الحظ تخلى هذه المرة عن الأويغور وهزم جيشهم هزيمة حاسمة ، وسقط تاينكو (١) نفسه فى الأسر بعد أن أصيب بجراح بالغة . ولنا أن نتصور مدى ما زاده هذا النصر فى كبرياء السلطان وما أكد به ثقته فى نفسه حتى اتخذ لنفسه عقب ذلك لقب « اسكندر الثانى » و « ظل الله على الأرض » . واسـتبدت به حمى النصر وهو فى طريق عـودته الى خوارزم بعد أن استولى على أترار حتى قسى قلبه فأمر بأسيره الجريح تاينكو فألقى به فى اليم .

ظل هدف السلطان محمد بالاستيلاء على تركستان بعيد المنال برغم كل هذا الذى فاز به . ذلك أنه لم يكد يبارح شواطىء سيحون حتى كان كرخان ، برغم تقدمه فى السن ، اذ كان اذ ذاك فى التسعين من عمره ، قد ظهر بشخصه مع جيشه عند اترار فاستردها ثم سارع من بعد ذلك بتسيير بعض فرق من جيشه فحاصرت سمرقند من جديد . هنالك أسرع السلطان محمد الى بلاد ما وراء النهر ، وكان عليه فى الوقت نفسه أن يقضى على فتنة قامت فى جند . وحين علم الأويغور بقدومه رفعوا الحصار عن سمرقند وتراجعوا صوب الشمال (٢) . وانطلق الخوارزميون فى اثرهم

---

(١) فيما كان تاينكو (وليس تانيكو كما ذكر D'Herbelot جريحا على الأرض وتقوم على العناية به احدى جواريه . هم أحد الجنود بقطع راسه ، لولا أن ولولت الجـارية وأفصحت عن اسم الجريح ، فأخذ أسيرا وسير الى السلطان (المؤلف) .

ويرد اسم هذا القائد (تانيكو) عند حبيب السير ثان ٦٤٤ (المترجم) .

(٢) يرد الجوينى سبب اسراع الأويغور بالتراجع الى أن كرخان كان قد انزعج لخروج كوجلوك عليه عند المـالق فاضطر الى جمع شتات قواته وقد تصح هـذه الدعوى نوعا ما ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نقول ان الجوينى كان على بينة من أمر قيام التفاهم بين محمد وكوجلوك ، فهـو يقول فى أحد المواضع بان هذا الاتفاق قد تم بينهما اثناء حرب محمـد الأولى ؛ فى حين يذكر فى موضع آخر انه وقع قبل الحرب الثانية .

يطاردونهم حتى اشتبكوا معهم عام ٦١٠/١٢١٣ غير بعيد من بناكت ، فى حرب قاد فيها الغريمان جيشيهما بنفسيهما ، واستمر القتال لعدة ساعات وكانت نتيجته آخر الأمر سجالا ، على ما يؤكده على الأقل المرجع التاريخى جهانكشا ، وان كانت مجريات الحوادث تشير فى الغالب الى هزيمة الخوارزميين ، فقد انضم القائدان الخوارزميان ترتبه واسپهبد الى صفوف العدو ، كما أن السلطان محمد نفسه ظل مفقودا فى معسكره لعدة أيام بعد الواقعة (فقد وجد نفسه وسط قوات عدوه فجأة ، ولم يتيسر له الهرب الا لأنه كان قد اعتاد عند خروجه للحرب أن يرتدى زى خصومه فى المعركة) . على أن اسراع كرخان بالانسحاب ينتهى بنا الى نتيجة تخالف ما سبق ، وهو ما يحتمل فى الغالب ، ولا سيما اذا ما ادخلنا فى اعتبارنا واقعة ظهور خصم ثالث جديد على مسرح الحوادث يهدد ظهوره الأمير الأويغورى الشيخ بأشد الأخطار ، اذ كان من المتحمسين لأهداف السلطان محمد . وكان هذا هو كوجلوك خان بن تارينغ خان أمير قبيلة النايمان التركية (١) وكان قد تراجع من بيشبالق غربا بسبب تزايد قوة جنكيز خان فالتمس المأوى عند كرخان حتى أصهر اليه . ولكنه ما لبث أن انضم الى تابعه الخارج عليه هناك وثار عليه بدوره . ورتب كوجلوك خان خطته على فتح جبهة فى الشرق ليضعف بذلك من قوة خصمه ، فتحالف مع السلطان محمد على أن يهاجم الأمير الخوارزمى عدوهما المشترك من ناحية الشرق فى حين يهاجمه هو من الغرب . فاذا نجح محمد فى دحر غريمه صارت له من بعد ذلك كاشغر وختن فيضمهما الى أملاكه ، فاذا كان كوجلوك هو السابق يكون له عندئذ مطلق الحرية ليمد حدوده حتى شواطىء سيحون . واستقبل السلطان محمد رسول كوجلوك بسمرقند ثم دخل فى حربه الثانية وكله ثقة بنجاحه . ولقد كان فى مقدور السلطان محمد ، حين تغير الحال بعد معركة بناكت ، أن يواصل زحفه الى تركستان الشرقية على ما اتفق عليه من قبل ، ولكنه اكتفى بحدوده السابقة عند أترار وآب من بعد ذلك الى خوارزم راضيا فخورا . وكان

---

(١) كوجلوك لفظ أويغورى معناه « الرجل القوى » .

كرخان فى شغل شاغل عن ذلك كله ، اذ أرغمتــه ســعة المساحات التى اغتصبها كوجلوك على أن يرتد عجلا ، ليضــاعف القــدر عند ذلك من ضرباته له ، فقد قامت الفتنــة بين جنوده أثنــاء تراجعهم حتى تحرشوا تحرشاشديدا برعاياه أنفسهم . وما انبلغ كرخان بلاساغون (١) حتىأقفلت أبوابها فى وجهه ، وظل أهلها يدفعونه عنها ستة عشر يوما أملوا خلالها أن يقدم اليهم السلطان محمد ، وكانوا يرون فيه حاميا لهم ، فيطرد كرخان عنهم . وما لبثوا آخر الأمر أن استسلموا له لتنزل بهم عند ذلك مذبحة بشعة سقط فيها خمسة وسبعون ألفا منهم . ولا عجب أن تؤدى هــذه الحوادث الى انفضاض كثير من أصدقاء كرخان عنه ، لينتهز كوجلوك عندئذ هذه الفرصة ويهزمه هزيمة حاسمة انتهت باستسلامه له . وحين صار كرخان فى كنف من عاش بكنفه (٢) فى السابق ، التمس منه منصبا صغيرا له ولكن كوجلوك أكرم مثواه . ومات كرخان ، آخر أمير تركى قوى فى الشرق ، وهو فى الثانية والتسعين من عمره بعد أن حكم واحدا وثمانين عاما الشعوب التركية التى كانت تقطن المنطقة المتــدة فيما بين الصين وجيحون .

وجد السلطان محمد نفسه بعــد موت كرخان وليس له من خصم يتهدده سواء فى توران أو فى ايران . ولكنه مع ذلك لم يركن الى الهدوء، اذ راحت أطماعه تدفعه دفعا ليمضى فى سبيل الفتح قدما . وفيما كان عائدا الى حاضرته قاده سوء طالعه وهو مخمور الى أن أمر بقتل مجد الدين البغدادى ونفذ فيه الحكم لساعته . وكان مجد الدين هذا متصوفا يوقره الناس أشد توقير فدس أعداؤه له عند السلطان(٣) وحين أفاق من خماره

---

(١) ان ما تدل عليه مجريات الحوادث من أن كرخان تمكن فى تراجعه من شواطىء سيحون ، أن يتجنب المرور فى المناطق الخاضعة لكوجلوك ، حتى وصل الى بلاساغون قبل وصول خصمه الى كاشغر ، يستبين منه جليا أن هذه المدينة لاتقع عند الشمال من كومل على مايدعيه بول Jule وانما تقع على مبعدة فى الغرب الى ماوراء المالق .

(٢) يقول الجوينى أنه بنى بابنة كرخان الجميلة وكانت تقوم فى الحكم مقامه عند غيابه .

(٣) يقول ميرخوند انه اتهم بعلاقته الوثيقة بأم السلطان .

أنبه ضميره أشد تأنيب فبعث الى الخانقاه التى كان ينزل بها الشيخ عادة بجفنة مليئة بالذهب والجواهر لتفرق فى الاخوان تكفيرا عن ذنبه . لكن نجم الدين (١) شيخ الخانقاه رد الهدية وقال له . « لا الذهب يجدى ولا الجواهر ، فلا كفارة عن دماء ولينا المقتول الا أن تهرق دماء السلطان ودمائى ودماء ألوف كثيرة من المسـلمين » ويرى ميرخوند فى هـذه الكلمات تنبؤا بالخراب الذى أنزله المغول من بعد . ويؤكد أن هذا الجرم كان السبب الأول فى سقوط سلطان خوارزم ، ويضيف الى ذلك ذنبا آخر لايغتفر حين خلع الخليفة ناصر الدين ، وهى فعلة لامه عليها المؤرخون المسلمون لوما عنيفا .

كان المعروف تمام المعرفة أن العـلاقات بين خلفاء بغداد والأمراء الخـوارزميين كانت على الدوام على غير ما يرام . ذلك أن الحـكام الخوارزميين كانوا يتوقون الى الاضـطلاع بالدور الذى كان للسلاجقة بازاء خليفة المسلمين من قبل . وحين أعرض الخليفة عما كانوا يعرضونه عليه من الحماية دخلوا معه فى عداء سافر فى الغالب كما حدث فى عهد تكش ، فى حين ثابر القوم من بعـد ذلك فى بغداد على التـآمر عليهم مستترين تحت ستار الصداقة الكاذبة . فمن ذلك مثلا أنه حين مات شهاب الدين أمير الغور عام ٦١١/١٢١٤ وعزم السلطان محمد على فتح غزنه فشخص اليها وجد فى متاع السلطان هناك رسائل يحرض فيهـا الخليفة الأمير الراحل على حرب الخوارزميين وقد بعث اليه فيما بعد براءة لقبه فيها بالسلطان . هنالك ثارت ثائرة السلطان محمد وأعلن فى اجتماع هام خلع الخليفة وتنصيب العالم علاء الملك الترمذى مكانه ، ثم سار لساعته الى بغداد ليقيمه مكان الخليفة العباسى الضعيف . على أنه ما ان تقدم وراء همدان حتى عوقه زمهرير الشتاء وكثافة الثلوج فى وديان الجبـال عن المضى . ويبدو أن القدر أبى أن يضطلع مسلم بما جعله من نصيب هولاكو

---

(١) قتل نجم الدين كبرى أثناء الغزو المغولى ، ولا يـزال أهـل خيوه يعظمونه حتى اليوم كمـا يحج الى مزاره فى أورغنج القديمـة الوف من المسلمين فى كل عام .

فقــد اضــطر الخوارزمى المتغطرش أن يعــود من حيث أتى ضجرا لعدم تمكنه من تحقيق هدفه (١) ، ليقابله من بعــد ذلك رسول من لدن خيرخان نائبه على أترار ومعه رســالة يفضى اليه فيها بأنه قد نجح فى القبض على أربعمائة من عيون جنكيزخان كانوا قد قدموا اترار فى لباس تجار من المسلمين (٢) ، وأنه فى انتظار أوامر السلطان بهــذا الصدد . وانساق السلطان وراء عواطفه ، وكانت قد وصلته رسالة من چنكيز (٣) أثارت ثائرته فأمر بقتل هؤلاء الأسرى . وحين آب الرسول الى أترار نفذ خيرخان أوامر سيده لســاعته ، برغم أن هؤلاء الأسرى كانوا حقيقة من المسلمين ، وكانوا موضع رعاية من چنكيز لنشاطهم التجارى الواسع فى أراضــيه . وانا لنرى الجوينى على حق حين يقول : « ان دمهم أهرق ، ولكن كل قطرة منه قد كفر عنها بسيل جارف من الدماء ، وان رءوسهم

(١) لا يزال الطريق عبر همدان وكرمنشاه يعد من أخطر المسالك شتاء وغالبا ماكنت اسمع ابان اقامتى هناك عن أناس اصابهم التلف هناك أو تجمدوا حتى ماتوا .

(٢) ليس من السهل القول بانهم كانوا تجارا مسالمين فى الواقع . ويلاحظ الجوينى أن المغول لم يكن عندهم مدن كما لم يكونوا يمارسون الزراعة ، لذلك كانوا يعتمدون فى كل شىء على التجارة ، حتى رعوا التجار احسن رعاية . وكان للتجار من قبل مركز فى خجندة تسير منه قوافلهم الى منغوليا تحمل الى الخان الهدايا من نسيج الديباج والكتان وغير ذلك من الأشياء اللطيفــة . وحين تقدموا بهداياهم الى جنكيز أمر بحصرها ودفع لهم فيها أثمانا مجزية برغم احتجاجهم . وكان يشجعهم ليترددوا على بلاده حتى وعدهم بكل حماية فى مقدوره .

(٣) يخبرنا مير خوند عن سفارة كان قوامها محمود يلواج (والاسم الأخير يستعمل خطأ كعلم ، وهو أصــلا يولاوج وهو فى الأيغورية بمعنى الرسول اى السفير) وعلى خواجه البخارى ويوسف خواجه الاترارى ، بعث بها چنكيز الى السلطان محمد مع هدايا نفيسة منها أوان فضية تحوى مسك التبت وبلاد التتار والعقيق والديباج ونسيجا نادرا لحمته من الصوف الأبيض والأخضر ، فأكدوا له فى اخلاص أن چنكيز أمير المشرق يود أن يعيش فى سلام ووئام مؤتلفا مع السلاطان محمد أمير المغرب ، وأنه يحبه كولده ويرى سلامته عزيزة عليه . وبرغم أن الخوارزمى المتغطرس اشمأز أول الأمر عند ذكر هذا العطف الأبوى ، فقد توثقت الصداقة آخر الأمر بين الاثنين وظل چنكيز على اخلاصه على الدوام . وقصة ميرخوند هذه كلها تبدو لى من قبيل الخرافة على كل حال .

قد سقطت ولكن كل شعرة فيها قد كلفت مئات الألوف من الناس حياتهم » .

وأتيح لواحد من هؤلاء الأسرى أن يهرب ليروى عند ذلك قصة ذلك الهول للأمير المغولى الذى لم يطلق العنان أول الأمر لسخطه ، بل أوفد رسولا يطلب باسمه ايضاحا لهذا الأمر . وحين ألقى بهذا الرسول بدوره فى الحبس ثم أعدم ، لم يستطع جنكيز أن يمسك نفسه من بعد ذلك عن أن يشهر سيفه نحو الغرب وهو الذى عقد له لواء الظفر والنصر ذياك الوقت فى الشرق . وهكذا كان السلطان محمد بسلوكه هذا هو المسئول الأول عن تلك المصائب وذلك الدمار الذى يستحيل اصلاحه والذى أنزله الغزو المغولى ببلاد ما وراء النهر والعالم الاسلامى الشرقى كله وتعدى ذلك الى جزء من أوربا . ذلك أنه — كما سنرى وشيكا — منذ اللحظة التى أحرز فيها المغول ما أحرزوا من فوز ونجاح عند شواطىء سيحون انتعشت آمالهم ، فشد ذلك من أزرهم ودفعهم قدما فى مسالك الفتوح الممتدة أمامهم .

الفصل الثامن
الغـــزو المغــولى

٦١٥ (١٢١٨) – ٦٢٤ (١٢٢٦)

تتكون المناطق التى تسكنها الأجناس التركية فى العصر الحاضر من صقعين متميزين من الأرض . أحدهما يمتد جنوبا من شواطىء المحيط المتجمد الشمالى الثلجية ، والآخر يتجه شرقا من الأدرياتى ، وهما يتداخلان معا فى القسم الشرقى من آسيا المعروف بصحراء جوبى (١) .

وفى هذه الصحراء كان المغول ، وهم شعب (٢) يشبه الترك حدا ما فى اللغة والسحنة ، يقيمون منذ زمن موغل فى القدم ، ويعيشون عيشة بؤس بدوية وسط اقليم جدب موحش لا يلقى أحد من جيرانهم اليهم بالا . بل لقد ظل اسمهم غير معروف قرونا طويلة فى حين كان ذوو قرباهم من الأتراك يتحكمون بنفوذهم القوى فى مصائر آسيا الغربية .

(١) جوبى لفظ مغولى معناه « الصحراء الجدباء الخاوية » ولا يستعمل علما الا فى القليل ، نظير لفظ « الصحراء » التى هى فى العربية المكان المفتوح وهى ليست علما كذلك .

(٢) أوجه الشبه فى الجنس بين المغول والترك تزداد وضوحا كلما اتجهنا شرقا من مناطق الترك الغربيين أى العثمانيين وقد اختلطت دماء أهـــل الروملى والأناضول وآذربيجان اختلاطا قويا بدماء عناصر سامية حتى لم نعد نرى فى قسماتهم أى أثر لقسمات الترك القوميـــة البدائيـــة . والتركمان والأوزبك والنوغاى والقرغيز هم أقرب الناس فى ســحنهم الى المغول . ولا يختلف البروت والقبجاق عنهم الا اختلافا يســيرا فى لون الجلد . وبرغم ضعف ما بين التركية والمغولية من الصلة فى ناحية النحو ، الا أن ثلاثة أرباع الألفاظ فى اللغتين واحدة عموما .

وقد أنجب هذا الجنس عام ٥٤٩/١١٥٤ (١)بطلا يدعى تيمورجى (٢) ، برهن على أنه صاحب أطماع وارادة حديدية وعزم مكنته كلهـا تمام التمكين من أن يطوع طبيعة بنى جلدته البدائية الخشنة الى أداة صالحة أمدته بتلك القوة التى اجتاح بها العالم الى ما وراء حدود مراعيه بكثير ، حتى ليمكن أن يقال كذلك بأنها أشاعت الانقلابات فى آسيا كلها . وما بين أيدينا عن شباب جنكيز المبكر لا يعدو قصصا قليلا . فهو لم يظهر على مسرح التاريخ الا بعد أن تجاوز الأربعين من عمره ، حيث نجد اسمه يذكر مقرونا باعتداءاته على بنى جلدته وعلى الأمراء الأتراك القريبين منه على السواء ، فانتصر عليهم جميعا ليتخذ لنفسه من بعد ذلك لقب جنكيز ، أى القوى الجبار (٣) .

كان أونغ (٤) خان أمير قبيلة كريت (٥) هو أول خصم ذو شأن غلبه

---

(١) هذه هى السنة التى تنبأ فيها المنجمون المسلمون بهبوب عاصفة مدمرة تقدم اليهم من ناحية الشرق . وحين لم يقع ذلك أخذ الناس يسخرون منهم . والمفروض أن هذه النبوة قد تحققت من بعد بمولد جنكيز الذى اقترن بتلك العاصفة المدمرة التى كان عليها أن تجتاح الأرض .

(٢) تابعت فى ذلك الجوينى ، وهو يذكره باسم تيمورجى لاتيموجين .

(٣) برغم أنى تابعت المستشرقين فى رسم لفظ جنكيز ، الا انه لابد من أن أسجل ملاحظة لى ، فأقول ان هذا اللفظ على مايرسمه الترك والفرس بكسر أول أو امالته مع الجيم المثلثة والجاف الفارسية هو من ناحية الاشتقاق هو الأصح بلا شبهة .

ذلك أن هذا اللفظ : اويغورى صرف يتكون من مقطعين : جنك بمعنى مستقيم او ثابت أو قوى ، وكيز بمعنى جبار ، فيحمل كله على معنى الشديد القوى أو الجبار .

(٤) أونغ لفظ اويغورى معناه الشخص المستقيم .

(٥) كريت معناه العاصفة عند أبى الغازى وان كان اشتقاقه غير معروف ومع هذا فأنا أميل بدورى الى أنه تحريف فارسى لكلمة كيريت بمعنى كلب الصيد ، وأسماء أغلب القبائل التركية وأسرهم مأخوذة من أسماء الحيوان . فنجد مثلا لفظ منغيت (وهو عند أبى الغازى يعنى الغابة الكثيفة) يتكون من مقطعين : منغ = مريض ، وايت = الكلب . ثم اويرات (ويرسمها البعض ايرات) = الحصان الرمادى ، وقنقرات وصحتها قنغرات = الحصان الكستنائى الخ .

جنكيز . فقد هزمه عام ٥٩٩/١٢٠٢ ثم أردف هزيمته له بغلبته الخاطفه على قبائل أويرات وقنقرات والنايمان التركية التى كانت تنتشر عند الغرب من منازل المغول . وفيها كانت تروج البوذية والمسيحية والاسلام مما يسر لها قدرا من الثقافة العامة كان يزيد على ما كان عند المغول فى الغالب ، وان كانت قدراتهم الحربية دون قدرات قوات چنكيز بكثير ، تلك القوات التى كانت تدرب بصرامة دراكونية (١) .

ورسم المغولى المظفر سياسته على ألا يشرع فى غزو جديد بعد فوزه هذا حتى يتم له ادماج القبائل التى أخضعها فى قواته اخضاعا تاما وتنظيمها وفق قواعد الياصا (٢) لتصبح أداة صالحة لتحقيق خططه المستقبلة . وكان تقدمه فى ذلك بطيئا ولكنه كان ثابتا مكينا . فلم يأت عام ٦٠٢/١٢٠٦ حتى كان قد نجح فى اخضاع كل بدو صحراء جوبى على وجه التقريب واتخذ من حصن قراقورم مقرا له . واتصل حوالى ذلك الوقت بالأويغور . ومن شيعتهم الشرقية استعار لقومه البدو عقيدة وأبجدية طوعت لغتهم للكتابة .

وكان هؤلاء الأويغور فى الغالب يقومون على بيت المال عند چنكيز وخلفائه ، ومنهم حجابهم وعمال دواوينهم كذلك . وخضع أمير هؤلاء الأويغور الشرقيين ، وكان يدعى ايدى قوت « رب الحظ » للمغول من تلقاء نفسه هو وقومه جميعا ، وكان أغلبهم من المسلمين . هنالك غمره چنكيز بعطفه فوجد فيه بذلك كسبا عظيما له ، كحليف أمين ، فى حروبه مع الصين وحروبه مع بلاد ما وراء النهر على السواء . أما الأويغور الغربيون ، ولا سيما مسلمو الترك فى كاشغر وختن فقد ذهبوا مذهبا يغاير ما ذهب اليه اخوانهم الشرقيون على كل حال . ولبث چنكيز لا يجرؤ

---

(١) دراكون مشرع اغريقى عرف بصرامة قوانينه حتى ليقال انه كان يدونها بالدم (المترجم) .

(٢) أصلها دزاصاق فذكرها الفرس والعرب « ياصاى » ترخيما . وهى دستور چنكيز الذى دونه له الأويغور ، وهى مزيج من القوانين الموضوعة على ارادة الخان المغولى وانفع العادات القبلية . وقد ذكرها تفصيلا الجوينى فى كتابه جهانكشا ص ١٧ وما بعدها أول — مجموعة جب ١٩١١ لندن (المترجم) .

على مهاجمتهم حين كانوا مؤتلفين تحت تاج كرخان القوى . حتى اذا ما رقى العرش كوجلوك وجر على نفسه عداء العالم الاسلامى كله بسبب مشاعره المعادية للاسلام(١) ، بدا لجنكيز أن الفرصة قد أصبحت مواتية له ليضرب ضربتــه فى الغرب ، وكان قد عاد لتوه مظفرا من حرب له فى الصين . فسير لذلك جيشا مغوليا عليه قائد له يدعى جبه هاجم كوجلوك . وحين رأى هذا أن أحلافه قد تخلوا عنه فى ساعة العسرة ارتد أمام خصمه ولاذ بجبال بدخشان حيث وقع فى الأسر هناك وسلم الى المغول . وما لبث أرسلان خان امير المالق فى الشمال أن استسلم بدوره الى المغول طواعية وكان على عداء قديم مع كوجلوك . وبهذا صار جنكيز وله السلطان المطلق على كافة الأراضى الممتدة من حدود صحراء جوبى الشرقية الى منحدرات جبال تيان شان الغربية والسيد بلا منازع على مدن كثيرة يسكنها سكان مسالمون يشتغلون بالزراعة وعلى قبائل بدائية عديدة أبناؤها من رجال الحرب . ومن العسير أن نقول : لعله كان يقنع بما بلغه فلا يستمر فى سيره المظفر لو لم يكن هناك مجال لدعواه التى تذرع بها لمهاجمة الأمير الخوارزمى السلطان محمد على ما أشرنا اليه فى الفصل السابق . فالواقع أنه قد وجد نفسه يقف على أبواب دولة سمع العجيب الكثير عن سعة رقعتها وثرائها وحضارتها . وهذا هو أميرها وقد طار صيته ، فهو يرى فيه بذلك خصما جديرا به وعدوا يليق بسيفه من كل وجه .

كان عام ٦١٥/١٢١٨ هو الذى خرج فيه الفاتح المغولى لحرب الأمير الخوارزمى . وصحبه فى هذا الغزو أبناؤه جغتاى واوكتاى وجوجى (٢) ورؤساء القادة وقوة قوامها ستمائة ألف من خيرة جنده ، وقد انضم اليه ايدى قوت الأويغورى وسجينا كتكين أمير المــالق . وسـلكت القوات

---

(١) كانت زوجة كوجلوك مسيحية ، وكانت تجهـد فى حمل مسلمى كاشغروختن على الدخول فى ملتها ، فى حين كان زوجها يحاول أن يحملهم قهرا على اعتناق مذهبه البوذى وقاومهما المسلمون فى ذلك مقاومة شديدة استشهد فيها جلال الدين امام ختن وعصبة من المؤمنين .

(٢) ويدعى ايضا سوداى أو سونتاى أو سوبوتاى .

الزاحفة طريقها عبر وادى ايلى وشمال فرغانه صوب اترار . وتجمعت أمام هذا الحصن لتنطلق فرق منها من بعد ذلك فى الاتجاهات الآتية :

بقى قسم منها ، عليه ابنا جنكيز ، جغتاى واوكتاى ، لاخضاع أترار ، فى حين انطلق قسم آخر ، يقوده جوجى ، يمينا عبر صحراء قزل قم على طريق جند . وتقدم القسم الثالث وقوامه خمسة آلاف رجل وعليه الك نويان وسنتوبغا ، بحذاء شاطىء سيحون الأيمن متجها الى بناكت . فى حين اصطلع جنكيز نفسه بالعملية الرئيسية فسار بخيرة جنده الى بخارى قلب آسيا . وعلينا أن نتعرض بقدر من العناية لتلك العمليات المنفصلة التى اضطلعت بها هذه الفرق الأربع من الجيش المغولى فاجتاحوا آسيا الوسطى فى أربعة تيارات مدمرة متميزة ، ونبدأ بأول هذه العمليات عند أترار .

كان يحتل هذا الحصن حامية قوامها خمسون ألف رجل عليهم خير خان ، الذى أشرنا اليه من قبل ، يعاونهم عشرة آلاف رجل يقودهم قراجه وزير السلطان محمد . بهـذا كانت القوة المدافعـة على جانب كبير من الكفاية ، ومع ذلك يقول المؤرخ ان الذعر استولى على المسلمين حين ظهر المغول واكتنفوا المكان . وعلى ضوء هذه البداية يحمد لهذه الحامية أنها ظلت تقاوم الغزاة مقاومة مجيدة طوال أشهر خمسة . ولعله كان بمقدورها أن تستمر فى مقاومتها لمدة أطول لولا وقوع الخلاف بين قائديها . فخير خان ، وهو الذى يقع عليه الوزر الأكبر فى شأن مقتل رعايا جنكيز ، كان قد اختار أن يستمر فى المقاومة أو يموت دون ذلك ، أما قراجه فقد بان له عدم جدوى المقاومة حتى أفصح منذ البداية عن رغبته فى الدخول مع عدوه فى مفاوضات . وقد انتهى أمره بأن انفصل عن زميله وذهب ورجاله الى المغول ذات ليلة ظلماء . وحين عرض على أبناء جنكيز صبيحة اليوم التالى ، عنفوه على تركه لمراكزه وأفصحوا له عن شكهم فى أمره وهو الذى لم يتورع عن خيانة سيده وراعيه فى نذالة ، ثم أمروا به وبرجاله فقتلوا جميعا . وواصل خيرخان مقاومته فى شجاعة الأسد . وهلك رجال الحامية جميعا ، وكانوا يبرزون للقتال على دفعات موفقة قوام كل واحدة منها خمسون رجلا ، وباعوا حياتهم بثمن غال . وحين سقط آخر اثنين

منهم على وجه التحقيق الى جانب خير خان ، هبط هذا القائد ، على ما يقال ، من أسوار الحصن الى أسطح الدور ، فأخذ يدافع عن نفسه بمفرده بالحجارة ، وكانت تناوله اياها جارية له ، فكان يقذف بها أعداءه الحانقين عليه والذين صمموا على أسره حيا بأى ثمن . حتى اذا ما فرغت الحجارة من يده وأحيط به ووقع فى الأسر حمله أوكتاى ، كرمز لانتصاره عليه ، الى القصر الأخضر (كوكسراى) فى سمرقند حيث قتل على أثر ذلك بأن صبت الفضة المذابة فى أذنيه تذكيرا له بجشعه الذى أودى بحياة التجار المنكوبين . وهكذا سقطت أترار ، مفتاح التركستان الشمالى الغربى ، بأيدى المغول فأزالوا الحصن كله وقتلوا السكان جميعا هناك ، ثم تابعوا سيرهم بعد ذلك جنوبا الى سمرقند .

كذلك كتب لجوجى بدوره الفوز فى حربه عند جند . فقد هاجم أول الأمر سغناق ، وتقع عند مشارف الصحراء وتربطها بجند قناة . وكان المغول قد بعثوا برسول يدعى حسن حاجى يطلب تسليم المدينة ولكن أهلها سقطوا عليه وقتلوه . وأثار هذا العمل ثائرة جوجى فاجتاح المكان ولم يعف أحدا من أهله من القتل أخذا بالثأر ، ثم عهد بخرائب المدينة الى ابن حسن حاجى الرسول المقتول وعاود سيره الى جند بطريق أوزكند واشناس . وخضع أول المكانين سلما فى حين أخذ الثانى قسرا . ونزل جوجى بعسكره عند جند فى الرابع من صفر عام ٦١٦/١٢١٩ فأثار نزوله هناك الاضـطراب والفزع بين الناس على أشده ، حتى انسحب قتلق خان حاكم المكان فى هلع الى خوارزم تاركا المدينة فى فوضى شاملة . وحين ظهر جنتيمور ، رسول جوجى ، أمام بوابة المدينة لينذر أهلها بما سوف يقبل عليهم من الخطر ، ويدعوهم الى أن يوفروا على أنفسهم مقاومة لن تنفعهم شيئا ، لم يكتب له أن يتجنب المصير الذى لقيه حسن حاجى عند سغناق الا بمشقة، فنجح ، بفرط حذره ، فى النجاة بحياته . ولم يكد هذا الرسول ينسحب من هناك حتى ظهر الجيش المغولى عند الأسوار بمجانيقه وسلالمه فاستعد لاقتحام المكان . ويقال ان حامية المدينة كانت على جهل تام بفنون القتال حتى أخذ أفرادها يتطلعون ، فى دهشة ، الى المغول وهم يحتالون على تسلق أسوارها الملساء ، وكأن الأمر لا يعنيهم فى شيء . وقضت القوات

الغازية على ما توهموه من توفر الأمن عندهم اذا أعملوا السلب والنهب بالمدينة ثم خربوها . وقتلوا كذلك كل من كان يحمل السلاح من الأهلين ، ثم ساقوا الفلاحين المسالمين الى ظاهر المدينة فبقوا فى الأسر أياما تسعة ردوا من بعدها الى بيوتهم بعد أن جردوا من كل شىء فلم تبق لهم الا حياتهم .

باحتلال جوجى للقسم الغربى من بلاد ما وراء النهر قطع كل اتصال بين المحاربين الخوارزميين وتلك المناطق الغنية على شواطىء الأنهار والتى يسكنها فى الغالب أقوام مسالمون . وعمد القائدان الك نويان وسنتوبغا فى الوقت نفسه الى الهجوم على بناكت وخجندة فى قوة صغيرة قوامها خمسة آلاف رجل . وسارع ايلركو (من قبيلة قنغلى) قائد المكان الأول الى الاستسلام مع حاميته كلها دون قيد أو شرط .

ولقيت بناكت نفس المصير الذى لقيته جند من قبل ، فقتل كل من كان يحمل السلاح من أهلها ضربا بالسيف أو رميا بالسهام ، واسترق من بقى منهم من بعد ذلك أو ضم قسرا الى الجيش المغولى ، لتتلقى من بعد ذلك خجند الضربة التالية . وكان حصن هذه المدينة قد أقيم فى مكان يتفرع عنده سيحون الى فرعين . وأبدى هذا الحصن مقاومة غير متوقعة ، لموقفه الطبيعى من جهة ، ومن جهة أخرى لشجاعة قائده تيمور ملك الذى يقول عنه المؤرخون الشرقيون بأن رستم لو كان حيا لاتخذ منه أستاذا له (١) .

ووجد الآنكو نفسه ، وهو يدير عمليات الحصار ، أنه قد أسقط فى يده برغم أن خمسين ألفا من الرقيق وعشرين ألفا من المغول كانوا يهاجمون المكان تحت امرته . وكان الرقيق يسيرون فى عشرات ، وعلى كل فرقة منهم رقيب من المغول ، فيجلبون الحجارة من جبال تقع على مسيرة ثلاثة فراسخ .

ولم يفت فى عضد تيمور قلة الحامية التى بين يديه فاحتال على بناء اثنتى عشرة سفينة غطاها باللباد المبلل بنوع من الغراء (!) مصنوع من

---

(١) (يحمل له سيفه) على ما ورد عند الجوينى فى جهانكشا .

الخل والجير فاتخذها وقاء من نيران العدو ، حتى استطاعت قواته بذلك أن تقترب من الشاطئ لدرجة مكنتهم من اطلاق المزيد من سهامهم على خصومهم من خلال الثغرات بين هذه السفن . وبذلك استطاع تيمور أن يضطلع بالدفاع مدة طويلة ، حتى اذا ما تبين له عدم جدوى الاستمرار فى المقاومة أمر بسبعين سفينة شحنها بكل ما أمكنه حملة من متاعه وانحدر بها مع النهر هاربا بطريق جند الى الصحراء ومنها الى خوارزم. وطارده المغول على طول الشاطئ طول رحلته الجريئة هذه . وحين صادف سلسلة من الحديد تعترض طريقه فى النهر عند بناكت حطمها الى شظايا بضربة واحدة منه على ما يقال . حتى اذا ما نزل عند بركليك كت كان عليه أن يشتبك فى قتال جديد يفوق وصف شجاعته فيه كل حد . ونجح آخر الأمر فى أن يبلغ خوارزم آمنا (١) . واستولى قادة المغول على خجندة ثم ساروا بجيشهم الى سمرقند حيث كان عليهم أن يذهبوا للاجتماع بقائدهم وتلقى أوامره .

وكان جنكيز خان نفسه ، ومعه ابنه تولى ، قد أحرزا انتصارات أخرى باهرة لا تقل عن هذه . ولا يتضح لنا خط سيره فى الطريق الذى زحف فيه من أترار جنوبا الى بخارى . وكل ما نعلمه أن أول مكان ظهر فيه كان سرتاق (٢) عند الشمال من بخارى . وبوغت سكان هذه البلدة الصغيرة اللطيفة بظهور المغول عندها قادمين من الصحراء وكأنهم قد

---

(١) حين بان لتيمور ملك استحالة الاقامة فى خوارزم أسرع فى اللحاق بالسلطان محمد وكان يهيم على وجهه فأسدى له خدمات جليلة ، ثم مالبث أن تركه الى دمشق متنكرا فى زى الدراويش . واشتاق الى موطنه وهو هناك فاستطاع العودة الى فرغانة برغم ماصادفه من عراقيل فى الطريق . وهناك عرف بأن ابنه ، وكان قد تركه طفلا ، قد شب ، وأن باتو حباه بعطفه ورد اليه أملاك أبيه . هنالك سار تيمور ملك الى خجندة فلقى ابنه وحين سأله ان كان يستطيع أن يتعرف على ابيه اذا مالقيه ، أجاب الابن بالسلب معتذرا بأن أباه قد تركه وهو طفل لايدرك. وحين استدعى الابن عبده تعرف على سيده من فوره . وما غدا خبر رجوعه أن شاع فسقط ضحية لانتقام المغول .

(٢) وهى ليست زرنوق كما وردت عند ميرخوند . ويذكرها الجوينى أيضا باسم زرنوق وهى قريبة من سرتاق المذكورة فى معجم البلخى الجغرافى.

سقطوا عليها من السماء ، فلم يدركوا مدى الخطر الذى أقبل عليهم وأخذوا يستعدون للمقـاومة فعلا . حتى اذا ما أقبل عليهم رسول المغول ، على الرسم المعتاد ، وبين لهم ما سوف يتعرضون له من سيوف العدو ونيرانه رأوا آخر الأمر أن السلامة فى الاستسلام . أما من كان يحمل السلاح منهم فقد ضم الى الجيش الفاتح قسرا ، كما سوى حصن المدينة بدوره بالأرض ، وأما السـكان المسـلمون الذين كانوا قد خرجوا الى ظاهر المدينة بخيولهم ونبالهم فقد أذن لهم بالعودة الى ديارهم سالمين . وما غدا المغول من بعد ذلك أن أطلقـوا على المدينة اسم قتلق بالق « المدينـة السعيدة » بدلا من سرتاق .

وكان نور هو ثانى موضع استولى عليه جنكيز فى منطقة بخارى . وكان الطريق الذى سلكه اليها غير معروف من قبل ، وكان أدلاؤه فيه هم التركمان . وظل هـذا الطريق يشتهر بعد ذلك لمدة طويلة باسم طريق الخان . وقضى حرس الطليعة الليل فى غابة جميلة بظاهر نور حيث أخذ رجاله يصنعون سلالم الحصار . وكان يقوده طاهر بهادر ، وهو مسلم وتركى فى الغـالب . وحين فرغوا منهـا حملوها ، مستعرضين ، فوق سروجهم الى أسوار نور .

وكان الأهلون قد أغلقوا أبواب مدينتهم عليهم ، وقد أبى فريق منهم أن يصدق قدوم جنكيز اليهم ، فى حين ظل فريق آخر يعتقـد أن السلطان محمدا لابد قادم لنجدتهم ، ومهما يكن،فحين بعث جنكيز بقائده طاهر يخبرهم بأن المغولى الجبار فى طريقه اليهم وأنه سوف لا يتعرض لهم بسوء ، الا أن ينزل ببلدهم ، ما لم يعمدوا الى مقاومته بالقوة ، فتحوا له أبواب المدينة من فورهم . هنالك أمر الأهلين أن يحملوا الى ظاهر المدينة كل ما عندهم من المؤن الزراعية وأدوات الزراعة وكل ماعندهم من الحبوب والماشية ودواب الحمل . حتى اذا ما فعلوا ذلك كله انطلق الجند فدخلوا المدينة وأخذوا ينتهبون الدور دون أن يتعرضوا بالسوء لأحد من النوريين على الاطلاق . وحين سار وفد منهم الى معسـكر جنكيز قابلهم بترحاب بالغ وسألهم عن مقدار ما كان يفرض عليهم من مال الخراج . فلما أخبروه بأنه خمسمائة وألف من الدنانير طلب اليهم أن يؤدوا ذلك المال الى رجاله

المقدمة من جيشه وصرفهم وهم راضون . وأسرع جنكيز من بعد ذلك من نور الى بخارى فنزل بظاهرها أوائل المحرم من عام ٦١٧/١٢٢٠ وبدأ من فوره يعالج متاريس حصنها الخارجية . ولم تكن بخارى ، وقد بلغها فى الغالب أخبار المجازر التى جرت من قبل تمهيدا لمعركتها الكبرى ، غير مستعدة بالكاد لهذا الهجوم العنيف الذى كان عليها أن تواجهه . وكان بداخل أسوارها عشرون ألف رجل عليهم كوكخان (وكان من مهاجرى المغول أو من الاويغور فى الغالب) وسوينج خان وكشلى . ومن الصعب أن نتصور مدى ما كان هؤلاء يظنون أنهم قادرون عليه بازاء المغول الذين كانوا يتفوقون عليهم بمئات ومئات . على أية حال فقد بادروا بالهجوم على أعدائهم ولكنهم سحقوا عن آخرهم الا قليلا منهم استطاعوا أن يفروا الى المدينة ، ليسارع الأهلون عند ذلك ، وقد أخذ منهم الرعب مأخذه ، بارسال وفد من أعيانهم يسألونه الصفح . وصحب هذا الوفد الفاتح المغولى فى دخوله المدينة .

ولفت نظر جنكيز لدى ولوجه فيها المسجد الجامع الفخم ، وكان السامانيون قد بذلوا فيه كثيرا من الأموال ليبدو فى أروع صورة ، فدخله بفرسه ووقف بازاء المنبر . وظنه أول الأمر قصر السلطان . حتى اذا ما قيل له بأنه دار عبادة نزل عن دابته ورقى بضع درجات بالمنبر ثم دعا المغول الذين كانوا يقفون من خلفه الى أن يطعموا خيولهم وكان العلف قد أعد . ولنا أن نتصور كيف تلقفوا الاذن لهم باعمال النهب فى المدينة بمسرة بالغة ، وكيف سقط من بعد ذلك هؤلاء الهمج على مدينة بخارى البائسة . وسحر ألبابهم ما كانت عليه عاصمة آسيا الوسطى هذه من الترف ، فلم يكتفوا بنهب كل دار وكل قمطر بل حملوا معهم كل ما صادفهم من أنواع المتاع فلم تفلت من أيديهم الآثار المقدسة مع قلة قيمتها المادية . كما مزقوا المصاحف واتخذوا من أوراقها فرشا لدوابهم ، وجعلوا من قمطراتها وصناديقها مذاود لخيولهم . وسيق كبار الشيوخ والعلماء البارزون ليقوموا بخدمة الجند فى مجالس الشراب أو ليؤدوا لهم الرقصات ، وفق رسم المغول ، على توقيع الآلات الموسيقية ، وكان من هؤلاء الفقهاء الأجلاء من دفع به كذلك ليسوس البغال .

هذا هو ما وصل الينا من تدوين المؤرخين المسلمين فى هذا الشأن . وقد يكون هناك بعض المبالغة فى وصف ما عمد اليه المغول من امتهان شعور القوم الدينى ، الا أنه ما من شك فى أن بخارى قد تعرضت لمعاملة بالغة القسوة ومرت فى تجارب مريرة حتى خلال هذا الغزو الأول .

لم يمكث جنكيز خان بالمدينة الا ساعات قليلة ثم خرج الى المصلى بظاهر السور حيث كان الناس جميعا قد جمعوا له ، فسأل عن أعيانهم فبرز له من بينهم ثمانون ومائتـــان فيهم تسعون ومائة من أهل المدينـــة وتسعون من الغرباء هم تجار فى الغالب . هنالك التفت اليهم وأخذ يندد فى شدة بما يرتكبه السلطان محمد من مظالم ليقول لهم من بعد ذلك : « اعلموا أنـــكم قد اقترفتم كثيرا من الآثام وأن وزرها انمـــا يقع على أمرائكم ، واذا سألتمونى عمن أكون أنا الذى أخاطبكم فاعلموا أنى أنا سوط الله الذى بعثنى اليكم لأنزل بكم عقابه ، وأريد منكم النقرة التى باعكم خوارزمشاه اياها فانها لى ومن أصحابى أخذت وهى عندكم (١) »

ولم يفته من بعد ذلك أن يعهد الى حرس نصفه من الأتراك والنصف الآخر من المغول ليقوم على حراسة أعيان المدينة حتى لا يلحق بهم ضرر أو أذى . وظلت الأمور تجرى على هذا الحال حتى ظهر بالمدينة نفر من جند السلطان محمد كانوا مختبئين بها ، فأزعج ظهورهم جنكيز وأمر بالقبض عليهم وتسليمهم له . على أن أهل بخارى كانوا أبعد ما يكون عن أن يلبوا رغبة ذلك الفاتح ، فلم يتستروا عليهم فحسب بل وساندوهم كذلك فى غاراتهم الليلية هى وما كانوا يدبرون من التآمر بالعدو فى السر ، حتى نفد صبر جنكيز آخر الأمر فأمر باشعال النار فى المدينة . ولما كانت أبنية بخارى أغلبها من الخشب ، لم تمض أيام قليلة حتى تحولت كلها الى رماد . اللهم الا بعض مساجد وقصور مبنية بالحجارة ظلت قائمة بين خرائبها . وانقلبت هذه المدينة العامرة الى كومة من الأطلال على زرفشان ، ومع هذا فقـــد ظلت الحامية بالقلعة يقودها كوكخان تدافع عنها فى بسالة جديرة

---

١) ابن الأثير ١٢/٢٣٠ (المترجم) .

بالاعجاب . وعمد المغول الى استخدام كافة الوسائل الممكنة لاخضاع ملاذ أعدائهم الأخير هذا ، حتى دفعوا بالبخاريين أنفسهم الى تسلق سلالم الأسوار ، ولكن لم يجدهم ذلك كله فتيلا . ولم تسقط القلعة الا بعد أن امتلأ الخندق المحيط بها بجيف الرجال والدواب . هنالك سيق المدافعون الأبطال الى الموت . وتعرض السكان المسالمون بدورهم الى البلاء بسبب هذه المقاومة الفذة ، فقتل منهم ثلاثون ألفا واسترق من بقى منهم ، خاصتهم وعامتهم على السواء ، الا الطاعنين فى السن منهم . وهكذا انتهى حال أهل بخارى الى أحط درجات البؤس والشقاء وفرقوا فى الأرض وهم الذين ذاع صيتهم زمنا طويلا بما كانوا عليه من كلف بالثقافة وشغف بالفنون ، وما شاع عنهم من مكارم الأخلاق . وأفلتت قلة قليلة من السكان من هذا الخراب الشامل . وبلغ واحد من هؤلاء فى فراره خراسان ، وحين سأله الناس هناك عما صار اليه أمر مدينته أجابهم عن ذلك بأن أنشد ذلك البيت البليغ من الشعر الفارسى الذى اشتهر من ذلك الوقت :

آمدند وكندند (١) وسوختند
وكشتند وبردند ورفتند

قدموا فدمروا وحرقوا

وقتلوا ونهبوا ثم رحلوا

ويصف ابن الأثير هذا الحال فيقول :

« كان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان ، وتفرقوا كل أيدى سبا وتمزقوا كل ممزق ، واقتسموا النساء أيضا ، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس ، وارتكبوا

---

(١) ذكر هامر بورجشال فى كتابه عن تاريخ القبيلة الذهبية ص ٨٠ «كندن» بمعنى أن يحفر أو يقطع وبمعنى خندق كذلك .

وهذا صحيح . ولكنه يأتى كذلك بمعنى أن يخرب وأن يهدم وهو المعنى المقصود هنا

من النساء العظيم والناس ينظرون ويبكون ولا يستطيعون أن يدفعوا شيئا مما نزل بهم . فمنهم من لم يرض بذلك فقاتل حتى قتل ، وممن فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين الامام ركن الدين امام زاده وولده والقاضى صدر الدين خان ، ومن استسلم أخذ أسيرا » (١)

وجاء الدور بعد بخارى على سمرقند أكبر مدن بلاد ما وراء النهر وأعظمها فى عهد الخوارزميين . وكان أمير خوارزم قد ترك عليها ، قبل أن يفر منها حامية قوامها عشرة ومائة ألف مقاتل منهم ستون ألفا من الترك وخمسون ألفا من التاجيك مع عشرين من الفيلة . وكان جنكيز يعلم هذه التفصيلات بالدقة . بل لقد كان فى حسابه حتى قبل أن يغادر أترار أنه قد يخوض حربا شديدة فى سبيل الاستيلاء على حاضرة عدوه السابقة . وعلى هذا فقد رتب خطته على أن تلتقى كل قواته المتفرقة فتتجمع عند سمرقند ، فبدأ على ذلك باخضاع كل المناطق المحيطة بها اخضاعا تاما ليعزل بذلك خصومه الأقوياء فيها ويضعفهم . ولاقت خطته هذه كل نجاح . فقد جد فى السير ومعه أسرى البخاريين ، وكان قد اعتزم أن يستخدمهم فى اجتياح سمرقند . ومن لم يستطع من هؤلاء الأسرى أن يداوم على سيره السريع فسقط على قارعة الطريق من فرط الانهاك كان يقتل لساعته دون رحمة أو شفقة . وحين بلغ ظاهر حاضرة الخوارزميين الفخمة ، وجد جنده من حوله فى كثرة بالغة حتى سير منهم ثلاثين ألفا بقيادة تهبه وسوتتاى ليطاردوا السلطان محمدا .

ولم يستطع حصن المدينة أن يصبر على المقاومة أكثر من أيام ثلاثة سقط من بعدها . وكان فى حساب جنكيز أنه لن يخضع له قبل بضع سنين . فقد برزت الحامية المجيدة أول الأمر يقودها القائدان الشجاعان الب خان وشيخ خان برلاس خان فأنزلت بالمغول خسائر كبيرة ، حتى اضطلع جنكيز بنفسه بالقيادة فى اليوم الثالث وهاجم المدينة على رأس جنوده . وسرعان ما نجح المغول فى الاستيلاء على أبوابها . ولقد اندفع

(١) ابن الاثير ١٢/٢٣٩ ، ٢٤٠ (المترجم)

الخورازميون يحاربون في اليوم الثاني في بطولة وتحمس زائدين حتى شاعت الفرقة بين قادتهم قرب المساء ، اذ قال فريق منهم بالتسليم وأوفدوا في ذلك فعلا الى جنكيز شيخ الاسلام وبصحبته عدد كبير من الشيوخ يسألونه أن يعفو عنهم ، في حين ارتد الفريق الآخر الى القلعة وواصلوا القتال في اليوم التالي .

وعلى أي فقد استطاع المغول أن ينفذوا الى المدينة بطريق بوابة نمازكياه فأخرجوا منها أهلها حتى ينصرفوا الى نهبها دون أن يتعرض لهم أحد . ولم يعف من هذه الغارة الأولى الا شيخ الاسلام وخمسون ألفا من المدنيين ممن شملتهم حماية الغازي المغولي . واستمرت القلعة على دفاعها تستنفد جهود المحاصرين ، حتى اذا ما لاح لألب خان اقتراب المعركة من نهايتها برز في جرأة مع ما يقرب من ألف من أبطاله فشقوا طريقهم وسط صفوف المغول . ولم يستسلم من الحامية الا القنغليون وفريق من الترك كان المغول قد وعدوهم بالعفو عنهم ان هم فعلوا ذلك بوصفهم من بني جلدتهم .

وأراد المغول أن يؤكدوا لهم ما وعدوهم به فحلقوا لهم رءوسهم على رسمهم . حتى اذا ما أقبل المساء قتلوا منهم ثلاثين ألفا وفيهم أمراؤهم أولوق باريشمس وبغان وسرسك خان مع عشرين قائدا آخرين . ووقع ذلك كله في ليلة واحدة . وسويت مدينة سمرقند العامرة وحصنها كذلك بالأرض ، كما جرد الأهلون بدورهم من كل ما يملكون ليلاقوا من بعد ذلك نفس المصير الذي لاقاه اخوانهم البخاريون من قبل . ومن استطاع منهم أن يهرب أعيد الى المدينة من جديد على وعود كاذبة . وأرغم القادرون منهم على حمل السلاح على الانضمام الى الجيش المغولي قسرا . وسير مهرة البستانيين من أهلها الى الشرق الأقصى ليزينوا عاصمة المغول الصينيين المستقبلة بمتنزهات على نمط مغاني سمرقند .

أما مهرة الصناع ، لا سيما نساجو الحرير والقطن منهم ، فقد ألحقوا بخدمة زوجات جنكيز وأقربائه ، بوصفهم أرقاء نافعين ، أو سيروا مع الخان المغولي نفسه الى خراسان . ومنهم من أرسل كذلك الى جغتاي

وأوكتاى ، ولدى جنكيز ، وكانا اذ ذاك فى طريقهما الى خوارزم ، هذا هو ما صار اليه أمر سمرقند عام ٦١٨/١٢٢١ وهى التى وصفها الجغرافيون العرب بأنها كانت أعظم بقاع الأرض تألقا وازدهارا .

هكذا خضعت بلاد ما وراء النهر كلها لجنكيز الا مواضع قليلة عند الجنوب من سمرقند خرج بنفسه لاحتلالها بعد أن أراح جنده بعض الوقت وأطلق خيله لترعى فى مراعى وادى زرفشان الغنية بعد سيرها الطويل المضنى . فقصد أولا نخشب (قارشى) ففتحت له أبوابها فاتخذها مركزا لقيادته فى الصيف ، ثم تقدم منها الى ترمذ حيث أقيم على جيحون المعبر للمسافرين صوب الجنوب الى بلخ والى الهند . وفى هذا المكان كانت تقوم تحصينات قوية ترتكز على نهر جيحون اعتمد عليها أهله فى مقاومة عدوهم وان لم يستطيعوا بطبيعة الحال أن يصمدوا أمام أولئك المغول الذين أخذ منهم الزهو والحماس مأخذه بما أحرزوه من نصر وما أخضعوه من أكثر من حصن واحد حصين (١) .

وحين اجتيحت المدينة وأحصى آهلها جميعا ، فرقوا من بعد ذلك بين الجند ليتولوا قتلهم جميعا . ويروى الجوينى أن سيدة توسلت الى الجندى الموكل بقتلها أن يطلق سراحها نظير جوهرة كبيرة كانت قد ابتلعتها . هنالك عمد المغولى الى شق جوفها بدلا من اطلاق سراحها . وحين بان له صدق قولها صدرت الأوامر على الفور بشق أجواف الموتى بحثا عما عساه يكون بها من الجواهر .

ولم يبق بعد سقوط ترمذ الا مناطق قنغرات وسامان(٢) فاجتاحها المغول بالحديد والنار ، لينطلقوا من بعد ذلك الى البلاد التى تقع عند مشارف جيحون وسيحون ، وكانت تعتبر اذ ذاك الثغور الأمامية التى

---

(١) حفظ التاريخ لنا هذه الاسماء فى بيان الضحايا الذى حواه تقرير جنكيز عن انتصاراته . وهو الذى بعث به الى ركن الدين ابن السلطان محمد ونائبه على العراق ليخيفه بتفصيل ما أحرزه الجيش المغولى من الانتصارات

(٢) تضم هذه منطقة شهرسبز أوكش وكان بها حصن سام أحد مراكز ثورة المقنع .

كانت تدفع عن حضارة الاسلام فى آسيا غارات البرابرة . وقد تعرضت هذه بدورها للدمار الكامل على أيدى هؤلاء الغزاة . وبهذا أصبح هـذا العدو البربرى المتعصب المتعطش للدماء قادرا على أن يمضى فى طريق التخريب الذى كان يضطلع به وما من أحد يجسر على اعتراض طريقه . وليس من موضوعنا أن نتحدث عما ارتكبه المغول من الجرائم البشعة فى بلخ ، كعبة الزرداشتيين القديمة، (وكان بها مائتان وألف مسجد ، وكانت تدعى قبة الاسلام) وما ركنوا اليه من العنف فى اخضاع طالقان وهراة ، مدينة مرور الرود التجارية الكبرى ، ومرو وما كان بها من مـدارس جميلة البناء ، وما فعلوه بنيسابور ، وما ارتكبـوه من جرائم عديدة بمدينة الرى الضخمة وفى شيراز وأصفهان ، فهذا كله لا يتصل بتاريخ بخارى الخاص . ولهذا فنحن لا نتعـرض له وننصرف عنه لنرى كيف انتهى أمر الأمراء الخوارزميين ، ونستعرض من بعد ذلك ما نجم عن ظهور جنكيز وأهم أسباب نجاحه .

كان السلطان قطب الدين محمد قد انطلق عائدا الى خراسان ، وذلك عقب أن أصدر أوامره بمقتل التجار الذين كانوا يستمتعون بحماية المغول لهم . وأسكره ما حققه فى حكمه الطويل من النجاح فانصرف الى الملاذ نشـطا فى غير تبصر بالعواقب ، وأخذ يمضى أوقاته فى اللهـو واقامة المآدب ، الى أن بلغ بخارى فى الثامن من شعبان عام ٦١٢/١٢١٨ فأقام مضاربه بين المروج الخضراء ليستمتع الاستمتاع كله بهذا الفصـل من السنة .

لا تدع للآلام الى قلبك سبيلا .
فأنت لابد مغادر الدنيا كرها عن قريب .
فاستمتع بالربيع وبهائه حتى ينقضى
فمن ترابك سوف تنمو الحشائش آخر المطاف (١) .

ورحل من بخارى الى سمرقند حيث بلغته أولى الأنباء عن تحركات.

---

(١) انظر هامر — بورجشتال : صور لعظماء حكام المسلمين
Portraits of Great Moslem Rulers vol VI P, I80.

عدوه ، أى بتقدم الفرق المغولية التى كان يقودها جوجى فى زحفها من أترار الى جند .

وفيما كان فى طريقه الى جند ليقف على جلية الأمر بنفسه علم أن هذا الجيش يسير فى أثره جنكيز نفسه فى قوة كبيرة . ولم يثنه ذلك عن عزمه على مهاجمة الجيش الأول من فوره . وسرعان ما تكشف له ما كان يشاع عن شجاعة عدوه التى لا تقاوم . وبرغم تفوقه على أعدائه فى العدد فانه لم يفلت من الهزيمة الساحقة الا بفضل بطولة ابنه جلال الدين(١) ، فانسحب من بعد ذلك الى سمرقند (٢) هنالك انقلبت ثقته الجارفة السابقة بنفسه الى خور وهلع لما أشاعه هذا الخطر الداهم فى نفسه من الرعب والاضطراب ، فانطلق هاربا عبر جيحون الى خراسان . وأراد أن يستجم أياما قليلة فى مضاربه بوادى نيسابور الحبيب الى قلبه ويستمتع مودعا بالمسرات والمتع التى ظل يكلف بها لسوء حظه حتى وقت المحنة . ولكنه ما كاد يسمع باقتراب القائدين المغوليين جبه وسوتتاى من مكانه حتى غادره من فوره . وبرغم مطاردتهما له فى عنف فقد استطاع أن يفر الى آبسكون التى تقع قريبا من استراباد الحالية وذلك بطريق الرى وجبال مازندران الوعرة . ومن هناك سار الى جزيرة فى بحر الخزر (٣)(يحتمل أن تكون هى جزيرة أوغرتشالى) . ولئن كان قد أفلت من انتقام عدوه

---

(١) ويلقب بمنكوبردى أى مبعوث السماء . وقد اخطأ المستشرقون فى تسميته منكبرتى ، وعلى هذا قال هامر برجشتال بأن معناه « أفطس الأنف » وذلك نقلا عن معجم جغتائى لفضل الله خان طبع بالهند فالمقطع الأول منه يفسره الكتاب نفسه على أنه مرض يصيب الأنف ومنخار الخيل بعبارة أدق . وعلى هذا ينتهى لقب هذا الأمير الخوارزمى المشهور الى معنى غير شاعرى هو «من يسيل المخاط من أنفه» وذلك على ماذهب اليه أسلافى .

(٢) يقال انه ركب ذات يوم الى خندق سمرقند فانتقد طريقة العمل فيه وقال للعمال «لو أن التتار قذفوا فيه بسياطهم فحسب لردموه بها» هامر : عظماء حكام المسلمين ص ١٨٠

(٣) يذكر الكثيرون أن الجزيرة التى لجأ السلطان محمد اليها تقع قرب الشاطىء الايسر لبحر الخزر ولكنى ارجح فى هذا مخطوط مسالك الممالك الجغرافى القديم • ووفق الخريطة الملحقة به فان آبسكون تقع على مقربه من استراباد الحالية وبهذا تكون الجزيرة المعنية هى أغوردجالى أوجيركن الحالية

البربرى الا أن الحزن كان قد ركبه لما أصاب أسرته اذ كان أفرادها جميعا قد وقعوا فى أيدى المغول .

ومات فى الثانى والعشرين من ذى القعدة عام ٦١٧/١٢٢٧ فقيرا شريدا حتى لم يجدوا ما يكفنونه به الا ثوبه الذى كان يرتديه . وكان قد اختار افلاق شاه وريثا له وكان يقوم اذ ذاك على حكومة خوارزم ، ثم ما لبث أن عدل عن ذلك وجعل ولاية العهد من بعده لابنه جلال الدين . ووجد جلال الدين أنه ليس له ما يرثه ، فيما عدا الصولجان ، الا السيف . فحمله يدافع به عن نفسه فى مقاومة باسلة . فارتد عن خوارزم وهراة وغزنة ، وجمع له قوات جديدة من بعد ذلك استطاع بها أن يوقع بالمغول خسائر جسمية فى موقعتين موفقتين ، فأثار بذلك من قلق جنكيز وسخطه وكان اذ ذاك مشتغلا بحصار طالقان . هنالك اندفع الزعيم المغولى الى غزنة بطريق باميان وكابل فى عجلة زائدة حتى لم يتح لجنوده فسحة من الوقت ليطبخوا طعامهم .

وبرغم جده فى السير على هذه الصورة فقد بلغ المكان لينبأ عند ذلك بأن جلال الدين قد غادره الى ضفاف السند لأربعة عشر يوما خلت . ومن ثم تابع المغول سيرهم عجلين حتى أدركوا الأمير الشريد فحملوا عليه فى عنف بالغ. هنالك دافع جلال الدين عن نفسه بشجاعته المعهودةفانطلق فى ضراوة الأسد ينقض تارة على جناح عدوه الأيمن وطورا على جناحه الأيسر أو على قلب جيشه حتى تمكنوا منه آخر الأمر فحاصروه فى ركن من أركان الميدان . وقتل من تحته فرسان فوثب على ثالث قفز به فى ماء السند من علو يزيد على ثلاثين قدما وبلغ الشاطىء الآخر من النهر فى سلام . وأراد المغول أن ينطلقوا وراءه بعد ما رأوا فعلته الجريئة هذه ، ولكن جنكيز منعهم من ذلك . وبلغ به العجب والاعجاب بشجاعة عدوه مبلغه حتى التفت الى أولاده وقال لهم « ان أبا مثل أبيه (أى السلطان محمد ، وكان جنكيز يكن له قدرا كبيرا من الاعجاب) لجدير بمثل هذا الابن » . وغلب أتباع جلال الدين على أمرهم . وجىء بالغطاسين فاستخرجوا متاع السلطان من الماء وكان قد قذف به فى السند ، كما

جيبيء بكل أفراد أسرته أمام الغازى القاسى الذى أمر بكل الذكور من بينهم فقتلوا حتى الأطفال الذكور قتلوا فى حجور أمهاتهم . وهكذا انتهى فى عام ٦١٨/١٢٢١ حكم آخر الخوارزميين (١) . وبه ختم عهد أسرة حكمت ما يقرب من مائة وأربعين عاما فى عظمة وقوة تضارع ماكان عليه السلاجقة . وعاد جنكيز من بعد ذلك الى بلاد ما وراء النهر ، ثم اتجه من هناك الى موطنه بعد اقامة قصيرة بسمرقند ، فعقد القورلتاى (٢) عام ٦٢١/١٢٢٤ وفيه قسم مملكته الجبارة بين أبنائه على الوجه الآتى :

صارت الصين ومنغوليا من نصيب أوكتاى ، وهو الذى رسمه أبوه خليفة له . فى حين كان من نصيب جغتاى قسم من منازل الأويغور حتى خوارزم ، بما فى ذلك تركستان وبلاد ما وراء النهر . أما جوجى فكان قد مات فى ذلك الوقت ، وبذلك صار باتو سيدا على خوارزم وصحراء القبجاق عند ممر دربند ، فى حين نصب تولى على خراسان وبلاد فارس والهند . وبرغم بلوغ جنكيز السبعين من عمره فقد خرج مرة أخرى لحرب قبيلة تنغوت ، وكانت قد ثارت عليه ، ولكنه مات أثناء هذه الحملة عام ٦٢٤/١٢٢٦ بعد أن ترك من ورائه بكل آسيا آثار النار والحديد التى أشاع بها ، بشغفه بالحرب ، الدمار الشامل فى كل القارة كلها . وتمثلت أبشع صورها فى بلاد ما وراء النهر حيث قضى على حضارة أجيال ، وصار أهلها الى همجية موغلة أنسوا معها ماضيهم السابق وضاع بها كل أمل لهم فى المستقبل . ولم يتعرض أى جزء من أجزاء آسيا كلها لما تعرضت له الأقاليم الواقعة على جيحون وسيحون من القسوة والعنف بسبب غارات جموع المغول عليها . فحروب أبناء الصحراء المتوحشين هؤلاء الأولى كانت حروبا مدمرة ، ولا سيما ما كان منها عند خجندة وبخارى

---

(١) أعنى بذلك نهاية حكم الخوارزميين ببلاد ماوراء النهر . ذلك ان جلال الدين كانت له أيام زاهرة بايران ، فقد فتح كل الجزء الجنوبى من فارس مع آذربيجان وانتزع اغلب سوريا من السلاجقة . ولكن شجاعته تضاءلت آخر أيامه على غرار ما حدث لأبيه من قبل ، وانصرف الى الملذات حتى سقط تحت رماح المغول الذين كان قد سيرهم منكوخان لغزو ايران بقيادة جرماغوم .

(٢) هو مجلس شورى المغول (المترجم)

وسمرقند . اذ كانت هذه هي أول مواقع يتصلون فيها بطرق التجارة والرخاء الزراعي التي أثارت جشعهم فتسابقوا يشبعون غريزة السلب والنهب التي كانوا عليها . وكانت بلاد ما وراء النهر ، الى جانب ذلك كله ، هي المنفذ الذي تدفقت منه سيول المغول ، فيما بعد صوب الفولجا والفرات والسند والخليج الفارسي . فلا عجب اذن أن نرى ، في مدى خمس سنوات من هذه الحروب ، طرق آسيا العظيمة ، التي كانت بواسطتها تنقل حاصلات الصين والهند الى آسيا الغربية وأوربا ، وقد هجرت ، وأن الواحات التي اشتهرت بخصبها قد باتت جرداء مهملة أو نرى آخر الأمر أن تجارة الأسلحة والجواهر والحرير ونقوش الميناء ، التي كان صيتها يذيع في العالم الاسلامي ، قد انهارت الى الأبد . فالبلدان خيم الخراب عليهما ، والفلاحون كانوا قد قتلوا جميعا أو أرغموا على الانضمام الى الجيش المغولي قسرا ، والصناع قد سيقوا بالألوف ليقوموا على تزيين موطن الغازي وتجميله بالشرق الأقصى . ولم يكن ما أصاب العلم في هذا الدمار الذي نزل بآسيا الوسطى دون ذلك كله . وهناك مثل عربي من أمثال القرون الوسطى يقول ان العلم شجرة جذورها بمكة ولكن ثمرها يؤتى بخراسان . وقياس ذلك على حاضر هذه البلاد اليوم قد يثير منا العجب ، ولكن علينا ألا ننسى أن الفترة التي بلغت فيها الحضارة الإسلامية الآسيوية أوجها من الازدهار ، وكان ذلك بالضبط في نفس القرن الذي وقع فيه الغزو المغولي ، كان لبلاد ما وراء النهر فيها دور ملحوظ . فسمرقند وبخارى وجرجان طالما نافست نيسابور (أهم مراكز الثقافة الايرانية) ومرو (التي طارت شهرة مدارسها في الآفاق) ، منافسة مجيدة في هذا المضمار ، وفي أوقات كثيرة كان لها القدح المعلى في علوم البلاغة وفي النحو والشعر والطب .

لقد قضى الغزو المغولي بكل أسف على الحياة الثقافية في آسيا الوسطى . وبرغم أن بلاد ايران والغرب استطاعت بالتدريج أن تفيق مما نزل بها من المصائب ، بل وأن تعاود كذلك نهضتها الثقافية من جديد في ظل الجنكيزيين ، الا أن سمرقند وبخارى لم يتيسر لهما أبدا أن تستعيد سابق نشاطهما العقلي ، وصارت الحياة الفكرية فيهما وقفا على الاشتغال

بالفقه والتصوف والبدع . ومرد ذلك بالدرجة الأولى الى أن المغول كانوا قد قضوا على السكان الايرانيين الأصليين فى هذه البلدان ، فكان فى صنيعهم هذا القضاء على رواد الحضـارة والتجارة والصناعة ، فى حين أطلق العنان للترك بلا رقيب أو حسيب . هذا وقد لبثت اللغة القومية لعهد السلاجقة فارسية خالصة فى بعض البلاد التركية الخالصة مثل خيوة الحالية وخوقند . وقد يكون برابرة الترك الذين قدموا من الصحراء الى هذه المدن ، قد أفلحوا بعض الوقت أن يزلزلوا بالتدريج من استمساك السكان بقوميتهم . على أنه من المؤكد دون شبهة أن الغزو المغولى قد عجل فى القضاء على هذه القومية الى أبعد حد ، وكان هو كذلك العامل الأكبر فى اندثار النفوذ الايرانى ببلاد ما وراء النهر ، وهو أمر ينظر اليه على أنه أخطر ما أنزل جنكيز بأقاليم جيحون من الأضرار .

وما بلغه ذلك الفاتح المغولى من النجاح انما يرد بلا مراء الى ما كان له هو نفسه من القدرات ، وما كان عليه رهطه من نظام اجتماعى ، أكثر مما يرد الى ما كانت عليه الأحوال السياسية واختلاف الأجناس اذ ذاك بآسيا الاسلامية بعامة وببلاد ما وراء النهر بخاصة وقتئذ . أما الأمراء الأول ، فبـرغم ما اتهم به المؤرخون المسـلمون المعاصرون ، اذ ذاك ، جنكيز من مبالغته فى استعمال القسوة وكلفه بالتخريب والتدمير ، فمما لا ينكر أنهذا الغازى المغولى لم تكن له صفات الجندى الكبير فحسب، بل وكانت له كذلك مواهب الفاتح والمشرع بأدق معانى هذه الكلمة . فبتشريعه الياصا (مجموعة القوانين) اسـتطاع أن يقيم له نظاما جربيا مكينا لم يكـن له نظير بآسيا الاسلامية حينـذاك ، وأن يقضى به على الاضطراب الذى كان يسود حكومة الأمراء الخوارزميين ، وينادى بقيام المسـاواة بين الناس جميعا ، بصرف النظـر عن اختـلاف عقـائدهم وطبقاتهم ، الأمر الذى أكسبه محبة الناس أكثر مما رأى المؤرخون أن يشيروا اليه . ويقول الجـوينى ان جنكيز قد جعل فدية المسلم أربعين مثقال من الذهب وفدية الصينى ثمن حمار واحد فقط ، فى حين تقـول مصادر أخرى بعكس ذلك تماما ، فتؤكد أنه وخلفاءه قد جروا على عدم التفرقة اطلاقا بين المسيحيين والمسلمين والبوذيين . وقد اختار جنـكيز

كثيرا من المسلمين حكاما له ببلاد ما وراء النهر وخراسان ، وعهد الى كثير من البـوذيين بأعمال ديوانه ، ونعلم كذلك أن حفيده قوبلاى قد بعث بالنصرانى الأجنبى ، ماركوبولو ، فى سـفارة خاصة له من داخل الصين الى كرمان .

أما عن أحوال المغول الاجتماعية فان قارىء التواريخ الشرقيـة سوف يصدم بتكرار وصف المغول بأنهم همج أجلاف ورجال حرب «هم قوم يغلب عليهم البكاء فى أعيادهم ويغمرهم السرور فى حروبهم . يطيعون قادتهم طاعة عمياء ، ولا يضجرهم البرد أو الجوع ، ولا يعرفون الراحة أو اللهو ، بل و ليس لهم من لسانهم من الكلمات ما يكفى ليعبروا به عما يريدون . وهم يعدون سلاحهم بأيديهم ويحملونه ، تجمعهم نفس واحدة وروح واحدة ، لا يهتمون بالطعام أو الثياب ، ولا تعرف الرحمة طريقها الى قلوبهم فلا يتورعون عن انتزاع الطفل ، الذى لم يولد بعد ، من بطن أمه . ويعبرون المياه العميقة بمساعدة مثان يملأونها بالهواء أو يمسكون بمعارف خيولهم وذيولها وهى تسبح .. الخ .. » . ولئن كان لنا أن نفترض بأن مجريات الأحوال ببلاد ما وراء النهر نفسها لم تكن تبعد كثيرا عن تلك التفصيلات التى سبق ذكرها ، الا أنه يبـدو من المحقق أن سكان المدن الايرانيين ومعهم رجال الحرب من أهل هـذه البلاد ، لم يكونوا على ضعف شديد ورخاوة بالقياس الى المغول فحسب بل ولا قبل لهم كذلك بمقاومتهم على الاطلاق . يضاف الى ذلك أن الترك ، وهم الذين لم يكونوا أبدا على استعداد للائتلاف مع الايرانيين فى اخلاص ، وكانوا أهم جند السلطان محمد كذلك ، كانوا يضيقون باستبداد آخر الخوارزميين بهم من ناحية ، فضلا عما كانوا عليه من ميل فطرى الى السلب والنهب ، من ناحية ثانية ، مع تأصل مشاعر العشيرة فى نفوسهم من ناحية ثالثة . وهذه العوامل كلها مجتمعة قد استحثتهم فى مواضـع مختلفة للانضمام الى جنكيز ، فانضموا الى صفوف العدو الغازى حلفاء مخلصين بدلا من أن يحاربوه . فلا عجب اذن ، والحالة هـذه ، أن كانت انتصارات الفاتح العظيم باهرة حاسـمة فى اقليم بلاد ما وراء النهـر الذى كان يسـوده الانقسامات والفتن .

الفصل التاسع
الجنكيزيون

٦٢٤ (١٢٢٦) – ٧٦٥ (١٣٦٣)

ان الصورة التى يضعها التـاريخ تحت نظر القارىء للقرنين اللذين حكم فيهما الجنكيزيون بلاد ما وراء النهر لتصور منظرا ملطخا بالدماء يثير الرعب فى النفوس . فهى تاريخ فوضى شاملة عاصفة وافراط فى الظلم والبغى بلا حدود ، وقتل وتدمير على التوالى ، برغم أن ما بقى لدينا من تاريخ هذه الفظائع قليل (١) ، وذلك لعـدم وجود مدونات بين أيدينا لتاريخ بلاد ما وراء النهر (٢) اذ ذاك . فلا معدى لنا والحالة هذه من أن نقنع بشأن المعلومات الخاصة بهـذه الفترة بما يمكن أن نستخلصه من مدونات المغول فى الصين وفارس .

فى عهـد جنـكيز فصلت بخارى وسـمرقند ، هاتين « الدرتين الغاليتين » فى العالم الاسلامى الغربى ، عن جيرانهما فى الجنوب العربى ، وهما اللذان يرتبطان معهم برابطة الدم والثقافة والعقيدة ، وألحقتا قسرا

---

(١) يقول آبل ريزومات بحق فى كتابه « ملاحظات على تاريخ المغـول الشرقيين لزتزن .
Abel Resumat "Observations sur l'Histoire de Mongoles. Orientaux de Sannangsetzen" Paris Imprim. roy. 1852 p. 12
لم تصل أيدينا بعد الى ما قد نأمل معه معرفة شيء عن تاريخ أسرة جغتاى وابناء جوجى ، ذلك ان مايروى عنهم ، هو ليس مما كتبه مؤرخون يوثـق بهم وما وصلنا من الأحاديث عنهم مضطرب مشوش .

(٢) يذكر هامر — يورجشتال من بين مراجع كتابه عن تاريخ القبيلة الذهبية ، كتابا فارسيا باسم تاريخ تركستان ، ولكنى لم أستطع أن أعثر عليه أبدا .

بذلك القسم من الدولة المغولية الذى اشتهر باسم « خانية جغتاى » والذى قال عنه البعض انه كان يضم كل مناطق الأويغور ، فى حين قال فريق آخر عنه انه كان يضم الاقليم الواقع بين جبال التاى وآموى على جيحون ويحوى خليطا من السكان تجمعهم الهمجية فى صعيد واحد . وكان جغتاى ، ثانى أبناء جنكيز وهو الذى حكمت أسرته بلاد ما وراء النهر حتى ظهور تيمورلنك ، فيما عدا فترة قصيرة ، يعد أقدر فقيه فى التشريعات التى وضعها أبوه . وأبدى هذا الأمير المغولى ميله الى أن يضمد جراح هذا الاقليم التى كانت تقطر دما ، فنظم البريد بين هذه الولاية التى ألحقت بملكه ومصطاده فى الممالك حتى يقف بنفسه على كل شأن من شئون حكومتها . وبرغم كلفه بالشراب، وهى العادة التى تفشت فى الغالب بين خلفاء جنكيز ، يقال انه كان يطلع بنفسه على كل أمر صغير أو كبير من أمور دولته . وكان عادلا مستقيما فى حكمه(١) ، التزم أساسا قيام المساواة التامة بين أصحاب العقائد المختلفة والعروق المتباينة فى دولته ، ونظر اليهم جميعا نظرة واحدة ، فعهد بحكومة بلاد ما وراء النهر الى مسلم هو مسعود بك وهو ابن محمود يلواج الذى اضطلع بدوره بمنصب شبيه بذلك فى الصين . وربط جغتاى كذلك ضريبة الرءوس على سبع فئات (٢) وفق ثراء كل شخص ، وأعفى منها رجال الدين على اختلاف

---

(١) ما يقوله أغلب العلماء الأوربيين ، وقد تبعتهم بدورى فى ذلك فى بحثى فى الدراسات الجغتائية Tchaghataian Studies بأن سكان آسيا الوسطى أطلقوا على لهجتهم القومية اسم «جغتاى» لفرط حبهم واجلالهم لابن جنكيز، يبدو أنه أخطأ. ففى المحل الاول ان أهل آسيا الوسطى انفسهم لم يطلقوا اسم جغتاى لاعلى بلادهم ولا على لغتهم ، وانما كان ذلك من صنع الفرس الذين كانوا يسكنون على شاطىء سيحون اى بايران . أما سكان بلاد جغتاى انفسهم فكانوا يطلقون على بلادهم اسم تركستان ، وعلى لغتهم « التركية » ثم ان جغتاى كان مكروها من المسلمين .. باستمساكه الشديد بالياصا وتعصبه للبوذية ، ففى عصره حرم قتل الحيوانات المستأنسة والاستحمام فى الماء الجارى نهارا وجعل القتل عقوبة من يقدم على ذلك ، وقد شق ذلك على المسلمين اذ كان يعوقهم عن اقامة شعائرهم .

(٢) تبعت فى ذلك قول هامر . أما الجوينى فيقول ان محمود يلواج ربطها ببلاد ماوراء النهر على عشر فئات فى حين يقول دوهسون D'ohsson بأنها كانت على خمس عشرة فئة .

عقائدهم (١) . وأخذ الفلاحون والصناع يعودون بالتدريج الى مزاولة حرفهم وكانوا من قبل قد عمدوا الى الاختفاء هربا من أهوال الحرب . ولئن كان من الصعب أن نجزم بأن جهاز المغول ، من عمال الدولة ، فى سيطرته على مختلف البلدان قد روعى فى اختياره ما يكفل استعادة الثقة الى نفوس الناس ، الا أننا نستطيع أن نقول ان الأحوال ما لبثت ببخارى أن عادت الى سيرها الطبيعى على كل حال .

وأول حكام المغول فى بخارى كان بغابوشا ، وأولهم بسمرقند ، كان جنغ — سان تايفو . ويقال ان خرائب بخارى سرعان ما حل محلها منشآت جديدة ، بل لم يأت عام ٦٣٢/١٢٣٤ ، ولما يمض خمسة عشر عاما على تخريب المكان ، حتى كانت المدرستان اللتان أقامهما مسعود بك وسرقونى بك تزدحمان بألوف الطلبة يدرسون فيهما مختلف صنوف المعرفة . وكان مسعود بك هذا موضع ثقة چغتاى ، وكان ، على اسلامه ، مخلصا للمغول بدوره كل الاخلاص . وكان له وزير يدعى هجير . ولا شك أن حكومته كانت تضمر الخير كله لبـلاد ما وراء النهر ، وان لم تفد من ذلك شيئا بالفعل . وكانت أيام خلفائه كلها حروب متواصلة . أما عهده هو فكان عهد سلام متصل لولا ما اعترضه من فتنة اضطلع بها دعى دينى نتعرض لسيرته فى شىء من التفصيل .

فى عام ٦٣٠/١٢٣٢ ظهر فجأة بقرية تاراب ، على مسيرة ثلاثة فراسخ من بخارى صانع غرابيل يدعى محمود (٢) عرف بضعف الادراك والبلاهة ، فادعى أن الجان والأرواح توحى اليه ، وأنه ذو قوة علوية خـارقة . ويقول الجوينى فى هذا ان النساء كن يشتغلن بالسحر بتركستان وبلاد ما

---

(١) قيل ان اليهود قد استثنوا من هذا الاعفاء . ويبدو أن هذا القول هو من وضع المؤرخين المسلمين الذين كانوا يكنون لليهود كراهية شديدة . اذ يبدو بجلاء على الدوام ان حكام المغول بفارس والصين التزموا قيام المساواة التامة فى المسائل الدينية .

(٢) يشتهر فى كتب التاريخ كذلك باسم محمـود التارابى — حبيب السير لخواندمير ثالث — تهران ١٣٣٣ شمسى صفحات ٧٨، ٧٩ (المترجم)

وراء النهر منذ زمن موغل فى القدم ، فكانت الساحرات يدعين علاج المرضى ويمارسن الرقية والتعاويذ بدعـوى أنها تطرد الأمراض . وظهر محمود كواحد من السـحرة ، فأفضى بسره بادىء الأمر الى أخته التى انطلقت بدورها تذيع على الملأ أمر قـوته حتى كان الناس يحملون اليه زرافات من أماكن بعيدة كثيرة . ويقول مصدرنا انه رد البصر الى الأعمى بأن نفخ التراب فى عينيه . وما لبثت شهرته أن طارت من تاراب حتى بلغت العاصـمة ، وزاد من ذيوع شهرته أن قام أحـد الشيوخ ويدعى شمس الدين ، وكان له قدر من الاعتبار ، فقال ان أباه (وكان من العلماء المشهورين) قد ترك ورقة فيها أن المهدى المنتظر سوف يظهر فى تاراب وقد زاد ذلك فى وهم هذا الدعى زيادة كبيرة . وسرعان ما وجد صانع الغرابيل المتعصب هذا نفسه وقد أصبح على رأس حزب كبير ليس عليه الا أن يأمره فيثور فى وجه المغول . وأقلقت هذه الحركة الروحية بال حاكم بخارى وغيره من عمال الدولة ، فبعثوا يستشيرون فى ذلك مسعود بك اذ ذاك بخجندة ، وعمدوا فى الوقت نفسه الى دعوة هـذا المتنبى للقدوم الى بخارى ، وحرصـوا فى دعوتهم هـذه على أن يتملقوه حتى قالوا له ان السكان مشوقون لرؤيته والتبرك به . وكانت خطتـهم أن يسقطوا عليه فى بعض الطريق حيث يكون بمعزل عن رهطه ويقتلوه . ولكنهم لم يكادوا يبلغون المكان المرسوم حتى كان محمود قد وقف على نواياهم فى الغالب ، فاسـتدار الى من كانوا قد ندبوا لمرافقتـه منهم وواجههم فى ثبـات بمـا دبروه له وهددهم بأن يصـيبهم بالعمى ان هم حاولوا التعرض له بسـوء .

ولايصعب ادراك مدى تأثير سلوك المتنبىء هذا على المغول ، وهم ممن يعتقدون فى الخرافات الدينية ، فكان أن استقبلوه ببخارى فعـلا استقبالا حافلا وأنزلوه بقصر السلطان سنجر حيث هرع الناس أفواجا ليتطلعوا اليه. وبلغ من فرط ولاء الناس وخضوعهم له أن أخرجوا له ألسنتهم وعرضوا عليه أن يجتثها من منبتها اذا يشاء . وتفاقم خطر هذا الدعى حتى هب الشيوخ يستحثون المغول على الخلاص منه . ولم ييسر الزحام حول مقامه للقوات أن تصل اليه ، فتمكن من الهرب الى تل قريب ، وقد أشيع

عنه أنه طار فى الهواء الى هناك . ولا تعجبن لصدور مثل هذا القول ، فان الانسان حين يتمكن منه مثل هذا الوهم ويتعصب له تراه على استعداد كامل لتصديق كل شيء من هذا الضرب . هنالك أصدر هذا الدعى فى المساء أوامره الى أتباعه بأن يحملوا أسلحتهم ، فقد حان الحين لقتل الكفار . وهكذا وجد نفسه يدخل المدينة من جديد على رأس حشد من أشياعه المتعصبين له كنبى وحاكم معا . فجعل من شمس الدين محمود الذى أشرنا اليه من قبل ، صدرجهان ، أى شيخا للاسلام ، وأباح للناس نهب الأغنياء وحرضهم على ذلك . وأخذ يؤكد لأتباعه فى مبالغة عظيمة ما هو عليه من قوة وعظمة ، وكان هؤلاء يطيعونه طاعة عمياء ، حتى قال لهم « ان جيشى جند خفى لا يرى ، وهو يرابط فى الهواء على الدوام.. انظروا الى أولئك الرجال فى الخضار وهؤلاء فى البياض ، انهم ليفدون الى بمجرد اشارة منى » وحين أخبر أحد الحاضرين بأنه قد شاهدهم فعلا انطلق الجميع عند ذلك يؤمنون على قوله . وادعى هذا المتنبى كذلك أن الأسلحة تصله عن طريق الهواء ، وان كان قد عمد فى الوقت نفسه الى الاستيلاء بالقوة على بضائع لبعض تجار من شيراز كانوا قد دخلوا المدينة ومعهم أربعة حمير محملة بشفرات السيوف . كما أمر يوم الجمعة أن تقام الصلاة وتقرأ الخطبة فيها باسمه ، وصادر فى عنف بالغ أملاك الأثرياء واختص نفسه بأكبر نصيب منها . وكان يقضى وقته فى المجون مع أجمل النساء ، وكانت داره تغص بهن . وما غدا أعيان بخارى ، الذين كانوا قد فروا منها ، أن قدموا الى كرمينية فانضم اليهم بها فرقة من جند المغول وزحفوا جميعا الى بخارى . وخرج اليهم محمود بدوره ومعه غلامه السابق فى صناعة الغرابيل ، وكان كلاهما لا يحمل سلاحا ، فسارا على رأس جموع المتعصبين من أشياعهما ليظهرا للناس ماهما عليه من القداسة والعصمة . وحين أوشك الهجوم عليهم أن يبدأ هبت عاصفة لفت هذا المتنبى وشيعته بسحابة من التراب حجبتهم جميعا عن أنظار أعدائهم. وكان فى وقوع هذا الحادث الكفاية ليرتد المغول على أعقابهم ، وهم الذين كان لهم بالخرافات الدينية اعتقاد قوى ، لينطلق البخاريون عند ذلك فى أثرهم ويتمكنوا من قتل عدد عظيم منهم . وحين عاد هؤلاء على أثر انتصارهم

هذا وجدوا الميدان قد خلا من نبيهم اذ كان قد هلك فى القتال . واتخذ اخوته مكانه من بعده ، ولكن زعامتهم لم تدم الا أسبوعا واحدا . فقد ظهر القائدان المغوليان ايلدر نويان وچنكين قورجى من جديد ومعهما قوة كبيرة أرغما بها هؤلاء المتعصبين على الفرار فى أول لقاء . وأراد هؤلاء المغول الحانقون أن يصبوا جام نقمتهم على بخارى ، للمرة الثانية ، لولا أن نجح مسعود فى أن يمسكهم عن ذلك . فقد ألح عليهم أن يرجئوا هذا الأمر حتى يستأذن فى ذلك الخان الأعظم . وبتوسطه هذا قدر لبخارى ان تنجو من الدمار هذه المرة .

كان هذا هو الحادث الوحيد الذى قطع على بلاد ما وراء النهر حبل هدوئها الحزين بعد الغزو المغولى . ومات أوكتاى خان الدولة المغولية الأعظم عام ٦٣٠/١٢٤١ ، ولحق به بعد فترة قصيرة أخوه الأكبر چغتاى ، ليدب النزاع من بعد ذلك بين المغول حول ارتقاء العرش . وبهذا النزاع جر الچغتائيون على البلاد التى كانوا يتولون أمرها قدرا عظيما من الشقاء وذلك بتحزبهم الشديد من جهة ، وبما كانوا عليه من وحشية وميل شديد الى القتال من جهة أخرى . وترك جغتاى من بعده أسرة كبيرة. وماوصلنا من أسماء أبنائه هو بيسو وبورى وبيدو وبسنبغا ، وكانوا جميعا من بين الحضور بالقرلتاى عند تتويج قيوق . ويبدو أنه لم يكن يميل الى أى واحد منهم ، حتى اختار خلفا له حفيده الصغير قره هولاكو (١) وجعل الوصاية عليه لأرملته ابوسكون . وأول مافعلته هذه السيدة هو أن أمرت بقتل مجد الدين الطبيب وهجير وزير زوجها وكان أثيرا عنده . ولم تلق عليهما فى الحقيقة تبعة موت زوجها الا لتتخلص منهما اذ كانت تخشى أن يقفا فى سبيل اطماعها . واتخذت لها من بعد ذلك وزيرا ومشيرا هو

(١) يذكره هامر بورجشتال ، باسم قره أو غلان ، فى حين يرد فى مخطوط الجوينى الذى اعتمدت عليه باسم قره أولاك . ومن الصعب أن نقرر أى الرسمين هو الأصح . ذلك أنه لما كان ليس بأيدينا اية وثيقة تاريخية مكتوبة بالمغولية تشير اليه ، فلا مندوحة لنا بذلك من أن نرجع الى الكتاب الفرس الذين يكتبون بالعربية ، وهم الذين عانوا كثيرا من المشقة فى كتابة الأسماء المغولية . ويأتى من بعد ذلك صعوبة أخرى ، ذلك أنه حتى حين يبدو أن النقل عن المغولية قد وقع بصورة مرضية ، فان اهمال النساخ من بعد ذلك كثيرا ما أدى الى تحريف هذه الاسماء تحريفا شديدا .

حبش عميد (١) وكان قاسيا طموحا ، ومع هذا فلم تستطع هذه السيدة أن تحتفظ بالعرش الا في فترة الاضطراب التي تلت موت أوكتاي . اذ اغتصب قيوق لنفسه كل ما كان لاوكتاي من نفوذ وأبعد كل خصومه وأولهم جميعا هذه السيدة ابوسكون نفسها ، ونصب بيسو (٢) عام ١٢٤٧/٦٤٥ رئيسا لأسرة چغتاي ، فأشاع الفوضى والاضطراب لا في الممالك فحسب بل وفي الخانية كلها كذلك ، حتى اضطر مسعود بك نفسه الى الهرب من وجهه فلاذ بباتوخان القبچاق . وكان بيسو سكيرا عربيدا ولكنه لحسن حظ رعاياه المسلمين اتخذ له وزيرا وناصحا منهم هو العالم الورع خواجه بهاء الدين المرغلاني الذي يشيد بذكره الجويني ويثني عليه كل الثناء . ومن أسف أن هذا الوزير سرعان ما لقى مصيره على غير انتظار بأيدي غريمه حبش عميد برغم ما كان يبذله له من صنوف المودة . ذلك أنه حين انقضت السنوات الثلاث التي حكم فيها قيوق وأصبح منككو (٣) هو الخان الأعظم رد قره هو لاكو وابوسكون الى منصبيهما السابقين . وعاد حبش عميد الى الوزراة بدوره ، فكان أول ما فعله هو أن ألقى ببهاء الدين ، ذلك الرجل العظيم ، في السجن . وبرغم الالتماس الحار الذي رفعه هذا الوزير الى الأميرة فان حبش عميد أمر به أن يطوى في اللباد ويوطأ بالأقدام ويركل حتى تتهشم عظامه كلها (٤) . ورفض بيسو أن يعترف بسلطان منككو فنتج عن ذلك أن فقد عرشه . وهنالك اجلس منككو حليفه قره هولاكو على العرش الذي كان جده قد أوصى به له ، وأمره في الوقت نفسه أن يقتل غريمه بيسو من فوره . ولم يكن هولاكو

---

(١) وكان أصلا من التجار المسلمين ويدعى قطب الدين ـ بارتولد تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٩٧ ، ١٩٨ (المترجم)

(٢) هكذا ورد عند الجويني في مخطوطه ، وهو مانقلته عنه ، ويذكره دهسون يسو ، ويسوى انظر كذلك Defrémery (Histoire des Khans, Mongols du Turkestan.) Journal Asiatique T. XX 402

(٣) يخطىء هامر ودهسون وغيره من المستشرقين في رسم هذا الاسم ومعناه في الأويغورية ، الخالد . ويتركب من منك = السماء ثم الصفة كو . وهو في العربية مقابل «باق»

(٤) حين رأى ابواب النجاة من نقمة خصمه تسد في وجهه وجه اليه بضعة سطور صب عليه فيها اللعنات .

ليتردد في تنفيذ ذلك لو لم يفاجئه هو نفسه الموت قبل ذلك . وبموته قبض على زمام الأمور في خانية چغتاى آرملته أورغنه التى تمكنت من قتل غريم زوجها السابق ، وحكمت هناك حكما سعيدا دام عشر سنوات .

كانت أورغنه واحدة من بين زينات المغول الثلاث اللائى يقول عنهن وصاف : انهن ثلاث آيات فى الجمال واللطف والكياسة والعظمة ، وليس لهن نظير بين المغول فى ابداع الخلقة على أحسن الصور (١) . وكن اخوات لبعض أمراء المغول فى بلاد القبيجاق وفارس وبلاد ماوراء النهر وزوجات لآخرين منهم .

كان ما عانته بلاد ما وراء النهر من محن وما نعمت به من أمن أيام الچغتائيين ، على ما بينا من قبل يتصل أساسا بالظروف التى يتعرض لها العرش الملكى فى الصين بسبب الوراثة . فقد لبثت أورغنه الحكيمة تحكم فى سلام طالما كان منككى على قيد الحياة . حتى اذا ما مات عام ١٢٥٩/٦٥٨ قامت الحرب بين أريق بغا وقوبيلاى وعانت بلاد ما وراء النهر منها معاناة شديدة تبعا لذلك كما جرت العادة . ذلك أن أريق بغا كان قد اختار الكو زعميا لأسرة جغتاى فى حين وقع اختيار قوبيلاى على ابيشكا بن بورى . وبز الكو منافسه آخر الأمر فطرد أورغنه وأرسخ أقدامه فى المالق ، فى حين وقع ابيشكا فى أسر اريك بغا أثناء تحواله باقليم شن سى . وقابل الكو عون نصيره له بأسوأ نكران . ذلك أن اريق بغا حين وجد قوبيلاى يضيق عليه الخناق استنجد بحليفه فى محنته هذه ، لكن الكو رفض طلبه رفضا صريحا فى فتور برغم ما كان تحت امرته من قوات تربو على مائة وخمسين ألف رجل . ولم يكتف بهذا حتى ألقى القبض على عمال اريق بغا الثلاثة الذين كان قد عهد اليهم بجمع المكوس، فصادر ما معهم من الأموال وقتلهم ، ثم انطلق من بعد ذلك يعلن انضمامه الى قوبيلاى . هنالك ثار اريق بغا لخيانة ذلك الذى احتضنه من قبل فانطلق الى حربه غير مكترث بالأخطار التى كانت تتهدده فى ناحية المشرق . وفيما كان فى شغله هذا فى الغرب ، انقض قوبيلاى على قراقورم

---

(١) انظر : هامر — تاريخ القبيلة الذهبية ص ١٦٢ نقلا عن وصاف .

وانتزعها منه . ولكنه عزى نفسه ، عما فقده من أرضين ، بانتصاره على الكو الذى فر من المالق الى كاشغر ومنها الى ختن حتى سار آخر الأمر الى سمرقند . وقضى اريق بغا شتاء عام ٦٦٢/١٢٦٣ فى المالق ، وفيها اشتط فى معاملة أتباع الكو ، كما أشاع الخراب والدمار فيما حوله من بلاد حتى نزلت بالناس مجاعة مخيفة هلك فيها ألوف من الخلق . وأدى ما كان يجنح اليه اريق بغا من القسوة الى أن انصرف عنه خيرة رجاله بعد أن ضاقوا ذرعا بعسفه . وحين أحس بما صـــار اليـــه من الضعف الشديد نتيجة لذلك ، وأدرك أنه فى موقفه هذا لا يقدر على أن يدفع عنه خطر أى هجوم قد يوجهه اليه الكو ، آثر آخر الأمر أن يصالحه على أن يحتفظ لنفســـه بالاقليم الذى يتبع الجغتـــائيين . وكان يقـــوم بالوساطة بين هذين الطرفين الأميرة أورغنة ومسعود بك .

واستجاب الكو بدوره الى هذا الاقتراح ، وعمـــد فى ســـبيل تدعيم هذا الصلح الى الزواج من الأميرة أورغنه المعزولة . وبهذا خيم السلام فترة من الزمن على بلاد ما وراء النهر . وهنالك استعين بجهود مسعود بك مرة أخرى ليعمر الخزانة الخربة من جديد ، وكان على سكان بخارى وسمرقند العاملين النشيطين أن يتحملوا نصيب الأسد فى ذلك كما هى العادة . وبفضل استقرار الأمور اذ ذاك سرعان ما استطاع الكو أن يتخلص من غريمه الثانى الأمير قايدو ، وهو حفيد من أحفاد أوكتاى كان يسعى لتوكيد حقه فى الجزء الشمالى من بلاد ما وراء النهر ، أى باقليم تركستان . ومات الكو عام ٦٦٢/١٢٦٣ بعد وفاة زوجته(١) المحبوبة بزمن قصير ، فندب قوبيلاى عند ذلك مبارك بن قراهولاكو أميرا على قبيلة الأولوس الجغتائية . ويظهر من اسم هذا الأمير أنه كان على الاسلام . وكان كذلك لطيف المعشر على أتم ما ينبغى لأمير . ومع هذا فان الخان الأعظم، برغم ماكان عليه من التحرير الفعلى فى المسائل الدينية ، لم يكن

---

(١) يقول وصاف أن الكو كان يرى أن أورغنه قد ارتكبت اثما عظيما فى عطفها على مسلمى بلاد ماوراء النهر ، وأنها لقيت حتفها بسبب ذلك ومن ثم أراد أن ينتقم لموتها بانتهاب بخارى وسمرقند . ولكن مسعود نجح فى أن يحمله على العدول عن هذا الأمر .

يرتاح في الغالب كل الارتياح الى هذا الأمير الذى نبذ عقيدة آبائه فندب في السر وكيلا له هو الأمير بوراق أحد أحفاد چغتاى . ولم يكد هذا الأمير يستقر ببلاط مبارك شـاه حتى نشط يتآمر عليه ، فأحل جنده من طاعتهم له وأنزله عن عرشه ، ثم سار لتأديب قايدو وكان قد ظهر من جديد عند حوض سـيحون الأدنى . ولم يكن قايدو — وكان له من الأبناء أربعـون — وهو يشعر بالثقة فى قوته ، ليهـدف الى الاستيلاء على تركستان وبلاد ما وراء النهر فحسب ، بل ويطمع كذلك فى تاج قوبيلاى الملكى نفسه . وكان قوبيلاى بدوره يهدف من وراء تثبيت بوراق على عرش المالق الى أن يكون له حليف أمين هناك يقف فى وجه قايدو . وما غدا أن تكشف له أنه قد أخطأ فى حسابه هذا ، اذ انطلق بوراق منذ أول الأمر يظهر المودة لخصم قوبيـلاى هذا حتى اقتسما فيما بينهما صناع الأسلحة فى بخارى وسمرقند (١) وما غدت الحرب أن وقعت بعد وقت قصير بين قايدو ومنككو تيمور أمير القبيلة الذهبية ، ليحاول بوراق عند ذلك أن يفيد من هذه الفرصة ، فحمل السلاح فى وجه قايدو . غير أن هذا الأخير ما لبث أن أنهى نزاعه مع منككو تيمور وأنزل من بعد ذلك بحليفه الذى خانه ضربة مميتة فى وقعة عنيفة على شاطىء سيحون اضطر من بعدها بوراق الى أن ينسحب عجلا من تركسـتان الى بلاد ما وراء النهر . وحين رأى جند بوراق أن أملهم قد خاب فيما وعدهم به أميرهم من النهب ، عزموا على الحصول على الأسلاب بأى ثمن ، فسقطوا على مواطنيهم انفسهم . فقد أمر بوراق ، فى قسـوة بالغة ، سكان بخارى وسمرقند أن يتركوا متاعهم وينجوا بحياتهم من المدينة ، لينطلق اليها الجند من بعد ذلك وينتهبوها . وأفلحت دموع الأهلين وضراعتهم آخر الأمر من

---

(١) كانت بخارى تضم اذ ذاك ، على رواية وصاف ، ستة عشر ألفا من السكان كان يقتسمهم زعماء المغول فيما بينهم كما يقتسم الماشيـة ، فكان يخص قبيلة باتو منهم خمسة آلاف ، ويتبـع الأميرة سيوك كيكى ، أم هولاكو ، ثلاثة آلاف . أما الباقون فكانوا رقيق الخان الأكبر . وكان الأهلون هم على الدوام أو ضحايا أعمال العدوان المستمرة التى كانت تقع بين أمراء بيت جنكيز ، فنحن نعلم أن هولاكو حين أراد أن ينتـقم من الهزيمة التى اصابته على أيدى بركة ، أمر بقتل عدد كبير من رعايا هذا الأمير ببخارى .

أن تحد من قســوة ما فرض عليهم ، فتركوا وشــأنهم على أتاوة باهظة يدفعونها ، وتعهد صناع الأسلحة بها أن يعملوا ليل نهار فى صنع أسلحة جديدة للأمير . وما غدا بوراق أن استرد قدرته على القتال بعد وقت قصير غير أن قايدو ، وكان يؤثر السلم ، ما لبث أن بعث اليه بالأمير قبيجاق أوغول ، وكان صديقا حميما لبوراق ، ليتفاوض معه ببلاد ما وراء النهر . واستقبل بوراق الأمير قبيجاق بحفاوة بالغة وشربا معا كأس السلم المعتاد، وفيه يخلط الدم بالذهب المصهور وبهذا صارا حليفين (١) (أندا) . وعلى هذا حل الوفاق من جديد بين بوراق وقايدو فى خريف عام ٦٦٧/١٢٦٩ . ودام الاحتفــال بالسلم سبعة أيام فى الســهل الواقع الى الشمال من سيحون (٢) ونص الاتفاق على أن يكون لبوارق ثلثا بلاد ما وراء النهر ، ويكون الثلث الباقى من نصيب أولوس اوكتاى وهو الذى يضم خجندة وما حولها حتى سمرقند . ولم يرض بوراق بهذا الوضع واشتكى بأنه بذلك يصبح أسوأ حالا من أى أمير جنكيزى آخر . ولما كان قد استند فى شكواه خاصة الى عدم وجود مراع لقطعانه بأراضيه ، فقد رتب الأمر على أن يعبر جيحون الى خراسان فيعوض ببعض الأراضى هناك ويتاح بذلك الفرصة فى الوقت نفسه للريف المنهمك المخرب ببلاد ما وراء النهر ليستعيد قوته ويتمكن أهله على الأقل من جمع محاصيلهم فى سلام . وعهد الأميران الى مســعود بك لينطلق الى الريف وراء الفــلاحين المشردين ويحضــهم على الرجوع الى أراضــيهم . ولم يطق بوراق صــبرا ، على الانتظار ، اذ كان يأمل فى الحصول على أموال كثيرة اذا ما هاجم أباقا حاكم فارس اذ ذاك . وحين رغب فى المضى فى هذا الأمر لساعته برغم سوء

(١) اندا فى اللغة المغولية بمعنى حليف وهو من يرتبط برباط الصداقة مع آخر على قسم (انداغه) وما يلفت النظر أنه فى حين كان المغول القدماء يخلطون الدم بالذهب المسال فى كأس السلام ، فان المجريين القــدامى بدورهم حين يتحالف الواحد منهم مع أخيه ، كان يقطع وريدا فى ذراعه ويشرب كل واحد منهم فى راسه من دم أخيه ، وقد راعى الاتراك هذا التقليد فى تحالفهم مع المجر كما نرى فى تاريخ بتشوى .Petchevi's Hist

(٢) يخطىء دهسون فى تسمية هذا السهل باسم سهل تالا ، فهذا اللفظ ليس باسم علم وانما هو فى التركية بمعنى السهل ولايزال يستعمل بهــذا المعنى فى شرق آسيا الوسطى .

الأحوال فى البلاد المجاورة لجيحون ، فاحتج عليه مسعود بك ، أمر بجلده سبع جلدات جزاء جرأته هذه . ولئن كان بوراق سرعان ما ندم على فعلته وهو فى سورة غضبه ، الا أن ذلك لم يمنعه على كل حال من تنفيذ ما عزم عليه فمضى فى أعماله العدوانية لتوه (١) .

بدأ بوراق بايفاد مسعود الى أباقا وكان اذ ذاك يقضى الشتاء فى مضاربه بمازندران ، وكان ظاهر هـذه السفارة هو الاتفـاق على بعض المسائل المالية ، أما هدفها الأصلى فكان الوقوف على حقيقة استعدادات أمير فارس المغولى الحربية . وما لبث أباقا أن تبين بعد مضى بعض الوقت حقيقة هذه السفارة فأمر بالقبض على وزير الجغتائيين . ولم ينج مسعود من هذا الأمر الا بمحض الصدفة . وسرعان ما أوفد بوراق بعثة أخرى لتعمل على استمالة نيكودار الجغتائى الى صفه . وكان هذا الأمير يقيم ببلاط المغول بفارس . ولكن هذه البعثة فشلت بدورها ، اذ أن أباقا منع بيقظته هذا الأمير من تنفيذ خطته فى النفاذ من القوقاز والأقاليم الواقعة شمال بحر الخزر الى شواطىء جيحون . وكان بوراق فى الوقت نفسه قد استطاع أن يهيىء جيشه للقتال ثم عبر جيحون عند آمويه وأقام معسكره عند مرو . وصحبه فى هذا الغزو كثير من أمراء بيت أوكتاى ممن كان قايدو قد أمرهم بالانضمام اليه . وبدأ هـذا الجيش بمهاجمة أخى أباقا وقائده ، وكان يدعى يوجين (ويعرف كذلك باسـم تبشين وتوشـين وتيشين) وكان يرابط فى شرق خراسان عند هراة وبادغيس . وقد ارتد هذا القائد عن مواقعه حين تأكد لديه تفوق قوات خصمه عليه . وظل بوراق يطارده حتى وقعت فى يده خراسان كلها . ولكن الفرقة ما غدت أن شاعت فى قواته حتى انصرف عنه نصف الجيش(٢)، وهنالك استطاع

---

(١) لم يكن مسعود فى الواقع وزيرا بالمعنى المفهوم وانما كان أصلا من ولاة المغول ببلاد ما وراء النهر كما كان أبوه حاكما على بكين ــ تاريخ الترك لبارتولد ص ١٨٥ ، ١٨٨٦ (المترجم)

(٢) كان أول من انسحب هو قبيجاق صديق بوراق القديم ، فقد أثارته وقاحة جلايرتى . ولم يثنه عن عزمه وعد بوراق له بانزال أشد العقاب بذلك القائد . وتبعه فى ذلك تجابات ، وكان من أحفاد قيوق خان .

أباقا بالحيلة أن يجعل هذه الحرب التى حالف خصمه النجاح فى أولها تنتهى به الى مصير سيىء. فقد استدرج بوراق الى كمين (١) لم يجد معه استبسال قائديه مرغاول وجلايرتى الفائقة ، فنزلت به ضربة شديدة وفر عبر جيحون بمشقة بالغة ، وأصيب هو نفسه كذلك اصابة شديدة على اثر سقوطه من على فرسه . وهكذا دخل بخارى وهو فى محنة ، محطم الفؤاد والجسد ، فأمضى الشتاء بها فى محاولات فاشلة ليثأر لنفسه من حليف غادر كان هو السبب فيما نزل به من المصائب . ومات فى ربيع عام ٦٦٩/١٢٧٠ ، وقد قضى بالسم على رأى غالب .

تخلصت بلاد ما وراء النهر بموت بوراق من مشاغب جائر نكد ، ولكن متاعبها لم تبلغ مع ذلك ذروتها بعد . فقد استمرت الحرب الأهلية بين بيتى أوكتاى وجغتاى حتى عمت أهوالها كل المدن الواقعة على زرفشان ، وانتكس مرة أخرى كل ما كان قد استرده السكان من مظاهر التقدم الحضارى (٢) . وبموت بوراق صار قايدو مرة أخرى السيد المطلق فى كل من تركستان وبلاد ما وراء النهر . وندب نيكباى بن سرابان أميرا لقبيلة جغتاى ، فأثار بصنيعه هذا أبناء بوراق حتى انضموا

---

(١) جرى التدبيرعلى الوجه الآتى : ـ حين بعث بوراق بثلاثة من جواسيسه ليقف على مدى قوة خصمه ، فسقط هؤلاء بأيدى العدو ، عذبوا حتى أقروا بمهمتهم ثم القى بهم فى القيد فى انتظار الموت . هنالك قدم فارس وقد غطاه الغبار فأعلن للأمير أن جموع الاعداء قد غزت البلاد من ناحية دربند واجتاحت الولايات الغربية بالحديد والنار . وأثار هذا المشهد أعظم اضطراب فى المعسكر ـ وكان ذلك كله فى الواقع من تدبير اباقا نفسه ـ حتى أخذ القوم يتحدثون عن وجوب الارتداد غربا فى الليل ، وذاع هذا الخبر بينهم . وصدر الأمر باعدام الجواسيس الثلاثة ، لكن أباقا أسر الى الضابط المكلف بذلك بأن يفسح المجال لهرب واحد منهم . وحين بلغ الجاسوس الهارب معسكر بوراق واعلن هناك عن عزم العدو على الانسحاب ، انطلق بوراق من فوره يطارد عدوه وهو يعتقد أنه يرتد ، ليبرز عند ذلك رجال اباقا من مكامنهم ويحيطوا بجند عدوهم ويقطعونهم شذر مذر .

(٢) يقول دهسون بحق فى كتابه عن تاريخ المغول م ، ص ٥٢١ ان البلاد التى كانت تتعرض لغارات الترك والمغول لم تعرف الرخاء أبدا ، ذلك أن هؤلاء كانوا يرون ما تغله هذه البلاد من ثمرات هو من حقهم فلا يدعونها لأصحابها أبدا .

الى أبناء الكو فى اشعال نار الفتنة ببلدان ما وراء النهر العتيدة . وما غدا نيكباى نفسه أن ثار على سيده ، ولكنه هزم وقتل عام ١٢٧٢/٦٦٧ . وخلفه تفاتيمور ، وجاء من بعده دوا بن بوراق (١) فالتحم مع قايدو ، كان هذان قد ائتلفا مخلصين معا فلعله كان قد أتيح بذلك لهذه الخانية أن تعيش بعض الوقت فى سلام .

ولكن الحرب ما غدت لسوء الحظ أن اشتعلت بينهما لثالث مرة . ذلك أن أباقا لم يكن لينسى أبدا غزو الجغتائيين لخراسان . ولم يكن على وزير شمس الدين الجوينى (٢) ، أخى المؤرخ الجوينى الذى نقلنا عنه كثيرا ، الا لينتهز فرصة مواتية للانتقام ، حتى حرضه على دخول بخارى مع جيشه عام ١٢٧٣/٦٧١ ، فعمل فيها السلب والنهب ذات اليمين وذات الشمال وأسر من أهلها خمسين ألفا ، وقد اندفع فى موجة التخريب حتى أحال المدرسة المسعودية المشهورة الى كومة من الرماد ثم رحل آخر الأمر عنها . وخرج اليه يطارده القائدان جبه وقابان حتى استخلصا منه بعض الأسرى . على أن هذين القائدين نفسيهما ما لبثا بعد أعوام ثلاثة من هذا التاريخ أن خربا كل الأماكن حول هذه المدينة حتى صار هـذا الاقليم المنكود صحراء جرداء ، الى أن استطاع مسعود بك بادارته الفائقة أن يبعث فيه الحياة من جديد .

ولم يكن دوا لسوء الحظ هو الرجل الذى يمكن لبلاد ما وراء النهر أن تنشد على يديه السلم وكانت فى حاجة قصوى اليه . فقد كان حكمه الطويل بالنسبة لغيره ممن سبقوه — من عام ١٢٧٢/٦٧١ — ١٣٠٦/٧٠٦ حقبة من حروب دموية مستمرة استطاع بها هذا الأمير ، الذى يعد أشد

---

(١) ويدعى كذلك توا أوتفا

(٢) كان شمس الدين مدفوعا فى ذلك بحقده الشخصى . وحين بعث بوراق بمسعود الى بلاط اباقا ، ذهب شمس الدين الى مسعود فاجتمع به قبل سفره . وبرغم ما أظهره شمس الدين لمسعود من التوقير حتى قبل ركابه وأدى له رسوم الخدمة المعتادة ، فان مسعودا قال له « أانت الوزير الاول ، الحق أن اللقب لهو أكبر من مظهرك » ـ دهسون ـ نقلا عن تاريخ المغـول لرشيد الدين م ٣ص ٤٢٣

الأمراء الجغتائيين طموحا ، أن يقضي على منافسة بيت أوكتاي له ويوحد مرة أخرى المناطق الشمالية لسيحون مع أملاك بيت جغتاي . وكان ثمن هـذه المكاسب مصـائب جديدة نزلت على بلاد ما وراء النهر . وكانت الأعمال العدوانية بين قايدو وقوبيلاي قد ظلت لمدة عشرين عاما تجرى على شواطىء جيحون وسيحون حتى اعتزم قايدو ودوا أن يمدا — مؤتلفين معا — ميدان المعركة حتى بلاد الخان الأكبر تيمور (١) ، وهو الذي خلف قوبيلاي . حتى اذا ما عاد دوا من غارة له على لاهور بالهند سار بجيشه مع جند قايدو وقد انضم اليهما أربعون أميرا من أسرتيهما ، فاتجهوا جميعا لغزو الصين . والتقوا بالجيش الامبراطورى فيما بين قراقورم ونهر تامير . وكان قايدو قد خاض غمار احدى وأربعين حربا انتصر فيها جميعا ، ولكنه هزم في هذه الواقعة الثانية والأربعين ، ونزل به الداء ومات وهو فى طريقه عائدا الى بلاده (٢) . هنالك أقيم ابنه جبه أميرا على بيت أوكتاي وذلك بفضل نفوذ دوا . وعمد دوا وجبه اذذاك الى مصالحة الخان الأكبر تيمور . وما غدا الخصام أن وقع بينهما فتحاربا عام ١٣٠٣/٧٠٣ فى موقعة دارت بين سمرقند وخجندة فاز فيها دوا . وأصاب جبه قدرا من التوفيق من بعد ذلك ، ولكنه عاد الى معاداة الخان الأكبر حتى وجد نفسه آخر الأمر ولم يبق له الا أن يعلن خضوعه لدوا . واستقبله هذا بترحاب حتى تعود تركستان من جديد الى خانية جغتاي وكانت قد انتزعت بالقوة من أبناء أوكتاي .

ومات دوا عام ١٣٠٦/٧٠٦ فخلفه ابنه قونجوق فلم يعمر طويلا ، لتنتقل الحكومة عند ذلك الى أيدى من يدعى تاليقاوه ، وهو أمير جغتائى من أبناء مواتغان الذى كان قد قتل عند باميان . كان هذا الأمير ثانى أمير مغولى على عرش بلاد ما وراء النهر قد اعتنق الاسلام . ويبدو أنه تغالى فى تحمسه لعقيدته الجديدة ، اذ ثار عليه القواد المغول فى بلاطه فقتلوه

---

(١) وهو غير تميورلنك (المترجم) .

(٢) يقول وصاف ان قايدو قد انتصر كذلك فى هذه المعركة وأنه مات ميتة طبيعية وهو فى طريقه الى بلاده محملا بالغنائم

فى احدى المآدب وأجلسوا مكانه « كيبك بن دوا » وكان أميرا شجاعا مستقيما . وواصل جبه بازاء الابن نفس العــدوان الذى كان يواجه به أباه ، فجر بذلك الوبال على نفســـه . فقــد انتهى أمره الى أن نزلت به الهزيمة من جديد ، وضاعت بذلك آخر فرصـــة لحفظ تركستان بأيدى أحفاد أوكتاى . ولأسباب غير مفهومة ، وبرضاء كيبك ، أجلس الجغتائيون عند ذلك أخاه الأكبر ، ويدعى اسن (١) بغا على العرش . ودرج اسن بغا فى مدارج التقدم عام ٧٠٩/١٣٠٩ . ولا نراه من بعد ذلك حتى عام ٧١٦/١٣١٦ الا زعيما للأولوس الجغتائيين . ويبدو أنه قد اشتبك فى حروب مع الجايتو أمير فارس المغولى كانت لنتائجها أهمية كبرى بالنسبة لبلاد ماوراء النهر . وناصب اسن بغا العداء تقاجى أحد قواد جيش الخان الأكبر باياتتو فباء بالخسران فى ذلك . وأراد أن يعوض ما أصابه من الخسائر فى الشرق فعزم على غزو خراسان . وعبر لذلك بجيشـــه جيحون عام ٧١٥/١٣١٥ وبصحبته عدد كبير من الأمراء ، فهزم الأمير ياساول حاكم خراسان عند مرغاب ، ومازال يطارده حتى نهر هراة .

وبهذا استولى على كل هذا القسم من خراسان ، وظل جنده يذيقون الأهلين المنكودين كل أهوال الاحتلال المغولى لأربعة أشهر . وأغلب الظن أن لبثهم هنـــاك كان يطول لولا أن زحف الخان الأكبر على اســـيككول فاضطر اسن بغا بذلك الى الارتداد عن خراسان . وسرعان ما كان على بلاد ما وراء النهر أن تكفر — لسوء الحظ — عن غارة حكامها هذه .

ونهج أمير فارس المغولى (الذى اتخذ لنفسه فيما بعد اسم خدا بنده (٢) ، أى عبد الله) نهج أباقا من قبل بازاء الغزو الذى قام به بوراق ،

---

(١) يذكره دهسون « ايسن » وهو خطأ فهو لفظ تركى معناه القوى ، السليم .

(٢) خدابنده هو الأمير المغولى الوحيد من حكام فارس الذى لايزال يذكره بالتبجيل سكان أذربيجان من الترك لماكان عليه من العدل . وقدجمعت كثيرا من الحكايات عنه من أفواه العامة حين كنت أقوم بالكشف عن بقايا تمثال فى سلطانية . وكان هذا الأثر فى وقته له أهمية كبيرة .

فلم يهدأ له بال حتى أنزل العقاب بذلك الذى اجترأ على غزو أراضيه . وكان لاسن بغا أخ يدعى « يساور » على علاقة سيئة به ، وكان هذا الأخ قد اعتنق الاسلام ولاذ ببلاط أمير فارس المغولى فرحب به . وخرج يساور هذا الى حرب أخيه وقد أمده الجايتو بفرقتين قويتين من الجند عبر بهما جيحون عام ٧١٦/١٣١٦ وكسب بهما الحرب . ولاذ اسن بغا بالفرار لتتعرض عند ذلك بلاد ما وراء النهر من جديد لأفظع ضروب الدمار . فقد أخرج سكان بخارى وسمرقند وترمذ من ديارهم ونفوا منها والشتاء القارص فى عنفوانه حتى هلك ألوف منهم فى الطريق . وما يلبث اسن بغا أن يختفى عن مسرح الحوادث ليأخذ مكانه السابق كيبك وينزل العقاب بهذا الأخ العاصى الذى جلب البؤس البالغ والشقاء الكثير على الناس ، وقد وافاه أجله عام ٧٢١ هـ .

أخذ نجم المغول بآسيا الغربية فى الأفول بسرعة ابتداء من ذلك الوقت . وذهبت أدراج الرياح كل الجهود التى بذلها أبو سعيد ليقيم من جديد أسرة حاكمة فى ايران والعراق . فهؤلاء المغول باعتناقهم الاسلام ورسوم حضارة آسيا الغربية ، انما قد تخلوا بذلك عن القوة الوحشية التى كانوا قد قدموا عليها من مواطنيهم القديمة فى الصحراء ، فأمدتهم بقدرة لا تبارى . فأصبحوا من بعد ذلك كالليوث التى سقطت معارفها ولم يعد يهابها أحد . وعلى مثال ما حدث فى عهد السلاجقة حين كان حكام الولايات من الأمراء يستغلون ضعف ملوكهم لتحقيق مآربهم الخاصة ، رأينا كذلك أمراء أرباخان — خليفة أبى سعيد — يعلنون خروجهم عليه ويشرعون فى تقطيع أوصال الدولة التى قامت بسواعد تولى وهولاكو .

وجد الاستبداد العسكرى تربة ملائمة له على الدوام فى بلاد ما وراء النهر وتركستان . واستطاع الجنكيزيون أن يثبتوا أقدامهم هناك طويلا لما كانوا عليه من الشراسة أصلا ، وما بعثه ظهورهم لأول مرة من الرعب فى نفوس الناس . وسرعان ما أخذت الأسرة الحاكمة هناك بمضى الوقت

تفقد بدورها ما كان لها من سلطان أول العهد بها . ولم يطل عهد الأمراء من ذوى النفوذ من بين أعضائها الذين جلسوا على العرش منذ كبيك حتى كابلشاه (١) آخر الجغتائيين . ولم يكن من عداهم من ضعاف الأمراء الا مجرد دمى بأيدى وزرائهم من ذوى الطموح . ويشير تاريخ هذه البلاد في هذه الفترة الى غارة قام بها على خراسان علاء الدين ترماشيرين فلقى الهزيمة عند غزنه عام ٧٢٦/١٣٢٥ وارتد على أثرها عجلا عبر جيحون . وتحدث الرحالة العربى ابن بطوطه عن ترماشيرين هذا ، وكان قد قضى عامين فى ضيافته ببخارى ، فوصفه بأنه كان مسلما غيورا ورعا بلغ من تدينه أن سمح لأحد الشيوخ أن يعنفه بشدة فى احدى الحفلات العامة ويتلقى حديثه هذا بدمع الندم والتوبة .

وقد ضحى هذا الأمير بعرشه وحياته بسبب اسلامه ، اذ قتل بتدبير

---

١ ــ أورد دهسون جدولا كاملا بأسماء الجغتائيين الذين جلسوا على عرش بلاد ماوراء النهر ، مع تاريخ ولايتهم ، على الوجه الآتى : ١ ــ جغتاى (لم يذكر تاريخ ولايته) ، ومن المعروف أنه ولى الحكم عام ١٢٢٢م) ٢ قراهولاكو ١٢٢٤ ــ ٣ ييسو مانكو (ذكرته باسم ييسو) ١٢٤٧ ٤ أرغونا أو أورغانا ، بالوصاية ، وهى أرملة قراهولاكو ١٢٥٢ ــ ٥ الكو ١٢٦٠ ــ ٦ مباركشاه ١٢٢٦ ــ ٧ بوراق ــ ٨ نيقباى ١٢٧٠ ــ ٩توقاتيمور ١٢٧٢ ــ ١٠ دوا ــ ١١ قونجوق ١٣٠٦ ــ ١٢ تاليقاوه ١٣٠٩ ــ ١٣ اسن بغا ١٣٠٩ ــ ١٤ غيبك ــ ١٥ الجيكداى ١٣٢١ ــ ١٦ دواتيمور ــ ١٧ ترماشيرين ــ ١٨ بوسان ١٣٣٠ ــ ١٩ جنكشى ــ ٢٠ ييسون تيمور ــ ٢١ على سلطان ، من بيت أوكتاى ــ ٢٢ فولاد ــ ٢٣ محمد ــ ٢٤ قاسان١٣٣٣ ٢٥ دانشمنجه ١٣٤٦ ــ ٢٦ بايان قلى ــ ٢٧ تيمورشاه ــ ٢٨ قتلق تيمور ٢٩ الياس خوجه ١٣٦٢ ــ ٣٠ قابيلشاد . ولا يذكر من أتى بعد هؤلاء من الأمراء اذ كان حكمهم الصورى يختلط فى التاريخ بحوادث تيمور التى سنفصلها فى الفصل التالى . ويذكر ملاخوند فى كتابه عن تاريخ الجغتائيين أمراء من هذا البيت ظهروا من بعد ذلك بين الجته وغيرهم من المغول الذين وحدوا أنفسهم شمال فرغانه بزعامة يونس خان . ويبدو أن قوله هذا خطأ ذلك أن هؤلاء الجته والمغول المعنيين كانوا من أبناء بيت قايدو . (المؤلف) .

(انظر معجم الانساب والأسر الحاكمة ، ترجمة الدكتور زكى محمد حسن وآخرين ص ٣٧٠ ، فى بنى جغتاى ، خانات ما وراء النهر) الخشاب

خليفته بوزان [1] بجوار سمرقند [2] . وكان بوزان مسلما فى الظاهر فقط . وأنزل هذا الظالم بسكان ما وراء النهر من ضروب الخسف ما جعلهم يستنجدون بالأمراء المسلمين فى الأقاليم المجاورة لقطرهم . هنالك بدأت هذه الحروب التى برز فيها التاجيكى (٣) المشهور حسين كرت بدور مهم اذ كان يتوق الى استخلاص خراسان من ارباخان . وشجع حسين ما أحرزه من انتصارات متوالية فغزا أندخوى وشبورغان وهى مناطق كان يسكنها ترك من قبائل ارلات وايبردى ويتبعون بخارى . ووقف هؤلاء الترك فى وجه حسين لكنه هزمهم ، حتى استنجدوا بأميرهم قازان خان — أو بوزيرهم الأمير قزغان على الأصح — الذى نجح فى قهر حسين كرت .

والأمير قزغان ، هذا التابع القوى صانع الملوك ببلاد ما وراء النهر ، يستحق أن نتحدث عنه، اذ كانت أفعاله دليلا على ضعف آخر الجغتائيين. فقد ولى قازان بن يساور العرش عام ٧٣٣/١٣٣٢ ، وكان ظالما يميل لسفك الدماء حتى قال عنه ميرخوند « لقد تمكن ذلك منه حتى كان رجاله جميعا يوصون قبل أن يحضروا قرلتايه (أى مجلسه) » . ونشر هذا الأمير الفزع فى الاقليم دون أن يجرؤ أحد على الوقوف فى وجهه حتى اتخذ من قزغان وزيرا له . وعمل هذا الوزير على التخلص منه ، فكسب الجيش لصفه ثم ثار فى وجهه . وكسب قازان أول وقعة وذلك عام ٧٤٤/١٣٤٣ ، أو بعد ذلك بعامين على رواية ميرخوند . وفى هذه الواقعة أصاب قزغان سهم فى احدى عينيه فأتلفها . على أن هذا الجغتائى لم يستطع أن يدعم ما أصاب من فوز ، واضطر الى التراجع الى قارشى فأمضى الشتاء بها . وأشاعت قسوة الطقس هناك الموت بين خيوله ودوابه حتى نفق أغلبها . وحين

(١) يقول ابن بطوطه ان بوزان هذا (ونحن نسميه بوزون) هزمه خليل بن يساور وقتله . بل يقال ان خليل تقدم كذلك حتى المالق وهزم الجيش المغولى عند طراز هزيمة حاسمة . وبعد أن ولى العرش ببخارى ثار على السلطان حسين كرت الذى كان قد عاونه فى كل مشروعاته ، ولكنه هزم وحمل أسيرا الى هراة حيث لقيه الرحالة العربى آخر عام ٧٤٧ (١٤٧٢) أنظر Voyage d'Ibn Batoutah Paris 1885 vol. III p. 48-51.

(٢) على رواية صاحب مطلع السعدين ، فان ترماشيرين نزل به المرض فى نخشب عام ٧٢٧ (١٣٢٦) — وبهذا يكون قد مات حتف أنفه .

انطلق في الربيع من بعد ذلك يهاجم خصمه أصيب بالهزيمة ، ومات بعد أن حكم أربعة عشر عاما . ولم يكن يدور بخلد قزغان أن يمسك بمقاليد الحكم اذ كان يفضل أن يستمر في الاستمتاع بالطراد فلا يزعجه شيء . لهذا فقد اجلس على العرش الأمير دانشمنجه أوغلان ثم خلعه من بعد ذلك بعامين وأجلس مكانه بيانقلي . ولعله كان يمضي قدما في تنصيب هذا الأمير وخلع ذاك على هذه الصورة لولا أن قتله صهره تغلق تيمور ذات يوم وهما في الصيد . وخلفه ابنه عبد الله في منصبه ولكنه لم يبلغ الى نفوذه ، فلم يقدر على حماية نفسه أو حماية سادته بازاء أتباعهم من الأمراء الذين كانت قوتهم تتزايد يوما عن يوم ، حتى غلبه على أمره آخر المطاف الأمير حاجي سيف الدين برلاس . واضطر هذا الأمير بدوره الى الهرب من وجه تغلق تيمور وكان قد قدم من المالق الى خراسان عجلا ليضع حدا لحالة الفوضى القائمة هناك . ولكنه لم يتعرض للجانب الآخر من جيحون حيث كان ابن أخته تيمور الذي لم يقدر له أن يطرد خلفاء جغتاى (١) من على عرش بلاد ما وراء النهر فحسب بل ويدك كذلك كل بناء الحكومة المغولية المتعفن في آسيا . ولم يفعل ذلك كله دون أن يعرض هذا الاقليم ، لسوء الحظ ، لطوفان من دماء آلاف الضحايا .

وقبل أن ننهي الحديث عن هذه الحقبة المحزنة من تاريخ بلاد ماوراء النهر ، لا بد لنا من أن نلقي بعض الضوء على الأحوال الاجتماعية والحضارية التي سادت في هذه الحقبة . ففي وسط هذا الدمار الذي قام به المغول لم يزدهر من العلوم الا العلوم الشرعية وفروعها . وفي أيام الجغتائيين الأول كان الشيوخ في تركستان يستمتعون بقدر معلوم من الحماية وذلك بفضل مبدأ التسامح الديني (٢) من جهة ، والاعتقاد في هيبة

---

(١) قلت هنا عن قصد ، خلفاء جغتاى . ذلك أنه برغم تقلص سلطان الجنكيزيين بآسيا تقلصا تاما ، فلا يزال حتى اليوم أسرة تحكم ببلاد ما وراء النهر ينتهي نسبها من بعيد الى احفاد الفاتح جوجي .

(٢) ابلغ شاهد على هذا التسامح نجده فيما كان من احترام هؤلاء المغول المخربين النهابين لأماكن معلومة مقدسة في تركستان . ويرد مثل هذا الدليل عند ابن بطوطة في التفصيلات القيمة الدقيقة التي ذكرها عن ضريح قثم بن عباس بالقرب من سمرقند .

رجال الدين من كل طبقة من جهة أخرى . وكان بكل مدينة فى الغالب واحد أو أكثر من الأولياء ممن كان المسلمون يلوذون بهم وقت الخطر . وبهذا صار رجال الدين بدورهم حماة لمن يعيشون فى دائرتهم ، حتى لنرى ، ابتداء من ذلك الوقت ، صدر الشريعة ورؤساء القضاة بل وكل من يشتهرون بالورع والتقوى يستمتعون فى بلاد ما وراء النهر بنفوذ لم تعرف له البلاد الاسلامية الأخرى نظيرا . ولا يزال هذا النفوذ يقوم هناك حتى اليوم برغم أن هذه البلاد قد ظلت قرونا كثيرة يحكمها أمراء مسلمون وكانت المناصب الدينية وقفا على طبقات من العلماء من أسر معينة وكأنها العروش فى توارثها . وأشهر هذه الأسر كانت أسرة ستاجى وأسرة خاوند . ومؤسس الأسرة الأولى هو جمال الدين ستاجى ، وكان فقيها وشاعرا صوفيا استوطن خجندة عام ٦٢٨/١٢٣٠ ومات عام ٦٤٠/١٢٤٢ ابان غزو چنكيز خان . وثانى تلك الأسر كانت تقطن بخارى . وأشهر أبنائها مولانا كمال الدين ابن العالم والمفتى المشهور الأمير شمس الدين خاوند . ويشتهر بكتابة « منهاج المذكرين » وهو كتاب قيم فى التراجم . وله كذلك عدة دواوين من الشعر . مات عام ٦٧١/١٢٧٢ فى أول يوم انطلقت فيه قوات أباقا سالف الذكر تنتهب بخارى . ونذكر من بعد ذلك خاوند شاه فخر الدين والملا تاج الدين العالم مؤلف « بستان المذكرين » وقد مات عام ٧٣٠/١٣٣٥ . وبعد أن دخل الجغتائيون المتأخرون فى الاسلام نجد كتب الحديث تروج أيام ترما شيرين ، كما نجد هؤلاء الأمراء ، باعتناقهم الاسلام عن قرب ، تدفعهم غيرتهم الدينية الى رعاية هذه الحركة الروحية لا يألون جهدا فى ذلك . ولقد رأينا كيف يتقبل أحفاد الفاتح المغولى بكل خضوع زجر الشيوخ المحافظين لهم وتعنيفهم اياهم بمسجد عام فى مواجهة رعاياهم ، وهم من بعد ذلك يتولاهم الخجل لما كان قد وقع منهم ويستغفرون لذنوبهم على مشهد من الملأ جميعا ، لندرك عند ذلك مكنون النداء الذى وجهه أعظم شاعر صوفى فى الشرق ، بمثنويه الرائع ، الى ذلك الصوفى المتحمس الذى كان فى طريقه الى بخارى ليلتمس ، مخدوعا ، الراحة هناك لقلبه وعقله

المنهك المرهق . وكانت نفس هذا الشاعر الكبير قد ضاقت ذرعا بمثـــل هذا الخضوع المصطنع السطحى الذى يتعارض مع لب العقيدة :

بخارى ميروى ديوانه

لايق زنجين زندانخانة :

أذاهب أنت الى بخارى ، أفهل بك مس

أتراك أهلا للقيد والحبس ؟

الفصل العاشر
الأمير تيمور

٧٦٥ (١٣٦٣) – ٨٠٧ (١٤٠٥)

أدى غزو الترك لآسيا الوسطى الى حدوث انقلابات عرقية مختلفة كان أهمها رجحان كفة العناصر التركية على غيرها فى جميع أجزاء بلاد ما وراء النهر . فلقد قدم الترك الى هذا الاقليم أصلا بوصفهم أصدقاء وحلفاء لمغول الوديان الشرقية عند تيان شان وجبال التاى . وسرعان ما استقروا على ضفاف جيحون حيث وجدوا اخوانا وبنى جلدة لهم كانوا قد سبقوهم الى هناك (ما وسع تركى أن يفعل ذلك) ، وكان لهؤلاء نصيب مما كانت تسبغه الأسرات الحاكمة هناك من التشريف والتقدير على المحاربين الممتازين . ولم يكن الترك دون المغول بكثير فى ميلهم الى السلب والنهب والقتل اشاعة الدمار ، وبهذا لم يجدوا صعوبة فى أن يوائموا أنفسهم مع الجغتائيين . وقد نزل هؤلاء عند أطراف الأراضى التى ورثها جغتاى بأقصى الشرق والشمال منها ، وكانوا لا يطيقون ما يمت الى بقايا ثقافة ايران القديمة بأدنى سبب ، وماغدا أن صار زعماء الترك ببلاد ما وراء النهر نوابهم وعمالهم ، بل وامتزجوا بهم فى الغالب ، كما سنرى فى التو، بل ان الجغتائيين المتأخرين بلغ تأثرهم بالترك الى أن باتوا لا يكادون يعون اللغة المغولية ، وصارت التركية هى لسان البلاط والمجتمع عندهم . ولم يعد لخلفاء جنكيزخان أيام قوتهم ونفوذهم من خدام أهلا لثقتهم الا الترك . وحين أخذ سلطان هؤلاء الأمراء فى الاضمحلال جهد هؤلاء الترك أنفسهم فى كل مكان ليغتصبوا مكان سادتهم السابقين ، فتفسخت بذلك دولة جغتاى ، واستأثرت قبائل جلاير

وسولدوز بالسلطة لنفسها عند شمال سمرقند ، فى حين عمد بيت برلاس فى الجنوب ، عند كش ونخشب ، الى رفع راية الاستقلال بدورهم فوق أنقاض دولة المغول .

ينتمى تيمــور بك (الذى يعــرف فى أوروبا باســم تامرلان أو تامرلنك) الى فرع كركن (١) من بيت برلاس سالف الذكر . وأول ما رأى النور تيمور كان فى مساء الثـلاثاء الخامس من شعبان عام ٧٣٦/ ١٣٣٥ فى قرية من قرى كش تعرف لفرط اخضرار نبتها(٢) باسم شهيرسبز

---

١ ـــ كانت العلاقة بين الأسرة الأصلية وفروعها البعيدة بين بدو آســيا الوسطى ، على ما ذكرته فى كتاب رحلاتى أكثر توثيقا فى الازمنة المتقدمـــة بطبيعة الحال . وكانت قبيلة تيمــور هى قبيلة برلاس ، أما فرع أسرته فكان كركين أى المليح . وكان الأجدر بكلابروث .Klaproth وكثير ممن سبقونى أن يوفروا على أنفسهم مشقة تفسير هــذا اللفظ بأنه كــوركان أو كورخان فقالوا انه هو الخان الأعظم .

٢ ـ ان ما قال به وايل وغيرهمـــــا من المستشرقين ، اعتمادا عـــلى ميرخوند وشرف الدين ، بأن تيمور من أصـــل مغولى ، هو خطأ مزدوج . فقصة انحدار تيمور من نسل قراجه نويان محض خرافة ، ذلك أن جهانكشا الذى اعتمد عليه رشيد الدين ووصاف وميرخوند وغيرهم اعتماداكبيرا فى أخبارهم ، لا يتضمن أى اشارة الى ذلك الوزير المزعوم لجغتاى . وما قيل عن تيمور انه مغولى سببه أن الفرس ظلوا طويلا يعدون خانية جغتاى عند الجانب البعيد من جيحون جزءا مكملا للدولة المغولية ، وهو استنتاج طبيعى بنى على غلبة رسوم المغول هناك ، فضلا عن استعمال القـــوم للأبجـــدية الأويغورية ـــ المغولية على الدوام فى كتابة التركية اذ ذاك . ويقرر كلافيجو Clavijo سفير هنرى الثالث ملك قشتاله الى بلاط تيمور (ان أراضى الدولة المغولية عند سمرقند تعرف باسم منغوليا ، ولغتها هى المغوليـــة ، وهى تستعصى على الافهام على كل حال عند ذلك الشاطىء (شاطىء جيحون) والأبجدية المستعملة عند الجانب السمرقندى من النهر (يعنى الابجـــدية الأويغورية) لا يفهمها هــذا الجــانب (يعنى الضـــفة الفارســية) . وعند الامبراطورية (تيمور) كثير من الكتاب ممن يقرءون هذه الابجدية المغولية (Narrative of the Embassy of Ruy Gonzalez de Clavijo to the court of Timour at Samarkand. A. D. 1403 — 6 Translated by Clements R. Markham. F. R. G. S. London Hackluyt Society 1859.

(أى المدينة الخضراء) ،(١) وقد أطلق اسمها من بعد ذلك على المدينة كلها . وكان أبوه تورغاى (٢) (طير الدج) شيخا لقبيلة برلاس . وعلى هذا ندبه الأمير فزعان على اقليم كش ونخشب . وبقى تورغاى تابعاوفيا لأميره حتى وفاته . وكان الشاب تيمور ، وهو الذى ظهرت شجاعته وفروسيته منذ حداثته ، قد نشأه أبوه لا على التمسك بسنن الاسلام القويمة فحسب، بلوأشرب فيه كذلك مشاعره السياسية التى كانتتهدف الى تقويضأركان الدولة المغولية. وحتى حين نضن بثقتنا فىقول مداهن ظاهر التملق وهو المؤرخ شرف الدين فلا نزال مع ذلك نجد مايؤكد أن تيمور كان منذ شبابه الباكر وأطماعه تلهبه ومشاعره تتوق به نحو عظمة مستقبله . فهو يقول فى سيرته « أخذت منـــذ الثانية عشرة من عمرى أستوعب كتب الحكمة العالية والقوة الخارقة ، كما حملت نفسى على الاباء والرزانة بازاء من حولى . وحين بلغت الثامنة عشرة كنت شديد الاعتزاز بما بلغته من المهارة فى الصيد وألعاب الفروسية . كما كنت أمضى وقتى فىقراءة القرآن ولعب الشطرنج وهوايات أخرى مختلفة(٣) » . ولاعجب اذن أن نجد أباه يقدر فيه الرجولة حين بلغ العشرين من عمره فيخصه بحصن (أول) ، ليتقـــرب هو من بعد ذلك بدوره الى زعيم يرى أنه بمستطيع تحت لوائه أن يتخذ طريقه الى المعارك والمخاطر التى كان يتوق

(١) يذكر بابر فى سيرته (بابرنامه) أن جدران الدور وشرفاتها فى هذا البلد كان يغطيها فى الربيـــع النباتات المتعرشة ليـــانعة وغيـــرها من صنوف النبات الأخرى . (المترجم)

(٢) وليس تارغارى كما ذكره وايل Weil. Geschichte der Khalifen vol. II p. 21

(٣) عنوان هذا الكتاب هو (توزوكات تيمور) أى مراســيم تيمـــور (توزوك في التركية تعنى مرسوم أو قانون ، والألف والتاء هى علامة الجمع فى العربية) وبهذا فهو يبدو لاول وهلة مجموعة من القوانين أشبه بياصا جنكيز . ولما كان تيمور يروى فيه كذلك تفاصيل حياته العجيبه ويوضح بواعث أهم فعاله ، فيمكن كذلك وصف هذا الكتاب ، باطمئنـــــان ، بأنه سيرته . وأول نسخة منه أحضرها الماجور دافى Dav· من الهنـــد الى أوروبا وتقع فى ٤٤٠ صفحة بحجم الثمن ، وهى بالفارسية نقلا عن الاصل بطبيعة الحال . أما الأصل الجفتاتى فقد وجد فى مكتبة جعفر حاكم اليمن. وقد ترجم الاصل الى الفارســية أولا ، ثم نقـــله من بعد ذلك الى الانجليزية س. ســتيوارت C. Stewart عـــام ١٨٣٠ (أنظر كتـــاب مرخـــام Markham الذى أشرت اليه من قبل ص ١٥ من المقدمة)

الي خوضها بكل جوارحه . وكان هـذا الزعيم هو الأمير قزغان سالف الذكر . وكان تيمـور قد أوفد اليـه فى مهمة عام ١٣٥٦ . وأعجب هذا بالشاب اعجابا شديدا حتى زوجه بحفيدته أولجاى تركمان خاتون ابنة ولده صلاخان (١) ، وصحبه معه قائد الألف (منكباشى) فى حربه الثانية مع حسين كرت بخراسان . وفاز هذا الأمير فى حربه هذه ، ولكنه سرعان ما اغتيـل من بعد ذلك . ما لبث تيمـور أن فقد أباه فركبـه بذلك غم مزدوج . ولم يكن أمامه عندئذ الا أن يتحالف مع الأمير حسين حفيد قزغان المقتول فيحاولا معا الانتقام من قتلة ولى نعمته . على أن المعارك التى وقعت بسبب ذلك لم تنته الا الى زيادة الفوضى ببلاد ما وراء النهر الى درجة عظيمة. حتى رأينا (٢) تقلق تيمور أمير أولوس اذ ذاك ، وقد ظهر له أنه لابد من اتخـاذ اجراء حاسم لحماية مصالح أسرته من الدمار التام ، يسير جيشا كبيرا أكثره من الجته (٣) ، من المالق الى سمرقند وقد عزم على تقوية عرش آبائه بطرد الحكام الثائرين من الأمراء .

وأدى ظهور هذا الأمير بينهم الى أن عاد فريق من الثوار الى طاعته فى حين هرب فريق آخر الى خراسان ، ومن بينهم جاجى سيف الدين برلاس (وهو الذى صار شيخا على قبيلته بعد وفاة تورغاى) . أما الشاب تيمور فقد قصد الى بلاط الجغتائيين فرحبوا به وأقروه على ولاية كش. وظل الهدوء يخيم فى الظاهر على بلاد ما وراء النهر مابقى تقلق تيمور بها . حتى اذا ما غادرها الى المشرق عاد الزعماء المشاغبون الى العصيان من جديد حتى اضطر الى اخضاعهم مرة أخرى بقوة السلاح . وبقى فاتح آسيا ، فيما بعد ، على ولائه له . وحين ظهر تقلق ، على رأس جيشه ، فى سمرقند وأقام ابنه الياس خوجه نائبـا له عليها ، اختار تيمور ، بوصفه

---

(١) وليس مصلح خان كما ذكره خطأ D'Herbelot Petit de la Croix عن مخطوط غير صحيح . وهذه الكلمة معناها فى التركية البيت أو الوطن.

(٢) وليس تجلق كما رسمه وايل وهامر وغيرهما . فكلمة تق معناها فى التركيه العلم أو الراية فهو حامل الراية .

(٣) الجته وليس غته كما رسمها وايل خطأ) . هو علم كان يعرف به كل عرق كان يقطن حدود منغوليا . ولم يبق منهم اليوم الا البروت . ولا يزال هؤلاء المغول يعرفون حتي اليوم فى آسيا الوسطى باسم جته مغول أو مغول الحدود ، نسبة الى كلمة جت التركية بمعنى الحد .

أخلص أتباعه ، ليقيم الى جوار ابنه ناصحا له . ولنا أن ندرك هنا في يسر أن تيمور، وهو الذى جعل سلوكه هنا على الدوام رهنا بسياسة تنظيم كل الوسائل لتحقيق هدف بعيد له ، لم يكن ليرضى على الخصوص بمنصبه كمؤدب لأمير مغولى ، فبدأ من فوره بمنازعة وزير ذلك الأمير ، ليغادر من بعد ذلك بلاط سمرقند فى السر وينطلق فى نفر من أتباعه الى الصحراء التى تمتد فيما بين خانية بخارى وخيوه الحالية وبحر الخزر . وكانت هذه هى الفترة التى كان عليه أن يواجه فيها أقسى المحن ، فى مجال مغامراته ، مواجهة شريد عليه أن يصبر على كل ما يلاقيه من أخطار ومتاعب فى قفار موحشة .

ويحكى تيمور ببساطة محببة فى سيرته كيف أن زوجته الوفية أولجاى ومعهما الأمير حسن ، وكانا قد التقيا به فى الصحراء ، ظلوا جميعا يضربون فى الفلاة شهرا بأكمله لايجدون طعاما أو شرابا أكثر أوقاتهم حتى وقعوا آخر الأمر أسارى أحد التركمان ، وكيف حبس هذا التركمانى زوجته المحبوبة فى حظيرة مليئة بالحشرات . ولا مراء فى أن هذه كانت تجربة قاسية لذلك الرجل الذى كان على نصف آسيا أن تخضع يوما لسلطانه . وفى نار تلك المحنة صهر تيمور (ومعناه الحديد) فخرج منها أساسا بتلك العزيمة الصلبة التى هيأت له ذلك المستقبل اللامع . وما ان تمكن هو وأصحابه من الهرب من الأسر حتى ذهب الى كش فى السر ، فجمع من حوله بعض رفاقه القدامى فى السلاح وأصحابه السابقين ، فتجول بهم قليلا حول شاطىء جيحون ثم أغاروا جميعا على سيستان ، ليصادفه من بعد ذلك التوفيق هناك حينا ما ويتخلى عنه حينا آخر ، فتراه يستولى يوما على حصن من حصون البلوجيين ليردوه عنه من بعد فى يوم آخر . وأصيب تيمور فى احدى وقائعه هذه بجرح فى ساقه تخلف عنه عرجه طول حياته ، ومن ثم أطلق عليه الفرس اسم تيمورلنك أى تيمور الأعرج (١) . وفيما كان يقعد باصابته هذه استطاع رفيقه حسين أن

١ ــ ان دعوى العالم العربى أحمد بن عربشاه ، وهى المبنية على الحقد ، بأن تيمور كان أصلا من رعاة الغنم ، فضبط وهو يسرق بعضا منها وأصيب بضربة سببت له العرج طول حياته ، قد وجدت من يصدقها بين أعداء الغازى التترى الذين تمكنت عداوتهم له فى أنفسهم .

يستولى على بلخ ، فتبعه تيمور الى هناك . وزاد عدد رجاله الى خمسمائة وألف فرأى أنه قادر بهم عـلى الوقوف في وجه القوات التى بعث بها الياس خوجه لتطارده . ووقع أول لقاء بين الطرفين عام ٧٦٥/١٣٦٣ عند الشاطىء الأيسر لجيحون بالقرب من كندز ، وانجلى عن انتصار تيمور انتصارا كاملا على قوات تزيد خمسة أضعاف على قواته ، وانسحاب رجال الياس خوجه الى الجانب الآخر من النهر. ومالبث تيمور على اثر ذلك أن انطلق يطادر الجته بلا هوادة ، كما أخرج الچغتائيين جميعا من بلاد ما وراء النهر . وساعده على تحقيق هدفه هذا بسهولة موت تغلق تيمور اذ ذاك ، وكان ابنه بدوره قد عبر سيحون وذهب الى المالق ليستولى على عرش أبيه . وما ان ترك آخر أمراء المغول أراضى بلاد ما وراء النهر حتى دخل تيمور مدينة سمرقند فلستقبله أهلها استقبالا حافلا، وفيها لحقت به زوجته ابان الاحتفالات التى تلت ذلك ، وكانت حتى ذلك الوقت تعيش متسترة . هكذا بات تيمور وبيده مقاليـد الأمور كلها وقد صار سيد بلاده . وكان فى مقدوره أن يستولى على عرش سمرقند من فوره لولا ان رأى أن هناك من المصاعب ، مالابد له من أن يتغلب عليه أولا ، ومن الأعداء من لا مناص له من استمالتهم الى صفه كذلك ، قبل أن يتمكن من تحقيق هدفه هذا . وبدا له أنحقد شائنيه عليه لابد يزداد اذا مااتخذ لنفسه لقب السلطنة ، فحسم هذا الأمر بأن عزم على أن يقيم عضوا من أعضاء الأسرة الحاكمة نفسـها على عرش الچغتائيين الذى تركه الياس خواجه بلا وريث ، فدعى القرلتاى ونصب قابيلشاد سلطانا لينصرف من بعد ذلك يزيد من فوره فى قوته ونفوذه ويسير قدما فى خططه لتحقيق أطماعه .

كان من المتوقع أنالجته سوف لايرضون باخراجهم من بلاد ماوراء النهر . والواقع أن تيمور لم يكد يقضى عطلة الشتاء فى سمرقند حتى سمع بغارات هؤلاء البدو يقودهم الياس خواجه ، فطير الخبر من فوره الى صديقه الأمير حسين الذى سار اليه بقوة كبيرة . وأقام تيمور مضاربه بين چيناس وطشقند ، فى حين عبر حسين سيحون والتقى بالعدو وجها لوجه . وأفلح الجناح الأيمن ، وعليه تيمور ، أن يرد العدو ، فى حين

كاد الجناح الأيسر وعليه الأمير حسين أن يغلب على أمره ، لولا أن تمكن تيمور بعبقريته الحربية وهمته من أن يحول دون الهزيمة القاضية . وأدى هذا الحادث الى وقوع جدال عنيف بين القائدين كان بداية نزاع انتهى بعد بضع سنوات من القتال الى سقوط الأمير حسين وانفراد تيمور بالسلطان كله . وقد اضطر الجيشان المؤتلفان الى الانسحاب من قتال الجته بعد أن خسرا ألفى قتيل فى حربهما معهم . هنالك تراجع حسين الى قصبته ، سالى سراى على الجانب المقابل من جيحون ، فى حين عاد تيمور الى قارشى . أما الجته فقد تقدموا دون عائق صوب الجنوب فحاصروا سمرقند ، ولولا أن تفشى الوباء فى دوابهم حتى اضطروا الى النكوص على أعقابهم ، وهم يحملون متاعهم بأنفسهم ، لأعملوا السلب والنهب فى المدينة ، على رسم المغول بلا مراء .

ولو كان قد أتيح القيام بهجوم مشترك عند ذاك على هؤلاء الجته لكسرت شوكة المغول لأمد طويل ان لم يكن الى الأبد . ولكن وقوع الانقسام بين الزميلين السابقين قد نتج عنه هوة سحيقة وجد تيمور نفسه مضطرا معها الى محاربة حسين ومراقبة تحركات الجته فى الشمال بعين يقظة فى الوقت نفسه . وبرغم ما كان حسين يستطيع أن يجنده من قوات تفوق قوات خصمه ، اذ كانت أملاكه أعظم من أملاك تيمور وأتباعه أكثر عددا ، الا أن الشواهد تدل على أنه كان يقدر خطورة خصمه . فقد انطلق أول الأمر يخادعه بالدس والوقيعة فى السر ، حتى اذا ما تبين له أن تيمور ليس بالرجل الذى يسهل ايقاعه فى شراكه ، سير اليه آخر الأمر فرقا من جيشه وعليها قائده الأمير موسى لتعبر جيحون وتهاجمه . ورد الأمير موسى على كل حال ، ليزحف عند ذلك حسين من سالى سراى ويعبر جيحون بجيشه كله ويقيم مضاربه عند الشاطىء الآخر من النهر بموضع يدعى بتيك جكجك . وهال تيمور تفوق عدوه البالغ عليه فى العدد ، فارتد أولا الى قارشى ثم الى بخارى من بعد ذلك حتى يستوثق من مدى ما سوف يمده به حلفاؤه هناك من العون . على أنه ما لبث آخر الأمر أن أيقن بأن عونهم له لن يكفيه فى دفع العدو ، فاستقر رأيه عندئذ على أن يتحاشى قتاله ببلاد ما وراء النهر فى ذلك

الوقت وأن يتجنب طلبه له وذلك بالخروج الى غزو خراسان . هنالك زحف حسين من فوره الى بخارى ، وكان أهلها جميعا من التاجيك الذين يعرفون على الدوام بجبنهم . وتقدم هؤلاء للقاء عدوهم . وبرغم ماكانوا عليه من حسن التسلح فسرعان ما أحاط بهم فرسان حسين ودحروهم فى أول لقاء ، فلم يكن هناك من بعد ذلك قوة على وجه الأرض تستطيع أن تدفعهم الى الاشتباك مع عدوهم من جديد . وبهذا صار لخصم تيمور بلاد ما وراء النهر كلها تقريبا ، فى حين أمضى تيمور نفسه الشتاء يعد العدة ، نشيطا ، للمعركة التالية ، لنجده من بعد ذلك يظهر فى الربيع عند جيحون فى طريقه الى طشقند فى قوة متناهية فى الصغر ولكن أفرادها من خيرة الجند الذين استطاعوا فى مجموعة من العمليات الجريئة (وفيها برز ابنه الشجاع جهانكير فى صورة رائعة) أن يشقوا طريقهم وسط جيش الأعداء عند قارشي وسمرقند . وكان تيمور يهدف من وراء ذهابه الى طشقند أن يستحث حليفه هناك ، كيخسرو ، وكان من بيت جلاير ، على مساعدته مساعدة جدية . وكتب له التوفيق فى مسعاه هذا حتى زف كيخسرو ابنته الى ابن تيمور ، وأمده بقوات استطاع بها أن يهزم خصمه ويرد قواته عبر جيحون ، ثم يطارده من بعد ذلك حتى سيحون [1] .

كان فى انتصار تيمور هذا الكفاية ليلقن خصمه درسا قاسيا فى حكمة التمسك بأهداب السلم . فضلا عن أن تحالفه مع بيت جلاير ، وهو من اتباع الجته ، قد ملأ قلب حسين برعب لا يقوم على غير أساس . هنالك بادر حسين بعرض الصلح على تيمور فتقبل عرضه بقبول حسن ورحب به . ذلك أنه هو نفسه لم يكن ليرتاح لرؤية الجته يزجون بأنفسهم فى شئون بلاد ما وراء النهر بعد أن دخلوها بقوة السلاح ، أو لأن نفسه ،

---

(١) كان جيش حسين يبلغ اثني عشر ألف مقاتل وكان يحتمي بحصن قارشي . وقد هاجمه تيمور فى ثلاثة وأربعين ومائتين من الرجال فحسب . وقد عبر هؤلاء الابطال خندق الحصن فى جنح الليل على قطعة من الخشب لا تتسع الا لفرد واحد ، ثم تقدموا وتيمور على رأسهم فتسلقوا الأسوار وقتلوا الحراس ثم نجحوا من بعد ذلك فى طرد الحامية منه .

كما يقول مؤرخوه ، قد طارت شعاعا عند رؤيته المؤمنين يقتل بعضهم بعضا أو يسرق بعضهم البعض الآخر . وأيا ما كان واقع الأمر فان الصلح لم يعقد بين الطرفين فحسب ، بل ان تيمور قد بادر كذلك بعبور جيحون وأعان حسين على اخضاع أحد عماله الخارجين عليه فى بدخشان . ولم تزل الرابطة تقوى بين الأميرين حتى رأيناهما يسيران معا لغزو كابل ، وكان حسين يبغى ضمها الى ملكه . ومع هذا فان السلام لم يدم بينهما طويلا . ذلك أن تيمور لم يكد يغادر بدخشان ليدفع غزوا للجته هددوا به مجرى سيحون الأعلى (وقد نجح فى ذلك) حتى انطلق حسين ينفخ فى الناس فتحرش بتيمور من جديد واضطره الى حربه . وفى هذه المرة لم يزحف تيمور على بلخ بمفرده ، فقد انضم اليه أهم اتباع حسين السابقين دفعهم الى ذلك — على حد قول شرف الدين — أنهم كانوا قد ضاقوا ذرعا بدسائس أميرهم التى لا تنتهى ، أو لأنهم ، وهو الغالب : قد أغراهم صعود نجم تيمور المتزايد . وبرغم ذلك كله فقد قاوم حسين عدوه فى اصرار بالغ فلم يستسلم له الا حين سقطت بلخ آخر معاقله . هنالك انحدر من اسوارها الى معسكر عدوه وتضرع اليه أن يبقى على حياته ، وقد أعلن اليه ، على حد قول ميرخوند ، عزمه على السير الى البيت الحرام ليذرف هناك دموع الندم ويستغفر ربه عما اقترفه من ذنوب كثيرة . وأبى على تيمور كرمه الا أن يعفو عن أخى زوجه المحبوبة . غير أن من حوله لم يقروه على ذلك لفرط ما كان قد لحقهم من الاهانات على يديه حتى صمموا على قتله . ولم يجد الحاح تيمور الكثير عليهم شيئا ، فاضطر آخر الأمر الى أن يسلم اليهم من كان رفيقا له فى شبابه وصديقا ، ثم غريما فاشلا من بعد ذلك فأنزل من برج كان قد لجأ اليه آخر لحظة وسيق الى الموت عام ٧٧١/١٣٦٩ .

بهذا أصبح تيمور ولا منافس له . فقد تم له بحد السيف ابعاد كل أعدائه الخارجين عليه عند حدوده الشرقية بما فيهم الجته . وعلى هذا فقد جرى فى خاطره ، بحق ، أن الوقت قد حان لينهى ذلك الحكم الاسمى الذى كانت تمارسه تلك الدمية التى كانت مجرد سلطان صورى ، وأن يضع على مفرقه تاج بلاد ما وراء النهر الذى كسبه بشق النفس .

وكما تظاهر نادر (١) ، من بعد ذلك ببضعة قرون،بقدر من القصد والحياء الشرقى المصطنع قبل أن يتقلد التاج ، — وهو الذى كانت سيرته أشبه بسيرة تيمور — فكذلكلم يرض تيمور لنفسه أن يرقى الى أرفع منصب دون تثبيت القرلتاى له فى ذلك . وضم هذا المجلس ، حين عقده ببلخ لهذا الغرض ، أعيان الدولة الجغتائية السابقة مع أقران تيمور فى السلاح ورفاقه فى شبابه ، ومعهم شانئوه السابقون . ويذكر المؤرخ ، من بين هذه الأسماء البارزة ، الأمير شيخ محمد بايان ، من بيت سولدز والأمير الجايتو (٢) ، والأمير كيخسرو من بيت ختلان ، والأمير داود من قبيلة دوغلات ، والأمير سربغاى من بيت جلاير والأمير جاكو من قبيلة برلاس، والأمير زنده هشم وغيرهم من المشهورين (٣) . وعلى الرسم التركى القديم أجلس تيمور على لباد أبيض بمكان مرتفع . وبعد أن حمد الله وأثنى على نبيه واعظه السيد بركه ، نودى به أميرا على بلاد ماوراء النهر فى العاشر من رمضان عام ٧٧١/٨ أبريل ١٣٦٩ . هنالك فرق تيمور العطايا الفاخرة فى أتباعه الذين كان قد كسبهم لصفه برفقه وتسامحه ، وفى كثيرين كذلك ممن كانوا يعادونه . حتى اذا ما تم له تثبيت سلطانه على هذا الجانب من جيحون ، عبر النهر الى سمرقند فاتخذها حاضرة له . وظلت هذه المدينة ، منذ ذلك الوقت حتى وفاته ، منتجعة ومستراحه بعد متاعب الحروب العديدة التى خاض عمارها . واليها كانت تحمل الأسلاب العظيمة والأموال الطائلة التى سقطت بأيديه فى بلاد آسيا المختلفة العديدة . وأول ما اتجه اليه تيمور بعد أن أمسك بأعنة الحكم هومحاولة اقرار الأمور من جديد فى ذلك الاقليم الذى كان يعمه الفوضى . وكان تيمور برغم غيرته الاسلامية البالغة ، يعجب أشد الاعجاب بمجوعة قوانين جنكيز . وهذه ، وهى نتاج تورانى سياسى بارع ، كانت بلا مراء

(١) هو نادر الافشارى شاه ايران الذى خلف الصفويين (المترجم)

(٢) لا أستطيع أن أعلل قراءة دولاكرو Petit de la Croix لهذا الاسم على أنه أولاجى ايتو .

(٣) كان من بين هؤلاء زندة هشم أمير شبورغان ، وكان قد ثار مرات عديدة فى وجه تيمور ولكنه أخضعه ، وبلغ بما لقيه من المعاملة الكريمة الى أن صار من أخلص اتباعه .

أصلح لأحوال الشعوب التركية التترية من تلك القوانين السامية الخالصة المستمدة من القرآن والسنة . ومن هنا نستطيع أن ندرك بسهولة كيف حرص تيمور حرصا بالغا على التمسك بالياصا تمسكا شديدا وأصر عليها برغم معارضة شيوخ المسلمين فى ذلك (١) . كما نقل بأمانة كل قوانين الفاتح المغولية الخاصة بالنظم العسكرية فى البلاد واحتفظ بالرتب العسكرية المغولية كرتبة تومان أغاسى (قائد عشرة الآلاف) ويوزباشى (قائد المائة) وأونباشى (قائد العشرة) .

أما نظام الحكومة فقد بقى على حاله اللهم الا قوانين المكوس فقد عدلت على وجه يوائم الى حد ما ما نص عليه الشرع الاسلامى . وأما القواعد التى كان يجرى على أساسها منح الرتب فقد اقتبست هى ومراسم البلاط الى درجة كبيرة مما كان الحال يجرى عليه عند الأسر الحاكمة الأولى وعلى رأسها السلاجقة والخوارزمشاهية . فعن الخوارزمشاهية أخذت رتبة بكلربكى ، أى أمير الأمراء ، وهى تعادل فى العصر الحديث رتبة المشير ، وشارتها علم أحمر طويل . أما رتبة تومان أغاسى ، فشارتها « التوك » وهو رمح طويل بطرفه ذيل حصان ، ورتبة يوزباشى وشارتها طبلتان من طبول الموسيقى يحملها تابعه (٢) على جانبى سرجه . وكان الموظفون المدنيون يلزمون ، أثناء اضطلاعهم بواجباتهم ، بمعاملة الأهلين بالعدل والانصاف مع رعاية مصالح التجارة كذلك .

---

(١) يتهم ابن عربشاه بوجه خاص تيمور بدون حق بأنه جعل الياصا فوق القرآن • فالمعروف أن التشريعات الاسلامية تصلح لحكومة دينية أكثر مما تصلح لحكومة عسكرية، فلا مجال لها بذلك مع الياصا فى الغالب (المؤلف) هذا القول يجانب الصواب ، وكان الأحرى بالمؤلف أن يرجع أولا الى تاريخ الفتوحات الاسلامية التى دوخ بها العرب بنظمهم الفرس والروم • ومع هذا فقواعد الياصا الأساسية لا ينكرها الاسلام فى أغلبها • والمعروف كذلك أن الاسلام ، وهو دين وحكم ومدنية ، قد أبقى على كثير من النظم التى وجدها بالبلاد التى فتحها وأخذ بها • (المترجم) •

٢ ــ لاتزال هذه الرسوم تقوم حتى اليوم • ولا يظهر أى فرد من بين كبار أصحاب الرتب من الأوزبك بالميدان أو يسرح الا ويتقدمه تابعه يدق طبوله •

وكان على القواد أن يحرصوا بدقة على سلامة رجالهم . وكان على كل فارس أن يجهز بفرسين قويين وقوس وجعبة مليئة بالسهام وسيف ومنشار وفأس من فؤوس الحرب وخيوط مع عشر من المسال . وكانت الخيام تعد فى الميـدان بحيث تتسع الواحدة منهـا لثمانية عشر رجلا . ويفرض كذلك فى كل ضابط أن يكون ملمـا بقواعد أسـاسية بعينهـا للتكتيكات الحربية . ولا يزال هذا النظام يلزم به اليوم كل فارس أوزبكى أو قائد تركمانى فى تعليمه (١) .

أما الجندى العادى فكان يلزم بالطاعة التامة لرؤسائه . وكان عليه أن يندفع بحماس فى القتال ، على أن يعامل عدوه بلطف اذا ما استسلم اليه واسترحمه . وفى الجملة كان الجندى التيمورى أبعد ما يكون عما وصـفه به أعداء تيمور بأنه كان مجرد غول شرس . وعلى ما ورد فى توزوكات تيمور لم تكن الادارة المدنية لهذه البلاد أقل احكاما ونظاما عن الادارة العسكرية . فكان على رأس هذه الادارة ديوان بيـكى (كبير الحجاب) يعاونه ارزبيكى (الحاجب) وأربعة من الحجاب . وكان أحد هؤلاء الوزراء يوكل به شئون الخراج والكوس والشرطة . أما الثانى فكان يناط به أمر مدفوعات الجند وتموينهم ، فى حين كان يختص الثالث بسـجلات واحصـائيات الجيش والمواريث ، والرابع بنفقـات البـلاط السلطانى . وكان كبار الموظفين يوكل بهم تنفيذ القوانين وجمع الخراج فى رفق بالناس ما وسعهم ذلك . والمفروض أن اسـتخدام السوط كان ممنوعا منعا باتا ، حتى لنرى تيمور يقول ان الحاكم الذى يهاب الناس سوطه أكثر من شخصه غير جدير بمنصبه .

ولم تكن اعادة تنظيم حكومة بلاد ماوراء النهر بالأمر اليسير ، وهى التى مضى عليها أكثر من قرن فى فوضى شـاملة . وكان من الطبيعى أن يجرى هذا الاصلاح بالتدريج . على أن تيمور كان قد اتجه منذ البداية

---

١ ـ جرى الرسم على أنه حين كان يعطى البدوى الشاب خيمة خاصة به أى حين يبلغ رشده ، كان يمثل أولا امام جمعية من أعيان القوم فيختبرونه فى المسائل التى تتعلق بالعقيدة والآداب وتربية الماشية أو الفروسية أو يلقى هو بحديث فى ذلك كله

الى اشباع نهمه فى الفتوح ، وهدف الى مد حدوده كما هدف فى الوقت نفسه الى اقرار الأمور الداخلية فى دولته . وقد اضطر أول الأمر بطبيعة الحال الى أن يكفى نفسه خطر أشد أعدائه وهم الجتة ، وكانوا لا يزالون ولهم نفوذهم فى موطنهم القديم حتى لم يكن ليستبعد منهم أبدا أن يقدموا على غزو بلاد ما وراء النهر من جديد . وبادرهم تيمور نفسه بالهجوم ، فما أن ظهر بينهم عام ١٣٧٠/٧٧٢ حتى استسلموا له طواعية ، ليعود من بعد ذلك الى سمرقند . وما غدا كبك تيمور أميرهم الجديد أن شق عصا الطاعة من جديد على كل حال. وبرغم أن الجيش الذى بعثبه سمرقند كان قد أفلح فى قمع هذه الفتنة ، الا أن تيمور لم يقنع بنصر قائده حتى خاض بنفسه غمار حرب جديدة مع أعدائه القدماء ، فاجتاح منازلهم وأعمل السلب والحريق فيها يمينا وشمالا ، ثم عاد آخر الأمر الى موطنه محملا بالغنائم وفى ركابه عدد عظيم من الأسرى .

وما أن انقضى على ذلك أربع سنوات حتى جمع قمر الدين أمير الجتة جيشا كبيرا من جديد عند كوك تپه ، فخرج اليه تيمور فى جيش كثيف بدوره . ودارت الدائرة على الجتة ، وفر قمر الدين من الميدان تاركا متاعه وحريمه وفيهم ابنته الحسناء دلشاد أغا ، فوقع ذلك كله بأيدى الفاتح المنتصر . وبنى تيمور بهذه الابنة على أمل أن تؤدى تلك المصاهرة الى انضمام عدوه له . ولكنه لم يبلغ بذلك الى ما كان يرمى اليه وهو ضم القسم الشرقى من دولة چغتاى السابقة اليه ، حتى وقعت حرب خامسة هزم فيها قمر الدين هزيمة حاسمة اضطر على اثرها الى الفرار من هذه البلاد الى غير رجعة . وقد وقع ذلك آخر عام ١٣٧٦/٧٧٨ .

وفيما كانت الحوادث تجرى بما سبق ذكره كان بطلنا يتجه بتفكيره كذلك الى ناحية أخرى هى خوارزم . فسلك بازائها سياسة عدائية أدت الى وقوع الحرب معها . فقد ادعى بغير حق(١) أن كت وخيووك(٢)، بل

(١) أخطأ كتاب سير تيمور ومعهم وايل فى كتابه عن تاريخ الخلافة ثان ص ٢٣ ، فى اعتبار خوارزم من بين أملاك الجغتائيين . ذلك أن خانية خيوه كانت فى زمن المغول تعد جزءا قائما بذاته فى ملك جوجى

(٢) كانت خيوه تعرف فى القديم باسم خيووك ، وهو لفظ من أصل تركى كان غير معروف زمن السلاجقة .

وبالحقيقة كل خوارزم كانت فيما مضى جزءا قائما بذاته فى أملاك الجغتائيين الموروثة ، وعلى هذا فان أميرها حسين صوفى ، — وكان من قبيلة قنغرات — يلزم بدفع الخراج له . وأوفد تيمور الى هذا الأميرأول الأمر تواجى(١) علقمة ليؤكد له باسمه صحة دعواه هذه. ولكن حسين رد عليه بأنه انما استولى على هذا الاقليم بسيفه ، فهو بهذا لن يتخلى عنه الا بقوة السلاح . ولم يعوق تيمور عند ذاك عن غزو خوارزم لفوره الا توسط الشيخ جلال الدين ، وكان من أعيان كش ، فى محاولة جديدة لحل هذه المسألة سلميا . وفشل الشيخ فى وساطته هذه على كل حال كما فشلت وساطة له من قبل ، ليزحف عند ذلك تيمور الى خوارزم فى ربيع عام ١٣٧١/٧٧٣ بجيش كبير . ووفد اليه وهو على أهبة الرحيل رسل أمير هراة الجديد لتعلن ولاءها باسم هذا الأمير وتقدم اليه ، فيما قدمت من الهدايا ، فرس الحرب ذائع الصيت كنغ أوغلان (الرفيق الأسمر) الذى تغنى بذكره الكتاب الشرقيون . وسلك تيمور فى زحفه طريق بخارى ثم عبر الصحراء عند كت (قريبا من هزاراسب) . وقد استولى على هذا المكان بعد حصار شديد ، ثم انطلق من بعد ذلك الى خوارزم ، حصن حسين صوفى . وبرغم دفاع كيخسرو أمير ختلان فقد سقط ذلك الموضع بعد معركة فى السهل هزم فيها الخوارزميون . ومات حسين ابان الحصار فسارع أخوه يوسف صوفى الى طلب الصلح وقد راقه فى الغالب أنطلب تيمور يد ابنة أخيه الأميرة الجميلة سيوين(٢) لابنه جهانكير ، وذلك تدعيما لما قام بينهما من تحالف . وأجاب يوسف خصمه الى ماطلب عن رضا وسرور ، وبهذا صار فى مقدور تيمور أن يستدير عائدا الى وطنه وهو قرير العين بما حقق من نتائج ومكاسب . على أنه لم يكد يشرع فى العودة حتى رأينا يوسف ، بتشجيع من الغادر كيخسرو،

---

(١) هو فى الأصل تباجى (وليس تويجى كما قرأه هامر وغيره خطأ) وهو لقب العامل المنوط به شئون التعبئة ، وهو مشتق من المصدر التركى تپمك = أن يجد .

(٢) وتنطق فى التركية الحديثة ، سويون ، بالامالة ، معناها الجميل أو اللطيف .

لا يرفض الوفاء بوعده بخصوص المصاهرة فحسب ، بل ويثور كذلك فى وجه تيمور . هنالك اضطر تيمور الى حربه مرة ثانية عام ١٣٧٢/٧٧٤ ، وانتهت هذه الحرب بانتصار تيمور كذلك .

وتبع ذلك أن زفت الأميرة آخر الأمر الى ابنه ، وقد أتت معها بأثاث فاخر . واحتفل بالزفاف فى سمرقند احتفالا فخما . ولكن الأجل لم يطل بالأمير جهانكيز من بعد ذلك الا عامين ، كما لم تستمر الهدنة بدورها بين الفريقين الا قليلا . هنالك اضطر تيمور الى أن يخوض غمار حرب ثالثة ثم رابعة مع خوارزم . وفى المعركة الرابعة نادى يوسف بفكرة غريبة مفادها أن يتبارز هو وتيمور على انفراد فيوفر بذلك وقوع الصدام بين الجيشين ، فكتب فى ذلك الى خصمه يتساءل الى متى تظل الدنيا كلها تغرق فى الآلام والبؤس بسبب رجلين ، وأن من صالح الانسانية ومصلحة بلديهما بالتالى أن يتلاقيا وجها لوجه منفردين ويجربا حظهما معا ، على حد قول القائل :

حين تخضب سيوفنا بالدماء

فالسعيد من سوف يكتب له البقاء .

وقد سر تيمور بهذا الاقتراح أيما سرور . وبرغم معارضة سيف الدين برلاس (١) له فى تعريض حياته الغالية للخطر، فقد كان هو أول من برز للقاء خصمه وأخذ يناديه بصوت عال ليخرج اليه . لكن يوسف لم يظهر له أثر اذ ركبه الذعر والوجل وندم على اقتراحه . وآثر يوسف القتال بجنده فى المعركة فهزم ، ومات بحصن خوارزم عام ١٣٧٩/٧٨١ فى نفس الوقت الذى كان فيه تيمور يحاصره . ووقع بأيدى الفاتح هنالك كنوز طائلة نقلها الى كش . وحمل معه كذلك كثيرا من مهرة الصناع

(١) نسى تيمور نفسه عند ذلك لفرط تحمسه حتى شتم فى ذلك الشيخ سيف الدين برلاس وعنفه على اعتراضه اذ عد ذلك تطاولا منه عليه وشكا فى شجاعته .

وأرباب الحرف ، وعددا كبيرا من العلماء ، كما شيد هناك قصرا تذكارا لانتصاراته هذه . ثم أمضى الشتاء من بعد ذلك فى حاضرته طلبا للراحة من عناء العمل وأخذ فى الاستجمام والاستمتاع بها .

وبرغم أن خصوم تيمور وصهره الأمير حسين والجتة المبعدين عند حدوده الشمالية الشرقية قد تتطلب منه اخضاعهم همة بالغة واستنفد جهودا طائلة، فقد كان عليه مع ذلك أن يتحمل مزيدا من المشاق حتى تم له اخضاع أعدائه فى خوارزم الغربية . ذلك أن الأخوين الصوفيين كانا ، الى جانب مواردهما الكثيرة ، يستطيعان الاعتماد على عون خانات القبيچاق لهما ، وبالخصوص على عون حكام « القبيلة الذهبية » وهو الاسم الذى كانت تعرف به دولة جوجى عادة . وكان حكام خوارزم قد تحالفوا مع حكام سراى على تيمور منذ زمن طويل ، فكان فى سقوط الخوارزميين النذير الأكبر لحلفائهم. ولم يكن تيمور ، بعد أن عاد مظفرا من خوارزم وقد باتت آسيا الوسطى كلها تخضع لسلطانه ، ليعسر عليه أن يدرك آخر الأمر أن هذه البلاد التى تقع على شواطىء سيحون وجيحون غدت لا تكفى أطماعه ، وأنه قد بات وفى مكنته أن يترسم فى يسر خطا چنكيز الذى كان يرى فيه مثلا أعلى فى الحرب . وما يمنع هذا المحارب ، وهاهو ذا الحظ يحالفه فى كل خطاه ، أن يطمح الى دور «فاتح العالم » وهو الذى أخضع كل توران له . ولو كان ذيوع عبقريته الحربية لم يؤلب عليه أعداءه وحساده ، فانه لم يكن على كل حال ليعدم سببا يبرر به اعتداءاته ، حتى لتراه فى ترجمة حياته لا يفتأ يردد قول الشاعر « اذا كان هناك رب واحد فحسب فكذلك يجب أن لا يكون هناك الا سلطان واحد . وما تكون الدنيا بأسرها بالقياس الى طموح أمير عظيم ! » بل اننا لنجده كذلك يقول فى سيرته « فى كل اقليم يسود العسف والظلم، يصبح من واجب كل أمير كائنا من كان أن يقتلع أرباب الفتن ويغزو هذا الاقليم وذلك لصالح السلام العام والأمن . وعلى كل أمير مظفر أن يخلص الناس من الذين يستبدون بهم ، وهذا هو الذى دفعنى الى فتح خراسان والى تخليص ممالك فارس والعراق والشام (دمشق) من الفوضى التى كانت تسودها » . وما كان تيمور ليبلغ درجة غزاة العالم لولا ما كان له

من عبقرية عسكرية لاتنكر الى جانب مواهبه الشخصية الغالية . هذا بالاضافة الى ما تهيأ له من جيش ثابت حسن التدريب ، أفراده على الطاعة العمياء وقواده على أعلى درجات الكفاية. وكان أكثر الجند الذين ساروا تحت راياته هم أنفسهم الذين كانوا معه أول حياته فخاضوا معه مغامراته الخطرة يوم كانت الأيام تتقلب عليه .

وكان قوادهم من أمثال جهانكير برلاس وسيف الدين برلاس وآقبغا وعثمان عباس ومحمد سلطان شاه وقمارى وتبان بهادر وأوروس بغا وپير حسين برلاس وحمزة ابن الأمير موسى ومحمد فزعان وسريك أتكه ومظفر اوچقرا ، ممن برهنوا على مالهم من كفاية حربية سواء حين كانوا يحاربون فى صفه أو حين كانوا يناصبونه العداء . على أن أهم ظرفين مهدا له بلوغ غايته هما :

أولا : حالة الفوضى التى كانت تسود آسيا .

ثانيا : الروح الحربية القوية التى كانت تسود تركستان .

هذا وكانت آخر آثار الوحدة القومية قد اختفت هناك بانهيار قوة المغول وتفكك ذلك الاقليم كله الى امارات عدة أصحابها أبعد ما يكون عن أن تقوم الألفة بينهم ، متحاربون فيما بينهم بأشد قسوة وعداء . وفى مثل هذه الأحوال كان ليد قوية مثل يد تيمور ، يظاهرها روح جسور وطالع سعيد ، أن تأمل فى بناء تلك الدولة التى امتدت من نهر ارتش (بسيبيريا) الى الكنج ومن صحراء جوبى الى بحر مرمرة .

لقد أحطنا احاطة تامة بفعال تيمور فى موطنه اذ كانت هذه على اتصال مباشر بموضوعنا فى الأكثر . أما حروبه الخارجية فسوف تتعرض لها بغير تطويل ، وان كانت هى فى حد ذاتها جديرة بالتفصيل بوصفها قوام أزهر حقبة فى تاريخ بلاد ما وراء النهر . ذلك أن المنهج الذى التزمناه فى كتابنا هذا يجعلنا نكتفى بأن نحصى نتائج هذه الحروب دون أن نتعرض لتفصيل وقائعها وحوادثها . وهذه ، على كل حال ، تضمها

مؤلفــات هي اليــوم فى متنــاول أيدى الشعوب الأوربية منــذ زمن طويل (١) .

- كانت أولى فتوحات تيمور ، فيما وراء حدود آسيا الوسطى ، هى عند الشمال ، فى بلاد خلفاء جوجى . ويمكن أن يقال ان أصحاب هــذه البلاد قد جلبوا على أنفسهم سيف الغازى بتلك الفتنة العمياء التى أدت الى قيام الحرب الأهلية فيما بينهم .

فقــد حدث أن لاذ بتيمور عام ٧٧٧/١٢٧٥ ، وهو فى حربه مع الجتة ، الأمير تختمش(٢) بعد أن طرده عن عرش آبائه هناك الأمير المخوف أوروس خان . وصادف اضطراب الأمور فى هذا الاقليم هوى فى نفس تيمور ولاءم أغراضه أتم ملاءمة ، فاستقبل تختمش بحفاوة بالغة وصحبه معه الى سمرقند بعد أن غمره بهداياه ، ثم عهد اليه من بعد ذلك بحكومة آترار وسربان ، وهما ولايتان فى تركستان الحالية ، فصار بذلك فى وضع

---

(١) من بين سير تيمور التى غدت فى متناول القراء الأوربيين مايأتى: أولا : الترجمة الفرنسية للكتاب الفارسى الذى ألفــه شرف الدين يزدى • وبرغم تحيز المؤلف الظاهر لهذا الغازى التترى فان كتابه يحوى أوســع التفصيلات عن حياة تيمور وفعاله ، وقد نقله الى الفرنسية نقلا غير دقيق لسوء الحظ Petis de la Croix ونشره عام ١٧٧٢ • ثانيا : الترجمة الانجليزية لرواية ميرخوند عن حياة تيمــور وقد قام بهــا دافيــد برايس D. Price ونشرها عام ١٨٢١ فى كتابه Mohammedan History وليست كتابة ميرخوند فى ذلك الا صورة لما ورد عند شرف الدين على كل حال • ثالثا : هامر فى كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية Hammer, History of the Ottoman Empire رابعا : مالكولم فى كتابه عن تاريخ الفرس Malcolm, History of Persia خامسا : وايــل فى كتابه عن الخلافة العباسية فى مصر Khalifate of the Abbasides in Egypt سادسا وأخيرا : دوهر بيلوت فى المكتبة الشرقية D Herbelot, Bibliothèque Orientale.

(٢) وليس توقتمش كما ذكره كثيرون ممن سبقونى نقلا عن الرسم العربى والفارسى الخاطىء • وتختمش لفظ جغتائى حديث يقــابل لفظ منغكو القديم ومعناه ، الخالد أو الباقى • هذا وكان ممن صــحبونى فى رحلتى بأواسط آسيا حاج من خوقند دفعت به تقواه الى أن يبــدل اسم ابنه ، وهو تختا ، باللفظ العربى المقابل له وهو (باق)

يستطيع به أن يدفع عن نفسه خصمه القديم ، وكان قد سير في أثره ابنه الأكبر توخته كايا بجيش ليطارده . ولم يحالف الحظ تختمش على كل حال ، فقد أصيب بالهزيمة بعد محاولتين فاشلتين له ، واضطر على أثر ذلك الى أن يلوذ بتيمور للمرة الثالثة فقدم اليه جريحا ممزق الثياب . هنالك رأى تيمور أن واجب الضيافة يقضي عليه أن يسير الى حرب أوروس خان بنفسه . على أن البرد والرطوبة في الصحراء الموحشة منعا لقاء الجيشين حتى اضطرا أن يقيما هناك أشهرا متواجهين دون أن يستطيعا القيام بأي حركة .

وخرج تيمور الى خصمه في الربيع التالي عام ٧٧٨/١٣٧٦ ، اكراما لضيفه ، فواتته الظروف هذه المرة وتم له القضاء على أوروس خان وابنه توخته كايا . وبهذا لم يعد ينافس تختمش الا تيمور ملك ابن أوروس الأصغر . ومن الواضح أن هذا الأمير لم يكن ليستطيع أن يقف أمام جيوش أعدائه المتحدة ، وقد هزمه تيمور بالفعل عند قراتال وأسره ثم قتله . هنالك ثبت تختمش أقدامه من جديد في بلاده ثم انطلق من بعد ذلك بقواته فاستولى على كل خانية القبجاق وأخضع الماماى ثم اندفع من بعد ذلك في داخل روسيا حتى بلغ موسكو فأحرقها عام ٧٨٦/١٣٨٤ وتركها رمادا . وأسكره ما أحرز من نجاح فتناسى أيادي تيمور السابقة عليه وأراد أن يجعل من نفسه فاتحا للعالم ، فغزا عام ٧٨٩/١٣٨٧ شواطىء قزوين الغربية وأسرع من هناك فهاجم تيمور نفسه (١) وكان منهمكا اذ ذاك في فتح اقليم آذربيجان . هنالك أسرع ميرانشاه بن تيمور فعبر نهر كور اليه ورد مقدمة جيشه . وحين رأى تيمور خصمه يرتد في ذعر بالغ آثر أن يعالج المسألة ببساطة ورضي بالصلح معه على القول المأثور «الفتنة

---

(١) يشير هامر ــ بورجشتال في كتابه عن تاريخ القبيلة الذهبية ص ٣٤٠ الى أن السبب الأول لقيام العداء بين تختمش وتيمور هو مقتل الأمير حسين حفيد قزعان (وليس اسفان) وهو أمير من بيت جغتاي وينسي هامر وجنابي الذي نقل عنه أن الامير قزغان لم يكن جغتائيا على الاطلاق بل هو تركي عدو للمغول .

تائمة لعن الله من أيقظها» (١) . ولم يعمد تيمور الى ذلك الا ليرتقب فرصة تواتيه من بعد ذلك ينفس فيها عن استيائه ، وقد واتته هذه من بعد ذلك بعامين . ففى شتاء عام ١٣٨٩/٧٩١ ، والثلج يغطى الأرض بطبقة كثيفة تغوص فيها أطراف الخيل ، بارح تيمور سمرقند ليلتقى بتختمش ، وكان قد هاجم حدوده الشمالية ، فهزمه شر هزيمة عند شواطىء سيحون ، ثم أنزل به من بعد ذلك ضربة أخرى فى الربيع التالى عند الشاطىء الأقصى لذلك النهر. ولم تطفىء هاتان الواقعتان من ظمأ تيمورللانتقام ، فخرج من جديد شتاء عام ١٣٩١/٧٩٣ على رأس جيش كبير تام الاعداد ليهاجم تختمش فى بلاده نفسها .

ولاقت الخيول النصب بسيرها ومناوراتها طوال شهور ستة عبر سهوب جنوب سيبيريا الجرداء. ولم يكن سير الجيش فوق هذه الأراضى شديدة الانبساط تامة الاستواء ، فى مشقته ونصبه دون الحملات المشهورة عبر الجبال العالية (٢) . وظل هؤلاء الجند وقد نال منهم الجوع والتعب يذرعون الأرض كلها طلبا لعدوهم حتى التقوا به آخر الأمر فى شهر مايو عند شواطىء يايك (اورال) الخضراء . هنالك قامت عدة مناوشات مثيرة بين الفرسان من الفريقين ، وتحارب الجيشان آخر الأمر معا بشجاعة لثلاثة أيام ركب فيها الفريقان الهول حتى غدر بتختمش رجاله فى النهاية فهزم ولجأ الى الفرار . وقد جد تيمور فى أثره بداخل روسيا حتى قيل انه بلغ فى مطاردته له مدينة موسكو .

وأدرك أهل هذه المدينة ، كما يلاحظ جيبون بحق ، أن حماية أيقونه العذراء المعجزة لهم لن تفيدهم فى كثير ، فذهبوا ، فى حذر وفطنة ،

---

(١) أخطأ المؤلف حين حسب هذا الأثر من آى الذكر الحكيم (المترجم)

(٢) لم يكن على جيش تيمور أن يواجه جوا بالغ القسوة فحسب ، بل كان عليه كذلك أن يقاسى الجوع والحرمان من كل وسائل الراحة . فقد انقضت جراية الجندى فى اليوم الواحد الى فنجان واحد من الحساء الحمصى، وقد اضطر تيمور آخر الأمر الى وقف زحفه وأخذ ينظم حملات للصيد على نطاق واسع أفادت الى حد ما فى تلطيف حدة الجوع وعاونت بذلك على معاودة الزحف من جديد .

يتوددون الى بطل بلاد ما وراء النهر . وعاد تيمور الى وطنه بعد هـذه الحملة التى استغرقت احد عشر شهرا ، ومعه عدد كبير من الأسرى (وفيهم أسرة خصمه ونساؤه) وكل كنوز الشمال وجواهره ، فخورا بأنه قد أصبح ينطوى تحت لوائه قسمان من أهم أقسام مملكة چنكيزخان السابقة، فلم يبق منها ما هو خارج عن سلطانه الا القسم الثالث وهو الذى يحوى ايران والعراق وجزءا من الهند . وها هو ذا قد اطمأن كل الاطمئنان الى استقرار الأحوال عند حدوده الشمالية ، وبهذا رأى أن قد آن الأوان ليوجه كل اهتمامه صوب الغرب .

كان تيمور قد بدأ فعلا فى فتح الأقاليم التى تتكلم الفارسية (أى خراسان وايران) قبل أن يتم اخضاع تختمش بوقت طويل . فقد سير ابنه ميرانشاه ميرزا عام ٧٨٢/١٣٨٠ وبصحبته نفر من القواد الأكفاء لفتح خراسان ثم لحق به هو بنفسه بعد قليل سالكا الطريق الذى مهده له ابنه المقدام . وهناك كان على الغازى الكبير أن يواجه أسرتين حاكمتين منفصلتين . ففى الشمال كانت تحكم أسرة سربدار (١)، وكان قدقام بينها وبين تيمور نوع من الصداقة أيام كانت تحيط به المتاعب والضيق . وقد استسلم أفرادها له دون مقاومة . أما الجنوب فقد كان يحكمه أسرة كرت (الذى ذكرناه من قبل) وكان قد سبق لتيمور حربها فى شبابه . ولم تر هذه أن تحسم الأمر مع تيمور سلما ، فقد آثر عميدها غياث الدين پير على أن يعتمد على سيفه دون شهامة تيمور ورحابة صدره ، فانطلق بهمة

---

(١) هذه الأسرة ، التى استولت على خراسان الشمالية الشرقية بعد سقوط المغول ، كان أفرادها قد قدموا من العراق . وهم نسل من يدعى شهاب الدين الذى ينتسب من ناحية أبيه الى الامام الحسين ومن ناحية أمه الى خالد البرمكى . وكان لشهاب الدين هذا خمسة أبناء هم أمير الدين وعبد الرازق ووسيط الدين وناصر الدين وشمس الدين . ولم يقم حكم هذه الاسرة بخراسان الا المدة خمسة وثلاثين عاما واشتهر من بين أعضائها:
١ ـ عبد الرازق وحكم عاما واحدا وشهرين ، ٢ ـ مسعود وحكم سبعة أعوام ، ٣ ـ شمس الدين ٤ ـ توغان تيمور ـ ٥ ـ كساب حيدر ؛ ٦ ـ يحيى كرتى ، ٧ ـ حسن دامغانى ، وأخيرا مؤيد عبد الرازق الذى استسلم لتيمور طواعية .

يدافع عن أراضيه التى كانت تمتد اذ ذاك من جبال الهندكوش فى الشرق ومرغاب فى الشمال حتى الاقليم الصحراوى عند شاهرود .

على أن جهوده كلها باءت بالفشل . فقد سقطت حاضرته هراة بعد مقاومة عنيفة ، أما المدن الأخرى مثل كبوشان وطوس ونيسابور وسبزاور ، وهى جميعا من مراكز العلوم والفنون المشهورة ، فقد فتحت أبوابها للغزاة اذ آثر أهلها أن يجعل تيمور منها مراكز لحامياته على أن يحيلها الدمار الى خرائب . وهكذا استسلم للغازى بلاد الأفغان وبلوخستان وسيستان فضلا عن خراسان ، وبهذا وجد نفسه عام ٧٨٨/١٣٨٦ وقد أصبح مطلق اليدين ، ليتجه من بعد ذلك الى العراق وبلاد فارس الأصلية .

كان يحكم اذ ذاك بمناطق ايران سالفة الذكر أسرتان منفصلتان ، فالأجزاء الجنوبية ، وهى فارس وأصفهان كان يحكمها آل المظفر ، فى حين كان الايلخانيون يسيطرون على العراق وآذربيجان . وأدت بشاه شجاع ، عميد الأسرة الأولى ، حكمته الى أن يجنب أبناء الأراضى الجنوبية المرفهين لقاء جنود بلاد ما وراء النهر الأشداء فاستسلم لتيمور من تلقاء نفسه . وقوى من رباط السلم بين الفريقين زفاف ابنة شاه شجاع الى الأمير پير محمد ، ابن جهانكير الراحل . أما السلطان أحمد ، ابن الشيخ عويس جلاير ، فلم يرض بما ذهب اليه شاه شجاع ، اذ وقر فى ذهنه أن فرسان الأكراد ومحاربى آذربيجان كفيلون بالوقوف فى وجه هجوم قوات تيمور فأقبل على الحرب . وانهالت عليه الضربات منذ البداية حتى اضطر الى ترك عاصمته القوية الحصينة سلطانية الى بغداد ، فى حين عبر عدوه المنتصر نهر أراكس فجثا تحت قدميه كل القوقاز الشرقى بضربة واحدة ودخل مدن نخجوان واريوان وتفليس وشروان فاتحا .

واضطرت جيلان بدورها الى الخضوع برغم مناعة موقعها وبرغم ما كان يحيط بها من مستنقعات عميقة وأحراش فطرية كثيفة ، كما حمد تهيرس أمير ارمينية ، بعد سقوط حصنه وان المشهور ، لسلطان الشرق الأقصى المهاب أن تركه على بلاده تابعا له .

كانت أسرة القره قيونلو (الخروف الأسود) وأصفهان البلد الثائر، هما وحدهما اللذان تعرضا لسخط الفاتح التترى فى هذه الحملة . فقد فقدت هذه الأسرة أقوى حصنين لها وهما: حصن أخلاط وحصن عادل جواز .

أما اصفهان فقد أهلك تيمور من أهلها سبعين ألفا لقتلهم ثلاثة آلاف من جنده غدرا (١) . وملأت هذه المذبحة الشنيعة بالرعب نفس زين الدين ابن الشاه شجاع حتى عدل عما كان ينتويه من خلع نير الخضوع لتيمور الذى كان قد ارتضاه من قبل . كذلك قدم آل المظفر بدورهم الى شيراز فأعلنوا خضوعهم لتيمور الذى عاد من بعد ذلك الى سمرقند مظفرا عام ١٣٨٩/٧٩١ فركن هناك الى الاستجمام والراحة بعد النصب ، فطفق يقيم الحفلات ويعقد مجالس السمر ويخرج للصيد تجديدا لقواه واستعدادا لفعال جديدة يضطلع بها . وقطع عليه استجمامه هذا حربه مع تختمش التى فصلنا أمرها من قبل . وعاد من هذه الحملة ليضطلع بما يعرف بحرب « السنوات الخمس » فى الغـرب وهى التى رام بهـا القضـاء على الاضطرابات السائدة هناك ، اذ ذاك ، وليجنى ، فى الحقيقة ، ثمار كل حروبه السابقة باخضاع ايران والعراق اخضاعا تاما .

فما ان أبل من مرض قصير كان قد ألم به عام ١٣٩٢/٧٩٤ حتى عبر جيحون عند آمويه على رأس جيش عرمرم حسن التدريب فزحف على طول حدود ايران الشمالية حتى بلغ استراباد لتأديب الثوار فى مازندران. ولم تستسلم له آمل الا بعد قتال عنيف . وهذه المدينة ، وهى أهم موضع فى مناطق ايران الجبلية ، كانت مركز الحشاشين الغلاظ المتعصبين (٢).وقد

---

(١) لقد نهض اذ ذاك حداد ، كما فعل كاوه فى القديم ، (كان كاوه حدادا حمل لواء الثورة فى فارس القديمة ، وتشتهر فى تاريخ ايران رايته التى تعرف باسم درفش كاويان (**المترجم**) يستحث أهل أصفهان على الثورة ومباغتة الحامية التيمورية . ونتج عن ذلك أن أقام تيمور أهراما من رءوس سبعين ألفا من السكان رمزا لانتقامه منهم .

(٢) لا يزال الذين يتـآمرون فى السر يعرفون حتى اليوم باسـم الفدائيين ، والفدائى هو من يضحى بنفسه فهو شهيد .

نزل بأبطالها جزاء دفاعهم الجسور عنها مذبحة بشعة يعجز عن وصفها حتى قلم المؤرخ الشرقى .

ومن اليسير كل اليسر أن ندرك كيف خيم سكون الموت على ذلك المكان بعد نزول هذه الكارثة به . وهاجم تيمور من بعد ذلك بأسلحته المخضبة بالدماء لورستان وخوزستان عبر همدان وبروجرد ودزفول . وما ان استولى على قلعه سفيد (القلعة البيضاء) ، ذلك الحصن الجبلى القوى ، حتى انطلق يهاجم شاه منصور المظفرى بعنفه المعتاد . وكان هذا الأمير قد استطاع فى غيبة تيمور أن يوحد امارات آل المظفر الخمس تحت لوائه ويعد له جيشا قويا . ومع هذا فان ذلك كله لم يكن ليقف فى وجه ذلك التترى، والنصر يغمره ، فوقعت بين الفريقين معركة عنيفة عند بتيلة انقض فيها شاه منصور على رأس فرسانه ، فى ضراوة الأسود ، على صفوف التركستانيين الحاشدة فحطم كل ما صادفه من عوائق حتى وصل الى مكان تيمور نفسه .

ودق مركز تيمور (١) ، اذ لم يكن يحيط به أكثر من أربعة عشر من الجند أو خمسة عشر ، لولا أن أسرع حفيده شاهرخ ميرزا فجمع من حوله زمرة من الجند المرتد وألقى بنفسه فى طريق العدو ، وقطع رأس شاه منصور فى مبارزة واحدة ثم ألقى بها من بعد ذلك تحت أقدام جده محييا كالعادة بقوله « فلتطأ حوافر فرسك رءوس أعدائك على الدوام » . وما لبث العدو أن نزلت به الهزيمة الحاسمة ، وفيها هلك آل المظفر جميعا الا اثنين منهم ، كانت أعينهم قد سملت من قبل ، فحملا الى سمرقند . وقد وقع بأيدى تيمور متاع شاه منصور كله . وما ان فرق البلاد المفتوحة بين قواده حتى عاود زحفه عام ٧٩٥/١٣٩٣ ليخضع العراق العربى من جديد .

---

(١) يقول شرف الدين أن شاه منصور كان قد اقترب من تيمور حتى وجه اليه ثلاث ضربات من سيفه وقعت على خوذته ، وقد حاول تيمور أن يدفع عن نفسه هذا الهجوم المفاجىء لولا أن حامل حربته كان بعيدا عنه .. ولم يتمكن من النجاة دون اصابات تذكر الا بفضل حامل ترسه عادل آق طاش وحارسه الخاص قمارى .

ولم يستطع الايلخاني أحمد جلاير أن يجنب بلاده في هذه المرة شر الدمار . ذلك أن «تيمور» بعد أن استعاد آذربيجان وتم له اخضاع بلاد الكرد ، عبر دجلة في قارب السلطان نفسه واستسلمت له بغداد دون اطلاق سهم واحد . ولم يستطع سلطانها الطريد أن ينجو من سهل كربلاء، ذي الذكريات الأليمة (١) ، الا بفضل فرسه العربي التي مرقت به كالبرق الخاطف تاركا من ورائه نساءه وأولاده ليسقطوا جميعا أسرى بأيدي الغازي .

وهكذا سقطت مدينة الخلافة للمرة الثالثة بيد فاتح تتري بعد قتال خفيف الى حد ما . وبرغم ماأبدته المواقع القوية الأخرى في الجزيرة وماردين وديار بكر وتكريت من مقاومة زائدة فان رايات هذا الغازي المنتصر ما غدت أن اجتاحت مظفرة كل ارمينية وبلاد الكرج . على أن أصداء الفرح بالنصر ما غدا أن قطع رجيعها بوادي منك كول (الألف بحيرة) اللطيف وصول الأنباء بأن تختمش ، وهو الذي نزلت به الهزيمة من قبل ذلك بسنين ، قد ظهر من جديد ، وكأنه المارد ، فأخذ يتهدد القوقاز بالغزو من ناحية دربند ، فكان على الأيدي عند ذلك أن تطرح الكؤوس المترعة جانبا مرة أخرى لتمسك بالسيوف المخضبة بالدماء من جديد . ولقد آثر تيمور على كل حال أن ينتظر في هدوء حتى يبدأه عدوه بالهجوم ، وفي رأيه « انه من الأجدى أن تنتظر حتى يسقط الطير بنفسه في الشباك بدلا من أن تجري وراءه .. ان الديك العجوز لا يخاف جوارح الطير . واذا كانت الجرادة تكبر حتى تصير أجنحتها مصبوغة باللون الأحمر فانها عند ذاك تستطيع أن ترد هجمات العصفور عليها ضربة بضربة» . وارتفعت راية تيمور منتصرة آخر الأمر عند شواطيء بحر الخزر الغربية ، كما انتصرت عند شواطئه الشرقية من قبل . وأصيب تختمش بالهزيمة وفر هاربا الى الصحراء عند الجنوب من سيبيريا . وانطلق خصمه من بعد ذلك يطارده في روسيا حتى بلغ موسكو فانتهبها ، ثم ترك عليها كوورجوك بن أوروس

---

(١) يشير المؤلف بذلك الى وقعة مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب (المترجم) .

خان ليحكمها بوصفه تابعا له ، ثم عاد من بعد ذلك الى بلاد الكرج ليضيف انتصارا جديدا فى قائمة انتصاراته التى كان يحتفل بها هناك .

هكذا تم لذلك المغامر السابق بهضاب تركستان الاستيلاء على آسيا الشمالية والغربية بالتدريج ، وازدان تاجه بأكثر من مملكة واحدة غنية لها تاريخ قديم . أما جنده ، وهم الذين قدموا من شواطىء ايسيكول وجيحون وسيحون ومعهم فرسان الصحراوات الواسعة الشجعان ، فقد حملوا معهم الى سمرقند كل ما أمكنهم حمله من متاع آسيا الغربية وكنوزها وجواهرها .

هذا كما قدم السفراء الى تيمور من كل حدب وصوب ليعلنوا له خضوع عواهلهم له ويلقون بهداياهم عند أقدام فاتح العالم . ومع هذا كله فان طموح تيمور لم يكن ليعترف بحدود ، وظمأه للحرب لم يتلطف أو يسكن . وعاد تيمور آخر الأمر الى وطنه عام ٧٩٩/١٣٩٦ بعد غيبة دامت خمس سنوات فاستقبل هناك استقبالا حافلا . فقد خرج لاستقباله عند ضفاف جيحون زوجاته وبناته وحفيداته فى حاشية ملكية فخمة، فنثرن الذهب والجواهر بين يديه على الرسم القومى (١) وأهدين اليه ألفا من الخيول المسومة والبغال . وقصد الغازى الكبير لدى وصوله ضريح أبيه فى كش فقرأ الفاتحة ، وتعهد المنشآت التى كان يجرى العمل فيها أثناء غيابه ، ثم دخل آخر الأمر سمرقند فى أبهة لم يسبق لها مثيل . وفضلا عن العروس الجميلة التى كسبها فى ميدان المعركة ، فان هذا المحارب الشيخ ، الذى كان قد بلغ الثالثة والستين من عمره ، اتخذ لنفسه زوجة جديدة شابة هى الأميرة توكل خانيم (٢) ، وأهداها ذلك القصر الصيفى

---

(١) لا تزال بقايا هذا الرسم عند العثمانيين اليوم ، اذ تنثر العملة الفضية أمام السلطان فى موكب الاحتفال بالعيدين • وكذلك تنثر العملة الذهبية والفضية عندما يدخل العريس غرفة عروسه لأول مرة فتتقدم لاستقباله •

(٢) خانيم ، أى زوجة الخان ، وقد حرف هذا اللفظ الى كلمة « هانم » الشائعة ، وبيكيم ، أى زوجة البك ، وقد حرف بدوره كذلك الى (بيجوم) (المترجم) •

الجميل المعروف باسم قصر دلكشـــا (أى فاتح القلوب) . ومضى على تيمور بسمرقند حين من الدهر كان وقفا على الحفلات والمسرات . ولم تكن فتنة البهجة والسرور الا لتثير فى نفس تيمور ، فى الغالب ، شوقا للاضطلاع بالحرب من جديد . فما ان فرغ ، ابان لبثه بعاصمته ، من تقسيم ما فتح من أرضين بين أبنائه حتى امتطى فرسه مرة أخرى ليقود جنده الى مناطق جديدة أمعن فى البعد . فلا يزال أمامه أن يفتح الهند فى الجنوب وبلاد الروم فى أقصى الغرب ليستطيع من بعد ذلك أن يرى نفسه جديرا بلقب فاتح العالم (جهانكير) . وكانت الهند على الدوام فى نظر المسلم الآسيوى رمزا للثراء البالغ فى حين كانت بلاد الروم رمزا للقوة . فانى لتيمور أن يهدأ باله اذن قبل أن يضيف هذين القطرين الى قائمة فتوحاته . ولما كان أول هدفيه هو أن يمتلك شبه الجزيرة التى تقع بين السند والكنج ، فقد تقدمه حفيده پير محمد ، ببعض الوقت، بطريق هراة فضرب الحصار حول الملتان . وكان تيمور قد عقد العزم على أن يكون الزحف الذى يقوده مهيبا ذا أبهة . فتقدم بطريق بلخ عبر مرتفعات الهندكوش الثلجية ، وكافح رياح هذه المناطق الثلجية ليصطلى من بعد ذلك بنار الحرب مع سكان هذه الجبال الجسورين . ولم ينل ذلك كله من عزيمة هذا الغازى شيئا ، فتدلى وجنده بالحبال وعبروا بها المنحدرات شديدة الميل والجرف الهاوية حتى روع خصومهم بفعلتهم هذه . واخترق تيمور من بعد ذلك كابل الى الهند عبر الممر المشهور الذى هزم عنده من بعد ذلك بأربعمائة وأربعين عاما جيش دولة أوربية عظمى بأيدى أحفاد رجال الجبال الأشداء هؤلاء (١) .

---

(١) يقصد المؤلف بذلك دولة بريطانيا حين حاولت بعد استيلائها على الهند أن تبسط سلطانها بالقوة على بلاد الأفغان بدعوى حمـــاية حدودها الهندية من خطر نفوذ روسيا المتزايد بآسيا الوســطى اذ ذاك . وقد أنزل رجال القبائل الأفغانية بالبريطانيين ضربات قاصمة فى معارك متكررة وعلموهم ببسالتهم وضراوتهم فى القتال كيف يحترمون مشيئة الأحرار (**المترجم**) . انظر فى ذلك أيضا : حاضر العالم الاسلامى ثان ص ٢٩٩ ــ ٣٠٠ (تعليقات الأمير شكيب أرسلان ١٣٥٢ هـ) .

وعبر تيمور السند فى الأيام الأولى من القرن التاسع الهجرى ، ثم واصل سيره الى دهلى قصبة السلطان محمود (١) بعد أن انضم اليه حفيده عند ستلج « رافد السند » . ورأى ذلك الغازى أن يتخفف من حشود الأسرى الذين كانوا يسيرون فى ركابه فيعوقون من حركته فأمر بقتل مائة ألف من هؤلاء التعساء (٢) . ودعى كل فرد فى الجيش الى المشاركة فى تنفيذ هذا الأمر القاسى .

ويصف المؤرخ مبلغ الفزع الذى استولى على العالم الوادع نصير الدين اذ كان عليه أن يقتل بيده خمسة عشر من رفيقه الهندى . وعمد تيمور الى التظاهر بالتراخى فى الهجوم حتى يحمل بذلك عدوه على مبادأته بالحرب . ونجح فى خطته هذه حتى وقع الهنود فى الشرك الذى أعده لهم فنزلت بهم الهزيمة شاملة ، ووقع بأيدى الفاتح التترى مدينة دهلى ، تلك المدينة التجارية الغنية على نهر الكنج (٣) بكل كنوزها وسكانها الذين اشتهروا ببراعتهم فى كثير من الفنون الدقيقة . ولقيت مدينة ميترا المقدسة (٤) نفس المصير ، ونزل بها أشد الذعر بعباد وشنو التعساء ، فلم يغنهم ذلك فتيلا فحطمت أقدس معابدهم وكسرت أصنامهم . وتقدم تيمور من بعد ذلك حتى منابع الكنج وهو يعمل القتل والدمار بكل ما يصادفه فى طريقه ، لينطلق من بعد هذه المذابح العنيفة يستمتع بصيد النمور ووحيد القرن ، ثم رجع آخر الأمر الى سمرقند فى ابريل من عام ٨٠١ / ١٣٩٩ ومعه عدد كبير من الفيلة ومهرة الصناع والأسرى من كل صنف .

---

(١) هو السلطان محمود تغلق (المترجم)

(٢) عمد تيمور الى ذلك حين علم بشيوع الفرح بين الأسرى على أثر مباغتة بعض قوات دهلى لبعض حملاته الاستكشافية ، فخاف أن يركن هؤلاء الى تهديد مؤخرته وتخريب خطوطه والمعركة دائرة مع عدوه : ملفوظات تيمور ص ٦٣٦ (المترجم) .

(٣) أخطأ المؤلف فذكر السند بدل الكنج (المترجم) .

(٤) هى مدينة بنارس (المترجم) .

لم تكن حملة تيمور الهندية الا مجرد عمل عسكرى باهر ، لا أهداف له ، وغارة للحصول على الأسلاب ، على ما فعله سلفه المغولى من قبل وما انتهجــه نادر من بعد . ولقد ادخر القدر العبقرى بابرميرزا ليغرس آخر الأمر راية التيموريين على شواطىء السند والكنج من بعــد ذلك بقرن من الزمان . وعلى أية حال فقد أدى هذا النصر المؤقت الى ازدياد شهرة تيمور وذيوع صيته ، ودفعه طموحه ، الذى لا يعرف حدودا ، من بعد ذلك ليجرب حظه مع أمير الغرب (الروم) القوى .

لم يتغيب تيمور طويلا عن مسرح فعاله الباهرة السابقة فى الغرب . ومع هذا فان بناء حكومته الذى كان قد أقامه هناك ، فى غمرة النصر ، قد تعرض ابان ذلك لبعض هزات عنيفــة . وحدث أن أدت حكومة ابنــه ميرانشاه (١) بتقاعسها الى قيام الاضطرابات والثورة فى آذربجيان ، كما مات فى الوقت نفسه حليف قوى لتيمور وجار له فى هــذه الجهات ، فأطعمه ذلك كله فى اضافة أراض جديدة عند حدود هذه الدولة القوية . لهذا خرج من عاصمته بعد أن استراح بها فترة قصيرة ليزحف من جديد على آسيا الغربية . ولئن لم يتعرض لابنه بشىء جزاء اهماله فقد ساق الى الموت جميع خلصائه ومستشاريه ، ثم أسرع من بعد ذلك ، بطريق هراة وقزوين ، الى أراكس ليكسر شــوكة ملك جورجين أمير الكرج الثائر . ولجأ هذا الأمير الى الاحتماء بالصخور الوعرة والحصون فلم يجده ذلك فتيلا ، اذهزم جيشه فى كل مكان وسقطت حصونه وعاصمته.

واستطاع تيمور آخر الأمر بعد معركة قصيرة حامية أن يقيم مضاربه بوادى قره باغ اللطيف ، وكان على جنوده أبناء سهوب تركستان الأشداء أن ينالوا قسطهم من الراحة ، بعد هذه الأسفار المضنية ، قبل أن يخرجوا

---

(١) يروى كلافيجو أن ميرانشاه أمر يوما بهدم دور كثيرة ومســاجد وغيرها من المنشآت ، ذلك أنه ـ على حد قوله ـ « بوصفه ابن أعظم رجل فى الدنيا لا بد وأن يشتهر بشىء ، ففعل ذلك لكى يذكره الناس على الأقل بأنه دمر هذا أو ذاك من المنشآت » ولعل هذا التترى مدعى البطولة كان يعانى من الهذيان . ويحاول مؤرخوه على كل حال أن يبرروا سلوكه هذا بأنه أصيب بخلل فى قواه العقلية على اثر سقوطه من فوق فرسه .

الى ما عزم عليه قائدهم العظيم من مهاجمة قرينه التركى بايزيد سلطان العثمانيين . ذلك أن قوة وريث بلاد الروم هذا كانت بمثابة شوكة فى جانب تيمور ، فضلا عن أن بايزيد كان قد تحـالف مع أسرة قراقيونلو التركمانية ، وكان تيمور يحقد على هؤلاء أشد الحقد ، اذ كان يرى نفسه بوصفه صاحب السلطان المطلق على قبائل الترك ، أحق بأن يدين الناس له بالولاء من اتباع السلاجقة السابقين (١) هؤلاء .

وقعت بين العاهلين التركيين اللذين كانا يحكمان بآسيا الشرقية وآسيا الغربية حرب ضروس ترك لنا عنها المؤرخون المسلمون والمسيحيون على السواء تفصيلات تثير الرعب والاشمئزاز فى النفوس (٢) . وقد انتهت هذه فى صالح الفاتح التترى . فلقد بدأ تيمور بدعوة فرج سلطان مصر ليقدم له تفسيرا عما ارتكبه أباه حين قتل العلامة الشيخ ساوه رسول تيمور اليه . ودفع الابن ثمن جرم أبيه غاليا اذ اجتاح هؤلاء التتار اقليم سوريا ونهبوا مدنها العامرة ودمروها . وباستيلاء تيمور على سوريا قضى على كل تحالف ممكن بين العثمانيين والعرب . هنـالك استدار تيمور لحرب بايزيد ، وهو الذى يكاد يدانيه فى القوة والشهرة ، وأصم أذنيه عن كل ما نصحه به مستشاروه ايثارا للمودة ، اعتمادا منه على ما كان يشعر به من أنه ند لخصمه وتحقيرا لشأنه . ولم يكن تيمور بحاجة الى من يحرضه على قتال خصمه هذا ، فتقدم فى ربيع عام ١٤٠٢/٨٠٥ من سيواس بطريق قره شهر الى أنقرة حيث شهدت ديانها معركة دمـوية

---

(١) لم يكن ذلك وقفا على أيام تيمور فحسب، اذ لايزال التركى بالشرق الأدنى يقول فى وقتنا هذا بقرابته لاخوانه فى الشرق الأقصى . كمـا أن التركمانى البسيط يعرف تماما أن بنى جلدته يقيمون كذلك حول ديار بكر . ولا تزال التقاليد والخرافات الشرقية أكثر قوة وأشد رواجا من حكايات كليو (اله التاريخ) .

(٢) من بين الجرائم البشعة التى وقعت عند احتلال سيواس مايرويه دوكاس وشالكوندبلاس Ducas, Chalcondylas بأن (تيمور) قد أمر بفرسان النصارى ، الذين كانوا فى خدمة بايزيد ووقعوا فى الأسر ، بأن يسيروا فى عشرات فيلقى بهم فى حفرة ويدفنون أحياء . أما أهل المدينة من المسـلمين فقد قطعت رءوسهم جميعا بعد أن كان تيمور قد وعدهم بالابقاء عليهم .

عنيفة جرت بين الجيشين . وانتهت هذه المعركة بدحر العثمانيين دحرا تاما ووقوع بايزيد نفسه ونسائه فى الأسر . وبهذا النصر الحاسم الرائع سقطت آسيا الصغرى كلها بأيدى تيمور ليزحف من بعد ذلك الى أزمير . ولولا البحر لواصل زحفه وسقط على أوربا نفسها .

ولم تكن خططه فى الشرق الأقصى لتسمح له على كل حال باطالة اقامته فى الغرب . فما ان تم لجموعه اعمال السلب والنهب وانزال الدمار التام بهذه البلاد المفتوحة حتى استدار بهم فدخل سمرقند عام ٨٠٧/١٤٠٤ دخول الظافر للمرة التاسعة . وعلى الرسم المعهود أقيمت الاحتفالات وأفراح الزواج وحلقات اللهو والسمر هناك . ولم يشهد هذا كله وفود البلاد الآسيوية فحسب بل شاركهم فى ذلك كذلك سفير أعظم ملوك أوروبا استمساكا بالمسيحية ، هو الفارس دون روى جونزالردوكلافيجو مبعوث هنرى الثامن ملك الاسبان ، وكان قد وفد على رأس بعثة صداقة الى تيمور .

وسنرى فى الفصل التالى أن التتار كانوا يمارسون لهوهم بنفس النشاط الذين كان لهم فى حروبهم . فمن أتيح له أن يشاهد تيمور وهو يتصدر هذه الحفلات تحيط به حاشيته المشهورة ، لم يكن ليصدق فى يسر أن ذلك العاهل هو نفسه ذلك المحارب الجبار المعروف. ولم يكن تيمور فى سنه المتقدمة هذه يقضى عطلته الخاصة الا فى اختيار الأماكن التى سيتجه اليها فى غزواته المقبلة ، واعداد العدة ليتوج بأكاليل جديدة من الغار . وفيما كان تيمور يستقبل سفراء الدول المختلفة لقى سفير الصين بفتور ظاهر .

والغالب أن «تيمور» ، وهو العظيم فاتح نصف آسيا ، لم يستطع أن يخفى سخطه حين دعاه رسول حاكم كمبالو هذا ليدفع اليه ماعليه من أتاوة سنوية معلومة . فلم تهدأ كبرياؤه الجريحة حتى عزم على حربه . وسار ذلك الجندى الشيخ فى قوة صغيرة ، ولكنها كاملة الاعداد ، والشتاء على أشده ليهاجم « امبراطورية الصين وافرة الزهور » ، فغادر سمرقند فى الرابع من يناير عام ٨٠٧/١٤٠٥ وهو يعانى من برد أصابه

بسبب قسوة الجو ، فلم يأبه به ، وعبر سيحون المتجمد ونزل عند أترار فى شهر فبراير . هنالك اشتدت العلة عليه حتى أعلن طبيبه مولانا فضل الله أن حالته قد باتت ميئوسا منها . وقد ظل تيمور ، وهو الذى واجه الموت مئات المرات ، محتفظا بشجاعته ورباطة جأشه حتى اللحظات الأخيرة فى حياته .

والتف حول فراشه أبناؤه وأحفاده ورفاقه القدامى يبكون بمرارة ساعة فراق زعيمهم ، وهو يطلب اليهم أن يستمسكوا بالشجاعة ويوصيهم بالاتحاد والتآلف ، والطاعة لپير محمـــد الذى رسمه خليفة له . وحين سألوه عما اذا كان يريد استدعاء ميرزا خليل ســلطان وغيره من كبار الأمراء اعتـــذر لهم بأنه لن يعيش الا لحظات قليلة وأبدى أسفه اذ لن يمكنه الموت أبدا من رؤية ولده المحبوب شاهرخ ميرزا . وسرعان ماأخذت قواه على اثر ذلك تنهار . وأشار ، وهو فى النزع الأخير ، برغبته فى أن يقوم على غسله الملا هيبة الله وأن يقرأ القرآن على فراشه . وقضى أول مساء السابع من شعبان عام ٨٠٧/١٤٠٥ ، ونقل جثمانه الى ســمرقند فوورى فى نفس الضريح الفخم الذى كان قد أقامه لشيخه المحبوب السيد بركة . وكان هذا الشيخ هو أول من تنبأ له فى شبابه بعظمته المقبلة . وهكذا رقدا معا جنبا الى جنب فى قبر واحد (١) . وكان تيمور عنـــد موته فى الحادية والسبعين من عمره . وقد قضى أكثر من نصف هذه المدة حاكما مطلقا على بلاد ما وراء النهر ، كما صار صـــاحب النفوذ الأكبر فى العالم الاسلامى الشرقى كله . وهو يقارن ، بحق ، بطموحه وعبقريته الحربية وقوة ارادته ، بقيصر والاسكندر وچنكيز . ومااتسمت به حروبه من اغراق فى سفك الدماء قد بعث الرعب فى نفوس معاصريه من الآسيويين حتى لا نملك هنا الا أن ننصف مؤرخه العربى أحمد بن عربشاه بعض الشىء ، برغم اشتهاره بعـــدائه الشديد للغازى التترى ،

---

(١) فى وصف هذا البناء الذى يعرف اليوم باسم «تربتى تيمور» ، انظر كتابى travels in Central Asia p. 358

وذلك فى حديثه الذى أجراه على لسان الشتاء ، وفيه يصف توقف هذا المحارب المحنك ابان تقـدمه عبر الوديان الثلجية بآسيا الوسطى حيث يقول « مهلا يا شوم ورويدك أيها المظلوم الغشوم ، فالى متى تحـرق القلوب بنارك ، وتلهب الأكبـاد بأوامك وأوارك ، فان كنت أجد نفسى جهنم فانى أنا ثانى النفسين ، ونحن شيخان اقترنا فى استيصال البـلاد والعبـاد ، فانحس بقـران النحسين ، وان كنت بردت النفوس وبردت الأنفاس فنفحات زمهريرى منك أبرد ، أو كان فى جـرائدك من جرد المسلمين بالعذاب فأصماهم وأصمهم ففى أيامى بعـون الله ما هو أصم وأجرد ، فوالله لا حابيتك فخذ ما آتيتك ، ووالله لا يحميك يا شيخ من برد ريب المنون لواعج حرة مجمرة ولا واهج لهيب فى كانون » (١) .

وها نحن قد فرغنا من تاريخ حياة تيمور وفعاله على ما فصلناه ، فى حدود منهجنا فى هذا الكتاب ، لنحاول فى الفصل التالى من بعد ذلك أن نرسم صورة عامة لبلاط تيمور وحاضرته . ذلك أن حكومة تيمور كانت فى الواقع قد بلغت غاية المجد بذلك الاقليم الصغير فيما وراء جيحـون وغمرت بالنور تاريخ الشعوب التركية . ولا تزال تقاليد قبائل كثيرة منهم تتلألأ فى بقية من هذه الأنوار . ولم يعد فى الواقع لهذه الأقاليم فيما وراء جيحون وسيحون بموت تيمور أى دور فى التاريخ العام . فقد كان هو آخر قائد قاد مئـات الألوف من محـاربى الترك والتتار ، من أبناء شعوب آسيا الوسطى ، الى آسيا الغربية .

---

(١) عجائب المقدور فى أخبار تيمـور لأحمـد بن محمد بن عبـد الله المعروف بابن عربشاه ، المطبعة العثمانية ، القـاهرة ١٣٠٥ هـ ، ص ١٦٦ (المترجم) .

الفصل الحادى عشر
شخصية تيمور - بلاطه وحاضرته[1]

يصف أصدقاء الفاتح العظيم ابن « المدينة الخضراء » بأنه كان مثال الجمال فى الرجال ، فى حين يقول عنه أعداؤه انه كان صاحب عاهـة قبيح المنظر حقيره . وعلى ما هو متواتر بين بنى قومه حتى اليوم ، كان تيمور فى الأرجح متوسط القامة ، متين البناء ، قوى البنية . وقد ظل محتفظا بقوته ونشاطه كاملين حتى تقدمت به السن برغم ما عاشه من حياة غير مستقرة قضى أكثرها مضطلعا بالحروب وشئونها .

وكان منتصب القامة حتى لايكاد الناظر اليه يدرك ماكان به من عرج ، أما صوته فكان جهوريا حتى ليطغى على ضجيج القتال فى المعارك ويتجاوز أسماع من حوله الى كثيرين ممن وراءهم . وما كان يعانى منه وحده هو ضعف بالبصر حتى ، لم يستطع ، وهو فى السبعين من عمره ، أن يتعرف على الرسل الأسبان بسمرقند حتى قربوهم من مجلسه . وكانت ملامح تيمور مغولية خالصـة ، ولم يكن امتـزاج الجنس التركى بالعنـاصر الايرانية (٢) واختلاطه بها يجرى ، حتى زمن تيمور ، على نطاق واسع .

---

(١) ما نفصله هنا عن بلاط تيمور وعاصمته هو نقل فى الغـالب عن كتاب كلافيجو الذى سبقت الاشارة اليه • وقد قام السيد مركهام Markham سكرتير الجمعية الجغرافية الانجليزية العالم ، بخدمة طيبة حين ترجم هذه المذكرات عن الاسبانية • وكان كلافيجو لماحا ، فكانت مذكراته بذلك ممـا يعتمد عليها باطمئنان •

(٢) لم تكن تجارة الرقيق مع ايران قد تطورت فى المحل الأول كما هى عليه الآن . ذلك أن شراء الرقيق من الفرس الشيعيين لم يرخص به الا بفتوى الملا شمس الدين التى صدرت بعد وفاة تيمور بخمسين عاما . وكان امتزاج الشعبين بذلك نادرا . ثم أن الترك ببلاد ما وراء النهر كانوا يؤثرون فى الغالب أن يصهروا الى بنى جلدتهم من المغول والأويغور دون التاجيك الذين كانوا يوصمون اذ ذاك بالجبن ويشتهرون به .

وعلى هذا فقد أخطأ كاتب سيرة تيمور اذ يضفى عليه من سمات الجمال الايرانى حين يصوره كبطل ، فهو يصف الفاتح التترى بأنه ذو لحية طويلة نضر البشرة ، رقيق الجلد . والواقع أن « تيمور » لم يكن له من مظهر الايرانيين أو أهل آسيا الغربية الا ثيابه .

كانت الأزياء الشائعة اذ ذاك ببلاد جيحون ، كعموم أحوالهم الاجتماعية ، خليطا عجيبا تتمثل فيه الرسوم والعادات البوذية والاسلامية ، فنجد أن «تيمور» كان يظهر فى المناسبات الرسمية بنفس الثياب الحريرية الناعمة الهفهافة ، التى لا تزال تروج بين سكان آسيا الوسطى حتى اليوم ، والتى كانت اذ ذاك الزى الذائع فى آسيا الاسلامية . أما غطاء رأسه فكان على كل حال مأخوذا عن الزى الصينى أو المغولى ، فلم يتخذ تيمور فى الواقع العمامة الاسلامية ، كما أشاع ذلك عنه شرف الدين فى فخر ، فكانت قلنسوته (١) من الفراء مخروطية الشكل يعلوها ياقوتة على هيئة الكمثرى يحيط بها الجواهر والماس . كذلك كان تيمور يقلد المغول فى التزين بالأقراط الطويلة ، ولم يكن بحال ما يكره الزينة والبهرج أبدا ؛ وكان كلفا بذلك الى درجة تلفت النظر . على أنه كان فى حروبه الطويلة يلزم نفسه بالتقشف الشديد حتى كان يبدو بين جنده مثالا للبساطة الاسبرطية . وثمة تناقض آخر ملحوظ كنت تراه فى أظهر نواحى خلقه ، فتعاليم الاسلام والصوفية الدقيقة التى غرسها فيه أبوه وشيوخه فى شبابه كان يلتزمها فى الحرب على الدوام الى جانب طبيعته الثائرة وأطماعه التى لا حد لها .

وكانت هذه الناحية الأخيرة هى التى تسيطر عليه كما توحى به الظواهر حتى روى عنه أنه كان ينادى بأن الحكومة لا تقوم الا بحد

---

(١) لا تستخدم هنا كلمة قبعة ، فهى كما يعرفها الاوربيون لها حافة فهى بذلك محرمة عند المسلمين تحريما تاما بوصفها من رسوم المسيحية . وغطاء الرأس الحديث عند القرغيز له حافة بارزة كذلك وانما له شق من الامام (فلا يعوق المصلى) فيبيحه الشيوخ على ذلك .

السيف (١) . ومع هذا كله فليس من اليسير أن تغلب صفات الوحشية والقسوة عند ذلك الرجل الذى أمر جنده وهم ينهبون اصفهان ألا يتعرضوا بسوء للحى الذى كان يسكنه العلماء ، والذى كان يشارك فلاسفة هراة وحلب محاوراتهم الشرعية ، ويبذل العطاء الوفير حتى لمن كان منهم على خلاف معه فى الرأى . ولقد رأيناه يسعى جهده لكسب ود العالمين المشهورين : شمس الدين الفنارى ومحمد الجزرى الى صفه. فبذل لهما العطايا فى ذلك وبالغ فى استرضائهما برغم ماكان يعلمه من شدة عدائهما له ، وكانا قد وقعا فى أسره ببلاط عدو له . كذلك كان يعتبر أن أعظم كسب خرج به من البلاد التى فتحها هو حصوله على هؤلاء الصناع وأهل الفنون من أبناء تلك الأصقاع الذين ألحقهم بخدمته . ويروى عنه كذلك أنه أمر ذات مرة بنقل مكتبة بأكملها على متون البغال من بروصه الى سمرقند (٢) .

ان أولئك الذين يقرنون «تيمور» بچنكير فى صفاته فيقولون عنه انه كان مثله مجرد متوحش وظالم مستبد ، انما يخطئون فى ذلك خطأ مزدوجا . ذلك أن تيمور كان جنديا آسيويا قديرا استغل انتصاراته على الرسم الذى كان شائعا فى عصره وفى بلده ، بل ان ضروب القسوة والدمار التى شنع بها عليه أعداؤه انما كان قد ارتكبها وأمر بها ليثأر لبعض ضرر لحق به ، وان كان قد تغالى فى ذلك بلا جدال . فقد أنزل بأصفهان وشيراز ما أنزل انتقاما لمقتل أحد جنوده غدرا . هذا كما كان على سكان دمشق ، ورثة الأمويين القدماء ، أن يكفروا عن استشهاد أسرة الحسين ، وكانت قصة هذه المأساة قد ملأت تيمور بالسخط والحنق. وهناك كثير من المذابح التى قيل بوقوعها ، منها ما انطلق أعداؤه يهولون

---

(١) هذا المعنى قد أجراه على لسانه مؤرخه الفارسى بالعبارة الفارسية الآتية : « ملكرا اكر قرار خواهى كرد ، تيغرا ، بيقرار بايدكرد » .

(٢) المشهور المعروف أن «تيمور» بعد أن دخل فى جدل عنيف مع العلامة شرف الدين قاضى حلب شمله وأتباعه (وكانوا عشرين ألف نفس) بعطفه وغمرهم جميعا بالهدايا .

فى تصويرها ، ومنها ما نجهل جهلا تاما حقيقة الباعث عليها . ومهما يكن من شيء فنحن لا نستطيع أن نتجاهل ما اقترفه تيمور فى آسيا الغربية من أعمال التدمير والتخريب على نطاق واسع حتى أتت هذه الجموع التركية المغولية الجديدة فى اجتياحها لهذا الاقليم على كثير من بقايا الحضارة الاسلامية التى كان المغول ، قد كفوا أيديهم عنها مع شغفهم بالتخريب . ولئن كنا نسلم لابن عربشاه ببعض الحق فى حملته على تيمور ، الا أننا حين نبعد عن الهوى فى حكمنا عليه نقول ان تيمور انما يقع اللوم عليه لا بوصفه مخربا قد عاث فى الأرض فسادا ، وانما لمجرد استغلاله حقوق الفتح استغلالا جائرا عنيفا . وكان تيمور على محبة بالغة لبلاده ، شأنه فى ذلك شأن كل الغزاة من أبناء القبائل التركية أو العربية على السواء ، فلا عجب اذن حين نراه يصر اصرارا شديدا على أن ينتقل بقوة الاسلام الغربية السياسية وما بقى من فروع الحضارة الاسلامية الى ثرى سهوب تركستان المتعفنة .

ولا حاجة بنا الى القول بأن نشاط تيمور الرائع ، مع مثل هذه المقاصد التى كانت تثير من حماسه ، كان له كله أبلغ تأثير ثابت على كل أحوال آسيا الوسطى . ولم يبلغ بلاط كمبالو أو غزنة أو بخارى بل ولا بلاط أية دولة فى القديم ما بلغه بلاط تيمور من الأبهة والثراء . وماوصف به شرف الدين حفلات تيمور وأعياده ، وما كانت عليه من البذخ والاسراف ، لا يعد شيئا مذكورا بالقياس الى الصورة الزاهية التى رسمها لبلاد الامبراطور التترى ذلك الفارس المسيحى (دون روى جونز الزرو) كلافيجو . فلقد رأى ذلك النبيل من ذلك كثيرا بل لقد شاهد هناك كل شيء . ولا أدل عما حباه به تيمور من العطف من مقالته لرجال دولته وهم يحيطون به فى الحفل الرسمى لاستقباله : « ها هو ذا السفير الذى أوفده الى ابنى ملك أسبانيا الذى يعيش فى أدنى الأرض والذى يعد أعظم ملوك الفرنجة . حقا ان هؤلاء الفرنجة أمة عظيمة . وانى لأود أن أبعث بتمنياتى الى ابنى ملك أسبانيا » .

وعلى هذا فاننا نستطيع أن نركن الى حديث هذا النبيل الأسبانى

عن بلاط سمرقند وتتبع وصفه للخصائص والرسوم والاحتفالات التى كانت تشيع هناك اذ ذاك .

فى بلاط تيمور كانت تتمثل نماذج من مختلف رسوم وعادات شتى البلاد والقبائل التى قام على أنقاضها عرشه . فثياب الحرير وكساوى الديباج والمخمل قد اقتبست من الأزياء العربية أو الاسلامية . أما لباس السيدات بالبلاط ، ويتميز بطيلسان مرتفع يعرف باسم « شيوكله » فيذكر بما كان نظيره رائجا فى خوارزم وايران القديمة . وهو كساء طويل من الحرير الأحمر تزينه شرائط من الذهب وله حبكة عند الرقبة ، وليس له أكمام . وينسدل على الجسد فضفاضا فى ثنايا تنتهى بذيل طويل يحتاج فى الغالب الى خمسة عشر شخصا يحملونه وبه يسيرون . وكانت السيدات يسدلن على وجوههن نقابا ، وكن عند السفر يستخدمن ضربا من مسحوق الزنك يصون الوجه من التراب ويحفظه من التعرض للأنظار . أما غطاء الرأس فكان على هيئة خوذة من قماش أحمر تزينها اللآلىء واليواقيت والزمرد ، وتنتهى بزركشة حول طرفها الأعلى حيث تبرز منه ريشات بيضاء على ميل . وبعض هذا الريش كان يتدلى الى ما فوق العينين (١) ، فتضفى خفقاته عند السير مزيدا من الفتنة على طلعة صاحبته . وسيدات بلاط تيمور العديدات كن يرزحن تحت جواهر نصف آسيا وأثمن ما عند جوهريى الملتان وأصفهان وغنجة ودمشق وبروصة والبندقية . ولم يكن الرجال دونهم فى البهرج ، بسيوفهم المرصعة بالحجارة الكريمة ومناطقهم وجماناتهم الفاخرة . وكانت صحاف الذهب والفضة فى مقادير عظيمة هناك بما لا يكاد يصدقه العقل . ويصف كلاڤيجو علبة ضخمة ذهبية للجواهر شاهدها فى احدى الخيام لها غطاءمستو تحوطه بروج مصغرة مطلية بالميناء الزرقاء والخضراء ترصعها مختلف الحجارة الكريمة واللآلىء . وفتحة

---

(١) لا يزال بقايا هذا الزى يشاهد فى غطاء الرأس الحديث أو بالأحرى زينة الرأس الحديثة التى تستخدمها سيدات الطبقة الراقية من التركمان .

هذه العلبة على هيئة الباب ، وبداخلها رف عليه صف من الكؤوس تعلوها ست كرات من الذهب مرصعة باللآلىء والحجارة الكريمة .

وكان الى جانب هذه العلبة مائدة ، علوها قبضتان ، مصنوعة من الذهب المسبوك وحافتها من الجوهر ، وعليها زمردة نقية طولهـا أربع قبضات (!!) وتغطى سطحها كله . وكان أمام هذه المائدة شجرة ذهبية على صورة شجرة السنديان جزعها كساق الرجل فى استدارته ، وفروعها تحمل أوراق السنديان ذهبية تمتد فى كل صوب . وتتدلى منها ، بدل الثمار ، اليواقيت والزمرد والعقيق والزفير والجواهر النادرة العديدة ، وتقف على أفنانها الطيور المنقوشة بالميناء فى مختلف الألوان . وكان أمراء البيت المالك يتناولون طعامهم على الدوام فى آنية ضخمة (كنچات) ، وكان أعضاء الأسرة المالكة يتعاطون الشراب فيما بينهم فى كؤوس كبيرة من الذهب . واذا عرفنا أن الحفلات الكبرى ، تلك التى كان يشهدها ألوف عديدة من المدعوين كان يقدم فيها الشراب فى طاسات ذهبية فوق صحاف من ذهب ، لأمكننا بذلك أن نتصور بعض الشىء مدى ما كان عليه قصر تيمور وديوانه من الثراء والأبهة البالغة .

ومرجعنا هذا الذى زار بلاط تيمور ، وهو فى أوج عظمته ، لايجد من الألفاظ ما يعينه فى وصف كل ما رآه من أعاجيب فى تلك الحفلات التى كانت تقام فى مضارب وادى كان كل [1] المحبوب بظاهر سمرقند . وقد كان الترك منذ زمن موغل فى القدم يفضلون سـكنى الخيام فى الهواء . ويرون أن أنسب فرصة لاظهار ما هم عليه من الثراء والأبهة ، هى فى اعداد هـذه المنازل المتنقلة اعدادا فخما . ومن السهل أن ندرك أن تيمور بوصفه أعظم من عرفه الترك وأكثرهم جاها على الاطلاق ، كان

---

(١) ذكرها بنى دى لاكروا خطأ ، شايه كاول ، وهى كلمـة فارسـية معناها منجم الزهر (**المؤلف**) صحتها بكسر الجاف كما حققها الأستاد بفريدج وزوجته انيته بفريدج فى تعليقاتها على بابرنامه ـ ويذكرها بابر فى سيرته بأن فيها كان يصنع أفخر أصناف الورق فى وقته • والمعروف أن صـناعة الورق عرفها المسلمون أولا فى سمرقند ، وعنهم أخذها الاوروبيون (**المترجم**) •

بطبيعة الحال يبز قومه جميعا بزينة مضاربه . ومن يطلع على موقع عاصمة تيمور اللطيف يمكنه أن يتصور فى يسر مدى المتعة التى يستمتع بها المرء حين يتاح له قضاء عطلة فى معسكر ، يبعد ميلين الى الشمال الشرقى من المدينة ، فى سهل ترويه قنوات متعددة ويقع على مقربة من زرفشان . وهذا النوع من المعسكرات كان يضم فى الغالب ما يقرب من عشرة آلاف من الخيام أو خمسة عشر ألفا . ولا ينزل به رجال البلاط فحسب بل وكذلك كل الشعب على اختلاف طبقاته . وبه كانت تقام محال تجارية أنيقة ومصانع يمارس فيها الصناع حرفهم . بل انك لتجد فيه كذلك الحمامات المؤقتة وبها المياه الساخنة . وأول خيام تضرب هناك هى خيام الأسرة المالكة ، وتتوسط فى الغالب المعسكر الذى كان ينتشر على هيئة المروحة . وتتفرع الخيام الأخرى عن تلك المجموعة الوسطى . وكان لكل أسرة ولكل وزير ولكل تومان أغاسى (متصرف) مكانه المخصص له ، فمنهم من كان ينزل ناحية اليمين أو ناحية الشمال أو فى الصف الأول أو الثانى أو الثالث ، كل حسب مكانته فى نظام محكم لا تعرف الفوضى طريقها اليه ، حتى كان يبدو وادى كان كل الجميل هذا ، فى وقت قصير مذهل والأعلام الملونة العديدة ترفرف فوق خيامه ، وكأنه حوض من الأزهار الفاتنة يداعبها النسيم .

أما الخيام فكان الغالب فيها ما هو على هيئة الناقوس وهو الذى لا يزال يشيع فى تلك الأقاليم حتى اليوم . وكنت تجد هناك كذلك خيام ابراهيم العربية المستطيلة وخيام فارس الفاخرة التى تعرف باسم « سرا پرده » (قصور الستائر) (١) وهى فى الغالب التى أثارت اعجاب فارس قشتالة بخاصة . وهذه الخيام مربعة الشكل طول ضلعها مائة قدم وارتفاعها بطول ثلاثة رماح .

وكان للسرادق الرئيسى سقف على هيئة القبة يستند الى سبعة قوائم زرقاء مذهبة فى استدارة رسغ الرجل ويلفها جميعا نسيج من الحرير

(١) يذكر كلافيجو هذه الخيام باسم .Zalaparda

نصب على هيئة الرواق . والى جانب هذه كانت أروقة ذات عمد على جوانب السرادق كله . وكان بكل واحد منها ستة أعمدة . وقد استخدم فى عقد هذا البناء كله ما يزيد على الخمسمائة من الجدائل قرمزية اللون . أما الأسجاف الخارجية له فكانت من حرير مخطط بالأسود والأصفر والأبيض . كما فرشت أرض السرادق ببساط أحمر مشغول بالذهب وبه زخارف أخرى من الحرير . وأثمن توشية فيه تجدها تتوسط الجناح الجانبى منه . وكان بأركانه الأربعة أربعة نسور كبيرة قد نشرت أجنحتها . وكانت القوائم عند هذه الأركان تحليها كرة وصولجان تراها بالقائم الأوسط أكبر حجما . وكان هذا السرادق يبدو للرائى من بعيد وكأنه القلعة . وكان يحجبه بعد ذلك كله سور عال ملون فى بعض أجزائه وتزينه الشرفات أو الأبراج الصغيرة . والى جانب هذا السرادق كانت هناك خيام أخرى لا تقل فى روعتها وفخامتها عنه ، وبها كانت تنزل السلطانة وكبار الأميرات . وكان بعضها يغطيه سجف من الحرير الأصفر أو قرنفلى اللون موشى بالذهب وقد عقدت بأثمن أنواع الديباج . وكانت مداخل الخيام فى الغالب رحبة حتى ليستطيع الفارس أن ينفذ منها وهو على فرسه . وكان لها كذلك نوافذ يسدل عليها نسيج من سندس سميك حين تفتح . وعلى جانبيها ستائر أخرى من الحرير تستخدم لتمنع عنها أشعة الشمس . وأثمن ما كان حول الخيام ، وهو ما لا يزال يشاهد حتى اليوم ، هو الأبسطة ، التى تسدل على الأبواب ، وحبال هذه الخيام . وكانت البسط توشى بوشى الذهب والفضة العجيب (جلب تيمور واحدا منها معه من بروصه وكان عليه صور للقديس بطرس والقديس بولس) أما الحبال فكانت تحبك بعرى من الذهب السميك والفضة تحليها نقوش عربية من الحجارة الكريمة .

وهذه الخيام ، التى يذكرنا وصفها بما ورد فى قصص ألف ليلة وليلة ، كانت مسرح الحفلات الكبرى والسمر . ولئن لم يصل الينا أى تفصيل تترى لما كان يتناوله القوم من أصناف الطعام الا أننا نستطيع أن نقول ، اعتمادا على ما وصلنا من أخبار قليلة فى هذا الشأن ، أن أحب ألوان الطعام عند القوم كانت فى الغالب شواء الضأن ولحم الخيل والأرز

(وكان يطهى على الطريقة المعروفة اليوم تماما) والشطائر وفطائر الفاكهة والحلوى المصنوعة من السكر . وأعظم هذه الأطعمة كان فى الغالب فخذ فرس يقطع ويغطى بالدهن . وكان يقدم فى العادة فى صحفة من الذهب أو الفضة . أما أصناف الشواء الأخرى العادية فكانت تقدم على خوان من الجلد (١) ، ويتولى تقطيعها الى شرائح ندل مدربون . ولا تمتد اليها الأيدى عادة حتى يفرغ السلطان من تناول الشريحة الأولى منها . ويختم الطعام فى الصيف بالفاكهة وخاصة القاوون والعنب . ويأتى من بعد ذلك دور الشراب على المعتاد فى آسيا الشرقية . ويتصدر مجلسه الأمير بنفسه ، اذ لا تعقـد مجالس السمر ، خاصـة أو عامة ، دون ترخيص منه . وأحب المشروبات عند القوم كان نبيذ العنب وخمير الشعير (البوظة) وخمير لبن الخيل (٢) . وكان نبيذ العنب أفضلها جميعا . وكان يدور به على الحاضرين فى المجلس سقاة يجثون على ركبة واحدة فى كل مرة عندما يقدمون الكأس لشاربها على صحفة بيد ، ويمسكون بمنشفة فى اليد الأخرى أو منـديل ليحولوا به دون سقوط بعض الشراب على ثيـاب متعاطيه وهو يتناوله . وما ان تدور كؤوس النبيذ على الحاضرين دورات قليـلة على هـذا الرسم حتى ترى القوم يتخلون عن وقارهم بالتدريج لينطلقوا عند ذلك يتخاطفون دنان الشراب . ومن كان منهم يتصدى ليشرب نخب تيمور كان عليه أن يشرب ابريقه دفعة واحدة .

وكان القوم يستهدفون بشرابهم هذا الى أن يثملوا ، وهو ما يزال يفعلونه حتى اليوم . وقد بلغ معاصرو تيمور وخلفائه بفنى الافراط فى

---

(١) استبدل القوم فى العصور الحديثة هذا الخوان الجلدى بنسـيج من الجوت الروسى المنوز اللامع ، وهو عند الأثرياء من الحرير وله سـجف « شراريب » طويلة ، ويسمى دستور خوان ، وكلمة دستور معناها احتفال ، وخان المائدة .

(٢) ازداد اقبال المسلمين على المشروبات الروحية فى عهـد الحكم المغولى . وكان تعاطيها شائعا بين الطبقات العليا من الخوارزميين . كما كان الادمان عليها شائعا بين الجنكيزيين والتيموريين . وقد أشـار بابر فى سيرته الى انتشار هذه الرذيلة . وكان اكتشاف الطباق نعمة جزيلة لهـؤلاء السكارى الآسيويين .

الشراب والأكل درجة لم يبلغها غيرهم . ومن كان منهم يستقط على الأرض بتأثير الشراب أو يرتكب حماقة كبرى وهو فى سكره ، كانت فعلته هذه تحمل على انسجامه فى مجال اللهو والسرور . ومن كان له جلد على الشراب كان يوصف بالبطولة كالمحارب سواء بسواء . ومقياس الكمال عند التتار كان يقتضى المبالغة فى كل شىء . فلم يكن يكتمل الطعام الا أن يحوى شواء فرس كامل ومعه أباريق النبيذ وفيرة فى عددها ضخمة فى حجومها .

وهذه الدنان أو الجفان (وكان الواحد منها يسع ما يقرب من ثلاثة جالونات على رواية كلافيجو) كانت تصف فى صفين على هيئة طريق يمتد حتى سرادق تيمور ، فضلا عن آنية أخرى مثلها كانت تفرق فى أماكن متعددة بمدينة الخيام وعليها مظلة تظلها . وكانت هذه تملأ على فترات بالنبيذ أو القشدة مع السكر ليستمتع بها أكبر عدد من الناس . ويمكننا أن تتصور بسهولة أن مثل هذه المناسبات لم يكن ينقصها وجود المشعوذين والمهرجين والراقصين على الحبال . وكان آكثرهم يقدم من كشمير والهند . على أن الواقفين عموما على عادات المسلمين والآسيويين لا بد أن تتملكهم الدهشة والعجب حين يعلمون أنه كان هناك من السيدات من كن يقمن مآدب عامة يحضرها الرجال بل والسفراء المسيحيون كذلك . وقد وصف لنا السفير الأسبانى حفلا أقامته الأميرة هانزادة زوج ميرانشاه ، وكانت سيدة بدينة فى الأربعين من عمرها (١) . وقد دعت الى هذا الحفل عددا كبيرا من الضيوف . وفيه طغت فتنة الجمال التترى على مفعول الشراب ، وانبرى الفرسان القدماء ومعهم غلمان عين فقاموا بدور السقاة . وثمة مأدبة أخرى كبيرة أقامتها سيدة البلاط ، أى زوجة تيمور الأولى ، فى مجموعة من الخيام كان يحجبها عن العيان بسط منشورة زخرفها من النقوش العربية وشعاراتها من الذهب والفضة . وفى هذه

---

(١) عاشت هذه السيدة بمعزل عن زوجها بدعوى أنه حاول فى احدى المرات قتلها وهو ثمل ، وذلك على رواية كلافيجو . ويبدو أن «تيمور» كان كثير العطف على زوجة ابنه هذه ، وكان لها مكانة مرموقة بالبلاط .

المأدبة روعيت التقاليد فى خدمة السيدات بأدق صورة . فـكان أحد السقاة يحمل الدن فى حين كان زميل آخر له يحمل الكأس والصفحة من تحته . وكان على الساقى أن يجثو ثلاث مرات على ركبته قبل أن يتقدم الى الواحدة منهن . وكان عليه كذلك أن يلف يده بمنشفة فلا تلمس يده الأميرات على الاطلاق . على أن هذه الدقة لم تمنع الجنس اللطيف فى بلاط تيمور من أن يغادر سيداته الموائد وهن فى حالة سكر ملحوظ ، على ما يفعل سيدات الطبقة الراقية فى فارس اليوم (١) .

وتحكى الرواية الكثير عما كان يجرى من استعراض أصحاب القوى والألعاب الرياضية الأخرى التى كانت تدخل فى برامج الحفلات بوادى كان كل . ولقد جمع تيمور كنوزا وثروات طائلة من مختلف أجزاء آسيا . ولدينا من الأدلة ما لا يقبل الشك بأنه لم يكن يتردد فى الانفاق منها فى وجهين :

الأول : وهو خاص بالحفلات الباذخة التى كان يقيمها والتى وصفناها فيما سبق .

والثانى : فى اقامة المنشآت الفخمة التى رام بها تزيين حاضرته هى ومسقط رأسه .

ولقد حرص تيمور على أن يخلد ذكر كل نصر باهر أحرزه وكل حادث فذ وقع له بتذكار من المنشآت . وجلب لذلك مئات من البنائين من الهند وأمهر رجال المعمار من شيراز وأصفهان ودمشق ، فعبروا جميعا جيحون ليقيموا من المنشآت ما يشهد بأن آسيا الاسلامية لا يزال بها من الفنانين ما هم محل اعجابنا اليوم برغم ما تعرضت له تلك الأصقاع من غارات جموع التتار على مدى قرنين من الزمان ، وأن ذلك الغازى الذى

---

(١) أثار الكاتب الماهر غير المتعمق كونت جوبيلو غضب شـاه فارس الحالى عليه حين تعرض لسيرة سيدات فارس بأوروبا تعرضا غير لائق وذلك فى كتابه عن ديانات آسيا الوسطى Count Gobineau, Religions of Central Asia.

ما فتىء يوصف بالوحشية والعنف ، لم يكن خلوا من تذوقه للجمال مع سلامة فى الذوق .

ولقد أمر تيمور باقامة منشآت كثيرة فى أجزاء مختلفة من دولته ، من بينها مسجد فى تبريز وقصر فى شيراز ومدرسة فى بغداد وضريح على قبر الولى المشهور أحمد اليسوى بمدينة تركستان . وأجمل هذه المنشآت التى يتجلى فيها ذوق تيمور الرفيع ما أقيم بكش وسمرقند .

والأولى ، أى كش ، وهى موطنه الأصلى ، بها مدافن أسرته وفيها أقام ضريحا ضم قبر أبيه وقبر ابنه الأكبر جهانكير ومسجدا له ساحة خارجية يرتل فيها الشيوخ القرآن ليل نهار ويهبون ثوابه لأرواح الراحلين . ولقد بدأ تيمور يعنى بمدينة كش عناية خاصة منذ أول حياته السياسية حتى جعل منها بالفعل قصبة آسيا الوسطى الثقافية ، وصارت تشتهر باسم قبة العلم والأدب . وكان يجلب اليها العلماء من مدارس خوارزم المشهورة والأساتذة من بخارى وفرغانة . وان فى اقامته لقصر آق سراى الجميل لدليل كاف على ما اتجه اليه تفكيره يوما ما لاتخاذ هذه المدينة حاضرة له . وقد استغرقت اقامة هذا القصر سنوات عشر ، وقام على بنائه معماريون خلص من الفرس التزموا فى عمارته الطراز القومى (أو بعبارة أدق الطراز الاسلامى فى غرب آسيا) حتى رسموا على واجهته الرئيسية شعار الشمس والأسد ، فزينوا بذلك مقام الفاتح التورانى بشارات الملوك الايرانيين (١) .

وكانت شرفة المدخل فيه ، (وهى التى تعرف فى الفارسية باسم پيش طاق ، أى طاق المدخل) هى أهم ما يتميز به هذا القصر على الرسم الشائع فى منشآت ذلك العصر . وهى ترتفع فوق البناء على هيئة طاق

---

(١) كانت شارة تيمور ثلاث حلقات ٥ ٥ ٥ مع شعار « رستى راستى» أى « العدل قوة » وكان الظن أن هذه الحلقات الثلاث انما تشير الى أن سلطانه يشمل مناطق ثلاثا هى الجنوب والغرب والشمال . لكن الواقع أن هذه الحلقات مأخوذة عن شارات ايران القديمة حتى لتشاهد على قبور الساسانيين بوصفها رمزا للقوة والوحدة .

أو نصف قبة ، بها تجاويف كثيرة غريبة الشكل يكسوها الآجر المصقول وزخارفها من الفسيفساء على هيئة الأزهار والنقوش العربية . وكل هذا الآجر المصقول من صنع قاشان ، ولا يزال يعرف حتى اليوم باسم قاشى(١). وقد استخدم كذلك فى تزيين الجدران الداخلية . ولا بد أن الغرفات العليا كانت كذلك على زينة مفرطة ، اذ كانت زخارفها من النقوش العربية زرقاء ومذهبة ، وأرضيتها من بلاط مختلف ألوانه يتلاءم معها . وكانت غرف القصر جميعا على نسق واحد ، وكان جناح الحرم آية فى الروعة والبهاء . وكانت قاعته الكبرى تفتح على بستان كبير ظليل تجرى فيه جداول لطيفة ينساب ماؤها بين أحواض الزهور .

واستطاعت سمرقند بجمال موقعها أن تتغلب بمضى الزمن على اغراء كش حتى صارت قصبة تيمور . وسرعان ما أخذت من بعد ذلك تزداد رقعة وأبهة وأهمية . ولم تكن مساحتها ، على رواية السفير الأسبانى ، لتزيد على مساحة اشبيلية . وهو ، على كل حال ، انما يقصد بذلك القلعة والحصن ، أى ما كان منها يقع بداخل السور (٢) .

على أن جمال سمرقند وروعتها انما يتجليان ، خارج السور ، فى بساتينها الرائعة التى تمتد الى مسافة أميال خمسة أو ستة أو ما يزيد على ذلك وتتناثر فيها الدور الخاصة الأنيقة والقصور السلطانية . وكان بها كذلك طريق يمتد شرقا من بوابة الفيروز (دروازه فيروزى) حتى قصر دلكشا (شارح القلب) الصيفى .

---

(١) لا تزال قاشان أشهر مكان بايران كلها لصناعة هذا الآجر وان كانت تجارته قد ركدت الى حد كبير ، ذلك أن أحوال الشرق الحالية لاتشجع على اقامة الأبنية الفخمة .

(٢) ومع ذلك فانى أرى تقدير كلافيجو دون الواقع بكثير . وحتى حين أقصد بالقلعة الجزء المسكون من سمرقند وليس القصر ، فان المدينة مع أسوارها ، التى لا تزال قائمة حتى اليوم ، كانت على وجه اليقين أكبر من اشبيلية . ومبلغ ما أذكره هو أنى قطعت مسافة طويلة من بوابة بخارى فمررت بحدائق ومدافن الضواحى قبل أن أصل الى داخل المدينة .

ومدخل هذا القصر الضخم كان يغطيه الآجر الأزرق والمذهب حتى ليراه الناظر من بعيد وهو يتلألأ فى الأفق . وكان رجال الحرس السلطانى يملأون الساحة الأولى فيه وهم فى أكمل زينة وأتم سلاح . وقد قدم الزائر الأسبانى الى الساحة الثانية فى قافلة قوامها ستة من الفيلة عليها هوادج جميلة . وكان تيمور يجلس أخيرا فى الساحة الثالثة على بساط من الحرير مطرز . وفى هذه الساحة كان يستقبل زائريه . وكان يتوسط كل ساحة فسقية (على ما يشاهد بفارس حتى اليوم) تظللها أشجار الدردار والحور ، وبها نافورة تتقاذف فواراتها الكرات الحمراء والذهبية .

ويقع عند الجنوب قصر باغ بهشت (روضة الجنة) ويشتهر بعمارته الجميلة ومغانيه اللطيفة . ويقرر شرف الدين أنه قد بنى كله من رخام تبريز الأبيض ، وأنه كان يقوم على ربوة صناعية يحيط بها خندق عميق ملىء بالماء وعليه قناطر تصل الى المنتزه ، كما كانت تقوم عند جوانبه دار للوحوش أو السباع . وقد أهدى تيمور هذا القصر الى حفيدته ابنة ميرانشاه وكان لها عنده مكانة مرموقة . وكان يقضى أغلب أوقات فراغه معها هناك حتى عرف هذا القصر باسم الخلوة . كذلك كان يقع فى هذا القسم من المدينة قصر باغ چناران (روضة الحور) . وقد عرف بهذا الاسم اذ كانت تحوطه طرق جميلة يقوم شجر الحور على جوانبها . وهذا القصر كان يقوم بدوره على ربوة صناعية تتوسط البستان . وكانت أبنيته متقاطعة متعامدة ، وقد اضطلع فنانو الشام بنقشه ، كما زينت جدرانه الداخلية بالتصاوير وملئت غرفه بأثاث ضخم من الفضة وفرش وموائد وغير ذلك ، ومعها أدوات للزينة غريبة الشكل والحلى الثمينة من كل نوع . وثمة قصران آخران وصل الينا وصفهما ، وهما قصر باغ شمال (روضة الشمال) وقصر باغ نو (الروضة الجديدة) . وكلاهما بناء مربع الشكل طول ضلعه خمسمائة وألف من الياردات ، وبه تماثيل جميلة من الرخام وأرضيته مرصعة بالآبنوس والعاج .

وعلى هدى القليل مما بقى من آثار سمرقند الفخمة فى ذلك العهد ، نستطيع أن نقول ان ما وصف به المؤرخون هذه الأماكن لا يحمل على

المبالغة فى الغالب . فالمسجد الذى بناه السلطان خدابنده بمدينة سلطانية قبل ذلك بقرن لا يمكن أن يرقى الى جامع تيمور الذى يعرف بمسجد الشاه والذى لا يزال يسمو شامخا فوق الآثار القديمة بمدينة سمرقند الحديثة .

ويذكر بابر فى سيرته أن باب هذا المسجد كانت تعلوه آية قرآنية ضخمة الكتابة حتى كانت تطالع النظارة وهم على مبعدة ميلين منها (١) . ومن منشآت هذا الطراز الأخرى ، التى يرجع الفضل فى اقامتها الى بذخ تيمور ، ذلك المسجد الكبير الذى يقوم بميدان الشاه فى أصفهان والأضرحة التى توجد فى قم ومشهد . ولئن كان فن العمارة قد ظل يواصل ازدهاره ، الى حد ما ، بأواسط آسيا فى عهد شاهرخ وميرزا حسين بيقرا من خلفاء تيمور ، وهو ما ترى دليلا عليه فى خرائب المصلى بهراة ومسجد الأميرة جوهر الأنيق فى مشهد ، الا أنه ما من شك فى أن هذا الفن كان قد بلغ ذروة كماله فى عهد تيمور «البربرى المتوحش» .

وما يقال عن ازدهار العمارة عند تيمور يصدق كذلك على الصناعة فى هذا الاقليم . فقد أرغم تيمور على الهجرة الى سمرقند أمهر النساجين من دمشق ، وغزالى القطن المتازين من حلب ، وصانعى الأقمشة فى أنقرة ، والصياغ فى تركيا وبلاد الكرج ، وبالجملة كل العمال المهرة فى كل فن ، حتى كنت ترى كل القوميات والعقائد الآسيوية ممثلة فى تلك المدينة . وقد قرر كلافيجو عدد سكان سمرقند (وكان كثير منهم يقطنون الكهوف أو يعيشون تحت الأشجار بسبب أزمة المساكن الشديدة) بما لا يقل عن مائة وخمسين ألف شخص ، وهو تقدير صحيح فى الغالب . فلا عجب اذن أن صارت سمرقند بذلك أعظم سوق لتجارة آسيا كلها . وقد ازدهرت حركة التجارة بها ازدهارا عظيما ، فحملت قوافل الهند الى سمرقند التوابل وكل طريف ولطيف من نسيجها ، وصدرت الصين اليها الحرير والخزف والمسك والعقيق والحجارة الكريمة .

---

(١) يذكر بابر فى وصفه لسمرقند بسيرته أن هذه الآية هى « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » (المترجم) .

كذلك كان يرد اليها ، من القسم الشمالى من دولة تيمور المترامية الأطراف ، مقادير كبيرة من الفراء الثمين عبر الصحراء . ومنتجات المناطق المختلفة هذه جميعا كانت تعاد تعبئتها فى أسواق سمرقند ، فلا تصدر من جديد الى أهم مدن آسيا فحسب بل والى أوروبا نفسها سالكة طريقين مختلفين :

فمنفذ التجارة الأول الكبير كان بطريق خوارزم واستراباد ثم نشنى نوفجورود وموسكو حتى تصل الى أيدى تجار الاتحاد التجارى لمدن ألمانيا الهانزية .

أما المنفذ الثانى فكان بطريق قزوين وتبريز وطرابزون حيث كان يتلقفها تجار البندقية وجنوة وبيزا وينقلونها الى أوروبا . وكانت المواصلات داخل كل البلاد الخاضعة لتيمور حرة مفتوحة على التمام حتى أوقات الحروب والفتن . وطالما أشاد السفراء بذلك اذ سافروا فى كل المنطقة الواقعة بين طرابزون وسمرقند وعبر أجزاء من مناطق العدو ومعهم الكثير من المتاع تحمله البغال فى أمان تام ، فلم تصادفهم فى طريقهم مضايقات بالكاد . وكانت رحلتهم هذه عقب معركة أنقرة فى الوقت الذى بلغت فيه الفوضى غايتها بآسيا الغربية .

وسنعالج فى الفصل التالى بتفصيل أوسع مدى النهضة الفكرية التى شهدتها آسيا الوسطى بظهور تيمور . ذلك أن ثمار هذه النهضة انما ترتبط فى الواقع بتاريخ أبناء تيمور وأحفاده ، أى بأسرة التيموريين الحاكمة جميعا .

والى تيمور نفسه يرد الفضل فى اشاعة الاهتمام الجدى بالحركة العقلية والعلمية بالبلاد حتى بلغ بذلك العنصر التركى درجة من العزة لم يعرفها من قبل . والواقع أن تاريخ الترك فى آسيا الوسطى انما يبدأ بتيمور . ذلك أن أمراء خوارزم والسلاجقة ، برغم أنهم أصلا من الترك ، الا أنهم كانوا يميلون كل الميل الى الثقافة الايرانية وثقافة العالم الاسلامى العربى ، فلم يهتموا الا قليلا بنشر النفوذ التركى والأفكار

التركية ، على غرار ما يفعله الآن آل قاجار الترك الذين يحـكمون فى فارس (١) .

هـذا ويمثل تيمور بشخصه انتصـار الترك على النظم المغوليـة الصينية . وقد كان على الدوام يتوق ليثبت — عن حق — سيادة العنصر التركى . وبرغم ما كان يزدحم به بلاط من العلماء والفنانين من غير الترك ، فان اللغة التركية كانت اللسان الرسـمى الوحيد السـائد ، كما كانت الأبجدية الأويغورية هى التى يكتب بها برغم كراهية المسلمين المتعصبين لها بوصفها من بقايا المسيحية والبوذية والوثنية .

كان تيمور يكتب فى أسلوب تركى رصين فصيح على ما يشاهد فى «توزوكاته» التى غالبا ما أشرنا اليها فيما سبق . وهو لم يكن كلفا باستخدام العبارات الفخمة أو الاغراق فى التشبيهات التى كان يولع بها كبار الأدباء والكتاب الرسميون فى عصره . وهذا الذى كان نصف آسيا يرتعد منه فرقا كان يبدأ كتاباته السياسية بهذه العبارة « من تنـكرى قولى تيمور » (١) أى « يقول عبد الله تيمور أن .. » فما أعظم التباين بينه وبين خانات بخارى المتأخرين وأمرائها المفلسين الذين كانت ألقابهم تبلغ عند كتابتها باردة فى الطول .

برغم الحروب المسـتمرة التى خاضـها ذلك الفاتح الكبير ، وبرغم المتاعب المتلاحقة التى تعرض لها ، شهدت بلاده قبيل نهاية حكمه نهضة عقلية لا تنكر فى ميدانى الدين والعلم . فالتاريخ يخبرنا عن علوى من أسرة زين العابدين هو الصوفى السيد على الهمدانى الذى ذرع العالم

---

(١) أى وقت تأليف هذا الكتاب (**المترجم**) .

(٢) أحب أن أصحح هنا خطأ وقعت فيه ببحثى : Uigurische Sprachmonumente p. 17 حين نسبت الى الأمير تيمور الكتابة الأويغورية عند شواطىء الدنيبر والتى يرجع تاريخها الى عام ١٣٠٧/٨٠٠ ، وهى الآن فى حوزة المكتبة الامبراطورية بمدينة فينا ، فصاحبها فى الحقيقة هو تيمورتغلق من بيت جوجى لا تيمورلنك ، وقد كانت الأيغورية هى لسان القبيلة الذهبية الرسمى كذلك .

المتحضر آكثر من ثلاث مرات كان يعظ الناس فيها ويهديهم . وقد مات هذا العالم بختلان على ضفاف جيحون عام ٧٨٦/١٣٨٤ ، وترك مؤلفات عديدة في مواضيع اخلاقية وصوفية . وثمة صوفى آخر كبير هو خواجه بهاء الدين مؤسس الطريقة النقشبندية . وقد عاش فى عهد تيمور ومات عام ٨٩١/١٣٨٨ وهو يعد الى اليوم أعظم أولياء بخارى حتى يقال ان من يحج ثلاث مرات الى ضريحه، وهو يقع على مبعدة ميل من المدينة ، فكأنه قد حج مرة واحدة الى البيت الحرام . وجدير بالذكر ، من بين الكتاب المشتغلين بالعلوم الدنيوية ، الشاعر لطف الله النيشابورى . وكان شاعر الأمير ميرانشاه ومادحه الخاص . ولم يكن هذا الشاعر ليحسد على منصبه عند هذا الأمير الذى اشتهر بخلاعته وادمانه على الشراب . وقد احتال على كل حال فى عرض بعض من بدائع شعره على هذا الأمير التافه الذى كان عليه أن ينشد القريض فى مدحه . وكان هذا الشاعر موضع تقدير بالغ من تيمور . ومات عام ٧٨٦/١٣٨٤ . كذلك نذكر الشيخ كمال الدين الخجندى ، ولم تكن قصائده تقل فى روعتها عن غزليات سميه ومعاصره كمال الدين الأصفهانى . وحين استولى تختمش على بلد هذا الشاعر أرغمه على الهجرةالى عاصمته على القولجا(١) ، ولكنه ما لبث أن لبى دعوة السلطان حسين الايلخانى له بعد ذلك بأربع سنوات وسار الى تبريز . وقد بنى له هذا السلطان هناك خانقــاه جميلة تكــريما له ، ومات بها عام ٨٩٣/١٣٨٠ . وقضى كذلك بسمرقند بعد عام من ذلك التاريخ العلامة التفتازانى . وقد ولد هذا العالم بالعراق عام ٧٢٢ هـ ، ونشر شرحا على الريحانى وهو فى السادســة عشرة من عمره . وعاش هذا العــالم فى توفيق ، بهراة وجام وسرخس وسمرقند وغجديوان وتركستان وخوارزم وكان نابغة فى علم الأصول والفقه والنحو والتفسير على السواء . ويقال

---

(١) يقول فى بيت له (نقلا عن تاريخ سيد راقم ص ٩٢ :
اكر سراى دلبران سراى بيار باده كى فارغ شوم زهر دوسراى .
أى لو كانت سرايا قصرا للجمال ، فهات الشراب حتى أهجر الدارين الدنيا والآخرة من أجلك (وكانت سراى هى عاصمة تختمش (المترجم) ، ومن أراد تفصيلا عن ذلك الشاعر فلينظر Geschiche Persischer Redekuenste p. 255

آن مؤلفاته وأبحاثه التى كتبها تزيد فى عددها على سنى عمره بكثير . كذلك كان الشاعر أحمد الكرمانى مؤلف « تيمورنامه » ، وهى سيرة تيمور نظما ، يعيش عند الفاتح الكبير ولا كلفة بينهما حتى كان يسمح له بأن يسخر منه على وجه كان يستحق عليه اليوم الموت .. عند أكثر أمراء آسيا أنصاف المتحضرين(١) . كذلك كان تيمور يشمل بعطف ورعايته عددا ملحوظا من العلماء والشعراء من غير الترك . بل ان كل الذين حملهم معه من مختلف البلاد الآسيوية الى بلاد ما وراء النهر كانوا يعوضون بالكثير نظير هجرتهم هذه التى أجبروا عليها قسرا . فالعلماء من أمثال الجزرى ، صاحب أعظم قاموس عربى ، صارت لهم مناصب مرموقة فى البلاط . أما العلماء المعلمون الذين قدموا من نيسابور ومرو وخوارزم وبغداد فقد بذلت لهم وظائف مجزية فى مدارس بخارى وسمرقند وكش . تزيد على مناصبهم التى تركوها .

ويتميز عهد تيمور الزاهر على الخصوص باقامة المدارس الكثيرة واجراء الأرزاق عليها . ولا تزال بقايا هذه المدارس تثير دهشة زوار بخارى اليوم . ولقد جعل تيمور من نفسه مثالا يحتذى من بعده فى ذلك ، وأخذ فى الغالب فريق من أبناء أسرته ومن الوزراء والنبلاء يتنافسون فيما بينهم فى بناء المدارس والمساجد ودور الشفاء واجراء الأرزاق عليها ، حتى لا نجد مناصا من أن نسلك النهضة الفكرية فى آسيا الوسطى ، بطريق غير مباشر على الأقل ، ضمن الخدمات التى أداها تيمور لبلاده .

---

(١) كان تيمور ذات يوم فى الحمام ومعه الكرمانى وبعض أصحاب المجون ، وتطرق الحديث فيما بينهم الى قيم الرجال . هنالك سأل تيمور الشاعر عما عساه يدفعه حقا اذ عرض (أى تيمور) للبيع . فأجاب الكرمانى بأنه لا يشتريه بأكثر مما يعادل أربعين مليما ، وحين احتج تيمور عليه فى ذلك بأن هذا المبلغ هو ثمن لافتة البيع وحدها ، أجابه الكرمانى بأن هذا هو ما يقصده تماما ذلك أنه هو نفسه لا يساوى شيئا .

الفصل الثانى عشر
التيموريون

٨٠٧ (١٤٠٥) ـ ٩٠٦ (١٥٠٠)

لم يكتب من التوفيق لخلفاء تيمور فى مجال الفتوح ما كتب لأبناء سلفه المغولى . فقد أقام چنكيز أسس دولة جبارة كفل من بعده أبناء له وأحفاد بسواعدهم القوية استكمال عظمتها وتوسيع رقعتها . فى حين قام تيمور بنفسه ببناء دولة وصل بقوتها ومداها الى الذروة ، ليجىء أبناؤه من بعده ، فاذا هم بدلا من أن يزيدوا فى قوتها كانوا أول من يزلزل بنائها بما وقع بينهم من شحناء وحروب أهلية عنيفة أدت الى تفسخها (١) .

ولقد لبث الجنكيزيون يحتفظون بسلطانهم فى آسيا الغربية قرنين من الزمان ، فى حين لم يستطع خلفاء تيمور أن يحتفظوا الا بصعوبة قرنا واحدا بما ورثوه من أرضين برغم أن كان منهم رجال على كفاية ملحوظة كان لهم من نبيل الصفات والقدرات فى ادارة دفة الحكم ما يستحق أن تذكره الأجيال من بعدهم لهم بكل تقدير واعجاب .

لم يكد تيمور يوسد الثرى فى سمرقند وتنتهى مراسم العزاء حتى انطلق ورثته يتحاربون فى سبيل التاج(٢) وكان أولاده جميعا قد ماتوا فى

---

(١) شرح هذه الظروف العلامة م . بيلان ، فتراه فى مؤلفه عن مير على شيرنوائى (M. Belin. Notice Bibliographique et litteraire sur mir Ali Chir- Navâii) يشير فى (ص ٢٩) الى التيموريين بقوله : « ما يثير العجب هو أن هؤلاء الأمراء لم يغلب عليهم الميل الى الآداب ؛ وانما كانوا يستجيبون لنوع من الفلسفة الدينية ، وكان تأثيرها عليهم يتلاءم مع ما كانوا عليه من خشونة وجفوة فى الطبع » .

(٢) بنى تيمور بثمانى زوجات ولكنه لم يرزق الا بأربعة من الأبناء هم: غياث الدين جهانكير ومعز الدين عمر شيخ وميرانشاه وشاهرخ .

حياته باستثناء شاهرخ ميرزا النبيل الذى كان يقوم على حكومة خراسان ٢ .

وعلى هذا فقد اختار تيمور حفيده خلفا له اذ كان يثق أعظم الثقة فى قدراته ، وكان هذا الحفيد هو پير محمد سيد الهند وكابل . وكان قد قضى شبابه فى خوض غمار الحروب العنيفة ، ولكنه انصرف فى كهولته الى المنع والملاذ تاركا أمر حكومته الى وزيره القوى الغادر پير على تاز .

ولو كان هذا الأمير قد أوتى من العزيمة ما يجعله يفيق الى نفسه فيستبدل الكأس بالسيف وينطلق من غوره الى جيحون لأمكنه بقليل من الجهد أن يستولى على التاج وسط الفوضى والاضطراب اللذين كانا يسودان البلاط اذ ذاك (١) .

ونتج عن تقاعسه هذا أن سبقه الى ذلك السلطان خليل ميرزا ، وهذا السلطان الجديد هو ابن ميرانشاه ، وكان اذ ذاك شابا فى الحادية والعشرين من عمره حين استطاع بمعونة نفر قليل من القادة أصحاب النفوذ أن يرقى عرش جده (٢) .

فلقد أسرع من مقامه فى طشقند الى سمرقند حيث تمكن هناك ، بمدد من الكنوز التى كانت مكدسة بها ، من أن يشترى ذمم رجال الدولة الذين كانوا يعملون على تنفيذ وصية تيمور بتنصيب پير محمد رئيسا للدولة . وكان أنصار پير محمد عديدين وأصحاب نفوذ حتى حق لخليل ميرزا أن يهنىء نفسه حين أتيح له أن يقلب خططهم رأسا على عقب ويثبت سلطانه على الأراضى الواقعة فيما وراء جيحون . على أنه برغم

(١) اختلفت آراء القواد فى مجلسهم اختلافا كبيرا ، فمنهم من أشار بتكتم خبر وفاة السلطان ومواصلة مطاردة المغول والصينيين بعد أن شاع الرعب فيهم ، ومنهم من نصح بالارتداد فورا . وقد أخذ المجلس فى النهاية بهذا الرأى الأخير .

(٢) لم يستجب لهذا التبديل فى وصية تيمور الا قلة ضئيلة من الجيش ، وكان على رأس المعارضين ميرزا سلطان حسين احد احفاد تيمور والقائد برونداق ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يمضوا قدما لوقف تقدم خليل اذ اختلفوا على الطريق الذى يسلكونه لذلك ، وحين انتهوا آخر الأمر الى رأى حاسم كانت الفرصة قد ضاعت من أيديهم .

فوزه هذا فقد كان بوداعته وتعلقه بالخيال والأوهام أقرب الى الشاعر منه الى الحاكم .

ولقد أفلح فى كسب الكثيرين الى صفه باسرافه البالغ وبذله الكثير لهم مما تركه جده من كنوز طائلة ، كما بلغ فى الوقت نفسه الى تنفير الكثيرين منه حين عمد الى ابعاد كثير من أتباع جده القدامى عن البلاط ، فخلق لنفسه بصنيعه هذا ، بعد وقت قصـــير ، عددا كبيرا من الأعداء الألداء . ويقال كذلك انه مما صـــد الناس كثيرا عنه ما كان من كلفـــه الشديد بجارية سابقة لحاجى سيف الدين تدعى شاد ملك (بهجة الملك) وقد بنى بها عقب ارتقائه العرش ، وكان تيمور قد حاول فى حياته أن يضع حدا لغرام حفيده الخاطىء هذا فقرر أن يتخلص من هذه الجارية بقتلها ، ولكنها أفلتت من يده ، ليكتب لها من بعد ذلك أن ترقى العرش وتدفع زوجها الى سلوك بغيض دفع أخلص خلصائه الى أن يخرج عليه ويحاربه (١) .

وكان الأميران خداداد وشـــيخ نور الدين أول من ثارا عليـــه فاستوليا على امارة تركستان وجزء من فرغانة . وسرعان ما أعلنت بعض قبـــائل البـــدو فى الصحراء استقلالها بدورها كذلك . ولو لم يعمد پير محمد ، فى سبيل توكيد حقه فى العرش ، الى الزحف على جيحون فى جيش كبير حتى هدد مركز خليل تهديدا جديا ، لبقى السلطان الجديد على موقفه السلبى منهمكا فى سمرقند بنظم الغزل فى محبوبته .

وعمد القسم الأول من الجيش الذى سيره خليل لصد الغزاة الى خيانة الهدف الذى خرج له فى نذالة ، حتى اضطر السلطان الى محاربة قواته نفسها . وكان يقود هؤلاء العصاة ميرزا سلطان حسين ابن أخى خليل . وكان يرمى من وراء عصيانه هذا الى أن يقيم له دولة مستقلة على ضفاف جيحون .

---

(١) كانت هذه السيدة ابان حيـــاة تيمور فى مقـــام متواضع جدا بالنسبة لغيرها فى الحريم . وقد لقيت اذ ذاك كثيرا من المهانات التى ثارت لها فى قسوة بالغة بعد أن صار لها شأن فأساءت اساءة بالغة الى أكثـــر من واحد من الأمراء الكبار وكبار رجال الدولة .

وكان من حسن طالع خليل أن وقف على خطط هذا الخارج عليه فزحف اليه وهزمه فى موقعة جكدليك بمنطقة كش .

وانتهت المفاوضات بين مدعيى العرش هذين الى الفشل ، لتشتعل من بعد ذلك نيران الحرب الأهلية بالبلاد كلها . فما أن عبر پير محمد جيحون حتى هاجمته قوات خصمه عند نسف فهزمته وأرغمته على الارتداد بعد أن ترك من ورائه كل متاعه وما كان يحويه معسكره . وعاود هذا الأمير الكرة من جديد فباء بالفشل . ذلك أن ما كان قد انصرف اليه من ادمان الشراب والافراط فى الملاذ لم يبق له أى قدر مما عرف عنه من النشاط الجم حتى انتهى به الحال الى أن قتله غدرا وزيره پير على تاز (١) فى خيمته (٢) بالقرب من شپورغان عام ٨٠٩هـ (١٤٠٦م). وكان هذا الوزير مجرد تابع بسيط بلغ به سيده الى أعلى المراتب . ولئن كان خليل قد غدا بذلك فى مأمن بالنسبة لحدوده الجنوبية ، الا أن الحال فى الشمال كان لا يزال على خطورته ، ذلك أن الأميرين الثائرين خداداد وشيخ نور الدين كانا قد وسعا من دائرة نشاطهما وانضم اليهما كذلك جملة من الأمراء حتى نهضا فى قوة كبيرة للزحف على سمرقند .

هنالك سير خليل جيشا للقاء هؤلاء الثائرين نصب عليه أرغون شاه والله داد . غير أن هذين القائدين كانا ، مع الأسف ، على اتفاق مع العدو فى السر . حتى اذا ما خرج هذا الأمير التيمورى الشجاع ، سيىء الحظ ، مع نفر من خلصائه ليلحق بذلك الجيش ، كان هذان القائدان أول من خاناه ، فاذا بقوة صغيرة من جند خداداد تفاجئه فى خرائب

---

(١) فى النسخة المطبوعة على الحجر من روضة الصفا ذكر اسمه مير على يار ، وكذلك فى تاريخ سيد راقم وتاريخ مقيم خانى ، ومع هذا فلا أشك فى أن الصحيح هو ما ورد بمخطوط مطلع السعدين القديم الجميل .

(٢) ارتكب هذا الوزير الخائن فعلته هذه وفى خاطره أن يجعل من نفسه أميرا على بلاد الأفغان وشمال الهند . ولكنه اضطر الى الهرب على أثر ثورة الأمراء الكبار عليه ، ففر الى هراة حيث أمر شاهرخ بقتله ، وضم أملاك ابن أخيه اليه .

قلعة شيراز فتأسره وتحمله الى خصمه السابق . هنالك أرغم خليل على التنازل عن العرش ، وقد عوضه عنه خادمه السابق الثائر بحكومة كاشغر. ولم يجزع خليل فى الواقع لما نزل به الا قليـلا ، اذ كان منصرفا بكليته الى التفكير فى حبيبته شاد ملك بسبب انفصاله الاضطرارى هذا عنها ، وقد عبر عن لوعته هذه فى أشعاره الحزينة . وسقطت فى الوقت نفسـه بأيدى الثائر الظافر سمرقند بكل كنوزها . وفيها عمد الى انزال صنوف الزراية والسخرية بالأميرة شاد ملك علنا ، وعرضها لأبشع الاهانات (١). على أنه لم ينعم بثمار نجاحه هذه طويلا . ذلك أن شـاهرخ ميرزا ، أكبر الأمراء التيموريين الذين كانوا على قيد الحياة ، لم يستطع أن يبقى طويلا فى موقفه السلبى متفرجا بازاء مجريات الحوادث ببـلاد ما وراء النهر . وكان هذا الأمير أكفأ بنى جلدته وأقدرهم ، وكان بلاطه صورة صادقة لما بلغته الثقافة فى عصره . وكان يرى فى أجواء الحضارة والمدنية الرفيعة بخراسان ما هو جدير بأن يشغله عما كان يسود أقاليم جيحون من مشاكل . ولئن لم يعر الحوادث التى جرت هنالك عقب وفاة أبيه أول الأمر قدرا يذكر من الالتفات ، الا أنه حين رأى أن مصـالح أسرته قد باتت مهددة ، لم يستطع تجنب الحرب أكثر من ذلك ، وقد كان لها جد كارها .

وحين بلغه ما نزل بابن أخيه من المحن انطلق لوقته يطارد خداداد(٢) وأدى بهذا الأخير قلة استعداده للمقاومة الى أن تصـنع الاستسـلام

---

(١) يذكر مير خوند أن شاهرخ هو الذى فعـل ذلك بهذه الأميرة بعد استيلائه على سمرقند ، على أن الرواية الأخرى هى أقرب للاحتمال عندى ، وهى التى نقلها مالكولم فى كتـابه عن تاريخ فارس . فقـد كان شاهرخ نفسه كلفا بزوجته جوهر شاد . وعلى ضوء ما يروى عنه حتى اليوم ، يبدو أنه من الصعب أن نتصور انه يتجه الى الحاق الأذى بشعور ابن أخيه العاشق .

(٢) كان خداداد ينسب نفسه الى الجغتائيين . وبرغم الشـك فى صحة ذلك فمن المؤكد أنه كان يتزعم جماعة الجته الذين أخضعهم تيمور. وكان يسير تحت لوائه كل المغول والقالموق عند الشمال الشرقى من بلاد ما وراء النهر .

لخصمه أول الأمر ، على أن حيلته لم تنطل على شاهرخ ، فتقـدم الى سمرقند حيث استقبله أهلها استقبالا حافلا ، فى حين ارتد خداداد عجلا الى طشقند ، وقد انطلق ينشد العون عند الأمير المغولى محمد خان . ولكن هذا الأمير كان يتردد فى معاداة شاهرخ القوى ، فبدلا من أن يمد يد العون الى الثائر الطريد ، أمر أخاه شمع جهان بالقبض عليه ، ثم قتله من بعد ذلك وبعث برأسه الى شاهرخ ميرزا رمزا للصداقة المغولية.

وحين استقر الأمر لشاهرخ ببلاد ما وراء النهر ، حدا ما ، تذكر ابن أخيه الأمير البائس خليل ، وكان قد نقله أخ لخداداد الى حصن فى جبال آلاتاو عقب مقتل ذلك الثائر ، فسـير شـاهرخ من فوره قائده شاهملك للاستيلاء على ذلك الحصن . والظاهر أن خليلا كان يخـاف عمه ومخلصه أكثر مما يخاف ذلك الثائر الذى أسره ، فلم ير أن يسير الى شاهرخ الا فى حرس قوى ، وقد أجيب الى ما طلب .

وسار خليل على ما أراد حتى بلغ شـاطىء جيحون الأيسر حيث استقبله عمه فى مضاربه استقبالا حارا وغمره بعطفه حتى رد عليه حبيبته شاد ملك . ولم يسمح له شاهرخ بارتقاء العرش من جديد ، ولكنه جعله نائبا له على العراق على سبيل التعويض . وقد وافاه أجله وهو فى الطريق عام ٨١٢ هـ/١٤٠٩م .

وتقول الرواية ان شاد ملك (بهجة الملك) التى وصـفت لأكثر من سبب ، بأنها كانت نقمة على حكمه ، ماتت كمدا عند سماعها بوفاة زوجها (١) .

واضطر شاهرخ فى السنة التالية أن يعبر جيحون من جديد شاهرا أسلحته ، ذلك أن أمراء بلاد ما وراء النهر كان قد شجعهم قصور خليل من قبل فرأوا فى تغيير حكومة بلادهم سببا للجنوح الى العصـيان ، وتزعم هذه الحركة الأمير شيخ نور الدين ، وفى خاطره أن يأخذ العرش

---

(١) يقال ان هذه السيدة لم تطق الحياة بعد وفاة زوجهـا المخلص فأنفذت خنجرا الى قلبها . وقد دفنت الى جانبه فى قبر واحد .

لنفسه ، فبدأ بالعدوان . ولكن القائد شاهملك دحره حتى اضطر الى الارتداد الى طشقند تاركا من ورائه أنصاره ليدفعــوا وحدهم ثمن ما قدمت يداه .

هكذا غدا شاهرخ وكل أملاك أبيه فى حوزته (فيما عدا سوريا والعراق العربى) ، فعهد بحكومة بلاد ما وراء النهر الى ابنه الأكبر ألغ بيك . ولم يبرهن هذا الأمير على أنه جدير ببنوته لشاهرخ فحسب ، بل فاق كذلك أباه فى حبه للعلوم والفنون جميعا . وهو الوحيد بين الأمراء التيموريين الذى ظل اســمه لقرون عديدة يذكر مقرونا بالاجلال بين المسيحيين فى الغرب .

فألغ بيك أو (فلنسمه باسمه الأصلى) محمد تورغاى ، كان فى الخامسة عشرة من عمره عند وفاة جده ، وفى العشرين فقط حين عهــد اليه بهذه المهمة الشاقة فى الاضطلاع بحكومة ما وراء النهر . ومع هذا فقد كان حكمه الطويل هو عهد التيموريين الذهبى فى الأقاليم الواقعــة فيما وراء جيحون ، وساد السلام فى عهده توران فى الغالب لما كان لأبيه من المهابة .

وبرغم عدوان المغول المتكرر عند الشمال الشرقى ، حتى اضطر ألغ بيك فى احدى المرات الى أن يسير بقواته حتى آق سو ، فاننا لا نجــد هذا الأمير يقوم ابان حكمه بغزو جدى الا مرة واحدة فى الشمال ، ذلك الغزو الذى انتهى الى نهاية سيئة وجلب معــه على بلاد ما وراء النهر مزيدا من الشقاء .

كان تيمور قد عهد بخانية القبجاق الى قوورجك . وكان لهــذا الأمير ولد يدعى براق أوغلان أخرجه أعداؤه من بلاده .. فالتجــأ عام ٨٢٨ هـ / ١٤٢٤ م الى تركستان ونزل بالقرب من سغناق . وسرعان ما ادعى هذا الأمير بحقه فى الاستيلاء على هذا الحصن . هنالك رد قائد المكان على ذلك بأن بعث الى ألغ بك يشكو له مر الشكوى مما يقوم به جند القبجاق ، أو الأوزبك (كما يسميهم عبد الرازق صاحب مطلع

السعدين) ، من أعمال النهب ، حتى رأى ألغ بك أن يتولى هذا الأمر بنفسه . ولما كان أبوه لا يثق كل الثقة فى قدراته الحربية ، فقد بعث اليه بابنه الثانى جوكى ومعه بعض القوات ليعاونه فى مهمتــه هــذه . ولم يتريث ألغ بك حتى يلحق به أخوه فسارع الى مهاجمة خصمه .

وأفلح براق بفرسانه ، وكانوا ممتــازين على قلة عددهم ، فى أن ينزل بخصمه هزيمة حاسمة ، حتى اذا ما وصل جوكى الى هنالك وجد أن الأمر قد خرج من يده ، وبهذا استطاعت جموع القبجاق المنتصرة أن تسير فى غاراتها حتى ما وراء خجند دون أن يعوقها عائق .

وقضى الشاب ألغ بك بعد هذا الحادث الطارىء بضــع سنين فى سلام ووئام دعى فيها مجتمع العلماء ، ذلك المجتمع الذى كان يناسبه ، وزين حاضرته بالمنشآت التى لا تزال آثارها قائمة حتى اليوم تنبىء عما كان لمنشئها من ذوق رفيع وما بذله فيها من بذخ بالغ . ويصف بابر فى سيرته سمرقند فى ذلك الوقت وصفا يوثق به الى درجة كبيرة . ومما يذكره من منشآت ألغ بك بها :

١ — خانقاه ، قيل ان قبتها كانت أعظم قبة من نوعها فى عصره .

٢ — مدرسة كان بها حمام مزين بالفسيفساء فى أبدع صورة ، وهذه المدرسة أنشئت عام ٨٢٨هـ (١٤٢٤م) .

وكان الأمير قد أوقف عليها أوقافا جليلة . وقد صارت الى خرائب فى القرنين الماضيين ، واتخذ البوم الناعق مكان الطلبــة المجدين بها ، وصار منذ ذلك الوقت هو القاطن الوحيد بهذا البناء الذى كان يشمخ فى الماضى (١) .

٣ — المسجد المقطع ، وسمى بذلك اذ كانت جدرانه وسقفه تزينها جميعا النقوش والزخارف من الخشب المقطع .

---

(١) مدرسته هذه ونظيرتها الأخرى ببخارى كان قد كتب على بابها « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » (تاريخ الحضارة الاسلامية ترجمة حمزة طاهر ص ١٠٨ ، ١٠٩) . المترجم

٤ — قصر چهل ستون وبه صفوف من الأساطين الفخمة، منها ما هو مستقيم الجوانب ومنها ما هو ملفوف ، وتقوم على جوانبه أبراج أربعة .

٥ — قاعة العرش (قورونوش خانة) (١) وجميعها من المرمر . وكانت المصطبة التى يقوم عليها العرش كتلة واحدة ضخمة من الحجر طولها خمس عشرة ياردة وعرضها ثمان وارتفاعها ياردة واحدة . وقد أصابها صدع أثناء نقلها (٢). والبستان الملحق بهذا البناء فيه قاعة التصاوير (چين خانة) وكانت جدرانها مغطاة بتصاوير من الجص صنعها نقاشون من الصين استقدموا من هناك لهذا الغرض .

٦ — المرصد المشهور الذى بدىء فى اقامته عام ٨٣٢هـ على جانب تل كوهك بايعاز ومساعدة العلامة ابن قاضى الروم غياث الدين جمشيد معين الدين القاشانى واليهودى صلاح الدين . وكان هذان العالمان قد قدما من قاشان بدعوة من الأمير، فوصلهما بالعطاء الكثير، وقد استغرق اقامة هذا البناء زمنا طويلا . وعلى حد قول الشاعر فان جميع هؤلاء الرجال « رأوا نجم حياتهم يأفل فى الوقت المحدد » فلم تطل الحياة بأحد منهم حتى يشهد تمام بنائه .

واضطلع باتمام البناء العلامة على قوشجى . ووضعت جداول الزيج المشهورة والتىتنسب الى ألغبك (وتعرف كذلك بالزيج الكركانى) عام ٨٤١هـ (١٤٣٧م) .

وحين تبين لألغ بك من بعد ذلك أن جداوله لا تتفق مع أرصاده فى سمرقند نهض بنفسه بتصحيحها بمساعدة جملة من العلماء ، فحقق

---

(١) هذه الكلمة معناها أصلا فى التركية ، الدار التى يجتمع فيها الناس ، أى دار الندوة أو قاعة الاجتماع .

(٢) لا يبدو أن هذا هو نفس كوكتاش (الحجر الأزرق) الذى شاهدته فى سمرقند ووضعته فى كتاب رحلتى (ص ٢٠٦) ، وكان بهذا الحجر الذى رأيته شق كذلك . ولكن هناك فرقا كبيرا بين أبعاد هذا الحجر والأبعاد التى ذكرها بابر فلا تشير بذلك الى الشىء نفسه .

بذلك علم التتار كل النتائج السابقة التي وصل اليها علماء اليونان (١) .

ويتحدث عبد الرازق ، صاحب كتاب « مطلع السعدين » الذى أشرنا اليه من قبل ، بحماس بالغ عن الآلات المختلفة التى شاهدها هناك، وكان منها ما هو خاص بمسح الأرض وتعيين الارتفاعات وتحديد خطوط الطول والعرض . بل انه لا يجد من الألفاظ ما يسعفه ليعبر بها عن دهشته حين اطلع على الكرات السماوية وعليها النجوم والكواكب فى مسالكها باحكام تام ، والخرائط التى تبين صورة كل اقليم فى دقة تامة وعليها التلال والصحراوات والبحار . وكان الناس يرون فى هذا المرصد بحق أنه احدى المعجزات ، حتى قدمت من هراة الى سمرقند لمشاهدته والدة السلطان السيدة الوقور جوهر شاد (جوهرة السرور) عام ٨٢٣هـ (١٤٢٠م) .

ولم تكن فروع المعرفة الأخرى بأقل حظا من رعاية ألغ بك . فبلاطه كان ملتقى الشعراء والعلماء من كافة أركان الدنيا (٢) . وكان يتنافس وأبوه فى اغراء أصحاب الفنون والعلماء ليقصدوا اليهما . ولم

---

(١) تنقسم جداول الغ بك الى أقسام أربعة ، وتتناول :

ا) مختلف العصور والمناطق .

ب) المواقيت .

جـ) مسالك النجوم .

د) مواقع الأجرام الثابتة .

وقد عرف العالم الغربى هذه الجداول أول ما عرف بواسطة أستاذ عالم من أكسفورد هو جون جريفز john Greaves وهو رياضي ممتاز ومستشرق ، وذلك عام ١٦٤٢ — ٤٨ . وترجم هذه الجداول الدكتور توماس هايد Thomas Hyde ونشرها مع ترجمة حياةالغ بك عام ١٦٦٥ بعنوان Tabulae longae lat. stellarum fixarum ex observatione Ulug Beighi Tamerlanii magni nepotis.

وطبع هذا الكتاب مرة ثانية مع تصويبات قام بها شارب عام ١٧٦٧ ونقله بعد ذلك الى الفرنسية سديو M. Sédillot انظر Markhsm,a Indian Survey p. 235.

(٢) ففضلا عن شاعره الخاص خواجه عصمت بخارى كان هناك من الشعراء خيالى وبرندق ورستم خوريانى وطاهر أبيوردى وكان لكل واحد منهم مكانته المرموقة ببلاط ألغ بك .

تلق الفنون الجميلة من عناية الأمراء منذ عهد السامانيين ما لقيته عند ألغ بك .

ومن أسف أن الأيام الرخية امتدت ما بقى شاهرخ على قيد الحياة، فلم يكد ينقضى أجله عام ٨٥٠ هـ (١٤٤٨م) حتى تعكر هذا الصفاء غير العادى الذى ظل يسود آسيا الوسطى وقتا طويلا ، وأخذت سماؤها الصافية تتلبد بالسحاب الثقال ، وطفقت ثمار السلام الطيبة تتعرض للتلف بسبب قيام الحروب الأهلية . ذلك أن ألغ بك كان يرى فى نفسه وريث الدولة كلها ، بوصفه أكبر أبناء شاهرخ . فما ان سمع بموت أبيه حتى خرج من فوره الى خراسان ، وفيما كان فى طريقه وافته الأخبار بأن علاء الدين ابن أخيه بايسنقر ميرزا قد سبقه فدخل هراة وأوقع ابنه عبد اللطيف فى أسره . وخاف ذلك الأب الشفوق على ابنه فصالح علاء الدولة على أن يطلق سراح عبد اللطيف ويعيد كل الأموال التى استولى عليها ويفك اسار الرجال الذين أمسك بهم . ونفذ علاء الدولة أول هذه الشروط دون باقيها ، اذ كان قد قتل عددا كبيرا من الجند الذين وقعوا فى أسره ، كما رفض كذلك أن يرد شيئا من الأموال التى استحوذ عليها .

هنالك لم ير ألغ بك بدا من الحرب ، وكان كلا الطرفين قد اعتزما على أن يسيرا بها الى غايتها . وكان علاء الدولة ، وقد استولى على أكبر الأموال التى كدسها شاهرخ فى مدى خمسين عاما ، على استعداد لبذلها كلها فى هذا النزاع ، فضلا عما كان قد جهز به جنده من السلاح الكثير .

وحاول ألغ بك من جديد أن ينهى الأمر صلحا مع خصمه ولكنه لم يوفق . والتحم الخصمان آخر الأمر عند ترناب على مسيرة أربعة فراسخ من هراة فى معركة انتصر فيها ألغ بك نصرا حاسما ، وفقد عدوه تاجه وجيشه معا واضطر الى الهرب الى مشهد . وسار ألغ بك ، من بعد ذلك ، فى اثره يطارده حتى خراسان الغربية ، وأخذ يخضع فى طريقه المدن ، الواحدة بعد الأخرى ، وذلك بمساعدة أخيه أبى القاسم بابر ميرزا .

ولكن حدث أثناء غيابه أن هرب لسوء الحظ التركمانى يار على بك أحد زعماء قبيلة قره قيونلو (الخروف الاسود) من محبسه الذى كان قد زجه فيه ألغ بك ، ثم جدد نزاع أسرته القديم مع التيموريين فسقط على مدينة هراة وانتهبها وحطم كثيرا من منشآتها الجميلة ومن الآثار الفنية الكثيرة التى كان شاهرخ قد زينها بها .

وتعرضت سمرقند بدورها فى الوقت نفسه لمحنة مشابهة ، حين انطلقت فرقة من مغامرى فرسان الأوزبك حتى بلغت أبواب المدينة وصب أفرادها جام غضبهم على ضواحيها فى وحشية زائدة .

ويقول عبد الرازق : « ان صور الفسيفساء الجميلة التى كانت قد جلبت خصيصا من الصين قد حطمها هؤلاء الأوزبك بهراواتهم ، وكانت تزين جدران بهو الصور (چين خانه) ، كما نزعت زخارف الذهب . وهكذا حطمت تحطيما تاما فى مدى ساعات قليلة الاشغال الفنية التى استغرق انجازها سنوات بأكملها » .

ولئن كانت هذه المصائب قد هزت مشاعر ألغ بك الفنية هزا عنيفا دون مراء ، فقد كان هناك كذلك نكد آخر أشد وقعا مدخرا له .

ذلك أن ابنه المحبوب ، وهو الذى سلك طريق الفتح أول ما سلك من أجله ، قد قابل حبه له بأشد ضروب العقوق. فلقد حارب عبد اللطيف فى معركة ترتاب بشجاعة فائقة ، ولكن الغضب ما غدا أن غلب عليه حين رأى أباه يشيد بجهود أخيه عبد العزيز من دونه . وزاد فى سورة غضبه أن اختص ألغ بك نفسه بكل ما وجده من متاع فى قلعة اختيار الدين ، وكان عبد اللطيف يرى نفسه أحق بها . وما ان استطاع بعد لأى أن يحمل أباه على أن يعهد اليه بحكومة بلخ حتى رفع راية العصيان هناك من فوره وعبر جيحون على رأس جيش كبير . وأرغم الأب المنكود الحظ على أن يشتبك مع ابنه فى هذه الحرب الشاذة فهزم فى أول واقعة .

وظل ألغ بك من بعد ذلك يضرب فى الأرض على غير هدى حتى ارتد آخر الأمر الى شاهرخية (بناكت) . وهناك وقع فى الأسر مع ابنه

الأصغر عبد العزيز . وبلغ من قسوة عبد اللطيف ، ذلك الابن الثائر الفظ ، أن أمر بأبيه فقتل بيد عبد فارسى يدعى عباس .

هكذا انتهت فى عام ٨٥٣ (١٤٤٩) حياة ألغ بك الذى يعد من بين أعظم الأمراء الشرقيين المستنيرين . وقد حكم نائبا لوالده مدة ثمانية وثلاثين عاما . واستقل بحكم بلاد ما وراء النهر وتوابعها فى الشمال والجنوب لمدة عامين وثمانية أشهر .

ولم يتح لعبد اللطيف قاتل أبيه أن يجنى ما كان يتوقعه من ثمار جريمته هذه ، فقد استولى على السلطان فى سمرقند أبو سعيد أحد أحفاد ميرانشاه . وكان أبو سعيد هذا قد لجأ الى بلاط ألغ بك فرحب به وزوجه بابنته . ولم يمنعه حسن وفادة ألغ بك له من أن يثور عليه فى الوقت الذى كان قد خرج فيه لحرب ابنه العاصى . ولم يستطع عبد العزيز نائب ألغ بك الذى كان قد تركه على سمرقند ، أن يصمد أمام أبى سعيد وقواته المتفوقة ، وبهذا سقطت المدينة فى يده .

ونتج عن ذلك أن وجد عبد اللطيف نفسه ، بعد انتصاره المشين على أبيه ، مضطرا الى أن يواصل الكفاح ضد خصمه القدير هذا . وحالف الحظ قاتل أبيه بعض الوقت اذ هزم أبو سعيد ووقع فى الأسر ، ولكنه استطاع من بعد ذلك أن يفر الى بخارى .

على أن عبد اللطيف لم يطل حكمه من بعد ذلك الا شهورا ستة ، اذ قتله عام ٨٥٤ (١٤٥٠) بابر حسين أحد أتباع ألغ بك السابقين ، وكان قد أقسم أن ينتقم لمقتل سيده ، ثم فصل رأسه عن جسده وعلقها بأعلى رواق المدرسة الفخمة التى أقامها ألغ بك . وشاع فى الناس على اثر ذلك مطلع قصيدة معناه « ان قاتل أبيه لا يليق بالملك » (١) .

---

(١) أخطأ المؤلف فى فهم هذا البيت وهو « بدركش بادشاهى رانشايد * وكرشايد بجزششش ماه نبايد» . أى أن قاتل أبيه لا يليق بالملك ، واذا حكم فلستة أشهر فقط وهى مدة حكم عبد اللطيف ــ حبيب السير رابع ص ٤٣ **المترجم**

وكان الأهلون يرون أن المتاعب التى نزلت ببلاد ما وراء النهر انما كانت قصاص العلى القدير من ذلك الحاكم جزاء ما ارتكبه من جرم جسيم . وخلفه على العرش عبد الله ميرزا أحد أحفاد شاهرخ ، وكان قد لقى بدوره كل ترحيب عند ألغ بك وبنى بابنة أخرى من بناته . هنالك تقدم أبو سعيد لينازع الأمير الجديد ، ولكنه هزم مرة أخرى وارتد الى سيحون حيث لحق من بعد ذلك بالأمير أبى الخير الأوزبكى . وأمده أبو الخير بقوة كبيرة من الجند هاجم بها عبد الله وانتزع منه فى معركة واحدة تاجه وحياته بعد أن حكم اثنى عشر شهرا . وبهذا تم لأبى سعيد قبيل آخر عام ٨٥٥ (١٤٥٢) الاستيلاء على سمرقند قصبة الدولة التيمورية .

على أن هذا النصر كلفه غاليا ، ذلك أن الأوزبك ، أبناء الصحراء الخشنين هؤلاء ، انطلقوا عند ذلك يعملون السلب والنهب بكل البلدان على نطاق واسع . وبرغم ما أتخموا به من الأسلاب فان أبا سعيد لم يتمكن من أن يحملهم على الرجوع الى مواطنهم بالصحراء الا بعد أن عمد معهم الى الحيلة تارة والى القوة تارة أخرى (١) .

ويعد أبو سعيد هذا أعظم خلفاء تيمور جميعا طموحا . ويؤثر عنه أنه كان كلفا بترديد مقالة جده العظيم بأن العالم جد صغير حتى لا يتسع لفاتحين فى آن واحد . وعلى هذا المبدأ وجد أن بلاد التورانيين أضيق من أن تتسع لأطماعه ، فاتجه لذلك بنشاطه الحربى نحو خراسان وايران أكثر مما اتجه الى بلاد ما وراء النهر . واذ كان أعضاء الأسرة التيمورية منقسمين على أنفسهم ، وقد تملكت حمى الفتح من كل واحد

---

(١) كان أبو سعيد قد ظهر بمفرده عند أحد أبواب مدينة سمرقند المحاصرة وكشف عن شخصيته وطلب السماح له بالدخول . وحين تكشف للاوزبك أنه قد تركهم فى السر ركبهم سوء الظن ، فخاف فريق منهم أن يهاجم أبو سعيد مؤخرتهم فانصرفوا لوقتهم ، فى حين طرد من بقى منهم بالقوة . ولم يكن صنيع أبى سعيد هذا ليتفق يقينا مع ما كان يجب عليه من العرفان بالجميل نحوهم . ولعل هذا كان هو السبب الأول فى تقاعس ابى الخير عن انجاد التيموريين من بعد ذلك .

منهم فى نفس الوقت ، فقد كان يستحيل على أبى سعيد ازاء ذلك أن يأمل فى اقامة دولة له الا أن تتم له الغلبة أولا على جملة من الخصوم الأقوياء .

وأول حرب اشتبك فيها جاءت بسبب استيلائه على سمرقند وكانت مع أبى القاسم بابر ميرزا (١) . فقد توغل هذا الأمير فى خراسان عقب موت شاهرخ مباشرة ، يسانده ألغ بك ، كما استولى على حكومة هراة عقب مقتل الأمير التركمانى يار على . ويقال ان عهده هناك كان عهد رخاء وسلام حتى ليبدو أن كان حقا جد راغب فى النهوض بخراسان بعد ما نزل بها من مصائب . وكان يرى ، بحق ، فى أبى سعيد عدوا خطيرا ، ولكنه ما غدا أن عقد الصلح معه بعد أن ضرب الحصار حول سمرقند أربعين يوما دون طائل .

ولم يعان أبو سعيد مشقة كبيرة مع أحمد ومحمد جوكى ولدى عبد اللطيف حين حاولا استرجاع عرش أبيهما ونازعاه دعواه فى الحكم ، فأوقع بهما الهزيمة عند بلخ عام ٨٥٩/١٤٥٥ . وفى هذه الحرب قتل أحمد ، أما أخوه محمد فقد فر هاربا فارتد الى ما وراء سيحون حيث راح ينشد عون الأوزبكى أبى الخير كما فعل أبو سعيد من قبل أيام ضنكه . وقد كانت سهوب بلاد ما وراء النهر الشمالية منذ زمن متناه فى القدم موردا للجيوش ، وبرغم ما تظاهر به أبو الخير نحو جوكى من فتور ، اما حرصا على صداقة أبى سعيد وقد كان له ظهيرا فيما سبق أو لسبب آخر ، فانه على أية حال لم يعدم وسيلة لمساعدة ابن عبد اللطيف هذا . فقد دعا اليه بورغه سلطان وكان من أبطال الصحراء (ويذكر لنا أبو الغازى عنه أن صدره لم يكن يحوى ضلوعا وانما كانت عظامه صفحة واحدة) وقال له :

« ليس هناك من بين أفراد أسرتى من يَعدلك فى الاضطلاع بالأمر الذى ندبتك له . وأنت فوق ذلك يا بورغه بمنزلة ابنى ، فادع قومك

---

(١) كان ميرزا أبو القاسم بابر (ولا يجوز الخلط بينه وبين مؤسس الدولة المغولية فى الهند) من أحفاد شاهرخ بطريق ابنه بايسنقر ميرزا .

وامض بهم ومن سوف أمدكم به من رجالى فكن بهم جميعا ظهيرا لهذا التيمورى فى متاعبه . »

وقبل بورغه أن يضطلع بهذه المهمة ، فسار الى طشقند حيث انضم اليه أشياع الأوزبك القدامى والچغتائيون الساخطون ، فاستولى على شاهرخيه (١) ثم عبر سيحون واتخذ طريقا قدما الى سمرقند . هنالك التقى به الأمير مزيد حاكم سمرقند واشتبك معه فى القتال . وكان يقود الجناح الأيسر لجيش جوكى القائد بيشكند أوغلان قائد قوات أبى الخير المساعدة ، فى حين كان فى الجناح الأيسر بورغه ومعه الجغتائيون. وخسر السمرقنديون المعركة فارتدوا الى حصونهم عجلين . وتم لجوكى من بعد ذلك الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر كلها بالتدريج .

وبلغت أخبار هذه الحوادث أبا سعيد ، وكان بدوره مشتبكا فى حرب دامية بخراسان مع ميرزا حسين بيقرا ، وكان خصما جديرا به على كل حال ، فاستعد من فوره لعبور جيحون . وكان بورغه وجوكى قد نزلا فى الوقت نفسه بقواتهما على شواطىء ذلك النهر وأخذا يدرسان مواقع الدفاع عنده . وكان بورغه يرى الدفاع عن جيحون اعتمادا على شجاعة الأوزبك ، فى حين كان يفضل جوكى أن يرتكز فى دفاعه على سيحون لعدم ثقته فى الجغتائيين . وكان هذا الأمير فى الواقع أبعد نظرا فى هذه المسألة من ابن الصحراء هذا ، وقد جاءت الحوادث فيما بعد مؤيدة له .

ذلك أن أبا سعيد لم يكد يبلغ بلاد ما وراء النهر حتى أخذ الجغتائيون ينطلقون جماعات الى ناحية العدو حتى اضطر جوكى ، ومعه حفنة ممن بقى معه ، الى أن يلقوا بأنفسهم فى حصن شاهرخيه ويمتنعوا فيه ، فى حين شق بورغه طريقه الى الصحراء وقد أخذ يعمل السلب والنهب فى كل ما صادف فى طريقه .

---

(١) أطلق اسم شاهرخيه على مدينة بناكت بعد أن جددت على أثر تخريب المغول لها . وقد أطلق عليها هذا الاسم تكريما لشاهرخ ميرزا .

وربض أبو سعيد أربعة أشهر عند حصن شاهرخيه ، وكاد يتم له الاستيلاء عليه لولا أن خرج ميرزا حسين بيقرا غازيا من جديد ، فاضطر الى أن يهادن صاحب الحصن . وانطلق من بعد ذلك الى جرجان فهزم خصمه ثم عاد عام ٨٦٧ (١٤٦٢) الى شاهرخيه من جديد فقضى عشرة أشهر أخرى عند أسوارها ، حتى رأى جوكى آخر الأمر أن آماله كلها قد ضاعت فأخذ يفاوض خصمه .

ودنا من الحصن خواجه عبيد الله يحمل راية الهدنة من قبل السلطان أبى سعيد ، وكان عبيد الله هذا شيخا تقيا موضع ثقة وتقدير من الجانبين . هنالك أبدى جوكى للشيخ رغبته فى التسليم اذا ما أقسم هو له على القرآن بضمان خروجه دون أن يتعرض له أحد بالسوء . ولم يأبه أبو سعيد على كل حال كثيرا بقسم رسوله ، فلم يكد يدخل شاهرخيه حتى أسر جوكى وحبسه فى قلعة اختيار الدين حيث مات بعد ذلك بقليل .

وما ان تخلص أبو سعيد من خصمه القوى هذا حتى أقام ابنه السلطان أحمد نائبا له على سمرقند ثم رجع الى خراسان ليثبت سلطانه هناك ويمد فتوحاته الى أقصى العراقين العجمى والعربى . ووجد أبو سعيد نفسه بعد أن طرد ميرزا حسين بيقرا ، وقد أصبح السيد المطلق ، لا فى بلاد ما وراء النهر وفرغانه (التى حكمها فيما بعد ابنه عمر شيخ ميرزا) فحسب ، بل وكذلك فى خراسان وبلاد الأفغان وسيستان وكرمان وفارس ، ولما تقف أطماعه بعد عند حد . فقد أخذ يتطلع بأنظاره الى سهول أذربيجان الخصبة ، وهى التى ظهر بها على الخصوص بطل جديد فيما بعد هو حسن بك زعيم أسرة آق قيونلو (الخروف الأبيض) التركمانية .

فقد حدث عام ٨٧٠ (١٤٦٥) أن قدم الى بلاط مرو حسن على أمير أسرة قره قيونلو (الخروف الأسود) يطلب العون ازاء أعداء أبيه . وكانت خراسان تنعم اذ ذاك بسلام ، كانت فى أشد الحاجة اليه . وكان أبو سعيد قد شغل خمسة أشهر بالاحتفالات بختان أصغر أبنائه، فأقيمت

بهذه المناسبة حلقات من ألعاب الفروسية والمباريات والولائم والموسيقى والرقص والزينات . وكان هذا الأمير التركمانى قد قتل أبوه شاه جهان وهو يحارب حسن بك أو أوزون حسن كما يتردد ذكره . ولم يكن أبو سعيد بحاجة الى من يحرضه كثيرا فى مثل هذه الفرص ليقدم على الحرب . فاتجه عام ٨٧٢ (١٤٦٧) فى جيش كبير من مرو قاصدا أذربيجان رأسا . هنالك بعث أوزون حسن برسله الى أبى سعيد لعرض الصلح عليه اذ كان منشغلا اذ ذاك بالحرب فى جهات متعددة (١) . ولكن أبا سعيد أغراه ما أحرزه من الانتصارات فى الماضى فرفض ما عرضه عليه خصمه .

وحين رأى أوزون حسن أن لا مناص من الحرب دافع عن نفسه فى حمية زائدة واستماتة جعلت أبا سعيد يندم على ما كان من اندفاعه فى هذا الأمر . فقد تعرضت قواته طوال سيره الى كراباج لهجمات متكررة قوية من العدو قضت على أغلبها ، حتى هوجم أبو سعيد نفسه آخر الأمر ووقع فى الأسر ثم قتل (٢) .

تلك كانت نهاية آخر أمير تيمورى كبير حكم ثمانية عشر عاما ، استطاع فيها أن يوحد تحت تاجه جميع شعوب آسيا الوسطى ، على اختلافهم ، من جبال تيان شان الى بغداد ومن سهوب القرغيز حتى نهر

---

(١) كان اذ ذاك مضطرا لقتال غديك (يرسمها هامر خطأ كدوك) احمد باشا . وكان السلطان محمد الثاني قد سيره فى جيش كبير الى الأناضول ، وكان فاتح القسطنطينية يحقد على أوزون حسن ترحيبه باسحاق بك أحد أعداء العثمانيين .

(٢) كان أبو سعيد ميرزا عندما استولى على هراة لأول مرة قد أمر بقتل الأميرة جوهر شاد زوج شاهرخ ميرزا . وعلى هذا فقد سلم أوزون حسن أسيره الى يادكر ميرزا ابن هذه السيدة فقتله اخذا بالثأر ، وذلك على رواية مؤرخ ميرزا حسين بيقرا . ويذكر كونتريني Contarini سفير البندقية لدى بلاط أوزون حسن انه رأى فى احدى غرف القصر بأصفهان نقشا يمثل أبا سعيد (وهو يدعوه بوزخ) وقد جيء به مقيدا بالحبال الى أوغرلو محمد بن أوزون حسن ، كما رأى فى غرفة أخرى نقشا يمثل مقتل هذا الأمير التيمورى القوى .

السند والخليج الفارسي . وكانت صــفاته الحربية وقدراته العامة كفيلة بأن يبلغ شأوا أبعد من ذلك لو أن الظروف كانت قد واتته .

ومن نافلة القول أن أحمد ميرزا ابنه وخليفته لم يتمكن بطبيعــة الحال من أن يحتفظ لنفسه من أملاك أبيه الا بحــكومة بلاد ما وراء النهر . ففى الغرب كانت أسرة الصفويين الناهضة تضع أسس عظمتها المقبلة على حساب التيموريين ، وفى الجنــوب كان ميرزا حسين بيقرا يجلس قويا على عرش هراة ويعمل على بعث أمجاد خراسان القديمــة لآخر مرة . وقد بســط هذا الأمير سلطانه قــرابة ربع قرن على ايران الشمالية وبلاد الأفغان وسيستان .

وفى أقصى الشرق كان عمر شيخ ميرزا قد أعلن استقلاله ، فى حين نبذ يونس خان السلطان علنا فى المناطق الشمالية لسيحون . وكان يونس هذا جنكيزيا من فرع جغتاى فى الغالب . وكانت قوات من المغول تشد من أزره ، ولم يكن السلطان أحمد ليستطيع أن يفعل شيئا يذكر فى مثل هذه الظروف المحيطة به ، اذ كان لين العريكة ، رقيق الحاشية ، خلوا من الكفاية والمقدرة ، وان لم يخل من الشجاعة الشخصية حتى أطلق المغول عليه لقب «ألاجه» أى الجزار (١) . فقد كان من أثر تربيته على الخرافات أن نشأ غير ميال الى الاقدام وركوب المخاطر . فقد نشىء على تمسك بالشكليات حتى بلغ من مظاهر توقيره لشيخه خواجه عبد الله أن كان يجلس فى حضرته على ركبتيه خافض الرأس. والتزم هذا الوضع ذات مرة وهو يعانى ألما شديدا فى ركبته بسبب قطعة عظم حادة تصادف وجودها حيث جلس . وكان يحــرص كذلك كل الحــرص على تأدية الفروض فى أوقاتها فلم يفته ذلك أبدا حتى حين يكون نشوان .

---

(١) خلط المؤلف فى ذلك بين السلطان أحمد ميرزا بن أبى سعيــد وبين السلطان احمد خان المغولى بن يونس خان ، وهو الذى يشتهر بهذا اللقب لكثرة من قتل من أعدائه فى السنين الأولى من حكمه (تاريخ رشيدى لميرزا حيدر دوغلات ـ الترجمة الانجليزية لدنيسون روس ـ لندن ١٨٩٨ ص ١٢١)

(المترجم)

وانا لنجده برغم تمسكه بمظاهر الورع هذه كان يمضى عشرين أو ثلاثين يوما ومجالس الشراب والسمر متصلة (١) . وقد يتملكنا العجب من بعد ذلك كله حين نراه يضطلع بمهام كثيرة وسعتها همته . فقد حارب يونس خان وفتح من جديد طشقند وسيرام وولاية تركستان كلها ، كما حاول كذلك رد أخيه عمر شيخ الى طاعته . وتحارب هذان الأخوان أكثر من مرة حتى توسط بينهما الصوفى المشهور خواجه أحرار فعادت المياه بينهما الى مجاريها من جديد . ونعمت بلاد ما وراء النهر عموما فى عهد السلطان أحمد هذا بسلام طويل الأمد حدا ما .

ولم يعدم النشاط العقلى المزدهر ، الذى كان يروج ببلاط ميرزا حسين بيقرا ، أن يجد طريقه الى شواطىء زرفشان كذلك ، وان أخذ هناك شكلا مغايرا بعض الشىء . وقلد علية القوم هناك ، فى ميل ظاهر ، السلطان أحمد فى اقامته الدور والمساجد والقصور والمدارس والحمامات العامة .

ونذكر من بين المنشآت الأخرى ، التى أقيمت فى ذلك الوقت ، القصر الصيفى لمحمد ترخان بسمرقند ، وهو الذى أعجب بابر به اعجابا شديدا ، اذ كان يقوم على مجموعة من المدرجات ويطل على مراع غنية رائعة .

ولم تتعرض حكومة السلطان حسين القوية ، فى الواقع ، لمتاعب ذات بال بخراسان ابان ذلك العهد . ونعم سكان بلاد ما وراء النهرعموما فى حكم أحمد بفترة من الهدوء والرخاء لم يدركوا قدرها تمام الادراك

---

(١) يحرم محمد (صلعم) الخمر حتى يستطيع المؤمن أن يؤدى الصلاة فى أوقاتها . نهذا يتصور المسلمون أنهم لا يخرجون عما سنه لهم الرسول بخصوص الشراب طالما كان الواحد منهم على ادراك تام وهو يؤدى الصلاة (**المؤلف**) . بنى المؤلف كلامه هذا على فهم خاطىء لمعنى الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » ولم يلتفت الى الآية الاخرى التى تقول « انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » (المترجم) .

الا حين مات ذلك الأمير الطيب ، متوسط المواهب ، عام ١٤٩٣/٨٩٠ (١) فى العام السابع والعشرين من حكمه .

وأمسك بأعنة الحكم من بعده أخوه السلطان محمود . وكان هذا الأمير قد تعرض لكثير من غير الزمان بعد وفاة أبيه حتى وجد آخر الأمر منزلا رحبا فى بلاط السلطان أحمد فعاش عنده بضع سنين على أتم ما يكون من المودة معه . حتى غادر سمرقند ذات يوم بدعوى الخروج للصيد فعبر جيحون واستولى على بدخشان . ومن هذا المكان قدم بعد موت أخيه الى سمرقند فرقى عرشها . وكان أول ما فعله بعد ذلك أن قبض على أبناء أخيه الراحل الأربعة فى قصر كوك سراى وقتلهم جميعا . وأدى صنيعه الوحشى هذا الى كراهية الناس جميعا له . وزاد من مقتهم له ما عمد اليه رجاله من الظلم والاستبداد . وسرعان ما ركدت حركة التجارة وكل أنواع النشاط فى سمرقند بسبب ذلك ، ولم يعد يجسر أغلب أبناء الطبقات العليا حتى على الظهور فى شوارع المدينة ، وهم الذين اعتادوا زمنا طويلا العيش فى سلام مقيم وهدوء . ولم يكن محمود خلوا من التعليم ، وكان ينظم شعرا رديئا ، ولكنه انصرف بكليته الى التقتيل وأهمل أداء الفروض ، واستخف بأمور دينه حتى عامل بامتهان العالم الموقر خواجه عبيد الله (أحرار) .

ولم يدم حكمه طويلا على كل حال اذ مات بعد توليته بستة أشهر ، ويحتمل أن يكون قد مات غيلة . وقد أخفى وزيره القوى صاحب السطوة خسرو شاه خبر موته على كل حال لعدة أيام حتى تتاح له الفرصة لذلك للاستيلاء على ما ببيت المال من الأموال . وحين شاع فى الناس خبر موت السلطان قاموا بثورة اضطر معها خسرو الى الفرار بصعوبة بالغة .

---

(١) يذكر سيد راقم عام ٨٩٦ ، اعتمادا على تواريخ شعرية عديدة كتبت عند وفاة السلطان أحمد . ويبدو لى مع ذلك أن التاريخ الذى ذكره بابر (فى سيرته) هو الصحيح اذ كان هو نفسه معاصرا لهذا السلطان .

انتهى الأمر بالتيموريين فى بلاد ما وراء النهر الى أن بلغ الشقاق والفوضى بينهم درجة لا يرجى معها اصلاح أحوالهم ، حتى لم يعد يصعب على المرء أن يتنبأ بأن انهيار سلطانهم التام قد بات أمرا مقضيا . فقد طفق ثلاثة من أبناء السلطان محمود الخمسة ، هم مسعود وبايسنقر وسلطان على ، يتحاربون فى سبيل العرش . أما أولهم فقد انضم الى خسرو شاه ، وزير أبيه القوى(١)، فاستولى على حصار وقندز وبدخشان على الجانب الأدنى لجيحون . وكادت الظروف تواتيه فعلا لارتقاء العرش لولا ما كان من معاداة السلطان حسين بيقرا له ، اذ انقلب عليه وعلى حليفه ، لا يدفعه الى ذلك كلفه بالفتح بقدر حرصه على تأمين حدوده الشمالية . وأدى انصراف مسعود الى مدافعة خصمه هذا الى أن ضاعت منه بطبيعة الحال كل فرصة له فى ارتقاء العرش .

ودعا فريق من أصحاب النفوذ ، حينئذ ، بايسنقر ميرزا فأجلسوه على عرش سمرقند واحتفوا به على الرسم المعتاد . وكان هذا الأمير يلى حكومة بخارى فى حياة أبيه . وكان حين ولى العرش شابا فى الثامنة عشرة من عمره ذا ملامح تركمانية ظاهرة. وبرغم حيويته الفذة وجهوده(٢) فقد وجد نفسه آخر الأمر ولا قبل له بكبح جماح أمرائه فى تمردهم عليه أو الحد من نفوذ رجال الدين البالغ . فقد ودت كل فرقة أن تتخذ منه أداة لتحقيق أغراضها الخاصة ، حتى صار الحال الى أن برم به كل فريق فتضافروا آخر الأمر على خلعه عن العرش . هنالك ادعى

---

(١) كان خسرو شاه تركيا من قبيلة القبجاق ، قضى شبابه فى خدمة الترخانيين ، واجتباه من بعد ذلك السلطان محمود حتى صار عنده آمرا على فرقة من الجند تبلغ الخمسة الآلاف أو الستة الآلاف ، وأقطعه هذا السلطان كذلك اقليم بدخشان ، وكان يمتد من جيحون حتى الهندكوش . وحين مات سيده استقل بما بأيديه من أرضين ، وكان له جيش قوامه عشرون ألف رجل . وغلبت عليه أطماعه وغروره فانقلب على ولدى ولى نعمته فسمل عينى أحدهما وقتل الآخر (بابر نامه ــ النص الأصلى ص ٢٦) «المترجم» .

(٢) كان قد نظم بعض الشعر الجيد ، ولكنه لم يجمع فى أى سفر على كل حال . ويقول بابر انه كان ممتازا كذلك فى فن الخط والنقش .

هؤلاء الثائرون أنه حين ولى شئون حكومة حصار كان يبدو سمحا رقيق العواطف على خلاف ما يبديه لهم من فتور اليوم ، حتى أثار بذلك نفوسهم عليه . وما لبثوا أن دعوا اليهم أخاه الأصغر سلطانعلى ، فتقدم من قارشى الى سمرقند ، فاحتفوا به فى قصر باغ نو الصيفى . وكان بايسنقر قد حجب عن الناس أشبه بمعتقل فى القصر نفسه . وشددت الحراسة على الأميرين فى القصر ، حتى تذرع بايسنقر ذات مساء بالنزول الى الايوان الأسفل ، وتمكن من الهرب بطريق احدى القنوات ، ثم نفذ الى الريف حيث لجأ الى دار خوجكه خواجه وكان صاحب مكانة مرموقة .

وحين ذاع خبر فرار بايسنقر فى الناس احتشدوا أمام دار هذا السيد دون أن يجرؤ أحد منهم على اقتحام أبوابها .

وانتهى الحال بأن قدم جمع من أصدقاء السلطان وعلى رأسهم خواجه أبو المكارم وأعادوه الى العرش ، ثم التفتوا من بعد ذلك الى الخارجين عليه فقضوا عليهم جميعا دون شفقة أو رحمة . أما سلطانعلى وظهيره الأكبر درويش محمد ترخان فقد قبض عليهما وسيقا الى بايسنقر ميرزا بعد أن فشلا فى محاولتهما الهرب ، فأمر بالأول لتسمل عيناه ، وبالثانى ليعدم . ونفذ الحكم فى الثائر ترخان على الفور ، ومزق اربا وهو يتشبث فى استماتة بأعمدة الرواق مناضلا من أجل حياته . وأشفق القدر بسلطانعلى اذ ترفق به قصدا الموكل بكحله (١) (وهو الاصطلاح الفنى الذى كان يطلقه الشرقيون على عملية السمل أو اجتثاث العيون) فحفظ عليه نعمة البصر . وكان بايسنقر نفسه هو الوحيد الذى عمى عليه هذا الأمر وأخفى عنه ، وقد وقر فى نفسه أنه بذلك قد غدا آمنا بعد أن تم له الخلاص من كل أعدائه فى نفس اللحظة التى كان فيها سلطانعلى قد انطلق هاربا الى بخارى حيث أخذ يعد العدة لشن هجوم شديد على أخيه . وحين بعث بايسنقر بالجند فى أثره لم يقدروا عليه

---

(١) ويعرف فى الفارسية باسم « ميل كشيدن » وميل هى بمعنى مرود ، يكون ذو نصل من المعدن يحمى فى النار وتكحل به عين المحكوم عليه ، والنوع العادى منه يستخدم فى تلوين العيون بالكحل .

لعزوته بها . حتى اذا ما تحارب الخصمان من بعد دلك أصيب بايسنقر بضربة قاضية اضطر على أثرها الى الارتداد سريعا الى داخل أسوار سمرقند ، ليجد نفسه على اثر هذه الكارثة وقد أحيط به من جهات ثلاث . فقد كان سلطانعلى يكر عليه من ناحية الغرب ومسعود ميرزا يزحف نحوه من ناحية الجنوب ، فى حين كان بابر ميرزا ، ابن شيخ عمر ميرزا التركى ، فى ناحية الشرق عنه أندجان ، أو خوقند (كما تدعى اليوم) ، وكان قد قدم يطالب بحقه فى عرش جده برغم حداثة سنة . ويعد بابر ميرزا هذا ، بحق ، من بين أعاظم الأمراء فى العالم الشرقى أو العالم الغربى على السواء . وقد وصف أئمة المستشرقين فى العصر الحديث سيرته (١) بأنها « مذكرات قيصر الشرق » . وسرعان ما أدرك بابر ببصيرته النفاذة أن صرح سلطان التيموريين ببلاد ما وراء النهر قد أخذ يتفتت ، فتقدم يبذل غاية جهده وكله أمل فى تفادى وقوع هذه الكارثة . على أن جهوده كلها فى ذلك صادفها الفشل كما سنرى فيما بعد .

هكذا غدت سمرقند فى مستهل عام ١٩٠٣ (١٤٩٦) والأخطار تتهددها من جهات ثلاث دفعة واحدة .

على أن الحظ حالف بايسنقر ميرزا اذ حل الشتاء وكانت قسوته فى ذلك العام على غير المعتاد . واتفق بابر وسلطانعلى على أن يقتسما

---

(١) وهي الموسومة ببابرنامه ، وقد كتبها بالجغتائية بنفسه وضمنها سيرته وسيرة آبائه وأجداده ومعاصريه ، ووصف فيها مغامراته التى انتهت بتأسيسه الدولة المغولية فى الهند ، تلك المغامرات التى أدت به الى ألا يصوم شهر رمضان عامين متتاليين ببلد واحد مدة ثلاثين عاما . وهو بعد يصف كل بلد دخله ، يصف طبيعته ومناخه وما به من صنوف الزرع وما ظهر فيه من العلماء وما له من ماض قديم وما به من مختلف الآثار . وهو يتحدث فى ذلك كله حديث صاحب ثقافة واسعة ممتازة ، فضلا عما التزمه من الصراحة التامة فيما أورد من سير وأخبار ، حتى لتعد سيرته هذه ، بحق ، صورة حية كاملة للنفس الانسانية بما فيها من خير وشر .

(المترجم)

بلاد ما وراء النهر فيما بينهما ، ولكنهما اضطرا بدورهما الى تأجيل نشاطهما الحربي بسبب قسوة البرد كذلك . وحذا حذوهما مسعود فى الانسحاب ، وكان قد اشتد به الشوق الى زوجته التى كان قد بنى بها حديثا ، وكانت ابنة الشيخ عبد الله برلاسى ، وكان قد عزم على أن يقضى معها شهر العسل دون أن يشغله أى مطمع . على أن الأخطار التى كانت تحيط ببايسنقر ميرزا لم تكن قد انجابت عنه الى غير رجعة وانما تأجلت الى حين فحسب . فلم تكد الثلوج تذوب حتى أقبل الحليفان ، بابر وسلطانعلى ، من الشرق فضربا الحصار على سمرقند لأشهر سبعة .

هنالك تلفت بايسنقر ذات اليمين وذات الشمال ينشد العون ، فلم يجد من يستجيب له الا الأوزبك الذين كانوا ينزلون عند حوض سيحون الأدنى ، وكانوا على الدوام جد مستعدين للاقدام على أى عمل يتيح لهم فرص السلب والنهب . وتقدم هؤلاء حتى مشارف سمرقند ، حتى اذا ما استبان لهم أنهم لا قبل لهم بالمغامرة فى حرب جيوش بابر وسلطانعلى المؤتلفة ارتدوا على أعقابهم من جديد . وحين وجد بايسنقر أنه لم يعد له طاقة بالمزيد من المقاومة غادر العاصمة سرا عام ٩٠٣ (١٤٩٧) فعبر جيحون عند ترمذ حيث لاذ بأخيه مسعود ميرزا . ولم يكن بايسنقر قد بلغ الثانية والعشرين من عمره حين فقد عرشه بعد سلسلة طويلة من المغامرات والمعارك الشديدة ، حتى لنرى عدوه بابر ميرزا يصفه بأنه كان رجلا كامل الرجولة ، فلم يأخذ عليه الا مأخذا واحدا هو ميله سرا الى مذهب الشيعة ، وان قيل عنه انه رجع فيما بعد الى مذهب الحق ، وقد مات هاذ الأمير عام ٩٠٥/١٤٩٩ (١) .

وتقاسم الحليفان بلاد ما وراء النهر بعد هرب بايسنقر ميرزا ، فصارت بخارى ومنطقة ميانكل الى سلطانعلى ، فى حين اختص بابر

---

(١) بايسنقر ميرزا هو ثانى أبناء السلطان محمود ، وقد ولد عام ٨٨٢ (١٤٧٧) . ويصفه بابر بأنه كان ذا عينين واسعتين أسمر اللون . وعلى هذا فقد كانت ملامحه تركمانية خالصة .

نفسه بمدينة سمرقند والقسم الشرقى من الاقليم . على أن أحدا منهما لم يستطع أن يحتفظ بما بيده من أرضين طويلا . فقد اضطر سلطانعلى الى أن يفر من وجه حليفه القوى ، فلاذ بالسلطان حسين فى هراة . فى حين تكشف لبابر بدوره بعد قليل استحالة حصوله على مؤن لجنده فى الأراضى البلقع الخراب حول سمرقند ، فضلا عن تضرعات أمه الملحة اليه بالعودة الى دياره ، فنبذ آخر الأمر كل محاولاته وآب الى موطنه (١) .

وغنى عن البيان أن أحدا من هذين الأميرين لم يكن له فى هذه المناطق الا السلطان الاسمى . فالقوة الفعلية كانت فى بخارى بأيدى عبد العلى ترخان ، وفى سمرقند بأيدى خواجه أبى المكارم .

وكان هدف بابر الأكبر ، كما يصرح هو بنفسه ، هو أن يحول دون سقوط عرش سمرقند بأيد دخيلة بعد أن لبث مائة وأربعين عاما فى حوزة التيموريين .

على أن نجم بيت التيموريين كان فى طريقه الىالأفول ، فلم يستطع الشاب بابر ميرزا أن يوقف انهيار هذه الأسرة فى أى مكان ، وفى بلاد ما وراء النهر على الخصوص . وما لبث شيبانى محمد خان — وهو چنكيزى من بيت جوجى ، أخذ نجمه يعلو على حساب الحروب الأهلية المدمرة التى قامت بين التيموريين — أن تم له هذه المرة ، بفضل رجاله الأوزبك الشجعان ، الاستيلاء على المراكز الرئيسية فى الاقليم وجلس على عرش سمرقند ، وبهذا قضى قضاء مبرما على حكم التيموريين .

سنذكر تفصيلا فى الفصل التالى الأحداث التى وقعت نتيجة لتغيير الأسرة الحاكمة . على أننا قبل أن نشرع فى ذلك لابد لنا من أن نلقى

---

(١) كان الحنان المتبادل بين بابر وأمه مما لا يدركه الخيال . وكانت هذه السيدة على ذكاء مفرط والمام تام بكافة الأحوال فى الامارة . وادى بها حبها لابنها الى أن تعارض طموحه الخطر . وما دعاها أصلا الى الالحاح عليه بالعودة هو بداية انتشار الثورة سرا بأندجان ، تلك الثورة التى كلفت هذا المغامر التيمورى عرشه فى الواقع .

بعض الضوء على الحركة الفكرية التى درجت مدارج الرقى والتقدم فى النصف الشرقى من العالم الاسلامى بفعل أبناء الفاتح الأعرج الذى خرج من « المدينة الخضراء » حتى ذكر التيموريون بالثناء الذى يستحقونه فى تاريخ آسيا . وكانت أهداف الثقافة فى البلاد الواقعة فيما وراء جيحون تختلف حدا ما عن ذلك النشاط العلمى الذى كان يروج ببلاط شاهرخ ميرزا أو السلطان حسين ميرزا بيقرا فى هراة . ففى هذه المدينة كان الشعر والتاريخ والطب والفقه وغير ذلك من الدراسات الدنيوية ، يقوم جنبا الى جنب مع علوم الدين ، فى حين نجد البلاد الواقعة فيما وراء جيحون كان يروج فيها الأوهام الدينية وجدل المتكلمين والتصوف حتى لتطغى على غيرها من العلوم فى الدرس ، اللهم الا فترة قصيرة فى عهدى ألغ بك وأبى سعيد .

ومن الصعب أن نحدد على وجه دقيق مدى النشاط الأدبى فى أى اقليم من هذه الأقاليم ، ولئن كانت ثمة عناصر ايرانية هى أول من نهض بهذا الأمر بلا شبهة فقد اضطلع به من بعدهم علماء من الترك الچغتائيين وأمراء من التتار ، فلم تقتصر جهودهم على تشجيع الكتاب ورجال الفنون ورعايتهم فحسب ، بل كان منهم كذلك من شارك هؤلاء البحث لا يضيره فى ذلك أن يكون دونهم فى الثقافة منزلة . ولقد خلف لنا على شيرنوائى فى كتابه « مجالس النفائس »(١) ثبتا بأسماء الأمراء التيموريين من المشتغلين بالآداب ، فكان منهم شاهرخ ميرزا ينظم الشعر بالفارسية والتركية على السواء ، وقد حفظ لنا من شعره حتى اليوم تلك الرباعية التى يقول فيها :

« ان الشجاع ليتقد حماسا فى الحرب وتشتد حميته ، وهو حين يصاب بالجراح يتخذ من معرفة فرسه سنادا له ، أما الجبان الذى يدعى الرجولة ثم يظهر الخضوع والخنوع من بعد ذلك استجلابا للرحمة من عدوه ، فانه سوف يموت ميتة الكلاب » .

---

(١) ما نقلناه هنا عن هذا الكتاب مأخوذ من المقصلة التى سبق أن نشرها M.Bélin (بيلان) فى مؤلفه سالف الذكر ص ٦٥ — ٨٢ .

وكان له كذلك محاولات فى نظم الغزل ، ولا يزال غزله فى زوجه جوهر شاد يروج حتى اليوم فى الأغانى الشعبية عند أهل هراة .

وكان السلطان اسكندر شيرازى ، ابن عمر شيخ ، وخليل ميرزا يقرضـــان بدورهما الشـــعر بالتركية والفارسية على السواء . وقد ترك خليل مجموعة من النظم التركى أشاد بها الشاعر المشهور خواجه عصمت البخارى . ولقد أشرنا من قبل الى ما كان عليه ألغ بك من المهارة فى علم الفلك والرياضيات . وفضلا عن المامه بهذه العلوم الدقيقة فقد نهض كذلك بالآداب والنقش والموسيقى ، ولا أدل على ما كان يستمتع به من ذاكرة قوية من أنه كان يحفظ سبع سور مختلفة من القرآن الكريم عن ظهر قلب .

وكان بايسنقر ميرزا بن شاهرخ ميرزا ، الذى مات فى حياة أبيه(١) ، يجمع من حوله على الدوام النقاشين والموســيقيين والخطاطين . وترك ابنه بابر ميرزا جملة خواطر شعرية تركية كذلك ، وقد مات ذلك الأمير فى سن مبكرة بادمانه الشراب (٢) .

كذلك ترك سيدى أحمد ميرزا بن ميرانشاه مجموعة من المؤلفات (ديوان ومثنوى) بعنوان « لطافت نامه » (كتاب اللطف أو الجمـــال) . ويكمل هذا الثبت بذكر بابر ميرزا (٣) مؤسس الدولة المغولية فى الهند ،

---

(١) توفى فى ٦ من جادى الأولى عام ٨٣٦ (١٤٣٢) وذلك وفق التاريخ الذى اكتشفه م.ن. خانيــكوف M. M. Chanikoff على شاهد قبر فى المصلى بهراة .

(٢) أصيب أول الأمر مرض خطير تهدد حيـــاته بسبب اسرافه فى الشراب ، فأقام حينذاك بمشهد لمدة قصيرة ، وقد ركبه الندم والخزى حتى كان يمضى أيامه كلها فى مسجد الامام الرضا . على أن حنينه الى الشراب كان أقوى من عزيمته ، فعاد ســيرته الأولى ، ومات عام ٨٦١ (١٤٥٨) .

(٣) واسمه بالكامل ظهير الدين محمد بابر ، أما سابقه فهو أبو القاسم بابر (المترجم) .

وهو الذى تظهره سيرته التى أشرنا اليها من قبل ، شـاعرا وسياسـيا وفيلسوفا فذا ممتازا من فلاسفة العصر الوسيط (١) .

حين نأخذ فى اعتبارنا هذه الحقائق كلها وندخل فى حسابنـا ذلك المثل الشرقى « الناس على دين ملوكهم » قد لا نعجب بذلك حين نرى عصر التيموريين يتميز بظهور حضارة فيه لم تعرف لها الشعوب الاسلامية نظيرا فى وقت من الأوقات ، فيما عدا الفترة التى ازدهرت فيها الحضارة عند الأمويين فى اسـبانيا بعض الوقت ، أو فى العصر العبـاسى الأول بالعراق . ولئن كانت ثقافة التيموريين هى أساسا نتيجة للنهضة العقليـة التى شهدتها ايران تحت حكم المغول المتأخرين ، الا أن العلوم والفنون لم تشهد أبدا من الازدهار فى بلاط مراغة أو تبريز أو سلطانية ما شهدته — على تنوع — فى هراة وسمرقند .

ونكتفى بأن نذكر من بين شعراء ذلك العهد :

مولانا عبد الرحمن جامى ، ويعرف بحبيب الله ، وكان مبرزا فى النظم والنثر كما كان كذلك يمتاز فى علوم كثيرة ، كعلوم الفقه والتفسير والأخلاق والفلسفة والنحو ، امتيازه فى الشعر .

ثم سهيلى أو شيخم سهيلى ، صاحب الترجمـة الممتازة لقصص كليلة ودمنة الهندية ، وقد عاش أولا فى بلاط أبى سعيد وقضى من بعد ذلك عشرين عاما ببلاط ميرزا حسين بيقرا .

ثم قاسم الأنور ، ويعرف أيضا باسم معين الدين على ، وكان أعظم شاعر صوفى فى عصره . وعاش أول الأمر فى بلاط شاهرخ ، حتى اذا ما طرد منه قصد الى سمرقند حيث مات بها عام ٨٣٧ (١٤٣٧) .

---

(١) لا يوجد فى كل كتب الأدب التركية أو الفارسية على السواء كتاب مثل بابرنامه يحوى مثل هذه الأخبار الغزيرة فضلا عن أسلوبه البسيط

ثم خواجه عبد الله هاتفى ، وهو من شعراء المثنوى كذلك ، وقد نظم سيرة تيمور « تيمورنامه » شعرا .

ثم خواجه عصمت البخارى ، وكان الشاعر الخاص لكل من السلطانين خليل وألغ بك . وعلى يديه تعلم ألغ بك صناعة الشعر ، ومات عام ٨٤٥ (١٤٤١) .

ثم مولانا حسين كبرى ، حفيد العلامة المشهور نجم الدين كبرى (من تلاميذ العلامة أبى الوفا الخوارزمى) الذى قتله المغول فى أوركنج ، واشتهر كشاعر صوفى ، وقد كتب شرحا على مثنوى جلال الدين الرومى . هذا كما كتب خواجه عبد الله مرواريد ، متخلصا باسم بيانى ، ديوانا أو مجموعة من الأناشيد والغزليات بعنوان « مؤنس الأحباب » وهى على هيئة رسائل .

أما ملابنائى ، ابن أحد رجال المعمار فى هراة ، فقد عاش محوطا بالرعاية ببلاط ميرزا حسين فى مسقط رأسه حتى دب النزاع بينه وبين ميرعلى شير فذهب حينذاك الى بلاد ما وراء النهر حيث اجتباه السلطان محمود وصار من بعد ذلك الشاعر الخاص لشيبانى محمد خان ، ومات عام ٩٢٢ (١٥١٦) .

ثم محمد صالح صاحب منظومة « شيبانى نامه » ، وله الى جانب ذلك غزليات رقيقة ، كما نظم مثنويا نهج فيه نهج « ليلى والمجنون » ، ولا يرى بابر لمؤلفاته هذهأية قيمة ، ولعله قال بذلك لأن محمد صالح كان من المقربين عند شيبانى . وقد عاش هذا الشاعر فى بلاط ذلك الأمير الأوزبكى .

كذلك حملّ باير على هلالى ومثنويه الشعبى « شاه ودرويش » (أى الملك والشحاذ) لبذاءة ألفاظه . وكان الشاعر يستمتع بذاكرة قوية حتى كان يحفظ عشرين ألف بيت من الشعر أو ثلاثين ألفا عن ظهر قلب .

وأخيرا ، وليس آخرا ، يجب أن نذكر مير على شير الذى يشتهر كسياسى وقائد كما يشتهر كذلك بوصفه كاتبا مكثرا ذا خيال . وبرغم

انه لا يعد مؤسس الأدب التركى الشرقى ، كما يشـــاع عنه عموما (١) ، الا انه جدير ، بحق ، بتلك الشهرة (٢) التى صادفها فى حياته وبعد مماته على السواء . ولم تكن له هذه الشهرة بسبب تآليفه التركية فحسب ، بل كذلك لغيرته فى الدفاع عن القومية التركية بازاء تحامل علماء ايران وسخريتهم منها . وبرغم مضى أربعة قرون ونصف القرن على وفاته ، لا تزال تجد مؤلفاته بين مقتنيات أعيان الأوزبك ، وان كان فهمهم لها ضئيلا فى الغالب .

وكانت دراسة اللغة والتفسير والتصوف شائعة عموما بين جملة من الدارسين النابهين الذين كانوا ينتسبون الى هذا أو ذاك من « نجوم العلم الكبار » وكانوا جميعا مبرزين فى الخطابة والكتابة على السواء . وفضلا عن الحقيقة الثابتة وهى أن كل من كان يشـــتغل بالأدب كان يشارك الى جانب ذلك فى دراسة فرع آخر من فروع العلم حتى برز كثير منهم فى صناعة الشعر وفى العلوم العربية والدينية معا ، فيمكننا أن نذكر من بين الذين تميزوا فى العلوم المتخصصة المختلفة مولانا حسامى الخيوى المولد ، وكان من تلاميذ العلامة خواجه أحرار فى قراقـــول وممن لازموه طويلا ، ثم خواجه عبيد الله وكان من حواريى بهاء الدين النقشبندى ومن دعاة تعاليمه النشـــيطين ، وكان متصـــوفا وعالما ذائع

---

(١) مر الأدب التركى فى أدوار كثيرة منذ أن ظهر الترك ، ولكنه ظل على الدوام صورة صادقة لأحوالهم الاجتماعية والسياسية والدينيـــة . ويبدو وفق ما ورد بأقدم المصادر التى بين أيدينا أنه أخذ فى الازدهارابتداء من القرن التاسع الميلادى . وتاريخ كتاب « قوداتقوبيليـــق » يرجع الى عام ٤٦٣ (١٠٧٠) (وقد نشرت أقسام منه عام ١٨٧١) ورغم أن مؤلفه يقول انه أول كتاب كتب بالتركية ، الا أن لغته يظهر فيهـــا علامات مميزة تدل على رقى الأسلوب الأدبى وعلى وجود نشاط أدبى سابق بالتالى .

(١) كان الرأى السائد هو أن العنصر الايرانى بين السكان أرقى عقليا بكثير من العنصر التركى . ولقد أخذ مير على شير على عاتقه أن يقيم الدليل ، على هدى الانتاج الأدبى لبنى جلدته ، على أن الترك يمـــكنهم بدورهم أن يفخروا بكتابهم الأكفاء . وحين بدا له أنه لن يمكنه أن يرقى بهم الى أن يكونوا على قدم المساواة مع الأدباء الفرس الذين كان نشاطهم يتلألأ اذ ذاك ، انتقل بنزاله من ميدان الأدب الى حومة الأخلاق ، فأخـــذ يشيد فى صور متعددة زاهية بشجاعة الترك وأمانتهم واخلاصهم . وهذه المناظرة اللطيفة تجدها فى كتابه « محاكمة اللغتين » .

الصيت حتى تخاصم علماء عصره من أجله . هذا كما كان شديد التمسك بمبدأ النبى الأكرم « الفقر فخرى » ، فعاش بظاهر قراقول يفلح الحقول بيديه ، وتوفى عام ٨٩٥ (١٤٨٩) بقرية كماكيران . ولا يزال كتابه « تحفة الأحرار » يقرأ على نطاق واسع ، وهو فى الأخلاق والدين ، كما يقصد الزوار ضريحه بسمرقند في جموع غفيرة قادمين من أماكن بعيدة . ومنهم كذلك مولانا فصيح الدين الذى عاش ببلاط حسين بيقرا ، وكان صاحب حظوة عنـد ميرعلى شير ، ولا تزال شروحه على أهم كتب المذاهب فى عصره تدرس بكليات آسيا الوسطى ، وتوفى عام ٩١٩ (١٥١٣) .

أما مثلا عبد الله جعفر فلا يقلل من قيمة شروحه عدم ذيوعها ، وهو من تلاميذ جامى ، ومن الفقهاء كذلك ، ومات عام ٩١٦ .

وثمة فقهاء ثلاثة آخرون مشهورون هم مولانا معين الفرائى الذى يشتهر بكتابته لسيرة النبى وأركان الاسلام ، ومولانا كمال الدين حسين الذى يشتهر بتآليفه العديدة فى تفسير القرآن ودراساته الفـذة فى الأخلاق ، ومولانا محمد قاضى الذى يشتهر بكتابه « سلسلة العارفين » .

أما أبعد المؤرخين صيتا فكان شرف الدين لكتابته لسيرة تيمور ثم عبد الرزاق الذى يشتهر بتاريخه الفياض للتيموريين فى أسلوب بليغ وحول هذا العصر ألف كذلك كتاب « دابستان » (١) (مدرسة المذاهب)

---

(١) يقصد كتاب « دابستان المذاهب » لمحمد محسن فانى ، وهو يتحدث عن :

١ ــ الزردشتية .
٢ ــ عقائد الهنود .
٣ ــ عقيدة القراتبتيان .
٤ ــ عقائد اليهود .
٥ ــ عقائد النصارى .
٦ ــ حقيقة المحمديين وأهل الاسلام .
٧ ــ عقيدة الصادقية .
٨ ــ عقيدة الواحدية .
٩ ــ عقيدة الروشنية .
١٠ ــ عقائد الالهية .
١١ ــ عقائد الحكماء .
١٢ ــ عقائد الصوفية .

(طبعة بمباى ١٢٩٢ ــ ١٨٧٥) . **الخشاب**

الذى يتناول بالدراسة اثنتى عشرة عقيدة مختلفة من عقائد الشرق . ويصف المستشرق سير جونز W, Jones هذا الكتاب بأنه من أهم وأغزر الكتب الشرقية . ولم تهمل كذلك دراسة الرياضيات والحساب وعلم تقويم البلدان (١) . على أن هناك كثيرا من الكتب التى قام بتأليفها علماء أفذاذ قد ضاعت تماما أو لعلها فى الغالب لم تصل الى أيدينا .

ولا تتعرض هنا لتفاصيل الأبحاث الأدبية والتاريخية . وحسبنا فى ذلك أن نستعرض ثبت أسماء النحويين والفقهاء ، منبهين الى أن كثيرا من النحو ووجوه الاعراب التى يدرسها شباب المسلمين فى كل الأقاليم حتى اليوم انما ترجع الى ذلك العهد ، وأن كثيرا من الرسوم والآراء المذهبية الخاصة بأواسط آسيا انما ترد الى ما كتبه علماء هاتيك الأيام .

وما نجده عند المسلمين فى آسيا أو فى غيرها من الأماكن من الميل الى الثقافة والحضارة الرفيعة بل وبالاختصار كل الصفات التى لم يعد يعرف منها اليوم الا اسمها ، هذه جميعا هى من آثار فترة الازدهار التى شهدها بلاط هراة وبلاط سمرقند .

ومن أهم الفنون التى كان لها حظ كبير من العناية على الدوام فن الخط وفن النقش . وممن كان يشتغل بفن الخط سلطان على (الذى عهد اليه على شير بنسخ كتبه) ، وممن كان يشتغل بفن النقش بهزاد وشاه مظفر .

وكان التيموريون ، مع غيرتهم الشديدة وتمسكهم بمذهب أهل السنة ، يزينون كتبهم على الدوام بالتصاوير الملونة ، ومنشآتهم

---

(١) على رأس هذه المؤلفات الجغرافية رسالة لجامى على هيئة أسئلة والجواب عليها عن الهند ، وكتاب واصف « بلاد چين » وهو وصف للصين نقلا فى الغالب عن تقارير البعثة التى كان شاهرخ قد أوفدها الى بكين .

بالفسيفساء ، فلا يتمثل فيها الأرابسك (١) ونقوش الجماد فحسب ، بل وتزدان كذلك بصور الأمراء والأبطال ، وبصور الأولياء فى بعض الأحيان . وقد شيد كثير من المنشآت المعمارية الجميلة فى عهد شاهرخ وألغ بك وأبى وميرزا حسين . ويقال انه فى تلك العهود قام المعماريان الاستاذ محمد سبز والاستاذ قوام الدين بتنفيذ بضعة آلاف من الأشغال العمومية . ويروى المؤرخ سام ميرزا أن مير على شير أقام بخراسان وحدها ما لا يقل عن ثلاثمائة وسبعين مسجدا ومدرسة وخانقاها ودارا للشفاء وقاعات للقراءة وجسورا . وهل كان ينتظر من مثل هؤلاء الملوك الكبار فى مثل هذا العصر غير ذلك الذى اضطلعوا به .

ولقد قضت الحروب المتواصلة فى البلاد الواقعة فيما وراء جيحون حتى على خرائب هذه الآثار فى الغالب ، ومع ذلك فقد بقى حول هراة أكثر من أثر يدل على الحضارة المزدهرة التى كانت تقوم هناك . ولم يترك ذوق التيموريين الرفيع طابعهم فى مدينة هراة ، بالمصلى وبخواجه عبد الله الأنصارى فحسب ، بل وعلى طول شواطىء مرغاب حيث تتوج صخورا ناتئة عديدة هناك خرائب الدور الصيفية التى كانت قائمة هناك. وهذه الخرائب انما تقوم شاهدا ملموسا على مدى ما كان يستخدم القوم من الفنون الجميلة والشعر مزينين بها الأجواء التى يقضون فيها حياتهم اليومية .

وبرغم وجود العدد الوفير من العلماء الموقرين والفقهاء والشيوخ فقد كان من رسم البلاط فى هراة وسمرقند اقامة الحفلات ومجالس الشراب التى كانت تعقد فى الغالب لعدة أيام ، وكان الغناء والموسيقى من لوازم تلك الندوات على الدوام ، وكان الموسيقيون والمطربون بذلك موضع التكريم . وعلى ما يروى بابر فقد كان أشهر هؤلاء خواجه عبد الله مرواريد (وقد سبقت الاشارة اليه) ، وقل محمد عودى وشيخ نايى ثم حسين عودى الذى كان يجيد العزف على العود والناى والقانون

(١) على ما رواه بابر أن أبا سعيد قد أمر بتزيين قصر بابر ميرزا بالتصاوير ونقش صور المعارك الحربية على جدرانه .

ويذكر كذلك غيره من المطربين مثـل مير شادى وغلام ومير عزو (١) . والواقفون على أحوال آسيا الاسـلامية اليوم قد تصدمهم الحقيقـة بأن بلاط التيموريين كان يفخر كذلك بما لديه من الراقصين ، بل لقد كان هناك على ما يرويه بابر ، سيد (من نسـل الرسول) يدعى بدر كان من أشهر البارزين فى فن الرقص حتى ابتكر هو نفسه عدة رقصات. وان الرعب ليملك اليوم كل مسلم حين يتصـور أن سـيدا بعمامتـه

---

(١) يذكر بابر فى سيرته « بابرنامه » التى نشرتها بالجغتائية السيدة ا. بيفريدج (ورقة ١٧٧ ب ـ ١٨٢ ب) :

« ان عصر السلطان حسين ميرزا كان أزهى عصور الحضارة ، فقد اجتمع فيه بخراسان هراة على الخصوص الصنوة من أهل الفضل ممن كان غرضهم الأسمى أن يصلوا بالفنون التى وقفوا حياتهم على الاشتغال بها ، الى أعلى درجات الكمال .

وكان من هؤلاء الأعلام مولانا عبد الرحمن جامى الذى لم يكن له فى عصره ضريب سواء فى العلوم الظاهرة أو الباطنة ، وأما شعره فهو معلوم مشهور ، ثم شيخ الاسلام سيف الدين أحمد من أحفاد مولانا سـعد الدين التفتازانى الذين لبثت مشيخة الاسلام فيهم أجيالا متعاقبة . ولم يمنعه مذهبه الشافعى من مصادقة أصحاب المذاهب الأخرى ، ثم مولانا الشيخ حسين وكان فذا فى علوم الحكمة والعلوم العقلية وعلم الكلام ، فضلا عن مقدرته فى الاستنباط والشرح ، ولم يكن السلطان سعيد ميرزا يبرم أمرا دون رأيه ، ثم مير مرتاض وكان ضليعا فى الحكميات والمنقولات، وقد سمى « مرتاض » لكثرة صيامه ، ثم ملا مسعود شيروانى وعبـد الغفورلار ، وكانا من مريدى جامى ، ثم المحدث مير جلال الدين ، ولم يكن له فى علم الحديث نظير بخراسان ، ثم القاضى اختيار وقد كتب رسالة جيدة فى الفقه » .

« وكان غير جامى من الشعراء ، ببلاط السلطان حسين ، شـيخم سهيلى وحسين على طفيلى جلاير ، ثم آصافى ، وكان أبوه وزيرا فتخلص على هذا بآصافى (يقال ان وزير النبى سليمان كان يدعى آصاف: المترجم) ثم بنائى الهـروى ، وله ديوان ومثنـويات ، وقد أدت سـخريته بالنـاس فى أشعاره الى اخراجه من هراة ، وكان من أكبر المعجبين بعلى شيرنوائى، ثم سيفى بخارى ، وقد نظم ديوانا لنفع التجار ، وله مثنويات كذلك ، ثم عبد الله مثنوى كوى ابن أخت جامى وقد نظم «هفت منظر» و تيمورنامه» و «ليلى ومجنون» ، ثم مير حسين معمارى صاحب الألغـاز والأحاجى الشعرية ، ثم يوسف بديعى وهو صاحب غزليات ، ثم محمد صالح وله شعر جيد فى التركية ، ثم حسين كامى ، ثم هلالى الذى كان يحفظ أربعة آلاف بيت من الشعر عن ظهر قلب » (المترجم) . =

الضخمة الوقورة يبتكر رقصات توقيعية أو يشارك فى احدى الرقصات الشعبية التى لا تزال تروج حتى اليوم فى ايران باسم هراتى (١).

حقا ان الزمن لكفيل بتبديل كل شىء . فهاهى ذى آسيا الوسطى ينتهى أمرها بعد سقوط التيموريين الى الانهيار من ذروة الحضارة والحماس الصادق لكل ما هو مهذب جميل الى حمأة الهجمية والجهل ، فلم تنهض منها أبدا حتى الآن ، وأخذت أهميتها السياسية تتلاشى سريعا بالتالى تبعا لانهيار حضارتها ، وانقضى دور أمراء بخارى على مسرح التاريخ ، وهم الذين حكموا قرونا طويلة فى أجمل بقاع آسيا الاسلامية، وتقلصت بذلك تلك الدولة المزدهرة التى كانت تقوم فى السابق ببلاد ما وراء النهر فصارت خانية بخارى البائسة .

= « وكان ببلاط بيقرا كذلك طائفة من الخطاطين ، على أن السلطان على شهيد كان يبزهم جميعا . اما النقاشون فقد كان بهزاد أرفعهم قدرا، وكان يتقن رسم الوجوه الملتحية ، ثم شاه مظفر وكان يتقن ابراز الملامح»

« أما الموسيقيون فلم يكن منهم من يجيد العزف مثل خواجه عبد الله مروانى ، ومنهم كذلك محمد عودى وشيخى نايى وشاه قلى عجكى ثم حسين عودى الذى كان يؤدى لحنا بأكمله على وتر واحد . أما ميرغزو فقد كان ملحنا ممتازا لا عازفا ، ومثله بنائى . وكان البهلون محمد بو سعيد فردا فى فنه نبغ فى مختلف العاب القوى وكان موضع اعجاب الجميع ودهشتهم » . **(المترجم)**

(١) شاهدت بنفسى الرقص المعروف باسم هراتى بشيراز عام ١٨٦٢ وفيه يعتلى الراقص مقعدا ويساير الموسيقى بعض الوقت وهو ملتف فى ملاءة بيضاء ، ويتمايل فى ستره هذا تمايلات رشيقة أكثر منها فنية ، ثم يكشف عن نفسه بالتدريج . وهناك رقصات أخرى تعرف باسم خراسانى وترجع الى ذلك العهد ، وهى تشبه ضربا من الرقص الموسيقى يؤدى فيها الراقصون حركات مضحكة تحكى المغازلة فى صورة ليس فيها الكثير من الجمال والفن .

الفصل الثالث عشر

الاوزبك وشيبانى خان

٩٠٦ (١٥٠٠) — ٩١٦ (١٥١٠)

من ألطف ما يتميز به الترك أنهم جروا دواما على تمجيد ذكرى أولئك الأمراء الذين أكسبهم ازدهار عهودهم ، أو ما كانوا يبذلونه من جهود لخير شعوبهم ، حقا شرعيا يقوم على عرفان أعقابهم لهم من بعدهم بذلك فيتخذون من أسمائهم كنى لهم ، ويشيدون بالواحد منهم ، ويرفعون من قدره حتى ليعد وكأنه مؤسس جنس ، ويبينون فى تحديد تام مدى الدور الذى لعبه فى بعث بلاده من جهة وعلى مسرح التاريخ من جهة أخرى .

وعلى هذا رأينا الترك ينفذون أولا الى آسيا الغربية كطلائع للدولة السلجوقية الجبارة ثم يقيمون هناك على بقايا الدولة البيزنطية دولة جديدة لا تزال تعرف حتى اليوم باسم الدولة العثمانية نسبة الى زعيمهم عثمان .

وعلى هذا أيضا نجد قبائل الترك المغول التى تسكن المناطق (١)

---

(١) لكيلا يتعرض هنا اصطلاح « الترك المغول » لاى تأويل يجب ان أبين هنا انى أنظر الى الأوزبك بوصفهم خليطا من الترك والمغول فهم ليسوا من أصل تركى خالص . ومثل هذا الامتزاج لا نظنه بعيدا عن الاحتمال عند الترك والمغول الذين دخلوا فى الاسلام اذ أنه قائم فى الواقع . وأحسن دليل عليه نجدة فى ثبت أسماء الاثنتين والثلاثين قبيلة أوزبكية . وأغلب هذه الأسماء هى بلا شبهة مغولية فى أصلها وتطابق تمام المطابقة كثيرا من الأسماء التى لا تزال تشيع بين البدو فى صحراء جوبى . مثال ذلك ختاى مونج : ختات (فى ابدال الجيم بالتاء انظر-Uigurische Spra-hmonumente p. 23) = بالصينية نوكس مونج ، نوكوسون ، الصوف (ولا تجد حرف النون ينطق بالتفخيم فى التركية فى الغالب) تاس مونج : تاس ، وهو نوع من النسور الرمادية . دورمن منج : دورين = أربعة ، ميتن مونج ، ميته = الجبن والخور وهلم جرا .

الشرقية لبلاد القبيلة الزرقاء ، وهو الاقليم الواقع بين الفولجا وبحر آرال ، تنتسب (١) تشريفا لها الى أوزبك تاسع الحكام من بيت جوجي فتشتهر سياسيا باسم قبيلة الأوزبك (٢) ويقول أبو الغازي في تاريخه عن التتار (٣) ان أوزبك خان كان يكافىء كل شخص ويكرمه وفق ما يستأهله. كما دعا الناس الى الاسلام فدخل بجهوده كثيرون فى ملة المسلمين ، وعلى هذا انتسب قوم جوجي الى أوزبك ، ذلك الاسم الذى سوف يخلد الى يوم الدين .

ولقد حمل أوزبك قومه على الدخول فى الاسلام ، وكان الى جانب ذلك ، كما يلاحظ هامر بحق (٤) ، ثالث حكام عظام أربعة ازدان بهم عرش القبجاق ، ومع هذا فلايبدو أن الأوزبك ، لا فى عهده ولا فى عهد خلفائه المباشرين ، كان لهم دور ملحوظ كأمة ، وان كان ذكرهم يرد بين الحين والحين فى تاريخ التيموريين . كما أشار اليهم كذلك عرضا الرحالة العربى ابن بطوطة .

---

(١) يجعل مؤرخو آسيا الوسطى الشرقيون موطن الأوزبك القديم هو بطاح القبجاق الغامضة المعالم ، ويعنون بذلك مرتفعات توران التى تمتد ستمائة فرسخ طولا وثلثمائة عرضا من بحر الخزر صوب الشرق . وهذا الادعاء خاطىء على كل حال ، ذلك أن الأوزبك برغم أنهم كانوا يرعون قطعانهم الى الجنوب من خوارزم الا انهم لم ينفذوا من ناحية الشمال الشرقى الى أبعد من المجرى الأدنى لسيحون حتى سقوط التيموريين . فموطنهم الأصلي كان فى الغالب عند شواطىء نهرى أورال وامبا ، وبعبارة أخرى ذلك الاقليم الذى يعرف اليوم بأرض القبيلة الصغيرة » .

(٢) تعنى كلمة أوزبك سيد نفسه ، والمستقل . وما يثير العجب ان هذه الكلمة نفسها كانت شائعة بين المجريين بوصفها من ألقاب الشرف ، وهى ترى فى الوثائق التى يرجع تاريخها الى عام ١١٥٠ م . وقد سخر الشيخ المشهور خداداد المتوفى عام ٩٣٩ (١٥٩٢) من تلميذه عارف صوفى حين رآه ينتحب على أثر أول انتصار لبابر على شيبانى خان وقال له بالتركية « سيكون لك سيدك » .Alias : Ozbeg

(٣) ابو الغازى ، شجر تركى (نسب الترك) .

(٤) History of the Golden Horde p. 281 والثلاثة الاخرون هم : باتو وبرك وتختمش .

ويمضى على ذلك قرن ونصف قرن انفرط من بعده عقد قبيلة القبجاق الى أربع فرق ، وكانت هذه القبيلة يوما ما على قوة ، وحين أخذ ايفان سيليفتش (Ivan Wassiliewitsch) محرر روسيا من التتار ، يهدد سلطان أحفاد جوجى عند المجرى الأعلى للفولجا ، نجد اسم أبى الخير ، أمير الأوزبك ، من بين مجموعة أسماء الزعماء والأمراء التابعين الذين نبذوا طاعة الحاكم فى سراى وأخذوا يمارسون سلطانهم كخانات مستقلين . واستطاع أبو الخير بخيامه وجموعه ، أن يرتد فى مشقة تلقاء تلك العاصفة التى كانت تتجمع فى شمال بلاد النصارى ضد قوة المسلمين ، فنزل فى مناطق السهوب الشرقية . وذاع صيته فى تلك الجهات حتى استنجد به من الأمراء التيموريين أبو سعيد ومحمد جوكى وحسين بيقرا ، والتمسوا حمايته ، على ما أشرنا اليه فى فصل سابق ، وذلك ابان حكم كيجيك (١) محمد آخر أمراء القبيلة الزرقاء ، وهو الذى انهار بسقوطه عرش جوجى فى القبجاق .

ولقد ظل الأوزبك فى منازلهم بعيدين عن مؤثرات الحضارة الاسلامية التى كانت قائمة غربى سراى وجنوبى بلاد ما وراء النهر ، متمسكين ، على طبيعة البرابرة العتاة ، بعادات التورانيين القديمة لفترة أطول مما تمسك بها اخوانهم الذين كان قد استقر بهم المقام فى منازل الحضر وتأثروا بمؤثرات الحضارة التيمورية .

واعتنق هؤلاء الأوزبك دين النبى العربى اعتناقا اسميا ، فبقيت رسومهم وعاداتهم ، مثلهم ، مزيجا عجيبا من رسوم الترك والمغول . وفى حين كان الترك عند جيحون وسيحون يقبلون بالتدريج على لغة ايران وآدابها وحضارتها عامة ، كان هؤلاء لا يزالون يرفلون فى جلود الماعز والخيل ، حتى كان المظهر الملحوظ الوحيد للحياة الدينية عندهم هو

---

(١) يخطىء هامر حين يرسم هذا الاسم بالامالة نحو الضم ، وينسى انه بهذا يكون معناه فى التركية الشرقية الجرو . وعلى هذا فالصحيح ان يكتب بدونها . ويغفر مثل هذا الخطأ أن معرفتنا اذذاك بالتركية الشرقية كانت ضئيلة جدا .

تمجيدهم ، الى حد ما ، لوليهم القومى الزاهد خواجه أحمد اليسوى (١) الذى كانوا ينسبون اليه كثيرا من الخوارق . وما لبثوا من بعد ذلك أن أخذوا ينزلون منازل الحضر بالتدريج ويستقرون بها ، وينفضون عنهم بالتالى عادات البرابرة شيئا فشيئا .

ولقد كان اسم الجغتائيين يطلق فيما سلف من الأيام على الترك المستقرين الذين كان لهم من الحضارة نصيب ، فى حين كان لفظ الأوزبك (٢) اذ ذاك مدلولا على البرابرة الذين يقطنون منطقة السهوب الشمالية الغربية ، حتى تبدل الحال اليوم فأصبح للفظ الأوزبك المدلول الذى كان للفظ جغتائى من قبل ، وبات الترك البرابرة غير المتحضرين يعرفون باسم القرغيز أو القازاق (ومعناها الرحل البرابرة) .

والغالب أن أبا الخير كان على معرفة تامة بالعصر الذى ألقت به الأقدار فيه . فلم يفكر فى الخروج الى الفتوح بسبب الظروف التى كانت تسود آسيا الوسطى اذ ذاك ، وانما اكتفى بأن يمضى قدما فى تلبية دعوة خلفاء تيمور حين كانوا يستنجدون به ابان الحروب الأهلية العنيفة التى كانت تجرى بينهم ، فناصر منهم أبا سعيد كما ناصر منوجهر ميرزا والسلطان حسين بيقرا ، وكان الأوزبك يؤوبون كل مرة بعد هذه المعارك مثقلين بالأسلاب على الدوام ، بتلك الغنائم التى أضفت على حكم أبى الخير الذى استمر أربعين عاما شهرة لم تتح لغيره من أمراء الصحراء . وهناك مثل تركمانى يقول « من اليسير أن تثير رمال الصحراء بأنفاسك ، وأيسر من ذلك أن ينهار مستقبل الانسان » .

---

(١) لا يزال خواجه أحمد اليسوى هو الولى الأثير عند البدو فى سهوب آسيا الوسطى ، ويقدس الأوزبك والقرغيز شعره الدينى ومواعظه كما يقدسون القرآن ، وقد أوردت أمثلة منه فى كتابى : الدراسات الجغتائية .

(٢) ويؤيد ذلك ما يقوله مؤلف شيبانى نامه ، ما ترجمته :

ان الجغتائيين سوف لا يدعوننى أوزبكيا وهم لن يتأثروا بالأفكار التافهة . ولم يلبث هذا الاسم الذى كان علامة على التحقير ان صار على مدى الزمن من ألقاب التشريف ، ذلك أن الترك أصحاب المدنية من سكان الحضر ، يعرفون اليوم به (الأوزبك) .

ونتج عن ازدياد قوة أبي الخير وذيوع صيته أن عاداه كثيرون ، فائتلف عليه الأمراء المستقلون في مناطق السهوب المجاورة بل لقد انقلب عليه أقرب أقربائه وفيهم بورغه سلطان ، الذى سبقت الاشارة اليه ، وذلك على مقتضى المثل التترى الذى يقول « حين يهاجم العدو مضارب أبيك فانضم اليه وشاركه السلب والنهب » (١) .

ولم يلبث أبو الخير أن سقط في حومة الوغى وتشتت أسرته الكثيرة العدد في كل صوب وحدب بالصحراء . وخلفه من بين أبنائه الأحد عشر (٢) الذين تركهم من بعده خامسهم ، وكان يدعى شيخ حيدر سلطان ، ولكنه كان محدود النفوذ ، اذ كانت عيون الأوزبك قد اتجهت فعلا الى حفيد لأبي الخير هو الأمير محمد شيباني الذى يشتهر أيضا باسم شاه بخت (أى ملك الحظ) ، وعقدوا آمالهم عليه . ومع حداثة سنه فقد دلت فعاله في الواقع على أن ثقتهم به لم تكن في غير موضعها(٣) وكان شيباني (وهو الاسم الذى سوف نطلقه عليه مستقبلا على الدوام) قد فقد وهو بعد حدث (٤) أباه بوداق سلطان (زهرة الملوك) وأمه قوزى بيكيم (أى الشاه) فعهد به وبأخيه الى قراجه بك ، أحد أتباع

---

(١) ورد هذا المثل عند أبي الغازى ص ١٠٦ ، وقليل من اللغات هى التى تحوى يقينا نظير هذا المثل الذى يحض على القتل والسلب .

(٢) وهم بداق سلطان وخواجه محمد سلطان وأحمد سلطان ومحمود سلطان وسيونج خواجه سلطان (وأمه احدى بنات الغ بك) وآق برق سلطان وسعيد بابا سلطان ، وأبناء الأميرين الأولين هم الذين كان لهم دور في تاريخ آسيا الوسطى ، وعلى هذا فقد ضبطت انسابهم . أما أبناء أبى الخير الاخرون فلا نعرف عن ذريتهم شيئا .

(٣) يذكره المؤرخون الفرس أحيانا باسم شاهى بيك ، وقد حرف هذا الاسم عند Deguignes الى شايبك . وقد أخطأ المؤرخون الايرانيون كذلك في تحديد تاريخ مولده ، فيذكره صاحب روضة الصفا عام ٩٠٥ هـ وهو تاريخ ارتقائه العرش كما سنرى فيما بعد ، والصحيح انه ولد عام ٨٥٥ .

(٤) قبل أن يستولى شيباني مباشرة على سمرقند عام ٩٠٦ هـ كان قد أفضى الى صديقه الشاعر محمد صالح أن أباه قد مات قبل ذلك الوقت بأربعين سنة وبهذا تكون وفاته عام ٨٧٦ (١٤٧١) ، فاذا كان شيباني قد ولد عام ٨٥٥ فانه بذلك كان عند وفاة أبيه في الحادية والعشرين من عمره .

(٥) وهى ليست نورى بيكيم كما ورد في الطبعة الحجرية لروضة الصفا .

جده المخلصين ، فتفانى فى تعهد الأميرين اليتيمين ، وحين مات شيخ حيدر اضطر قراجه ، بسبب عداء أسرة أبى الخير له ، أن ينزح الى حوض سيحون الأدنى ومعه الأميران اللذان وكل أمرهما اليه ، وكانا اذ ذاك قد شبا عن الطوق . هنالك أفلح شيبانى فى أن يجمع حوله شتات الأولوس (أولوس = مجموعة الخيام) من أتباع أبيه وينطلق من بعد ذلك يعمل فى هدوء على استرداد ما كان لبيته من هيبة بالثأر له وغسل ما لحق به من مهانة بالدم . وكان أول هدف له فى ذلك هو تأديب بورغه سلطان لخيانته المشينة لأبى الخير . وكان بورغه هذا قد أقام مضاربه بظاهر غابة عند الحوض الأعلى لذلك النهر . واذ لم يكن لشيبانى قبل بخصمه هذا فقد اصطنع مداراته فى انتظار فرصة سرعان ما واتته .

ففى ليلة من ليالى الشتاء الثلجى الطويلة التى يغشى فيها الظلام الدامس والزمهرير الرهيب مناطق السهوب حيث الحياة فيها على الدوام كئيبة موحشة ، انقض شيبانى خان على منازل خصمه فى حفنة من أتباعه وقتل عديدا من رجاله . وهلك بورغه نفسه فى القتال من بعد ذلك برغم ما أبداه أحد رجاله من شهامة واخلاص نادرين حين حاول أن يفتديه بنفسه (١) .

وسرعان ما رأى البطل الشاب نفسه ، بعد نجاحه فى مغامرته هذه ، وقد أصبح على رأس قوة من فرق الأوزبك يحسب حسابها ، وغدا يشعر أن فى مقدوره بذلك أن يخوض غمار معارك أقوى وأشد ، وواتته فرصتها

---

(١) انطلق القوم عند بزوغ النهار يبحثون عن بورغه فى كل مكان ، وكان المعروف أنه قد أصيب ، واكتشف بعض رجال شيبانى آثار دماء على الجليد ، فمازالوا يتتبعونها حتى دخلوا الغابة فوجدوا فيها جنديا طريحا مثخنا بجراحه . وحين سألوه عن اسمه اخبرهم بأنه هو بورغه سلطان ، حتى اذا ما جىء به الى شيبانى عرف فيه من فوره منكابى خادم بورغه . وحين سأله عما حدا به الى أن ينتحل شخصية سيده ، أجاب هذا التابع الوفى قائلا « انى يا سيدى قد نشئت مع بورغه وطعمت معه الخبز والملح ، وحين رأيت حياته تتعرض للخطر عزمت على ان افتديه بنفسى ، فتلقيت بصدرى السهم الذى هو قاتله ، وكانت هذه هى أمنيتى، ولك أن تفعل بى الآن ما تشاء » . وقد أدى بشيبانى كرمه تلقاء ذلك الى ان وصل ذلك التابع الوفى واطلق سراحه ، أما بورغه فقد عثر عليه من بعد ذلك على كل حال وقتل .

فى التو ، وذلك حين اضطر الى الاشتباك فى الحرب مع التيموريين ببلاد ما وراء النهر .فقد كان عرش سمرقند يشغله اذ ذاك السلطان أحمد بن أبى سعيد ، وكانت مناطق حدود هذه الدولة الشمالية يقوم عليها مزيد ترخان أحد أبناء كوجلوك خان ، وكان شيبانى قد عرض نفسه أول الأمر على مزيد هذا والتحق بخدمته فعلا بعض الوقت . على أن مزيدا ما لبث أن عرف خيانة قادته من الأوزبك اياه فعمل على التخلص منهم جميعا على أية صورة ، فبعث بهم لذلك الى عبد العلى ترخان أمير بخارى القوى . وكان هذا الأمير ينافس سلطانه بسعة بلاطه وما هو عليه من الأبهة والوجاهة . وتلقى أمير بخارى هؤلاء المحاربين الشبان بالترحاب ، وأفاد منهم فى صد غزوات المغول عند حدوده الشمالية الغربية . ووكل كذلك بحفيدى أبى الخير حرب الأمراء الثائرين فى ولايات تركستان الشمالية . وفى تلك المناطق شعر هؤلاء الأوزبك أنهم ينزلون فى بلاد غير غريبة عليهم . وأدى بهم شعورهم بالاطمئنان هذا وادراكهم بازدياد قوتهم ، فى الغالب ، الى أن يعلنوا عدم رضاهم عما كان يدفع لهم عادة نظير ما كانوا يضطلعون به من مهام . وانتهى الحال، لاسترضائهم ، الى أن أقطعوا مدن أترار وسبران وسغناق ، فكانت هذه المدن نواة الدولة المترامية الأطراف التى صارت لشيبانى فيما بعد ، وما غدا أن انضم الى شيبانى ، فى السر ، جموع من الأشياع والبدو الأفاقين .

وأطمعه ازدياد قوته فى العدول عن ولائه للتيموريين الذين كانوا فى طريقهم الى الاضمحلال ، وسرعان ما نشب الخصام بينه وبينهم ، حتى تم له ، قبل وفاة السلطان أحمد ، الاستقلال بمناطق سيحون ، وأرغم مزيد ترخان نائب السلطان هناك على الائتلاف معه . وهكذا انقلب شيبانى من مجرد أجير كان يعمل فى خدمة هؤلاء الأمراء الى أخطر خصوم بيت تيمور .

وكان مالزعماء البدو الفتيان هؤلاء من سجايا المحاربين الجسورين ما يكفى فى حد ذاته للدخول فى منازعات ومخاصمات لا حد لها ،

وناهيك بحالة الفوضى والاضطرابات التى كان يعيش فيها أمراء بلاد ما وراء النهر ، حتى شجعت هذه شيبانى محمد خان فى الوقت نفسه على أن يقدم على الغزو فى نطاق واسع ، وهو الذى بدأ حيـاته مجرد مغامر لا خطر منه ، واتجـه هذا الأمير بأول عمليـاته الكبرى صوب سمرقند وذلك فى عام ٩٠٥ (١٤٩٩) .

يخبرنا كاتب « شيبانى نامه » أن السلطان محمود أخا شـيبانى غزا ذلك الاقليم على ما كانت عليه حدوده أيام بايسنقرا ميرزا ، واستمر فى توغله به حتى بلغ ديزك (١) فصد هناك .

ولئن كان شيبانى قد توجه باللوم الى أخيه حين عاد الى مقره اذ كان قد أخفى عنه هذا الأمر قبل أن يخرج اليه ، الا أن رأيه اسـتقر على أن ينتقم لهزيمة أخيه على أية حال . فعبر سيحون ومعـه أحلاف من الجتة يبلغون ألفـا من الرجال . وسرعان ما تبين له تفشى الخيـانة بين هؤلاء الجات حتى اضطر أن يعود عجلا من حيث أتى . هنالك عزم هـذه المرة على أن يغزو الاقليم ، على نصيحة شيخه (٢) « من أطرافه القاصية لا من وسطه » ولذلك بعث الى جميع شـيوخ الترك فى تلك

---

(١) هى جيزك الحالية .

(٢) كان لشيبانى خان بدوره شيخ يستشيره فى كل أموره ويعمل بنصيحته دون تردد ، على ما كان عليه محاربو الترك فى تلك الأيام . وكان هـذا يدعى الشيخ منظور . وحدث حين كان شيبانى ملتحقا بخـدمة عبد العلى ، ونفسه تغلى بأطماعه ، أن ضاق ذرعا بحاله فصرخ قائلا « كيف يكون لعبد العلى الملك وهو من أصل وضيع (وكان أغلب اتباع السلطان أحمد فى الواقع حكاما اذ ذاك) وابقى أنا مجرد تابع وأنا ابن الأمـراء » وبلغ الشيخ منظور هذا الحديث ، وزاره شيبانى فى اليوم الثانى حتى اذا ما مد السماط وفرغ القوم من تناول الطعام ثم رفع السمـاط ، التفت الشيخ الى الأمير الأوزبكى وقال له « أرأيت كيف رفع الخدم السماط فأمسكوا بأطرافه لا بوسطه ، فكذلك تؤخذ البلاد ، لا بالاستيـلاء على حاضرتها وانما بتأمين حدودها » ويقول سيد راقم (وهو الذى نقلنا عنه هذه الحكاية) أن شيبانى ذهب فى ذلك الوقت الى خيوه فاستمد هناك نجدات من المنغيتيين وبدأ فتوحه فى عزم وجد .

النواحي ينبههم الى أن الظروف مواتية للقيام بمثل هذا الغزو ويدعوهم الى المشاركة فى القضاء على حكم التيموريين . وبرغم أن سلطان التيموريين كان قد أخذ التفسخ والانهيار يدبان فى كيانه فى الواقع الا أن كثيرا من الترك بسمرقند بقوا على ولائهم لهم على أية حال ، حتى رأى شيبانى أنه لن يستطيع أن يحقق أغراضه هناك من غير أن يكسب هؤلاء أولا لصفه ، فلم يغامر بالزحف الى سمرقند فى جيش كامل العدة الا بعد أن تم له استمالة فريق من زعماء هؤلاء الترك وهم كوجوم سلطان وسيونج خواجه سلطان (١) وحمزة سلطان ومهدى سلطان .

وكان سلطانعلى يحكم اذ ذاك فى سمرقند فى الظاهر منذ أن ارتد بابر الى اندجان ، ذلك أن السلطة الفعلية كانت فى الواقع بيد القاضى خواجه أبى المكارى (٢) الذى أشرنا اليه من قبل . ويخبرنا صاحب « شيبانى نامه » أن أسلاف هذا الشيخ ظلوا يتوارثون منصب مشيخة الاسلام بسمرقند لاربعمائة عام . وقد برهن هذا الشيخ على أية حال على عدم جدارته بالاضطلاع بالحكم هو وأميره الذى لم يكن له من السلطة الا اسمها . ولم يكن كذلك كفؤا ليواجه الخطر الذى أخذ يتهدد البلاد على أيدى هذا العدو الوافد .

فلم يكن عجبا والحالة هذه أن يتيسر لشيبانى دخول المدينة من باب جهارراه ، بعد أن حاصرها عشرة أيام ورد حماتها حين برزوا اليه من باب شيخ زاده ، ثم اندفع من بعد ذلك ، دون ما مقاومة ، الى قصر باغ نو (٣) الصيفى وهاجم آخر الأمر حامية المدينة نفسها . وقد بدأ

---

(١) كان هؤلاء من أعمامه ، ومن هنا يظهر أن رجال بيت أبى الخير لم يؤيدوا شيبانى فى أهدافه بالاجماع .

(٢) أبو المكارم كنيته ، أما اسم هذا الفقيه الطموح فهو خواجه يحيى .

(٣) يظهر من ذلك أن باغ نو والقصور الصيفية الأخرى كانت تقع بمساحاتها الكبيرة داخل مدينة سمرقند . وعلى هذا فان الفراغ بين أسوار البلد والحصن (وكان يضم القلعة) لابد انه كان أكبر مما نستطيع أن نتمثله على ضوء الأحوال الحاضرة .

هذا الصدام عند الظهر ، واشترك شيبانى بنفسه فى هذا القتال المرير الذى غلب عليه التهور والاقدام حتى استمرت المقتلة طول الليل . وفى صبيحة اليوم التالى انتشر الخبر أن باقى ترخان ، أحد أبناء عبد العلى ترخان الذى كان شيبانى قد بدأ حياته فى خدمته ، قد خرج من بخارى لنجدة السمرقنديين ، وانه قد أقام مضاربه بظاهر حصن دبوسى .

هنالك رأى الأوزبك أن لا مناص لهم من أن يجلوا عما غنموه من مواضع ، فأعملوا النهب فى المدينة وانطلقوا من بعد ذلك مسرعين الى بخارى . ولم تكن لهذه المدينة وقد خلت من كل قوة مدافعة الا أن تستسلم للغزاة . وفيها أقام شيبانى ديوان حربه وأسكن أمه وأسرته قصرها ثم عاود من بعد ذلك سيره الى قراقول . وكان سكانها قد غدروا بحاميته فقتلوهم جميعا ، مما حدا بالأوزبك أن يعودوا الى الاستيلاء عليها من جديد ، فلم يقدموا على حصار سمرقند الا بعد أن أنزلوا بقراقول ضربات شديدة على مقتضى رسم التتار فى الحرب .

وقاومت العاصمة الحصينة الحصار ثمانية أشهر ، وكان بوسعها أن تصد الأوزبك عنها مدة أطول من ذلك لولا نزول المجاعة بها وما كان من وقوع الشقاق بين خواجه أبى المكارم الطموح والأمير سلطانعلى وشيوع أمره بين الملأ . وحين وقف شيبانى على ذلك كله كتب الى الأمير الضعيف يخبره بأنه ولابد قد ضاق بوصاية السيد ، وينصحه أن يقر بالولاء لبيت أبى الخير ، الصاعد بنعمة الله ، وبهذا يؤمن مستقبله بتحالف ودى . وتقدم شيبانى من بعد ذلك الى أم السلطان يطلب يدها اظهارا لمودته وتأكيدا لصداقته فقبلت ذلك منه (١) .

وجرى ذلك كله فى سرية تامة ، حتى دخل شيبانى ، يوم جمعة صحوا ، المدينة المحاصرة من أحد جوانبها ، فى هدوء ، فى الوقت الذى

---

(١) ورد فى شيبانى نامه (لمحمد صالح) أن أم سلطانعلى هى التى بدأت بالاتصال بشيبانى فبعثت اليه تقترح قرانها به ، وهى رواية تبدو بعيدة عن الحقيقة (**المؤلف**) .

ويؤيد بابر هذه الرواية فى سيرته وكانت هذه السيدة أرملة عمه السلطان أحمد (بابرنامه ١٧٩) (المترجم) .

كان فيه أبو المكارم يؤدى الصلاة فى أحد مساجدها بالجانب الآخر ولا علم له بما كان يجرى فيها .

وقد وقع هذا فى مستهل عام ٩٠٦ (١٥٠٠) . وأذهل المدينة هول المفاجأة فاستسلمت الى مصيرها فى هدوء .

وقد احتفل القوم بزواج شيبانى من زهرة بيكيم ، أرملة السلطان أحمد ، وان كان بابر يذكر أن هذه السيدة كان يعاملها بعلها الجديد وكأنها مجرد خادمة بسيطة .. ومات سلطانعلى بعد ذلك بقليل (١) وكان موته غيلة على ما يظهر .

كان من شدة وطأة أبناء السهوب البرابرة الجشعين هؤلاء على سمرقند وما يحيط بها من أرضين أن خرج الأهلون هناك يلتمسون نجدة تخلصهم من هذا البطش الشديد ، واستغاثوا آخر الأمر ببابر ميرزا الشجاع الكريم فدعوه الى القدوم اليهم ليحرر موطن أسلافه من الاستبعاد (٢) .

ولقد ذكرنا من قبل كيف كان حب بابر لأسرته ومصالحها يملأ شغاف قلبه ، وكان هذا الأمير حينذاك يتجول عند حوض زرفشان الأعلى فى نفر قليل من أتباعه وفيهم خواجه أبو المكارم . حتى اذا ما أهل هؤلاء الخوقنديون على سمرقند يلفهم ظلام ليلة من ليالى خريف عام ٩٠٦ (١٥٠٠) تلقاهم الأهلون فرحين .

---

(١) يذكر بابر فى سيرته ان سلطانعلى قتل فى حين يذكر صاحب (شيبانى نامه) أنه غرق فى حادث حين كان يركب عند شواطىء نهر زرفشان .

(٢) يبدو البرهان الاكيد على ما كان بين مختلف أمراء بيت تيمور من العداء فى عدم الاكتراث الذى أبداه السلطان حسين بيقرا بازاء مجريات الحوادث ببلاد ما وراء النهر ، وكان اذذاك فى أوج حكمه . وما من شك فى أن خروج ابنه بديع الزمان عليه من ناحية وسلوك خسرو شاه الوقح نحوه عند «حصار» من ناحية أخرى قد منعاه من أن يقوم بأى عمل فى صالح سمرقند ، ولو أن هؤلاء التيموريين كانوا قد ائتلفوا فيما بينهم بدلا من أن يتحاربوا لاستحال بلا مراء على شيبانى خان أن يحقق أى هدف من أهدافه على الاطلاق .

وما لبث شيبانى خان أن فقد المدينـة بنفس الطريقة التى استولى بها عليها . فقد كان أكثر جنده من الأوزبك يرابطون اذ ذاك فى سـهل كان كل فى وضع يستحيل معه الاضطلاع بالدفاع عن المدينة ، ففاجأهم العدو فى مكانهم هذا فقتل منهم أربعمائة . وحين تبين له عند الصباح أن موقفه قد بات ميئوسا منه ، لم ير بدا بذلك من الارتداد الى بخارى مع من بقى معه من رجاله بأسرع وقت .

ولئن كانت سمرقند قد أصبحت فى حوزة بابر الا أنه لم يستطع الاحتفاظ بها الا الى الربيع التـالى ، أى الى أن عاد الزعيم الأوزبكى الجسور يرى فى نفسه من القوة ما يكفى لأن يغامر بالهجوم على تلك المدينة مرة أخرى . وبدأت المعركة بين الطرفين بمباغتات متبادلة أظهر فيها الجميع من خوارق الشجاعة والاقدام ما بلغ الأوج ، فى وقعـة سرپول العظيمة عند شواطىء زرفشان بين بخارى وسمرقند . وفيها كسر بابر كسرة شنيعة ، برغم ما أظهره من ضروب البطـولة والجرأة ، حتى استطاع آخر الأمر أن يلوذ فى مشقة بحصن سمرقند . ويعزو بابر سبب هزيمته الى انصراف أحلافه من المغول الى السلب والنهب (١) ويظهر أن هذا وحده لم يكن مرد الأمر كله . فان ما أبداه مؤسس الدولة المغولية ورجاله من الشجاعة وحضور البديهة فى ذلك اليوم المشهود هو بلا مراء جدير بكل ثناء ، غير أن محاربى بلاد ما وراء النهر وأندجـان ، وهم الذين درجوا على الحياة الرخيصة واعتادوا عليها ، قد وجدوا أنفسهم آخر الأمر ، برغم عددهم الذى بلغ أربعين ألفا ، ولا قبل لهم بالصمود فى وجه اندفاع الأوزبك الوحشى فى القتال وخشونتهم الزائدة . ونزل ببابر فى هذه الواقعة خسائر شديدة ، وركبته الطيرة برغم ما كان عليه من ثقافة عالية ، فقد سقط فى ذلك اليوم ثلاثة من قواده يدعى كل واحد

---

(١) يحمل بابر فى سيرته على المغول فى كل مناسبة تبدو له ، وكان يفتخر على الدوام بأجداده من الترك مع أن اخواله كانوا من المغـول الجنكيزيين .

(المترجم)

منهم ابراهيم (١) فرأى فى ذلك فألا سيئا . وجهد بابر بما عرف عنه من همة فائقة ليستأنف القتال عند سمرقند ، ولكن سرعان ما أدرك الحقيقة المؤلمة ، وهى ضياع كل أمل له فى تثبيت حق أسرته ببلاد ما وراء النهر . واستغل شيبانى ما أحرزه من نصر فانطلق يطارد عدوه الهارب حتى حصره فى سمرقند . ودام حصار المدينة أشهرا أربعة كانت أسوأ فترة عانتها حاضرة تيمور فى تاريخها . فبينما كان محاصروها ينعمون بثمار الريف الخصب من حول المدينة ، بلغ الحال بالجغتائيين المحصورين فى المدينة الى أن طعموا لحوم الخيل والحمير — وهى مما تعافه نفوس المسلمين — بل لقد طعموا كذلك لحاء الشجر وأعطوا لبه لخيولهم بدل العلف . وساد المدينة الاضطراب والفوضى حتى وجد بابر نفسه أشبه بمعزول فى حصونه المهجورة . هنالك اتخذ سبيله هربا فى الليل ، فنفذ من بوابة شيخزاده ونجا بحياته بعد مخاطرات أسرت فيها أخته الكبرى خانزاده بيكيم . وقد بنى بها شيبانى من بعد ذلك (٢) .

هكذا سقطت سمرقند وسقطت معها دولة التيموريين . وانقض الأوزبك على المدينة ينتهبونها وقد تملكت منهم شهوة الانتقام . على أن سكانها جميعا كانوا قد غادروها فزعين ، بحق ، اذ كانوا يعلمون مبلغ حنق ذلك الغازى عليهم . وكان من بين الفارين من زعمائها الخواجه

---

(١) « كان ذلك فى ليلة ضريرة النجم بمنطقة الصغد الكبير التى تحتلها الروافد والقنوات ، وعند بزوغ النهار اكتشفت أنى قد تركت رفاقى من ورائى . وتراخت أربطة سرجى فتحول عن مكانه فاذا بى أسقط على أم رأسى . وبرغم أنى استطعت أن أمتطى حصانى من جديد الا أنى لم أفق من أثر هذه الصدمة وأعود الى نفسى الا فى الليل . ولقد تمثلت لى الحياة فى خاطرى مع ما مر بى من الأحداث وكأنها حلم . ونزلت وسط النهار عند ايلانوتى ، فذبحنا حصانا ، وأرحنا دوابنا . ولم يتيسر لنا قبل أن نبلغ ديزك أن نجدد قوانا بتناول اللحم السمين والخبز الجيد ونستمتع بطيب البطيخ وحلاوة العنب » . هذا هو ما ورد فى يوميات بابر بسيرته من أخبار فراره هذا ، النسخة الأصلية ص ١١٧ .

(٢) سير الشاه اسماعيل الصفوى هذه السيدة معززة مكرمة الى أخيها ، وكان قد وجدها بمعسكر شيبانى خان بعد أن هزمه وقتله (تاريخ رشيدى ص ٢٣٩) .

(المترجم)

يحيى عدو شيباني اللدود . وعمد هذا الرجل الوديع الى التنكر فأزال لحيته . ويعد هذا الصنيع جرما عظيما فى نظر المسلم . وبرغم ذلك فقد انكشف أمره وقبض عليه . وحين سأله شـيبانى عن سبب اقدامه على ارتكاب هذه الفعلة المشينة أجابه بانشاد بيت من الشعر الفارسى يقول « ان من يحاول أن يطفى نور الله بفيه فسوف لا يحرق الا ذقنه » (١) . على أن شيبانى « نور الله » لم يتأثر بذلك المديح الذى صدر عن ذهن متوقد ، فقضت يد الجلاد بضربة واحدة على طموح الخواجه يحيى .

وعامل الفـاتح كل أتبـاع الدولة المضمحلة بمنتهى العنف دون استثناء . وأدى صنيعه هذا الى اشاعة الذعر فى الناس مما فت فى عضد كل مقاومة قامت فى وجهه . وتم له من بعد ذلك اخضاع أخيه كذلك وكان قد ركن الى الثورة عند اراتيه ، فتوطد بذلك مركزه حتى بدا من اليسير له أن يخرج فى فتح جديد عبر جيحون مع جيشه الصغير الى حدما. ولم يكن حزم هذا الفاتح الأوزبكى وفطنته دون شجاعته وشدة جلده . فلم يكد يستولى على سمرقند حتى أسال لعابه خصب أراضى خراسان ؛ وكانت هذه البلاد اذ ذاك فى حوزة ميرزا حسين بيقرا القوى العظيم . وكان شيبانى خان يدرك تمام الادراك مدى ما عليه هذا العدو من قوة وما له من موارد كثيرة ، فلم يقدم على مهاجمته رأسا ، وانما انطلق يغزو نواحى من تلك البلاد كان يعرف ضعف نفوذ ميرزا حسـين بها . وكانت بلخ احدى هذه الجهـات ، حيث نشر الأمير بديع الزمان راية العصيان ، ثم بلاد خسروشاه(٢) وزير السلطان أحمد السابق الذى كان قد تم له الاستيلاء على حصار وختلان وقندز وبدخشان بعد أن تخلص من سيده السابق غدرا ، وكان شيبانى يرى أن لا مندوحة من قتاله . وكان على الفاتح الأوزبكى قبل أن يقبل على هـذه الخطوة أن يؤمن

---

(١) هذا البيت هو :

جراغى را كايزد برفروزد
هرانكس تف كند ريشش بسوزد

(٢) انظر هامش ص ٢٨٢ فى الفصل السابق

مؤخرته وذلك باخضاع خانيكه سلطان وألاجه سلطان أقرباء بابر من ناحية أمه (١) . وكان في مقدورهما أن يحشدا قوة يحسب حسابها من المغول والقلموق عند الشاطىء الأيمن لسيحون عند شاهرخيه وطشقند. وكان هذان الخانان قد أدت بهما كراهيتهما للأوزبك من جهة ، ورغبتهما في الانتقام لما لحق بابن أختهما المنكود الحظ من هزائم من جهة أخرى ، الى أن أخذا يتصديان للاوزبك ما وسعهم ذلك . وكانت أول حرب وقعت لهما معهم قبل سقوط سمرقند بعام . ففي منتصف شتاء كان الزمهرير فيه على غير المعتاد من قسوته زحف شيباني خان صوب الشمال وجنده متدثر بالفراء ، وعلى مقدمته أخوه السلطان محمود وتيمور سلطان ، ومعهم ستة آلاف من خير شجعان الأوزبك . على أن قسوة الشتاء أرغمتهم على العودة من حيث أتوا ، أو لعل المغول الأشداء كانوا قد منعوهم بدورهم من الحصول على أي كسب من المكاسب .

وهدأت برودة جو السهوب الثلجي من حماس شيباني للحرب فعاد الى سمرقند . وسار المغول في أثر عدوهم حتى أراتيه . وبرغم استرداد الأوزبك لهذا المكان وعقدهم الصلح مع خانيكه في الربيع التالي فان السلام لم يدم بينهما طويلا . ذلك أن شيباني لم يكد يدخل أراضي خسرو شاه حتى بدأه المغول بالعدوان ، فسقطوا هذه المرة على تنبل سلطان نائبه في خوقند بدلا من مهاجمة حدود بلاده نفسها .

كانت ثورة تنبل على بابر من قبل ، من أسباب انحدار هذا الأمير التيموري وانتصار الأوزبك في يسر بالتالي . وكان صنيع تنبل هذا من الأسباب التي جعلت شيباني يبسط له حمايته . وفيما عدا ذلك فلم يكن هناك من الأسباب ما يدعو هذا الأمير الأوزبكي المغامر لأن يعدل عن المضي في فتوحاته ويستدير بقواته كلها فيتجه الى حرب أعدائه داخل توران . ولم يكن خانيكه في طموحه وشجاعته دون شيباني نفسه .

---

(١) هما خالا بابر ، السلطان احمد خان والسلطان محمود خان ولدا يونس خان

(المترجم)

وكان جل اعتماده على المغول والقلموق النازلين بين سيحون وصحراء جوبى . ولم يكن الأمر يستدعى أكثر من قيام التفاهم بين هؤلاء التيموريين فى خراسان فيتسنى لهم بذلك القضاء بضربة واحدة على كل خطط الأوزبك المستقبلة قضاء تاما .

ولم يكن هذا الأمر ليغيب على فطنة شيبانى ، فزحف عام ٩١١ (١٥٠٥) بجيشه كله الى شاهرخيه فضرب الحصار عليها ثم استأنف سيره مصعدا فى سيحون حتى بلغ أخشى ، وكان الجيش المغولى يقف على أهبة القتال على مسيرة خمسة أميال منها .

ويرسم لنا صاحب « شيبانى نامه » صورة طريفة فريدة فى بابها لما كان عليه الجيشان من اعداد وتكوين . ولا يقل عن ذلك فى الأهمية وصفه لتلك المعركة التى كانت من أعظم المعارك التى وقعت بين الترك والمغول ، وقد استمرت يومين كاملين وانتهت فى صالح الأوزبك . وفيها وقع كذلك خانيكه وأخوه فى الأسر . وحين أتوا بهما الى شيبانى أيقنا أنه سوف يسوقهما الى حتفهما . على أن هذا الغازى فاجأهما بغير ماكان يتوقعان عنده ، فقد اصطنع غاية الشهامة وأخذ يخفف ، بتلطفه ، من وقع هذه المحنة عليهما ، وأقسم لهما بأغلظ الأيمان أنه لن يتعرض أحد حتى لشعر رأسيهما بالسوء (١) ، ولم يطلب اليهما الا أن يسلما اليه حصن شاهرخيه وكان فى يدى أم الأميرين المغوليين .

وتأثرت هذه الأميرة الأم بما كان من كرم شيبانى خان مع ولديها فرضيت بمطالبه وعقدت الصلح معه ، ليصبح شيبانى من بعد ذلك ولا

---

(١) فعل شيبانى ذلك اذ كان لهما أياد سابقة عليه فى تقوية سلطانه. أما السلطان أحمد خان فقد وافاه أجله وهو فى طريقه الى بلاده ، وكان يعتقد فى مرضه أن شيبانى قد احتال على دس السم له فى طعامه ، أما السلطان محمود خان فقد بقى خمس سنوات فى مغولستان حتى زين له بعض رجاله الزحف الى فرغانه ، وحين بلغ شيبانى ذلك سير اليه جنده فقتلوه وخمسة من أولاده (تاريخ رشيدى ص ١١٦ — ١٢٠ ، ١٦٠ — ١٦٧) .

(المترجم)

شيء يعوقه عن الاتجاه بقواته الى عدوه عند الضفة اليسرى لجيحون ، بعد أن أمنت مؤخرته .

وكانت الأحـوال فى تلك الأصـقاع قد طرأ عليها بدورها تغير ملحوظ . فقد دب النزاع بين خسرو شـاه ، صـاحب حصـار وقندز وختلان وبدخشان ، والأمراء الآخرين من أتباع السلطان حسين بيقرا ، وكان هؤلاء بدورهم يتوقون الى الاستقلال بما بأيديهم من أرضـين . على أن هؤلاء جميعا حين تبدى لهم ما يتهددهم من خطر مشترك سارعوا الى الائتلاف جميعا بازاء شيبانى ، واستعدوا بما فى وسعهم للوقوف فى وجهه ، وان لم يغنهم ذلك كله شيئا .

ذلك أن الأمير الأوزبكى كان قد شرع ، بعد ما نال من الفتوح ، يعد العدة لحرب خسرو شاه . وترامت اليه الأخبار بعصيان تنبل ، وهو الذى كان قد خاض بسببه غمار حرب ضروس ، فاضطر الى أن يخوض معه معركة جديدة عند حدود دولته الشمالية الشرقية ، دفع فيها تنبـل واخوته السبعة حياتهم ثمنا لتنكرهم لولى نعمتهم .

وارتد شيبانى من بعد ذلك عجلا عبر جيحون فأدى مجرد ظهوره هناك الى انفراط عقد جيوش أعدائه الحلفاء عند ختلان ، وفى هـذه الواقعة كان بابر أكثر الجميع تشبثا بمراكزه .

فى ذلك الوقت استولى السلطان محمود أخو شيبانى على قندز ، وفيها نزل به الداء ووافته منيته .

وبدأت من بعد ذلك حرب الأوزبك مع چين صوفى أمير خوارزم ، وكان من أعظم حلفاء السلطان حسين ميرزا . وفيـها قاد شيبانى مقدمة جيشه بنفسه ، وسار فى أثره الأمير عبيد الله ولما يمض أسـبوعان على قرانه وترك زوجته الشابة من ورائه ملبيا نداء الحـرب . وبدأ الزحف كالعادة والشتاء والجليد على أشده ، فتيسر بذلك للجند عبور جيحون عند النقطة التى تناسبهم . وكان على الأوزبك عنـدئذ أن يواجهـوا التركمان ، غالبية جند چين صوفى ، وكان هؤلاء لهم خير أنداد ، حتى امتنع على العدو حصن خوارزم أكبر الحصون ، وكانت تقـع فيما بين خيوه الحالية وهزاراسب ، وطال حصارها على غير المعتاد . هنالك بدا

للأوزبك أنه لا مناص من القضاء التام على خسرو شاه حتى يقضى بذلك على كل أمل لجين صوفى فى تلقى العون من هذه الناحية . وما غدا قواد شيبانى أن أطبقوا من كل جانب على خسرو شاه ، وهو صاحب النفوذ المطلق فى حوض جيحون الأعلى ، حتى سقط فى أسرهم وهو يرتد ، فسيق الى القتل وسبعمائة (١) من أخلص أتباعه ، وقطع رأسه وبعث بها الى چين صوفى . وخربت من بعد ذلك حصون أمير خوارزم ونزلت المجاعة بجنده ، ولكن ذلك كله لم يزعزع من ثباته فى شىء ، فطفق ، شجاعا ، يقاوم هجمات الأوزبك طوال شهور ستة ، ازدادوا من بعد ذلك ثلاثة ، استولى من بعدها العدو على قلعة الحصن عنوة ، وقد لقى هذا الأمير الموت فوق خرائب حصونه بسهام رجاله أنفسهم . هكذا لم تمض أعوام خمسة على سقوط سمرقند حتى وجد شيبانى نفسه ، نتيجة لفوزه الأخير هذا ، وقد بات يملك كل توران واندجان فى الشرق ، ثم شاهرخيه وطشقند فى الشمال ، ومنطقة حصار الجبلية وبلخ وبدخشان فى الجنوب ، وها هى ذى خوارزم فى الغرب قد وقعت أخيرا بيده ، وخضعت هذه البلاد كلها لسيفه المظفر ، وبهذا وجد الأوزبك أنفسهم تغرقها كنوز بلاد ما وراء النهر ومباهجها ، وهم الذين كانوا قد قدموا فى جلود الماشية للاستيلاء على سمرقند . وطبقت شهرة حفيد أبى الخير بدوره الخافقين .

بهذا كله غدا شيبانى يرى نفسه ، لأول مرة ، كفؤا لنزال السلطان الشيخ حسين ميرزا ، وأن الأوان قد آن لخوض غمار حرب تحسم ما بين بيت تيمور والأوزبك . ولا حاجة بنا الى القول بأن كلا الفريقين أقبل على المعركة وهو فى أتم عدة واستعداد .

وكان ذيوع أخبار انتصارات شيبانى قد جذب اليه كل محاربى أقاليم جيحون وسيحون فانضموا الى صفوفه ، وسانده كذلك أصحاب

---

(١) يروى مير خوند أن خسرو وقع حيا بأيدى شيبانى ، فأمر به فربطوه أولا الى ذيل اتان انطلق به فى طرق قندز ، ثم قتل من بعد ذلك. ويقول ميرخوند عن خسرو شاه انه كان حازما عادلا كحاكم ، نقيا كمسلم، قاسيا ناكرا للجميل كانسان .

النفوذ هناك من رجـال الدين وشـدوا من أزره . وكان الأهلون من الايرانيين فى تلك البلاد قد كفوا أيديهم منذ زمن طويل عن التدخل فى شئون أقاليم جيحون . أما مختلف القبائل التركية النازلة هناك فقـد ظاهرت فى حماس بالغ تيمور الجديد هذا الذى سوف يقودهم الى النهب والى أسلاب جديدة يستحوذون عليها ، فأقبلوا لذلك ينضـوون تحت لوائه أفواجا . وأدرك السلطان حسـين ميرزا مدى هذا الخطر الداهم الذى يتهدده ، فدعا أبناءه وأقرباءه الآخرين ليساندوه بقواتهم ويسيروا معه لدفع جيش الأوزبك الغزاة ، وجلب كذلك امدادات كبيرة من بلاد الأفغان وسيستان وخراسان وفارس وجرجان ، وتجمعت هذه كلها شمال هراة . على أن هذا الجند على كثرته كان ينقصه أهم باعث على النصر وهو قيام التآلف بين مختلف وحداته .

وفيما كان التيموريون فى شغل بما بينهم من خلافات لا طائل من ورائها ، كان شيبانى يتقدم بجنده حتى عبر جيحون عند كركى عام ٩١١ (١٥٠٥) ومن ثم أنزل بمقدمة جيش عدوه هزيمة خاسمة قرب ميمنة . وكان من حسن حظ السلطان حسين ميرزا نفسه أن مات وهو فى طريقه الى الهرب . وكان فراره من الميدان ايذانا بالقضاء على أسرته . وكان موته بمثابة ضربة لأبنائه الستة أو السبعة ، اذ فقدوا بموته آخر أمير تيمورى صاحب حزم ونفوذ ، وضاع معه تبعا لذلك آخر أمل لهم فى الخلاص . وعقد خلفه بديع الزمان ميرزا مجلس الأسرة على اثر ذلك ، وشـارك فى هـذا المجلس بابر ميرزا أمير كابل اذ ذاك ومعـه وزيره جهانكير . على أن هذه الوحدة المصطنعة التى تمثلت فى مجلس الأسرة لم يكن من ورائها جدوى أو نفع .

ذلك أن شيبانى كان قد تقـدم حتى بلغ الشـاطىء الأيمن لنهر مرغاب ، وأدت به ثقته التامة فى انتصاره الكامل الى أن بادر بارسال رسول الى هراة يدعو بديع الزمان الى الاستسلام مذكرا اياه فى الوقت نفسه بما كان يظهره السلطان الشيخ حسين ميرزا على الدوام من توقير لجده أبى الخير .

ورد التيمورى المتكبر الرسول ردا غير كريم ، ليتقدم عند ذلك الجيش الأوزبكى من مرو ويلتحم بالجيش التيمورى فى سهل مرو چاق (١) . وقام التنافس بين الأوزبك على أشده للالتحاق بصفوف المقدمة وكان من بين صفوف المبارزين هؤلاء أسماء لامعة مثل تيمور سلطان وعبد الله خان ومحمود سلطان وغيرهم من أقرباء شيبانى ، فى حين لم يكن هناك من جند التيموريين من ظهرت شجاعته فى هذه الحرب الا القائد الشيخ ذو النون الذى أقدم على مهاجمة العدو وان غلب على أمره من فوره وقتل . وكان فى هذا الحادث وحده الكفاية لاشاعة الذعر بين صفوف التيموريين ، فانفلت عبد الله ميرزا هاربا ونزل عند قبق فى مشهد ، فى حين فر عبد الباقى والأمير برندق الى سبزاور ، وذهب بديع الزمان نفسه الى هراة مع مظفر حسين كركان ، ولكنهما لم يمكثا هناك الا لساعات معدودة اذ سار الأوزبك فى أثرهما ، حتى اضطر خليفة السلطان القوى حسين ميرزا هذا الى أن يترك أسرته ومتاعه من ورائه ويضرب فى الأرض على غير هدى (٢) .

وفتحت هراة أبوابها للعدو فدخلها شيبانى فى الحادى عشر من المحرم عام ٩١٣ (٢٤ مايو ١٥٠٧) . ورفق الأمير الأوزبكى بالمدينة أكثر مما رفق بها كل من سبقه من غزاتها ، فاكتفى بأن فرض عليها مائة ألف تنغه (٣) ، وحفظ قصبة العلم والفن المشهورة هذه من أن تتعرض

---

(١) يعرف هذا الموضع اليوم باسم مرجاه ، ويقع على المجرى الأدنى لمرغاب ، وهو اليوم منازل قبائل ساريك وسالور التركمان . وكان هذا الموضع وبنجه يتبعان هراة قبل ذلك بسنوات قليلة ، وكان يسكنهما بدو جمشيدى ، وقد روى لى هؤلاء ابان اقامتى بينهم قصصا عجيبة عن خرائب كثيرة لا تزال تقوم هناك .

(٢) يذكر مالكولم فى كتابه عن تاريخ فارس ص ٤٩٠ أن بديع الزمان لجأ الى الشاه اسماعيل الصفوى فولاه تبريز ، حتى وقعت هذه المدينة فى يد السلطان سليم العثمانى فسير أميرها التيمورى الى الآستانة .

(المترجم)

(٣) لا تزال هذه العملة تستخدم حتى الآن ببلاد الأفغان ، والتنفه تساوى ثلاثة قروش مصرية تقريبا .

(المترجم)

لنهب الأوزبك . ونزل شيبانى بظاهر المدينة فأتوا اليه بأسرة خصمه الشريد . وبرغم تقدم هذا الأمير الأوزبكى فى السن ، اذ كان اذ ذاك يبلغ الثامنة والخمسين من عمره ، فقد هام بحب عروس مظفر حسين ميرزا فصمم على زواجه منها ، ولم يلق بالا الا ما أكدوه له من بناء الأمير التيمورى بها وأنها صارت زوجته الشرعية بالفعل .

كذلك جلبوا اليه كل متاع تلك الأسرة وفيه مقادير طائلة من سبائك الذهب والفضة واليواقيت والحجارة الكريمة واللآلىء والماس. وأحيطت أسرة بديع الزمان بكل ضروب التوقير والاحترام . ولم يلبث الأهلون الذين كانوا قد لجأوا الى الاختفاء فى شعاب تلال بادغيس الصخرية خوف الأوزبك (١) أن أخذوا يعودون الى المدينة بالتدريج ويمارسون حياتهم العادية بها .

لقد استولى شيبانى على عرش سمرقند فى وقعة سريول من قبل ، وها هى ذى خراسان كلها قد دخلت فى حوزته بانتصاره فى معركة مرو چاق . وقد عمد الأمراء التيموريون القلائل الذين كتبت لهم النجاة من المذبحة العظمى الى لم شمل قواتهم فى محاولة يائسة أخيرة ، لكن جهودهم باءت بالفشل .

ذلك أن الأوزبك اكتسحوا خراسان الغربية كلها فى سرعة خاطفة ، على ما كان يفعل المغول القدماء ، وأخذت حصونها تتهاوى بأيديهم الواحد بعد الآخر . وحين سمع الأمير أبو المحسن ميرزا بكارثة مروچاق جمع قوات كبيرة من جند العراق عند مشهد ، لكن الأوزبك ، وعلى رأسهم محمد تيمور سلطان ، وغبيد الله خان (والأول من أبناء شيبانى والثانى من أبناء أخيه) ما لبثوا أن انقضوا على الجيش التيمورى عند

---

(١) ظهر الأوزبك بظاهر مدينة هراة ، كما يروى مؤرخو الفرس ، فسلكوا سلوك بنى جلدتهم من المغول الى حد ما ، فساموا الأهلين العزل المساكين صنوف العذاب ، حتى يحملوهم بذلك على أن يخرجوا اليهم ما عساهم يكونوا قد خبأوه من المتاع ، وسيروا فى ركابهم من الأسرى منهم على قدر طاقتهم .

موضع جام ، وقادته لا يزالون يغطون فى نومهم بعد أن قضوا ليلتهم فى لهو وعبث . وفى هذه الواقعة قتل عبد المحسن ميرزا وأتباعه المقربون فى حين لاذ جيشه كله بالفرار فى هرج ومرج . ولم يكن ماأصابه الأوزبك من التوفيق فى سبزاور عند حدود خراسان الغربية بأقل مما ظفروا به من قبل . وكان الأمير ابن حسين ميرزا قائد موقع قابن السابق قد ارتد الى هذا الموضع مع بقايا الجيش التيمورى .

واستطاع هذا الأمير أن ينجو بنفسه بعد سقوط هذه البلدة ، فى حين سقط فى القتال الأميران الآخران عبد الباقى وبروندق . وهكذا سقط اثنا عشر أميرا من بيت تيمور بسيف شيبانى ولما يقنع . وأسرع شيبانى بعد استيلائه على هراة فعبر جيحون تاركا أبناءه فى خراسان، فاستقبلته بخارى بحفاوة بالغة ، فلم يطل مكثه بها حتى واصل من بعد ذلك سيره الى مناطق سيحون الشمالية ليؤدب المغولى محمد خان بن يونس خان اذ كان قد خرج عليه فى غيابه (١) .

وما ان أقر الأمور هناك حتى عاد الى خراسان ليستكمل فتوحاته هناك . ولم تلبث امارة جرجان أن سقطت بدورها كذلك فى يده عام ٩١٤ (١٥٠٨) . وبهذا يكون قد ضم تحت تاجه كل الأراضى التى كانت فى حوزة خليفة تيمور على وجه التقريب . وقد عهد بها الى أبرز قواده مكافأة لهم على ما بذلوه من جهود ، فكانت حكومة هراة من نصيب جان وفا بك ، ومرو من نصيب قبوز نايمان ، وبلخ من نصيب خوارزم سلطان شاه ، وحصار وما حولها من نصيب مهدى سلطان وحمزه سلطان ، وقندز من نصيب أحمد سلطان ، وطشقند من نصيب سيونجى

---

(١) محمود خان هو ابن يونس بك نفسه الذى كان قد ثار فى وجه التيموريين ببلاد ما وراء النهر أيام السلطان احمد . وقد انتهز فرصة غياب شيبانى فتقدم وأولاده الخمسة الى اندجان من ناحية والى سمرقند من ناحية أخرى وهدفه من ذلك الاستيلاء على حكومة بلاد ما وراء النهر كلها . وكان ينزل فى قوة كبيرة عند خجند على ذلك الجانب من سيحون حين التقى به شيبانى ، ووقعت بينهما حرب ضروس هناك هلك أثناءها أبناء محمود خان الخمسة وأكثر جنده غرقا فى النهر ، وكان ذلك عام ٩١٤ (١٥٠٨) (تاريخ سيد راقم ص ١١٨) .

خواجه خان ، وأخشى من نصيب جانى بك ، وأندجان من نصيب محمود شاه ، وخوارزم من نصيب قوشچى كپك ، وتركستان من نصيب كچكونجى خان . وكان من قبل قد نصب أخاه السلطان محمود نائبا له على بخارى وقراقول . وحين توفى هذا الأمير عهد شيبانى بها مع سمرقند ، درة الدولة ، وكش ومنطقة ميرجانكل الى ابنه الأكبر وورثه محمد تيمور سلطان .

احتفظ حفيد أبى الخير لنفسه بمنصب قائد الجيش الأعلى مقلدا فى ذلك جنكيز وتيمور . ولقد تمكن بقوة السلاح من أن يرفع نفسه من مجرد جواب فى الصحراء الى حاكم تخضع له أقاليم عديدة . وبقوة السلاح أيضا أمل أن يمضى فى طريق الفتح قدما . ومن يدرى فلعله كان يتاح له أن يعيد سيرة تيمور من جديد لو لم يظهر له منافس آخر لم يكن دونه طموحا أو شجاعة ومضاء عزم ، وقد عقد النية على أن يمد حدود دولته صوب المشرق كما مدها ناحية المغرب .

كان هذا هو الشاه اسماعيل من بيت الشيخ صفى (١) بأردبيل. وقد عاش هذا الشيخ عيشة صلاح وزهد حتى عده الترك فى ايران من بين أوليائهم . ولا يزال ضريحه يعد من بين مزارات الفرس حتى يومنا هذا. ولم يكن اسماعيل يعدو الرابعة عشرة من عمره حين سار على رأس أتباعه فأوقع الهزيمة بأعدائه . وقد استطاع بحميته الدينية أن يحيل بساط الدرويش الذى كانت تملكه أسرته الى عرش ايران كلها الفخم .

واسماعيل هذا فى أصله تركى (ولم يكن هؤلاء الذين ينسبون صفى الى الامام السابع بقصد اضفاء القداسة عليه الا مجرد مداهنين) وكانت قبائل الأتراك السبع التى تعيش الى الغرب من بحر قزوين

---

(١) يخطىء مالكولم حين يعتبر لفظ صفى مرادفا للفظ صوفى . والطريقة التى كان يرأسها الشيخ صفى كانت تختلف فى مذاهبها وأهدافها تمام الاختلاف عن الصوفية وأسسها . هذا والعثمانيون وحدهم الذين ينطقون الصاد فى هذه الكلمة بالفتح « صفوى » فى حين ينطقها الفرس بالامالة نحو الكسرة على الدوام .

تتفانى فى محبتـه والولاء له (١) . وقد انتهت به حروبه المظفرة الى أن استحوذ على أغلب ايران والعراق . وكان من بين أعظم مفاخره ما أبداه من تعصب لمذهب الشيعة الذى كان عليه قومه وما قام به من تعضيـد لفرقة رابع الخلفاء الراشدين ، على وأولاده ، وذلك بوصفهم أصحاب الرأى الغالب فى بلاده ، وهم الذين ظلوا يتعرضـون للاضـطهاد عدة قرون . والتشيع قديم قدم الاسلام نفسه ، وقد كان لهمن الأتباع بايران على الدوام أكثر مما له بالبلاد الاسلامية الأخرى .

ويختلط ما يعتمل فى نفوس أصحاب هذا المذهب من مرارة وسخط متأصل فيها بحنق القومية الايرانية على الفاتح العربى المستبد وهى التى تعرضت على يديه للمهانة والزراية . ولئن كنا نجد هنا وهناك فئة قليلة من الشيعة فيما وراء الفرات وعبر جيحون — ترى مثالها عند بايسنقر ميرزا أو فى ثورة شريك بن الشيخ المهدى ابان الحكم العربى فى بخارى — فان فارس الأصلية كانتهى على الدوام المكان الذىيتعرض لاضطهاد المسلمين ، أى أهل السلف ، واتهاماتهم ، وذلك بسبب تشبثها بهـذا المذهب واصرارها عليه .

وكان أعداء هذا المذهب يقنعون بمحاربته بأسلحة الجدل والتحقير ما بقى أصحابه على استخفاء ، حتى اذا ما شهر الصفويون مبادئهم على بنودهم وتحدوا بها علنا الأمراء السنيين وتهددوهم ، برز لهم عنـدئذ هؤلاء ، ليتخذ عند ذلك كل فريق منهم من هذه الخلافات المذهبية ذريعة قوية لتحقيق أهدافه السياسية .

ففى غرب آسيا أذكى التعصب للشيعة من نيران الحقـد والبغضـاء فى الحرب التى قامت بين أوزون حسـن وفاتح القسطنطينيـة ، وكانت صيحة ترك ايران أثناء القتال هى « يا على » .

---

(١) هذه القبائل التركية ، أو بعبارة أدق التى تتكلم التركية ، والتى تقطن فيما وراء القوقاز عند الشاطىء الجنوبى لبحر الخزر والى الغرب من خراسان ، والتى لا تزال تشاهد فى أجزاء منها الى اليوم ، كانت قد هاجرت من أواسط آسيا أول أمرها مع السلاجقة . وهذه القبائل هى : أوستاجلو ، شاملو ، تكالوا ، بهارلو ، ذو القدر ، قاجار ، أفشار .

أما فى الشرق فقد استطال اشتعال النار اللهم الا فى المناطق التى راجت فيها الحياة العقلية والجدل . ونرى من صورها المعاصرة ما كان يجرى ببلاط السلطان حسين بيقرا اذذاك حيث كان الكتاب الفرس السنيون فى هراة وبلاد ما وراء النهر يجهدون لاثبات أن الثقافة والعلم فى ايران لم تكن كلها من آثار الشيعة ، حتى جاءت أيام أوزون حسن من بعد ذلك ، وكان على مودة مع التيموريين على ما هو معروف ، فأخذت هذه المسألة تشغل أذهان الرجال فى آسيا الوسطى وفى بخارى على الخصوص وتقلق بالهم ، حتى ليقال ان أبا سعيد انما مات شهيدا فى سبيل نصرة السنة .

وأدى تزايد أنصار الشيعة بايران الى ازدياد كراهية أهل آسيا الوسطى لهم وحقدهم على هؤلاء الخارجين ، حتى رأينا فلاسفة هراة ومعهم علماء بخارى وسمرقند ، قبل وفاة السلطان حسين ميرزا ، يصمون الشيعة بخروجهم على أركان الاسلام ويبيحون بيعهم بيع الرقيق (١) ويعلنون أن الاصهار اليهم من المكاره (٢) .

كان هذا هو موقف كل فرقة من أختها حين ظهر شيبانى محمد خان عند حدود ايران يريد أن يتابع فتوحه بعد ما أصاب من الانتصارات فى خراسان ، وبان له أن لا مناص من حرب الشاه اسماعيل . ويقول الترك فى بعض أمثالهم « ان من يمسك بالسيف فى يده لا حاجة له بأن ينتحل الأعذار لما يفعل » .

---

(١) وفق قاعدة « كل مسلم حر » لا يجوز شرعا أن يباع المسلم فى أسواق الرقيق بآسيا الوسطى الا أن يفتى الشيوخ بخروجه على الاسلام. ويقال ان أول من أفتى بذلك فى ذياك الوقت هو الملا شمس الدين الهراتى الفقيه المشهور ، وكان لفتواه هذه خطورتها مستقبلا بالنسبة لايران .

(٢) المكروه هو ما بين الحلال والحرام . والاسلام فى حد ذاته لايحرم الزواج بغير المسلمات حتى رأينا سلاطين تركيا يبنون بأميرات من اليونان والصرب . على أن الأمر كان يختلف فى بلاد العالم الاسلامى الشرقية ، اذ كان الشيوخ أكثر تزمتا من أقرانهم فى بلاد العالم الاسلامى الغربية ، فكانوا يرون ذلك أمرا مكروها .

ولم يكن شنيبانى الا ليعمل بهذا المثل ، ولكنه أمل أن يثير أكبر قدر من حمية الناس فنـادى فيهم بالجهـاد . وعلى هذا فقـد أقام من نفسه واعظا للبطل الصفوى فكتب اليه عام ٩١٤ (١٥٠٨) يقول :

« يا سلطان ايران ، علمت بتأييدك لمذهب الشيعة المقيت وانسياقك وراء عواطف هوجاء وآراء هي من رجس الشيطان ، فتبصر فى عاقبة عملك وتبرأ من هذه الفئة الباغية وارجع الى اجماع أهل السنة ، والا فكن على يقين بأن نار الفتنة التى أوقدتها لابد وأن تكتوى بها . وانى لأبصرك مرة أخرى بأنك تسير فى طريق الضلال ، فارجع عن ذلك الى طريق الايمان القويم ، والا سقطت الى الأبد فى أيدى الشيطان . فان أبيت أن تستمع الى قولى فاعلم أنى قادم الى ايران بجنـد لا حصر له فاستولى على قلعـة أصفهان ، مهما كلفنى ذلك فى القتـال ، وأهدمها كلها عن آخرها . أجل ان عقابى هو العقاب الأليم ، وسوف لا ينسى أهل ايران هوله الى يوم الدين » (١) .

ويبدو أن الشاه اسماعيل قد أهمل الرد عليه فرأى شيبانى فى ذلك دليلا على ضعف صاحب فارس فاشتد اصراره وعزمه على توسيع حدود دولته ، وكانت اذ ذاك قد ترامت أطرافها .

وحدث أن توغلت جموع من الأوزبك عند الجنوب من خراسان حتى تجاوزت قندهار فأعملت فيها السلب والنهب ، كما سارت جموع أخرى منهم كذلك الى كرمان ، ليفد عند ذلك رسول من قبـل الشـاه اسماعيل ويحذر الفاتح الأوزبكى من مغبة استمرار جنده فى بغيهم هذا . هنالك جدد شيبانى تهديده وبعث الى الصفوى بكشكول ، وهو جفنة الشحاذ (٢) وعكاز السائل ، ومعها رسالة فحواها الآتى :

---

(١) تاريخ سيد راقم ص ١١٠ .

(٢) الكشكول هو نصف محارة ثمرة جوز الهند، وفيها يجمع الشحاذ الصدقات . أما العكاز فيتوكأ عليه فى سيره ، وهذه جميعا هى عـدة الدرويش .

« خذ هذه الهدية فهى تذكرك بما كانت عليه أسرتك ، أما أنا فقد ورثت السيف والملك من جدى جنكيز ذائع الصيت ، فان لم تقنع بعكاز الشحاذ فعليك اثم ما تفعل » (١) .

ويقول خواندمير ان الشاه اسماعيل رد عليه فقال :

« نعم أنا لا أنكر أنى درويش وسأحج الى مقام الامام الرضا بمشهد ، وليكن لقاؤنا على هذا هناك » .

وكان اسماعيل على استعداد لخوض غمار الحرب على كل حال .

أما شيبانى فقد عوقه عن الزحف جنوبا ما كان من ثورة سكان فيروزكوه (٢) عليه ، وكانت منازلهم تقع منيعة بأعالى الجبال الصخرية فذهبت جهود شيبانى فى اخضاعهم أدراج الرياح . وجاءت ثورتهم هذه فى الوقت الذى بلغ فيه الأمير الأوزبكى تقدم الشاه اسماعيل بالفعل الى مشهد فى جيش عظيم . وزاد من هلع شيبانى وقلقه ورود الأنباء من بلاد ما وراء النهر فى الوقت نفسه بمباغتة بيونسز حسن لابنه محمد تيمور عند سيحون ، وهو فى طريقه لتأديب القرغيز وهزيمته له هزيمة منكرة .

هكذا صارت الحاجة ماسة الى ذراع شيبانى القوية وعينه الفاحصة فى جبهات ثلاث ، فضلا عن أن قواته نفسها كان قد حل بها النصب وأوهنها السير الطويل . وفيما كان هذا الأمير الأوزبكى يقلب الأمور

---

(١) كان شيبانى قد حمل رسل اسماعيل رسالة رسالة الى أميرهم به فيها بأنه لم يرث الملك عن أبيه . ورد عليه الشاه الصفوى قائلا « اذا كان الملك لا ينتقل الا بالوراثة فكيف صار اذن من البيشداديين الى الكيانيين ، وكيف صار كذلك الى جنكيز ، بل وكيف صار اليك أنت » »
(تاريخ فرشته لمحمد قاسم هندوشاه لكنو ص ٢٠٠ أول (المترجم)

(٢) هذه القبيلة الايرانية فى فيروزكوه قد ورد ذكرها فى كتابى Sketches of Central Asia P 327 وهم يحتفظون فى اصرار بعاداتهم القديمة كقطاع للطريق .

فى مرو على مختلف وجوهها ، أيبادر بعبور جيحون أم ينتظر العدو عند حدود الصحراء ، اذا بعدوه يطرد حاميات الأوزبك من دامغان وسبزاور ونيسابور ويبلغ « مشهد » فى زحفه القوى ثم يتجاوزها فى طريقه اليه وجيشه يتهدده .

ولم يكن شيبانى ليستطيع فى ظروفه هذه أن يحصل على امدادات ، فاستقر رأيه لذلك على أن يمتنع وراء الأسوار فى مرو ما استطاع الى ذلك سبيلا على أمل أن ترد اليه بعض النجدات . على أن الشاه اسماعيل لم ير الى التريث سبيلا ، اذ كان يرى أنه حين يتمهل طلبا للمزيد من الجند بدوره انما يمكن المحصورين بذلك من كسب الوقت . فعمد من فوره الى الحيلة ، فبعث الى شيبانى برسالة قال له فيها :

« لقد وعدتنى ، من قبل ، أن تزورنى فى آذربيجان فلم تحافظ على وعدك أبدا ، وهأنذا قد جئت أزورك فى خراسان ، فاذا بك لا تتلطف باستقبالى وتقفل أبوابك فى وجه ضيفك ، ولما كنت على مايظهر تؤثر أن تبقى فى الخفاء ، وقد جد من الحوادث ما يستدعى عودتى بدورى الى ايران وآذربيجان ، لذلك فقد عزمت على أن أرفع مضاربى وأغادر المكان تاركا أمر لقائنا رهنا بالظروف » .

ولم يلبث أن صدر الأمر بالرحيل وشرع القوم فيـه . ولم يكد جيش الفرس الأقوياء يسير فى طريقه حتى برزت فرق الأوزبك الضئيلة منهوكة القوى ، يقودها شيبانى فانقضت على مؤخرة العدو وأخـذت تطارده عبر مرغاب ، لتدرك آخر الأمر ، بعـد فوات الأوان ، أنها قد وقعت فى الشرك ، وذلك حين رأوا الجسر ينهار فى اثرهم بعد عبورهم له ، وقد أحاط بهم فى الوقت نفسه سبعة عشر ألفا من جند الفرس من كل جانب على مقربة من محمود آباد . هنالك وقعت مذبحة بشعة دافع فيها الأوزبك عن أنفسهم بشجاعة منقطعة النظير شهد لهم بها أعداؤهم . واستطاع شيبانى ، بعد أن سقط أكثر من نصـف رجاله ، أن يقتحم حشود الفرس فى قليل من أتباعه فلاذ بمزرعة مهجورة ، وقد أمل أن يستمر فى ادارة دفة المقاومة وهو فى مأمن من وراء الأسوار . على أنه

سرعان ما أحيط به وقتل هو وجميع رجاله . وقد اكتشف جثمانه فيما بعد ، بين آكداس الجثث التى كانت قد دفنت تحت الأنقاض ، وكان مثخنا بالجراح .

كان شيبانى فى الحادية والستين من عمره حين مات ميتة الأبطال هذه (١) ، وقد أمر الشاه اسماعيل فركبت جمجمة عدوه على الذهب ليتخذ منها كأسا يتعاطى الشراب فيه . وفى رواية أخرى أنه بعث بها الى السلطان بايزيد فى القسطنطينية ، وكان على صلات سياسية بحاكم بلاد ماوراء النهر (٢) . كما قطعت يده اليمنى وبعث بها الى أقا قاسم أمير مازندران ، وكان من أشد أنصار الأوزبك ، ومعها رسالة ساخرة فحواها كالآتى :

« لقد طالما أعلنت عن تعلقك بشيبانى ، واذا كان لم يتح له أن يأتى اليك فتلتقى به فى حياته ، فان الشاه اسماعيل يبعث اليك بيد ظهيرك حتى تحقق أمنيتك بالتشبث به » .

وقد حكى هذه القصة مؤرخو الفرس . وعلى الرواية السائدة فى آسيا الوسطى ، فان بقايا شيبانى قد دفنت فى نفس السنة التى مات فيها، أى عام ٩١٩ (١٥١٠) ، بالمدرسة الفخمة التى كان قد أقامها بسمرقند ، ولا يزال قبره يعظمه الجميع حتى اليوم كشهيد .

---

(١) وفق تاريخ منظوم ورد فى تاريخ سيد راقم يكون قد مات شهيدا يوم جمعة ، ولكن ليس بين أيدينا ما يحدد تاريخ اليوم أو الشهر الذى مات فيه .

(٢) يقول هامر فى الجزء الثانى والثلاثين من كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية ، أن العلاقات الدبلوماسية كانت قد قامت أول الأمر بين الباب العالى وبلاد ما وراء النهر أواخر حكم السلطان سليمان القانونى . وهذا خطأ واضح ، ذلك أنه لو لم يكن شيبانى خان على صلات ببايزيد سلطان القسطنطينية لما بعث الشاه اسماعيل بجمجمة خصمه اليه ، وكان هدف صاحب فارس من ذلك أن يثير الأسى فى نفس زعيم السنيين بآسيا الغربية . ويذكر كل من هامر ، فى مقاله المشار اليه، وسنكوفسكى فى كتابه Senkowsky : Table généalogique تواريخ خاطئة ومضطربة ، وقد لا نعجب من ذلك حين ندخل فى حسابنا أن ما وصلت اليه أيديهم لم يكن الا مجرد مصادر تاريخية ناقصة مغلوطة .

ولا مراء فى أن شيبانى خان يعد من بين عظماء الرجال . وحياته العجيبة جديرة كل الجدارة بالدراسة الدقيقة ، اذ كانت بمثابة نقطة التحول التى انتهت عندها دولة بلاد ما وراء النهر ، التى اشتهرت فى التاريخ ، الى خانية بخارى التى لم يكن لها من الأهمية السياسية قدر مذكور .

وعلى هدى الحوادث التى أثبتناها لتونا نستخلص منها ثلاثة أمور لها اعتبارها . ففى المكان الأول نجد أن شيبانى كان آخر فاتحى الدنيا الذين خرجوا، ومعهم قوات من سكان السهوب البرابرة بآسيا الوسطى، فأقاموا دولة امتدت الى ما وراء جيحون بمسافات بعيدة ، فلم يصادف أى محارب أتى من بعده ما صادفه هو من التوفيق بالغا ما بلغ هذا المحارب من الكفاية والطموح ، فضلا عن أن استقرار الأمور بايران من بعد ذلك كان بمثابة سد منيع وقف فى وجه بخارى وسمرقند أن تمد نفوذها نحو الغرب .

والأمر الثانى أن أدوار السلالات البشرية وهجراتها فى آسيا الوسطى قد ختمت به ، اذ كان الأوزبك هم آخر قبيلة انحدرت من مرتفعات توران الوعرة صوب الجنوب الغربى .

والثالث أن سقوط التيموريين وانهيار دولتهم التام قد قضى قضاء تاما على آخر رابطة كانت ، على وهنها ، تربط المسلمين فيما وراء جيحون وسيحون باخوانهم فى غرب آسيا .

وكان مما ساعد على قيام هذه الثغرة وعجل بها شدة تعصب الصفويين لمذهبهم بطبيعة الحال ، فكان صنيعهم هذا بمثابة اسفين أقيم فى قلب الاسلام .

وختم هذا الدور من أدوار الزعامة الدينية والاجتماعية فى هذه البلاد حين نزل شيبانى مع بدوه من السهوب الشمالية الى الوديان الزراعية . وما غدت بلاد النهر من بعد ذلك أن كمل عزلها عزلا تاما . وعاد نهر جيحون بالتدريج مرة أخرى هو الحد الفاصل بين البيئة الايرانية والبيئة التورانية كما كان فى القديم .

ولم يكن شيبانى بشخصه على وجه اليقين ، هو ذلك البربرى الجلف كما يصفه أعداؤه من الايرانيين ، فقد كان يكن من الاحترام البالغ لشيوخ عصره ما هو أشبه بخضوع الطفل لمؤدبه . وكان بدوره يقرض الشعر ، كما كان يصطحب معه فى كل حروبه دواما مكتبة صغيرة . وعلى نهج ما كان يفعله تيمور حين كان يعقد ندوات فقهيـة للدرس تضـم فلاسفة دمشق وحلب ، فكذلك كان الفاتح الأوزبكى بدوره يتدارس تفسير القرآن مع القاضى اختيار ومحمد يوسف أكبر المفسرين فى هراة . ويسخر بابر من شيبانى فيقول انه كان يقرض شعرا سقيما تافها ويقرؤه على الناس .

ومهما يكن فان فى فعلته هذه ما يدل على أن رجل السيف هـذا كان يتابع أعوان الثقافة فى عصره حتى اشتغل بالكتابة وبز فى ذلك أغلب أنداده . وبرغم سخرية عدوه اللاذعة منه ، فان نظمه يدل على قريحة شعرية ملحوظة(١) ، وعلى المام واسع بالتركية والفارسية والعربية كذلك. ولقد ضم الى بلاطه كثيرين من العلماء الذين نزلت بهم الفاقة والعوز بعد موت السلطان حسين ميرزا وأجرى عليهم رزقا حسنا ، كمـا أقام المساجد والمدارس ببخارى وسمرقند وطشقند .

وكان يصحب معه على الدوام ، حتى فى حروبه ، مختلف العلماء ، وكان لهم عليه أبلغ نفوذ(٢) . وبرغم أن الأوزبك كان اسمهم منذ أول ظهورهم على مسرح التاريخ مرادفا للبربرية والوحشية ، ولا يزال حتى اليوم عند الايرانيين كذلك ، الا أن هذا التعريف لا ينطبق على شيبانى بشخصه بحال ما ، اذ كان على ثقافة عالية ومدنية لا تقل عما كان عليه أكثر أمراء بيت تيمور .

(١) يعرض علينا مؤلف شيبانى نامه بعضا من أشعار شـيبانى تعد من ناحية لغتها وفكرتها من بين أحسن انتاج الادب التركى الشرقى .

(٢) حين تقدم مولانا بنائى ، شاعر شيبانى الخاص ، الى فلاسـفة هراة يدعوهم لتسليم مدينتهم ، تقدم هؤلاء الى مضارب الأوزبك ليتفاوضوا فى الصلح ، وكان لمكانتهم وحدها الفضل فى اقتناع ذلك الفاتح بالاكتفـاء بفرض المال عليهم ، وقد اتفق معهم على مقداره .

الفصل الرابع عشر
الشيبانيون
٩١٦ (١٥١٠) — ١٠٠٦ (١٥٩٧)

حين بلغت أنبـاء كارثة مرو بلاد ما وراء النهر لم يكن أمام أمراء بيت شيبانى الا أن يبادروا بأسرع ما يمكن الى عقد الصلح مع الشاه اسماعيل ، وكانت عساكره المظفرة تزحف الى جيحون ، اذ كانوا يوقنون باستحالة الاضطلاع بتدبير الدفاع لوقفه من جهة ، ويعرفون مدى ما يتهددهم على أيدى التيموريين الذين كانوا قد سلبوهم أملاكهم من جهة أخرى . وفى هذا الصلح كان على الأوزبك أن يتنـازلوا عن الضـفة اليسرى من النهر ، وفيه تم الاتفاق كذلك على أن يصبح جيحون من جديد ، فاصلا بين ايران وتوران ، كما كان عليه الحال فى الزمن الغابر . ومع ذلك فان هذا الصلح لم يدم الا لأجل قصير جدا . ذلك أن بابر ميرزا برغم وجود منطقة كابل اللطيفة فى حوزته ، كان ما يزال ، بوازع من شعوره الوطنى الفياض ، يحن الى وطنه القديم على ضفاف جيحون وسيحون . فلم يكد يعرف بنهاية خصمه السابق حتى سارع بالائتلاف مع الشاه اسماعيل ، ليتلقى منه عند ذلك امدادات استعان بها فى محاولة تحقيق أمله باسترداد عرش أجداده .

وعبر بابر جيحون عام ٩١٧ (١٥١١) فى جيش مكون من الفرس واللاجئين من أواسط آسيا ومن البدخشانيين والأفغان ، فاستولى بعد مقاومة شـديدة على سمرقند (١) . ولم يكن ما أصـابه من نجاح ، غير

(١) مما يؤسف له أن تفصيل محاولة بابر استرداد سمرقند هو من بين ما ضاع من سيرته . هذا ويومياته فى سيرته تجرى وفق السنين . وما بين أيدينا منها ينقص الفترة ما بين عام ٩١٤ (١٥٠٨) حتى عام ٩٢٥ (١٥١٩) ، فلم يكن أمامنا بذلك الا أن نطلب هذا التفصيل فى مصـادر اخرى دونها .

متوقع ، ليرجع فى الغالب الى جرأته وبسالته بقدر ما يرجع الى ما كان من وقوع الشقاق بين أفراد بيت شيبانى أنفسهم . فقد بادر فريق من الأوزبك عند وفاة شيبانى بمبايعة محمد تيمور سلطان ابن ذلك الفاتح ، فى حين ذهب فريق آخر ، يمثل الغالبية ، فنادى بتنصيب كچكونچى (١) سلطان بن أبى الخير وذلك على مقتضى الرسم القديم الذى ينص على اختيار أكبر الأمراء سنا . ولم يرق محمد تيمور عرش أبيه على كل حال الا لأيام قليلة (٢) ، اذ فاجأه موت مدبر فى الغالب . فالتف القادة عند ذلك حول الشيخ الأشيب كچكونچى عند حوض سيحون الأدنى لينظروا فيما عليهم أن يتخذوه من خطوات من بعد ذلك .

ولئن كان هذا الأمير قد انتخب بالفعل خليفة لشيبانى باجماع الآراء ، الا أن تقدم سنه منعه من المشاركة الفعلية فى الحروب ، فندب لذلك أميرا آخر من أسرته نائبا له فى قيادة الجيش ، كان دون مؤسس هذه الأسرة فى الكفاية الحربية والطموح والشجاعة جميعا . هذا الأمير هو عبيد الله خان ، ابن محمود سلطان (٣) ، فاتح خراسان الغربية ، وكان قد تمرس بالقتال من قبل حين شارك عمه حروبه ، فضلا عن أنه كان أقدر أمراء الأوزبك اذ ذاك بلا شبهة . وكان على هذا الأمير أن يواصل الاضطلاع بما كان يضطلع به شيبانى من مهام مع ما صار اليه حال الأوزبك ، اذ كان التآلف والاتحاد بينهم قد انفصمت عراه .

وخرج هذا الأمير فى خمسة آلاف من الفرسان ، مشيعا بدعوات الرجل الصالح الشيخ أحمد ، فعبر بهم سيحون وسلك الطريق الصحراوى الذى يقع على الضفة اليسرى للنهر فغزا القسم الشمالى من خانية بخارى ، وبابر اذ ذاك فى غفلة تامة لا يدرى عن تحركات عدوه شيئا . وأقام الأوزبك عند ذلك مضاربهم على شواطىء بحيرة ملِك

(١) هذا اللفظ البدوى أو الجوال ، ويشتق منه فى الغالب كلمة كجوم .

(٢) كان لشيبانى ابنان آخران هما خرم سلطان وسيونج محمد سلطان ، ولا نعرف سببا لاهمال شأنهما فى وراثة العرش .

(٣) محمود سلطان هو أصغر اخوة شيبانى ، وقد مات عقب سقوط قندز على ما ذكرنا من قبل .

بمنطقة خير آباد (١) فى حين بلغت مراكزهم الأمامية الى ما وراء بخارى . ويقال ان عبيد الله لم يلبث أن سحب جند المقدمة هذا حتى يركز قواته فى مكان واحد ، وذلك حين سمع بزحف بابر اليه فى جيش قوامه سبعون ألف جندى . وحمل البخاريون صنيع عبيد الله هذا على انه يرتد فانطلقوا يزفون الخبر الى بابر الذى بادر بالزحف عند ذاك بدوره الى عدوه طلبا لقتاله على ضفاف البجيرة .

هنالك استجاب له عبيد الله ، فبرز من بين قواته الأمير سراج الدين وأوروس ميرزا وبصحبة كل واحد منهما ألف من الجند فهاجما قلب جيش بابر . وما لبث أن سار فى أثرهم بقية جند الأوزبك ، وهم الذين عرفوا بضراوتهم وجسارتهم فى القتال . وكادت المقدمة القليلة هذه أن يحاط بها لولا أن شاع الاضطراب والفوضى فجأة فى جيش بابر وعمه الفزع ، حتى انتهى الحال بالجند الى أن انطلقوا يلتمسون طريق الفرار جملة . ويقال ان بابر نفسه قد استمات فى القتال معرضا نفسه لأشد الأخطار ، فلم يعمد الى التراجع الا حين أخذت بنود عبيد الله تظلله بالفعل (٢) .

ويبدو أن بابر قد أدرك حينذاك أنه قد أطلق آخر سهم فى جعبته للدفاع عن عرش أبيه . ذلك أنه حين آب من حومة الوغى الى سمرقند لم يمكث بها الا ريثما تم له اعداد متاعه وجمع شتات أسرته وأتباعه ، فسار بهم جميعا الى حصن حصار .

وقد دام حكمه بسمرقند ستة أشهر لم يتح له من بعدها أبدا مشاهدة موطن أجداده المحبوب .

---

(١) تقع خير آباد على مسافة قصيرة عند الشمال من بخارى . ولم أشاهد بحيرة ملك بنفسى فى أسفارى ببخارى ولكنى عبرت جزءا من صحراء ملك (انظر كتاب رحلتى ص ١٩٨) .

(٢) استقيت كل ما ذكرته هنا من سيد راقم ، ويبدو أن هذه الأعداد مبالغ فيها على كل حال بالقياس الى صغر قوة الأوزبك التى خاطر بها عبيد الله لمهاجمة هذا الجيش .

ودخل عبيد الله المدينة دون مقاومة عام ٩١٨ (١٥١٢) فأجلس عمه كجكونجي على عرشها ، واحتفظ لنفسه بحكومة بخارى ليستكمل استعداداته الحربية بها . ذلك أن هزيمته لبابر لم تكن تعني بعد توطيد مركز الأوزبك ، فقد كان أقوى أعدائهم ما يزال يقف على قدم الاستعداد ، على الشاطىء الآخر لجيحون ، يراقب بعين الحذر كل حركة أو سكنة يأتي بها خلفاء شيباني .

ولم يكد الشاه اسماعيل يبلغه خبر هزيمة بابر حتى أخذ يعد العدة لحماية خراسان من أن تتعرض من جديد لغزو الأوزبك ، فبعث من فوره الى نجم ثانى (١) حاكم تلك الولاية يطلب اليه أن يبادر بانجاد بابر بكل ما فى طاقته ، وأن يسير الى بلاد ما وراء النهر بلا تأخير . هنالك لحق هذا الجيش الفارسي ببابر عند ترمذ وانضم اليه ، فهاجمت هذه الجيوش المتحدة قارشي واستولت عليها .

وأدى بنجم ثانى تعصبه الشديد لمذهب الشيعة الى أن قتل كل حامية المكان وسكانه وفيهم الشاعر المشهور مثلا بنائى . وأثار هذا التصرف ثائرة بابر (٢) الشهم السمح حتى آثر أن يضحى بفكرة استرداد بلاد ما وراء النهر ، فقطع علاقته بفارس وترك القائد الفارسى المشهور يتخذ طريقه الى بخارى منفردا ، ليلاقى عند ذلك جزاء ما اقترفت يداه عن كثب (٣) . فقد تركة الأوزبك يتوغل حتى قلب هذه البلاد دون مقاومة ، فطفق يستولى على الحصون الواحد بعد الآخر ، حتى اذا ما بلغ

---

(١) اسمه الأصلي ميريار محمد .

(٢) برغم أن قائد قارشي كان من أبناء عمومة عبيد الله الا ان ذلك لم يمنع بابر ، وهو السمح ، من أن يثور لمشهد القسوة التى عامل بها الفرس قريب ألد أعدائه .

(٣) مع تمجيد المؤرخين الفرس الشاه اسماعيل الصفوى فانهم يأخذون عليه ما سلكه من العنف لحمل الناس قسرا على التشيع (تاريخ عمومى ايران لعباس اقبال ، طهران ص ٢٥٨) ، هذا ويذكر صاحب مآثر الأمراء أن بعض قواد الفرس أنفسهم كانوا يحقدون على نجم ثانى فكان ذلك من اسباب هزيمته .

(المترجم)

غجديوان كان جنوده قد بلغ بهم التعب والمسغبة درجة أمكن معها لحفنة من فرسان العدو أن تنزل هزيمة قاصمة بوزير سلطان فارس المتكبر هذا في معركة سقط فيها هو نفسه مع أكبر قواده .

ويصف المؤرخ الفارسى ما كان عليه هذا الرجل من الثراء والبذخ حتى كان ينحر فى مطبخه كل يوم مائة رأس من الغنم ومعها عدد لا يحصى من الدجاج والبط والأوز ، فضلا عن أربعين رطلا من القرفة والزعفران وصنوف التوابل الأخرى . كما كانت صحافه كلها من الذهب أو من الخزف الصينى النادر .

هكذا انتصر الأوزبك على الفرس انتصـارا مبينا ، وجاءت هذه المعركة التى كان يرمى الشاه اسماعيل بها الى حماية خراسان بعكس ما كان يرجوه منها . فقد عبر عبيد الله من بعد ذلك جيحون عند جهارجوى مع عمه العظيم جانى بك ، أحد أبناء خواجه سلطان (١) عام ٩١٩ (١٥١٣) وانضم اليه عند مرغاب تيمور سلطان ، قادما من سمرقند بطريق كركى ، فتقدموا جميعا لمهاجمة مشهد ، كما انطلقت فى الوقت نفسه كتائب من الأوزبك عبر ترمذ فتوغلوا فى البلاد حتى بلخ ، وهم ينشرون الخراب والدمار حيث ساروا ، فلم يمض الا أشـهر قلائل على نصر غجديوان الذى قادهم فيه عبيد الله حتى كان الأوزبك قد استحوذوا ثانية على كل الأقاليم التى كان شيبانى قد كسبها لهم أصلا بسيفه .

كان على الشاه اسماعيل ، بعد أن رأى كل انتصاراته السابقة قد تبددت فجأة كهشيم تذروه الرياح ، أن يتجه بجيوشـه الى خراسان ، برغم خوفه من أن يغير السلطان سليم عليه ، وكانت همة اسماعيل متجهة الى الاهتمام بأراضيه الغربية التى كان يقلقه أمرها . ولم يعمد الأوزبك الى الارتداد عبر جيحون حين علموا بمقدم الشاه اليهم بطبيعة الحال ،

---

(١) كان لخواجه سلطان ، ثانى أبناء أبى الخير ، ولدان همـا جانى بك وبويالى سلطان ، ولم يرق العرش أحد من ابناء بويالى ، وانمـا كان آخر حكام الشيبانيين ببلاد ما وراء النهر من أصلاب جانى بك .

غير أن المناوشات الخفيفة التي وقعت فى الصحراء بين الفريقين والتى كانت فى الغالب على هيئة غارات ، أكثر منها معارك مرسومة منظمة ، كانت تقترب باطراد من حدود ايران ، هذه كانت فى حد ذاتها نازلة طاحنة جرت البؤس الكثير على مناطق ايران المنكودة فى ناحية الشمال الشرقى . وبرغم قلة ما بين أيدينا مما يصح أن نستند اليه فى مبدأ قيام العلاقات بين الأوزبك والعثمانيين اذ ذاك فالثابت المعروف أن التفاهم ازداد بينهما فعلا فى تلك الآونة بلا مراء ، اذ نرى حكام القسطنطينية يسارعون عند ذاك بنشر بنودهم فى وجه قوة الصفويين الصاعدة . فلم يكد هؤلاء يسحبون قواتهم التى كانوا قد أعدوها لحماية مشارف ايران الشمالية الشرقية حتى اندفع الأوزبك فعبروا مياه جيحون الصفراء ودخلوا خراسان ، التى لحقت بهم فيها الكارثة من قبل ، لنجد عبيد الله عند ذلك يغزو ايران بمفرده ست مرات لم ينتج عنها الا اشاعة الدمار والخراب فى أرض جارته المنكودة .

وتاريخ هذه الغزوات محزن يبعث على الملل ، ومع هذا فلا حيلة لنا الا أن نستعرضه . أما أول هذه الغزوات فقد صدت لوقتها كما ذكرنا سلفا ، وأما ثانيتها فقد وقعت فى فرصة أكثر مواتاة للاوزبك ، اذ كان الشاه اسماعيل قد هزم وأصابه الضعف والخذلان فى معركة چالدران .

ويصف المؤرخون الفرس هذه الغزوة الثانية بأنها كانت على نطاق واسع . فقد أذن لعبيد الله عمه بأن يعبر جيحون فى ثلاثين ألفا من الأوزبك ، ومع هذا فلم يحرز من النجاح ما يتلاءم مع عظم استعداده هذا ، اذ اضطر الى الارتداد بعد أن ضرب الحصار حول هراة لعشرة أيام دون نتيجة . ذلك أن ضراوة الأوزبك لم تجدهم فتيلا تلقاء همة سام ميرزا ودرمش ميرزا ، قائدى خراسان ، وقوة عزيمتيهما ، فقنعوا بصب جام غضبهم على المحاصيل الزراعية فدمروها عن آخرها .

ووقعت ثالث غزوة بعد موت الشاه اسماعيل وذلك عام ٩٣١ (١٥٢٤) . فقد نفذ المحارب الشيبانى الجسور من جهارجوى وانقض على مرو ، فى حين زحف أبو سعيد بن كجكونجى بطريق كركى وظهر

عند هراة . ولم يصب هذا الأمير الا قدرا قليلا من النجاح ، فى حين لم يكتف عبيد الله بالاستيلاء على مرو ومشهد فحسب ، بل امتدت غاراته الى استراباد فاستولى عليها وعهد بحكومتها الى ابنه عبد العزيز .

على أن هذا الأمير لم يستطع أن يرسخ أقدامه هناك على أية حال، فلم يكد عبيد الله يصل الى دامغان حتى كان الشاه طهماسب ، ابن اسماعيل وخليفته ، قد قدم لانقاذ تلك الولاية المهددة وطرد الأوزبك عنها الى بلادهم . فقد أخطأ سكان بلاد ما وراء النهر فى حسابهم حين ظنوا أن موت الشاه اسماعيل وما تبع ذلك من شيوع الاضطرابات الداخلية بايران انما يتيح لهم الفرصة لتحقيق أهدافهم .

ولئن كان طهماسب قد اعتلى العرش وهو بعد يافع ، الا أنه ما لبث أن عقد النية على وضع حد لغزوات الأوزبك . وحين عرف عبيد الله بذلك انطلق يحذر قومه ويبالغ فى وصف عظم القوات التى عزم سلطان فارس الشاب على أن يعبر بها جيحون .

ولئن لم يقم الدليل على اتجاه طهماسب هذه الوجهة ، الا أن ذلك لم يمنع كجكونجى من أن يستبد به القلق حتى استعد للقاء عدوه . وعلى هذا قام عبيد الله بغزو خراسان للمرة الرابعة عام ٩٣٥ هـ (١٥٢٨) فى حشد جمعه من بين مختلف القبائل والبطون التى كانت تسكن مرتفعات توران ، كما انضم اليه كل أمراء الأوزبك الكبار ، ومن بينهم براق سلطان ، قادما من طشقند ، وكجكونجى وابنه أبو سعيد من سمرقند وحمزه سلطان من حصار وكستن قره سلطان من بلخ .

ويقول المؤرخون الفرس ، وهم الذين جبلوا على المبالغة ، انه لم يسبق لمثل هذا الحشد الهائل من التتار (١) أن عبر جيحون دفعة واحدة كما فعل هؤلاء . ولكنهم يغفلون فلا يضيفون الى ذلك أن قصف المدافع

(١) يقدرهم روضة الصفا ، وهو مرجع فارسى ، بمائتى ألف ، ولا يترك بلدا معروفا أو شعبا الا ويقول بمشاركة رجاله فى هذه الحملة .

وصوت طلقات الأسلحة النارية لم يسبق له أن سمع بهذه المناطق كذلك أبدا .

وجلب طهماسب معه ستة آلاف بندقية ، فكان على رماة السهام المشهورين القادمين من توران أن يواجهوا لأول مرة اختراع الغرب العلمى الذى كانت تنهار أمامه مجرد القوة الجسدية الخالصة (١) . ولا جدال فى أن هذين الجيشين كانا ندين عظيمين لبعضهما حين التقيا . وزاد من حدة القتال فى هذه الواقعة أن بدأ الالتحام الفعلى فيما بينهما بين جام وزور آباد (٢) ، فى التاسع من المحرم ، ليلة ذكرى مأساة مقتل الحسين عند كربلاء وهى التى يحتفل بها الشيعة كل عام فى حزن بالغ (٣). وأخذت أسراب السهام تتلألأ فى ضوء أشعة الشمس الأولى ، أول انتشارها ، والرماة يطلقونها . وهى صورة تعيد الى الخيال منظر الصراع فى القديم بين أفراسياب ورستم . وكاد الأوزبك وسط سحب الغبار الكثيف أن يحيطوا بطهماسب أول الأمر حتى بدأ أمله فى النصر يتضاءل، ليعمد الجيش الفارسى عند ذاك ، على نهج خطط العثمانيين ، الى الاحتماء وراء العجلات الحربية ، وقد جعل رماته من حملة البنادق فى الجبهة .

---

(١) لم يستخدم الفرس الأسلحة الحديثة من بنادق ومدافع الا بعد أن عرفوا قيمتها وتأثيرها البالغ فى حروبهم مع العثمانيين . وعن طريق الفرس عرفت جيوش بلاد ما وراء النهر وما وراءها استخدام هذه الأسلحة.
(المترجم)

(٢) وهو اليوم السهل الكبير الذى يكون الحد الفاصل بين أفغانستان وايران ، وبين هراة وخراسان تبعا لذلك . وجام هو أول موضع فارسى يبلغه المسافر حين يقدم من هراة ، وهو اليوم قرية حقيرة يعيش سكانها فى رعب قاتل خوف التركمان . وعلى ما رواه بابر فى سيرته بالهند فان هذه الواقعة لم تكن بين جام وزور آباد وانما كانت بين جام وخركرد . ويقدر بابر جيش الأوزبك بثلاثمائة الف ، فى حين يقدر جيش الفرس بأربعين أو خمسين ألفا ، وكان من التركمان على حد قوله .

(٣) تعد هذه الليلة عند الشيعة أقدس ليالى السنة كلها ، وهم يصومون يومها ويبالغون فى تعذيب أنفسهم فيها ليهيئوا بذلك أذهانهم للتأمل فى يوم الحزن الأكبر التالى وهو يوم عاشوراء .

وبرغم ذلك فان الأوزبك كروا من جديد على جناحي عدوهم حتى أفلحوا فى اختراق خطوطه ، ولكن قوة الفرس الرئيسية تمكنت آخر الأمر من أن تصدهم وتسقط من بعد ذلك على مؤخرتهم وتشتت شملهم وفى هذه الواقعة سقط خمسون ألفا من الأوزبك وعشرون ألفا من الايرانيين على ما يقال (١) ، ولما ينتقم القوم بعد لدم شيبانى على ما كانوا يقدرون .

وفيما كان طهماسب عام ٩٣٨ (١٥٣١) منهمكا فى القتال مع السلطان سليمان ناحية الغرب ، أقدم عبيد الله على غزو ايران للمرة الخامسة فى جيش من جند مختلط . فسار بنفسه الى هراة ، فى حين زحف ابنه عبد العزيز الى مشهد ، وتقدم الى استراباد قميش أوغلان الذى طارت بذكر شجاعته الركبان ، وسار الى سبزاور خان كلدى باتر . وظلت خراسان وسيستان وجزء من ايران مسرحا لعبثهم يعملون فيها جميعا السلب والنهب طوال عام ونصف العام . حتى اذا ما عقد الصلح بين سلطان فارس والعثمانيين واتت بذلك طهماسب الفرصة ليلتفت من جديد الى اقليم خراسان المغتصب . وهنالك سارع الأوزبك ، كعادتهم ، بالجلاء عنه محملين بالرقيق والأسلاب من كل نوع .

وارتقى عبيد الله عرش بلاد ما وراء النهر بعد ذلك عام ٩٤٠ (١٥٣٣) ذلك أن الشيخ المعمر كچكونجى كان قد وافاه أجله عام ٩٣٧ (١٥٣٠) بعد حياة طويلة قضى أكثرها فى حلقات الزهاد والدراويش . وخلفه ابنه أبو سعيد خان من بعده فداهمه الموت بدوره بعد سنوات ثلاث قضاها على العرش . ويشك كثيرا فى أنه قتل سرا بتدبير من عبيد الله .

---

(١) يروى بابر فى سيرته أنه قيل أن تسعة من سلاطين الأوزبك وفيهم كچكونجى نفسه وابنه أبو سعيد وعبيد خان سقطوا بأيدى الفرس فلم يبق منهم على قيد الحياة الا أبو سعيد . وهى رواية غير صحيحة ، ذلك اننا سوف نرى خلال هذا الفصل أن هؤلاء الثلاثة قد ارتقوا جميعا عرش بلاد ما وراء النهر لعدة سنوات على التعاقب ، وأن أكبرهم وهو كچكونجى لم يمت الا بعد مضى عامين على هذه الكارثة .

وما ان رقى عبيد الله هذا العرش حتى طفق يعاود تحرشه بجاره فى هجمات متلاحقة على ما كان يفعل من قبل . فشرع عام ٩٤٢ هـ (١٩٣٥ م) عام ٩٤٦ (١٥٣٩) وهو فى السادسة والخمسين من عمره فى العام السادس فى غزوته السابعة لخراسان ، وفيها تذكر المصادر الوطنية أنه قد تمكن على كل حال من انتزاع حصن هراة من سام ميرزا وان لم يستطع الاحتفاظ به أبدا (١) .

كانت هذه آخر غزواته لخراسان ، فقد خرج فى محاولة فاشلة لاعادة خوارزم الى حظيرة بخارى من جديد ، ثم وافاه أجله من بعد ذلك من حكمه ، ودفن فى ضريح بمدرسته التى أنشأها .

تقاسم بلاد ما وراء النهر من بعد ذلك أبناء كچكونجى وشيبانى ، وان انتهى الأمر بعد وفاة عبيد الله الى اشاعة الفوضى بين الأوزبك على كل حال ، فقد قام أشياع الأسرة السابقة باجلاس عبد الله بن كچكونجى على العرش ، حتى اذا ما وافاه أجله بعد ذلك بشهور ستة اختاروا مكانه أخاه عبد اللطيف (٢) ، فى حين ذهب الفريق الآخر ، وكان أمنع جانبا ، الى المناداة بعبد العزيز بن عبد الله سلطانا عليهم وذلك عام ٩٤٨ (١٥٤١) ولا نعلم ان كان العداء قد نشب بين هذين الحاكمين أم أنهما اقتسما الحكومة فعلا فيما بينهما فى سلام .

والحقيقة الوحيدة التى نستطيع أن نستخلصها من الأخبار الشحيحة المضطربة عن هذه الفترة هى أن عبد العزيز قد بقى على العرش حتى عام ٩٥٨ (١٥٥١) ، وانه استمر على علاقاته السلمية مع فارس ،

---

(١) يؤكد صاحب روضة الصفا عكس هذه الرواية فيقول ان الأوزبك تراجعوا بازاء المقاومة العنيفة التى أبدها سام ميرزا .

(٢) يخلط دوجوينى بين عبد الله هذا وعبد الله الأخير ، الأكبر ، وذلك فى كتابه عن تاريخ الهياطلة والترك

1) Deguignes: History of the Huns and the Turks, vol 111 p. 472

كما يجعل عبد المنعم يلى العرش مباشرة ، عقب عبد الله الأول ، وبذلك يغفل نصف قرن بأكمله فى تاريخ بخارى .

اللهم الا مرة واحدة غزا فيها بلخ ، فكان فى ذلك على تمام النقيض من أبيه فى خلاله .

كان عبد العزيز يظاهر الشيوخ فى دعوتهم الى احياء السنة ويهتم بذلك اهتماما كبيرا حتى أنفق أموالا كثيرة فى تعمير المساجد والخوانق وغيرها من دور العبادة أكثر مما أنفق فى تعمير المنشآت الأخرى .

ولئن كانت البلاد قد أفادت من صنيعه هذا أعظم فائدة ، وهى التى أنهكتها الحروب المتصلة من قبل ، الا أن اهماله لشئون الدفاع عن الدولة قد أدى الى ازدياد تعرض المناطق الشمالية من بلاده لغارات البدو الرحل أكثر من ذى قبل . وعلى أثر موته ندب محمد يار سلطان (١) ابن محمد سيونج خان خلفا له ، وكان يقيم اذ ذاك بطشقند ، ولكن الموت داهمه بدوره وهو فى طريقه الى بخارى ، وقيل انه قتل بسمرقند عام ٩٦١ (١٥٥٣) فى رواية أخرى . ورقى العرش من بعده برهان خان ، أحد أحفاد عبيد الله ، برغم معارضة الكثيرين فى ذلك ، وكان خليعا ماجنا حتى كان يغلب عليه الخمار أياما بأكملها ، وسرعان ما نتج عن ذلك أن عم السخط عليه والكراهية له .

وفى وسط هذه الفوضى التى سادت نتيجة استهتار هذا الأمير ، برز فجأة من سهوب وسط آسيا الشمالية الشرقية براق خان (٢) ، أحد أبناء محمود خان الذى دحره شيبانى من قبل ، فاجتاح ، بجنوده الغلاظ من المرتزقة ، أعظم مناطق بلاد ما وراء النهر عمرانا حتى عم الخراب الشامل كل المنطقة الواقعة بين أترار وبخارى وانتهبت بأكملها . وكان ما حل بالأهلين من ضروب البؤس والشقاء تبعا لذلك مما يجل عن الوصف لما كان عليه هذا الطاغية من قسوة وضراوة .

---

(١) تذكره رواية أخرى باسم محمد رحيم ، وهو قول غير صحيح ، ذلك أن محمد رحيم ، وهو ابن عبد الله خان ووالد برهان خان كان قد مات قبل ذلك .

(٢) اسمه الأصلى نوروز أحمد .

وفي هذا الوقت الذى ساد فيه الرعب والفزع البلاد ظهر على مسرح الحوادث لأول مرة عبد الله خان ، ابن اسكندر خان(١) وحفيد أبي الخير ، وهو من سوف نراه يستحق بجدارة أن يوصف بأنه أعظم الشيبانيين . وقد ولد هذا الأمير عام ٩٤٠ (١٥٣٣) . ولم يشتهر أحد من أجداده لأبيه بالذكاء ، وكان جده الأعلى يعرف باسم تينتك (الأوزة) أما جده المباشر جانى بك (٢) فكان أبله ، ولم يكن عند أبيه بدوره شيء من بوارق الذكاء ، فكل ما نعرفه عنه انه كان يواظب على أداء الصلوات الخمس فى مواعيدها (٣) وانه كان يجيد الصيد بالبزاة .

ومع ما كان عليه آباؤه هؤلاء ، يقال ان الشيخ الوقور خواجه كاشانى كان قد تنبأ له وهو بعد طفل بمستقبل عظيم ، وذلك حين قدمه اليه أبوه اسكندر خان ليباركه ، وأعلن فى سرور أن هذا الطفل قد ولد فى برج السعد وأنه سيكون يوما ما عاهلا عظيما ، وأردف هذا الشيخ الورع قوله بأن خلع منطقته ، وكانت من صوف الجمل ، فلفها حول الطفل زيادة فى تحصينه بالبركات . وزاد الشيخ على ذلك بأن تنبأ له بحوادث بعينها سوف تصادفه فى حياته المستقبلة . وعلى هذا فقد عهد بتأديبه الى خير المربين فى وقته ، وكانوا كثيرين فى عهد عبيد الله كما ينوه بذلك المؤرخ سيد راقم .

---

(١) كان لأبيه جانى بك اثنا عشر ولدا هم دوست محمد سلطان وكشتن قرا سلطان ، الذى حكم طويلا ببلخ ، ثم باينده محمد سلطان سلطان واسكندر خان واسفندريار سلطان وسليمان سلطان وپير محمد سلطان وشاه محمد سلطان ويار محمد سلان وجان محمد سلطان ونور محمد سلطان .

(٢) يحكى أبو الغازى ان هذا الأمير كان يسمح لزوجاته ، قبل ان يضعن حملهن ، بصب الدهن (لعله حجر الشب) على النار فيعرف توا من خلال اللهب نوع المولود . وهذه الخرافة لا تزال تروج حتى اليوم بآسيا الوسطى ، ونظير ذلك ما يمارسه الفتيات الأوربيات اذ يصببن الشمع أو الرصاص المذاب ليلة العام الجديد ليرين فى صورته التى يصير عليها ان كن سيتزوجن فى العام التالى أو لا .

(٣) كان كذلك يصلى النوافل بانتظام .

انبرى عبد الله وهو فى الثانية والعشرين من عمره يدافع عن حقوق أسرته فى عزم أكيد ، فتقدم مع حفنة من رجاله ليقف فى وجه براق خان وما كان يرتكبه من فظائع ، وكان هذا قد استولى على بخارى لتوه . واضطر عبد الله أول الأمر الى الارتداد الى حصن تاراب الصغير ، قرب بخارى ، وهو موطن صانع الغرابيل الذى ادعى النبوة أيام الجغتائيين . وتلقاه الأهلون أول الأمر بفتور، حتى اذا ما عنفهم على تقاعسهم ووعدهم بمزيد من الامتيازات حين يكتب له التوفيق ، انضم الى صفوفه منهم ثلاثمائة محارب . وفيما كان يعد العدة للحرب واتته الأخبار بوفاة براق وذلك عام ٩٦٣ (١٥٥٥) هنالك أسرع الى بخارى من فوره فاستولى عليها وعلى ما يجاورها من أرضين ، فاذا هو من بعد ذلك يرى نفسه وقد أصبح فجأة فى حال يسمح له بمهاجمة برهان خان ، وقد هزمه بالفعل ثم قتله (١) . واذ تم له بذلك طرد الغزاة من بلاده استطاع أن يقيم من جديد سلطان الشيبانيين ثابتا قويا ببلاد ما وراء النهر .

وعلى نهج شيبانى وعبيد الله من قبل حين كانا يعهدان بمقعد الحكم الى من كانوا يندبونهم من الأمراء برغم أنهما كانا أصحاب السلطة الشرعية ، وذلك ليمضيا متفرقين الى حروبهما ، فقد أجلس عبد الله بدوره أباه اسكندر على عرش سمرقند وأقام نفسه على رأس الجيش الذى اعتزم أن يعيد به دولة شيبانى الى ما كانت عليه رقعتها فى السابق . وأمضى عبد الله أغلب حياته فى سبيل تحقيق هذا الأمر فصادفه فى فتوحه من التوفيق أكثر مما صادف كل من سبقه ، كما جهد بدوره كذلك فى انعاش بلاد سيحون من جديد والنهوض بها ، حتى استحق بجدارة ، كما سوف نرى ، أن يلقب بلقب « ولى النعم » .

وامتدت حدود خانية بخارى فى عهد عبد الله هذا حتى تجاوزت المناطق المسكونة فى تركستان شمالا . ولم يتعرض السلام للخطر بهذه النواحى ، بعد وفاة براق خان ، فى الغالب الا حين قدم بابر خان ،

(١) قتله غيلة من يدعى ميرزكى قوشجى .

ابن براق سالف الذكر ، عام ٩٧٥ (١٥٦٧) يغزو بلاد ما وراء النهر من جديد . وبلغ هذا الأمير سمرقند فقبض على خسرو سلطان أميرها وسار به مع جمع من أعيان المدينة واستولى على متاعهم كله . واذ كان عبد الله ذياك الوقت مع جيشه فى خراسان فلم يكن أمامه بذلك الا أن يتميز غيظا ويتحمل هذا العمل فى صمت بعض الوقت ، ليتمكن من بعد ذلك ببضع سنين من أن يطرد بابر خان هذا من بلاده عام ٩٨٣ (١٥٧٧) ويرغمه على الارتداد عبر سيحون وقد شاعت الفوضى فى جيشه. وتهادن الطرفان ولكن الهدنة لم تطل بينهما ، اذ قدم بابر بعد ذلك بسنوات يغزو البلاد من جديد ، واضطر عبد الله الى أن يشتبك معه فى الحرب تبعا لذلك . ووقعت المعركة الحاسمة بين الطرفين عند آق قوتل (التل الأبيض) ، وفيها هزم بابر خان هزيمة تامة وانطلق عبد الله فى اثره يطارده فى منطقة السهوب حتى ألغ طاغ (الجبل الكبير) ، فأقام عنده نقشا تذكاريا فى مواجهة النقش الذى أقامه تيمور هناك من قبل تذكارا لانتصاره على تختمش . وعلى هذا النصب سجل عبد الله انتصاراته المختلفة على نهج ما كان يفعله الفاتح التترى الكبير .

وبهذا لم تخضع فرغانه كلها فى الشرق للشيبانيين فحسب بل وخضعت لهم كذلك كاشغر وختن . أما الجنوب فقد تعرض لهجمات متوالية من أسرة بابر (١) ، من ناحية ، ومن الصفويين من ناحية أخرى ، وكان كل فريق يطمع فى الاستيلاء على بلخ .

---

(١) كان بابر خان بن براق خان هو آخر أمير فى أسرة مغولية مافتىء رؤساؤها ابتداء من أيام قايدو ، أى منذ عام ٦٦٥ (١٢٦٦) حتى عام ٩٨٦ (١٥٧٨) ينتهزون كل فرصة تسنح لهم ، حين تضطرب الأمور ببلاد ما وراء النهر ، فينفذون الى هناك بدعوى الدفاع عن حقوق فرع بعينه من أسرتهم بخاصة ، بازاء الحكام من بيت الچغتائيين ، وعن حقوق الچنكيزيين جميعا بعامة . وضعفت قوتهم وقتا ما بسبب حروب تيمور من الجته . على أن ساعدهم ما غدا أن اشتد من بعد ذلك أيام خلفائه وكسبوا الى صفهم فى ذلك القلموق والقرغيز . وعظم شأنهم عند طشقند أيام أبى سعيد حتى تزوج ابنه عمر شيخ ميرزا من ابنة زعيمهم يونس بك فولدت له بابر الشهير (يقصد المؤلف ظهير الدين محمد بابر الذى أقام الدولة المغولية بالهند عام ٩٣٢ هـ ، وهو غير بابر خان بن بروق خان =

ومع هذا كله فقد بلغ الأوزبك من القوة اذذاك ما لم يبلغوه حتى فى عهد الشيبانيين الأول ، وامتنعت حصـــون بلخ على أعدائهم ، كما استطاعوا أن يلحقوا كذلك طخارستان وبدخشان ببلاد ما وراء النهر ، فعادت بذلك مياه مرغاب الخضراء المتلألئة حدودا لتوران من جديد . كذلك كتب لعبد الله النصر مرة أخرى فى الغرب برغم تحالف الايرانيين والخوارزميين عليه ، فسقط على استرباد واستولى عليها كما اضــطر أمير جيلان ، وكان حليفا لمراد الثالث ، أن يلجأ الى القسطنطينية . وبهذا بلغت حدود دولة الشيبانيين فى هذا الاتجاه ما لم تبلغه من قبل . وكانت حروب عبد الله أول الأمر مجرد غارات ، أى « عِلمانات » كما يسميها التركمان ، ذلك أن طهماسب كان قد تعجل الصلح مع السلطان سليمان عام ٩٦٩ (١٥٦١) بسبب فرقه الشديد من الأوزبك ، حتى يفرغ بذلك الى حماية حدود ولاياته الشرقية منهم ، دون أن يذهب معهم الى أبعد من ذلك . وما غدت ايران بعامة وخراسان بخاصة أن سادتهما الفوضى بعد موت طهماسب الى أبعد حد وذلك بسبب سوء حــكومة أبنائه ، فأخذ جند الأوزبك يتدفقون على المناطق الشمالية منها من جديد ، حتى لم يستطع محمد ميرزا نفسه (ابن طهماسب) عام ٩٧٤ (١٥٦٦) أن يفلت الا بمشقة من الوقوع بأيدى جموعهم التى كانت تعيث فى الأرض فسادا ، وكان هذا الأمير اذ ذاك فى طريقه الى هراة ومعه خمســة عشر ألفا من الجند ، فلاذ بهم بحصن تربت حيدرى بعد عناء شديد ، ولم ينج كذلك من الأسر هناك الا بعد صراع عنيف .

ونشبت الحروب العنيفة بايران بسبب تنافس الأمــراء الايرانيين على العرش فمهد قيامها الطريق لأطماع عبد الله ، وانتهز الأوزبك فرصة اشتغال الشاه عبــاس المعروف بالأكبر بصراعه مع غريمه خدا بنــده ،

= المترجم) .وحين اضطربت الأحوال فى عهدالشيبانيين ، استولى هؤلاء على خوقند ، واضطر شيبانى على ما ذكرنا من قبل الى حرب محمود خان ابن يونس خان ، وبعد أن هزمه حاول ابنه براق ومن بعده حفيــده بابر خان بن براق أن يستعيدوا لأسرتهم عبثا مجدها الضائع .

فاستولوا على حصن هراة بعد أن ضربوا الحصار عليه شهورا تسعة ، وقتلوا فى هذه الحرب على قلى خان شاملو نائب الشاه بخراسان وكثيرا من الأمراء الآخرين ، وسيق عدد من الأهلين أسارى الى بخارى ، كما تعرض القسم الشمالى الشرقى من ولاية خراسان الى أشد ضروب الدمار والخراب كذلك .

وفى هذه المناسبة نهض القائمون على ضريح الامام الرضا (١) ، — وكانوا يتولون فى الوقت نفسه ادارة حبوس كثيرة لهذا المقام العلوى من حقول وبساتين وكروم وغير ذلك — فكتبوا الى عبد الله يسألونه كيف تسمح له مشاعره الدينية أن يدمر ممتلكات الامام فيقضى بذلك على موارد يعيش من فيضها آلاف كثيرة من الحجاج الأتقياء وفيهم كثير من أهل السنة .

هنالك انبرى للرد عليهم من كان بمعسكر عبد الله من شيوخ أهل السنة ، فحملوا بعامة على الشيعة حملة شعواء طويلة واحتجوا فى ذلك بأن أصحاب هذا المذهب هم على مقتضى أحكام السنة أشد كفرا من المشركين الذين أمر الله بقتلهم والقضاء عليهم :

« فاذا كان فرضا على كل مسلم أن يقاتل المشركين ، فأولى به أنه يحاسب الذين حادوا عن طريق الحق . وهم — أى الشيعة — برغم

---

(١) يعد مقام الامام الرضا أغنى المزارات حبوسا فى فارس ، ولم تكن أوقافه تضم أسواقا بأكملها وشوارع فى مدينة مشهد التجارية المشهورة فحسب ، بل كان له كذلك بظاهر المدينة وبأجزاء أخرى من خراسان كثير من الحقول والبساتين ومنازل المسافرين . ومن دخلها كان ينفق على مطبخ « مولانا » فيصيب كل قاصد اليه وجبات من الأرز واللحم والخبز أياما ثلاثة بالمجان . وأهل البلاد يذكرون الامام باسم « مولانا » وكأنه لا يزال على قيد الحياة ، ويتبع ضريحه كذلك حمام بالمجان ومصنع للصابون ومئات من المقاصير وغير ذلك مما ينتفع به الحجاج اليه وللأثرياء وحدهم أن يدفعوا نذورهم بضريحه مختارين . والامام يقوم بضيافة الفقراء على نفقته لهذا يعرف باسم « سلطان الغرباء » .

صلتهم بذلك الولى الذى ترقد عظامه بين ظهرانيهم ، قد سقطوا فى حمأة الضلال المبين » .

أما بشأن ما وجه الى الأوزبك من اللوم على تخريب حقول الامام الرضا وبساتينه ، فقد ردوا عليه بأنهم يعلمون حق العلم أن هذه الحبوس موقوفة على نواحى البر عند مقام الامام ، على أن أساس المسألة هو من يكون له حق الافادة من هذه الحبوس ، أأولئك الذين يجاهدون فى سبيل الله ونصرة الحق وقد تجردوا من حب الدنيا ، أم أولئك الذين أجرموا فى حق الله وتناولوا بالسب واللعن أعظم حماة الدين (١) .

وكان شيوخ الشيعة بدورهم على استعداد للرد على هذا القول بطبيعة الحال فاقترحوا فى لباقة عقد ندوة عامة نصفها من أولئك والنصف الآخر من هؤلاء ، لينظروا فيما اذا كان الشيعة يعدون حقا من الخارجين على الدين لمجرد اعلانهم ان الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول مغتصبون ، ولأنهم يؤكدون حقوق على فى الخلافة . وكان هؤلاء يحتجون كذلك بأنهم اذا كانوا يعدون بمذهبهم من الخارجين فكيف رضى الامام الرضا بالنزول عندهم ولم يتجه الى بلاد ما وراء النهر ، الى غير ذلك من الحجج التى كانوا يقولون بها .

ولم ينته هذا الجدل الى نتيجة بعينها على أية حال . ولم يتح لهذه الندوة من شيوخ الشيعة والسنة أن تجتمع الا بعد ذلك بمائة وخمسين عاما حين عقدت بمدينة بغداد بأمر نادر شاه (٢) . وفيما كان هذان الفريقان يتباريان بالأقلام لحسم الخلاف فى مسألة الشيعة التى عجز

---

(١) يشير الى الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول : أبو بكر وعمر وعثمان وهم الذين يعدهم الشيعة مغتصبين لحق على فى الخلافة .

(٢) يرى الفرس المحدثون أن نادر كان سنيا فى قرارة نفسه . وقد بلغ من بعد نظره أن أدرك مدى الخطر الذى يتهدد الاسلام من هذا التشيع فأراد أن يضع حدا لهذه القضية ، فدعا الى انعقاد ندوة ببغداد ، وان لم ينته الحال الى نتيجة ، وذلك بسبب ما كان يكنه كل فريق للآخر من كراهية وعداء شديدين .

السيف لقرون طويلة فى القضاء عليها ، زحف الشاه عباس الشاب بجيشه من قزوين فى حين ارتد عبد الله الى بخارى بطريق مرو .

وقد قصد عباس بصنيعه هذا ، كما يلاحظ مالكولم بحق فى كتابه « تاريخ فارس » ، الى تدعيم نفوذه أصلا ، ولم يكن من أهدافه طرد الأوزبك أو غزو بلادهم . ذلك أنه لم يمكث بمشهد الا فترة قصيرة أسرع من بعدها الى جورجيا حيث كان العثمانيون قد أخذوا يتهددونه بالعدوان حتى أنزلوا به الهزيمة بالفعل . وعلى ما كان يجرى عليه الحال فى الغالب فيما سبق ، فان انتصار العثمانيين فى الغرب سرعان ما تردد صداه فى الشرق ، فلم يكد عبد الله تبلغه هذه الأخبار حتى شرع فى محاولة ثانية لفتح مشهد ، وقد سير على مقدمة جيشه ابنه عبد المنعم خان نائبه على بلخ .

وكان عبد المنعم هذا محاربا عنيفا قاسيا شديد الطموح ، وقد أسرع فى زحفه ومعه عمه دين محمد فى قوة كبيرة انضم اليها قل بابا كوكلتاشى تابع عبد الله المخلص وحاكم هراة . ووقع أول هجوم لهم على نيسابور ، وفيه سقط فى الأسر نفر من الأوزبك كانوا قد خرجوا فى مهمة استطلاعية . وحين أطلق سراحهم من بعد ذلك أوضحوا لقائدهم الشاب أن نيسابور هى فى الواقع جزء من جبهة مشهد وأن استسلام هذه المدينة يؤدى حتما الى سقوط المكان الأول .

هنالك اتجه عبد المنعم بكل همته الى مشهد فلم يبخل بأى جهد أو تضحية فى سبيل اخضاعها .

وبذل قائد حصن مشهد أمت خان استاجلو كل ما فى وسعه ليصد هجوم العدو عليه ، لولا ما كان من شيوع الذعر فى المدينة ، اذ كان قد لجأ اليها كثيرون من سكان الريف على قلة ما كان بها من المؤن ، فجاءت المجاعة بذلك فى صالح الأوزبك ، واستسلمت مدينة الشيعة المقدسة هذه لهم فى أول هجوم وقع عليها وسقطت بأيديهم كل أموالها وآثارها وأسواقها الغنية .

وحين دخل جند عبد المنعم المدينة وجدوا أهلها رجالا ونساء ومعهم العـدد الكبير من الشيوخ والعلمـاء ، وقد تكدسوا جميعا فى الساحة الخارجية لمقام الامام الرضا ، وقد أملوا أن تعصمهم حرمة المكان من كل خطر قد يتعرضون له . لكن الأوزبك ما غدوا ، وهم فى نشوة النصر ، أن اندفعوا يعملون التدمير والتقتيل فى كل ما يصادفهم فى طريقهم ، فلم ينج من سيوفهم حتى أحفاد الامام الرضا نفسه ، وكانوا قد لجأوا الى ضريح جدهم ، فقتلوهم دون أن تأخذهم بهم أدنى شفقة أو رحمة .

ويقال ان عبد المنعم نفسه كان بدار على شيرنوائى يطل منها اذ ذاك على رجاله وهم يعملون سيوفهم فى الأطفال والشـيوخ وعامة النـاس والعلماء دون تمييز ، فلم يحرك من مشاعره صيحات ألوف الضحايا ولا منظرهم وهم يعانون سكرات الموت ، ولم تجر الدماء فى الطرق العامة فحسب ، بل تلطخ بها كذلك أقدس مكان فى المسجد والضريح نفسه . وما نزل بمقام العلوى من الخراب حين استبيحت المدينة كلها كان أشد مما نزل بأغلب أحيائها الأخرى .

وسقط بأيدى الغزاة كل ما كان بهذا المقام من هدايا الحجـاج الأتقياء التى ظلت تتكدس هناك مدى قرون ثلاثة . ومن بينها ثريات ضخمة من الذهب والفضة ومجموعات من الدروع والمعادن الثمينـة تزينها الى درجة فائقة الأحجار الكريمة النادرة والأزرار والجمانات وغير ذلك من الجواهر . وأثمن من هذا كله المكتبة الفخمة وما كانت تحويه من نسخ للقرآن الكريم ممتازة وأمشاق الخطـوط وهدايا السـلاطين السابقين . وقد نزل الدمار بهذا كله فقضى عليه قضاء تاما . ولم ينج حتى الأموات من نقمة الغزاة السنيين ، فنبش قبر طهماسب ، وكان مثواه

---

(١) على القارىء أن يرجع الى كتابى « رحلات ومغامرات فى فارس «Wanderings and adventures in Persia, Pesth 1867 p. 142 ففيه وصف قريب لما كان هناك من نفائس مجموعة. هذا وتعد مدينة قم دون مشهد بكثير فى أهميتها ، ويجب الا ننسى أن « تيمور » كان قد عنى عناية كبيرة بتعمير مقام الامام الرضا وافاضة الأبهة والفخامة عليه .

الى جوار مقام الرضا ، وذر فى الريح ما بقى من أشـلائه مصحوبة باللعنات .

وأراد عبد المنعم أن يكسب ود عدو سنى آخر من أعداء الصفويين حين ينهى اليه بفعلته هذه ، فبعث بحاجبه محمد قلى الى مراد الثالث بالقسطنطينية يحمل اليه رسالة منه وصف له فيها انتصاراته بخراسان بأبلغ عبارة ، وبين له فيها كذلك ما فعل بأشلاء طهماسب ، ثم سأله من بعد ذلك العون اذ ينتوى الخروج وشيكا الى العراق ليقضى القضاء المبرم على أصحاب مذهب الشيعة أهل الشرك .

ولم يكتب النجاح لهذه الخطة لسببين :

الأول : ان العثمانيين لم يتغافلوا عن شد أزر أحلافهم فى المذهب بالشرق القصى فحسب ، بل ذهبوا فى الواقع الى النقيض من ذلك كذلك ، فوعدوا الفرس ببذل العون لهم حين باتوا يرون فى انتصارات عبد الله هذه ما قد يتعارض ومصلحتهم .

أما الأمر الثانى ، فهو أن الشاه عباس كان قد أقعده المرض وقت أن استباح الأوزبك «مشهدا» ، حتى اذا أبل من مرضه أخذ يبذل غاية جهده لتوفير وسائل الدفاع عن بلاده . وكان عبد الله على كل حال قد تم له النصر وصار فى حوزته جزء كبير من خراسان يضم هراة ومشهد وسرخس ومرو وخواف وجام وفوشنك والغور ، وقد احتفظ بهذا كله فى الغالب حتى آخر حياته .

بلغ عبد الله ذروة مجده بفتح خراسان . وبرغم نشاطه الحربى الطويل وانتصاراته المتصلة ببلاد ماوراء النهر ، فمن الملاحظ على وجه اليقين أنه ظل لايستقل بحكومة بلاده حتى ذياك الوقت . ولقد ذكرنا من قبل أنه بعد مغامراته الأولى ألقى بمقاليد الحكم الى أبيه اسكندر خان ولكنه لم ينعم بذلك طويلا على مايظهر . ذلك أنه برغم امتداد الأجل به حتى عام ٩٩١ (١٥٨٣) فان التاريخ يذكر لنا جملة من الحكام الآخرين غير الذين جلسوا على عرش سمرقند فأجريت الخطبة والسكة باسمهم مما يقوم دليلا

على استقلالهم بالحكم . وكان من بين هؤلاء خسرو سلطان الذى هزمه بابر خان حين قدم من طشقند فغزا بلاد ما وراء النهر عام ٩٧٥ (١٥٦٧) وأوقعه فى أسره ثم قتله . وخلف خسروا هذا السلطان سعيدا أحد أبناء أبى سعيد وحفيد كچكونجى ، وقد حكم خمس سنوات عنى فيهـا برعاية العلوم ، وبذل كثيرا من الجهود فى تجميل سمرقند ، ومات عام ٩٨٠ (١٥٧٢) فخلفه أخوه جوانمرد على بهادر . وفى عهده بدأ عبد الله خان يتدخل فى شئون سمرقند الداخلية لأول مرة ، وذلك بسبب الحوادث التاليـة :

كان لجوانمرد ولدان هما أبو الخير سلطان ومظفر سلطان ، وكان يتحاربان على الدوام . وحدث أن دعا أبو الخير الى بلاده بابر خان ليعاونه فى حربه مع أخيه ، وكان هذا الأخ على مودة مع عبد الله ، وبرغم هذا فقد نزلت به الهزيمة . هنالك سارع جوانمرد والد هذين الابنين المدللين الى مناصرة ولده المهزوم ، ليرى عبد الله عند ذلك أنه لاسبيل له للقضاء على هذه الفتنة الا بالتخلص من الأب الشيخ وولديه معا . فأسر جوانمرد وابنه مظفر ثم قتلهما بسمرقند . ولقى أبو الخير المصير نفسه بعد ذلك بقليل .

وحين تم لعبد الله القضاء على الحكومة الثنائية ببلاد ما وراء النهر بايعه قومه عام ٩٨٦ (١٥٧٨) ببخارى سلطانا مستقلا على توران كلها (١) ..ولا نفهم كيف لم يقبل هو على هذه الخطوة من قبل ، فقد كتب له النصر فى شمال بلاد ما وراء النهر وفى شرقها وغربها ، وصارت له السيادة التامة على كل خراسان وطبرستان تقريبا . فلم يكن ليعسر عليه يقينـا والحالة هذه أن يستحوذ على اقليم سمرقند الصغير المعزول قبل ذلك بزمن طويل . ولم يمنعه عن ذلك ضعف فيه بطبيعة الحال ، وانما كان تغاضيه عن ذلك رعاية منه لأقربائه الأقربين فضلا عن مقته للمنازعات

---

(١) بهذا لم يعد له الا خصم واحد هو عبد السلطان بن عبد اللطيف ، وكان قد جهر بالعصيان فى اقليم زمين . وقد هزمه عبد الله فى معـركة مكشوفة حتى ارتد الى تلال حصار ، ولكنه سار فى أثره حتى وقع آخر الأمر بيده فقتله عام ٩٨٨ (١٥٨٠) .

العائلية ، حتى سلك معهم سبيل المودة مع ماجبل عليه من القسوةوالعنف، وقد سلك المسلك نفسه مع أخيه پير محمد ، وكان قد خلف كيستن قرا سلطان بن جانى بيك على حكومة بلخ ، وظل يحكم مستقلا هناك حتى مات عام ٩٧٤ (١٥٦٦) . ولم يكن عبد الله خان ليعارض فى الاعتراف بدين محمد خان ابن أخيه پير محمد خلفا لأبيه لولا ما كان من اصرار ابنه عبد المنعم على أن تكون له كل الأقاليم الواقعة على ذلك الشاطىء من جيحون ، وقد لاحظنا من قبل ماكان عليه هذا الأمير من ميل الى القسوة والوحشية . ولم يكن دين محمد ليرضى بهذا الأمر فعارضه ، حتى اذا ماتقلد عبد المنعم حكومته الجديدة ألقى القبض عليه وعلى كبار رجال دولته وأمر بقتلهم جميعا مما أثار عليه سخط أبيه .

وكان صنيع عبد المنعم هذا بمثابة نقطة سوداء فى تاريخ هـذا الشيبانى المجيد ، فلقد كلف عبد الله بحب ابنه هذا حتى ذهب فى سبيل ارضائه لأطماعه التى لا حد لها بأن جعله يتخذ لنفسه لقب الخان ، بوصفه وريثاللعرش ، وكان هذ االلقب لا يحمله عموما الا الحكام الترك أنفسهم(١) فكان الأب يلقب بلقب أُلُغ خان (أى الخان الكبير) والابن بلقب كچوك خان (أى الخان الصغير) . ولم يقنع عبد المنعم بهذا كله فانطلق بعصاباته من الفرسان الشرسين يجتاحون التلال والوديان شمالا وجنوبا وغربا ، ينهبون ويسلبون . ووافق انغماس عبد المنعم فى هذه المعارك المستمرة سياسة أبيه عبد الله فى خراسان فلم يمنعه لذلك عنها ، فضلا عما كان يرتاح اليه عبد الله حين كان يستمع الى القوم وهم يشيدون بذكر بطولة ابنه وشجاعته .

وسرعان ما غر عبد المنعم انتصاراته هذه فبدأ ينازع أباه سلطانه ، فلم يمض وقت طويل حتى انطلق يعاديه فى العلن . وكان أول أسباب هذا النزاع مطالبة عبد المنعم بتوحيد كل مناطق جيحون الدنيا الشيبانية تحت سلطانه ، حتى رغب فى سبيل تحقيق غرضه هذا الى اخـراج قل بابا

(١) النص هنا على « حكام الترك » ذلك أن هذا اللقب يحملـــه الأمراء بفارس أيضا ، وهو فى تركيا وقف على السلطان .

كوكلتاش من هراة ، وكان هذا الشيخ تابعا وفيا لعبد الله وزميلا قديما له عليه أياد كثيرة . ورفض الأب بطبيعة الحال أن يصغى لمطلب ابنه هذا ، حتى اذا ما تم لعبد المنعم هزيمة الأمير الخوارزمى نور محمد (١) وصار له من بعد ذلك عشرون ألفا من الفرسان يأتمرون بأمره ، شرع يهاجم بهم قل بابا كوكلتاش ، فأمر عبد الله عامله هذا على هراة بألا يتردد فى مقاومة هذا الأمير الثائر وحربه وكأنه عدو غريب عنه . كان فى هذا الأمر الكفاية ليثير ثائرة الابن العنيد فيجهر بالخروج على أبيه . وفيما كان عبد الله يروح عن نفسه بممارسة الصيد أقبل عليه شاه محمد أحد الأعيان ممن كانوا فى حاشية عبد المنعم فأفضى اليه بأن سيده يتقدم فى فريق من جنده ، والعدوان فى نيته . هنالك سارع عبد الله بالعودة الى بخارى ، وقد غلب عليه السخط والخوف . والغالب أن عبد المنعم قد ندم بعد ذلك على فعلته هذه فرجع الى بلخ . ولم تلبث المصادمات الحربية أن وقعت بين الفريقين فيما بعد على أية حال . ولم يقف الحال بهذا الشيبانى القوى عند حد تنكر ابنه له فحسب ، وهو ماكان يحز فى نفسه حزا شديدا ، بل انه أصيب كذلك بخيبة أمل جديدة حين تكشف له أن حروبه الطويلة المضنية التى كان قد خاضها عند الشمال من دولته لم يستطع أن يبلغ بها الى مايريد . فقد جاءته الأنباء أولا باندحار واحد من خيرة قواده اندحارا تاما على يد احدى قبائل القالموق ، وأن الفرس ، أعداءه القدماء ، وهم الذين طالما أوقع بهم الهزيمة ، قد انطلقوا كذلك يقضون بدورهم على الثمار التى جناها من وراء حروبه الطويلة عند الغرب من دولته .

هذا وقد تحدثنا من قبل عن قيام التحالف بين أمراء خوارزم وسلاطين ايران . وكان هذا التحالف نتيجة طبيعية لسياسة العداء التى كان ينتهجها الشيبانيون تلقاء خوارزم . فبرغم أن الطبقة الحاكمة كانت فى كلا البلدين من الأوزبك ، فان هذا الاقليم الصغير الذى يقع عند

---

(١) ولد نور محمد أمير خوارزم لأمة من اماء ابو سلطان ، وكان قد استرد مرو بوصفها من أملاك أبيه . وقد تحالف مع الشاه عباس بعد موت عبيد الله خوف الأوزبك . وبرغم ذلك فقد هزمه عبد المنعم حتى لجأ عند الشاه عباس . ودب الخلاف من بعد ذلك بينه وبين الشاه عباس فقبض عليه حيث مات فى حصن اصطخر .

حوض جيحون الأدنى قد عانى كثيرا على أيدى بخارى وهى أوسع منه رقعة وأعظم وأقوى . وكان خانات البيت الشيبانى يتطلعون على الدوام الى ضم هذه الامارة الى ملكهم عنوة ، فكانوا ينتهزون كل فرصة تواتيهم فيسقطون على مدن هزاراسب وخيووك (خيوة الحالية) وكت ووزير وأورغنج ويحتلونها . وقد بقى نفوذهم هناك قائما مابقيت قواتهم بها بطبيعة الحال .

وحين اضطر عبد الله الأمير الحاكم هناك (هاجم خان) الى أن يلوذ بالشاه عباس وذلك بسبب ماكان يرتكبه من ضروب القسوة والانتقام التى لم يسمع بها من قبل ، جاء ذلك ايذانا بزوال سلطان بخارى على خوارزم . ذلك أن الشاه عباس وجد بين الرعايا التركمان فى خوارزم أعوانا جديرين بالوقوف فى وجه أوزبك بلاد ماوراء النهر ، فاستطاع بعونهم ، حتى قبل موت عبد الله ، وذلك عام ١٠٠٤ (١٥٩٥) ، لا أن يسترد : مشهد ومرو وهراة القويةفحسب ، بل ويستولى كذلك على أغلب بلاد ما وراء النهر على وجه التقريب . وأدى انهيار آمال عبد الله مع عقوق ابنه له الى أن استولى اليأس الشديد عليه ، فوافته منيته ببخارى بعد مرض قصير فى الثانى من رجب عام ١٠٠٦ (فبراير ١٥٠٧) ، وهو فى الثامنة والستين من عمره ، بعد أن حكم أكثر من أربعين عاما ببلاد ما وراء النهر كان فى أولها نائبا للسلطان ثم سلطانا ، وقد ترك من ورائه حسن الذكر حتى لايزال اسمه يتردد على لسان كل بخارى الى اليوم .

وكما يعترف الفرس المحدثون بفضل الشاه عباس الأكبر فى اقامته منازل التجار الجميلة والجسور وصهاريج الماء وشقه الطرق عبر الصخور وغير ذلك من المنافع العامة ، التى عمرها لهم أسلافهم ، ماظل منها قائما حتى اليوم أو ما امتدت اليه يد الخراب ، فكذلك يرى البخاريون اليوم فى كل أثر من آثار القرون الماضية دليلا ينطق بما كان عليه عبد الله خان من جود وسخاء . وتقول الرواية ان معمار عبد الله خان سئل ذات يوم عن عدد المنشآت التى قام على تنفيذها لسيده ، فأجاب بأنها كانت فى مجموعها ألف منشأة ومنشأة من المساجد والمدارس والخانات

(كروانسرايات) والحمامات ودور الشفاء والجسور وصهاريج الماء . وقد تم ذلك كله ولما يكن حكمه قد اتصف بعد . وما يثير الاعجاب فى الواقع أن نرى عبد الله مع حروبه المتصلة لايهمل شئون حكومته الداخلية . ومهما يكن من أمر الثناء المبالغ فيه الذى يضفيه عليه سكان بخارى وسمرقند ، فالثابت المحقق أن التجارة والزراعة والعلم قد وجدت هذه جميعها فيه راعيا قويا مستنيرا ، فلم يدانه أى شيبانى آخر من قبل فيما كان يبذله من جهود قوية لنشر الثقافة بين بنى قومه والعمل على رفاهيتهم وما تزال مدارسه التى أوقف عليها الحبوس الكثيرة تزخر بالطلاب ، وما تزال الرياض التى تعرف باسم (جهارباغ) ، وهى التى أنشأها فى بخارى وسمرقند وكرمينه ومشهد (١) ، أحب الأماكن الى الناس يأوون اليها من حر الصيف ويتفيأون ظلالها . وأجمل جزء باق من سوق بخارى هو الذى بناه عام ٩٩٠ (١٥٨٢) . كما يعد الجسر الجميل ذو الأبراج الأربعة على زرفشان عند كرمينه هو المعبر الوحيد بين الشاطئين فى الغالب . وذلك أن الجسور الأخرى التى كان قد أقامها على هذا النهر تهدمت جميعا اما بفعل فاعل واما بطول الزمن . وقد أمر هذا الأمير كذلك باقامة معالم من الحجارة على طول الطرق ببلاد ما وراء النهر ، ونظم سبل المواصلات بين مختلف أجزاء بلاده ببريد حسن ، وأشاع الطمأنينة فى حياة الأهلين وفى حركة التجارة بدرجة لم تعرف قط من قبل(٢) . ولاعجب اذن أن شاعت شهرته وذاعت حتى وفد اليه السفراء من الصين (٣) محملين بالهدايا الثمينة يلقون اليه بالمودة ، وبعث اليه السلطان مراد الثالث يعرض

---

(١) الظاهر أن الأوزبك كانوا يشعرون باستقرار الأمر لهم فى مشهد، فشرع عبد الله يقيم بها بعض الحدائق العامة التى فرغ من انشائها عام ١٠٠٤ (١٥٩٠) ، كما شيد بها كذلك خانا (كروانسراى) لا يزال يعرف بها حتى اليوم باسم « خان الأوزبك » .

(٢) كان أشد ما نزل ببلاد ما وراء النهر فى عهد عبد الله خان هو ذلك الوباء الذى حل بها عام ٩٩٩ (١٥٩٠) فتفشى بين الناس أول الأمر ثم تعداهم الى الحيوانات المستأنسة فأهلك الكثير منها .

(٣) يذكر تاريخ مقيم خانى ، الذى نقلنا عنه ذلك ، أمير المنغوت وهو خطأ فى الهجاء فى الغالب ، والصحيح هو التانغوت ، وهو اللفظ الذى كان يطلقه اذ ذاك سكان أواسط آسيا على الصين والتبت .

التحالف معه ، كما أوفد اليه كذلك خان القرم وفودا خاصة لتهنئه بما حصل عليه من انتصارات ، حتى ليصح أن يقال عن عهده انه كان يحق آخر مظهر من مظاهر المجد الذى كان يحيط بعرش بلاد ما وراء النهر من حين الى آخر .

وعلى ماعلمناه من صفات عبد المنعم نستطيع أن ندرك مبلغ سرور هذا الولد العاق عند استيلائه على عرش أبيه بعد موته ، وضروب الفعال التى افتتح بها حكمه . فلقد بدأ أولا بصب جام نقمته على الرجل الوقور قل بابا كوكلتاش أحد أتباع أسرته المخلصين ، وكان الناس يوقرونه لما كان يتحلى به من الفضائل الكثيرة ، فأسره بهراة وسيره على الأقدام فى ركابه مثقلا بالسلاسل والأغلال . ودخل عبد المنعم بخارى وأسيره معه فأسرع الناس يرحبون بمقدمه ، فرقا منه دون أدنى اعتبار آخر فى الغالب . وما أن استولى على كل أموال أبيه فى هذه المدينة وفى سمرقند حتى انطلق ومعه جلاده يزور بنفسه كل الأماكن التى كان يضطلع بالحكم فيها عمال أبيه القدماء ، فيكافئهم على اخلاصهم فى أعمالهم بالموت . فعل ذلك فى اراتيه وفى خجند وطشقند . وفى هذه المدينة الأخيرة أمر بقتل كوكلتاش مع أقربائه الأقربين ثم سار من بعد ذلك الى أندجان وأخشى ليلقى القبض على ابن عمه أوزبك خان (١) وكان قد تولى حكومة هذه المنطقة .وعمد هذا الأمير الى المقاومة ، ولكن الأجل ما لبث أن وافاه بعد أيام قليلة من ضرب الحصار عليه . وبهذا حقق عبد المنعم هدفه فقفل راجعا من حيث أتى . وحين سار فى مذابحه هذه دون تحفظ شاع الخبر بين الناس بأنه لن يهدأ له بال حتى يقضى على كل أتباع أبيه الأوفياء وأصدقائه . هنالك نظر هؤلاء فى ذلك الخطر الذى يتهددهم فأجمعوا أمرهم عند ذلك على أن يدفعوه عنهم تخلصا من ذلك السفاح المستبد . وتزعم هذه المؤامرة جندى قديم من أصل قزاقى يدعى عبد الوصى بيك فاقترح قتل عبد المنعم وخاطب قومه فى حزم وقال لهم : « لا جدوى من الكلام دون العمل » . وطفق هذا الزعيم يختبر من بعد ذلك مدى ما عليه

---

(١) هذا الأمير هو ابن أخى عبد الله خان .

أصحابه من شجاعة بأن أخذ يتحسس بيده قلب كل واحد منهم فى اجتماع سرى ، ثم أجريت القرعة بينهم لاختيار من يعهد اليه بهذه المهمة .

ووقع هذا القتل فى شهر يوليو ، وفيه كان عبد المنعم لايسافر الا ليلا اتقاء الحر . فكمن له المتآمرون فى الظلام ، فى ممر يقع بين اراتپه وزمين على طريق عودته من سمرقند . وترك المتآمرون قسما كبيرا من الجيش يعبر هذا الممر ، حتى اذا بلغ الخان ، ومعه حملة المشاعل ، أضيق موضع فيه ، وكان لايتسع بالكاد لمرور فارسين معا ، انهالت عليه السهام فسقط على الأرض بلا حراك . هنالك برز من اختاره المتآمرون من بينهم فقطع رأسه وقتل مرافقه الذى كان يسير فى اثره .

حدث هذا كله فى سرعة خاطفة ، فلم يكتشف القوم الحادث الا عند الفجر ، حين أقبل بعض من كان قد ضل الطريق من جند المؤخرة فوطئوا جثث القتلى ، فلفت نظرهم تلك الجثة المقطوعة الرأس وعرفوا فيها أميرهم من ثيابه .

هكذا انتهت تلك الأشهر الستة التى حكم فيها عبد المنعم خان (١) ، ذلك الحاكم الذى عرف ، مع قدرته ، بالقسوة والصلابة والميل الى ارتكاب المظالم . وبه ختم حكم الشيبانيين الذين ظلوا على عرش بلاد ما وراء النهر مائة عام كاملة . ذلك أن هذا الأمير كان آخر الأحياء من أبناء عبد الله . ولا يستعصى على الأذهان تمثل مدى الفوضى التى عمت البلاد من بعده . ذلك أن أرملة عبد الله أتت بولد آخر له كانت لاتظهره من قبل الا فى ملابس الفتيات وأرادت أن تجلسه على العرش . وكان هناك بالفعل من لايعارض فى ذلك لولا أن شاع الانقسام بالبلاد الى

---

(١) كان لعبد المنعم خان بعض الفضل اذ استمر فى تعمير بلخ . والظاهر أن كيستن قرا سلطان الذى كان يحكم هناك من قبله كان قد اكتفى بتجديد القلعة التى بنيت أصلا زمن أبى سعيد ، وتعرضت من بعد ذلك اثنتا عشرة مرة للدمار حتى جددها هو آخر الأمر . واهتم عبد المنعم كذلك اهتماما كبيرا بهذه المدينة وكان الخراب يشمل نصفها حين استولى عليها ، فلم يمض من ذلك ستة أشهر حتى كان أغلبها قد تجدد ، فالقباب الجميلة التى يكسوها القيشانى ومدخل القصر الدقيق وسوق بابا جانباذ وضريح على ، هذه جميعا هى من آثاره (تاريخ مقيم خانى) .

درجة استحال معها تحقيق هذا الأمر . فقد ذهب فريق ثان ينادي بتنصيب طفل لعبد المنعم فى الثانية من عمره ، فى حين رغب فريق ثالث فى المناداة بالشيخ پير محمد خان وكان آخر من بقى على قيد الحياة من اخوة عبد الله ، وكان ادمانه على تعاطى الأفيون قد حط من قواه العقلية ، كما ناصر فريق رابع صهرا لعبد الله . وكان كل فريق من هؤلاء يكن أشد العداء لأخيه .

وفيما كانت هذه الأحزاب فى صراعها يحاول كل واحد منهم أن يقضى على من عداه ، كان الأعداء عند الحدود يترقبون الفرصة المواتية لاسترداد ماكان عبد الله قد سلبه منهم من أراض .

كان الشاه عباس أول من شرع فى ذلك بتشجيع من منجمه الذى تنبأ له بنبوءة مواتية ، فزحف فى أربعين ألفا من الشيعة المتعطشين للدماء استولى بهم فى أول هجمة له على سبزاور ومشهد ثم على هراة بعد أن أنزل بحشود الأوزبك بها هزيمة حاسمة فى معركة دامية . هذا فى حين تمكن أمير القزاق (١) تيكل خان فى الشمال من دخول اقليم طشقند ثم تقدم من بعد ذلك ومعه جموع من القالموق والقرغيز والمغول حتى بلغ سمرقند . واستطاع ايشيم بى قائد سمرقند أن يصد الغزاة عن موقعه آخر الأمر ، ولكن بعد أن سقط أربعة من الأمراء الشيبانيين (٢) وكثير من

(١) القزاق (وهم الذين ندعوهم خطأ بالقرغيز) ظهروا أول ما ظهروا ببلاد ما وراء النهر كقبيلة مستقلة ، وكان عليهم تيكل سلطان ، ويذكره لوشين باسم توكل سلطان وذلك فى كتابه
Lewchine, Description des Hordes et des Steppes Kirghiz-Kazaksp141
(جموع قرغيز — قزاق السهوب) والظاهر أن القزاق كانوا مصدر تهديد فى السهوب عند الشمال من سيحون من قبل ، فقد تلقى ايفان العظيم عام ٩٤١ (١٥٣٤) من مبعوثه دانيلاجوبين تقرير يقول فيه : « والزاق ياسيدى
٩٤١ (١٥٣٤) من مبعوثه دانيلاجوبين تقرير يقول فيه : «والقزاق ياسيدى
على مراس شديد ، وقد حاربوا طشقند وهزموا أميرها (Lewchine p 140) وقد بعث تيكل برسل عديدين الى القيصر فيدور فى موسكو ، والغالب انه كان أقوى سلاطين القزاق » .

(٢) هذان هما هزار سلطان وپير محمد سلطان ولدا أوزبك خان ، ثم محمد قلى سلطان بن سليمان سلطان وحفيد جانى بك ، وأخيرا ابن لباينده محمد سلطان .

اتباعهم . وهكذا بانت هذه البلاد أبعد من أن تعرف طريقها الى السلام الذى تزعزعت أسسه بانقراض أسرة شيبانى .

قبل أن أتناول تاريخ الأسرة التى جاءت من بعد ذلك ، وهى تاسع الأسر التى حكمت بلاد ماوراء النهر ، أحب أن أعطى القارىء فكرة عن الحضارة فى عهد الشيبانيين المليء بالأحداث ، وهى فترة تم فيها فصل العالم الاسلامى الشرقى عن العالم الاسلامى الغربى ، وصار للاسلام طابعه الخاص الذى لانزال نراه حتى اليوم فيما بين حدود ايران الشرقية والصين . ولم تبلغ الثقافة عند الشيبانيين مابلغته عند التيموريين ، فهؤلاء المحاربون الأجلاف ، الذين كانوا يعتقدون بأن فى الحجر السحرى (يادا طاشى) (١) قوى كامنة تسيطر على العناصر وتشفى الأمراض وتضمن النصر فى الحرب ، كانوا على استمساك شديد بدينهم وطاعة عمياء لمشايخهم . ففى عهد الاحتلال المغولى صارت السلطة الفعلية بالبلاد الى أيدى فئة قليلة من مشاهير الشيوخ كان لهم سلطان روحى كبير حتى استطاعوا أن يقفوا فى وجه أكثر الحكام استبدادا . ومارسوا ذلك مرة أخرى عند الشيبانيين فلم يتهافت الأهلون وحدهم على استجلاب رضاء رسل الحكمة الآلهية هؤلاء فحسب ، بل لقد تنافس كذلك الأمراء فى ذلك بدورهم فيما بينهم . وسواء أكان مرد ذلك الى الوهم أم خوف الرأى العام ، فمن الواضح الجلى أن أقوى أمراء هذه الأسرة ، لم يكونوا يظهرون احترامهم لهؤلاء الشيوخ فحسب ، بل كانوا كذلك يبدون لهم

(١) كان هذا هو الاعتقاد الذى ساد فى واقعة جام بخاصة . ويذكر بابر فى سيرته ص ٤٥٠ كيف نهض السحرة الى تسخير هذا الحجر عند شروق الشمس لاشاعة الفوضى فى صفوف الفرس . وبرغم مرور ثلاثة قرون على اسلام هؤلاء القوم (الصحيح ، أكثر من خمسة قرون : المترجم) فلا يزال لبدو آسيا الوسطى اعتقاد كبير فى هذا الحجر ، حتى ليحمله بعض قواد القرغيز والتركمان معهم فى حرص ، ويرون انه أنجع علاج للسع الزنبور أو العقرب . وتجد تفصيلا أوسع عن هذا الحجر فى كتاب كاترمير عن تاريخ المغول : Quatremère : History of the Mongolians

أعمق آيات الخضوع والتبجيل . وكان من بين هؤلاء شيخان لهما مكانة خاصة حتى كانا موضع التقديس فى زمنهما .

هذان هما مخدوم أعظم وقاسم شيخ عزيزان . أما مخدوم أعظم ، وهو الذى كان يعرف عادة باسم مولانا حقى الكاشانى ، فقد تتلمذ فى عهد التيموريين على الصوفى المشهور خواجه أحرار . ويقال انه كان يعيش عيشة زهد تام حتى أتى بالكرامات . وكان يبذل له كل أمراء عصره الاحترام خوف غضبه . وقد مات بسمرقند فى الحادى والعشرين من المحرم عام ٩٤٩ (١٥٤٢) ، وقبره على مسيرة ثلاثة أميال من دهبيد (١) . أما قاسم شيخ عزيزان فكان من تلاميذ خداداد ، وقد اشتهر كسابقه بزهده أكثر مما اشتهر بعلمه . ويظهرنا على ماكان يتمتع به من التوقير ، فى أجلى صوره ، ما يحكى عنه بأنه كان يعيش فى كرمينه فى الوقت الذى كان فيه عبد الله خان يحارب جوانمرد أمير سمرقند ، وحدث أن خرج للقاء عبد الله ، وكان على مودة معه ، فما ان ابتعد عن المدينة قليلا حتى شاهد ركبا طويلا وعلى رأسه رجل يسير عارى الرأس وحول رقبته حبل مقوده بيد فارس ، ولدهشته تبين فى هذا المخلوق ، الذى يمشى ذليلا ، الأمير القوى عبد الله . وحين سأله عما دعاه الى سلوك هذا المسلك أجابه بأنه انما أراد بذلك أن يكفر عن ذنوبه فيسير من خان رباط الى رباط الشيخ على هذه الصورة . هنالك اشتد تأثر الشيخ بذلك فأركب الأمير على فرسه بنفسه وألبسه قباءه وعادا معا الى كرمينه .

ولقد رام عبد الله من وراء ذلك أن ينال مساعدة الشيخ فى حملته على سمرقند ، وقد تم له بالفعل ما أراد واستولى على هذه المدينة . ومات الشيخ عزيزان بعد هذا الحادث بثلاث سنوات تقريبا فى عام ٩٨٩ (١٥٨١) .

كانت دراسة علوم الدين هى الدراسة الوحيدة الرائجة فى ذلك الوقت . وكان من بين مشاهير العلماء فى ذلك مولانا عصام الدين بن

---

(١) تجد تفصيلا عن هذا الموضوع فى كتابى « رحلات فى آسيا الوسطى » Travels in Central Asia ص ٢١٤

عربشاه الذى عاش أول أمره ببلاط حسين ميرزا فى هراة ثم رحل من بعد ذلك الى بخارى ، وكان عبد الله يخصه بعطف شديد . وكان هذا الأمير مع كلفه بالحروب يميل كذلك الى الاشتغال بالشعر وقرضه . ويقال انه اختلط عليه ذات يوم فهم قصيدة من الشعر العربى فسأل فى ذلك عصام الدين ، فتلقى منه بعد ذلك بساعات قليلة ستة وخمسين وستمائة تفسير لكل بيت منها . وقد روى هذه القصة المؤرخ المبالغ سيد راقم . ومات هذا العالم عام ٩٤٣ (١٥٣٦) بسمرقند . وأشهر كتبه حواش كتبها على تفسير القاضى وعلى أشعار جامى الصوفية .

ومنهم كذلك مولانا صادق أحد علماء التفسير فى سمرقند ، وقد حج الى البيت الحرام مرتين وكتب شروحا قيمة على كتب الفقه ، كما تناول بالشرح كذلك قصائد صعبة ، وقضى آخر سنوات عمره فى كابل ببلاط حكيم شاه (١) حتى وافاه أجله عام ١٠٠٧ (١٥٩٧) .

ومن بين الشيوخ المشـــهورين نذكر كذلك ملا ضياء الدين ، وهو فقيه توفى عام ٩٧٣ (١٥٦٥) ، وخواجه جلال جويبرى ، وهو من تلاميذ مخدوم أعظم ، وكان له مقام كبير اذ كان من المتصوفة ومن رجال الفقه والتفسير .

وكانت التركية هى اللسان الغالب حتى لنرى الشعراء ابتداء من ذلك العهد ومابعده كلهم من الترك . وأظهرهم جميعا كان الأميرالأوزبكى محمد صالح ، وكان أبوه أميرا على خوارزم الى أن انتزعها التيموريون منه . وقد دخل وهو يافع فى خدمة شيبانى . وهو صاحب «شيبانى نامة» (شيبان ياد) وهو شعر حماسى ممتاز حتى ليرفعه البعض به فوق مرتبة نوائى (٢) . وفيما عدا ذلك كان أكثر شعراء هذا العصر مجرد ناظمين ، وكانوا ممن يؤرخون شعرا .. وقد حفظ التاريخ لنا من بينهم اسمى أمير

---

(١) وهو من أمراء الدولة المغولية الهندية **(المترجم)**

(٢) آمل أن أتمكن من نشر هذا الشعر الجميل قريبا مع ترجمة له. وقد ذكر فليجل هذا الكتاب فى فهرس المخطوطات بدار الكتب الامبراطورية بمدينة فينا دون أن ينتبه الى اسم مؤلفه .

على كاتب وملا ميرك وكانا شاعرين خاصين للشيبانيين الأول ، ثم ملا مشفقى الذى كتب على منشآت عبد الله المختلفة تاريخا لها ، كما نظم كذلك جملة من الغزليات والقصائد والنكات ، وتوفى عام ٩٩٤ (١٥٨٥). أما قاضى باينده ، وهو من زمين ، ومن أئمة اللغة ، فقد ألف ما يلفت النظر، اذ نظم قصيدة من ثمانية عشر بيتا فى مدح الوزير قل باباكوكلتاش التزم فيها الحروف غير المنقوطة (١) . وآخر من نذكرهم من هؤلاء شيرين خوجه وكان شاعرا فى زمن عبيد الله ، ثم خير حافظ وكان مطربا وعازفا ببلاط عبد الله ، وتوفى عام ٩٨١ (١٥٧٣) .

وآثار العصر الشيبانى فى المعمار تدين بوجودها ، بالاضافة الى ميل عبد الله اليها ، الى الروح الدينية والميل الى التصوف ، وكانت هذه تسود ذلك العهد كله . فأقيم بذلك كثير من المساجد والخانقاهات والمدارس والأروقة وأضرحة الأولياء . ونذكر من بين هذه المنشآت مسجد بناه فى سمرقند الوزير كوكلتاش عام ٩٣٤ (١٥٢٧) أضاف اليه كچكونجى خان منبرين من الرخام الأبيض .

أما مدرسة عبد الله ، التى لاتزال قائمة حتى اليوم ، فلها مدخل كبير تعلوه آى من الذكر الحكيم كتبت بالميناء ويزيد ارتفاعها على القدمين حتى لتقرأ بوضوح من مسافة بعيدة . كما جدد عبد العزيز خان مسجد المغان ، وكان فى أصله بيتا من بيوت النار ، وبنى رباطا عند مثوى خواجه بهاء الدين على مسيرة ميل ونصف الميل من بخارى . ونذكر أخيرا المدرسة التى بناها أبو سعيد بسمرقند والأخرى التى أقامها الثرى ميرعرب ببخارى ، وهى التى تعد أفخم مدرسة بآسيا الوسطى كلها .

وهذه الصورة التى رسمناها فيما سبق لا تعد شيئا مذكورا بالقياس الى مظاهر البذخ والثراء ومظاهر الحضارة التى كان عليها الصفويون بايران ، أو بالنسبة الى الأهداف السامية التى كان يذكيها فى الهند أمير

---

(١) يعرف هذا الشعر باسم « بى نقط » ومن عجب ان نرى الشرقيين ولديهم من طول الاناة والوقت ما يمكنهم من كتابة كتاب باكمله على هذا النحو .

من أصل تورانى هو آكبر شاه التيمورى ، الذى أقام له دولة كبيرة على السند والكنج ، وظل يحكم هناك ، تحوطه العظمة والمجد ، مدى خمسين عاما ، درس فيها المسيحية ومذاهب براهما دراسة باحث ونذر نفسه للعمل لصالح شعبه (١) .

---

(١) هو أكبر شاه حفيد بابر ، وكان قد رقى العرش عام ١٥٥٦ وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، واظهر فى شبابه رغبة فى الاطلاع على المسيحية (وقطع بذلك الكولونيل يول فى كتابه (H. Yule. Cathay and the Way Thither vol II. p. 531) وقد استقبل عام ١٥٧٨ المبعوث البرتغالى كابرال من جوا (كانت مستعمرة للبرتغال بساحل الهند الغربى)

وحين سمع عن قس مجتهد يعيش فى البنغال ارسل اليه ليناظر المسلمين فى حفل عام . ومما يذكره الجزويت من أنه اصدر أمره عام ١٥٩٠ بهدم المساجد والمآذن ، هو هراء على ما يظهر . والغالب الذى لا شك فيه أنه قد قدمت الى بلاده بعثة من المبشرين المسيحيين بناء على دعوة ملحة منه (**المؤلف**)

أصل المسألة أن السلطان أكبر كان كلفا بالمعرفة منذ نشأته ، وأدى به حرصه على تأليف مختلف شعوب الهند من حوله الى دراسة عقائدهم الكثيرة . وكان يلاطف رجال الأديان الأخرى من بوذية وزرادشتية وچينية ومسيحية وغيرها حين كانوا يفدون اليه ، حتى مارس بعض طقوس الزرادشتيين معهم حين ادعوا له بأن من يمارسها تصير الشمس وفق هواه ، وأظهر التبجيل للانجيل حين عرضه المسيحيون عليه، وأمربترجمته الى الفارسية . وكان من أثر ذلك أن أخذ كل فريق منهم يدعيه لنفسه . وعن له من بعد ذلك ، وقد بان له أن هذه العقائد جميعا فيها الكثير من نواحى الخير المشترك بينها ، ان يعقد مؤتمرا للأديان عله يصل بذلك الى علة الفروق بينها ، ولكن رجال الأديان بدلا من أن يدلى كل واحد منهم بحججه ويطلع أقرانه على فضائل معتقده أخذوا يتبادلون معا أفظع الشتائم واشد اللكمات . ولئن لم يسفر هذا المؤتمر عن تحقيق ما كان يرجوه أكبر منه ، فقد أدرك هذا السلطان قبل الفلاسفة المحدثين بزمان طويل — على حد قول الفيلسوف الفرنسي جوستاف لوبون فى كتابه « اختلال التوازن العالمى » — ان أمور العقائد لا تخضع للعقل الصرف ، والثابت المعروف على كل حال أن أكبر مات على اسلام صحيح . وتفصيل ذلك تجده فى كتابى « تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية » ج٢ ص ١٢٨ — ١٤٣ (**المترجم**)

الفصل الخامس عشر
الاشترخانيون الأول

١٠٠٦ (١٥٩٧) — ١٠٩٩ (١٦٨٠)

لابد لنا من أن نستقرىء أخبـــار أكثر من ثلاثة قرون خلت لنبلغ بذلك الى بعض مايفيــد عن أصـــل أسرة الأشـــترخانيين التى خلفت الشيبانيين ببلاد ما وراء النهر فظلت تحكم هناك قرابة قرنين من الزمان .

لم يكد الأمير تيمور يطرد أعقاب چغتاى عن عرش سمرقند ويقضى على الاحتلال المغولى لهذه البلاد حتى استنجد به أمير من بيت جوجى ، ليقوم عند شواطىء الفولجا عندئذ بعمل شبيه بما قام به فى بلاده . ولم يكن تختمش ، وهو فى فورة خصومته مع أعدائه أوروس خان وأبنائه ، ليقدر على وجه اليقين ، مدى ماســوف يتعرض له من أخطــار بسبب استنجاده هذا بأمير سمرقند .

فقد انتصر تيمور لهذا الأمير أول الأمر ثم لم يلبث أن انقلب عليه من بعد ذلك وحاربه . وقد انتهت حياة تختمش بمقتله (١) بعد اقبــال وادبار ، وتجرد خلفــاء أوروس من كل ســلطان ، وتشتت شمل الأمراء من بيت جوجى جميعــا بتدخل تيمور فيما بينهم وانفرط عقدهم ، وقد كانوا من قبل عصبة متماســكة ، على ضــعفهم . وكان من بين هؤلاء الأمراء الذين اضطلعوا مع جموعهم بدور هام فى التاريخ ، نتيجة لهذه

---

(١) تقول المصـــادر الروسية ان تختمش قتل غير بعيــد من سومن بسيبيريا ، وذلك بأمر شادى بك خليفة قتلق تيمور

Hammer, Geschichte der Goldenen Horde p 366

الثورات ، أمير يدعى قتلق تيمور (١) كان من أحلاف سلطان سمرقند وقد طار صيته على أثر انتصاره عند خيوه عام ٨٠٢ (١٣٩٩) على تختمش والجيش البولندى ، وكان من أحلافه . ومع هذا فقد اضطر خلفاء قتلق تيمور من بعد ذلك الى الانسحاب الى خانية استراخان أو اشترخان (٢) التى تقع فى حوض الفولجا الأدنى . وهذا الفرع من خلفاء چنكيز الذين عرفوا بالاشترخانيين ، نسبة الى قصبة حكومتهم ، عاشوا فى الواقع مدة قرنين من الزمان فى ظلام حتى انفرط عقدهم ، أو حتى اضطرتهم فى الغالب قوة دوق روسيا الأكبر الصاعدة الى أن يرحلوا عن ديارهم . فهاجر يار محمد (٣) ومعه ابنه جانى خان الى بلاد ما وراء النهر حيث رحب بهم الشيبانى سكندر خان وكان يحكم اذ ذاك فى سمرقند . وقد كان الشيبانيون يفتخرون دائما بنسبهم الى چنكيز .

وأراد سكندر خان أن يعبر لأقاربه الغرباء هؤلاء عن مبلغ حفاوته بهم فزف الى جانى خان زهره هانم احدى اخوات عبد الله خان المشهور.

---

(١) تختلف المصادر التى استطعت الرجوع اليها فى أصله ، ففى تاريخ مقيم خانى نجد أن أباه هو بغا سلطان بن أوروس بن جوجى بن چنكيز . فى حين يذكر أبو الغازى ، ص ١٠٠ ، نسبه كالآتى : قتلق تيمور ابن تمغان بن أباى بن أوزتيمور بن تغاى تيمور بن جوجى بن چنكيز ، ويختلف هامر بدوره عن سابقيه وذلك فى كتابه « أنساب ذرية أبناء أولوس جوجى الأربعة عشر » :
((Genealogy of the Descendants of the fourteen Sons of Ulus Djudji
حتى لا يمكن أن نسلم بما ادعاه من نسب تقلق تيمور .

(٢) قد نرد هذه الكلمة برسمها الحاضر الى « أزدرخان » فتكون على هذا فارسية الأصل . والأرجح أن نسبتها القديمة الى حاجى ترخان هو الأصح . . ذلك أننا نلاحظ فى مخطوطات آسيا الوسطى أن هذه الكلمة تكتب دائما بشين وتاء أى شترخان .

(٣) نجد كذلك فى نسب يار محمد خان اختلافا بين ما ذكره مؤلف تاريخ مقيم خان وما ذكره أبو الغازى . فيذكر الأول أن نسبه هو على الوجه الآتى :

قتلق تيمور ثم بهادر خان ثم محمد خان ثم هواك ثم نفشلان (بدلا من منفشلاق) ثم يار محمد ، فى حين يذكر الثانى ، وهو الأصح احتمالا، قتلق تيمور فعلى تيمور فتيمور قتلق فتيمور سلطان فمحمد خان فجوراق فمنجشلاق فمحمد سلطان فجان أو جانى سلطان بالأصح . وكان الواجب أن يأتى بيار محمد خان بين الاسمين الأخيرين .

وكان يار محمد يشتهر بين الناس بالأشيب لتقدمه فى السن وقد وافته منيته عقب استقراره ببلاد ما وراء النهر بقليل . أما جانى خان فقد شارك عبد الله فى حروبه زمنا طويلا فكافأه على ذلك بدوره بأن عهد بحكومة نيشابور الى أكبر أبناء أخيه وكان ممن برزوا فى حرب عبد المنعم مع الفرس . وكان أولاد جانى خان هم : دين محمد وولى محمد وباقى محمد .

وحين قتل عبد المنعم فى زمين وصارت بلاده من بعده نهبا للفوضى تقدم بعض أصحاب النفوذ فى البلاد فعرضوا التاج على جانى خان الشيخ ولكنه اعتذر عن قبول هذا التشريف وقال للقوم « برغم أنى من نسل جنكيز الا أن ملك بلاد ما وراء النهر يجب ، على ما يبدو لى ، أن يعهد به الى من يكون فى الوقت نفسه من الشيبانيين » . ولما كان يشير بعبارته هذه الى أبنائه ، فقد نودى بابنه الأكبر دين محمد خانا ، وأخذ الناس يترقبون فرصة قدومه اليهم من خراسان بفارغ الصبر . وقد بينا فى الفصل السابق أن ماكان يجرى من حوادث بتلك الولاية قد منع دين محمد من مبارحة ميدان نشاطه برغم أنه هو نفسه كان جد راغب فى ذلك . ذلك أن الشاه عباس حين رأى نفسه وقد خلص من أشد أعدائه بموت عبد الله وعبد المنعم ، انطلق يطارد الأوزبك حتى أخرجهم من أقوى مواضعهم بخراسان وأنزل بهم هزيمة حاسمة . ويقال ان دين محمد سقط فى هذا القتال ، كما تقول رواية أخرى بأنه قتل وهو بسبيل الفرار(١) وقد غنم المنتصر معسكره ومتاعه كله . وبلغ من شيوع الاضطراب فى صفوف الأوزبك عندئذ أن لم تتمكن زوج محمد خان نفسها من الهرب لولا شجاعة خادم مخلص يدعى حقى ياسول جازف بحياته فى سبيل خلاصها . فقد حمل هذه السيدة على فرسه عجلا وقد أخفى ابنيها ، الأميرين امام

---

(١) يفصل كتاب « روضة الصفا » واقعة قتله فى هذه المعركة التى وقعت عند هراة بما يكاد يبعد الشك عن روايته ، فى حين يذكر تاريخ مقيم خانى أن دين محمد بعد أن نزلت به الهزيمة راح يضرب فى الأرض بمنازل بدو قراى على مقربة من أندخوى فعرفه القوم بثيابه الملكية وقتلوه . والظاهر أن الوقوف على حقيقة هذه المسألة هو فى الواقع من الصعوبة بمكان ، ذلك ان رواية مقتله بأيدى بدو قراى يرجع سببها الى الحملة الانتقامية التى كان قد شنها عليهم باقى محمد خان .

قلي ونظر محمد قلي ، فى غــرارتين على جانبى السرج ، ثم أطلق العنان لفرسه فى سرعة مذهلة . وأصابت رصاصة من رصــاص العدو احدى الغرارتين ، حيث كان نظر محمد ، ونفذت منها الى قدمه فتخلف عنها عرج لازمه طوال حياته .

هكذا فقدت بخارى أميرها الذى كانت قد اختارته عليها لتوها . على أن أخويه كانا قد استطاعا أن يشقا طريقهما هربا عبر جيحون ، فولى أكبرهما ، وهو باقى محمد خان ، عرش بلاد ما وراء النهر عام ١٠٠٧ (١٥٩٨) فى حين أقطع الأصغر ، وهو ولى محمد خان ،ولاية بلخ مع الاقليم الذى يقع على ذلك الجانب من جيحون . ولم ينته تآزر هذين الأخوين فى الحكم الى ماكان يرجى منه فى اقرار الأمور فى البلاد اقرارا حاسما سريعا ، واتقاء خطر التفسخ ، الذى لم يكن يتهددهم على أيدى الشاه عباس وحده بل وبسبب خروج بعض أمرائهم عليهم كذلك . ولئن كان السلام سرعان ماعاد يرفرف على بلاد ما وراء النهر من جديد بعد ابعاد خطر الأمير القزاقى تيكل خان عنها ، فان مؤسسى هــذه الأسرة الحاكمة الجديدة كان عليهما أن يواجها عند هذا الشاطىء من جيحون عدوا أشد خطرا يتمثل فى ذلك الشاه الصفوى الكبير .

كانت بلخ قد صار لها أهمية عظمى عند الأوزبك هى وطخارستان وبدخشان التى تتصل بها ، وكانت هذه جميعا تعد منذ أيام السامانيين جزءا مكملا لبخارى . ففى المحل الأول كانت قبــائلهم قد استقرت على هذا الجانب من النهر ، أى عند قندز وآقجه وشبورغان واندخود (١) ، وفى المحل الثانى فقد كان عليهم أن لايغفلوا عن حماية مقام على المزعوم(٢)

---

(١) وهى أندخوى الحالية ، وبالقياس الى القواعد الصوتية فى اللغة التركية فغالبا ما تنطق الياء تاء حين ترد آخر الكلمة . ولفظ أندخو هو مغولى ومعناه « السعادة الشاملة » .

(٢) يرد فى تاريخ سيد راقم القصة التالية عن قبر على المزعوم هذا : فى زمن السلطان حسين بيقرا ذهب أحد علماء التاريخ الى أن قبر على بن أبى طالب قد عثر عليه فى قرية خواجه خيران غير بعيد من بلخ وذلك فى عهد سنجر السلجوقى . وحين أخذوا ينظفون ما حوله ظهرت لهم لوحة مستديرة عليها هذه الكتابة « هذا قبر أسد الله أخى النبى حبيب الله =

سيد فرسان الاسلام ، من أن يقع بأيدى الشيعة . ولم ينصرف الشاه عباس الى اقرار الأمور داخل بلاده دون الاهتمام بحدوده الشمالية الغربية ، حتى استولى على هراة . ولم يؤد سقوط هذه المدينة بأيدى الفرس الى اثارة مخاوف بلخ اذ ذاك فى كثير . ذلك أن محمد ابراهيم ، أمير هذه المدينة ، وكان من الشيبانيين ، انما كان قد بلغ الى حكم مدينته بعون من الفرس أنفسهم . على أن حياة المجون التى كان يحياها هذا الأمير أثارت سكان بلخ عليه فانطلقوا يرحبون بولى محمد حين أقبل عليهم ، فظاهروه فى الاستيلاء على « أم المدائن » ، وهو اللقب الذى كانت تشتهر به بلخ اذ ذاك ، برغم ما كانوا عليه من ميل الى الفرس وكراهية للأوزبك .

وبعد أن تم لولى محمد الاستيلاء على القلعة سيق ولى الفرس المنبوذ الى الموت فى حين تمكن كبار قواده من الفرار الى أصفهان وقد حملوا معهم تلك الجواهر التى كان عبد المنعم قد انتزعها من مقام الامام الرضا من قبل ، فقدموها الى شاه فارس جلبا لرضائه . وأعيدت هذه الحجارة الكريمة الى مكانها السابق بضريح ولى خراسان فى احتفال مهيب . ولبث الأوزبك فى أماكنهم عند حدود قزوين وببلخ يجتنبون كل اشتباك مع خصومهم ، حتى التقوا بهم آخر الأمر عام ١٠١١ (١٦٠٢) فى حرب عنيفة ، وذلك حين برز باقى محمد خان ليثأر لمقتل أخيه ، وكانت قبيلة قراى التى تنزل عند قندز هى التى قتلته على مايقال . ولا تزال قبيلة قراى أوقراتركمان (١) هذه تسكن فى الوقت الحاضر هذا الموضع بآسيا الوسطى . والملاحظ كذلك أنها لاتزال على عداء مقيم مع جيرانها

= على » . وحين بلغ ذلك الخبر السلطان بيقرا ذهب عام ٨٨٥ (١٤٨٠) فى جمع كبير الى ذلك القبر المكتشف ، فكان أول من حج اليه ، وبمضى الزمن عمر ذلك المكان بالمنشآت الفخمة ، وان لم يبق منها اليوم الا آثار قليلة فى « مزار شريف » ، ولا يشك سكان آسيا الوسطى أدنى شك فى نسبة هذا القبر لصاحبه .

(١) يشبه قرا ــ تركمان هؤلاء قبائل يوموت شبها قويا فى بنيانهم وملامحهم ، وتجد الحديث عنهم فى كتابى

Travels in Central Asia pp 237, 304

من الأوزبك والتركمان حتى اليوم . وبرغم أن مقتل دين محمد كان يعوزه الدليل القاطع فى ذلك ، فان ماكان يقوم بين تلك القبيلة والفرس الشيعة من علائق المودة المؤكدة كان سببا كافيا ، بالاضافة الى صلتهم بمقتل هذا الأمير ، لأن ينطلق باقى محمد خان الى قتالهم ويقتل كل من تصل اليه يده منهم دون شفقة أو رحمة . وسارع فريق من محاربى تلك القبيلة الى الامتناع فى حصن قندز واستماتوا فى الدفاع عنه ، على أن عدوهم مالبث أن استولى عليه عنوة ونسف أغلب جدرانه فقتل مئات من حماته تحت الأنقاض ، وسيق الى الموت كل من قد بقى منهم على قيد الحياة . وبهذه الواقعة قضى على قوة قبيلة قرا التركمانية فلم تستطع من بعد ذلك أن تعود الى سيرتها الأولى أبدا .

تأثر الشاه عباس أشد التأثر لدى سماعه بتلك النقمة التى أنزلها حاكم بخارى بأعدائه ، على ماكان ينتظر منه ، فخرج من مرو بجيشه فاتجه الى آقچه لنجدة حلفائه ، وفى خطته أن يؤدب الاشترخانيين فى بلخ أولا ، ثم يعبر جيحون من بعد ذلك ويزحف الى بخارى . غير أن نزوع الأوزبك بطبيعتهم الى القتال مالبث أن دفعهم بدورهم الى لقاء أعدائهم . ولم يكد الفرس يتقدمون كذلك حتى ضريح بابو عبد الله جوار بلخ حتى تفشى الوباء فيهم فأقعد أكثر من نصف قواتهم . وفيما هم على هذا الحال تعرضوا لهجوم خصومهم من كلا الجانبين فنزلت بهم هزيمة شديدة لم يستطع الشاه عباس نفسه أن ينجو منها الا بمشقة هو وألوف قليلة من أتباعه صحبته فى فراره (١) .

وكانت هذه الواقعة أهم حرب خاضها باقى محمد فى حكمه . وقد تعرض هذا الأمير لخروج ابن أخيه «بديع الزمان» عليه عام ١٠١١ (١٦٠٢) حيث اعتصم بمنطقة قراتكين الجبلية ، ولكن ثورته قضى عليها بسقوط

---

(١) لا تحاول المصادر الفارسية أن تخفى الكارثة التى انتهت اليها هذه الواقعة . وتقول روضة الصفا أن شدة الحر والظمأ قد أرهقا جند فارس الى درجة شديدة فضلا عن انه كان من الصعب دفع البدو الذين انقضوا على الفرس من كل نواحى الصحراء على حين غرة .

« مسجه » معقله القوى . كما قضى كذلك على ثورة محمد زمان حاكم بدخشان فى مهدها ، وكان أبوه قد قتله الثـائر بديع الزمان من قبل .

وبصرف النظر عن هذه الحوادث فان عهد باقى محمد خان يعـد عموما عهد سلام ووئام . وقد حل به المرض عام ١٠١٤ هـ بعد أن جلس على العرش سبع سنوات ، وما ان شاع هذا الأمر حتى قدم القزاق فبدأوا يغيرون على سواد البلاد وينتهبونه . وكان القـوم ، والقلق مسـتحوذ عليهم بسبب مرض أميرهم ، تتعلق أنظارهم بوليهم ذائع الصيت الشيخ علم عزيزان ينتظرون منه أن يرد على الأمير صحته بما عرف عنه من قوة خارقة . وكان للبخـاريين ، ولا يزالون حتى اليوم ، اعتقـاد بالغ فى الغيبيات . وأشار الشيخ على مريضـه بأن يفيـد من هواء جيحون ، فحمل على هودج وضع على سفينة ظلت تجوب النهر به لعدة أيام . ولم ينفعه ما أشار به الشيخ عليه من علاج فوافاه أجله بعد ذلك بقليل آخر رجب من عام ١٠١٤ (١٦٠٥) .

وخلف ولى محمد خان أخاه وكان قد قدم اليه من بلخ ليعوده . وتم له هذا الأمر بعد أن هزم ابنى الأمير الراحل عند ترمذ وكانا قد ثارا فى وجهه .

وكان ولى خان محمد هذا على خلق يليق بأمـير لولا ماكان من ادمانه على الشراب وما جنح اليه رجاله من الاستبداد الشديد حتى أخذت القلوب تنفر منه منذ بداية حكمه . فمما يروى فى ذلك أن وزيره شاه بك كوكلتاش ، وكان قد خلفه على حكومة بلخ ، كان يعمد الى نزع رءوس المجرمين من أكتافهم بربطهم الى الثيران ، ثم اطلاقها بهم ، أو كان يلقى بهم أحياء فى الزيت وهو يفور ، أو يأمر فتهرأ جلودهم بمحـكات من الصوف . وقد أدى اشاعة هذه القسوة والمظـالم ، مع مقتـل ثلاثة من وزراء (١) العاهل السابق دون وجه حق ، الى نهوض حزب معارض قوى

---

(١) كان هؤلاء هم دوستم أرغون وشاه كيجيك وحاجى نيمـان ، وكانت لهم مكانة مرموقة زمن عبد الله . وقد رفع باقى محمد خان كل واحد منهم الى مرتبة أمير الأمراء فى عهده . انظر تاريخ سيد راقم .

نزعمه الأميران ولدا باقى خان سالفا الذكر . هنالك اختار القوم امام قلى خان أميرا عليهم ثم أعلنوا ولى محمد خان بانتزاع العرش منه ، وكان اذ ذاك يتسلى بالصيد جوار قارشى . ولم يكن هذا الأمير ليأمل فى العودة الى بخارى وقد صار بلا جند وبلا موارد ، وهاهو ذا خصمه قد جلس على العرش . وكان وزيره قد انصرفف بدوره عنه وهو الذى طالما تفنن فى صب جام غضبه عليه ، فلم يكن أمامه الا أن يفر الى بلاد فارس ويلوذ بالشاه عباس عدو أسرته القديم ، وليس من الصعب أن ندرك أن الشاه الصفوى قد عمل على أن يفيد من هذا الخلاف الذى قام بين أبناء العشيرة الواحدة ، فرحب بهذا اللاجىء الاشترخانى أبلغ ترحيب . وقد خرج الشاه عباس من أصفهان فسار ثلاث ساعات الى دولت آباد ليستقبل ضيفه ، فحياه وعانقه فى مودة أبوية ، كما اصطف عشرون ألفا من الفرسان لتحيته حتى دخل المدينة ، وتزينت الدور والحوانيت والأسواق جميعا احتفاء بقدومه ، وأنشد الشعراء القصائد مرحبين به .

ولا نعجب بعد هذا الاستقبال الفخم حين نرى هذا الأمير الأوزبكى من بعد ذلك تراوده الآمال فى استرداد ملكه من جديد . ولا يمكننا ، مع ذلك ، أن نجزم بأن الشاه عباس كان يفكر تفكيرا جديا فى فتح بلاد ماوراء النهر وضمها الى ملكه ، اذ كان يقدر أن تأمين حدوده الشمالية التى تتعرض للأخطار على الدوام انما يتم باقامة علاقات مودة وصداقة مع أمير بخارى . ومهما يكن فانه مالبث بعد ذلك بقليل أن سير مع ولى محمد ثمانين ألفا من الجند الفرس اتجه بهم الى جيحون .

وهنا نعود مرة أخرى الى الحديث عن نفوذ الشيوخ ببخارى ، ذلك النفوذ الذى لم يكن أبدا يعرف حدودا . وعلى ماذكرنا من قبل فقد كانوا هم موئل الناس حين تشتد بهم العلل وملاذهم الذى يسألونه النصيحة حين يقبل عليهم العدو . وهذا هو امام قلى ، وقد ركبه الرعب حين علم بكثافة جند عدوه ، يلوذ بحفيد من أحفاد مخدوم أعظم ، يدعى خوجه محمد أمين ، يسأله المشورة فى ذلك . ولم يكن الشيخ الورع أقل ذعرا من أميره ، برغم أن امام قلى ذكر له عدد المحاربين دون حقيقته بكثير .

وأخذت الشيخ حميته الدينية فشارك فى القتال بنفسه ، وتناول قوسه وشمر عن ساعديه وأطلق أول سهم ، ثم أردف صنيعه هذا بأن قذف حفنة من التراب فى وجه العدو وهو يدعو الله أن تعمى أبصارهم بذلك . وكانت فعلته هذه ايذانا ببدء الهجوم . واحتدم القتال بين الفريقين ، وهنا تقول مصادرى ، والعجب يأخذ منها مأخذه ، أن الظلمة ما لبثت عند ذلك أن لفت الأوزبك حتى حجبتهم عن أعدائهم ، وكأنها سور يحميهم ، فى حين انكشف معسكر العدو أمامهم ولا شىء يحجبه ، وكان هذا المعسكر قد أقيم على شاطىء بحيرة ماجان (١) . ويقول التاريخ ان امام قلى كان قد غادر عاصمته أول الأمر خوف عدوه ، ولكن الموقعة التى جرت على ضفاف هذه البحيرة فى مستهل رجب من عام ١٠٢٠ (١٦١١) انتهت فى صالحه حتى سقط ولى محمد فى يده ، فقتل بأمر ذلك الشيخ الورع بعد أن حكم ست سنوات .

وتأتى بعد هذه الحوادث فترة طويلة ساد فيها السلام والوئام بين فارس وبلاد ما وراء النهر . وقد أدت بالشاه عباس انتصاراته بدوره على الباب العالى الى أن هابه جيرانه بما فيهم الأوزبك ، فتوقفت غارات النهابين التى كانت تتعرض لها ايران عادة بين الحين والحين . بل ان التركمان الذين كانوا يرابطون على طول شمال ايران من الاقليم الصحراوى حول أندخود حتى شواطىء قزوين ، كان منهم من أعلن خضوعه للشاه عباس ومنهم من تحالف معه ، ولم يخرج امام قلى بدوره الى الحرب الا فى واقعة واحدة حارب فيها المغيرين من القزاق والقلموق، عند شمال تركستان ، نفصل أمرها لصورة من الحيلة والمداهنة عرضت فيها . فقد زحف جموع من هؤلاء البدو ينهبون كل مايصادفهم فى طريقهم ويشعلون النار فيه حتى بلغوا سمرقند ، فخرج اليهم عندئذ امام قلى فشتت شملهم وعهد الى ابنه اسكندر بحكومة بلد الحدود طشقند ، وقد

(١) يتحدث صاحب روضة الصفا عن شاطىء نهر (رود) كان يرابط عنده الجيش الفارسى ، ولا يشير الى وقوع موقعة حاسمة كبيرة هناك . هذا كما نجد كذلك تفاوتا زمنيا كبيرا فى ذلك ، اذ يقرر المؤرخون الفرس أن القتال بدأ فى الحادى عشر من المحرم .

كان لها مشاركة فى حملة النهب هذه على مايبدو ، حتى يضمن بذلك منع تكرار مثل هذا الحادث .

ولم يطل الحال بالأمير اسكندر حتى ثار عليه الأهلون وقتلوه . وحين بلغ امام قلى هذا الخبر خرج من فوره الى طشقند وقد ملكه الحنق والسخط حتى أقسم بأنه لن يرجع عنهم حتى يبلغ دم العصاة المسفوك ركابه . ولم تسقط طشقند ، لمنعتها الا بعد حصار طويل ، فما ان استسلم حصنها حتى أنزل امام قلى بالأهلين مذبحة بشعة لم يبق الغزاة فيها الا على الشيوخ والأطفال . وحين رأى امام قلى أن الدماء لاتصل بعد الى رسغ فرسه عزم على ذبح الشيوخ والأطفال . هنالك تصدى العلماء لهذا الأمر فعمدوا الى حيلة تبقى على حياة من بقى من الأهلين وتحقق للأمير ما أقسم على فعله ، فحفروا حفرة جمعوا فيها دماء القتلى ، حتى اذا نزل فيها الأمير بفرسه فوجد الدماء تصل الى ركابه هدأ باله وأمر بايقاف المذبحة .

على أن امام قلى ، برغم تصرفه المشين هذا الذى يتنافى مع الخلق والدين والانسانية ، يعد فى الوقت نفسه العاهل الوحيد ببلاد ما وراء النهر الذى استطاع أن يوفر لبلاده الثراء والرفاهية والسعادة بغير حروب يخوض غمارها أو فتوح يمضى فيها ، فضلا عن أنه كان قدوة يحتذى بها بين الأمراء المسلمين فى تمسكه بقواعد الشرع . هذا كما أمنت الطرق والمسالك أمنا تاما مدة حكمه الطويل الذى امتد ثمانية وثلاثين عاما .

ويؤثر عنه أنه كان يمضى أغلب وقته فى مجالس الصلاح وحلقات الشعراء ، وغالبا ما كان يستبدل ثوب الأمير بخرقة الدرويش لينطلق عند ذلك ، وهو فى استخفائه هذا ، مع وزيره نظر ديوانبغى وعبد الوصى أقرب أخصائه اليه ، فيجوس خلال المدينة ويقف على أحوال أهلها وما كان يجرى فيها . وكان من بين من قربهم اليه من علماء عصره على الخصوص الملايوسف قراباغى ، ومن الشعراء الملا ترابى والملا نخلى . ويقال انه كافأ الملا نخلى ذات مرة على قصيدة نظمها بوزنها من الذهب . وقد ترك لنا هذا الأمير نفسه شعرا جيدا كثيرا من نظمه . ومما يروى عن مغامراته فى الليل وهو فى تنكره هذه القصة التالية : — كان أحد الملات الصغار فى احدى

المدارس قد كلف بحب فتاة جميلة ، وكان لابد أن يبرهن لها على حبه بأن يهدى اليها ثوبا جديدا حين أقبل أحد الأعياد ، ولكنه كان على فقر شديد وفيما هو يفكر فى تدبير هذا الأمر ، وقد ركبه الحزن والهم ، تذكر أن « مال المشركين غنيمة للمسلمين » (١) . فاستقر رأيه حينئذ على أن يسقط على حانوت لجواهرى هندى ليلا فيحصل بذلك على المال الذى هو فى أشد الحاجات اليه . وقرن الملا القول بالعمل ، فسار الى السوق يصحبه اثنان من ثقات خدمه واقتحم باب الحانوت وهو مضطرب اذ كان يعلم مدى تأمين الأمير للناس على أملاكهم . وقفل الملا راجعا يحمل فى يده سلة مليئة بالجواهر . وكان الهندى قد استيقظ على صوت اقتحام حانوته فانطلق فى اثر اللصوص مستغيثا حتى أمسك بخناق الملا . وأقبل الشرطى بدوره كذلك وبيده مشعل . هنالك وثب الملا على الشرطى فأسقط الشعلة من يده ، واختفى فى الظلام وهو يصيح «تبالك يانظر ديوانبيكى ، وتبا لما دبرت من مزاح ثقيل » ، فاذا بصوت آخر يجيبه قائلا « لم أكن أنا الذى فعلت ذلك يا مولاى وانما هو عبد الوصى كرجى » . ولما كان من المعروف أن امام قلى جرى على أن يتعسس مستخفيا مع صاحبى هذين الاسمين ، فقد ظن الشرطى أنه بقدومه قد أفسد على الأمير مزاحه ، فانطلق هاربا لايلوى على شىء . ويسهل تصور ما حدث من بعد ذلك . فقد تقدم الهندى الى الأمير يشكو من تراخى الشرطى فى أداء واجبه . وحين استدعى هذا وقر فى نفسه بدوره أن الأمير لابد معاقبه لفرط اندفاعه بالأمس . واتضحت المسألة كلها آخر الأمر حين طلب الأمير الى الملا أن يعيد المال المسروق الى صاحبه . ولم يكتف الأمير بالعفو عن السارق بل وصله كذلك بجائزة .

تخلف عن مؤرخى الاشترخانيين فى عهد امام قلى كثير من الأقاصيص والحكايات حين أعوزتهم الوقائع السياسية . ونعرض على القارىء قدرا من هذه الحكايات اذ تعطينا صورة واضحة عن العقلية التى كانت تسود آسيا الوسطى فى ذلك الوقت . ومن ذلك ما روى من المفارقات اللطيفة

(١) ينص الشرع على أن تصان أموال غير المسلمين الذين يدفعون الجزية والخراج .

عن العلاقات السياسية بين الدولة المغولية فى الهند وخانية بخارى . فقد حدث أن بعث امام قلى ، بعد عودته من طشقند بسفارة الى جهانكير سلطان الهند تحمل اليه تهنئته الرسمية بمناسبة ارتقائه العرش . وعمد حفيد بابر هذا ، وهو الذى قد تم له اذ ذاك توحيد النصف الشمالى للهند كله تحت تاجه ، الى استقبال سفراء أخيه الأمير استقبالا وديا وراح يلاطفهم ويداعبهم ، وكان جهانكير ، أى فاتح العالم ، غارقا اذ ذاك الى أذنيه فى حبه لزوجه الجميلة نورجهان (نور الدنيا) مستسلما اليها ، لا يشغله شاغل عنها ، فلم يتردد على ذلك أن يسأل السفراء عن أحوال زوجات امام قلى . فجاء سؤاله هذا ، بخروجه على التقاليد الاسلامية المألوفة بمثابة صفعة لسفراء امام قلى ، حتى انبرى واحد منهم فرد عليه بقوله «ان أميرنا قد تجرد من الدنيا وملذاتها فلم يشغل بها أبدا» . هنالك ابتسم جهانكير وقال لمحدثه « وأين هى الدنيا التى رآها أميرك فأثارت سخطه عليها الى هذه الدرجة » . وبلغ هذا الحديث امام قلى حين آب سفراؤه اليه فشعر بأن فى ذلك اهانة لحقت به . وحدث أن بعث من بعد ذلك جهانكير الى بخارى بطبيب اشتهر بحذقه الشديد ليشكر أميرها باسمه على تهنئته له . وكان من بين الهدايا التى حملها هذا السفير معه خيمة قرمزية اللون تزينها الحجارة الكريمة والماس حتى ليقال ان قيمتها كانت تقدر بدخل الهند كله اذ ذاك . على أن امام قلى لم يكن لينسى ما لحق به من اهانة فطال انتظار الرسول الهندى ستة أشهر دون أن يسمح له بمقابلته ، وكان يقول فى كل مرة لوزيره ديوانبيكى حين كان يلح عليه فى هذا الأمر « ان أنا استقبلته وهداياه فانى أحمل نفسى بذلك على أمر لا أرغب فيه ، وان أنا استقبلته ورفضت قبول هداياه فأكون بذلك قد خرجت على الرسم المألوف ، فالأصوب اذن أن لا أستقبله البتة » . على أن ديوانبيكى ظل يلح على سيده فى ذلك حتى قبل أن يلقى الرسول ، بعد هذا الانتظار الطويل ، أثناء خروجه للصيد دون تدبير أو تحديد . هنالك عمد الطبيب الذكى الى اقامة خيمته فى طريق الأمير وبداخلها الهدايا الثمينة التى جلبها معه . حتى اذا ما بلغ امام قلى المكان صرف نظره الى ناحية أخرى وتظاهر بالانهماك فى الحديث مع أحد مرافقيه ، ليتوجه اليه

الطبيب عند ذلك ويقول له « ياقبلة العالم ، هل لك الى أن تنظر الى هذه الناحية » (١) . فما كان من امام قلى عندئذ الا أن ألقى بنظرة خاطفة على هذا المعرض ثم التفت الى رحيم بروانجى وقال له « خذ ذلك كله لك فقد وهبتك اياه » . وعجب السفير من هذا التصرف ، غير أنه كان قد بقى عنده سيف ثمين ، فاستأذن فى لقاء الأمير عند الغداة ليقدمه اليه . فلما دخل عليه قال له « لقد ترك أكبر من بعده سيفين مشهورين ، احتفظ السلطان بواحد منهما لنفسه ، وها هو ذا يبعث بالثانى اليك ، أى الى أخيه عنوانا على الصداقة » . ولم يستطع الأمير الأوزبكى حين ذلك أن يرفض الهدية . وحين حاول السفير أن يجرد السيف من غمده ففعل ذلك بمشقة، أشار الأمير ، بهذه المناسبة ، من طرف خفى الى خطة جهانكير لفتح بدخشان وعدوله عن ذلك فيما بعد ، فاذا بالرسول يجيب على ذلك فى سرعة خاطر فيقول « اذا كان هذا السيف المهدى اليك لا يستل من غمده بسهولة فذلك لأنه سيف سلام ، فلو كان سيف حرب لقفز من غمده لوقته » كذلك يذكر لنا التاريخ لفتة أخرى تدل على ما كان عليه هذا السفير من ذكاء خارق تمكن به فيما بعد من أن يكسب ود امام قلى حتى أكرم مثواه حين اذن له بالعودة الى بلاده . ففيما كان الشاعران نخلى وترابى يتنافسان فى احدى المناسبات بقول الشعر ببلاط أمير بخارى ، سئل ذلك الطبيب الفطن عن رأيه فيمن يفضله منهما على أخيه ، فأجاب على ذلك قائلا « أيها الأمير ، ان النخل انما يخرج من التراب » وبهذا كتب الفوز للشاعر ترابى . وقد آب هذا السفير الى بلاده عام ١٠٣٦ (١٦٢٦) . ومات جهانكير بعد ذلك بعام واحد فخلفه ابنه شاهجان وكان تواقا للاستيلاء على بلخ فلما علم ان امام قلى خرج فى جيش قوى للقائه ندم على تسرعه فى الخروج الى الحرب ، حتى ذهب يؤكد (٢) لدادخواه

---

(١) يخاطب الناس اليوم شاه فارس بلقب قبلة العالم . ويزيد على ذلك أمراء بخارى اذ ينادون بلقب قبلة العالمين .

(٢) دادخواه ، معناه الذى ينشد الناس منه العدل ، أى القاضى . وكان هذا اللقب يلقب به أول الأمر نواب السلطان بآسيا الوسطى . وهو اليوم يستخدم فقط فى خوقند وتركستان الشرقية .

منصور ، وكان قد أوفده أمير بخارى ليحسم الأمر سلما ، بأنه لم يدر بخلده أبدا أن يقدم على الحرب ، وكل ما فى الأمر أنه خرج للصيد على نطاق واسع .

هكذا أمكن لامام قلى أن يشيع السـلام فى البلاد ، وكان جد حريص عليه . كما استطاع أن يحتفظ بعلاقات طيبة مع فارس — وان غشيها الاضطراب فترة قصيرة عقب موت الشاه عباس الأكبر — وذلك بجهود أخيه نظر محمد خان حاكم بلخ . ذلك أن هذا الأمير ، فضلا عما كان يربطه بولى خراسان من صلة القـربى ، كان قد خطب ود ايران والشاه عباس وتبادل معه بعوث الصداقة ، كما سير اليـه عام ١٠٣١ (١٦٢١) رسوله باينده ميرزا ومعه خمسون فرسا من خيـل التركمان ضمن الهدايا الأخرى التى بعث بها اليه (١) .

أما قصة قرابة هـذا الأمير للامام الرضـا فهى أنه حين استولى عبد المنعم على مدينة مشهد وأمر بذبح جميع سكانها تقدم اليه أبو طالب كبير أحفاد الامام الرضا فأمسك بلجام فرس دين محمد وهو يتجول فى المدينة وسأله أن يُبقى على أسرته وينزل فى ضيافته . وقبل الأمير أن ينزل بدار الشيخ وفيها بنى بابنته زهرة بانوبيكيم (٢) ، ومنها ولد نظر

---

(١) حدث هذا فى عهد الشاه صفى ، اذ أدى تفاليه فى القتل الى ان عم الاضطراب مرو ، وكان نفوذ الفرس قد ضعف بدوره هناك . ويقال ان امام قلى كان قد بعث بخمسة عشر ألفا من جنده من بخارى كما سـير نظر محمد عشرين ألفا من بلخ فقصدت هذه الجيوش جميعا مرو يقودها ابنه عبد العزيز . وحاصرت هذه القوات المدينة مدة طـويلة حتى اذا ما أقبل عليها جيش للفرس كبير ، ارتد الأوزبك عنها .

(٢) هذه السيدة ، التى روينا من قبل خبر نجاتها وابنيها من تلك الواقعة المشئومة ، يبدو انها غادرت بخارى الى فارس عقب وفاة زوجها. ونعلم من بعد ذلك أنها تزوجت بأمر الشاه عباس من الزعيم القـاجارى مهراب خان فولدت له مرتضى قلى خان حاكم مشـهد . وحاول مرتضى هذا أن ينقذ مشهد ابان حصار الأوزبك لها ولكنه سقط فى أيديهم فسير الى بخارى حيث استقبله امام قلى استقبالا أخويا ورد عليه حريته . ولا تزال الأسرة الحاكمة ببخارى ترعى حتى اليوم صلة القربى التى تربطهم بآل قاجار ، وان كانت من ناحية البطون فحسب .

محمد فكان بذلك سيدا وعلويا فى الوقت نفسه . ومع ما لعراقة النسب هذه من أثر غير قليل فى نفوس سكان آسيا المتمسكين بدينهم ، فانه لم تكن سببا فى تعكير الصفاء والالفة بين الأخوين ، تلك الالفة التى تبدت فى أحسن صورها فى استقبال نظر محمد لأخيه امام قلى حين قدم اليه فى بلخ على رأس جيشه ليدفع خطر غزو شاهجهان لبـلاده ، اذ خرج نظر محمد للقاء أخيه فانتظره على مسيرة ميلين من المدينـة وصـحبه مع أبنائه الاثنى عشر سيرا على الأقدام حتى دخلها .

وبرغم الحاح أخيـه عليه واحتجـاجه بأنه لا يليق به كسيد يجله الناس أن يمضى هكذا على قدميه فان نظر محمد أصر على موقفه اذ كان يريد بذلك أن يظهر ولاءه لأخيه بكافة الطرق .

وحين بلغ الركب بلخ حيث كان أعيان بلاد ما وراء النهر قد اكتمل عقدهم فى انتظارهم ، تقدم نظر محمد الى أخيه بالهدايا « التسع » على الرسم المعتاد ، وكانوا ثمانية من الرقيق أعلن لأخيـه أنه هو نفسـه تاسعهم (١) .

وقضى امام قلى سبع سنين ببخارى ، بعد رجوعه اليها ، فى سلام ووئام مقيم لم يعرف له أهل آسيا الوسـطى له نظيرا الا أيام السلطان حسين ميرزا بيقرا بهراة .

ونزل به المرض عام ١٠٥٠ (١٦٤٠) فأعلن بشعور المسلم الورع أنه انما يبغى أن يقضى سـاعاته الأخيرة بجوار النبى (٢) صلى الله عليه وسلم . هنالك دعا اليه أخاه من بلخ وناوله الصولجان واستبدل به عصا يتوكأ عليها وهو فى طريقه الى الحج . حتى اذا ما حل يوم الجمعة وهو

(١) هذا الأسلوب فى التأدب يروج بين التورانيين منذ زمن موغل فى القدم ، فلم يكن بدعا فى ذلك أن نرى ابراهيم سلطان الكرج ينتهـج نفس المنهج مع تيمور على ما رواه شرف الدين فى سيرة الأعرج فاتح العالم .

(٢) لا يزال سكان آسيا الوسطى يرون أن من يموت مجاورا لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يرضى الله عنه ، وأن السعيد من يفـوز بذلك .

ببخارى قرئت الخطبة بالمسجد الجامع فى حضرته باسم نظر محمد خان لأول مرة ، فما ان سمعها المصلون حتى ضجوا بالبكاء والعويل . وغادر امام قلى علـى اثر ذلك حاضرته وبلاده وشعبه الذى أحبه وعمل دواما على اسعاده ، فاتخذ طريقه الى مكة بطريق ايران .

وقد استقبله شاه فارس بحفاوة بالغة حين مر ببلاده ، ومات بالمدينة المنورة وهو فى الثانية والستين من عمره . وكان من بين ما صـنع من وجوه البر هناك تعميره لمنتزه عام وحمام لا يزالان يقومان هنـاك حتى اليوم .

كان هذا الأمير الجليل لا يزال على قيد الحياة مشـتغلا بالقيادة حين تهاوى بناء السلام الذى صرف مدة حكمه فى تقوية دعائمه فى بلاده، وحلت محله الثورات والحروب ونشوب الفتن بين الاخوة . فقد رقى نظر خان العرش عام ١٠٥٢ (١٦٤٢) ، ولكن سرعان ما استبان له أن قد خلف أخاه على بلاده دون أن يصيب من الاحترام القدر الذى كان له . كما لم يفلح فى كسب ود رجاله برغم بذله الشديد لهم ، وقد كان على ثراء بالغ حتى عد أغنى أمير فى بيتى الشيبانيين والاشترخانيين على السواء .

وتقول الرواية ان كنوزه كانت تحتاج فى حملها الى ستمائة قطار(١) من الابل . وكان فى اصطبلاته ثمانية آلاف من رءوس الخيـل فضلا عن الأفراس الولودة الأصيلة العديدة . كما كان عنده ثمانيـة آلاف من النعاج تلد له خرافا ممتازة ، وأربعمائة صندوق مليئة بالأطلس الفاخر بلون البرتقال . ومع هذا كله لم يفده ثراؤه فى تدعيم ملكه الا قليلا .

ولقد بدأ هو نفسه فى تعكير صـفو السـلام الذى كان يخيم على البلاد منذ زمن طويل بأن سير جيشا لغزو خوارزم بعـد موت أميرها اسفنديارخان . وركن الى الثورة فى الوقت نفسـه بالقسم الشمالى من

---

(١) پى قطار كلمة تركية يستخدمها الفرس كذلك للدلالة على قطـار من دواب الحمل ، ويكون بآسيا الوسطى من ستة الى عشرة جمال تسير اثر بعضها .

البلاد من يدعى باقى يوز ، حتى اذا ما سير نظر خان اليه ابنه عبد العزيز لم يكتف هذا الابن بانضمامه الى الثوار فحسب ، بل ورضى كذلك بأن ينادوا به مكان أبيه .

وبلغت هذه الأخبار نظر خان وهو فى قارشى ، كما علم بزحف ابنه الى بخارى . وأدى بنظر خان ما صار عليه خصمه الشاذ هذا من القوة الى أن ركز كل جهوده فى الاحتفاظ بأراضيه التى تقع عند ذلك الشاطىء القريب لجيحون بكافة السبل . على انه ما لبث أن اضطر الى أن يفر الى بلخ بعد أن حكم خمس سنوات بالكاد . وفيها استقبله أهلها بالترحاب .

هنالك قسم ملكه على أولاده ، ممن بقوا على اخلاصهم له منهم ، فأعطى الغور الى خسرو سلطان ، وخص ابنه قاسم سلطان بميمنة وأندخوى ، وأقام بهرام سلطان فى كلاب ، وسبحانقلى فى جهار جوى ، وهى مخاضة تعرف اليوم باسم خوجه سالو ، وجعل قتلق سلطان على قندز .

وكان عبد العزيز قد جلس فى ذلك الوقت على عرش بخارى ، فلم يكتف بما ارتكبه فى حق أبيه حتى عمل على أن يشرك أقدر اخوته معه فى عقوقه هذا ، اذ كتب الى أبيه يعلن اليه توبته وندمه على ما بدر منه ويسأله أن يصفح عنه (١) ويلتمس منه فى الوقت نفسه أن يسير اليه ببخارى أخاه قتلق سلطان ليوقفه على حقيقة المسألة .

واستجاب نظر محمد لرجاء ابنه ، فلم يكد قتلق يستقر به المقام فى بخارى حتى أخذ عبد العزيز يحرضه على الخروج على أبيه بدوره . هنالك سير اليه نظر خان ابنه الآخر سبحانقلى على أن يصير له لقب قلعة خانى (أى قائد الحصن) ان هو نجح فى أن يعيد قتلق الى طاعته .

وامتنع قتلق فى حصن قندز اذ لم يكن عنده من الجند ما يستطيع أن يخوض به غمار الحرب ، ولكن سبحانقلى ما زال يشدد الحصار عليه

---

(١) يحاول صاحب تاريخ مقيم خانى أن يحمل القراء على الاعتقاد بأن عبد العزيز انما استدرج الى بخارى وأرغم على اعلان خروجه على أبيه حتى هدد بالقتل ان هو رفض ذلك .

حتى استسلم له وأمر بقتله ، اذ رأى فى ذلك أفضل طريقة لرده الى صوابه . وحز هذا التصرف فى نفس أبيه بطبيعة الحال ، ولام ابنه على فعلته هذه اذ كان قد بعث به لينصح أخاه لا ليقتله . وحين توانى نظر خان فى منح ابنه سبحانقلى اللقب الذى وعده به خرج هذا عليه بدوره . وضاق هذا الأمير التعس آخر الأمر بخروج أبنائه عليه وصراعه معهم مع قلة ثقته برجاله من الأوزبك فاستنجد فى ذلك بشاهجهان سلطان الهند ، ونسى أن ابن جهانكير الطموح هذا كان يرنو بأطماعه الى بلخ نفسها ، وانه بذلك سوف يقضى عليه بدلا من أن يأخذ بيده .

هذا هو الذى وقع بالفعل . فقد ظهر بالميدان أورنكزيب ومراد بخشى ولدا شاهجهان ومعهما جيش قوى فهزما خسرو سلطان ، وكان قد تصدى لهما ، وبعثا به أسيرا الى الهند . ولم تتكشف لنظر خان نوايا حلفائه حتى بلغوا مشارف بلخ ، فأفلت بمشقة من بين أيدى رجاله أنفسهم من الأوزبك متخذا طريق شپورغان ومرو الى ايران ، وفى خاطره أن ملكها عباس الثانى ، أحد أحفاد عباس الأكبر ، لابد وأن يكرم وفادته .

ولم تخب ظنون نظر محمد خان ، فما ان علم الشاه عباس الثانى بأمره حتى بعث يدعوه الى حاضرته أصفهان ، وقد طوى دعوته هذه له على ألف من الدوقيات الذهبية ليستعين بها فى رحلته ، كما أصدر أوامره كذلك بأن يستقبل استقبالا ملكيا حيث ينزل أو يمر ، وبعث بحرس الشرف فاستقبله على مسيرة اثنى عشر ميلا من أصفهان . وخرج الشاه نفسه مصحوبا بكبار رجال دولته فانتظر ضيفه على مسيرة ساعتين من قصبة ملكه .

وعانقه عباس الثانى حين التقى به عناق الابن لأبيه (١) ، وأمر فاستبدلت دابته المنهكة بفرس أصيل ، واحتفلت المدينة باستقباله احتفالا

---

(١) يروى مؤرخو آسيا الوسطى أن الشاه عباس الثانى كان قد تنكر فى ثياب جندى عادى وسار على قدميه مسافة طويلة ملازما لركاب نظر خان تكريما لضيفه ، ولم يتعرف عليه نظر خان الا حين لفت البعض نظره اليه ، فنزل اليه من فوره وعانقه .

بالغا وسطعت فيها الأنوار . واستضافه شاه فارس عامين ونصف العام ثم سيره من بعد ذلك الى وطنه ومعه جيش استطاع به أن يسترد بلخ . على أن ما كان قد أنزله جيش الهند من الخراب بهذه المدينة وما جرى بأرضها من الحروب بين عبد العزيز وهؤلاء الغاصبين ، كان قد قضى على كل معالم العمران فى هذه الأرض حتى صار نظر محمد خان لايمشى هناك فى الواقع الا على قتاد . وحلت المجاعة بدورها ببلخ حتى كان حمل الحمار من القمح يباع بألف روبية . وزاد من سوء الحال أن دهم المدينة عام ١٠٦٠ (١٦٥٠) شتاء بالغ القسوة لم تشهد له نظير من قبل . وقد عانى جيش الهند بدوره من هذا الزمهرير والأوزبك يطاردونه فى انسحابه حتى تجمدت أطراف ألوف من رجاله أثناء مسيرهم فى ممرات الجبال .

ويروى صاحب تاريخ مقيم خانى أنه حين قصد الهند فى العام التالى لذلك فى بعثة(١) كان يشاهد أكداسا من العظام الآدمية على طول طريقه بالجبال .

لم يمنع هذا البلاء المنوع الذى نزل بالبلاد من استئناف الحروب بين نظر خان وأولاده . ووقف أهل بلخ فى صف أميرهم بضع سنين ، حتى اذا أنهكهم هذا العراك المتصل اتصلوا بعبد العزيز أمير بخارى ، فسير بدوره أخاه سبحانقلى مع فرقة كبيرة من الجند لحرب أبيه .

هنالك استقر قرار نظر خان على أن ينسحب من الميدان ويسير الى المدينة المنورة فيقضى بها بقية عمره فى سلام . وأراد أن يصلح مابينه وبين أولاده قبل رحيله ، ولكن سبحانقلى أنكر عليه هذه المشاعر الأبوية .

وهكذا خرج نظر خان كسير الفؤاد فسار فى طريقه الى الأراضى المقدسة حاجا . على أن الحظ لم يحالفه كما حالف أخاه من قبل ، فمات وهو فى طريقه الى سمنان ولم يسكن بلاد العرب الا جثمانا هامدا .

(١) كان يعرف مثل هذا السفير باسم « وقايع نكر » أى الذى يرى ما يقع أمامه من الوقائع ، بخلاف « وقايع نويس » وهو الذى كان يقوم بتحرير الوقائع .

حين بلغ خبر موت نظر خان بلاد ما وراء النهر أعلن أولاده الحداد عليه ، ووزعوا الصدقات ، وأخذ المقرئون يرتلون القرآن ليل نهار لطلب الثواب والمغفرة له ، وكأن هذا الذى قضى كان فى الواقع أبا يعتزون به بالفعل وليس هو ذلك الخصم الذى ظلوا يناصبونه العداء أمداً طويلا .

ولم يختف النزاع من أسرة نظر خان بموته ، فلم يكد زمن الحداد ينتهى على الرسم المعهود حتى خاف عبد العزيز أن ينتزع أخوه سبحانقلى اقليم بلخ منه ، فسير اليه أخاه قاسم محمد سلطان على رأس جيش عبر به جيحون . على أن سبحانقلى لم يكن ممن يتخلص منهم فى يسر وسهولة ، كما لم يكن ذلك الأمير الشاعر قاسم محمد بدوره بالند الكفء الذى يستطيع أن يضطلع بهذه المهمة التى عهد اليه بها ، فاضطر بعد صراع طويل لم يغنه شيئا الى أن يرتد الى حصار ، ليعقد الصلح من بعد ذلك مع سبحانقلى ، وفيه اعترف له بحقه فى الوراثة . وجرت رسائل المودة تترى من بعد ذلك بين الأخوين ، حتى قدم ذات يوم فريق كبير من شيعة سبحانقلى الى قاسم محمد فانفرد أفراده به فى احدى الغرف بدعوى عرض رسالة سرية من أخيه عليه وقتلوه .

ويقول مؤرخو الاشترخانيين انه بموت قاسم محمد فقد هذا البيت المالك أكمل أمرائه قبل الأوان . وقد خلف هذا الأمير ديوانا يحوى أكثر من ألف بيت من الشعر بالفارسية والتركية ، كما كان مبرزا فى النثر كذلك .

وما ان تخلص سبحانقلى من هذا الخصم الخطير حتى أنشأ مع أخيه عبد العزيز علاقات مودة بلغت الى أن عاونه فى حربه مع خوارزم . وكانت الأجزاء القريبة من بخارى قد تعرضت ابان تلك الفترة لخطر شديد على أيدى الأوزبك الذين كانوا ينزلون على طول مجرى جيحون الأدنى .

فى ذلك الوقت كان يحكم خوارزم أبو الغازى بهادر خان ، وهو الذى يذكرنا ، بمغامراته المنوعة ، بما كان من أمر بابر ، وله تدين خيوه باستقلالها عن بخارى ، كما تدين له الدنيا بمؤلفه « أنساب الأمراء » .

فلقد دفعته كراهيته البالغة لحكام بلاد ما وراء النهر ، ولعبد الله خان على الخصوص ، وهو الذى اشتط فى اضطهاد أجداده ، الى أن وضع نصب عينيه منذ شبابه القضاء على كل الحكام الأجانب فى بلاده . واليه وحده يرجع الفضل فى اجلاء البخاريين عن حوض جيحون الأدنى . ويقال ان أمره أول ما ظهر كان فى عام ١٠٥٤ (١٦٤٦) حين نصب نفسه أميرا على خيوه وذلك على اثر استدعاء قاسم محمد سلطان من هناك .

وأول حرب خاض غمارها كانت مع التركمان بداخل خوارزم أو مع جموع العيارين من القلموق . ولم يفكر فى الهجوم على بخارى حتى سأله سبحانقلى أن يعاونه فى حربه مع أخيه عبد العزيز خان .

ولئن كان الصلح سرعان ما تم فى الواقع بين الأخوين الا أن أبا الغازى ، وكان ينزل اذ ذاك عند كوكير تليك (١) من أعمال بخارى ، لم ير عند ذلك أن يعدل عن تنفيذ خططه للانتقام الذى ظل يعتمل فى نفسه طويلا ، فانطلق ينتهب كافة الأراضى حتى قراقول ، فلم يجل عنها الا بعد أن دمرتها النيران . هنالك هاجمه عبد العزيز فى جيش قوامه ستون ألفا من الجند استطاع به أن يفصله عن قواته ويحيط به هو نفسه فى عدد كبير من جنده حتى كاد يقضى عليه لولا ما أبداه ابن له ، يدعى أنوشه خان وكان فى الرابعة عشرة من عمره ، من شجاعة خارقة ضمنت له النجاة .

وانتهت هذه الحرب بهزيمة البخاريين هزيمة شديدة ، وجرح فيها عبد العزيز ، ولم تكتب له النجاة الا حين ألقى بنفسه فى النهر فعبره سباحة ، فى حين عاد أبو الغازى الى خيوه محملا بالأسرى والغنائم ولمّا يشف غليله بعد .

وتكررت غزواته من بعد ذلك حتى بلغ فى احداها وردانزى ، وكان يخرب فى كل مرة كل ما كان يصادفه فى طريقه ، كما بلغ فى غيرها

(١) وهو موضع على شاطىء جيحون الأيمن ، ويعد حدا بين بخارى وخيوه .

أبواب بخارى . وظلت الدماء تراق بين هذين العاهلين فى حروب متصلة، وهما من أبناء دين واحد وجنس واحد ، فلم تعرف الرحمة أو الملاينة طريقها الى قلب أبى الغازى حتى بلغ الستين من عمره فصالح عبد العزيز ، وقد وافاه أجله على اثر ذلك عام ١٠٧٤ (١٦٦٣) .

ولطالما أتيحت الفرصة لقرائنا فلاحظوا فيما سبق أن صوت الانسانية لم يكن ليجد له سميعا عند محاربى التتار الا أن يتقدم العمر بالواحد منهم .

وكذلك كان الحال فى هذه القضية التى بين أيدينا . فلم يلق أنوشه خان الجسور (١) ابن أبى الغازى وخليفته ، بالا فى كثير الى ماكان بين أبيه وعبد العزيز من صلح قائم ، وزحف الى بخارى عام ١٠٧٦ (١٦٦٥) فبلغ مقام خوجه جويبار وأباح هذا المكان المقدس لجنده . وحدث أن كان عبد العزيز اذ ذاك فى كرمينه فنهض من فوره فبلغ بوابة المدينة منتصف الليل وكانت بأيدى الخوارزميين . وتمكن ، فى أربعين من خلصائه ، من أن يزيح الحرس عن طريقه ويشق طريقه عنوة الى القلعة ، ومنها أصدر نداءه يحرض فيه الأهلين على قتل جند خيوه فى الليلة نفسها .

هنالك انبرى كل قادر على حمل السلاح ، سواء من الأوزبك أو التاجيك أو الرايا (Rayas) أو حتى من التجار الغرباء ، فسقطوا جميعا على العدو وباغتوه وهو مستلق بالليل ، وحلت به مذبحة بشعة لم ينج منها الا قسم صغير من جيش أنوشه استطاع الفرار الى خيوه . وقد منعت هذه الكارثة الخوارزميين أمدا طويلا من أن يتعرضوا لبخارى بالسوء .

كان عبد العزيز بدوره قد أنهكته حروبه المتواصلة مع أعدائه وضاق كذلك ذرعا بشئون دولته ، لما كان من أمر خصوماته مع اخوته، فعزم على أن ينهج نهج سلفيه ، فقر قراره على أن ينزل عن العرش

---

(١) ينسب صاحب تاريخ مقيم خانى هذه الواقعة الى ابى الغازى ؛ وهو خطأ ظاهر اذ كان أبو الغازى قد قضى قبل ذلك التاريخ .

لسبحانقلي ويخرج هو حاجا الى مكة . وحين دعى سبحانقلي للقدوم الى بخارى وتقلد الملك بعث بالأتالك امام قلى والپراونجى (١) تنكريبردى ليعلنا له ان أميرهما لا يقبل ما يعرض عليه حتى يغادر عبد العزيز نفسه العاصمة .

وتألم عبد العزيز من سلوك أخيه ، وينتهز البخاريون هذه الفرصة ويلحون على أميرهم فى العدول عن رأيه . وحين رأى تنكريبردى مصالح أميره تتعرض للخطر ذهب الى عبد العزيز خان وقال له :

« فليأذن لى مولاى أن أقص عليه قصة حضرتنى الآن ، ومفادها أن السلطان ابراهيم صاحب بلخ حين مر بنيسابور ، وهو فى طريقه الى مكة ، قام بزيارة فريد الدين العطار (٢) ، أحكم أهل زمانه ، وبقى عنده حتى حان وقت العشاء . ولما كان هذا الشيخ الوقور فقيرا ، على ما هو معروف عنه ، فقد أخذ يدعو الله حين أقبل المساء فاذا بطبق واحد ملىء بأطايب الطعام يهبط عليهما ، والناس فى عجب ، فأكل منه وضيفه حتى شبعا . ودعا السلطان الرجل الصالح بدوره اليه فى الليلة التالية ، وسأل الله بدوره فهبطت عليهما عدة أطباق مليئة باللحم الشهى . وحار العطار فى ادراك سر هذه التفرقة فى العطاء ، فسأل ربه كيف يصير له طبق واحد ويصير للسلطان أطباق . هنالك أجيب بأنكما أنتما الاثنان من عبادى ، وهذا ابراهيم قد ضحى بالتاج والعرش فى سبيلى فى حين لم تضح أنت الا بحانوتك ، فجاء العطاء بذلك على قدر البذل » .

وانتهى تنكريبردى من رواية قصته هذه ليقول للأمير عند ذلك :

« وهكذا حالك يا مولاى ، وان الحج ليهون كل شىء فى سبيل أدائه ، وثوابه يعدل ثواب غيره ألف مرة » .

---

(١) أى الحاجب **(المترجم)**

(٢) ولد فريد الدين العطار عام ٦١٣ (١٢١٦) ، وكتبه رائجة فى الشرق الاسلامى ، وهى : منطق الطير ويندنامه ، أى كتاب النصائح ، وجواهر نامه ، أى كتاب الجواهر . ويقال انه عمر أكثر من مائة وأربعة عشر عاما ، وانه كان قد هجر مهنة العطارة ليتفرغ للعبادة .

وما ان أتم الرسول حديثه هذا حتى انهالت دموع عبد العزيز من مآقيه وبات أشد تصميما على ما اعتزم عليه من ذى قبل . وذهب يستعد لرحلته التى خرج فيها عام ١٠٩١ (١٦٨٠) ، وقد انضم الى ركبه فيها ثلاثة آلاف من القاصدين لبيت الله الحرام . ولقى بايران نفس الحفاوة التى لقيها سلفاه من قبل حين مرا بها ، واحتفى به الشـاه سليمان بن الشاه عباس الثانى احتفاء يليق بالأمراء ، وأنزله فى أصفهان بقصر چهل ستون الفخم . ووقع النوروز ابان وجوده بايران، وكان الناس يحتفلون به احتفالا عظيما .

هكذا أتيح للامير الأوزبكى أن يودع مباهج الدنيا ومفاتنها بين حدائق أصفهان البهيجة ، والربيع يكسوها بحلله ، وفخـامة البـلاط الفارسى وعظمته . واتخذ من بعد ذلك طريق همدان وبغداد ، حتى اذا سار فى الصحراء صادفته المتاعب ، اذ هاجمته عصابة كبيرة من قطاع الطرق من البدو . وطلب هؤلاء منه فدية مقدارها أربعـة آلاف من الدوقيات ، وهددوه فى ذلك بابادة الركب كله . وآثر عبد العزيز أن يحقن الدماء وهو فى رحلته المقدسة هذه فعرض عليهم نصف ما طلبوه منه . وحين أصروا على ما فرضوه عليه ، ثارت ثائرته عند ذلك وصاح فيهم قائلا : « لقد حكمت أربعين عاما فهـل لى اليوم أن يملى على اللصوص ارادتهم ، فالى القتال يا قوم فان مت ففى سبيل الله » .

وحالف التوفيق الأمير الحاج فانتصر على تلك العصابة وبلغ هدفه فى سلام حيث وافاه أجله بعد قليل وهو فى الرابعة والسبعين من عمره ، ودفن بالمدينة المنورة الى جوار أبيه وعمه .

كان عبد العزيز ضخم الجثة الى درجة غير عادية ، حتى ليقال انه كان أضخم رجل فى زمنه . ويصرح أحد مؤرخيه فى ذلك بأن حذاءه كان يتسع لطفل فى الرابعة من عمره يجلس فيه . وقد حدث ذات مرة أن تجرأ أحد الشعراء فاتخذ من بدانته مادة يتندر بها ، وحين سمع عبد العزيز بذلك بعث فى طلب هذا المستهزىء ، فأدخل عليه وهو يرتعد خوفا على حياته ، ليخاطبه الأمير عند ذلك بقوله « أيها المثلا ، بلغنى أنك نظمت

شعرا تسخر فيه مني ، فلا تفعل ذلك بغيرى والا فستندم على ذلك أشد الندم » . ثم وهبه عشرة آلاف دينار وخلع عليه ، ليجيبه الشاعر عند ذلك قائــلا : « كــم كنت أود يا مولاى لو مزقتنى عشرة آلاف قطعــة بدلا من أن تخجلنى برحابة صدرك وكرمك » .

ولم يطق الشاعر بعد ذلك أن يعيش ببخــارى وغادرها بالفعــل الى الهند . ومع ما كان عليه عبد العزيز من العنف والقسوة تلقاء أبيه، فلطالما تجلت رحابة صدره وكرمه فى مناسبات عديدة .

ولم يكن بدوره خلوا من الثقافة ، وقد نظم شعرا جيدا ، كمايقال عنه كذلك أنه نظم أثناء اقامته بالحجاز جملة من المدائح اللطيفة ، وكان على دراية تامة بمسند البخارى المشهور ، وكان العلماء يدخلون عليــه دون استئذان ، كما كان الخطاطون يحظــون عنــده برعاية فائقــة حتى أجرى المعاش على الخطاط المشهور مثلا حاجى لسبع سنين ، وكان قد عهد اليه بنسخ ديوان حافظ ، وكان هذا الفنان يكتب البيت الواحد فى يوم بأكمله . وحين أهدى عبد العزيز هذه النســخة الى الشــاه عبــاس وهو فى رحلته ، سر بها العاهل الفارسى أكثر مما سر بكل الهدايا السنية والجواهر التى أهداها اليه أمير بلاد ما وراء النهر السابق .

وهذا الأمير الذى عرف بجسارته فى الحرب وبرباطة جأشــه حين كان يواجه الأخطــار ، كان يمضى أياما برمتها يتفرغ فيها الى العبادة بعيدا عن الدنيا ومشاغلها . ويرد الكثيرون ذلك الى مداومتــه التأمل والتفكر . فأمراء بخارى الذين كانوا يشــاركون فى المعــارك الدموية ويخاصمون آباءهم واخوتهم فى سبيل أغراض الدنيا وأطماعها ، كانوا يضطرون ، فى سبيل كسب رضى الناس ، الى الجلوس فى حلقات الزهاد يتفكرون معهم فى عظمة الله ويرون أن الحياة الدنيا ان هى الا لغــو وعبث .

الفصل السادس عشر
سبحانقلى خان ونهاية الاشترخانيين

١٠٩٩ (١٦٨٠) – ١١٥٠ (١٧٣٧)

بهذه الفترة التى نبدأ الحديث عنها يكون قد مضى ما يقرب من قرنين على سقوط التيموريين وبداية انهيـار بلاد ما وراء النهر . فلا عجب اذن أن تبدو الصورة التى تنعكس عليها مجريات الحوادث السياسية فى الامارات الصغيرة الواقعة على ضفاف جيحون ، ومعالمها يلفها الغموض والوهن شيئا فشيئا ، وأن يحتل مكان الحوادث المهمة فى تاريخها ما كان يجرى من فتن داخليـة وخصـومات بين الاخـوة ومنازعات تافهة . فقد كان على سبحانقلى ، بعد أن استولى على مقاليد الى الأراضى المقدسة ، أن يواجه نفس المصاعب التى سببها هو نفسه لأخيه الحكم ببخارى ، أوائل المحرم من عام ١٠٩١/١٦٨٠ ، على اثر رحيل أخيه من قبل .

فكان عليه أن يخرج الى جيرانه المشاغبين فى الغرب ، ويسير الى الخارجين عليه من رجال دولته بل ويحارب كذلك أبناءه أنفسهم .

وكانت بلخ ، موضع تنازع الاشترخانيين ، هى مصـدر المتاعب كالعادة .

ذلك أن سبحانقلى كان قد نصب ابنه اسكنـدر خان حاكما على ذلك المكان ، فلم يكد ينصرم عامان حتى احتال أخوه ، أبو المنصور ، على دس السم له وجلس مكانه ، وكانت له شيعة قوية . ورفض سبحانقلى أن يقر ابنه الثائر هذا فى ذلك المنصب ، وعهد ببلخ الى ابن أصغر له يدعى عبد الله ، ولم يكن ذلك ليتم بطبيعة الحال الا بقوة السلاح .

وتمكن أبو المنصور من أن يحتفظ لنفسه بحكومة بلخ لأربعة أشهر ، حتى اذا ما عمد الى قتل أخيه عبد الله خوف منافسته له أخذ أشياعه ينصرفون عنه بفعلته هذه . وما لبثوا أن تآمروا عليه فسقطوا عليه وهو فى زيارة لخالته وقتلوه .

وخلفه ابن ثالث لسبحانقلى يدعى صديق محمد خان وكان فاجرا كأخيه المقتول . وبلغ من انتقامه من قتلة أخيه أن أمر بسلخهم أحياء ثم أخذ ينزع أطرافهم طرفا طرفا . وما لبث بدوره أن خرج على طاعة أبيه فلم يسارع الى نجدته حين خرج أنوشه خان من خيوه وانطلق يخرب بلاد ما وراء النهر بالنار والحديد .

وبعد أن نجح سبحانقلى فى وقف غارات عدوه مال الى أن يصفح عن ابنه لولا ما علمه ، لأسفه ، من أنه لم يتقاعس عن نجدته الا لما كان يبيته من الخروج عليه . وحين عبر سبحانقلى جيحون ودعا ابنه للقائه ، جهر هذا بالعصيان وامتنع فى بلخ . ومع هذا فان قلب الأب لم يطاوعه على الجنوح الى العنف ، فبعث أول الأمر الى ابنه برسالة عاتبه فيها على عقوقه له ووعده بالعفو عنه ان هو عاد الى طاعته .

وأثمرت هذه الخطة حتى قدم صديق محمد الى أبيه مستغفرا . وسرعان ما وافى هذا الأمير أجله من بعد ذلك عام ١٠٩٦ (١٦٨٤) .

واقتنع سبحانقلى فى ذلك الوقت بخطر تقليد أبنائه المناصب المهمة فى الدولة ، فعهد بحكومة بلخ الى أمير مخلص من أتباعه يدعى خادم بى أتاليك (١) . وخلفه عليها عند موته عام ١٩٠٩ (١٦٨٧) محمود بى أتاليك ، من قبيلة قنغرات ، وكان كفؤا قديرا . وبرهن هذا الحاكم على

---

(١) كلمة أتاليك هى بمعناها الحرفى من يقوم مقام الاب . وكانت علما على النبلاء الذين كانوا يعملون كمستشارين للامراء عند التتار المغول فى الأزمان الخالية . ومن معانيها كذلك : الحارس ، المربى ، المؤدب . وهى فى الوقت الحاضر بمعنى الوزير . وكان عند الشيبانيين والاشترخانيين عديد من الأتالكة ، وهم حاشية الأمير . وعند خان خيوه الحالى عدد معين منهم . ويعد حكام بخارى وخوقند هذا اللقب من القاب التشريف .

حسن اختياره لهذا المنصب حين أحكم من قبضته على الأوزبك والتركمان الذين كانوا ينزلون بتلك النواحى . وعم الرخاء ببلخ فى عهده حتى كان حمل الحمار من الغلال (قنطاران ونصف القنطار) يباع بأربعين تنغة ، أى بجنيــه واحد (١) . أما الفواكه والمؤن الأخرى فكانت فى متناول الأيدى بلا ثمن يدفع فيها .

ولا يقاس الولاة المخلصون من أمثال محمود بى فى عددهم بالزعماء الثائرين من قبائل الأوزبك العديدة ، أولئك الذين حين لم يجــدوا أمامهم عدوا خارجيا يحاربونه دفعهم شغفهم بالصراع والقتال الى أن يتحاربوا معا داخل البلاد أو يثوروا على أميرهم . وأظهر هؤلاء كان بيات قره زعيم قبيلة بيات الأوزبكية . وكان قد تحصن فى اقليم حصار الجبلى واستمر على عصيانه سبع سنين متصلة . وخرج اليه محمود بى مرات عديدة ، وحين استعصى عليه ملجؤه فى حصن نايمان القوى رأى من الأصوب أن يفاوضه . حتى اذا ما اشتدت الضائقة ببيات قره وعد خصمه بأن يخرج اليه ملتحفا بكفنه ، والقوس والسيف يتدليان حول عنقه ، دليلا على توبته وندمه . على أنه لم يلبث أن أخلف ما عاهد عليه، اذ انتهز فرصة المهلة التى منحها محمود بى له فجمع فيها قوات جديدة عاود بها الحرب ، ونزلت الهزيمة بهــذا الثائر ثمانى مرات ، حتى وقــع قتيلا آخر الأمر فبعثت رأسه الى بخارى .

ولم تكن الحرب التى وقعت بين قبائل المنك والقبجاق الأوزبكية دون ســابقتها بما أثارته من المتــاعب . وكانت منك تنزل عنــد ميمنة وأندخوى ، فى حين كان القبجاق ينزلون الى جوار بلخ . وكان من أثر هذه الحروب الداخلية أن انتهزت خيوه ، جارة بخارى الغربية ، هــذه الفرصة فانطلقت تغير على البلاد .

وكانت غارات أنوشه خان الجسور ، ابن أبى الغازى ، قد بلغت بخارى نفسها فى عهد عبد العزيز ، على ما رأينا فى الفصــل السابق ،

---

(٢) على سعر القطع الحالى يستبدل الجنيه الاسترلينى بأربع وعشرين تنغا فى بخارى وبأربعين فى خيوه (فى سنة ١٨٧٣) .

وأدى به تهوره هذا الى أن نزلت به هزيمة شديدة . وعاد هذا الأمير الى حملاته التخريبية من جديد بعد أن رقى سبحانقلى العرش . حتى ليقال انه سقط على سمرقند عام ١٠٩٥ (١٦٨٣) .

ولم يلق أحد من أمراء سبحانقلى بالا الى سيدهم وهو فى هـذه المحنة الشديدة التى كانت تمسك بخناقه ، وأعرضوا جميعا عن معاونته فى دفع خطر الاورغنجيون (١) الذين كانوا ينشرون الدمار فى البلاد كلها الا محمود بى الذى بقى على ولائه المعهود فيه له ، فوقف الى جانبه فى حربه مع أنوشه خان وخاض معه معركة غجديوان ، ثم انطلق بعدها فى اثر العدو يطارده حتى خوارزم . ولم تمنع هذه الهزيمة أنوشه المغامر من أن يقدم فى العام التالى على غزو بخارى ، وذلك حين كان سبحانقلى ببلخ ، ولكن باء بالفشل ، وسقط عليه قومه وهو فى طريقـه عائدا الى بلاده فقتلوه .

ورفع الأورغنجيون مكانه ابنـه ايرناق (٢) وأجلسوه على اللباد الأبيض . والغالب انه كسب أول الأمر محبة سبحانقلى وتأييده كذلك ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يسير على نهج أبيه ، فغزا بخارى عدة مرات بلغ فى احداها — عام ١٠٩٨ (١٦٨٨) — أبواب هذه المدينة حتى لم يعد هناك مجال للسكوت عنه .

فجمع محمود بى جيشا قويا هاجم به خوارزم نفسها وقضى به على جيش خصمه . وما غدا أن قدم الى معسكر القائد المنتصر نفر من أعيان خوارزم فانضموا اليه . وانتهى أمر ايرناق من بعد ذلك اذ قضى بالسم ، وعادت خيوه من جديد الى حظيرة بخارى وان لم تستمر هذه الحـال أكثر من عامين .

ظلت بخارى مناط احترام وتقدير حـكام المسلمين من السـنين حتى وهى تعيش وسط هـذه المحن السياسية التى كانت تعـانى منها .

---

(١) أى الخيويون .

(٢) بالكسر أو بالامالة فى أوله ، وهو اسم تورانى قديم ، وكان عـلى مبلغ علمنا يدعى به أحد أبناء أتيلا .

وبرغم مظاهر التفكك والانهيار التى كانت تبدو عليها واضحة جلية فقد غشى أبصار هؤلاء الأمراء ما كان لها من ماض مجيد فلم يلتفتوا الى تفككها الذى صارت اليه فى الحاضر ، حتى رأينا السفراء يفدون الى بلاط سبحانقلى من ختن البعيدة ومن كاشغر وبلاد القرم ، بل ومن الهند نفسها كذلك .

فمن الهند بعث سلطانها الجليل أورنكزيب عام ١٠٩٦ (١٦٨٤) بأحد أمرائه ، ويدعى زبردست خان ، ومعه الفيلة وغيرها من الهدايا الى بخارى ليكسب بذلك حاكم بلاد ما وراء النهر الى صفه فى حربه مع الفرس الشيعيين . ذلك أن سلطان الهند الطموح كان يرى أن جنوح القبائل الأفغانية عند جبال سليمان الى الخروج عليه انما كان بتحريض الفرس . ولما كان لا يريد الاشتباك مباشرة فى حرب مع الشاه سليمان ابن عباس الثانى شاه فارس اذ ذاك ، فقد ظن أنه يستطيع أن يحد من نشاطه حين يدفع الأوزبك الى غزو خراسان ، تلك الولاية التى كان الفرس يحرصون على تأمينها كل الحرص (١) .

كذلك بعث السلطان أحمد الثانى (٢) العثمانى بدوره بسفرائه من القسطنطينية الى بخارى ردا على احدى السفارات التى كانت قد قدمت اليه فى احدى المناسبات . وكانت هذه قد أوفدها سبحانقلى ، لا محمد بهادر كما يذكر المؤرخون العثمانيون ، وكان على رأسها من يدعى مصطفى جاويش . وقد عاد هذا السفير الى بلاد ما وراء النهر عام ١١٠٢ (١٦٩٠) ومعه وثيقة سياسية تعد مثالا صادقا لما كان يستخدمه رجال الباب العالى اذ ذاك فى كتاباتهم من أساليب النفاق والبهتان يخدعون بها أنفسهم . فمع ما هو معروف من توالى الهزائم على السلطان أحمد

---

(١) لم تقع هذه الحرب لتوسط الأميرة جهان آرا (زينة الدنيا)، وكانت على قدر وافر من الذكاء والدهاء حتى استطاعت أن تعيد الصفاء بين الأميرين .

(٢) رقى أحمد الثانى العرش فى ١٤ يوليه عام ١٦٩١ وتوفى فى ٦ فبراير سنة ١٦٩٥ .

الثانى فى كل مكان ، بالمجر وبولندا وسوريا وعند شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، فان ذلك لم يمنعه من أن يكتب الى أخيه الأمير الذى يحكم عند جيحون عن الانتصارات الباهرة التى أحرزها على الكفار وأن يستحثه على المشاركة فى ذلك ،حتى ليغلب على الظن أن كتاب الباب العالى لم يكلفوا أنفسهم الا مشقة نقل بعض أخبار انتصارات محمد الفاتح أو سليم الثانى من كتاب « منشآت سلاطين » (١) لفريدون بك ، ثم بعثوا بها من بعد ذلك الى سبحانقلى بعد أن نسبوها الى سلطانهم . وهذه الرسالة التى ترد فى كتاب « تاريخ مقيم خانى » فحواها نقلا عن الأصل العثمانى هو كالآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

الى من ورث عرش السلطنة مع الطالع السعيد ، ونشر بساط الأمن والطمأنينة ، ومن خصه الله بعنايته منذ عهد أسلافه ، فخر الدولة سبحانقلى ، نبعث اليه بمزيد لا حد له من التحيات والمحبة الدائمة ، ويفيض من تمنياتنا الطيبة وحبنا الخالص الأبدى . وما تحمله اليكم رسالتنا ، المفعمة بالمودة والمحبة ، هو أن كتابكم الشريف العطر ورسالتكم التى لحمتها الصداقة ، وهى التى بعثتم بها الينا حديثا ، قد جاءت فى أنسب الأوقات وأسعد اللحظات . وحين تليت على سمعنا الشريف ، وتكشف لنا أسرار مكنوناتها ، أظهر لنا بلاغتها على ما يطمئننا على سلامة شخصكم الموصوف بالاخلاص وعظيم الصفات ، وجلت لادراكنا العظيم مجريات الأحوال . ولا يخفى على عظيم ادراككم وثاقب عقلكم أننا منذ زمن أسلافنا ، طيب الله ثراهم ، ووقت أبينا ، ساكن الجنان ، حتى هذه الساعة ، قد اخترنا طريق الجهاد وطلبنا مثوبة الله بالعمل على

(١) أى رسائل السلاطين ، وهو كتاب ثمين جمع فيه فريدون بك حاجب مراد الثالث ثمانية عشر ألف وثيقة وجدها فى محفوظات السلطنة العثمانية ، وقد طبع حديثاً فى القسطنطينية بعد أن أضيف اليه وثائق جديدة .

اجتثاث شأفة الكفار من الفرنجـة ، وأهل البـدع المرتدين من القزلباش (١) من وجه الأرض •

ولما كان لكل شىء أوانه ، على ما يجرى به المثل ، فقد رأينا أن نفرغ أولا من أمر الفرنجة الكفار فيستريح بالنا منهم ، لنلتفت من بعد ذلك الى القزلباش المناكيد . أما هؤلاء الكفار المناكيد فبرغم أن ابادة جموعهم البغيضة ابادة تامة هو ضرب من المحال ، فقد دخلنا معهم مع ذلك فى معارك طاحنة خرجنا منها بحمد الله منتصرين مظفـرين ، وسـقط منهم فى الأسر كثير من أمرائهم ورؤسائهم وتشتت شمل من بقى منهم من بعـد ذلك . على أن الشيطان سرعان ما وسوس الى أمراء الفرنجة من جديد فجمعوا جندا كثيفا خرجوا به من امارة أورخان «؟» فهاجموا به دولتنا المحمية وسطوا على متاع المسلمين . وحين اشتد بغيهم خرجنـا اليهم بدورنا وسقطنا عليهم . حتى اذا ما وجدوا أنهم لا طاقة لهم بحربنا بادروا بالعودة الى بلادهم والهلع يركبهم ، وبعثوا الينـا بأشرافهم يعلنون توبتهم وخضوعهم ، وحلق العبودية فى آذانهم، فتقدموا على صراط الطاعة يكررون اعلان اخلاصهم وخضوعهم . وما لبثت عصبة أخرى من زعماء الفرنجة الأشداء أن ظهرت من بعد ذلك فشقت طريقها الى بلادنا معتمدة على جموعها الغفيرة . وأسرع اليهم عند ذلك فريق من جندنا ، فما ان بلغ هؤلاء الأعداء الحدود حتى سقطوا عليهم فأسروا فى هجمـة واحدة عديدا من أعيانهم واستولوا على راياتهم وطبولهم العسـكرية وأسلحتهم . ولم ينج من جموعهم هذه الا عدد قليـل آب الى بلاده . هنالك انضم الجند الذى بعثنا به فى هذه المهمة الى الفـرق التى كانت ترابط عند الحدود وانطلقوا جميعا يطاردون الفرنجة فى بلادهم ، فساقوهم الى القتل ونهبوا متاعهم ، فلم يفلت من أيديهم الا عدد

---

(١) وهم الفرس **(المترجم)**

قليل . وغنمنا بعون الله عددا من الحصون التى طارت شـهرتها فى الخافقين فضلا عن أكداس المتاع والأموال .

واذ استراح بالنا من ناحية المشركين فى هذه الجهات ، وبات طالعنا السعيد يعلو نجمه كل يوم ، ونحن على حمد الله وشكره ، فسنتقرب الى الله بأن نجعل هدفنا وغايتنا هو ابادة المشركين من القزلباش ، لا يشغلنا عن ذلك أى شاغل أو يعوقنا دونه أى معوق. وعلى هذا فسنسير جندنا المظفر لقتالهم من فوره ، فنقتحم حصون هؤلاء القوم بعون الله وبركة الرسول .

وسنكتب اليكم فى ذلك فور تخطينا الحدود . وأنتم بوصفكم سلطان بلاد ما وراء النهر ، وحاضرتكم هى مثابة العلماء والأعلام ، على ما هو معروف من قديم الزمان ، فالمأمول ، كما هو الحال ، أن تجردوا بدوركم سيفكم لاقامة حدود الشرع وحماية الاسلام . فعليكم أن تجهزوا جيشا من الأوزبك فى بلادكم فيشترك مع جندى المظفر فى القضاء على هؤلاء الذين اعتدوا على حرمة الدين ، ويقتلع الأشواك والقتاد من وديان العراق العامرة . ولا نريد بذلك أن نشق عليك بحال من الأحوال ، وانما قصدنا بكتابنا هذا اليك أن تنتهز هذه الفرصة فتشارك فى هذا الواجب الدينى المقدس » .

وحين تلقى سبحانقلى هذه الرسالة الطنانة المليئة بالمبالغة من سلطان الروم — وهو اللقب الذى كان يشتهر به السلاطين فى أقصى المشرق — لم يجب عليها بتسيير الجموع الحاشدة من الأوزبك عبر جيحون ، وهو المسلم الغيور الذى كان يكن عميق الاحترام لأمير المؤمنين خليفة الرسول ، وذلك لما كانت عليه بلاده من التفكك بطبيعة الحال ، فضلا عن عدم ميله بطبيعته الى خوض غمار الحرب . وهو حين تعرض للنزاع مع الثائرين عليه من أمرائه ، ذلك النزاع الذى استطاع أن يحد منه بعض الشىء حين عهد بأمره الى محمود وفوضه فى ذلك تفويضا تاما ، فكان

جديرا بما وضعه فيه من ثقة ، فانه لم يقدم على مواجهة هذه الخطوب بشخصه الا حين كان يضطر الى ذلك اضطرارا .

ولقد نصحه النصحاء أن يقضى على الحرب الأهلية فى بلخ بتنصيب ابنه مقيم خان حاكما عليها ، فلم يقبل العمل بهذه النصيحة الا بالكاد ، اذ كان يحتج بأن ابنـه لا يصلح لهذا المنصب ، ويرى انه ينقصه العلم والنضج . وكان سبحانقلى بدوره كلفا بدراسة العلوم ، ولم يكن يأنف حتى حين تقدمت به السن من الجلوس الى كبار العلمـاء وتلقى العلم عنهم . وقد نظم ، بتخلص نشانى ، أشـعارا لها أكثر من قيمتها كشعر سياسى عادى . وكان على تفوق فى الطب بخاصة بين العلوم الدنيوية . وبين أيدينا دليل بين على ذلك فى كتاب ألفه فى هذا العلم ، وكان من حسن حظى أن حصلت فى هراة على نسخة جميلة الخط منه .

ويقول هذا الأمير النبيل فى مقدمة هذا الكتاب القصيرة « اعلم أن حكماء الأطباء الذين مضوا قد خلفوا من ورائهم أسفارا قيمة بالعربية والفارسية . ولم يصل الى يدى كتاب بالتركية فى هذا العلم . وعلى هذا قمت أنا الفقير اليه تعالى سيد محمد سبحانقلى خان بن سـيد نظر خان روح الله روحه بتصنيف هذا الكتاب ، وبينت فيه دواء كل داء لينتفع به الناس » (١) .

ولا نجد كذلك لهذا الأمير نظيرا فى حرصـه على العنـاية بصحة شعبه . وقد تقدمت بسبحانقلى السن حتى بلغ الثمانين . وحين شعر بدنو أجله ، بعد مرض قصير ، جمع خاصته من حوله وأوصاهم بأن يرضخوا لمشيئة الله دون شكوى أو تذمر ، وأبدى أسفه اذ لم يتح له وداع ابنـه العزيز مقيم خان ، وكان قد بايعه منذ زمن طويل وليا لعهده . وبعد أن أوصى باقامة أخيه الأكبر عبيد الله وصيا على العرش حتى يرشـد مقيم خان فارق الدنيا أوائل ربيع الآخر عام ١١١٤ (١٧٠٢) بعد أن حكم واحدا

---

(١) نقلت جزءا من هذا الكتاب فى كتابى :
Tschagataische Sprachstudien :
ويعتمد فيه مؤلفه على الترجمة العربية لجالينوس وابقراط ومؤلفات ابى على بن سينا ، وأغرب مافيه هو ماوصفه من العلاج بالدعوات والتعاويذ

وثلاثين عاما فى بلخ وأربعة وعشرين عاما فى بخارى ، فجملة ذلك كله خمسة وثلاثون عاما ، كان فى بعضها خصما ثائرا قويا وفى البعض الآخر أميرا مستقلا .

كان اعتمادى على ما ورد عند صاحب « تاريخ مقيم خانى » ، وذلك فى ايراد وصية سبحانقلى بشأن ولاية العهد التى ذكرتها فيما سبق . ولا نستطيع أن نجزم بأن هذا هو الصحيح ، أو أن ذلك الكاتب انما أورد هذه القصة على هذه الصورة لصالح سيده . على أن الأمر الوحيد الثابت هو أن النزاع على العرش قد شب بين الأخوين وذلك على اثر موت أبيهما ، واستمر لبضع سنين .

ذلك أن مقيم خان حين بلغه وهو ببلخ خبر وفاة أبيه أرسل الى أخيه أول الأمر برسالة عزاء ثم بعث اليه رسولا من بعد ذلك يهنئه بارتقائه العرش .

واذ كان عبيد الله يدرك تمام الادراك مدى مشاعر أخيه العدائية نحوه فقد عمد الى استقبال رسوله اليه ببرود ظاهر . وما غدت الحرب أن نشبت من بعد ذلك بين قسمى المملكة ، ما وراء النهر وما قبل النهر . وظاهر محمود بى الأمير مقيم فى حين ظاهر عبيد الله رحيم بى الأتاليك زعيم قبيلة المنغيتيين وكان القتال بين الفريقين فى الواقع صراعا بين القبيلتين الأوزبكيتين أكثر منه نزاعا بين مطالبين بالعرش . ذلك أن احترام الأسرة المالكة كان قد نزل الى الحضيض ، وصار الأمراء بعد موت سبحانقلى مجرد دمى لا حول لهم ولا قوة بأيدى النبلاء من ذوى الأطماع . وتم لعبيد الله النصر آخر الأمر بعد صراع دام ما يقرب من خمس سنوات . وظل على العرش طالما وافق ذلك أغراض رحيم بى الأتاليك القوى . حتى اذا ما حاول عبيد الله أن يتخلص من شدة وطأة ظهيره هذا عليه عام ١١٣٠ (١٧١٧) (١) كشف أمره فقتل وأجلس مكانه أخوه أبو الفيض خان . وكان هذا الأمير على درجة شديدة من الخضوع والاستكانة ، وهى

(١) اعتمدت فى ذلك على الرواية بالمشافهة التى سمعتها فى بخارى اذ لم تصل يدى الى مصادر تاريخية فى ذلك أستطيع أن أعتمد عليها . ومما يلفت النظر أنه ليس بين أيدينا مراجع وثيقة عن تاريخ بخارى الحديث .

صفات يعتذر عنها سكان آسيا الوسطى رياء بأنهـا ليست الا « وداعة التقى وصفة الدرويش » .

وبفضل هذه الصفات طالت مدة حكم هذا الأمير الاسمى بلا نزاع ، فظل يحمل التاج على مفرقه أربعين عاما كانت السلطة الفعلية فيها بأيدى رحيم بى ورجال قبيلته .

وكان الجانب الأدنى من جيحون ، ونعنى به بدخشان وبلخ ، يحكمه فرع آخر من هذه الأسرة المـالكة يتمثل فى شخص حفيد لاحدى بنات نظر محمد خان . وكان صـالح خوجه رأس تلك الأسرة قد انغمس فى حرب دامية أيام سبحانقلى مع مقيم خان ومحمود بى بسبب ولاية بلخ ، فلم يتم له توطيد أقدامه فى بلاده الا بعـد أن انسحب محمود بى من الميدان . وكان هذا الأمير قد احتال فى نزاعه هذا باتتحال بعض صـفات دينية معينة ادعاها لنفسه استطاع بهـا أن يكسب أهل بلخ لصفه أمدا طويلا . ولم يبق على بعض الولاء لبخارى فى هذا الجانب من جيحون الا أندخوى وميمنه مع تركمان لباب (١) أو ارساى تركمان . ولم يجد ولاؤهم هذا الا قليلا فى تأجيل تحلل هذه البلاد أو خرابها . ولم يكن الأمر ليحتاج الا لهبوب بعض الريح فتنهار بذلك رقعة بيت الأشترخانيين ، فما بالك بتلك الريح العاصف التى هبت عليهم من ناحية ايران ممثلة فى شخص نادر شاه (٢) .

---

(١) تركمان لباب أو تركمان الشاطىء يعرفون بهذا الاسم منـذ أن استقروا بهذه النواحى ، اذ كانوا قد نزلوا عند الشاطىء الأيسر لجيحون من خوجه صالح حتى چهارجوى ، ويؤكد هؤلاء التركمان أنهم كانوا قد قدموا من منغشلاق .

(٢) على ما يرويه ميرزا مهدى مؤرخ نادر الذى يعرف أيضـا باسم نادر قلى ، فان هذا الشاه الفارسى ينحـــدر من قراقلى احدى بطون قبيلة أفشـــار ، أو أوشـــار على الأصح ، واللفظ الأخير هو على ما ينطق به التركمان ، ومعناه : المؤتلف . وكان الأوشار قد نزحوا من تركستان الى ايران ابان الاحتلال المغولى وسكنوا آذربيجان ، ثم هاجروا أيام الشـاه اسماعيل الصفوى الى خراسان فنزلوا فى ياب كوبكن من أعمال أبيورد ، وتقع على مسيرة عشرين فرسخا الى الشمال الغربى من مشهد . وعند حافة السهوب هنـــاك ولد نادر شاه يوم السبت السـادس من المحرم عام ١١١٠ (١٦٦٨) .

لئن كان آخر غزاة العالم الآسيويين هذا لم يزحف بجيوشه المظفرة نحو الشرق الا بعد أن جلس بالفعل على العرش ، فما ذلك الا لما كانت عليه الأقاليم الواقعة الى الشرق من ايران من الضعف اذ ذاك حتى لم يكن خطرها عنده فى المقام الأول . ولم يكن هذا الوصف يشمل بلاد ما وراء النهر فحسب ، بل ويصدق على الهند أيضا . ولقد حاز نادر انتصاراته الأولى ، التى أذاعت من شهرته ، فى حروبه مع خصمه القوى فى الغرب ، فلم يبدأ فى توسيع رقعة بلاده فى ناحية الشرق الا بعد أن تم له هزيمة العثمانيين فى جورجيا والعراق العربى . وفيما كان يحاصر قندهار بعث بابنه رضا قلى مع فرقة قوية من الجند فسلك طريق بادغيس ومرجه ـ مروجان السابقة ـ ليعاقب على مردان أمير أندخوى على ماصدر منه من نزق وتهور . وقد وقع هذا كله عام ١١٤٩ (١٧٣٦) . والغالب أن بدو الترك عند أندخوى هم وقبائل قره وجلاير سارعوا بالانضمام الى الفرس الذين آغروهم على ذلك بالمال الكثير . ولم يكن الدفاع عن هذا المكان ليتم أبدا دون معونة هؤلاء البدو . وسرعان ماتمت هزيمة على مردان وسيق هو نفسه أسيرا الى نادر شاه . ولقيت أقجه وشپورغان نفس المصير الذى لقيته أندخوى من قبل ، فلم يقدم على الوقوف الجدى فى وجه هذا العدو القوى الا بلخ حيث كان يحكم سيد أبو الحسن بن صالح خوجه سالف الذكر . وعمد المدافعون هناك الى حفر كثير من الخنادق العميقة فى الطريق المؤدى الى « أم البلاد » (١) القديمة فلم يعوق ذلك رضا قلى فى زحفه فى شىء . وسرعان ما أرغمت مدفعيته القوية حصن المدينة على الاستسلام ، ولم يكن يحميه الا سور من الطين . واغتبط نادر شاه أشد الاغتباط حين سمع بسقوط بلخ ، وكافأ ابنه على ذلك بأن منحه اثنى عشر ألف دوقية من الذهب ، وخلع عليه ثلاثمائة من الخلع الثمينة مع خيول مطهمة سروجها ولجمها مرصعة بالذهب والحجارة الكريمة .

---

(١) ان فى اطلاق العرب هذا الاسم على بلخ ما يدل على معرفتهم بماضيها المجيد .

شعر رضـا قلي من بعد ذلك بأن عليه أن يحقق أهدافا جديدة . فما أن انطلق بعض جنده يغيرون على الشاطىء الآخر لجيحون طلبا للنهب والسلب حتى عبر النهر بجيشه كله فهاجم أبا الفيض . على أن ابن نادر شاه الطموح هذا كان قد أخطأ فى حسابه هذه المرة . ذلك أن أبا الفيض ، ذلك الصوفى الراهن ، كان قد استنجد بيولبرس (الأسد) خان أميرخيوه القوى الجسور فسار اليه بجيش من الأوزبك الأشداء قطع بهم الطريق على الفرس عنـد قارشى . ولئن كان الغـزاة قد نجحوا فى الواقع فى الاستيلاء على قلعة چلدوق القريبة ، الا أن جيوش التتـار المؤتلفة قد استطاعت أن تنزل بهم ضربة شديدة على كل حال . هنالك رأى نادر شاه أن يتفادى تعرض جنده لكارثة ، فاستدعى ابنه اليه فجـأة ، وبعث فى الوقت نفسه الى أمراء آسيا الوسطى والى زعمـاء الأوزبك ينهى اليهم أن هذه الحرب انما كان ابنه قد أقدم عليها دون علمه ، وأنه انما يبغى أن يعيش معهم فى مودة وسـلام ، فلم يجر فى خاطره أبدا أن يتعرض لأملاكهم التى ورثوها عن چنكيز خان وبيوت التركمان العظيمة .

وعلى مايلاحظه مالكولم بحق ، فى كتابه عن تاريخ الفرس ، أن الجلى أن سلوك نادر هذا كان من وحى فطنته التى حببت اليه أن يعمل على تحقيق أطماعه فى اعتدال ، فلا يحمل ذلك بحال ما على محمل غيرته مما وصل اليه ابنه من أمجاد . وبرغم ماكان عليه حاكم بخارى من الضعف ، فان الأوزبك كانوا كفيلين بتعويق عمليات نادر الحربية فى الجنوب لو أنهم كانوا قد قاموا جميعا مؤتلفين بعمل مشترك ، وهو ماكان الشـاه الفارسى يحرص بدوره كل الحرص على عدم وقوعه . وقد نجح بهـذا الطريق الودى الذى ادعاه فى فض التحالف بين بخارى وخيوه . وحين تقدم يولبرس ، فى غياب نادر شاه ، فأغار على خراسان وسبب لأميرها رضا قلى بذلك كثيرا من المتاعب ، وقف الأوزبك فى بخارى ، وعلى رأسهم رحيم بى أتاليك ، الى صف الفرس بما بذله نادر شاه اليهم من الأموال والوعود الفارسية . ويسر من انضمام هؤلاء الى جانب الفرس ما استبان لهم من أن قيام التفاهم بينهم وبين خيوه لايؤدى الى تقوية الاشترخانيين بقدر ماسوف يؤدى الى احباط أطماع قبيلة المنغيتيين على

وجه اليقين . ولا ندرى شيئا من تفصيل أمر الشقاق بين هاتين الخانيتين . ومبلغ علمنا هو أن نادر شاه حين آب من حربه المظفرة بالهند وجد أن رحيم بى قد مهد له الطريق ، فلم يعبر جيحون دون أن يطلق قذيفة واحدة فحسب ، بل لقد وجد القوم كذلك يستقبلونه بمراسم الاحترام والاجلال. فقدم اليه حكام حصار وقارشي عند كرخي فأعربوا عن ولائهم له . وأعد له قارب ، قام مهرة العمال البخاريين على نقشه بالميناء خصيصا ، فعبر به ذلك النهر الذى كان يفصل فى القديم بين توران وايران .

واذ كنا لانعرف من تفصيل حروب العاهل الساسانى فيروز فيما وراء جيحون الا مما يلقيه علينا القصص الشعرى من بعض الأضواء ، فعلى هذا يمكننا أن نعد « نادر » أول ملك فارسى يلبس تاج الكيانيين ويحكم كملك شاطئى ذلك النهر الغربى الحريريين (١) ، على حد قول الرودكى . وأقام نادر مضاربه على مسيرة أربعة أميال من بخارى ، وجلس فى سرادقه الفخم فى انتظار أبى الفيض ليقدم اليه ويعلن خضوعا له . وكان رحيم بى أتاليك قد بعث به الى بخارى ليحمل أميرها آخر الأشترخانيين ، على القدوم الى شاه فارس . ولم يصادف رحيم بى مشقة فيما ندب له ، فقد وجد الجنكيزى ، ذا الدم النقى ، كما كان يحلو للاشترخانيين أن يقولوا عن أنفسهم ، وهو يجلس وسط خلصائه وقد استغرقوا جميعا فى التأمل فى أحوال الدنيا الفانية . وهكذا قدم أبو الفيض فى فرقة من الشيوخ الى المعسكر الفارسى فى التاسع عشر من جمادى الآخرة عام ١١٥٣ (سبتمبر سنة ١٧٤٠) ونزل فى السرادق الذى كان قد أعد له ولحرسه . وتقدم بولائه فى اليوم التالى الى نادر شاه ، فأهداه الشاه الفارسى بهذه المناسبة منطقة مرصعة بالحجارة الكريمة وفرسا عربية سرجها مذهب وعدة هدايا أخرى . وعامل نادر شاه أبا الفيض

(١) يشير الرودكى الى ذلك فى شعره حيث يقول :
ريك دريا آمو ودرشتيهاى أو زير پايم برنيان آيدهمى
اى أن رمال شاطىء جيحون وحصاه تحت قدمى وكأنها الحرير .
والرودكى هو أول شاعر فى الفارسية الاسلامية يتغنى بمدح بخارى .
(چهار مقاله الترجمة العربية لعزام والخشاب)

كملك أخ ، ولكنه طلب اليه فى الوقت نفسه أن يتنازل له عن كل مناطق شاطىء جيحون القريب وأن يمده بفرق من الأوزبك والتركمان . ووثق الطرفان ما بينهما من تحالف بربط بيت الأفشار من عرق الچنكيزيين العريق برباط المصاهرة .

وبعد أن بنى أحد أبناء اخوة نادر بابنة الأمير الورع انطلق شاه فارس فزحف الى خوارزم ليصفى حسابه مع يولبرس ، وهو الذى بات فى الميدان وحيدا . ونجح نادر فى حملته هذه ليلتقى به من بعد ذلك أمير بخارى عند جهارجوى ، وهو فى طريق عودته ، فيؤكد له من جديد ولاءه له وخضوعه . ودخل نادر مدينة مشهد دخول الظافر فأهدى الى مقام الامام على الرضا ، ولى ايران ، قفلا من الذهب المحلى بالجواهر كان قد غنمه من التورانيين . وهذه الهدية هى أثمن حلية تزين السور الفضى المقام حول ضريح حفيد على العظيم (١) . وحين انضم هؤلاء التورانيون الى الجيش الفارسى صارت فرقتهم المخوفة ، ومعها الأفغان ، مصدر رعب مقيم للفرس الشيعيين .

ان ما حققه نادر شاه من مكاسب بحملته عبر جيحون ، سرعان ماضاع عقب موت هذا الفاتح البطل وذلك بمجرد أن هدأ الغبار الذى أثاره وقع حوافر خيول فرسانه . على أن كسره لشوكة الاشترخانيين قد عاد على هذه الأسرة بعواقب وخيمة . فقد هان شأن أبى الفيض خان حتى صار مجرد آلة بأيدى وزيره الطموح ، فخلعه آخر الأمر وقتله عام ١١٥٠ (١٧٣٧) . ولاقى ابنه من بعده نفس مصيره ، وكان قد تزوج ابنة لرحيم بى . ومع مايقال من أن ثمة أميرا ثالثا من الاشترخانيين قد رفع صوريا على العرش ، فان أبا الفيض ، أصغر أبناء سبحانقلى ، هو الذى يعد فى

---

(١) فقد قسم كبير من هذه الجواهر الثمينة فى حرب أحمد شاه الأفغانى . وبرغم أن « مشهد » تركت لشاهرخ ميرزا بن نادر فان الأفغان قاموا بتخريبها تخريبا شديدا . هذا كما استعان الثائر سالار بقسم آخر من كنوز الامام الرضا ، وذلك فى حربه مع شاه فارس الحالى . وقع مثل ذلك بكثير من أضرحة الأولياء . وهكذا تزدان قبور الأولياء بكل ماهو ثمين لينتزعها من بعد ذلك رجال من ذوى الطموح يستعينون بها فى القتل والحرب .

الحقيقة آخر حكام هذه الأسرة • ذلك أنه ابان حكمه ، الذى طال مايقرب من خمسين عاما ، أخذت تخبو آخر ومضات العظمة السياسية والأهمية الاجتماعية ، التى كان يتفوق بها هـذا الاقليم الصـغير ، الواقع على جيحون ، على كثير من شعوب آسيا الاسلامية فيما مضى .

ولا نجد مانتحدث به عن الحضارة فى تلك الفترة بعد ذلك الذى ذكرناه عنها فيما سبق . ففى هذه الحقبة كانت الدولة العثمانية وفارس والهند تزدهر فيها جميعا حضارة اسلامية قوية ممتازة . وكانت القصور السلطانية فى القسطنطينية وأصفهان ولاهور قد غدت تتصـل بالغرب بواسطة من كان يقصدها من الأوربيين فى ثياب السفراء أو التجار أو المبشرين . فى حين بقيت بلاد ما وراء النهر فى عزلة عن العالم ، ببدوها الأجلاف الذين تولوا الأمر فيها ، وبسهولها المقفرة ، متمسكة تمسـكا شديدا بعقلية القرون الماضية ، حريصـة على ذلك كل الحرص ، حتى جهدت فى أن تبز السلف الصالح فيما كانوا عليه من الاستمساك بقواعد الشرع . وعلى ما لاحظنا من قبل ، فقد كان العلم ، كما يفهمه الناس على شواطئ زرفشان ، هو تفسير القرآن والفقه فحسب . ومثال الـكمال عندهم كان فى حياة الصوفى التى يقضيها يسخر من تكالب الناس على الحياة ، وهو يرى أن الدنيا وما فيها لا تساوى شيئا . ولو أن رجالا فى بخارى كانوا قد عرفوا كيف يربطون بين نوازع المعرفة والعلم النبيلة وبين الاستمساك المكين بسنن الاسلام ، على ما كان عليه الحال فى المـاضى بقرطبة ودمشق وبغداد ، فلربما كان قد أمكن لهم بذلك أن يحتفظوا ببعض آثار الثقافة الاسلامية القديمة حتى فى أسوأ أوقات الانحلال والضعف . وكان ما منعهم عن تحقيق ذلك هو كلفهم بالحروب مع غلظة الترك من جهة ، وموقع بلاد جيحون المنعزل من جهة أخرى . وعلى هذا فلم يكن للأمراء على ضفاف زرفشان من مظاهر النشاط ومن الأمجاد التى كانت تسود بلاط أمراء المسلمين ، من أمثال هارون الرشـيد وعبد الرحمن الثانى ، الا حرصهم على المظاهر الدينية . ولقد وهم أمراء بخارى أنهم انما يضطلعون بواجباتهم على الوجه الأكمل حين لا يتقاعس المؤمنون عن أداء

الفروض ، ويسيرون فى كل فعالهم على ما كان يجرى عليه الحال (وقت سعادت) ، أى فى عصر الاسلام الذهبى الأول .

ولم يظهر عند الاشترخانيين الأول من الشعراء والكتاب الا قليل ، وكان هؤلاء ممن يشتغلون بالتأريخ بحروف الجمّل من بقايا شعراء الشيبانيين . وكان من بين الاشترخانيين أنفسهم من أظهر كفاية مشهودة فى الحكم وكلفا حقا بالثقافة . ومن هؤلاء امام قلى والأمير قاسم محمد سلطان ، ثم النبيل سبحانقلى بخاصة . وما أبداه أولهم من اهتمام بالغ بالزراعة لاتزال آثاره تلتمس حتى اليوم فى قنوات الرى المهملة التى تحمل اسمه . كما ترك قاسم محمد بدوره ديوانا مشهورا يشهد بما كان له من ملكات شعرية . ولا أدل على شغف سبحانقلى بالعلم من كتابه فى الطب الذى أشرنا اليه من قبل . ولم تكن جهود هؤلاء بطبيعة الحال لتغير الا قليلا من عقلية الناس الهمجية وضيق أفقهم . وما فعله هؤلاء الأمراء الثلاثة ، الواحد بعد الآخر ، حين استبدل كل واحد منهم الصولجان بعصاة الحاج وهجر عرشه المتلألىء ليقضى بقية حياته فى المدينة الى جوار قبر الرسول ، لا نجد له شبيها فى التاريخ الاسلامى . وهو فى حد ذاته دليل كاف على أن الزهد والمبالغة فى الورع والتقوى كاناالظاهرة السائدة هناك فى ذلك الوقت .

على أن العناية بدراسة علوم الدين كانت ضئيلة بالقياس الى ذلك كله ، فلم تنشأ الا بضع مدارس ومساجد بنيت أيام الاشترخانيين وكانت دون ما أقامه من سبقوهم ، وذلك بسبب الاضطراب الاقتصادى الشديد الذى كان يسود البلاد . وعلى ما رواه سيد راقم كانت بخارى وسمرقند عام ١٠٣٠ (١٦٢١) تزخر بالمنشآت الفخمة التى كانت قد أقيمت فى قرن سابق لذلك الوقت ، وكانت يد الخراب قد بدأت تمتد اليها لاهمال شأنها . أما منشآت الاشترخانيين أنفسهم فكانت مدرسة يلنكتوش التى بنيت عام ١٠٢٠ (١٦١١) فى مواجهة خرائب مدرسة ألغ بك ، ومسجدا ومدرسة ببخارى أقامهما الثرى نظر ديوانبيكى عام ١٠٢٩ (١٦٢٠) ثم

ايوانين (كورونوش خانه) كان قد أقامهما باقى محمد خان فى بخارى وفى سمرقند عام ١٠١٤(١٦٠٥) .

وأما فى خارج بلاد ما وراء النهر فقد كانت بلخ هى المدينـــة التى كثيرا ماتردد ذكرها بسبب الاصلاحات اليسيرة التى قام بها حكامها فى مقام على المزعوم ، وكان مؤرخو ذلك العهـــد يهللون لها على الدوام . وكانت الآداب قد وصلت بدورها فى هذه الفترة الى درجة بالغـــة من الانحطاط . ومع ماكانت عليه دراسة التصوف وعلم الكلام من الرواج فاننا لانجد من بين دارسيها من برز فى علمه ، فلا يسلك بين مشـــاهير الرجال منهم الا قلة من المشتغلين بالتصوف ومؤرخى الجمّل تجاوزا .

الفصل السابع عشر

بيت المنغيتيين والامير معصوم

١١٩٩ (١٧٨٤) – ١٢٤٢ (١٨٢٦)

فى الوقت الذى أخذت فيه معلوماتنا عن أحوال الأقاليم الآسيوية ابان القرن الماضى تزداد وتكمل ، لبثت بلاد ما وراء النهر والحال فيها على النقيض من ذلك . فكلما كان يقترب تاريخها من عصرنا الحالى ، كلما كانت تزداد كثافة الغموض التى تلف الأحوال السيئة التى كانت تمر بها تلك البلاد . واذا كان تاريخ مايجاورها من دول لايدلنا على شىء يوثق به عنها ، واذا كان الرحالة الأوربيون (١) لم يجرءوا على النفاذ الى هذا البلد الذى كان ينحدر الى هوة الهمجية ، فلا حيلة لنا تلقاء ذلك كله الا أن نقنع (٢) فى ذلك باللمحات الخافتة التى تصل الينا عن طريق تلك الومضات القليلة التى تنير لنا الطريق هنا وهناك . وقد زادت كثافة هذه الظلمة التى تلف ذلك المكان فى تلك الفترة التى قضى فيها على أسرة

---

(١) زار الرحالة الأوربيون فى العصر الحديث بخارى فقط وذلك أوائل هذا القرن . وقد أقام الاخوة بولو ثلاث سنوات هناك من قبل فى عهد براق خان ١٢٦٤ – ١٢٧٤ . هذا كما زار بخارى عام ١٥٥٨ – ٥٩ جنكينسون الذى ساح بآسيا الوسطى مع الاخوة جونسون ، كداعية لنسيج المصانع الروسية .

(٢) علمت عن طريق صلتى بسير هنرى راولنسون أن بمكتبة حكومة شرق الهند وبالمتحف البريطانى عدة مخطوطات تتناول تاريخ بخارى المتأخر ، وهى لسوء الحظ لا تعار خارج تلك الدور . ولما كانت ظروفى الحالية لا تسمح لى بالرحيل الى هناك ، فانى آمل أن أفيد منها مستقبلا اذا ما كان فيها هو حقيقة جديد غير معروف .

الأشترخانيين وأمسكت أسرة المنغيتيين (١) من بعدهم بزمام الأمور . ولئن كان هذا الحادث مما يسهل تعليله الا أن الغموض ما يزال يكتنف تفصيله .

ولئن كان هؤلاء المنغيتيون ، وهم الذين اختاروا بلاد ما وراء النهر مقاما لهم من بين أسر الأوزبك العديدة ، هم الذين قضوا على بيت الاشترخانيين المتداعى ، فلم يكن صنيعهم هذا بمحض الصدفة بقدر ما كان نتيجة للمكاسب التى حصلوا عليها منذ أول ظهورهم بآسيا الوسطى .

وكانت قوتهم قد أخذت تتزايد منذ أن أخرجهم چنكيز خان من موطنهم الأول بالغابات عند منغوليا الشمالية الشرقية وأسكنهم شواطىء جيحون . وكانت منازلهم الجديدة هذه باقليم الغابات على الشاطىء الأيسر لجيحون حيث يقطن الآن قرقلباق خيوه . وفى ذلك المكان أسدوا خدمات طيبة لأمراء خانية خيوه . وكانوا يشتهرون بشجاعتهم ونبل محتدهم بين قبائل الترك بعد القنقرات . وعلى هذا فقد استخدم شيبانى فريقا منهم . وكانوا هم أولئك الذين استقروا من بعد ذلك بخانية بخارى فى منطقة السهوب جوار قارشى .

وكان لهؤلاء على الدوام نفوذ ملحوظ ببلاط بخارى ، لا لما كانوا عليه من جسارة وتهور فى الحرب فحسب ، بل ولاخلاصهم للأسرة المالكة كذلك . وكان باى قبيلة المنغيت (الزعيم الأشيب) من أخلص أتباع الأمير الحاكم ، مابقى الأمراء الاشترخانيون على قوة يمارسون سلطانهم الحقيقى . حتى رأينا رحيم بى أيام أبى الفيض يعدل عن ذلك ويتوسل بمنصب الوزارة الذى تقلده الى اغتصاب سلطة الأمير نفسه ، فلا يقضى

---

(١) يؤكد أبو الغازى فى كتابه عن أنساب الترك (ص ٢٧ طبعة قازان) أن المغنيتين عرفوا بهذا الاسم اذ كانوا يعيشون فى غابة كثيفة أيام كانوا تحت سلطان چنكيز خان . ولا أستطيع أن أفهم كيف يحمل كلمة منغيت على معنى الغابة الكثيفة . وكان الكتاب الچغتائيون القدماء يرسمونها « منغكيت » . والمنغيت الحاليون ينقسمون الى فريقين ، أحدهما يعيش فى منطقة خيوه ، التى تحمل اسمهم ، على الشاطىء الأيسر لجيحون ، والآخر ينزل حول قارشى .

على أبى الفيض فحسب بل ويقتل ابنه كذلك ، وكان قد زوجه من ابنته من قبل . وخلف رحيم بى فى منصب الوزارة وفى زعامة المنغيتيين دانيل باى وكان على قرابة بالأشترخانيين من ناحية أمه .

ولعل قرابته هذه هى التى مكنته من أن يستبد بالأمير أبى الغازى، أحد أحفاد أبى الفيض ، فيجعل منه مجرد عاهل بالاسم ، وينزل ، باسمه ، أشد أنواع المظالم بالناس وينهب أموالهم . ويقال ان أبا الغازى ، آخر أمراء بلاد ما وراء النهر ممن كانت تجرى فى عروقهم دماء جنكيز ، كان يعيش فى رعب مقيم خوف وزيره ، حتى كان لايجرؤ على مغادرة داره دون اذن منه .

ولم يكن يظاهر دانيال باى هذا قادة الجند فحسب ، بل وطبقة رجال الدين أصحاب الأطماع كذلك . وكان من أيسر الأشياء لديه أن ينادى بنفسه أميرا على البلاد ، ولكنه آثر أن يترك هذا الأمر لابنه معصوم الذى أفلح ، بالحيلة والرياء ، فى أن يحمل أهل بخارى على المناداة به أميرا عليهم ، وكانوا قد ضاقوا ذرعا بالفوضى الضاربة بين ظهرانيهم .

كان الأمير معصوم يدعوه أبوه فى صغره بلقب بك خان (١) (حبيب القلب) . وحين شب على ما كان يرجوه أبوه منه صار يدعوه شاهمراد (أمل الأمير) . وفى هذا الأمير كان يتمثل على خير وجه موجة الصوفية التى عاش فيها ، وبه بلغت ذروتها . بل لقد نهض فى شبابه بجماعة المتصوفة نهضة ملحوظة حتى استعاض بخرقة الدرويش عن ثوبه الرسمى. وفيما كان اخوته وأقاربه يقضون حياتهم فى خصومات عنيفة كان هو يقضى أيامه فى الخوانق والمساجد مستغرقا فى التأملات الدينية لا يسمح لأحد أن يقتحم عليه خلوته هذه . بل لقد ذهب به الحال الى أن رفض أن

---

(١) من العادات التركية القديمة التى لا تزال قائمة بآسيا الوسطى حتى اليوم أن يطلق الأب على ابنه البكر من أسماء التدليل مثل : بابا جان (الولد العزيز) ، أو خان جان (الأمير العزيز) ، أو بك جان (الزعيم العزيز) وليس الحال كذلك مع البنات . وكان مولدهم لا يحتفل به الوالدالآسيوى أبدا .

يتسلم ميراثه عن أبيه وأمر به أن يفرق صدقات فى الناس ، وأن يرد الى أولئك الذى اغتصب منهم ما أمكن ذلك ، فلم يقبل أن يدنس يده ، على حد قوله ، بالمال الذى جلب اليه بطريق القهر والعنف . وذهب فى سبيل اظهار حزنه وأسفه على ماكان يرتكبه أبوه من المظالم الى أن كان يلبس ثياب الندم ويعلق السيف فى رقبته ثم يمضى على هذه الهيئة يبكى وينوح فى الطرقات ويسأل الأهلين الصفح عما وقع عليهم من الجور فى حكومة أبيه . ولنا أن نتصور مبلغ ماكان يثيره سلوكه هذا بين الناس من شعور الاجلال والاحترام نحوه ولا سيما بين رجال الدين منهم [1] ، ولو كان مير معصوم قد رغب فى أن يستغل هذا الوضع من فوره ، لكان قد استطاع عقب وفاة أبيه ، أن يحرز فى التو نصرا مبينا على اخوته وعلى العصاة من النبلاء فى بلاده ، ولـكنه آثر أن يتريث بعض الوقت حتى يستند فى عملياته المقبلة على أسس أكثر رسوخا .

وقضى هذا الأمير عاما آخر فى الخلوة بالمقصورة الأمامية بالمسجد الجامع كتب فيها أحسن مؤلفاته وهو كتاب « عين الحكمة » [2] ، وكان يكفيه ورود الجموع الحاشدة من المعجبين الذين كانوا يتجمعون عند داره أو يسيرون بين يديه فى الطرقات فيدعو لهم بقراءة الفاتحة أو بأنفاسه الطاهرة المستجابة .

على أن الاضطرابات كانت قد توالت وتفاقم أمرها حتى شملت البلاد كلها ، وامتد الصراع بين هذه الأحزاب المتطاحنة الى العاصمة نفسها ، حتى سقط فى احدى هذه المصادمات قرابة ألف من أهل هذه المدينة كان من بينهم بعض اخوة للأمير . وحين وجد الأمير الضعيف أبو الغازى أن لاقبل له بتهدئة هذه الفتن ذهب فى نفر من الأعيان الى المسجد الذى يعيش فيه مير معصوم فتوسل اليه أن يقبل منصب الوزارة

(١) صار الرسم منذ ذلك الوقت أن يمضى كبار رجال الدولة بقية أيامهم ، حين ينسحبون من الحياة العامة ، لا فى أملاكهم وانما فى خانقاه أو مدرسة .

(٢) مبلغ علمى أن مير معصوم كان يكتب فقط بالفارسية ، فكان بذلك أول أمير ببخارى يهمل لسانه الأصلى ورعا . ذلك أن أسلافه برغم اجادتهم الفارسية كانوا يفضلون الكتابة بالتركية .

الذى تقلده من قبل مير دانيال عدة سنوات بنجاح ، وأن يشيع من بركاته على العرش الذى خبا ضياؤه ويعيد السلام الى البلاد . ولكن ذلك الورع الذى قتّل بأمره فيما بعد ألوف عديدة من الناس وخرّبت أحياء بأكملها على يديه ، اعتذر عن قبول هذا المنصب اذ ذاك متظاهرا بزهده فى أمور الدنيا ، ووعد القوم فقط بأن يبدى لهم المشورة والنصح . ولم يفعل ذلك حتى ذلك الذى وعدهم به الا بعد أن أخذ نياز على بك أمير شهرسبز الثائر يهدد بخارى بتخريبها تخريبا تاما .

وحين تبدى لمير معصوم مدى الخطر الذى قد ينجم عن تردده ، بادر من فوره فخرج على رأس جيش لم يتأت له به أن يطرد هذا الثائر الى ما وراء حدود الخانية فحسب ، بل واسترد كذلك منه حصار وقارشى ، وكان قد استولى عليهما بالقوة من قبل . وبهذا استطاع أن يرد الأمور الى نصابها بالتدريج .

وكان من الطبيعى أن يؤدى ازدياد نفوذ الأمير معصوم السياسى الى أن يجرى العمل بكل جهاز فى حكومته وفق قواعد الشرع وسنته القديمة التى كانت بخارى تلتزمها على الدوام ، فلم يتراخ العمل به الا فى عهد الحكومات الضعيفة أيام الأمراء المتأخرين . وحرص هذا الزاهد الداهية أول الأمر على أن يستعيد لحكام المسلمين سابق هيبتهم واحترام الناس لهم . وترك أبا الغازى بذلك يمارس بعض مظاهر الامارة ، حتى اذا ما تم له اقرار الأمور على هواه ، تارة بطريق المظهر الصوفى الذى كان يظهر به ، وتارة أخرى بسبيل العنف البالغ الذى كان يعمد اليه ، ما لبث أن انقلب على أميره نفسه . فقد اتخذ من الحياة التى كان يحياها أبو الغازى ذريعة ، أيده الناس فيها ، لابعاده عن الحياة الرسمية مع ربط معاش له ، ثم رقى هو نفسه عرش بلاد ما وراء النهر من بعد ذلك فى شعبان من عام ١١٩٩ (يونيه ١٧٨٤) وبدأ حياة كانت فى الواقع أبعد من أن تتواءم مع ثوب الدرويش المرقع الذى ظل يرتديه (١) .

(١) يقول مالكولم فى كتابه عن تاريخ فارس أن أبا الغازى كان حاكما بالاسم ، وأن أسرته كانت تعيش من دخل التاج . ولا أوافق على ذلك ، اذ أن ميرزا صادق المنشىء (كاتب البلاط) يذكر صراحة تاريخ ارتقاء الأمير معصوم العرش .

كان مسرح نشاط هذا الأمير ، خارج حدود بلاد ما وراء النهر ، فى فارس أول الأمر ، وبعبارة أدق فى ولايات فارس الشمالية الشرقية . وفى هذه الجهات جرت عادة عصابات من أصحاب الحمية الدينية على الاغارة على بلاد الروافض .

وبمـا كان يضطلع به الأمير معصوم من الغـارات هنـاك لقب بالغازى (١) . وطريق الغارات التورانية هـذا الذى يشتهر منذ آلاف السنين لم يكن على كل حال خلوا من التحصين فى ذلك الوقت كما عليه الحال الآن . فقـد كان به بعض مراكز قوية مثل مرو وسرخس بأيدى الشيعة الأقوياء الذين طالمـا أقضوا مضـاجع المغتصبين الأوزبك ابان احتلالهم لهذه البلاد ، وعوقوهم تعويقا جديا فى الاضطلاع بواجبهم ، كسنيين ، فى تخريب خراسان وفى أسر جموع السكان من أهلها وبيعهم بسوق الرقيق ببخارى . فلاعجب اذن حين نرى الأمير معصوم ، أو بكخان كما يسميه المؤرخون الفرس ، يهدف أساسا الى القضاء على هذه الجيوب ، وفتح الطريق الى هذه البلاد بعبارة أوضح . ولم يكن جيشه ، برغم أن قوامه كان بضعة آلاف من الفرسان ، الا عصـابة تركمانية كبيرة فى الواقع . وعلى هذا فقد سير أول عام من حكمه حملة الى مرو ، وكانت هذه المدينة منذ عهد الصفويين قد صار حكمها الى قبيلة القاجار ، وكان يتولى شئونها أمراء من بطن عز الدين لو . وقد أشرنا من قبل الى ارتباط هذه الأسرة برباط المصاهرة (٢) مع الاشترخانيين . على أن هذه المصاهرة

---

(١) الأصل فى هـذا اللقب أن يطلق على من يجاهد الـكفار ، أى النصارى واليهود وعبدة الأوثان . وقد ذكرنا من قبل أن السنيين بآسيا الوسطى كانوا يعدون الشيعة من الكفار . ولم يأخذ العثمانيون بهذا الرأى ابدا فكانوا يعدون الفرس مجرد روافض .

(والحقيقة أن الكافر فى الاسلام هو من ليس من أهل الكتاب ، أى من ليس نصرانيا أو يهوديا ، أما المسلمون فيختلفـون الى فرق وكلهم مسلمون) **الخشاب**.

(٢) أود أن أكرر هنا أن كلتا الأسرتين كانت تعرف هذه القصة معرفة تامة ، وحين اضطر شاهرخ ميرزا ابن عم شاه فارس الحالى من بعـد ذلك الى الفرار من بلاده بسبب التآمر أو الخيانة لجأ الى بلاط بخارى .

لم تمنع من اشتداد العداء المرير بين الأسرتين بسبب اختلاف المذهب . وقد استماتت حامية مرو فى الدفاع عن بلدها حتى ارتد الأوزبك والتركمان عنها خائبين فى حملتهم هذه التى كانوا يهدفون من ورائها الى أكثر من السلب والنهب . حتى قدم الأمير معصوم بنفسه فلم يستطع بيرم على خان قائد ذلك الحصن أن يصمد أمام جموع العدو ، وهو الذى ظل سنين طويلة يدفع جموع العصابات عن بلاده وما حولها .

وفيما كان بيرم خان يدافع عن مرو كان هناك زعيم آخر من قبيلته ، هو أقا محمد خان الطموح المقدام ، مشتبكا بالجنوب فى حرب مع الزعيم القوى لطف على خان دفاعا عن تاج الكيانيين . وكانت خراسان اذ ذاك يتقاسمها عدة أمراء يهدف كل واحد منهم الى الاستقلال بما بيده من أرضين ويتحاربون معا فى سبيل ذلك باستمرار . وكانت هراة أمنع حصن يقف فى وجه الغزو التورانى ، بيد شاهرخ ميرزا حفيد نادر شاه . وكان هذا الأمير قد بقى وفيا لتحالف جده السابق مع أبى الفيض ، وسره أن يرى الخراب يحيق بذلك القاجارى وكان من ألد أعداء أسرته . وتخلى الحظ عن بيرم خان آخر الأمر فغلب على أمره ، برغم ما أظهره من بطولة وماكان عليه محاربوه من شجاعة لايزال القوم حتى اليوم يترنمون بها فى أناشيدهم ، اذ كان فى صفوفه نساء وفتيات حملوا السلاح وشاركوهم فى هجومهم اليائس على محاصريهم . وسقط بيرم خان آخر الأمر تحت أسوار مرو (١) ، وما ان انتهى الأوزبك من نهب ريف المدينة كلها حتى ساقوا السكان جميعا أسارى معهم ، كما عمدوا الى كسر سد مرو (٢) ، القديم (بند مرو) حتى لايستطيع الأهلون أن يزرعوا أراضيهم مستقبلا، ثم قفلوا من بعد ذلك راجعين الى بخارى مع زعيمهم الورع الذى يخاف،

---

(١) يروى ميرزا صادق أن الأمير معصوم أمر بفصل رأس بيرم عن جسده وتعليقها ببخارى .

(٢) هذا السد ، وبعبارة أدق الخزان ، الذى دافع القوم عنه ، كان يقع فى الشمال الشرقى من مرو ، يستمد ماءه من مرغاب ، وقد نتج عن تدميره وشح الماء نتيجة لذلك أن انكمشت رقعة الزراعة بمرو فصارت قاصرة على بعض حقول للقاوون والخضر فقط .

الله . ولم تكن هذه الغزوة الأولى الا بداية سلسلة من الغارات التى قام بها الأمير معصوم ، الواحدة بعـد الأخرى ، خلال سـنين عديدة من حكمه (١) .

انتهى الحال بمرو الى أن نزل بها الخراب الشامل آخر الأمر (٢) . وكان الأمير الشجاع محمد حسين بن بيرم خان قد استطاع بعد موت أبيه أن يسيطر عليها بعض الوقت ببعض العون من أفغان تيمور شاه . وأرغم أهلها من الترك على الهجرة الى بخارى حيث لا يزالون يعرفون هناك بالمرويين حتى اليوم (٣) . ولم يبق منذ ذلك الوقت من آثار مرو (مرغيانا) المدينة الفخمة القديمة ما يدل على عظمتها الغـابرة الا بضعة متاريس من الطين تقوم وسط سهوبها الموحشة (٤) . وفى عام ١٢٠٥ (١٧٩٠) استولى على هـذه الخرائب تركمان الساريك ، ومن بعدهم تركمان التكه الذين كانوا ينزلون من قبل فى أخال . وفى هذا المكان ، الذى ازدهرت فيه الثقافة الفارسية والفن الفارسى يوما ما ، صار لا يسمع الا تأوهات أسـارى الفرس مختلطة بصرير قيودهم التى كانوا يرسفون فيها ، وهم أولئك الذين وقعوا بأيدى التركمان فحشروهم مكبلين بالأغلال فى خيامهم ، وأبصارهم شاخصة الى بلادهم الضائعة غير بعيد عنهم . وجاء دور مشهد فى العام التالى . وحين امتنعت هـذه المدينة بحصونها على العدو على غير ما كان ينتظر منها ، انبرى ذلك الزاهد ، الذى كان يقود

---

(١) يذكر ميرزا صادق أربع غزوات أخرى خرج فيها الأمير معصوم بنفسه .

(٢) جاء فى روضة الصفا ان حاكم بخارى كان قد خلف ابنه نصر الدين فى قلعة مرو مع حامية .

(٣) ذكرت فى كتاب رحلتى بآسيا الوسطى ص ٣٧٠ بناء على معلومات غير وثيقة أن الأمير سعيد هو الذى أرغم سكان مرو على الهجـرة الى بخارى .

(٤) زار خرائب مرو كل من بيرنز Burnes وولف Wolf وريتشموند شكسبير Richmond Shakespear وأبوت J, Abbot وتومسـون Thomson وكان الأخيران قد أوفدا فى سفارة الى خان خيوه ، كما ذهب كذلك الى بخارى مغامر نابلى يدعى فلورس ناسللى Flores Naselli برغم نصح الناس له بالعدول عن ذلك ، وقد قتل هناك ، وأخيرا بلوسكفيل Blosqueville وقد قضى عاما بأكمله سجينا عند التركمان .

الجيش الغازى ، يعلن أن ولى الله الامام الرضا قد ظهر له فى الرؤيا وطلب اليه أن يترك « مشهد » — مكان استشهاده — وشأنها هى وكل ما يجاورها من أرضين ، ثم قال للناس من بعد ذلك « انى أعلم أن الامام حى وأنه لن يغفر لى اذ أزعجه فى مقامه » . وما غدا أن قفل راجعا من بعد ذلك ولكن بعد أن أنزل الخراب بما حول هذا المكان من القرى .

ولم يعان شمال ايران من جموع التورانيين ، منذ غارات شيبانى وعبد المنعم خان ، مثل ماعاناه فى عهد هذا الأمير الدرويش . وعلى مايرويه ميرزا صادق فان عدد الأوزبك والتركمان لم يكن يقل فى كل غارة عن العشرين ألفا ، وأن أهل بخارى كانوا يروون أن سوق الرقيق كان يزدحم بالأسرى حتى كان الشيعى القادر لم يكن يجد من يشتريه لقاء بضع تنغات هى دون الفرنك فى قيمتها (١) . فكم من أسرة أخذت تندب حظها بالدمع الغزير على ما انتهى اليه مصيرها من الخراب بأيدى ذلك الرجل الذى كان يركب دابة هزيلة ويرتدى ثوبا من الخرق البالية ، ليظهر الناس بذلك على زهده فى الدنيا وزخرفها ، ويقيم فى خيمة بالية يقبع فيها على بساط من نسيج الحبال فيقضى ساعات بأكملها مستغرقا فى العبادة والتأمل . وظل أمير بخارى المتعصب هذا يسلك سبيل العنف على هذه الوتيرة مع ايران ما يقرب من اثنى عشر عاما . حتى اذا ما تم لآقا محمد خان ، مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية فى فارس (٢) ، اقرار الأمور فى فارس وآذربيجان ، سار آخر الأمر عام ١٢١٢ (١٧٩٧) الى خراسان وقد عقد العزم على وضع حد لهذه المحنة المخيفة . هنالك بدا له أنه ليس من الحكمة أو حسن التدبير أن يخوض غمار حرب فيما وراء جيحون ومركزه فى داخل بلاده نفسها لما يطمئن اليه بعد . فعول على أن يلقن

---

(١) تكرر وقوع ذلك فى الزمن الحديث وذلك حين سير ناصر الدين جيشا قوامه عشرون ألف رجل لحرب التركمان فأصيب بهزيمة ساحقة جوار مرو على أيدى ثلاثة آلاف من التركمان فقط ، ولم ينج منه الا بضع مئات ، فحين وقع الباقون فى الأسر بيعوا بأبخس الأثمان فى أسواق الرقيق ببخارى وخيوه .

(٢) أى عند تاليف هذا الكتاب فى النصف الثانى من القرن الماضى وهم آل قاجار **(المترجم)** .

الأوزبك بطريق السياسة شيئا أفضل ، فبعث اليهم على يد محمد حسين عز الدينلو الرسالة الآتية بعد . وما يلفت النظر فيها أننا نجد بها اشارة ضمنية تشير لأول مرة الى وحدة الترك القومية (١) ، وها هو ذا نصها على ما ورد منها بروضة الصفا :

« لاحاجة بنا الى أن نجمل تاريخ الصفويين ومن عاصروا محمد شيبانى خان حتى زمان نادر شاه الأفشارى . وانى لأعلم جيدا ، كما تعلمون ذلك بدوركم تمام العلم ، أن بلخ ومرو وزميندارو وسيستان وقندهار وكابل كانت كلها منذ قديم الزمان تتبع دولة ايران . فكيف صار لك على هذا أن تفتح بلخ ومرو وتذبح فى هذا البلد الأخير بيرم على خان زعيم أسرته العظيم . أفهل ترمى من وراء ذلك الى تجديد الحروب بين ايران وتوران وهو مالاتقدر عليه أبدا (٢) . وليس من الحكمة على كل حال أن تعبث بذيل الأسد أو تحرك أذن النمر . واعلم أن الناس كلهم لآدم وحواء ، فان افتخرت بقرابتك لأمراء توران فاعلم أننى بدورى من نسلهم . وليس منبت قاجار نويان (٣) وأصله بأنبل وأعرق من نسب أسرة منغيت وقنقرات فحسب ، بل انه كذلك ليفوق بأمجاده بيتى سولدوز وجلاير المشهورين (٤) . ومهما يكن من شىء فان علينا جميعا أن نتوجه الى الله القدير بالشكر والحمد أن جعل ممالك توران وايران والروم والروس والصين والهند بأيدى أسرة الترك الفخيمة ، وليقنع كل

---

(١) ان كلمة « المؤمنون اخوة » قد حالت بين القوميات على الدوام ، ولم نكن ننتظر على كل حال من ذلك القاجارى او من كاتبه ان يدرك رابطة الجنس التى تقوم بين الأسر الحاكمة فى الصين والهند وبدد الروم .

(٢) من التندر البارع أن جعلوا من الأمير الزاهد معصوم ، افراسياب ثان .

(٣) كان لقب نويان من القاب كبار القادة عند المغول ، ولا نعرف اذا كان هذا اللقب لأسلاف القاجاريين حقيقة ، وقد سمعت بايران كثيرا من الترك يدللون على عراقة نسبهم بهذا اللقب ، ويفتخر القشقاى ، بخاصة فى شيراز به .

(٤) لا أدرى سبب اضفاء الشهرة على سولدوزوجلاير ، فهاتان القبيلتان كانتا تنزلان دائما على الشاطىء البعيد لجيحون ، وكانتا قد قدمتا الى هناك مع چنكيز من الشرق كأغلب الترك .

واحد منا بما قسم الله له من أرضين فلا يمد يده الى ما وراء حدود دولته. واني بدوري سألزم فى سلام حدود ايران القديمة فلا يقدم أحدنا على تخطى جيحون » .

ويقول مؤرخ فارسى آخر ان هـذه الوثيقة قد كتبت فى صيغة تختلف عن تلك التى أوردناها ، فكانت تحمل التهديد الى الأمير معصوم فيما لو أحجم عن اعادة الأسرى الفرس فى الحال . وكان رد الأمير معصوم عليها من جنسها . بل لقد ذهب بكخان فى رده يتلاعب باسم أعظم القاجاريين ، فبدلا من أن يرسمه « آقاخان » حرفه الى « أختا خان » أى الطواشى ، كما لم يفك اسار الثمانية الآلاف أسير فارسى الذين كانوا عنده على رواية صاحب « ناسخ التواريخ » . وكانت كاترين قيصرة روسيا قد أقدمت فى ذالك الوقت على مهاجمة آقا محمد خان لتنتقم منه على عصفه الشديد بأهل جورجيا ممن كانوا يتبعونها . ولولا أن اضطر شاه فارس تلقاء ذلك الى أن يركز جهوده وقواته عند شاطىء نهر أراكس ، لشهدت الدنيا أعجب مشهد لصراع مرير فى سبيل السيادة يقع بين زعيمى العالم الاسلامى بداخل آسيا اذ ذاك . وكان كلاهماعلى شذوذ ،فأحدهما طواشى والآخر درويش مسن . وقد تدخلت بينهما قوة ثالثة أتيح لها فيما بعد أن تنزل الهزيمة بكليهما على السواء ، وان هيأت لوقتها الفرصة للأوزبكى المتعصب ليعاود غاراته التخريبية على فارس .

على أن الشيعة (الروافض) لم يكونوا هم وحدهم الذين اندفع الأمير معصوم بتعصبه يحاربهم ، فقد اشتبك كذلك فى الحرب مع سنيين محافظين لا وجه لظهوره فى حربه لهم بمظهر الغازى بطبيعة الحال ، فكشف بذلك عن سيف الفتح الذى كان يخفيه تحت ثوب الدرويش .

وتفصيل ذلك أن الأفغان ، وهم قوم من سلالة آرية كانوا أيام محمود الغزنوى مجرد قبيلة صغيرة لا خطر لها تقطن سلسلة جبال سليمان ، كانوا قد استطاعوا من بعد ذلك أن يبسطوا نفوذهم حتى صارت لهم أغلب المنطقة الواقعة بين جيحون والسند ، ليبدأوا من بعد ذلك دورهم المهم فى سياسة آسيا الوسطى . ولبث هؤلاء حتى بداية

القرن الثامن عشر الميلادى يؤدون الجزية الى سلاطين الهند أو الى شاهات فارس ليدرءوا بذلك عنهم خطر الأوزبك الذين كانوا يفوقونهم فى قوتهم ، حتى اذا ما هان شأن الصفويين بفارس استولى الأفغـــان بزعامة محمود الغلزائى على عرش أصفهان الى أن طردهم نادر شـــاه من بعد ذلك من ايران .

وبعد أن قضى آخر الغزاة الآسيويين الكبار هذا ، وانهارت دولة المغول فى الهند من ناحية ، وضعف شأن حكومة الأوزبك على جيحـــون من ناحية أخرى ، أتيحت بذلك كله الفرصة للأفغان ليظهروا على مسرح التاريخ فيرثوا من أراضى نادر شاه ذلك الجزء الذى يقع بين جيحـــون والسند ، حتى تم لأحمد شاه الدرانى عام ١١٦٦ (١٧٥٢) تنصيب نفسه أميرا على الأراضى التى كانت تتبع خانية بخارى عند الشاطىء الأدنى لجيحون وذلك بعد أن تحالف مع شاهرخ ميرزا حفيد تيمور . وما لبثت ميمنة وأندخوى وأقچه وشبورغان وسربول وخولم وبدخشان وباميـــان أن استسلمت لبك خان (١) القائد الذى سيره هذا الأمير الأفغانى اليها ، وقد كافأه على ذلك بأن أنعم عليه بلقب الصـــدارة العظمى . ولم يحرك ساكنا اذ ذاك عاهل بخارى الكسول ، أو وزيره القوى دانيـــال بى ، بعبارة أدق ، تلقاء تلك الولايات التى انتزعت منـــه ، اذ كان أغلبها فى الواقع بأيدى الأمراء الخارجين على سلطانه . وجاء من بعد ذلك الأمير معصوم فرأى فى ازدياد سلطان الأفغان شوكة فى جنبه طال عليها الامد . حتى اذا ما شغل تيمور شاه خليفة أحمد شاه بمعركة بهالبور (بالهـــد) عام ١٢٠٣ (١٧٨٨) بادر الأمير الأوزبكى بعبور جيحون عند كيليف ، واسترد أغلب البلاد التى كان الأفغان قد استولوا عليها من قبل . وحين آب تيمور الى بلاده فعلم بذلك ، بعث الى خصمه برســالة عرّض فيها بعبارة واضحة صريحة بما يخفيه الأمير معصوم من أطماع (٢) تحت رداء

---

(١) انظر فى ذلك
History of the Afghans by J.P. Ferrier London 1858 P. 18

(٢) انظر An account of the kingdom of Coubul by montstuart Elphinstone . London 1842 .vol. 11 P 315

غيرته الدينية الكاذبة ونفاقه ، وذكره فيها كذلك بما كان يقوم من علاقات المودة بين بيت الدرانى وسلاطين الأوزبك على الدوام . وأن الأمير معصوم حين كانت تظهر له نذر الحرب فى الجو ، كان يركن على الدوام الى مداهنة خصمه بمعسول القول مع ما كان يضمره من السوء للدرانيين . وبرغم أن اعتداء دولة على أخرى بسبب مذاهبها الدينية هو أمر غير مشروع ، فان الأمير معصوم أقدم مع ذلك على غزو مرو وساق سكانها من الشيعة معه فى أسره بدعوى أنه سيقوم بردهم الى العقيدة الحقة ، وهو بصنيعه هذا قد أبان عن التناقض فى سلوكه بما لا يحتاج الى برهان . فلو أنه كان حريصا حقا على هداية المشركين لما أقام العراقيل فى سبيل الأفغان الذين بلغوا بغزواتهم الهندية الى دخول عدد لا يحصى من الهنادكة واليهود والنصارى فى الاسلام . وبعد هذا كله فما معنى حربه لسكان شهرسبز وخجند والتركمان وجميعهم من أهل السنة الحقة .

ومضى تيمور شاه من بعد ذلك فى خطابه ليقول له ان أهل هذه البلاد جميعا قد استنجدوا به وأنه ملب دعوتهم وسائر من فوره لمهاجمة تركستان .

وفى ربيع عام ١٢٠٤ (١٧٨٩) زحف تيمور شاه الى شواطىء جيحون على رأس جيش وفير العدد كامل العدة (١) . حتى اذا ما طفق يهاجم آقجه رأى القائد الأوزبكى رحمت بى أن لا قبل له بقوات العدو الكبيرة ففر الى معسكر أميره عند كيليف .

وكان الأمير معصوم يتأهب اذذاك للزحف على خراسان فى جيش كبير ليعوض ما لحقه فى العام السابق من فشل هناك .

وبوغت الأمير معصوم بهجوم الأفغان هذا حتى ود أن يحسم معهم الأمر صلحا . وحرص أول الأمر ألا يكشف عن رغبته هذه ، فسير لذلك رحمت بى ومعه سلطان مراد بى فى قوة صغيرة قصدت أقجه ، فاشتبكت مع العدو فى مناوشات بسيطة ، حتى اذا ما استيقن من أن تيمور شاه انما خرج فى حملته هذه طلبا للقتال ، سعى فى الصلح من

---

(١) يذكر المصدر السابق م ٣ ص ٣٠٥ أن هذا الجيش كان يضم مائة ألف مقاتل ، فى حين يقدره ميرزا صادق بضعف هذا العدد .

فوره فأوفد لذلك وفدا من أكبر علماء بخارى ، وتظاهر بمنتهى الذلة والخضوع ، على عادته حين ترغمه الحادثات ، حتى انطلت حيلته على الزعيم الأفغانى ، وهو الذى كان قد عنفه من قبل ، على مثل هذا النفاق فى رسالته اليه التى سبق ذكرها ، فلم يعقد الصلح معه فحسب ، بل وسمح له كذلك بأن يحتفظ لنفسه بكافة المواضع التى كان قد استولى عليها .

وظل الأمير معصوم يحترم شروط هذه المعاهدة متمسكا بأهداب السلم ما بقى تيمور شاه على قيد الحياة . فما أن قضى هذا الأمير الدرانى عام ١٢٠٨ (١٧٩٣) وخلفه ابنه شاهزمان حتى سقط الأمير معصوم على منطقة بلخ فأوقع حاكمها مع أربعة آلاف من خيرة جنده فى كمين وأسرهم جميعا ، ثم هاجم مدينة بلخ نفسها من فوره وقد أمل أن يستسلم له ما بقى بها من الجند بعد ما رأوا ما صار اليه حال قائدهم .

على انه أخطأ فى حسابه هذا على كل حال . فقد تهدد حماة المدينة بقتل أميرهم الأسير أمام أعينهم ان هم أصروا على المقاومة ، ونفذ تهديده الوحشى بالفعل تبعا لذلك ، ومع هذا فقد بقى القوم على مقاومتهم له حتى عاد شاهزمان الى كابل بعد حربه الموفقة فى خراسان، وقد كانوا يأملون أن يوافيهم بالخلاص سريعا من بعد ذلك ، وهو أمر كان يتوقعه معصوم بدوره .

وحين علم أمير بخارى بتأجيل الزحف الأفغانى انتهز هذه الفرصة ليتقى بها ما بلغ به مركزه من حرج وخطورة ، فبعث برسله الى كابل يتعهد لأميرها بتنازله عن دعواه فى بلخ وما يجاورها مع محافظته مستقبلا على شروط المعاهدة التى كان قد عقدها مع تيمور شاه من قبل . ولما كان شاهزمان اذذاك منصرفا بكل تفكيره وجهوده الى الاهتمام بخططه فى غزو الهند فقد قبل ما عرضه سفراء عدوه عليه .

وهكذا استطاع الأمير معصوم مرة أخرى أن يؤمن مركزه بدهائه، وان لم يعدل عن نواياه العدائية نحو جيرانه الأفغان . وحين اضطر شاه محمود ، أخو شاهزمان ومنافسه ، أن يخرج من بلاده عام ١٢١٤

(١٧٩٩) بعد فشل محاولاته العديدة فى الاستيلاء على العرش ، رحب به مير معصوم فى بخارى . ولئن لم يستطع شاهزمان أن يعترض علنا على هذه الاستضافة (١) ، الا أن ذلك لم يمنعه من بذل المال الكثير سرا لتسليم هذا الأمير الفار .

ولو لم يتحالف العاهل الأفغانى اذ ذاك سرا مع آقا محمد خان القاجارى ، لما تردد درويش بخارى العجوز ، دون وازع من الضمير ، فى خرق هذه الرسوم التى يقدسها الآسيويون أعظم تقديس بخصوص حماية الضيف فلم يتح لنفسه أن يثيرها الاغراء . وحين سأله رسول شاهزمان أن يحرص بأى ثمن على مراقبة الأمير اللاجىء أجاب بأن أشار برأسه بما يفيد بأن محمودا لن يغادر بخارى . والواقع أن هذا الأمير لم يكن ليتيسر له مغادرة بخارى أبدا ورأسه على كتفيه لولا أن تصدى له أمير أوزبكى من أصحاب النفوذ فأعانه على الهرب الى خيوه حيث استقبله أميرها محمد رحيم خان بالترحاب .

ومات الأمير معصوم عام ١٢١٧ (١٨٠٢) بعد أن حكم ثمانية عشر عاما يعدها البخاريون أعظم فترة فى تاريخهم الحديث . والجيل الحالى من التاجيك والأوزبك ، وهو الذى ما تزال تلك الفترة ماثلة فى أذهانه ، تراه لا يمل من ترداد الثناء على ذلك الأمير المسلم الفرد العادل التقى وحكومته السنية .

وأساس هذا الثناء ما كان عليه هذا الأمير وحكومته من استمساك تام بالشرع . فهو الذى أحيا منصب رئيس الشريعة فى وقت كان قد أهمل فيها أمره فى العالم الاسلامى كله (٢) . وكان على هذا الرئيس أن

---

(١) اضطر شاهزمان من بعد ذلك أن يلجأ بدوره الى بخارى **(المؤلف)** وذلك حين دخل البريطانيون كابل بعد احتلالهم للهند ، وأرغموا ببسالة الأفغان وضراوتهم على الخروج منها بعد قليل **(المترجم)** .

(٢) أخبرت حين كنت بالقسطنطينية أن هذه الحكومة الشرعية لم يعرف لها نظير أبدا سواء فى تركيا أو فى ايران وشمال الهند ، وانما قامت عرضا فى الأزمنة الحديثة بمكة والمدينة وبعض المواضع فى شرق افريقية. **(المؤلف)** يقصد بذلك حكومات الوهابيين والسنوسيين **(المترجم)** .

يجوب الأسواق كل يوم مع شرطته وبأيديهم سياط شرعية لهـــا أربع شعب ، فيختبر الناس فى أمور دينهم ، فمن لم يكن منهم يحفظ فرض العين مع بعض سور القرآن ، أو تخلو عمامتــه فى طيــاتها من كرات الطين (١) ، كان يجــلد على الفور أو يلقى به فى السجن . أما من كان يتكاسل فى الذهاب الى المسجد أو يهسل تأدية الصلوات فى أوقاتهــا ، فكان يحكم عليه أول الأمر ببعض العقوبات الدينية ، حتى اذا ما عاد الى ذلك قتل . كذلك كان يعاقب على هذا الوجه أولئك الذين يشربون الخمر أو يدخنون (٢) .

أما اللصوص وقطاع الطرق والفجار فكانوا يسلسون الى الجلاد بلا رحمة . وكان هذا التشدد فى تطبيق تعاليم الشرع يسود كذلك فروع الحكومة كلها .

وكان على المسلم أن يدفع خراج أرضه وماشيته مع الزكاة وقدرها اثنان ونصف بالمائة ، وهى حق الفقير من دخل المقتــدر ، كما يدفع الرسوم المقررة على البضائع المستوردة .

أما الذميون ، وهم الهنادكة واليهود والنصارى ، فكان عليهم أن يدفعوا الجزية .

وكان الأمير معصوم يحرص كل الحرص فى دار الامارة على أن ينهج نهج الخلفاء الأول فيما كانوا عليه من الاستمساك بأهداب الــدين وما ضربوه من الأمثال فى الزهد والقناعة لمن جاءوا من بعــدهم من « أمراء المؤمنين » .

وعلى ما عرف به عمر (ثانى الخلفاء الراشــدين) من حرصــه الشديد على أموال بيت المال حتى كان يكتفى بأبســط الطعام ويقنــع

---

(١) (كِسك) انظر توضيح ذلك الأمر ومعناه فى كتابى
Sketches of Central Asia. London 1868 P, 181
وهى من دلائل الزهد والتصوف (المترجم) .

(٢) كان التــدخين يعــد فى ذلك الوقت فى فارس وفى تركيــا من المحرمات ، اذ أفتى أئمة الشرع هناك بأنه يدخل فى باب المسكرات .

بثوب واحد كل عام ، فكذلك كان أمير بخارى ، المتعصب لدينه ، يربط تنغا واحدا لنفسه كل يوم لنفقته . وجعل هذا القدر أيضا لطباخه وخادمه ولكل فقير من نزلاء المدارس الذين بلغ عددهم فى عهده ثلاثين ألفا من المتعطشين الى طلب العلوم الدينية . على أن صنعه هذا لم يحل بين رجال دولته وحياة البذخ والاسراف التى كانوا يحيونها ، فبينا كان هذا الأمير يعيش فى سرادق قديم بال ويمشى فى قميص من وبر الجمل ويأكل فى صفحة بالية ، كان قادته يخطرون فى الحرير وسلاحهم مرصع بالحجارة الكريمة ، والطعام يقدم اليهم ، حتى فى مضاربهم وقت الحرب ، فى صحاف من الذهب والفضة المرصعة بالحجارة الكريمة .

والظاهر أنه كان يشعر براحة نفسية حين كان يرى الفارق بين حياة البذخ التى كان يحياها رجاله وبين حياة التقشف التى كان عليها . وبفضل مظهر الدرويش الفقير الذى كان يحرص عليه صار له عند القوم توقير واجلال بالغ مكنه من أن يطوع قبائل الأوزبك ، المتمردة بطبعها ، لتحقيق أهدافه خلال ثمانية عشر عاما .

ولم يكن يمضى عليه عام فى الغالب دون أن يخرج فى غزوة . ذلك أنه فضلا عن وقائعه التى تحدثنا عنها ، كان يشتبك كذلك فى بعض المعارك مع أمراء البلاد المجاورين له فى خيوه وخوقند (١) . وبرغم هذا كله فان خانية بخارى كانت تتمتع فى عهده بدرجة عظيمة من الرخاء ، فلم يزل الناس من بعده يذكرون ما كانت عليه حكومته من التمسك التام بأصول الشرع بل وكذلك ما كانت تحرص عليه من اجراء العدل والرفق بالرعية . وما يعنينا من عهد الأمير معصوم أن ختم به النضال القديم بين ايران وتوران ، اذ كان هذا الأمير هو آخر من غزا ايران .

وخلفه من بعده ابنه سعيد حيدر توره عام ١٢١٨ (١٨٠٣) فجلس على عرش بلاد ما وراء النهر باسم الأمير سعيد . ولم يكن فى تصوفه

---

(١) فى هذا الوقت ، اى فى عام ١٢٠٢ هـ مات علم خان أمير خوقند المشهور الذى استطاع أن يكبح جماح البخاريين لثلاثين عاما على ماأخبرنى بذلك الخوقنديون ، وبموته بدأ أمراء بخارى يغيرون على جيرانهم فى الشرق حتى أقرت روسيا السلام بين هؤلاء المتحاربين .

وتعصبه لدينه مثل أبيه فحسب بل وحاول أن يبزه ، وان لم يكن له من مهارته في الحكم وشغفه بالحرب الا القليل ، فقضى حياته كلها على خير ما يقضيها الملا ، بأدق معانى هذه الكلمة ، ويعــدهم الأوزبك أنصاف رجال (١) .

على أن ذلك لم يمنعه من أن يخضب بالدماء عرشه المبــارك أول حكمه . وأول ضــحاياه فى ذلك أخوه ناصر الدين توره ، وكان يتولى حكومة مرو فى حياة أبيه الأمير معصوم . فقد خاف الأمير سعيد منافسة أخيه هذا له فعزم على التخلص منه فى هدوء ، فطلب منه أن يشــخص اليه بنفسه ليعلن ولاءه له . ولما كان ناصر الدين يقدر بدوره مدى الخطر الذى ينتظره عند أخيه ، فقد فر الى الحدود الفارسية بدلا من أن يتجه الى بخارى ، وهناك ناشد فتح على شاه أن يجيره بعون من عنده . ولو كان للقاجاريين شىء من القوة الحقيقية بدلا من مظاهر السلطان الكاذبة التى كانوا يتظاهرون بها لأفادوا من هذه الفرصة المواتية التى سنحت لهم فلقنوا جيرانهم النهابين الذين أنزلوا الخراب بخراسان درسا قاسيا. ولم يلق الأمير اللاجىء بفارس الا الوعود الفــارغة ، حتى بات الأمير سعيد ، وهو أضعف أمراء بيت المنغيتيين ، لا يستشعر أدنى خوف من ناحية فتح على شاه الذى كان دائم الفخار والزهو بأنه صاحب أطول لحية فى الدولة ، وأن منطقته تزدان بأثمن الماس .

قضى الأمير ســعيد ثلاثة وعشرين عاما والسلام مخيم على بلاده ، وكان يمضى الساعات العديدة فى كل يوم وهو يتعبد فى خلوته أويجلس فيها الى كبار الشيوخ يستمع الى دروسهم فى التفسير . وحين خرج محمد رحيم خان ، أمير خيوه وجار بخارى فى الغرب ، ينتقم لمقتل أبيه ايلتازار خان ، فأخذ ينتهب ويحرق كل ما يصــادفه فى طريقه ، وتقدم بطريق جهارجوى وقراقول حتى بلغ أبواب بخارى ، ظل الأمير سعيد

---

(١) يقول مثل أوزبكى « ان الاثنين من الملات (الشيوخ) هما بمقام رجل واحد ، والواحد منهم يساوى امرأة » انظر
Tschagataische Sprachstudien P. 57

أمان در) . وكانت بخارى تزهو بما كان عليه أميرها من تقوى ، مع ما كان برغم ذلك كله متشبثا بعزلته الصوفية ، ورد على القوم بأن ريغستان ، وهى المحلة التى كان بها قصره ، لا تزال فى مأمن (آخر ريغستان من تعطله من كل فعال المجد والعظمة ، حتى ليقال ان جمهور العامة المصانعين من أهل بخارى كانوا يبكون من فرط الفرح حين كانوا يرون أميرهم يمشى فى الطرقات منكس الرأس يستند على عصاه ، لا لضعف فى قواه وانما اقتداء برجال الدين وتشبثا بهم حين كانوا يسرحون . بل لقد نسبوا اليه كذلك من خوارق الكرامات برغم ما عرف عن هذا الولى الحى من خرقه لأقدس الرسوم الآسيوية على أشنع وجه ، ومنها عادات الضيافة ، اذ حمل معه قسرا ابنة جميلة لشاهزمان المكفوف حين كان لاجئا عنده ، وحين احتج هذا الأمير الأفغانى على هذه الفعلة أمر به فقتل .

وانه لما يؤسف له أن يتصرف الأمير سعيد على هذا الوجه وهو الذى كان يتظاهر فى حكمه بحرصه الشديد على التمسك بالدين والآداب . واذا كانت آداب السلوك قد هان أمرها فى تلك البلاد من قديم فقد ازداد هوانها وانحطاطها على أيدى هؤلاء الحكام الأوزبك الجهلاء من بيت المنغيتيين . ولم يكن عهد الشيبانيين والاشترخانيين يخلو من مظاهر الاستنارة والتعليم التى كانت تظهر عندهم من حين لآخر ، أما هؤلاء المنغيتيون ، أتباع الشيوخ أصحاب الحرص والطمع ، فانهم لم يحرصوا أبدا الا على أن يذكوا فى نفوس الأهلين روح التعصب والحماس الدينى .

الفصل الثامن عشر

الأمير نصر الله

١٢٤٢ (١٨٢٦) – ١٢٧٧ (١٨٦٠)

لا يصدق المثل القائل بأن « الأمراء هم مرآة عصورهم » [١] عند شعب من الشعوب الاسلامية أو فى بلد من بلادهم كما يصدق على عهد نصر الله بهادر خان ، ابن الأمير سعيد وخلفه ، الذى رقى العرش بعد وفاة أبيه عام ١٢٤٢ (١٨٢٦) .

ولا يسهل على المرء أن يدرك مدى ما كان عليـــه هذا الأمير من صفات المكر المخلوط بالغباء ، والكبرياء والغرور والتعصب الأعمى مع الانغماس فى الرذائل الدنيئة ، الا أن يتمثل قبلا حال مجتمع بخارى فى ذلك الوقت وما كان يسوده من النفاق والجهل المطبق ، وما كان يشيع فيه من الظلم المشين حتى انحدر الى حمأة الرذيلة .

ولقد رقى هذا الأمير العرش بعد أن دبر قتل أخيه دون أدنى وازع من ضمير . واذ كان ، بوصفه الأخ الأصغر ، لا حق له فى اعتلاء العرش، فقد شرع فى حياةأبيه يهيىء بالفعل لهذا الأمر ، فأخذ حين كان يتولى حكومة قارشى ، يعمل على كسب أصحاب النفــوذ القوى من رجال الدولة الى صـــفه ، وكان أخطر هؤلاء جميعـــا قوشبغى حاكم باى (١) ومؤمن باى والى حصار .

---

(١) وهو مثل أويغورى تجده فى مخطوط قوتدقوبيليق (وهــو أقدم كتاب تركى بالحروف العربية : **المترجم**) ولا يزال يروج بين الأويغور مع تحوير بسيط .

(٢) باى تقابل اللقب العثمانى « بك » ويرسمه التاجيك والأوزبك « بى » .

ومع انهما كانا من رجال حاشية الأمير حسين ، الوريث الشرعى والحاكم من بعد ذلك ، فقد كانا المدبرين لأمر سقوطه وقتله . وما يقال من أنه قضى بعد أن حكم ما لا يزيد على ثلاثة أشهر اذ دس السم له بتحريض من نصر الله هو قول لا يقوم على غير أساس .

وأدى موت هذا الأمير الى ظهور منافس ثالث فى الميدان هو عمر خان أحد اخوة حسين . هنالك اضطر نصر الله الى محاربته ، فخرج اليه وفي يده فتوى قاضى قضاة قارشى . وانقض فى حفنة صغيرة من رجاله على سمرقند ففتحت له أبوابها دون أدنى مقاومة ، حتى اذا ما تمت مبايعة القوم له وهو متربع فوق الكوكطاش (١) ، أسرع بعد ذلك بالمسير الى بخارى . وسقطت فى يده كته كورغان وكرمينية وغيرهما من المواضع الحصينة التى تقع بين العاصمتين ، ولكن بخارى نفسها استبسلت فى مقاومتها له لأربعين يوما ، فلم تستسلم الا بعد أن تفشت المجاعة فيها وانحبس الماء عنها ، وكان نصر الله قد استطاع أن يتحكم فى قنواتها الكبرى ، فضلا عن خيانة حكيم بى وتآمره معه بخاصة .

ودخل نصر الله قصر ريغستان فى ٢٢ مارس عام ١٨٢٦ ، وكان الأمير عمر قد تمكن من الهرب ومات على اثر ذلك بالهيضة فى خوقند ، وكان خانها قد رحب به فيها .

وصار لنصر الله السلطان المطلق بعد أن قتل ثلاثة من اخوته الصغار وعددا كبيرا من أتباع غرمائه السابقين ، ليظهر العالم من بعد ذلك ، خلال مدة حكمه التى بلغت أربعة وثلاثين عاما ، على مدى ما يمكن أن يرتكبه أمير فى آسيا الاسلامية من الفظائع الكثيرة ، ومدى ما يستكين له

---

(١) وهو الحجر الأزرق بسمرقند الذى تحدثنا عنه من قبل . وقد عاد الاشترخانيون الى استخدامه فى مراسيم البيعة من جديد . وكان الشيبانيون قد اتخذوا من بخارى قصبة لهم حتى يتخلصوا بذلك من كل رسوم التيموريين . وفى عهدهم عدلوا عن الرسم التيمورى المعروف فى رفع العرش فوق الحجر الأزرق .

الأهلون من مظالم وهم يستعبدون بدعوى الحرص على الدين والتعصب له .

ففى السنوات الأولى من حكم هذا الأمير ، وكان لا يزال يخضع لنفوذ حاكم باى القوى ، تظاهر — على نهج أبيه — (١) بأن أعظم أهدافه وغاياته العمل على اعلاء كلمة الشرع علوا كبيرا والتفانى فى اسعاد شعبه . وهذه هى الفترة التى زار فيها الكسندر بيرنز بخارى على وجه التقريب ، وقد استطاع أن يقول ان نصر الله قد كفر عن الفظائع التى ارتكبها فى سبيل استيلائه على العرش بأن طفق يحكم شعبه فى عدل واستقامة .

وحين شعر نصر الله بأن مخاوفه من غرمائه لم يعد لها محل واستيقن من بعد ذلك أن الأمور قد غدت مستقرة بين يديه ، تكشف قناع الحمل الوديع عن نمر مفترس ، فأنشب مخالبه فى قوشيجى حاكم باى نفسه وهو الذى كان يدين له خاصة بما بلغه من سلطان . وكان قوشيجى هذا قد استغل ما شمله به سيده أول الأمر من رعاية فلم يعمل على زيادة مظاهر سلطانه ونفوذه فحسب ، بل جمع كذلك له ثروة طائلة ، حتى كان يقوم على خدمته أكثر من ألف غلام . ولقد سمعت قصصا لا يصدقها العقل عما كان عنده من الابل والخيول والماشية الكثيرة ، بل يقال انه كان يسير قوافل التجارة بين بلاده وروسيا لحسابه . وحين رفع نصر الله يده ليهوى على تلك البعوضة التى سمح لها أن تسمن على دمائه (على حد نص تعبير البخاريين) كان قد بلغ به الغضب أقصى مداه (٢) .

ولم تطل محاكمة قوشيجى ، ذلك أنه ليس أيسر على كل مستبد

---

(١) وذلك برغم أن أهل بخارى كانوا يتهمون نصر الله بقتل أبيه ، وهو أمر لا يستبعد من نصر الله بعد ما رأينا من خلقه .

(٢) انظر

Alexander Burnes, Travels into Bokhara, London 1834.

ويلاحظ المؤلف نفسه بحق فى كتاب آخر ظهر له بعد ذلك بسبع سنوات بعنوان :

Cabool, a narrative of a journey to and residence in that city, p. 250.

ان مظالم (نصر الله) كانت بالغة الجرأة كثيرة العدد فكنت أهنئ نفسى بخروجى من بلاده سالما » .

من أن يقيم الدليل على جرم تابعه . وعلى هذا فقد اتهم قوشيجى بتبديد أموال بيت المال وعزل من منصبه . ونفى أول الأمر الى قارشى ، ثم سير من بعد ذلك الى نوراته .

وحرص نصر الله أول الأمر على أن يتقى عداوة شيعة قوشيجى القوية فغمر الزعيم أياز باى (١) حمو قوشيجى الشيخ بألقاب التشريف والتكريم . حتى اذا ما عفى النسيان حدا ما على ما لحق بقوشيجى من المهانة والاذلال ، عمد نصر الله الى القاء أياز باى نفسه فى السجن ، ثم قتله وختنه من بعد ذلك فى ربيع عام ١٨٤٠ . ولم يكتف نصر الله بمصادرة أموال وزيره فحسب ، بل ود كذلك لو تمكن ، فى غفلة من حارسه الذى كان يمقته ، من أن يطلق العنان معه لشهواته المقيتة المتعددة .

وما غدا أن ظهر من بعد ذلك لسكان بخارى على صورته الحقيقية التى بعثت الرعب فى قلوبهم ، فقد عهد بمنصب الشرطة الى قاطع الطريق السفاح معصوم بيردى ، وكان من مرتزقة التركمان.فلم يتخذ منه ناصحا له ومعينا وانما سخره ليجبى الأموال له . كما عهد الى نفر من السوقة بمنصب الوزارة،وان لم ينعم الواحد منهم بها الا لعدة ساعات على الأكثر فحسب . وما غدا معصوم بيردى بدوره أن دفع عام ١٨٣٩ ، تحت فأس الجلاد ، ثمن عطف سيده الطويل عليه ، ومن ثم صار نصر الله سيد البلاد الأوحد ، ومن بيده حياة أهلها ومصائرهم على السواء . ومالطخ به هذا الطاغية عهده من المظالم وجرائم القتل لا يدخل تحت حصر أو يحصيها عد . لقد تعرضت كل طبقات الرعية لجشعه الذى لا حد له فى طلب المال ، وعلى رأسهم التجار الأجانب بخاصة . بل ان البخاريين ،

---

(١) كان اياز باى يشغل منصب طوبجى باشى (قائد المدفعية) وكان على ثراء كبير . واحتال نصر الله لكى يستولى على ثروته فدعاه للانضمام الى حاشيته وأهداه فرسا تركمانيا وعليها سرج فاخر ، وكان يصحبه عند خروجه من عنده حتى باب قصره ويساعده على امتطاء دابته . وأدرك هذا القائد الشيخ آخر الأمر ببصيرته ما يضمره له سيده من الحقد تحت ستار هذا العطف الكاذب ، فانكفأ على قدمى نصر الله يسأله أن يخلصه وينزل به عقابه فى الحال . هنالك أنهضه نصر الله وعانقه فهدأ بخداعه هذا من مخاوف ذلك الرجل المنكود وكانت فى محلها .

وهم الذين يشتهرون برباطة جأشهم فى الملمات ، قد دفعهم الخوف الى أن يشتروا وده بمختلف الهدايا . وبث كذلك عددا لا حصر له من العيون بين الناس ليخبروه عن كل صغيرة وكبيرة تجرى فيما بينهم ، سواء منها ما يقع فى السوق أو فى المدرسة أو فى المسجد أو المتنزهات العامة والحمامات (١) ، وقد ينبثون كذلك بين الأسر بدعوى مراقبة استمساك أعضائها القويم بتعاليم الشرع ، لينبئوا فى الواقع سيدهم بما يشفى غليله ويشبع نهمه فى جمع المال . وحرص هذا الأمير فى حياته الفاجرة هذه التى كان يحياها على أن يوفر للمنافقين من رجال الدين من أصحاب النفوذ مطالبهم ، فكانوا نظير ذلك لا يعارضونه فيما يرتكبه من أعمال العنف والاستبداد .

والمعروف أن رجال الدين كانوا على الدوام يحدون بمعارضتهم من الجور والظلم ، فكان عدولهم عن ذلك هو بمثابة تعضيد الظالم فيما يرتكبه من الاثم .

وكانت دعوى الدين تتخذ فى ذلك العهد وسيلة على الدوام الى غاية . فمن كان يحاول أن يحمى متاعه وغلمانه وأطفاله ، من ذوى الحسن من الجنسين ، من أن تمتد اليهم يد المستبد النجسة ، كان يتهم من فوره بخروجه على طاعة أمير المؤمنين وظل الله على أرضه ، فلا يكفّر عن صنيعه الجسور هذا الا بانزال أبشع العقوبات به . وكانوا يتفننون فى تعذيب أمثال هؤلاء الجناة ، فى رأيهم ، حتى الموت ، فمنهم من كان يلقى به أياما بأكملها فى غور ملىء بروث البهائم (٢) حتى يقضى ، ومنهم من كانوا يقذفون به من أعلى الأسوار أو الأبراج ، ومنهم من كانوا

---

(١) كان هؤلاء العيون ، على ما قيل لى ، يعقدون أذرعتهم على صدورهم ، فيفيدون بذلك من سعة أكمام البخاريين الفضفاضة فى تدوين كل ما كانوا يسمعون من الأحاديث حرفا حرفا دون أن ينتبه لهم أحد فى ذلك .

(٢) يعرف هذا السجن المخيف باسم « البئر الأسود » أو « دار القراد » وكانت هذه الحشرات التى تعيش على دماء ضحاياها من الأحياء تتغذى كذلك بدماء الحيوانات المذبوحة ، وكان المذنب حين يلقى به فى هذا القذر يقيد أولا حتى لا يتمكن من أن يدفع عنه لذع هذه الحشرات .

يسلخون أحياء ، ومنهم من كان يُعرض على المواقد . وهكذا كان هذا التعس ، الذى يصدر هذه العقوبات دون أية محاكمة ، ينغمس فى حمأة الرذيلة لا يخشى الله ولا يخاف من البشر أحدا .

كان هذا هو حال الأمير الجالس على عرش بلاد ماوراء النهـر فى الوقت الذى كانت فيه الأفكار الأوربية والمراكز الأمامية للدول الاوربية الكبرى قد تم لها بالفعل النفاذ الى كثير من مناطق آسيا وبدأت تطرق أبواب ذلك الاقليم الذى ذاع صيته فى القـديم وعفا عليـه الغمـوض والنسيان فى الوقت الحاضر . فقد انطلقت روسيا تتقدم من الشمال قرنا بعد قرن فى طريق طويل كان عليها أن تواجه فيه جموع المحـاربين من الأجلاف خلال الصحراوات حتى وصلت آخر الأمر الى شواطىء سيحون كما زحف البريطانيون من الجنوب حتى بلغوا فى غزوهم جبال سليمان ولم يعد يفصلهم عن شواطىء جيحون الا مسيرة أيام قليلة (١) . وكان هؤلاء قد استطاعوا فى أقل من مائة عام أن يتوسلوا بانشاء بعض مصانع لهم الى اقامة امبراطورية هندية جبارة .

ولا مراء فى أن اتصال أية ولاية آسيوية بالغرب لأول مرة هو أمـر بالغ الأهمية . وقد يبشر ذلك بالخير لها مستقبلا أو يجلب المتاعب عليها . فالبلاد ، التى يحول التعصب والغرور بينها وبين تطورها ، لابد أن ينتهى بها الحال الى التحلل العنيف والخراب التام ، فى حين ترى الأقطار الأخرى يؤدى بها ما تبديه من الاسـتجابة ، قدرا ما ، والتسليم عن طيب خاطر بضرورة تطوير حياتها السياسية والاجتماعية على وجه أحسن ، الى أن ينظر اليها نظرة عادلة بل والى العطف عليها كذلك .

ويصدق هذا المثال الثانى على تركيا وفارس ومصر بل وعلى شمال افريقية كله ، فى حين ينطوى تحت المثال الأول الامبراطورية المغوليـة بالهند وبلاد ما وراء النهر .

ففى بخارى نجد أن التعنت الشديد فى تطبيـق كلَ جزيئـة من

---

(١) كان الأفغان ، أصحاب قلعة الاسلام فى آسيا ، هم الذين وقفوا سدا منيعا فى وجه الاستعمارين الروسى والبريطانى على السواء وردوهم عن بلادهم فى عزم وقوة (**المترجم**) .

جزيئات الشرع مع ضيق أفق الأهلين وهم فى عزلتهم هذه فى السهوب ، فضلا عن غرور المجد الزائل الذى كان يغلب عليهم • هــذه كلهـا قد صدتهم ، وهم الذين شبوا على هــذه المبادىء بعينهـا ، عن كل أنواع الاتجـار مع الغرب المسيحى . ولم يكن على كل حال لينظر بغير هــذه النظرة ، فى عهد حاكم مثل نصر الله ، الى محاولة بعث حياة جديدة أو المشاركة فى الحركة الجديدة التى تجتاح الدنيا . وسنرى وشيكا ماذا كان من موقف نصر الله تلقاء أول اتصال بالغرب المسيحى ومدى علمــه عن قوة الدول الأوربية ونفوذها .

وهنالك سـيرى القـارىء أن بلاد ما وراء النهر ، دون الأقطار الاسلامية الأخرى ، كانت منذ البداية تنفر من الاصلاح ، وأن سقوطها كدولة لم يكن بسبب فتح الروس الحديث لسمرقند ، وانما كان هــذا الانهيار قد تقرر لثلاثين عاما مضت بسبب سلوك نصر الله .

وقبل أن نمضى فى الحديث ، نجد أنه من الضرورى أن نتحدث أولا فى شىء من التفصيل عن علاقات هذا الأمير السياسية بما كان يجاوره من أقطار .

ذكرنا من قبل كيف طمح هذا الابن الطاغية للأمير سعيد المتعصب الى أن يضطلع بدور الفاتح الكبير . وكانت شهرسبز ومايجاورها هى التى هيأت له ، فى المحل الأول ، الفرصة لاشباع أطماعه . ذلك أن سكان هذا الجزء من الخانية من الأوزبك ، وهم من قبائل منغ واجمايلى وقنغرات ، غالبا ماعمدوا الى العصيان أيام الأشترخانيين الأول وخلعوا طاعة بخارى ، حتى عانى منهم هؤلاء الأمراء معاناة شـديدة ، اذ كانوا يعتمــدون فى عصيانهم هذا على أربعة حصون قوية ببلادهم اتخذوها لعملياتهم الحربية ، كما كانت أراضيهم بدورها يعوق انتشار المستنقعات بها سير الغزاة فيها .

ومبدأ اثارة حقــد هذه القبائل وسـخطها يرجع تاريخه الى القرن الماضى ، أى زمن الحرب التى وقعت بين الأخوين مقيم خان وعبيد الله خان ، وبعبارة أدق ، نتيجة المنافسـة الشديدة التى قامت بين قبـائل المنغيت والقنغرات •

وزاد من هذا الحقد جلوس المنغيتيين على عرش البلاد بعد أن كانوا

أصحاب السلطان فحسب ، وعلى هذا رأينا أوزبك شهر سبز يقفون على الدوام في وجه أمراء بيت المنغيتيين . وجرب الأمير معصوم القوة معهم .

وعاشوا سنين طويلة في استقلال تام ابان حكم الأمير سعيد . حتى جاء الأمير نصر الله فخرج في أول حملاته لحربهم ، وخاض هذا الطاغية غمار حروب طويلة معهم ، تكرر فيها سقوط مدينتهم عدة مرات بعد حصار شهور عديدة في كل مرة . وكان يتم له في كل مرة ارغام الأهلين على الاستسلام له ، فلا يكاد ينسحب وجنده حتى يعودوا الى سيرتهم الأولى من نبذ طاعته .

وحاول نصر الله أن يحسم هذا الأمر فتوسل بنفوذ رجال الدين مرة وبالرشوة والقتل أخرى ، وتعدى ذلك الى أن بنى بأخت زعيم القوم ، ولى النعم ، ولكن جهوده هذه كلها ذهبت أدراج الرياح وبقيت شهرسبز على عصيانها حتى وفاته .

واتسمت حروب نصر الله مع خوقند بالعنف بدورها وان لم تتميز بنجاح يذكر . وخوقند هو الاسم الذى صارت فرغانة تعرف به منذ أن ولى الأشترخانيون الحكم . وعلى ما رأينا في مجرى التاريخ كان استقلال هذه الامارة الشرقية قد ضاع بعد آخر هزيمة نزلت ببابر . واذا صح ما علمته فانها استطاعت أن تسترد كيانها كدولة ، الى حد ما ، بعد سقوط الشيبانيين . وحين كان هؤلاء الشيبانيون في أوجهم ظهر في القسم الشرقي من خوقند الحالية ، فيما بين أوشي وما يجاور خجند ، أسرة أخذت تنافس الشيبانيين هناك .

وكانت هذه الأسرة من أصل مغولى ، ومؤسسها هو يونس خان جد بابر لأمه . وقد أدت قوة الشيبانيين الأول الى أن لزم خصومهم هؤلاء الاقليم الجبلى في شمال خوقند ، فلم يخرجوا منه الا في محاولات قليلة نادرة ليؤكدوا بذلك حقهم في العرش . ولئن كان أبناء يونس خان قد استطاعوا حقا أن يطردوا تنبل (١) من أندجان بعد أن اغتصبها ، كما

(١) كان تنبل قد ثار على بابر ، حين توجه هذا الأمير التيموري الى سمرقند لحرب شيبانى ، واستولى على أندجان ولكن أقارب بابر لامه سرعان ما هزموه من بعد ذلك .

قاوموا نفوذ الأوزبك مقاومة شديدة بمساعدة القره قرغير والقبجاق ، الا أن خلفاءهم لم يتمكنوا من الاستحواذ على خوقند بالفعل حتى زمن سبحانقلى خان (١) .

ومن الثابت كذلك من ناحية أخرى أن السكة والخطبة ظلتا هناك باسم ذلك الحاكم الذى يقيم على ضفاف زرفشان .

وحين ضعف سلطان أمراء بخارى ونفوذهم أخذ خانات خوقند يوسعون من رقعة أراضيهم ، بل ان هؤلاء بوصفهم أحفاد بيت قايدو ، بسطوا نفوذهم كذلك على كل الأراضى الواقعة على شواطىء سيحون، أى على اقليم تركستان بالتحديد ، وأخضعوا خوقند لسلطانهم ابتداء من القرن الحالى ، ومدوا نفوذهم الى ما وراء طشقند .

ولقد مضى أكثر من خمسة قرون منذ أن تحارب قايدو ، حفيد أوكتاى ، مع خلفاء جغتاى فى سبيل الاستيلاء على تركستان . وبرغم أن أمراء المغول من هذا البيت لم يكن بأيديهم من الوثائق المكتوبة ما يثبت حقهم الوراثى فى ذلك ، فقد ظلوا على الدوام يتشبثون بدعواهم هذه ويحرصون عليها ولا يفتأون يحاربون فى سبيلها . وظل حكام خوقند لا يتعرض لهم الاشترخانيون المتأخرون فى الغالب ، حتى اذا ما جاء المنغيتيون تغير وجه المسألة . فقد خاض الأمير معصوم غمار حرب دامية فى سبيل خجنده (٢) ، كما سقط حفيده نصر الله بدوره على خوقند بسبب غيرته من أميرها محمد على خان ، وكان قد ذاع صيته فى العالم الاسلامى كله اثر انتصاراته على الصينيين فى تركستان الشرقية فى الوقت الذى كان الناس فيه يمقتون نصر الله أمير بخارى الطاغية ويخشونه ، هذا فضلا عن أن محمد على خان كان يشتهر كذلك بحكومته العادلة وحرصه على رفاهية شعبه .

---

(١) هذا على ما رواه لى رفاقى فى الرحلة من أهل خوقند ، ذلك انه ليس لهذه الامارة تاريخ مكتوب فى العصر الحديث .

(٢) تعرف الامارة باسم خوقند (وهى فرغانة) وخجندة أول مدنها من الغرب .

وزاد من شهوة نصر الله للغزو زيادة كبيرة أن ظهر عنده آفاق فارسى وضيع يدعى عبد الصمد . وهذا الرجل ، أو الوحش المجرم ، الذى دمغوه فى فارس بالتشرد — وهى تعنى الكثير عند الفرس المحدثين — كان قد ظل يجوب الهند وبلاد الأفغان زمنا طويلا ، وكان يتكسب فيها من وراء بعض معلومات فى الفنون العسكرية الأوربية كان قد التقطها فى شبابه ، حتى قدم بخارى ليجرب حظه فيها عام ١٨٣٥ ، وكان حاكم بى صاحب الأمر فيها اذ ذاك .

وأراد قوشيجى أن يعهد اليه بأمر تدريب الجند ، لكن نصر الله آثر أن يختصه بنفسه ، فجاء ذلك وفق القاعدة التى تقول « ان الطيور على أشكالها تقع » ، فخلع عليه لقب « نائب » وعهد اليه بقيادة جيش بخارى . وكان هذا الفارسى يحسن فنون المدفعية ويفوق فى ذلك الأوزبك على وجه التحقيق ، وكان يحفظ كذلك نداءين أو ثلاثة من النداءات العسكرية الفرنسية ، حتى وقر فى ذهن سيده بذلك أنه قد تحقق له به كفاية عسكرية فذة سرعان ما يستطيع بها أن يحرز اللقب الذى تتوق اليه نفسه وهو لقب « فاتح العالم » .

وعلى هذا بدأ بتسيير حملة لحرب محمد على خان عام ١٨٣٩ ، ليظهر بذلك لأخيه أمير خوقند مدى قدرته الحربية . وكان الخوقنديون يستخدمون حصن پيشه كير بمثابة خط الدفاع الأول لهم ، وكانوا قد بنوه عام ١٨١٩ . وحين طلب اليهم نصر الله أن يزيلوه فرفضوا زحف اليهم بجيشه . هنالك سنحت الفرصة لعبد الصمد ليظهر من كفايته ، اذ انهارت أسوار الحصن ، وكانت من الطين ، بفعل قذائف مدفعيته ، ليعود من بعد ذلك بالجيش فخورا بما حازه من نصر .

وعلى ما يرويه البخاريون فان محمد على ، وكان يعلم تمام العلم ميل جاره الغربى الى الاعتداء ، لم ير أن ينتظر حتى يباغته هو ، فخرج اليه بنفسه عام ١٨٤١ ، فطرد الحامية البخارية من أراتيه ، وكانت تتبع خوقند فى الواقع ، وسيطر على هذا المكان وما حوله من السواد . هنالك خرج نصر الله للقتال مرة ثانية بقوة كبيرة من فرسان الأوزبك وخمسمائة من الميليشيا (سرباز) فاسترد أراتيه بعد حصار دام ثلاثة

أشهر . وفيها أقام ، على عادته ، حماما من الدم ، على سبيل الانتقام ، انقلب الأهلون من بعده يضمرون له أشد العداء . فلم يكد يبلغ سمرقند حتى قاموا فائتلفوا مع الخوقنديين وسقطوا على الحامية البخارية وذبحوا أفرادها جميعا قادة وجندا .

ولنا أن نتصور مدى اضطراب نصر الله حين بلغه ذلك فقد ارتد عجلا الى أراتپه . ومنع خان خوقند من أن يخاطر بمحاربة عدوه اضطراره الى حشد قوة كبيرة من جنده عند حوض سيحون الأدنى لتراقب تحركات الروس هناك ، فاضطر بذلك الى أن يرتد فى الطريق المؤدى الى قصبته .

على أن نصر الله لم يتركه وشأنه ، فسار فى اثره وأرغمه على القتال قرب خجندة . وحين نزلت الهزيمة بمحمد على وبان له تعرض عاصمته للخطر ، بادر بطلب الهدنة ، ثم عقد الصلح مع عدوه عند كهنة بادام ، وفيه اعترف بسلطان أمير بخارى عليه وسلم اليه مدينة خجندة وعدة مواضع أخرى . وأدى بأمير بخارى حقده على عدوه المقهور الى أن أقام على تلك النواحى المفتوحة أخا لغريمه هذا كان قد لجأ الى بخارى من قبل . وقد ارتكب نصر الله بفعلته هذه خطأ كبيرا دون أن يدرى . ذلك أن أم الأميرين ، وكانت على قيد الحياة ، ما لبثت أن أصلحت ما بين الأخوين ، وبهذا عادت خجندة الى حوزة خوقند ، وصار لنصر الله عدوان بدلا من عدو واحد . على أن حنق أمير بخارى المستبد لم يكن يعرف حدودا ، فقد دفع به ظمؤه للانتقام الى أن يخرج فى أكثر من الغارات المعتادة . ففضلا عن جيشه العادى ، وكان قوامه ثلاثين ألفا من الفرسان وألفا من الميلشيا ، استخدم عشرة آلاف أخرى من التركمان من قبائل تكه وسالور ، وأسرع بهم جميعا الى خوقند فباغت محمد على حتى اضطره الى الفرار من حاضرته ، ليسقط من بعد ذلك بأيدى عدوه قرب مرغلان ويعدم (١) بعاصمته نفسها هو وأخوه وولداه ، بعد عشرة أيام من وقوعه فى الأسر .

---

(١) ذهب نصر الله يبرر فعلته البشعة هذه ، فنشر على الملأ أن محمد على كان على علاقة آثمة بأمه فهو بهذا يستحق الموت بنص الشرع .

ولم ينج من الموت حتى زوج هذا الأمير التعس وطفلها الذى لم يكن قد رأى النور بعد .

ولم يعد نصر الله الى بخارى الا بعد أن أسلم أغلب أتباع محمد على الى الجلاد وصادر أموالهم جميعا . وعهد بأمر المدينة المفتوحة الى ابراهيم بى من مواليد مرو وترك معه ألفين من الجند .

وبرغم أن ما حازه البخاريون من الانتصارات كان مرده الى حد كبير لتفوقهم فى العدد ، الا أن ما سعى اليه نصر الله من بذر بذور الشقاق بين رجال قبيلة القبجاق (١) الأقوياء من أصحاب النفوذ حتى شاعت الفرقة بينهم ، كان له بدوره أثره البارز فى احراز هذا النصر . ولقد أفلح ، بعض الوقت ، فى حمل هؤلاء على الابتعاد عن المشاركة فى أى نشاط سياسى ، ثم دفع بهم سلوك البخاريين الفظ آخر الأمر الى خروجهم عن حيادهم ، فتغلبوا على حامية خجندة وسيطروا على المدينة ثم أجلسوا على العرش شير على خان ، أحد أبناء محمد على (٢) ، وكان قد لجأ عندهم ، لينطلقوا من بعد ذلك يبذلون همتهم فى تحصين المدينة ، اذ كانوا يوقنون بأن نصر الله لا بد وأن يعود للانتقام من فوره . وأحيطت خجندة لأول مرة فى تاريخها بسور قوى من الطين . ولم يكد القوم يفرغون من بنائه حتى وصل الى ظاهر المدينة جيش بخارى قوامه خمسة عشر ألفا من الجند يقودهم أمير ممن يطالبون بحقهم فى عرش خوقند وكان يعيش فى رحاب نصر الله منذ زمن طويل . والظاهر أن هذا الأمير ، ويدعى مسلمانقلى ، كان قد استطاع أن يتصل بمواطنيه وهو فى طريقه اليهم ففتحت له أبواب المدينة ، ليعلن عند ذلك من فوره خلعه لطاعة نصر الله برغم وعده له بأن ينادى به خانا على خوقند اذا هو ما بقى

---

(١) أن القبجاق الذين لا تزال قلة منهم تقيم عند الشمال الشرقى من خانية خوقند ، هم أشجع القبائل التركية وأشدهم تمرسا بالقتال . ويعدون من أصلاب المغول الذين يعرفون باسم مغول الجته ؛ وهم الذين خاضوا غمار حرب شعواء ضد تيمور ، واستطاعوا من بعد ذلك بزعامة أبناء يونس خان أن يسودوا القسم الشرقى من تركستان .

(٢) عن شجرة نسب محمد على انظر كتابى Travels in Central Asia p. 391

على طاعته له . كما أرغم ، بمعاونة مواطنيه ، البخاريين الذين كانوا قد جاءوا معه على الفرار . ونزل بنصر الله الداء من فرط غيظه وكمده ، فبعث وهو على فراش المرض بحملة الى خوقند يقودها شاهرخ ميرزا ، فلم تبلغ أراتپه حتى كان أمير بخارى المستبد قد وافاه أجله كما سنرى فى التو ، فوضع موته بذلك حدا لهذه الحرب . ونتج عن التآمر المستمر على خوقند نتائج سيئة أحاقت بها ، فلم تستطع أن تقف فى وجه الروس طويلا وهم يتقدمون على طول مجرى سيحون الأدنى . أما فى داخل خوقند نفسها فقد بقى كل شيء على حاله .

ولم يكن نصر الله بدوره على علاقات طيبة مع خان خيوه جاره الغربى . وبهذا أضيف منذ قيام بيت المنغيتيين حلقة جديدة الى العداء القديم الذى كان يقوم بين خيوه وبخارى . وفيما كان جيش الفتح الروسى يسضى فى عملياته الحربية ، دون تظاهر أو توقف عارض ، وتقترب طلائعه بالتدريج من الشاطىء الأيمن لسيحون وشواطىء بحر آرال ، ركن عشائر القزاق من رجال « القبيلة الصغيرة » و « القبيلة المتوسطة » ممن قد ضاقوا ذرعا بالحكم الروسى ، الى النزوح الى الجزء المسكون من واحات تركستان ليعيشوا هناك مطمئنين — على زعمهم — فى ظل الحكومات الاسلامية المستقلة ، ولكنهم ، كما سوف نلاحظ ، وجدوا هناك خلاف ما كانوا يأملون تماما ، كما صار قدومهم هذا بدوره مصدر متاعب حلت بتلك الولايات .

فقد ادعت كل من خيوه وبخارى تبعيتهما لها ، فلم يثقل كاهل هؤلاء القزاق بما كان عليهم أن يدفعوه لعاهلين معا من الخراج المفروض عليهم فحسب ، بل صاروا هم أنفسهم كذلك سببا لنزاع بين هذين البلدين أدى الى قيام الحرب بينهما مرة كل عشر سنوات . واتصلت الأعمال العدوانية بين هذين الاقليمين طوال عهد نصر الله . بل انه حين أفلحت الحملة الروسية بقيادة الجنرال بيروفسكى فى تهديد مركز الله قلى خان أمير خيوه لم يتردد أمير « بخارى المقدسة » من أن يوسع نطاق غاراته حتى هزاراسب ، فأعان بصنيعه هذا العدو المشترك فى ناحية

الغرب وناحية الشمال الشرقى . واستمر عدوان البخاريين طوال حكم رحيم قلى خان الذى حكم بخيوه منذ عام ١٨٤١ حتى عام ١٨٤٣ .

وجاء محمد أمين خان (١٨٤٣ — ١٨٥٥) فاستطاع بقوة ساعده أن يوقف هذا المجنون الذى كان يحكم على ضفاف زرفشان عند حده . ومع هذا فقد ظل نصر الله يكن دفين الحقد ومقيت الكراهية لبنى جلدته وملته الذين كانوا يقيمون عند حوض جيحون الأدنى (١) .

لم تكن بخارى فى أى عهد من العهود على علاقات طيبة مع فارس ولا سيما أثناء حكم نصر الله . ففى عهده كان أكثر من عشرين ألفا من الفرس يرسفون فى غل الأسر ببخارى ، وأغلب هؤلاء كانوا من أبناء ولايات فارس الشمالية الشرقية . وبرغم ما بلغه كثير منهم من عليا المناصب فى الدولة ، فان صورة ما نزل من الشقاء بمدن وقرى بأكملها حين قضى على كل سكانها لم تكن لتجعل عباس ميرزا يقف من هذه المأساة المروعة موقف المتفرج الذى لا يعنيه من الأمر شيئا . وكان هذا الأمير ، وهو أقدر أبناء فتح على شاه وأنشطهم ، يعيش اذ ذاك بخراسان . وكان قد تم له طرد التركمان من سرخس ومرو . وأثار مخاوف أمير بخارى ، بحق مقام هذا الأمير فى مرو ومعه جيش قوى . ولولا أن هذا الأمير الطموح لم يكن قد قصد من وراء اقامته هناك الى دفع خطر التركمان الذين كان يحركهم الله قلى خان خيوه ، لكان ، وهو الكلف بالمجد ، قد سير ، أغلب الظن ، فرقة من جيشه ، ان لم تكن لتهاجم بخارى العاصمة نفسها فلا أقل من أن تغزو احدى بلدان خانية بخارى الغربية .

وحين منع عدوان خيوه والتركمان هذا الأمير الفارسى من أن يفعل شيئا مع نصر الله أكثر من تهديده له ، ظن أمير بخارى فى نفسه

---

(١) برغم أن كليهما من الأوزبك وأنهما ينتميان الى قبيلة واحدة ، فان سكان خيوه وبخارى من الترك قد عاشوا فى عداء متصل لعدة أجيال، ويعد الأوزبكى فى بخارى ابن جلدته فى خيوه جلفا غير متمدين ، فى حين يرى الخيوى أن البخارى مخادع منافق ، حتى تتمثل فيه رذائل التاجيك جملة .

أن الفرس لا يجرؤون على مهاجمته خوفا منه ، وعلى هذا فقد عاد يتطاول على فارس أكثر من ذى قبل . وكانت الأحوال ببلاد الأفغان بدورها مواتية ليشبع هذا المستبد المتعطش للدماء شهواته فى السلب والنهب والسيطرة .

فقد كانت الدولة الأفغانية التى أقامها أول أمير من بيت الدّرانيين قد مزقتها فتن الوراثة التى كانت تقوم باستمرار بين الاخوة ، وكان رنجيت سنغ (أسد البنجاب) قد استطاع أن يمد حدوده حتى بشاور بعد أن هزم الأفغان فى موقعه نوچرواف هزيمة شديدة . وتمكنت فارس بدورها من استرداد جزء من خراسان ، وحاولت فوق هذا أن تعوض من خسائرها السابقة بالاستيلاء على بعض مناطق الأفغان ، فهاجمت هراة . وكان الخيويون قد استطاعوا فى عهد رحيم قلى أن يكسروا شوكة الجمشيديين ، وهم بدو من أصل ايرانى كانوا يعيشون فى حوض نهر مرغاب الأعلى . فلا عجب اذن أن نرى نصر الله بدوره يفيد من هذه الفرص المواتية له فيبسط سلطانه ونفوذه على الشاطىء الأيسر لجيحون ويسترد بذلك لبخارى تلك المنطقة التى كانت تدعى ملكيتها . ولئن لم ينجح فى الواقع فى ضم بلخ وخلّم وأندخوى وميمنه الى ملكه ، وهو ما لم يكن يحرص عليه فى الغالب بسبب الخراب والدمار الشامل الذى كان يسود تلك المناطق ، فقد ظل على كل حال صاحب النفوذ المطلق فى تلك الخانيات الصغيرة حتى حرب يار محمد التى غيرت من مجريات الأحوال هناك . وظلت هذه تدفع له جزية صغيرة مفروضة عن طيب خاطر لتكون بذلك فى كنف أمير بخارى فيدفع عنها غارات الفرس والأفغان .

وهكذا نرى نصر الله والأحداث تشجعه على أن يطلق العنان لأحلامه الباطلة بالعظمة . وبرغم مما لحق به من الهوان فى بعض المناسبات ، فقد ظل يرى نفسه تحيط به عظمة الشاهنشاه (ملك الملوك) وكان هذا بلا شك غباء منه وأمرا يثير السخرية ووهما باطلا . على أن هذا كله كان فيه الكفاية ليحمل ذلك الطاغية على أن يتصرف فى الوقت

نفسه مع الدول الأوربية بنفس الغطرسة والجسارة التى كان يمارسها مع خيوه وخوقند ، وفي وهمه أنه يعيش فى مأمن وراء صـــحراواته الرملية وهو لا يدرى عن العالم الخارجى شيئا .

ولقد ذهب يمارس مغامراته الجريئة ، دون وازع ، مع وجـــود روسيا وبريطانيا اللتين وصلتا بشركتهما السياسية الى مشارف بلاد ما وراء النهر . ولم يكن أغلب الظن ، ليحتاج الى أعمال الفـــكر فى كثير ليقنع نفسه بأن ظل الدولة الكبرى الذى يقترب من توران فى ناحيـــة الشمال ، سوف تمتد رقعته مع الزمن حتى يدخل فى دائرته أقرب خلفائه من بعده .

أما ما كان من أمر روسيا خاصة، فان هذه الدولة كانلها اتصالات سياسية مع بخارى فى قرون ماضية . ذلك أن طريق التجارة القـــديم الذى كان يقوم كذلك فى القرون الوسطى ، وهو الذى كان يخرج من قلب آسيا فيسير بحذاء مجرى الفولجا حتى يبلغ موسكو ونوفرجراد ، قد حتم سير التجار فيه قيام الاتصالات ، من وقت لآخر ، بين دوقات روسيا الكبار وخانات بخارى . ولم يكن الرسل الذين يروحون ويجيئون بين هؤلاء الحكام يتصدون لغير المسائل التجارية .

وأول سفارة سياسية ، بالمعنى المفهـــوم ، سارت من روسيا الى بخارى ، هى التى كان على رأسها م.نجرى M. Negri عام ١٨٢٠ م . وكان البارون ج. فون مايندورف G. von Meyendorffعضو هذه البعثة أول من أمدنا بتقرير وثيق عن بخارى . وبدأت من بعد ذلك الطوابير الروسية زحفها عند مشارف السهوب الجنوبية ، وكأن الرمال قد انشقت عنها . وما لبثت أن اشتبكت فى منازعات مع خانيتى خوقند وخيـــوه بسبب الحدود .

أما بخارى فقد كان الأمر معها على النقيض ، اذ أنشأ الروس معها علاقات ودية ، أرادوا بها أن يتجنبوا أى اشتباك مع أكبر الخانيـــات وأعظمها حتى يفرغوا من أمر ما هو أصغر منها وأضعف شأنا .

وهذه السياسة كان يكتب لها النجاح التام لو أن بريطانيا لم تنظر الى أهمية بخارى من زاوية أخرى متعارضة ، فلم تبغ فتحها ، وانمـــا

عملت على حماية هؤلاء الذين يتهددهم الغزو ، وبان ميلهـا الى اقامة علاقات مع تلك الدولة التى تقوم على ضفاف زرفشان . وأدى هـذا التنافس بين الدولتين الأوربيتين المسيحيتين الى ازدياد غرور نصر الله ووهمه فى قوته وأهميته ، كما سنرى ، حتى بلغ به الحمق درجة كبيرة .
وبدأ التنافس من الجانب البريطانى عام ١٨٣٢ برحلة الكسـندر بيرنز شبه الرسمية ، تلك الرحلة التى أعطتها روسـيا من الاهتمام أكثر مما تستحق فى الواقع . وفى عام ١٨٣٤ غادر المبعـوث ديميزون Demaison مدينة بطرسبرج ومن بعده فيتكوفيتس Vitkovitch عام ١٨٣٥ فقصدا بخارى وظاهر غرضهما السعى لاطلاق سراح الأسرى الروس هنـاك . أما ما كانا يهدفان اليه فى الواقع فهو أن يؤكدا للامير ، بالأسلوب الذى يشيع فى بلاده ، صداقة القيصر الروسى نيقولا المتكبر الخالصة ويعرضا عليه مساعداته الممتازة .

ولقد جاء تأكيد صداقة القيصر هذا فى وقت مناسب ، ففيمـا كان نصر الله المتغطرس يستمع الى تلاوة الوثائق الدبلوماسية الروسية وهى تتلى عليه بما تحويه من ألقاب التفخيم له (١) ، كانت الجيوش الروسية تقترب بالتدريج من المناطق المنزرعة بالسهوب دون أن يلقى سكان بخارى بالا الى أصوات المدافع الروسية عند سـيحون . وقد أظهر المبعوثون

---

(١) كانت روسيا تضع نصب عينيها المبدأ القائل « حين تكون فى روما فافعل ما يفعله الرومان» وعلى هذا فقد راعت بدقة التقاليدالشرقية فى اتصالاتها بالحكام الشرقيين . وفى مذكرات زاليسـوف Zalesoff التى تتناول العـلاقات الدبلوماسية بين روسيا وبخارى فى الفترة ما بين عامى ١٨٣٦ و ١٨٤٣ ، يرد مثـال لمـا كانت عليه المراسلات الرسمية بهذا الشأن فى خطاب للجنرال بيروفسكى Perowsky حاكم أورنبرج العسكرى اذ ذاك ، وفيه يخاطب الأمير بهذه العبارات : « الى مرجع الحكمة والشرع المبجل الكامل الأمير العظيم الخطير (يقصد نصر الله) ابن الخاقان الكريم مصدر العرفان والمجد والنظام ، مشيع السعادة ، نقـدم أخلص احترامنا واجلالنا ، ثبتك الله على عرش المملكة والعز ، وحفظك من كل سوء وشر ، ومد فى عمرك » . انظر فى ذلك
The Russian in Central Asia, translated from Russian by John and Robert Mitchell, London, 1865, p. 409.

الروس كثيرا من ضبط النفس وطول الاناة ازاء طريقة الأمــير فى رده عليهم .

وكان نصر الله حين يريد أن يخلع على أحد حجابه أو كبــار أمراء بيته منصبا مريحا ، يبعث به ممثلا له فى بطرسبرج حيث يجمع مزيدا من الهدايا الثمينة يشاركه سيده فيها . وبعث نصر الله فى احدى المناسبات بدبلوماسى جاهل ليسأل الحكومة الروسية أن تبعث له بمدربين عسكريين وعمال مناجم مهرة أو غيرهم من الصناع القادرين ، مع استعداد الأمير لأن يدفع لهم أجورا مجزية .

ومن البديهى أن مثل هذا الطلب لم يكن فى الواقع الا مجرد نزوة خيال عابرة ، ذلك أن هذا الأمير المرتاب لم يكن ليسمح أبدا لضــباط من الأجانب (١) أن يسيحوا فى بلاده فيقفوا بذلك على أحوالها . ونفد آخر الأمر صبر الروس اذ كانت الهزيمــة قد لحقت بالحزب الذى كان يقف فى وجه البريطانيين ببلاد الأفغان ، واضطر دوست محمد خان زعيم هذه الجبهة الى أن يفر الى بخارى . وحين جاءت الأخبار بوصول طلائع البريطانيين الى شاطىء جيحون الأيسر ، شرعت روسيا تحاول أن تصل الى اتفاق ثابت مع بخارى فأوفدت اليها لهذا الغرض عام ١٨٤٠ الماجور بوتنيف Butenieff على رأس بعثــة سياسية علمية . وكانت التعليمات التى زود بها هذا السفير هى أن يبذل غاية جهده فى اقناع الأمير بمــا يحمله بلاط بطرسبرج من المحبة والعطف الخالص نحو البلاد الاسلامية، فمن ذلك ما فعله قيصر الروس مع السلطان محمود الثانى فى محنتــه مع محمد على والى مصر ، وما كان من موقفه كذلك مع محمد شــاه سلطان فارس ، وهو لا يتردد فى أن يكون لنصر الله بدوره نصيب منه كذلك ، على أن يتعهد له نظير ذلك بأمور معينة هى :

أولا : ألا يقوم بأعمال عدائية ضد روسيا لا فى السر ولا فى العلن .

---

(١) حدث ابان ســـفارة بوتنيف ، أن قامت بعثــة علمية ، حقيقة ، برحلة فى الاقليم الجبلى بالقرب من سمرقند ، الا أن الأهلين كانوا يترصدون خطــاهم وكأنهم جواسيس ، حتى لنعجب حقــا كيف استطاع لهمــان وجاكوفليف Lehmann and Jakovleff أن يتما ما قاما به .

ثانيا : ألا يحتفظ عنده بأسرى من الروس وأن يضمن سـلامة الرعايا الروس وممتلكاتهم فى بلاده .

ثالثا : ألا يصادر متاع الروس الذين توافيهم المنيـة ببلاده ، بل يبعث به الى روسيا .

رابعا : أن يمنع البخاريين من السطو على الرعايا الروس أو ارتكاب أعمال العنف معهم ، وأن يعاقب فى الحال كل من يرتكب منهم شيئا من ذلك .

خامسا : أن يوحد الرسم المفروض على البضائع الروسية بحيث لا يزيد على خمسة بالمائة من قيمة كل سلعة .

سادسا : ألا يتعرض التجار الروس للمضايقات أو الأذى ببلاده ، وأن يوفر لهم ببخارى من الحماية مايوفره الروس للتجار البخاريين فى بلادهم .

وتقدمت روسيا بدورها الى الأمير بكثير من الامتيـازات والمنافع نظير ذلك . وحين نقدر قيمة هذه السفارة ومبلغ ما كان عليه أعضاؤها من الكفاية لا نعجب عند ذلك لما كان يقدرونه لها فى بطرسبرج من النجاح المنتظر فى مهمتها .

ان روسيا نفسها ، وهى دولة آسيوية ، قد خانتها خبرتها فخدعت الى حد ما فى تقديرها لنصر الله . فكيف يكون لهذا الأخرق أن يدرك الفرق بين بعثة تضم مجرد ممثل عادى وبعثـة أخرى فيها سـفير فوق العادة . وهل كان ينتظر من ذلك التابع السابق والوزير الحالى عبـد الخالق ، وهو شاب فى التاسعة عشرة من عمره ، أن يبلغ الى أن يوقف أميره على ما كان يحويه الخط الامبراطورى وما تشير اليه أوراق سفارة الكونت نسلرود Nesselrode . ولئن كان هذا السفير قد لقى من حسن الوفادة وكرم الضيافة ما لا يدع زيادة لمستزيد ، الا أنه لم يبلغ فى مهمته الى شىء . فقد تلقى نصر الله هدايا أخيه الامبراطور الذى يقيم على شاطىء نيفا ورسائله بعطف زائد ، كما أفاد من علم التعدين الذى كان

بعض أعضــاء البعثــة على دراية به ، ومع ذلك فان أعضــاء البعثة لم يستطيعوا أن يحملوه على الدخول معهم فى مفاوضــات بشأن المعاهدة التى كانت روسيا تنشدها ، فكان يتعلل حينا بضرورة خروجه من فوره لقيادة جيشه المظفر فى خوقند ، ويعتذر حينا آخر باشتغاله بهذا الأمر المهم أو ذاك من أمور الدولة ، حتى انقضى بذلك على الوفد الروسى ببخارى ثمانية أشهر ، كان الماجور بوتنيف يلح فيها عبثا فى طلب مقابلة الأمير ، حتى دعى آخر الأمر ليستمع الى « النطق السامى » منه .

هنالك ظهر نصر الله فى البلاط وهو يهم بامتطاء جواده ليخرج الى حرب خوقند ، فقال فى عجلة زائدة للسفير فوق العادة والمندوب المفوض للقيصر نقولا بأنه قد عهد الى الموكل بالمائدة (دستور خوانجى) (١) بقضاء المهمة التى جاء من أجلها ثم ودعه ونفذ بفرسه من بوابة القصر .

وهكذا كانت هذه هى أول مرة يدرك فيها السفير الروسى ، أو يدرك سيده الامبراطور بعبارة أدق ، مدى المهــانة التى لحقت به على أيدى هذا الجلف . وسخط الروس من هذه المعاملة أشد الســخط ، ولكن نصر الله لم يكترث أدنى الاكتراث لمخالفته هذه للعرف الدولى . فقد زادت انتصاراته بخوقند من غروره عن ذى قبــل حتى بات يحلم بالاضطلاع بدور نظير دور جنكيز أو تيمور . وزالت مخاوفه من أى غزو بريطانى حين علم بخبر الكارثة التى حلت بالبريطانيين فى كابل ، اذ نزلت بهم مذبحة وطردوا من المدينة . وحين رأى الأفغان — وهو الذى يرى فى نفسه الاسكندر المقدونى بالقياس اليهم — قد غلبــوا جيشا نظاميا لدولة أوربية عظمى ، حسب أنه لا بأس عليه من ســخط عدوه الشمالى الذى كانت قيادته على تلك المسافة البعيدة من حدود بخارى .

لا يعجب أحد من بعد ذلك حين يرى بريطانيا، وهى التى تستمسك

---

(١) دستور خوان معناها الحرفى غطاء المائدة الذى يوضع عليه الطعام فى وسط آسيا ، ومن معانيها العامة تقديم مائدة للضيف فيلتزم بتناول شىء مما عليها . ويعرف من يقوم بالخدمة عليه باسم دستور خوانجى أى الموكل بالمائدة .

كل الاستمساك بمبادىء الأخلاق الأوربية حتى حين تتعامل مع المكابرين المتعصبين من الأسيويين ، تجنى فوائد لا تذكر من وراء صفقاتها مع بخارى ، بل وتنزل بها كذلك من المهانات أكثر مما نزل بروسيا . وما دعا بريطانيا الى الاتصال بتلك العاصمة التى تقوم على ضفاف زرفشان هى أمور حديثة معروفة تمام المعرفة ، شائع أمرها ، فلا تدعو ضرورة لتفصيل أمرها فى هذا المكان . فمنذ اللحظة التى عبرت فيها القوات الهندية البريطانية نهر السند بدا أنه لا بد من الاتصال بآسيا الوسطى واقامة العلاقات مع بخارى مركز السياسة والدين فيها . وبنى هذا الاتصال فى الواقع على سببين : ففى المقام الأول أن بخارى برغم ما وصلت اليه من الضعف والانحلال ، الا أنها ظلت تتزعم غيرها من امارات آسيا الوسطى ، وذلك بفضل أمجاد حكام بلاد ما وراء النهر السابقين التى ظل خلفاؤهم يعيشون على صيتها . فما كانت بخارى تستحسنه كان الآخرون يسلمون به ويقلدونها فيه ، وما كانت بخارى تجتبيه كانوا هم بدورهم يقبلون عليه كذلك . وعلى هذا فقد كان على بريطانيا أن تنشد ود بخارى حتى تعزز من مراكزها فيما وراء جبال سليمان ، تلك المراكز التى سعت للحصول عليها ، لسوء الحظ ، فى عجلة قبل الأوان (١) ، ونتج عن ذلك أن اضطرت الى اخلائها فى خسارة .

وفى المقام الثانى ، أن الحقيقة الكامنة فى أن دولة أوربية أخرى قد منيت بالفشل فى بخارى كما منيت به روسيا من قبل ، قد جعلت من هذه المدينة مسرحا للصراع فى التسابق ، ذلك الصراع الذى أثار كثيرا من الجزع فى بريطانيا ، اذ لم يدر بخلد القوم هنالك أن الموقف فى بلاد الأفغان هو وسير الأمور فى الامبراطورية الهندية سيبلغان مابلغاه ذا ذاك من الحرج الشديد . ومن العسير أن نحكم بأن هذه الظنون كانت تقوم فى الواقع على أساس ، أو أن القوم قد بالغوا فيها كثيرا ، فذلك ماسوف

(١) بل أقول « ارتجالا » ذلك أن البريطانيين لو أنهم كانوا قد عبروا ستلج أولا وثبتوا أقدامهم فى البنجاب ، ثم أخذوا من بعد ذلك يدرسون أحوال بلاد الأفغان لبضع سنين باتصالهم المباشر بهم ، لما انتهت حملتهم الى هذه الكارثة . بل ولعلهم كانوا لا يقدمون عليها أبدا .

تجليه لنا الأيام مستقبلا . ولما كان من منهجي فى هذا الكتاب أن أكتفى بتسجيل قيام مثل هذه الظنون والآراء فحسب ، بصرف النظر عن وجهة نظرى التى أبديتها فى بعض المواضع (١) ، فانى أحسب أن هذه الظنون كانت سببا ثانيا أدى بالبريطانيين الى ايفاد بعثة الى بخارى . ولم تكن لأسفار الكسندر بيرنز أية صفة رسمية ، ويمكن حسبانها فى الواقع مجرد جس نبض سياسى فى السر . وبهذا تعد بعثة الكولونيل ستودارت Stoddtar الى بخارى عام ١٨٣٨ م أول بعثة تقيم العلاقات بين الحكومة البريطانية وحكومة بخارى . وقد تلقى ستودارت التعليمات من السفير البريطانى بطهران بأن يؤكد لأمير بخارى أنه ليس هناك ما يثير مخاوفه من جراء النفوذ البريطانى فى بلاد الأفغان ، وأن بريطانيا جد تواقة لاقامة علاقات ودية مع بخارى ، وأنها بذلك على استعداد لمساعدة أميرها اذا ما تعرضت بلاده لخطر أى غزو خارجى .

ومع أنه كان لا جدوى على الاطلاق فى أن تتقدم أى دولة أوربية تعرض مودتها على أمير متعصب مثل نصر الله الذى كان يمقت المسيحيين كل المقت (٢) ، فقد كان اختيار رئيس هذه البعثة بالذات ، وهو الذى كان عليه أن يضطلع بهذه المفاوضات ، أبعد مايكون عن التوفيق بدوره . فمما لا نزاع فيه أن الكولونيل ستودارت كان ضابطا ممتازا يتحلى بكل

---

(١) أعلنت آرائى فى هذا الوضوع بالمصادر الآتية :
١ ـ الفصل الأخير من كتابى Sketches From central Asia, 1897.
٢ ـ أعداد نوفمبر وديسمبر ١٨٦٨ ويوليه ١٨٦٩ ومايو ونوفمبر ١٨٧٠ من المجلة الألمانية Unsere Zeit
٣ ـ وكذلك فى
Globus, eine durch Dr. André derigierte geographische Zeitschrift vol. XX, pp. 81, 105 c 122.

(٢) لا جدال أن الأمير نصر الله كان بعيد النظر وعلى حق فى مواقفه الواعية هذه ، فعن طريق مثل هذه البعوث بلغ المستعمرون البريطانيون الى الاستيلاء على الهند ، والروس الى التوغل فى آسيا الوسطى ولولا أن وقف الأفغان ليوثا ضوارى فى وجه البريطانيين لضاعت بلادهم بدورها . وكل ما يؤخذ على نصر الله أنه لو كان قد عدل عن حربه ضد جيرانه فائتلفوا جميعا فى وجه المستعمرين بدلا من تحاربهم فيما بينهم لامتنعت بلادهم على كل دخيل (**المترجم**)

الفضائل التى تليق بمنصبه ، ولكن حدة مزاجه وطباعه العسكرية الخشنة وبعده عن المرونة السياسية ، هذه كلها كانت تفيد فى قيادته لفرقته أكثر مما تفيد فى بعثة دبلوماسية . فمن كانت له هذه الصفات لم يكن ليستطيع بطبيعة الحال أن يصل الى شىء مع رجل صلب عنيد كنصر الله . فقد أثار منذ أول الأمر سخط الأمير وغضبه باصراره فى حمق على رفض اتباع التقاليد التى تجرى ببخارى عند مقابلة الأمير . فذلك الكافر الذى اجترأ على الركوب فى خيلاء ببخارى « الشريفة » وفى ريغستان بالذات حيث ينزل كل انسان فى حرمه عن دابته ، والذى رفض أن يؤدى لأمير المؤمنين ما يجب نحوه من آيات الاحترام ، وظهر عند عتبات العرش ويده خالية من الهدايا ، كانت فعاله هذه أكثر مما يحتملها الأمير الحانق . فما غدا بعد مضى يومين على مقابلته له أن أمر بالقبض عليه بطريقة مهينة وألقى به فى محبس مخيف . وهنالك أخذ الأمير يلهو بهذا الضابط المنكود الحظ كما يلهو النمر بفريسته . فكان وقتا ما يأمر بتعذيبه فى سجنه ليطلق سراحه من بعد ذلك وقتا آخر ويغمره بتكريمه له . وكان أساس معاملته يختلف من وقت الى آخر تبعا لما كان يرد من الأخبار بين الفينة والفينة عن وضع البريطانيين فى بلاد الأفغان . ولم تفلح وساطات السلطان (العثمانى) أو شريف مكة أو شاه فارس أو أمراء الامارات المجاورة لبخارى ، فى انقاذ هذا الأسير التعس ، ولا حتى وساطة روسيا التى بذلت كثيرا من الجهود عبثا ، بواسطة الماجور بوتنيف ، لتنقذ ممثل الدولة ، التى تنافسها ، من الدمار المحقق . وقد أرغم ستودارت على اعتناق الاسلام ، وان رفض أن يجهر بذلك ، وقضى هناك أربع سنوات نزل به فيها كل صنوف التعذيب والمهانة ، حتى وجد فى أحد مواطنيه رفيقا له فى محنته وسلك معه آخر المطاف الطريق الى الموت .

كان الكابتن أرثر كونوللى Arthur Conolly ، وهو الذى رافق ستودارت فى سجنه ، قد خرج من كابل فى الثالث من سبتمبر عام ١٨٤٠ فى بعثة دبلوماسية الى آسيا الوسطى . فقد أخذ الساسة البريطانيون يدركون شيئا فشيئا أن المراسلات الدبلوماسية بين لندن وبطرسبرج لن يكون من ورائها جدوى ، وأن روسيا سوف تواصل سياستها العدوانية

بازاء الخانيات الثلاث ، فلم يبق بذلك لهم من سبيل الا أن يتجهوا الى أمراء هذه الخانيات ويحاولوا أن يفتحوا عيونهم على هذا الخطر الداهم الذى يتهددهم ويحملوهم بذلك على الدخول فى تحالف دفاعى هجومى معهم .. وكان انشاء تحالف بين تلك الأقاليم ، التى عاشت قرونا متعادية أشد العــداء ، فكرة غير عملية ضئيلة الحظ من النجاح الى أبعد حد . وكذلك كان الحال فى اختيار الشخص الذى وكل اليه هذا الأمر .. فقد كان كونوللى رقيق المشاعر نبيــل الخلق ، وكانت نفسه متشبعة بأرفع الأفكار المسيحية ، حتى كان يرنو بعين بصيرته لا الى تحرير رقيق آسيا فحسب بل والى تحرير رقيق العالم كله . وهكذا كان على حمامة السلام العالمى هذا أن يدخل فى مفاوضات مع هذه النسور السوداء التى كانت تجلس على عروش آسيا . وكان قد سبقه الى خيوه من قبل الضابطان البريطانيان آبوت وشكسبير فى بعثة انسانية لمحاولة اطلاق سراح الرقيق الروسى . وقد استقبل الله قلى خان الضابط كونوللى بترحاب ، ولــكن جهوده فى ميدان السياسة لم تصادف قدرا يذكر من التوفيق هى ومساعيه لاطلاق سراح الأسرى . ذلك أن الأوزبك المحاربين يرون فى قنوات الرى والعبيد أدوات لا بد منها لتأمين عيشهم اليومى .

وأجاب الخان على موضوع التحالف مع بخارى وخوقند بأنه لاحاجة به الى نصيحة الأجانب فى هذا الشأن ، وطلب أن تمده بريطانيا بالأسلحة والمال اذا كانت تريد حقا أن تقيم الدليلُ على صداقتها له . وعلى هذا فقد غادر كونوللى خيوه الى خوقند يجر أذيال الخيبة . واضطر لكى يتجنب المرور بأراضى بخــارى الى أن يخوض السهوب الشمالية ، فى طريق يبدأ ، على ما أعلم ، من جيزك ، لم يطرقه أوربى من قبل . ولم يكن ما استقبل به من الحفاوة فى ذلك القسم الشرقى من تركستان دون ما لقيه فى خيوه . وكان محمــد على أمير خوقنــد اذ ذاك مشتبكا فى الحرب مع نصر الله ، فكان وصول ضــابط له دراية باستخدام الأسلحة الأوربية وخطط الحرب اذ ذاك مما يرحب به الأمير كل ترحيب ، فاستقبله استقبالا حافلا وهو يأمل أن يفيد من وجوده بعض الفوائد الحربية . ولا نعرف مدى ما بلغه كونوللى من نجاح فى مفاوضاته مع محمد على ، ذلك أن كلّ

مذكراته التي كان قد كتبها في خوقند قد ضاعت . والغالب أنه لم يصل معه الى ما يستحق الذكر .

ذلك أن ما وصل اليه مركز أمير خوقند من حرج بسبب الحرب قد حال بينه يقينا وبين التفكير في رسم خطط مستقبلة . وحين رأى كونوللي فشل خططه في خوقند اندفع بلا تبصر يلبي دعوة الغادر نصر الله فزاره في معسكره بمحرم غير بعيد من خوقند . ذلك أن نصر الله كان قد ارتاب في أن كونوللي هو الذي دفع بجاره الشرقي الى حرب بخارى ، فاحتال على أن يوقعه في شباكه واستخدم في ذلك مواطنه ستودارت ليحمله على القدوم اليه . ولم يستمع كونوللي الى تحذير الخوقنديين له من غدر ذلك الأمير فعقد العزم على السير الى معسكره ، فما ان بلغه حتى ألقى القبض عليه في التو ، وجرد من كل ما كان معه ، ثم سير الى بخارى من بعد ذلك ليشارك ستودارت أسره المخيف . وقد نشر الكاتب الانجليزى الهندى ج. و. كاى J.W. Kaye ، وهو عالم كبير وكاتب مجيد ، في كتابه : « صور من حياة الضباط الهنود : "Lives of Indian Officers" (١) بعض فقرات من مذكرات كونوللي التي كان كتبها في سجنه . وهي وان كانت مجرد خطوط اجمالية للصورة الحزينة ، الا أنها مع ذلك تعبر عنها تعبيرا عميقا ، وتكفي لتعطى القارىء فكرة عن مدى ماتعرض له هذان الأوربيان التعسان من العذاب والعناء مدة ستة أشهر بالتقريب قضياها في جحر مظلم رطب وبيل . وكان عليهما في أثناء ذلك لا أن يتحملا البرد والرطوبة فحسب ، وهما في خرق من الثياب قليلة مهلهلة ، والهوام والحشرات تشاركهما سجنهما ، بل ويقبعان في انتظار الموت الأكيد كذلك . وظل شعاع من الأمل يراودهما في سجنهما هذا ما بقيت سفارة بوتنيف تقيم في بخارى ، تلك البعثة التي بذلت من الجهود الانسانية لتحرير هذين السجينين أكثر مما عرف عنها وذاع أمرها . حتى اذا مارحلت عن بخارى خبا برحيلها آخر بصيص من ذلك الأمل وانطفأ .

---

(١) ويقع في مجلدين ، وقد نشره Strahan & Co. London, 1867.

وتلقى نصر الله فى ذلك الوقت أخبارا يوثق بها عن الكارثة التى حلت بالبريطانيين فى كابل ، فرأى معها أنه لم يعد هناك ما يخيفه من احتمال زحف البريطانيين عليه ، للانتقام منه ، من أية ناحية ، ليأمر عند ذلك فى ١٧ يونيه ١٨٤٢ (١) باعـدام الأسـيرين علنـا فى حضور جمـع من الفضوليين . ولا بد أنهما رحبا بالموت اذ رأيا فيه الخلاص مما كانا فيه . وأطاح الجلاد أولا برأس ستودارت ، ثم تلت ذلك فترة قيل انه عرض فيها على كونوللى أن يعتنق الاسلام فينجو بذلك من الموت ، لكن ذلك الرجل الشهم رد عليهم فى اشمئزاز بأن ستودارت كان قد أسلم بدوره فلم يعفه ذلك من القتل ، فهو على ذلك يؤثر الموت . وبهذا أسلم رأسه للجلاد فأطاح بها فى ضربة واحدة . وقد ضم هذين الشهيدين قبر واحد كان قد حفر أمام أعينهما .

وهكذا لقى حتفهما أول سفيرين مسيحيين دخلا بلاد ما وراء النهر منذ زمن كلافيجو . ولنا أن نسميهما أول رسل عالم جديد . ومهما يكن من أمر الدوافع التى دعت ببريطانيا الى التدخل فى شئون هذه الولايات التى تقع فيما وراء جيحون ، فلا مراء فى أن سياستها هذه لم تكن من وحى شهوة الفتح والغزو وانما كانت باملاء دافع انسانى حرصـا على حضارة آسيا الوسطى التى كانت ترى فيها حصنا حصينا يقف فى وجه هجمات العدو الشمالى (٢) .

وما جرؤ عليه نصر الله من الحاق المهانة البالغة بدولة أوربية كبيرة تشتهر بأنها لا تتردد فى بذل أعظم التضحيات دفاعا عن رعاياها ، انمـا

(١) ذكر هذا التاريخ كاى فى المصدر السابق ، فى حين يذكر فريير Ferrier فى كتابه عن تاريخ الأفغان ص ٤٦ أن ذلك وقع فى ٢٤ من يونية وذلك بتقرير اخوندزاده الذى حدد يوم التنفيذ ، معتمـدا على ذاكرته ، فقال انه وقع فى اليوم الثانى من جمادى الأولى أو الثانيـة . وهو خطأ ، ذلك أن بداية هذين الشهرين فى عام ١٢٥٨ هـ توافق ١٢ مايو و١٠ يونيو على التوالى .

(٢) لو كان هـذا صحيحا لمـا أصمت بريطانيا آذانها عن استنجاد الوطنيين من أهل هذه البلاد بها اثناء الحرب العالمية الأولى وما بعدها أبان قيام الثورة الروسية ، فرفضت أن تمدهم بالسلاح بل وذهبت كذلك تعين أعداءهم عليهم . ولا يغيب عن بالنا كذلك ما حاوله البريطانيون من تزييف تاريخ المسلمين المجيد بالهند (**المترجم**) .

ساعد عليه فى المحل الأول الحوادث السيئة التى وقعت بوادى الهندكوش. على أن نصر الله لم يجسر على أن يرتكب مع بقايا البريطانيين فى كابل ما يعد وفقا للشرائع الاسلامية خرقا معيبا للقانون الدولى . ولو كان قد فعل ذلك لكانت القوات البريطانية قد زحفت اليه بطريق بلخ وقارشى فاقتصت على وجه اليقين منه .

وفى المحل الثانى فان هذا المستبد يدين بنجاته من العقاب الى التنافس والتسابق اللذين كانا يقومان بين الدولتين الأوربيتين . وعلى هذا فلم يكن هناك من دولة يمكن أن يكون استخدامها لتأديب هذا الأمير مناسبا سوى فارس ، وهى التى قد استرق مئات الألوف من رعاياها ببلاد ما وراء النهر . على أن هذه الدولة كانت على الدوام فى حاجة ملحة الى المال ، كما أن ميلها الى الائتلاف مع روسيا لم يكن سرا من الأسرار ، ولم تكن بريطانيا على ذلك لتمد اليها يد المساعدة فتقوى بصنيعها ذلك من أداة غريمتها .

وفى ظل هذه الظروف المواتية مضى نصر الله ، بعد كل هذه الحوادث المخزية ليدنس عرشه من جديد بدنىء الفعال . فالى جانب هذين البريطانيين (١) سقط كذلك فريسة لقسوته القاتلة الايطاليان جيوفانى أورلاندو Giovanni Orlando وفلورس ناسيللى Flores Naselli واليونانى يوسف Joseph . وكان أورلاندو ، أولهم ، قد دفعه شغفه بالترحال الى أن تعرف فى القسطنطينية بأحد رسل خجندة ، فصحبه فى سفره الى تلك المدينة النائية ، وبهذا سقط فى أيدى نصر الله . واستخدم

---

(١) كان المبشر الدكتور يوسف وولف Joseph Wolf رجلا غريب الأطوار ولكنه شجاع ، وهو يقول فى كتاب بعثته الى بخارى M :: cr 1c Bokhara ان اللازم ويبورت Wyburt كان قد قبض عليه وهو فى طريقه الى خيوه فجلبه التركمان الى بخارى حيث ألقى به عدة سنوات فى السجن ثم قتل قبل وصول ستودارت بقليل ، وما ترويه المصادر الأخرى عن مصيره يختلف عما ذكره وولف . وكان هذا الضابط قد اندفع الى سهوب التركستان وليس له أدنى معرفة بلغات أهل آسيا الوسطى أو رسومهم . وعبثا حذروه فى طهران من الموت المحقق الذى ينتظره . ولكنه مع ذلك ركب راسه حتى لقى حتفه فى الصحراء .

بعض الوقت لاصلاح الساعات بالبلاط ، حتى اذا تعطلت ساعة الأمير الظالم عن العمل ذات يوم دعى الى القصر فعوقب على ذلك بتعطيل آلة حياته على يد الجلاد .

أما الايطالى الثانى فلورس تاسيللى فقد كان جنديا محترفا ، ولعل ما شوقه الى الشرق هو ما كان قد سمعه عن المجد الذى بلغ اليه مواطنه الجنرال افيتابيل Avitabile وكان ملتحقا بخدمة رنجيت سنغ (فى البنجاب) . وقدم فلورس هذا الى بخارى بعد مقتل البريطانيين ، ببعض الوقت ، وود أن يضع خبرته العسكرية فى خدمة الأمير . غير أن عدم معرفته بلسان البلاد مع دسائس عبد الصمد ، عدو الأوربيين الكبير ، وكان يخاف أن ينافسه ، أدى الى أن قبض عليه بتهمة التجسس بعد وصوله بأسابيع قليلة وأعدم .

أما الثالث ، وهو اليونانى يوسف ، فقد كان تابعا لكونوللى ، وبرغم تقديمه ما يثبت بأنه من رعايا السلطان ، فان ذلك لم يفده شيئا ولحق بسيده . ولم يكن نصر الله فى الواقع يكترث بالسلطان (العثمانى) . ولئن كان يقر له بالسيادة بدافع من الضرورة الدينية ، الا أنه كان يرى نفسه فى الواقع أعظم منه مجدا وسلطانا ، بل لقد سقط أحد رعايا الباب العالى المسلمين بدوره فريسة لهذا المتعطش للدماء . فهذا هو مصطفى تساويش الذى كان قد بعث به رشيد باشا الى بخارى بناء على طلب الأمير ليقوم بتدريب الجند ، لم يمض شهر على وصوله حتى اتهم بتهاونه فى التزام قواعد الشرع فى سلوكه وألقى به فى السجن . حتى اذا ما تظلم من ذلك سيق الى الموت . وحين فر دوست محمد خان (أمير كابل) من أمام البريطانيين ولجأ مع أسرته الى بلاط نصر الله ، أثار ما كان عليه سلطان جان ، أصغر أبناء الأمير اللاجىء من جمال ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره ، غرائز أمير بخارى الدنسة . وبرغم قدسية قوانين الضيافة التى كان يحرص على احترامها حتى أكثر سكان آسيا همجية ، فان ذلك الأمير تجاسر على طلب الابن من أبيه . وحاول دوست محمد أن ينقذ ابنه بطريق الهرب ولكنه لم يفلح فى ذلك ، فقد حوصر سلطان خان وأخوه

الأكبر أكبر خان وأعيدا الى بخارى برغم استماتتها فى المقاومة. ولم يتمكن دوست محمد نفسه من الافلات من براثن هذا الوحش الا بمشقة . ولعل منهل الاسلام (١) الصافى فى بخارى لم يبد فى عينى دوست محمد رائقا حين أتيح له فيما بعد أن يقارن بين ما لقيه بالمعتقل اللائق الذى أنزله فيه البريطانيون ، ومالقيه فى ضيافة جاره وأخيه فى الدين .

وكما سنرى فى المقال التالى فان دوست محمد عقد النية وهو فى سنه المتقدمة على الانتقام لهذا السلوك المشين .

ولم يصل الانتقام الحق الى نصر الله فى وقته على كل حال . ذلك أن أعداءه لم تتح لهم الفرصة لمحاسبته عما كان يرتكبه من الآثام ، فدفع خلفه ثمن ذلك كله . ففى عهد هذا الأمير كان كل شخص فى داخل البلاد ، أى فى بخارى ، يعيش فى خوف مقيم . وكان الآباء يرون أبناءهم وبنـاتهم يحملون بالقوة الى قصر الأمير فلا يجرؤون على النطق بكلمة احتجـاج واحدة . ذلك أنه كان للأمير ، وفق تعاليم الشيوخ ، أن يفعل برعيته كما يفعل الراعى بأغنـامه . حتى نهض حزب كبير من الساخطين على ذلك الوضع ، حوالى عام ١٨٤٠ — ولا يمكننى أن أذكر التاريخ على وجه التحقيق — والمظنون أن الأمير مظفر الدين ، أكبر أولاد نصر الله وخليفته المنتظر ، كان على رأس هؤلاء . وكانت أقل ريبة أو اشتباه ، يحوم حول أى شخص ، كفيل بأن يودى به الى حتفه .

وعلى هـذا فقـد سيق الى الموت أكثر من أربعين شـخصا من المتآمرين . أما الأمير مظفر الدين فقد نقل من حكومة قارشى الى حكومة كرمينية ، فلم يتحدد بهذا الاجراء نشاطه فحسب ، بل وصار كذلك أقرب الى رقابة أبيـه عليه . وكان نصر الله قد تقدمت به السن كلما ازدادت نوبات هياجه وحنقه واشتدت ، حتى وافاه أجله عام ١٨٦٠ بعد أن حكم أربعة وثلاثين عاما . وقد عكر عليه صفو سنى حياته الأخيرة ما كان من

---

(١) ما دخل الاسلام فى هذا ؟ هـذه زلة من المؤرخ ما كان له أن يتورط فيها .

أمر الثورات المتكررة التى كانت تنشب فى خوقند فضلا عن صراعه المرير مع صهره ولى النعم فى شهر سبز . وجاءته الأخبار بسقوط ذلك الحصن فى يد قواته وهو يعانى سكرات الموت ، فأصدر أمره ، وهو لا يكاد يعبر عن ذلك الا بمشقة ، بأن يساق الى الموت صهره وجميع أولاده . ولم يكفه ذلك حتى أمر باحضار زوجه نفسها ، أخت ولى النعم ، الى جانب فراشه ، وهرعت اليه هذه السيدة ، وهى أم لطفلين ، ترتجف فرقا ، فلم يرق لها قلب ذلك الطاغية حتى وهو فى النزع ، وأمر بقتلها أمام عينيه ، فزفر آخر أنفاسه الكريهة وهو يتطلع الى دماء أخت أخطر أعدائه .

الفصل التاسع عشر

الأمير مظفر الدين وبيت رومانوف

١٢٧٧ (١٨٦٠) – ١٢٨٧ (١٨٧٠)

ان المثل القـديم الذى يقول « ان الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون » نادرا ما نرى له حالة ينطبق عليها تمام الانطباق أو يتحقق فيها سريعا كتلك التى كان عليها مظفر الدين خان ، ابن نصر الله وخلفه .

كان الروس قد تقدموا اذ ذاك بالفعل ، على أجنحة ريح الشمال ، نحو شواطئ جيحون فى حياة نصر الله نفسه ، وسبقهم الموت اليه قبل أن يسقط هو نفسه فى أيديهم ، ليدفع ابنه من بعد ذلك ثمن أخطائه ، بضياع تاجه ، وبلاده بضياع استقلالها . وكان مظفر الدين قد قضى شبابه المبكر فى قارشى ، مقام ولى العهد وقصبة المنغيتيين ، ليتعلم فن الحكم بين قبيلته نفسها على ما فعل أبوه من قبل . وقد عرف منذ وقت مبكر بانكبابه على الدرس وبمقدرته الفائقة وكفايته . ويمكن لكاتب هذه السطور أن يشهد ، بناء على ما وقف عليه بنفسه ، بأنه كان مسلما واسع الثقافة بالمعنى الذى تدل عليه هذه العبارة بتركستان بطبيعة الحال . ومع هذا فقد كان مظفر الدين شوكة فى جنب أبيه منذ أول الأمر على كل حال. ذلك أن نصر الله كان يخشى أن ينهض ابنه منافسا خطيرا له ، قياسا على ما كان من سلوكه المشين هو نفسه بازاء أبيه الأمير سعيد من قبل . وأدت به أوهامه هذه الى أن صار يتمثل له على الدوام أشباح مؤامرة تحاك له فى قارشى حتى استولى عليه القلق الشديد . هنالك عزم على أن يتخلص من هذا الكابوس المقيم فندب ابنه لحكومة كرمينية حتى يكون بذلك الى جواره وحتى يستطيع أن يراقب بنفسه حركاته وسكناته عن كثب .

وبقي مظفر بمقامه الجديد هذا فى شبه عزلة مهيض الجناح وذلك ابتداء من عام ١٨٤٢ حتى وفاة أبيه ، ليرتقي عند ذلك عرش بلاد ما وراء النهر ويعرف في التاريخ كآخر عاهل فى سلسلة الحكام المستقلين الطويلة من مختلف الأسر الحاكمة التي حكمت على ضفاف زرفشان لمدة ألف عام ابتداء من السامانيين .

ويمكننا أن نؤكد مخلصين أن مظفر الدين كان شخصيا بريئا من كل لوم تلقاء النكبة التى نزلت بأسرته . هذا وما نلاحظه غالبا هو اختلاف سلوك كل وريث للعرش ، وهو أمير ، اختلافا كبيرا فى العادة عن سلوكه حين ينتقل اليه الحكم بالفعل ، وهو أمر شائع فى كل الأقطار . وكان هذا هو الحال مع مظفر الدين ، فقد تخلى هذا الأمير بالكلية عن خلال رجال الدين الوديعة التى كان عليها وهو ولى عهد (كتّه — توره) (١) ، فجدد تو ارتقائه العرش الصراع مع شهرسبز الثائرة حيث كان أهلها قد عادوا الى رفع راية العصيان من جديد عقب موت أبيه .

وكانت هذه أول حروبه ، ولكن جهوده فيها لم تنته الى شيء ، نظير جهود أبيه هناك من قبل .

فبينما كان منهمكا فى حصار چراكچى ، أحد حصون شهر سبز ، وجد نفسه ينساق الى حرب جديدة أخرى بسبب الأحداث التى قامت في خوقند ، فاضطر أن يسلك هناك نفس السياسة التى جلبت الكوارث على أبيه من قبل وعلى كل آسيا الوسطى من بعد ذلك . فقد دبر البخاريون مقتل مسلمان خان ليتخلصوا منه ، وكان قد استولى على مقاليد الحكم فى خوقند على ما ذكرنا من قبل ، ثم وضعوا التاج على مفرق حفيد ثالث لمحمد على هو خدايار خان .

وكان هذا الأمير الضعيف الجبان قد نشأ تحت بصر نصر الله نفسه وسط كل الرذائل التى كانت تسود بلاط بخارى . وعلى هذا فقد كان

---

(١) هذا الاصطلاح الذى لم يعرفه العالم الغربى الا فى وقت متأخر معناه الأمير الكبير أو العظيم ، وهو وريث العرش على الرسم المعروف .

يتعلق ببخارى تعلقا شديدا حتى ود لو بادل عرش خوقند ، تلك الامارة التى بقيت على الفطرة ولم يتطرق اليها الدنس بعد ، برذائل عاصمة النفاق البراقة التى تقوم على ضفاف زرفشان . واذا كان يشعر بمضض فى ارتداء فراء فرغانة القديم الأبيض عنوان الامارة ، فان الاضطلاع بالتزامات منصبه الملكى الذى اضطره الى أن يقود الجيوش بنفسه لصد تقدم الروس عند حوض سيحون الأدنى ، كان أبعث لمقته ، ولا سيما بعد أن نزل به أكثر من ضربة على أيدى هؤلاء الشماليين وأخذ يفقد حصونه الواحد بعد الآخر . وكان عليه كذلك أن يحاول استرداد حصن آق مسجد بعد أن بات العلم الروسى ، القراقوشى (النسر) ، يرفرف عليه ، وصار يعرف عندهم باسم حصن بيروفسكى .

على أن خدايار لم يكد يعود فى احدى المرات من غزواته ، دون أن يحقق أى هدف كعادته ، حتى وجد عاصمته وقد أوصدت أبوابها فى وجهه ، اذ كان أخوه الأكبر ملاخان قد استولى على العرش فى غيابه، ومن ثم اضطر الى الهرب الى بخارى . ولو كان مظفر الدين قد تذكر المثل العربى الذى يقول ان « العدل سيد الأحكام » ، ولم يتنكر لما كان ينادى به من قبل من المبادىء السلمية ، وعمل ، تبعا لذلك ، على القضاء على الخلافات بين أفراد أسرة محمد على مكتفيا باكرام وفادة ربيب بيته هذا ، لكان قد تمكن بذلك من أن يكفى نفسه كثيرا من المتاعب التى تعرض لها .

ولكنه ، ككل حكام آسيا ، كان يطمع أن يطلق عليه ذات يوم لقب « فاتح العالم » ، فتذرع لذلك باستنجاد خدايار به وأسرع من شهر سبز على رأس جيش كبير عزم به على فتح خوقند . وفى هذه المعركة الأولى ، عهد الى خنجر الغدر من جديد بتحقيق أهداف هذه الحرب ، فانقض نفر من شيعة بخارى ذات ليلة على ملا خان وقتلوه مع فريق من خدمه . وسعى بعض أنصار ملا خان من القبجاق فى اجلاس مرشحهم شاه مراد على العرش من بعد ذلك ، وكان هؤلاء هم أصحاب السلطان فى سمرقند ، ولكن مظفر الدين سبقهم الى ذلك ورد خدايار الى عرشه ثم آب الى بخارى .

على أن صنيعة بخارى هذا لم يستطع أن يحتفظ بعرشه لأكثر من أربعة أشهر . ولما رأى مظفر الدين أن ربيبه هذا يزدريه قومه ويستخفون به لم يجد بدا من أن يخرج الى خوقند فى قوة أكبر مما خرج فيها من قبل ليوجه الأمور هناك على الخطة التى رسمها بأى ثمن . وسير لذلك أولا قائده شاهرخ خان فى أربعة آلاف من الجند وبصحبته محمد حسن بك ومعه ثلاثون مدفعا ، ثم أسرع هو نفسه من بعد ذلك نحو الشرق ومعه بضع مئات من تركمان التكه وقد عقد العزم على ألا يرجع حتى يخضع له كل ما بين بلاده وحدود الصين .

كانت خوقند بدورها قد تزودت بالسلاح من رأسها حتى أخمص قدميها ، وهب القبجاق بدورهم ، وهم أخطر العناصر الحربية فى تلك الخانية ، للدفاع عن حق الأمير المطالب بالعرش وكان قد استنجد بهم . ورتب هؤلاء المدافعون أمرهم على أن يتجنبوا الاشتباك مع قوات العدو الرئيسية ، ولا سيما مدفعية أمير بخارى التى كان لها صيت ذائع فى آسيا الوسطى .

وعلى هذا فقد تقدم أمير بخارى حتى بلغ أوش دون أن يلقى أدنى مقاومة . على أن النصر الذى حصل عليه مظفر الدين ، والذى راح يزهو باذاعة أخباره ، لم يكن الا صورة كاذبة للواقع . ذلك أن الخسائر فى الرجال من الجانبين بلغت الذروة فى تلك الحرب الضروس التى وقعت بينهما .

وبرغم أن حاكم بخارى كان يظن فى نفسه أنه تيمور الثانى ، فان جنده لم يكونوا يغادرون أى موضع حتى كان القبجاق يعودون الى احتلاله والقضاء على كل سلطان للبخاريين فيه ، لينتهى الحال آخر الأمر الى تقسيم خوقند الى قسمين . فصار القسم الشرقى من الخانية ، من أوش الى محرم ، من نصيب ربيب القبجاق، فى حين خضع القسم الشمالى من أراتبه الى ما وراء طشقند ، لخدايار الذى اتخذ من سمرقند مقاما له حتى يجاور بذلك حاميه عن قرب .

قد تكون مهاجمة مظفر الدين لما يجاوره من امارات أمرا مقبولا بعض الشىء لو أنه كان يرمى ، من وراء هذا الفتح أو الحماية ، الى

توحيد قوات هذه البلاد المفتوحة مع قواته للوقوف فى وجه الغــازى الأجنبى عند حوض سيحون الأدنى .

ولكن هذا الأمير كان خلوا من مثل بعد النظر السياسى هذا ، اذ كان هدفه من عملياته هذه ، التى أملتها عليه أطماعه الخرقاء وجشعه ، أبعد ما يكون عن العمل على تأمين مستقبله ، فلم يجلب سلوكه هذا عليه الا الخراب . ذلك أن حمايته لخدايار خان لم تؤد الا الى دفعــه للصدام مع خصم لا يستطيع لا هو ولا آسيا الوسطى أن يقفا فى وجهه، ولا حتى كذلك بلاد الاسلام كلها !

وكانت روسيا بعد فشل حملة بيروفسكى عام ١٨٣٩ م هى وجميع بعثاتها الدبلوماسية ، قد عدلت أســاس عملياتهــا الحربيــة ، فنقلت قاعدتها من عند الجنوب الشرقى لبحر آرال الى شواطىء سيحون ، وتقــدمت قواتها من بعــد ذلك حتى بلغت الأماكن المأهولة فى امارة خوقند . وشيد الروس حصن أورنبرج على نهر توركاى عام ١٨٤٧ ، وحصن قرابوتاق على نهر قرابوت فى السنة التالية (١) .

ولما كان الروس لم يتثبتوا بعد ذلك من امكان استخدام جيحون كقناة مهمة للملاحة وكأحسن طريق مائى يصل الى داخل تركستان (٢) ، فقد ظلوا على ذلك يستخدمون سيحون بدلا منه .

---

(١) انظر فى ذلك John and Robert Mitchel. The Russians in Central Asia London 1865, p. 30.

(٢) كان سير الكسندر بيرنز رجلا قديرا ، وان زيفت عليــه بعض المعلومات الخاطئة ، فهو أول من أذاع فى أوربا أن الروس يمكنهـــم ان يستخدموا جيحون كطريق مائى رئيسى فى مواصلاتهم مع تركستان ، حتى قام الأميرال بوتاكوف Butakoff بأبحاثه عند مجارى جيحون الدنيا ومصابه بين عامى ١٨٤٨ و١٨٥٩ فقال بعكس ما قال به بيــرنز . ومن الواضح بعد الاختبار أن فروع هذا النهر الأربعة التى يتفرع اليها لاتصلح للملاحة ، فحوضه هو فى المحل الأول ضحل فضلا عن أن تجمع الرمال فيه يؤدى الى تغيير اتجاه التيــار فيه كل يوم فى الغــالب حين يكون المــاء منخفضا . وقد تمكن الملاحة فيه حتى قبجاق حين تمتلىء بعض القنوات التى تمد بالماء السهل الواقع فيما وراء قتقرات وجرتانقل ، وهذه القنوات منها ما هو طبيعي ومنهــا ما هو صناعى . وقد فصل الأميرال بوتاكوف نفســه هذه المسألة فى مقال له بمجلة الجمعية الجغرافية بلندن Journal of the Geographical Society, London 1867.

وكان الجنرال بيروفسكى الحاكم العام لأورنبرج قد عهد عام ١٨٤٧ الى الكابتن شولتز Schultz ببناء حصن أرالسك عند مصاب سيحون ، فجاء ذلك بالطبيعة شوكة فى جنب أوزبك خيوه لم يستطيعوا التخلص منه برغم احتجاجاتهم العديدة ، وظلوا يتطلعون اليه ، على الرغم منهم ، وظل النسر الروسى الذى يرفرف عليه يتهدد مستقبلهم بالويل والثبور ، وقد أخذ يبسط جناحيه بالتدريج فوق الشاطىء الأيسر لسيحون .

وحين أثبت حصن أرالسك ، الذى عرف فيما بعد باسم الحصن رقم ١ ، أنه نقطة صالحة للانطلاق ، لم يكن من العسير من بعد ذلك أن يتوقع المرء انشاء الحصنين رقم ٢ ورقم ٣ وشيكا ، وأن الطوابير الروسية سوف تشتبك عن قريب مع خوقند بوصفها الدولة التى تسيطر على هذه المناطق ولو اسما .

وأخذت حامية حصن آق مسجد الخوقندى أول الأمر على عاتقها تلك المهمة الكريهة فى تعويق العمالقة الشماليين ، وانطلقت تهاجم الروس أنفسهم تارة ، والقرغيز الذين يمشون فى كنف هؤلاء الأعداء تارة أخرى ، لترتد فى كل مرة بخسائر ثقيلة كالعادة .

واستمرت مناوشاتهم هذه عامين ، وكان الخوقنديون لا يلتقون فى الغالب الا بفصائل صغيرة من الجيش الروسى ، فلم يقفوا بذلك على حقيقة تفوق عدوهم البالغ عليهم .

وكان الروس بدورهم ، بعد أن تدربوا على استراتيجية الحرب وطبيعتها فى هذه المناطق واعتادوا عليها ، قد أصبحوا على أتم درجة من الكفاية والاستعداد لفتح تركستان .

وكانت السفن المعدة للملاحة فى النهر ترسو فى الوقت نفسه فى مياه بحيرة خوارزم العتيقة شديدة الخضرة ، وكانت قد نقلت برا من السويد الى أرال . ونظرا لعدم توفر الفحم هناك فقد استخدم للوقود ضرب من أخشاب الشجيرات يعرف باسم « سكساول » .

وبرغم هذه الصعوبات التى واجهتها تلك البـواخر التى ظهرت لأول مرة على صفحة هذه المياه القديمة التاريخيـة ، فانها قد حققت الغرض منها على أتم وجه .

وفى عام ١٨٥٢ خرج الكولونيل بلارمبرج Blaramberg مع فرقة من الجند فى رحلة استطلاعية نحو حصن آق مسجد ، ودنا من أسواره فى حفنة من رجاله . ولئن لم يبلغ الى نتيجة مباشرة فى مخـاطرته هذه التى ابتعد فيها مائتين وخمسين فرسخا عن الجبهـة الروسـية ، فان الهجوم العام الذى وقع على هذا الحصن فى العام التالى قد تكلل بالنجاح التام ، وكانت هذه الحملة قد أعدت على نطاق واسع (١) . فقد اندفع الروس فى ربيع دافىء ، على غير المعتاد ، فعبروا أجدب المناطق فى سهوب أورنبرج حتى بلغوا الحصن رقم ١ ، وفى نيتهم من بعد ذلك أن يصلوا الى آق مسجد على الشاطىء الأيمن لسيحون . وصـعدت البـاخرة بيروفسكى بدورها فى النهر . ولم تنل الحرارة الشديدة ، ولا أسراب الجراد والجنادب أو لظى رمال الصحراء ، من عزيمة هؤلاء الشماليين الأشداء شيئا ، فاكتنفوا آق مسجد ، وبدأ بذلك الصراع للاستيلاء على أول حصن فى أرض تركستانية .

ولقد دعى الجنرال بيروفسكى الخوقنديين أول الأمر للتسليم دون حرب (٢) ، ليجيبوه عند ذلك بأنهم لن يستسلموا له ما بقيت عندهم ذرة

---

(١) كانت هذه الحملة تضم ٢١٦٨ رجلا بما فيهم الضباط و ٢٤٤٢ فرسا و٢٠٣٨ جملا و٢٢٨٠ ثورا للنقل The Russian in Central Asia P. 339

(٢) يبدو من هذه الوثيقة التى تضمنت هذا الطلب أن الروس كانوا فى مراسلاتهم مع سكان أواسط آسيا يكتبون اليهم فى لغة أوزبكية سليمة الأسلوب . وكان نص الرسالة كالآتى :

« من الحاكم العام لأورنبرج الى قائد حصن آق مسجد » .

« بأمر مولاى امبراطور روسيا كلهـا قد جئت الى هنـا لأستولى على حصن آق مسجد الذى أقامه الخوقنديون على الأراضى الروسـية بغرض الاعتداء على القرغيز رعايا جلالته .

« ان حصن آق مسجد هو فى حكم المستولى عليه برغم أنكم الآن بداخله ، ولا يعسر عليكم أن تدركوا أنى مستطيع أن أقضى على كل واحد منكم دون أن أفقد فى ذلك رجلا واحدا من رجالى .

من البـــارود فى جرّبهم أو حصـــاة فى طرقهم ، وحتى تشـــلم سيوفهم ورماحهم .

واستعر القتال بين الفريقين حتى تمكنت المدفعية الروسية من أن تهدم أسوار الحصن ، وكانت من الطين ، فى عدة مواضـــع ، وتنـــزل بقنابلها خسائر شديدة بالمدافعين ، لينفدفع من بعد ذلك أول طابور من طوابير الهجوم يقوده الملازم المجرى أرديلى (١) Erdelyi ويندفع الى داخل الحصن فى الثامن من أغسطس عام ١٨٥٢ .

على أن الخوقنديين لبثوا يدافعون عن أرضهم شـــبرا شـــبرا فى شجاعة خارقة برغم سقوط قائدهم محمد ولى فى أول القتال ومقتل أكثر قوادهم الكبار . ولم يعمد الى الفرار منهم الا نفر قليل .

وكان هذا الحصن أول موضع له قدر من الأهمية الاستراتيجية أو السياسية استولى عليه الروس عند مشارف السهوب الشمالية . وكان كذلك أول وآخر مكان باع عنده ســـكان آسيا الوســـطى أنفسهم بيع السماح فى بطولة نادرة واستماتوا ضد الغازى الدخيل .

وظل الخوقنديون يبذلون فى كل عام محاولات جدية فى الغـــالب

« ولم يأت الروس الى هنا ليقضوا يوما أو عاما وانما ليقيموا الى الأبد فلن ينسحبوا من هنا .

« فاذا أردتم الحياة فاسألوا الرحمة ، واذا أردتم أن تهلكوا فى آق مسجد ، فسيكون لكم ما سألتم ، فلست فى عجلة وليس للزمن عنـــدى حساب . وهنا أكرر لكم انى لم آت طلبا لنزالكم وانمـــا لأضربكم حتى تفتحوا أبوابكم .

« ولقد وددت أن أقول لكم ذلك كله أول يوم وصولى حين دنوت من أسوار حصنكم ، دون أن أحمل سلاحا ، لولا انكم عمدتم الى الغدر ففتحتم نيرانكم على ، وهو تصرف ليس من شيم الجنود الشرفاء فى شىء »

The Russian in Central Asia, p. 339.

(١) كان هذا الضابط مواطنا لى كما يدل عليه اسمه .

لاسترداد هـذا الحصن (١) ولكن بلا جدوى ، برغم أن الفرصة بدت مواتية لهم فيما بين عامى ١٨٥٣ و١٨٥٦ بصفة خاصة حين كان الروس قد وحدوا كل جهودهم وركزوا كل قواتهم فى حرب القرم .

ولم تكن روسيا وهى فى هذا المـأزق الحرج اذ ذاك لتستطيع أن توجه التفاتها الأول الى أملاكها فى آسيا الجنوبية . وكان أمراء آسيا الوسطى بدورهم لا يدرون شيئا عن ذلك العراك الذى كان يقوم أمام سباستپول .

ولو انهم التفتوا الى ذلك الخطر الذى يتهـددهم وتنبهـوا له بالائتلاف معا اذ ذاك ، لاستطاعوا بلا كبير عناء أن يستردوا ما ضاع منهم من حصون ، بل وأن يطردوا الروس كذلك الى مشارف السهوب الشماليـة ، وقد كان الزعيم القرغيزى عزت كوتيبر [٢] قد نجح بدوره اذ ذاك فى القضاء على نفوذ الروس فى القبيلتين « الصغيرة والمتوسطة » . ولا أدل على عدم صلاحية هؤلاء الأمراء للحكم وعدم أهلية سكان آسيا الوسطى للاستقلال ، من أنهم وقفوا من هذه المسألة كلها موقفا سلبيا . حتى وجدت روسيا وهى فى أشـد أوقات محنتها أن سياستها بولايات جيحون أقل تعرضا للخطر منها فى أى جهة أخرى .

ولقد حاول الباب العالى عبثا أن يحمل مبعوثين لخيوه وبخارى ، كانوا يقيمون عنده من سنوات ويتكلفون نفقات طائلة ، على أن يبادروا

---

(١) من أعظم هجمات الخوقنديين تلك التى شنوها فى الفترة ما بين ١٤ و١٧ ديسمبر سنة ١٨٥٣ ، وكانت قواتهم تبلغ اثنى عشر الفـا من الجند ، وقد تمكن ستمائة من الروس فقط أن ينزلوا بهم الهزيمة ويرغموهم على الفرار .

(٢) كوتيبر (أى السعيد) كان مثالا لفرسان قرغيز السهـوب الأبطال . وقد اشتهر منذ عام ١٨٢٢ بشجاعته الفائقة ومغامراته فى قطع الطرق ، وكان يفيد فى الزمن السابق من حماية روسيا له حين كان ينطلق لقطع الطريق على القوافل الغنية القادمة من بخارى وخوقند . وقد تلقى نوطا ذهبيا (وليس نوط الفنون والعلوم قطعا) من بطرسبرج تقـديرا لخدماته ، وما لبث بعد ذلك أن انقلب على سادته ، فلم يرغم على الخضوع ويقضى على خطره الا بعد صراع طويل عنيف .

بالعودة الى بلادهم فى الحال ويبصروا سادتهم الأجلاء بهذه الفرصة الذهبية المواتية التى أتيحت لهم لتأمين سلامة بلادهم واستقلال ديار الاسلام .

أما خيوه فبدلا من أن تشرع فى مهاجمة عدوها بعثت برسلها الى آق مسجد ليعلنوا لأصحابه عن صداقتها لهم . وأما بخارى فقد كان الطاغية نصر الله لا يزال يجلس على عرشها ، وقد استغل ما صارت اليه خوقند ، جارته الشرقية ، من ضعف فغزاها ، وظن نفسه بذلك سعيدا اذ تمكن من أن يضم الى أراضيه الموضع بعد الآخر .

وكان من الطبيعى فى مثل هذه الظروف والأحوال ، أن تعمد روسيا من فورها ، عقب ابرامها لمعاهدة باريس ، الى استئناف تنفيذ خططها فى الفتح بعزم أشد ونجاح أكبر فسقط حصن چولك الصغير عام ١٨٥٩ ، واستسلم من بعده بعامين حصن ينكى كورغان على شاطىء سيحون ، لتأخذ من بعد ذلك طلائع الروس ، على شاطىء النهر الأيسر ، فى تقدمها حتى تبلغ الأجزاء المأهولة بالسكان فى شمال خوقند ثم تستولى فى شهر يونية من عام ١٨٦٤ على مدينة تركستان ، أو حضرة تركستان ، مقر الصوفى المشهور أحمد اليسوى .

وأشاعت هذه الأخبار موجة من الهلع بين سكان آسيا الوسطى ، وألهبت حماسهم الدينى . وفى تركستان يعد خواجه أحمد ثانى الأولياء بعد بهاء الدين ، وله فى خوقند خاصة توقير ملحوظ . وكان من المنتظر ، والحالة هذه ، أن يأتلف القبجاق مع خدايار خان فيخرجوا جميعا لقتال الكفار . ولكن ما بينهما من الحقد والكراهية لعبا دورهما على ما كانا يلعبانه على الدوام فى توران من قبل . وعلى هذا فقد وقف القبجاق ، وهم أشد مراسا فى الحرب من الخوقنديين ، ينظرون فى سرور بالغ الى الروس وهم يتقدمون بطريق سيرام الى طشقند ، بعد نصر جمكنت (١) ، ويستولون على ذلك المكان الذى يعد من الناحيتين التجارية والسياسية على السواء مفتاح آسيا الوسطى أو على الأقل باب الجانب الشمالى منها .

(١) انظر هامش ٢ ص ٣٨ من هذا الكتاب .

فى ذلك الوقت فقط أدرك مظفـر الدين أنه قد آن الأوان لكى يعبد النظر فى مشاكل ربيبه خدايار خان ويحاول ، ولو بطريق غير مباشر على الأقل ، أن يقيم بعض العراقيل فى طريق جيش الاحتلال الروسى . فخرج أولا الى خوقند فى مايو ١٨٦٥ لتأديب القبجاق ، وذلك على اثر شائعة كاذبة انتشرت فى بخارى مفادها أن هؤلاء ، بموقفهم السلبى ، قد عاونوا الروس على تنفيذ خططهم .

وكان هذا القول محض اختـلاق فى الواقع ، ذلك أن القبجاق كانوا هم أنفسهم الذين قاوموا الروس ببسـالة حتى سـقط زعيمهم الشجاع عالم قل امام طشقند .

وبموت هذا الخصم العنيد لم يجد مظفر الدين أية مشقة فى فتح خوقند الشرقية. وهنالك حمل الضعيف مير سعيد أحد أبناء سرماسكس أسيرا الى بخارى ونصب خدايار أميرا على خوقند ، وكان قد فقد أكثر أملاكه بسبب استيلاء الأعداء من الكفار عليها .

بعث مظفر فى الوقت نفسه برسـالة مليئة بالغطرسـة الى الجنرال تشرناييف ، وهو الذى خلف الجنرال بيروفسـكى فى قيـادة الجيش الروسى ، يدعوه فيها الى اخلاء كافة الأراضى التى يحتلها الروس ويهدده ، فى حالة الرفض ، بأن يجند كل المؤمنين فى توران (١) لحرب روسيا .

وذهب الأمير فى سبيل تأكيد دعواه هذه ، الى مصـادرة أملاك التجار الروس الذين اتفق وجودهم ببخارى اذ ذاك .

ولم يكن رد الروس عليه دونه فى العنف ، ولكن حدث حين شرع الروس يهاجمون البخاريين عند اورنبرج ، على سبيل الانتقام غير آبهين

---

(١) يتضح من هذا أن الامير كان لا يزال يثق فى تفوق جيشه ويعتقد فى زعامته الروحية على كل مسلمى تركستان . على أن القوم فى بخـارى لم يدركوا أبدا أن الروس كانوا قد هزموا جيوش الخوقنـديين عنـد سيحون ، وكانت تفوق فى قوتها جيوشهم عشر مرات ، ان لم يكن عشرين مرة ، ولم يكن أحد يجرؤ على رواية أخبار هذه الكارثة ، ولم يكن القوم يعتقدون فى صحة ذلك حتى ولو سمعوا به .

بتهديد هذا الأمير ، أن بادر بدوره ، ولم تكن المراسلات بين الطرفين قد انتهت بعد الى اعلان الحرب بينهما ، فأوفد خوجه نجم الدين فى بعثة صداقة الى بطرسبرج ليشكو الى القيصر اعتداءات قائده .

وكان الأمير يرمى من وراء ذلك الى كسب وقت يستطيع فيه أن يقضى على الثوار فى شهر سبز . على أن الروس كانوا أشد دهاء منه ، فقد قبضوا على نجم الدين واعتقلوه فى حصن قزاله .

ولما كان أمير بخارى لا يزال يحتفظ اذ ذاك فى محبسه برعايا من الروس ، وان كان قد أطلق سراح التجار منهم ، فان الجنرال تشرنابيف بعث الكولونيل شتروفه الى بخارى وبصحبته عديد من الضباط ليحاول أن يفض الخلاف مع مظفر الدين (١) .

والغالب أن القائد الروسى لم يكن مفوضا بالحرب أو لم يكن فى مركز يسمح له بذلك . وكان من الطبيعى ألا يلقى الكولونيل شتروفه من الأمير معاملة أحسن من تلك التى لقيها نجم الدين من الروس (٢) . هنالك أحس تشرنابيف بأنه قد أهين اهانة بالغة ، فعبر لذلك سيحون عام ١٨٦٦ وتجنب المرور بخجندة ، فنفذ فى الصحراء الى جيزك أول موضع يتصل بأراضى بخارى نفسها .

---

(١) كانت هذه البعثة تتكون من الفلكى شتروفه عضو مجلس الشورى (وعلى رواية أخرى ، الكولونيل شتروفه وهو غير هذا العالم الذى يحمل الاسم نفسه) والمهندس تاتارينوف وضابطين آخرين همـــا الـــكابتن جلوشوفسكى وحامل العلم كولسينكوف

(Die Russen in Centralsien, Eine geographisch — historische Studien von Friedrich von Helwald, Vienna 1869 p. 65.)

(٢) ظلت هذه البعثة الروسية منذ وصولها حتى أول فبراير ١٨٦٦ حبيسة الدار التى نزلت فيها ، ثم دعتهم السلطات من بعد ذلك الى تسليم أسلحتهم ، ولكنهم رفضوا ذلك فى اصرار ، مما ادى الى وقوع «مناوشة» أصيب فيها آقسكال وخمسة من البخاريين بجراح شديدة ، وقد استسلم الروس آخر الأمر بعدما اظهروا فى هذا الظرف شجاعة وجرأة غلبتا على رويتهم Edinburgh Rev. Jan -1857 P. 40 وهذا المقال عن «السياسة الخارجية لسير جون لورنس» ، بقلم الكاتب القدير مستر ويلى الذى يعد موته المبكر خسارة كبيرة . ويعد من أحسن ما نشرته المطابع الانجليزية فى هذا الموضوع .

على أن الروس كانوا هــذه المرة قد بنوا تقديرهم على أســاس خاطىء . ذلك أنهم بلغوا الحدود بعد سير شاق فى صحراء جدباء لا ماء فيها على الاطلاق ، ليجدوا أنفسهم من بعد ذلك تواجههم قوة لا تقرب من عشرة أضعافهم كالعادة فحسب ، بل وتصــل هذه المرة الى عشرين ضعفا على الأقل ، وقد أدركوا عند ذلك ، ولكن بعد فوات الأوان ، أن لا مناص لهم من الانسحاب .

وعلى هذا فقد نظموا صفوفهم على أن يقوموا بانسحاب سريع ، وقد استطاعوا أثناءه أن يؤمنوا أنفسهم من خطر الجموع التى لا حصر لها ممن كانوا يحومون من حولهم على طول الطريق . ومهما يكن فان المحدثين من أحفاد التوارنيين المحاربين ، الذين كانوا يوما مصدر رعب، هم اليوم جبناء فى الواقع .

ونال تشرنايبف ما يستحق من توبيخ على تصرفه هذا ، وحل مكانه الجنرال ديمترى ايلتش رومانوفســكى Dimitri Ilyitch Romanoffsky وشجع فشل الروس فى خططهم الأوزبك على مهاجمتهم حتى استطاعوا فى ٥ أبريل من العام نفسه أن يستولوا بعد هجوم قوى على چيناز وهو حصن صغير على الشاطىء الأيسر لسيحون .

هنالك جرى فى وهم مظفر الدين أن فى استطاعته أن يهزم الروس بنفس السهولة التى كان يهزم بها الخوقنديين ، فخرج على رأس جيش قوامه خمسة آلاف من الجند النظامى وثلاثون ألفــا من القرغيز وعشرة آلاف من التركمان ومعه عشرون مدفعا ليسترد القسم الشمالى من طشقند من أيدى الــكفار . ولم يكن القــائد الروسى ليقف بازاء ذلك مكتوف الأيدى .

---

(١) علمت بأمر هذه الفصلة عن طريق فقرات نشرت منها بجــريدة التيمس Times ١٦ و٢٦ مارس ١٨٦٩ ، وذلك فى رسائل مراسلهـــا ببرلين . وتعد أخبار هذا المراسل عن أحوال آسيا الوسطى السياســية عظيمة القيمة . ويبدو من هذه الفقرات أن الجنرال رومانوفسكى كان على دراية تامة بأحوال آسيا وانه هو نفسه كان عميــق الادراك لها بدرجة لا نظير لها .

ويروى لنا رمانوفسكى فى الفصلة التى نشرها عن هذه الواقعة (١) أنه كان معه فى الحملة التى حارب بها الجنوب أربعة آلاف رجل ، من بين خمسة عشر ألف جندى كانوا هم كل قوام القوات المحاربة الروسية فى تركستان ، اضطر بهم الى قبول تحدى خصمه له .

وقد وقعت الموقعة الحاسمة فى عشرين مايو من عام ١٨٦٦ عند برجار على الشاطىء الأيسر لسيحون على مسيرة أميال قليلة الى الشمال الغربى من خجندة . واستطاعت المدفعية الروسية أن تفتح ثغرات فى صفوف فرسان الأوزبك المتراصة ، حتى اذا ما انطلق الروس فى عددهم القليل ، يحملون من بعد ذلك على أعدائهم ، أشاع مجرد ظهورهم الاضطراب فى صفوف العدو ، وانتهى أمرهم من بعد ذلك الى الفرار فى تزاحم صوب الجنوب (١) . وترك الأمير من ورائه مضاربه بما فيها سرادقه الفخم وطاقم مدفعيته كله ، ولم يتيسر له هو نفسه الهرب الى جيزك الا بمشقة .

وبلغت خسائر البخاريين فى هذا القتال قرابة ألف رجل ، وكان المنغيتيون ، صفوة الجيش ، هم أعظم الجميع فى خسائرهم ، فى حين لم تزد خسائر الروس على خمسين بين قتيل وجريح .

وكانت معركة يرجار هذه بمثابة الضربة القاضية لتركستان ، اذ ضاع بسببها استقلالها ، وهى التى ظلت خلال ألف عام ولها صيتها ونفوذها البالغ بين سكان آسيا الوسطى ، بل يمكن أن يقال كذلك ان العالم الاسلامى بداخل آسيا قد نزل به بهذه الهزيمة ضربة مميتة .

وكان بوسع القائد الروسى أن يتابع فى الحال سيره الى سمرقند مستغلا فى ذلك الذعر الذى أشاعه بين الناس خبر هذه الكارثة العظيمة

---

(١) تجد أحسن تفصيل ظهر حتى الآن عن موقعة برجار الحاسمة فى كتاب هلوالد سالف الذكر ص ٦٨ . ففضلا عن الملم صاحبه بالموضوع الماما تاما فان كتابه يمتاز كذلك بأسلوبه الرصين . وما يؤخذ عليه فقط هو أن ميله الى الروس قد دفعه الى الخروج عن جادة الانصاف فى حكمه على بعض تصرفات البريطانيين .

ولكنه لم يفعل ذلك واكتفى بجلب بعض الامدادات القليلة من حصن كروجى ، حتى تم له فى ٢٨ مايو الاستيلاء على حصن ناو .

ولما كان هذا الموضع الذى يقع الى الجنوب من خجندة ، تلتقى عنده الطرق الشرقية والطرق الشمالية ، فقد أدى احتلال الروس له الى قطع كل اتصال لمدينة خجندة وحصونها مع بخارى ، وبذلك صار مصيرها محتوما . ويحمى خجندة من الجانبين نهر سيحون . ففى جنوبها الشرقى يجرى النهر الرئيسى ، وعند جنوبها الغربى يجرى أحد روافده. وعلى هذا فقد كانت هذه المدينة فى نظر الآسيويين منيعة على الدوام : ومع انها حاضرة اقليم خوقند فقد كانت تقيم بها حامية بخارية وهى التى اضطلعت بالمقاومة فيها . ذلك أن السكان المدنيين ، لا سيما التجار منهم ، كانوا يميلون الى الاستسلام ايمانا منهم بتفوق الروس عليهم . وقد اندفع رجال الحامية بتحريض من رجال الدين المتحمسين يدافعون عن المدينة فى استماتة لأيام سبعة استطاع الروس فى آخرها أن يقتحموا القلعة عليهم فى هجوم كانت خسائرهم فيه أكثر منها فى تلك الموقعة الفاصلة السابقة ، فى حين خسر الأوزبك من رجالهم ألفين وخمسمائة قتيل .

هكذا ، كما يقول السيد فون هلوالد بحق (١) ، سقط بأيدى الروس كل الأماكن المهمة فى خوقند ، وانتقل الأمير الألعوبة خدايارخان ، رغم أنفه من كنف حاميه أمير بخارى ليعيش تحت جناح النسر الروسى . وكان الزمان كفيلا بأن يجعله فيما بعد يلائم بين نفسه وبين موقفه الجديد فى يسر . وغنى عن البيان أن الجند المسكوفى لم يكن ليحصل على هذا الانتصار بسهولة لو أن خوقند كان يجلس على عرشها أمير قادر ، أو أن العناصر المحاربة فيها ، وهم الذين يشتهرون بشدة مراسهم ، لم يسارعوا اذ ذاك الى الانضواء تحت لواء يعقوب قوشيجى فى تركستان الشرقية . ولقد بوغت الروس بهذا النصر الذى لم يكونوا هم أنفسهم يتوقعون الحصول عليه بهذه السرعة . وأظهر خدايار

---

(١) أنظر كتابه سالف الذكر ص ٧٠

جبوره حين سمح له باسترداد قصبة بابر القديمة هذه فى ظل « القيصر الأبيض » وحمايته . وكان عليه أن يسلم كل وديان سيحون للروس ، ابتداء من محرم بطول مجرى النهر كله ، وأن يفتح أبواب مدنه لرعاياهم ويطمئنهم على أملاكهم ، وأن يدفع بعد هذا كله للخزانة الروسية غرامة حربية باهظة سوف تثقل كاهله لسنين طويلة مقبلة بلاشك . وخفضت قواته بدورها حتى صارت مجرد قوة رمزية . ومن البديهى أن كل هذا القسم الشرقى من الخانيـة سـيؤول من بعـد موت هذا الأمير الى الامبراطورية الروسية .

وماذا يستطيع مظفر الدين نفسه أن يفعله لانقاذ هذا الأمير وقد بات هو نفسه وحيدا والنوائب تثقل كاهله . ولقد انطلق ينشد العون فى كل ناحية دون جدوى ، فلم يكن هنالك من يغامر بالانضمام اليه فى قتال مع عدوه هذا الفاتح القوى بعـد أن أصابتـه الهزائم . ومنعـه كبرياؤه ، أكثر مما منعه عداؤه الطويل المقيم ، من أن يستنجد بأقرب جيرانه اليه فى خيوه . وكان هذا الاقليم الصغير يتفشى فيـه الانقسام فلم يكن بذلك له من القدرات ما يمكنه من أن يمد يده لمساعدة غيره . وكانت بلاد الأفغان فى الجنوب عنـدها بدورها ما يشـغلها ، اذ كانت الحروب الأهلية تسودها . وكان من الممكن أن يلبى أمراؤها ، خلفـاء دوست محمد ، دعوة مظفر الدين عن طيب خاطر لولا أنهم لم ينسوا أبدا ما لحق بأبيهم من مهانة فى الماضى ، حتى سرهم أن يروا اذلال ذلك الأمير الأوزبكى المتغطرس على أيدى الكفار . هذا فضـلا عن أن أمراء آسيا لم يكونوا يعترفون أبدا بقيام تحالف سياسى جدى فيما بينهم ، اذ كان كل همهم يتجه عادة الى الفتوحات الشخصية . وعلى هـذا فقد سر الأفغان أن يروا بخارى وقد حاق بها الضعف مما قد ييسر لهم أن ينتزعوا منها الخانيات الصغيرة التى تقع على شـاطىء جيحون الأيسر ، وبهـذا لا تستطيع روسيا أن تطالب بها مستقبلا بوصفها أجزاء من توابع خانية بخارى .

كان الوحيد الذى رحب بالتحالف مع بخارى هو يعقوب قوشيجى أمير تركستان الشرقية ، وذلك بدافع من مصلحته الشخصية . وكان أشد ما يخشاه الأمير التركستانى هو خطر القوات الروسية التى كانت ترابط عند نارين على مسيرة أيام قليلة من قصبته ، وكان كذلك قد عرف فى تجاريب شبابه التى مر بها مدى ما عليه أسـلحة الروس من تفوق (١) . وعلى هذا فقد احتاط أشد الاحتياط فى الافصـاح عن ميوله نحو أمير بخارى .

هذا كما كان يستحيل فى الواقع قيامه معه بعمـل مشترك وذلك بسبب الاسفين الذى أقامه الروس بينـه وبين ذلك الأمير الذى يقيم على ضفاف زرفشان باحتلالهم لخوقند . وكان مظفر الدين بدوره قد انهارت آماله كلها بالنسبة للمستقبل . ومن المحقق كذلك أن بريطانيا لم تفكر أبدا فى أن تمد يد المسـاعدة الى هذا البلد ، وهو فى آخر مراحل صراعه ، وهو الذى أنزل بها أبلغ المهانات الدبلوماسية حيث مات اثنان من سفرائها ميتة الشهداء ، وذلك برغم الشـائعات (٢) التى كان يطلقها الروس فى هذا الصدد .

---

(١) استخدم يعقوب قوشيجى ، أمير تركستان الشرقية الحالى ، ما تعلمه فى فن الحرب ، فى الوقائع التى خاضها مع روسيا عنـد حوض سيحون الأدنى ، وذاعت شهرته ، التى اعترف الروس له بها ، بسبب ما أظهره من بطولة وجراة فى قيـادته لحصن آق مسجد . واذا كان لنا أن نصدق ما يشنع به على تركستان ، فانه قد فتر فى الدفاع عن خوقنـد بفعل أموال الروس التى بذلوها له ، كما يتهم كذلك بأنه قد سلم للعـدو موضعا أو موضعين غدرا .

(٢) أتيح للصحافة الروسية فرصة نشر تقارير تقول بقـدوم بعض الدبلوماسيين البريطانيين (!) الى بخارى أثناء الحرب البخارية الروسية ، وأنهم كانوا يشجعون الأمير على العـدوان حتى أمدوا الأوزبك ببنـادق لى انفيلد ، وغير ذلك . وقد ذهب مراسل لصحيفة Invalide Russe (نشرت الترجمة الانجليزية لهذا المقال بجريدة التيمس بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٨٦٩) فى تركستان الى حد أن نسب الى الأمير اعلانه بأن بريطانيا هى التى أشعلت نيران الحرب بينـه وبين روسيا . وكل من يعرف ما عليه الانجليز من برود يدرك أن ذلك كله محض اختلاق سخيف .

ولم تكن تركيا بدورها لتعمد الى اصطناع الدسائس فى أقصى الشرق فتثير بذلك ثائرة الزوابع التى ينذر أفقها السياسى بهبوبها عليها على الدوام .

والواقع أن رجال الباب العالى لم يكونوا يدرون من أمرالأوزبك أو التاجيك ومن اليهم أو عن أمر خيوه وبخارى وخوقند وسيحون وجيحون أكثر مما يعرفون عن جزيرة هاييتى . ولا تجد عند الجيل الجديد من العثمانيين حتى مجرد فكرة عن صلات الصداقة الدبلوماسية التى كانت تقوم فى الزمن السالف بين بلادهم وبين الشيبانيين والاشترخانيين . ومع هذا فأنى يكون للعثمانيين أن يمدوا يد العون الى بنى جلدتهم واخوانهم فى الدين بالشرق القصى وهم أنفسهم يحاربون من أجل حياتهم .

ولم يكن ينتظر من الفرس الشيعة بدورهم أن يتحالفوا مع مظفر الدين ، وهاهم الألوف من مواطنيهم لا يزالون يرسفون فى ذل الرق عند الأوزبك . فضلا عن أن مجرد ذكر اسم التركمان كان مما تشمئز له نفوسهم منذ زمن متناه فى القدم .

ولئن كان القاجاريون تربطهم بأمراء بخارى بعض وشائج القربى من بعيد ، الا أنهم كانوا يكنون لهم أشد الكراهية وأعنفها . وكانوا محقين فى ذلك . وعلى هذا فقد فرحوا أشد الفرح لانتصار الروس عند سيحون وجيحون وكان آخر ما يفكرون فيه أن يعترضوا سبيل من أسدى جميلا اليهم .

ولم يحزّ فى نفس مظفر الدين أن صار فى عزلة تامة وحيدا مهجورا بقدر ما آلمه ما كان من سلوك رعاياه نحوه هم وقواد جيشه وأكثر ذوى قرباه . فقبل ذياك الوقت ببضع سنوات ، وذلك عندما كنت ببخارى لم يكن الناس يهابونه فحسب ، بل كانوا كذلك يجلونه ويحبونه .وهاهو اليوم ، سواء فى الأسواق أو فى ريغستان ، يسمع الناس يسبونه فى العلن ويصمونه بالجبن أمام العدو ، وأن هربه من ميدان القتال عند يرجار هو الذى عجل بوقوع الكارثة التى حلت بهم . كما اتهموه بتبديد

أموال الدولة ، وكان بدافع الحاجة الملحة قد اضطر الى تخفيض قيمة العملة ، ثم مد يده من بعد ذلك الى الأوقاف فاستولى عليها . وكان أخطر التهم التي وجهت اليه أنه ، وهو « أمير المؤمنين » في السابق ، قد اتصل سرا بالكفار وباع لهم « بخارى الشريفة » على ثمن معلوم . وصار على هذا لا يجسر على الخروج الا ليلا أو مستخفيا اتقاء ما كان يوجهه العامة اليه من الشتائم وما كان يصبه النساء فوق رأسه من اللعنات بتحريض من رجال الدين .

ومن العسير على من لا يعرف بخارى حق العلم ، وما عليه أهلها من الغرور والجهل والتعصب ، أن يدرك مدى الذهول والغضب الذى استولى على سكان تلك المدينة بسبب الضربة التى نزلت بهم على أيدى الروس ، وهم الذين يعتزون بأنفسهم أشد الاعتزاز . فلقد تكشف لهم أن أميرهم ليس هو بتيمور الثانى (١) ولا حتى بشبيه له ، وأن جندهم النظامى ومحاربيهم المشهورين من أهل قارشى لم يكونوا كرستم وأضرابه ، وأن تشفعهم بالأولياء الذين تحيط بهم أضرحتهم لم يغنهم شيئا فى لقاء الكفار .

وكانت هذه التجارب المخيفة التى مروا بها أكثر من أن تحتملها أنفسهم حتى كادت أن تذهب بلب الأمة كلها .

هنالك برز البكوات والشيوخ والصوفية والدراويش والتجار والعمال والشحاذون فحملوا السلاح جميعا ، وقد أجمعوا على هدف واحد هو الاصرار على الالتحام مع روسيا من جديد ، فلا يرجعون عن حربها حتى النصر أو الموت . ونودى فى الناس بالجهاد على صورة لم يعرفها من قبل أى قطر من الأقطار ، ولا شهدها الاسلام فى أى ظرف من الظروف ،

---

(١) هناك مثال صغير اذكره يدل على هذا الغرور المفرط ، فقد سألنى الأمير نفسه ذات مرة عما اذا كان جيش سلطان القسطنطينية يبلغ حقيقة فى استعداده وعظمته وشجاعة رجاله درجة ذلك الجيش الذى رأيته عند عودتى من خوقند الى سمرقند . ولا ادرى ما يكون جواب أبطال بلاكوفا على ذلك .

فلبى النداء الكبار والصغار ورجال الدين والجند على السواء مما زاد فى الفوضى بطبيعـة الحال ، ولم يكن للأمير بداهة الا أن ينزل على رأى القوم . وبذلك تجددت الحرب مع روسيا . ولا حاجة بنا الى القول بأن سلوك البخاريين الجنونى هذا وخرق أميرهم ، كان أمنية روسيا بعينها لتمضى فى تحقيق أهدافها .

ركن الروس الى التوقف فى زحفهم بعد سقوط خجندة حتى تصل اليهم الامدادات والمؤن اللازمة . وفى أثناء ذلك تغيرت قيادتهم فجـاء من بعد رومانوفسكى الكونت داشكوف Dashkoff فواصل الانتصارات التى كان سلفه قد بدأها صوب الجنوب ، واستولى على حصن أراتپـه الهـام أوائل اكتـوبر عام ١٨٦٦ ، وما غدا أن وقعت بأيدى الروس مباشرة جيزك ، حصن الحدوديين بخارى وخوقند . وفى هذين الحصنين وجد الفاتح مخازن كبيرة للسلاح والذخيرة .

وكان المأمول أن تخمد نار الحروب وشيكا فى وديان آق طاو بعد ما لحق الأمير من خسائر جسيمة وضاق الخناق عليه ، ولكن حال دون ذلك ما كان عليه وضع كل فريق على حدة .

فمظفر الدين ، على ما رأينا ، كان مضـطرا الى تجـديد القتال بضغط رعاياه عليه ، وكان جورابای أمير شهر سبز قد وعده بالمساعدة فى هذه الحرب المقدسة على أن يعترف له باستقلاله ، وما غدا كذلك أن قدمت جموع كبيرة من التركمـان والأفغـان فانطـوت تحت لواء بخارى .

ومع هذا كله فلا نعجب حين نرى مظفر الدين ، فى مقـامه خلف أسوار الحصن ، يرقب الخطر الوافد اليه من الشمال وثقته فى نفسـه هى دون ما كان عليه أمير خوارزم منـذ زمان مضى وهو يترقب الغزو المغولى .

وتقدم الروس بدورهم من مركزهم فى جيزك . وما من شك فى أنه برغم ما كان يلقاه القادة الروس المتحمسون من المضـايقات الرسميـة وغيرها من الاعتراضات ، فان سياسة بلاط بطرسبرج كانت ترمى ، فى

المحل الأول ، الى ألا يقعد الروس عن الحرب أبدا حتى تستسلم لهم الخانيات الثلاث التى تكون الحدود الطبيعية لجيحون . وفى المحل الثانى فان البخاريين بغاراتهم على تلك الأراضى التى احتلتها روسيا حديثا ، وبما كانوا يقومون به من أعمال الاستفزاز انما يتعجلون اتمام الأمر الأول .

ولم يقع خلال عام ١٨٦٧ الا بعض مناوشات قليلة استطاع الروس بقيادة الضابط الكفء القدير الجنرال كاوفمان Kauffmann أن يستولوا فيها على حصن ينكى كورجان الصغير ، وأن يدفعوا مراكزهم الأمامية من بعد ذلك حتى طاش كوبريك ، وهو جسر حجرى يقع فى منتصف المسافة بين ذلك الحصن وسمرقند .

وفى ١٣ مايو (١) من العام التالى صدرت الأوامر الصريحة بالزحف الى سمرقند . وشرع الجيش فى التحرك بالفعل . وفيما كان الكولونيل بتروشفسكى Petruschewsky يقود المقدمة على الشاطىء الأيمن لرافد زرفشان التقى فى طريقه بنجم الدين المبعوث البخارى الذى أشرنا اليه من قبل ، وكان هذا يحمل معه اقتراحات للأمير لعقد الصلح مع طلب ايقاف الزحف أثناء المفاوضات .

ولقد يتهم القائد العام الروسى بأنه رفض اقرارا الأمور سلما وآثر استخدام القوة برغم أن البخاريين كانوا قد سحبوا جيشهم المؤلف من أربعين ألف جندى الى منحدرات الشاطىء المقابل . والواقع أن الروس كانوا قد اكتشفوا من فورهم أن المسألة كلها لم تجر على هذا الوجه الا لمجرد التعمية . وعلى هذا فقد كان الجنرال كاوفمان على حق حين أجاب على عروض الأمير بطلقات المدافع بدلا من نفثات القلم .

وكانت قوات الروس تتكون من احدى وعشرين فصيلة من المشاة وستة عشر مدفعا مع سرية من المهندسين واربعمائة وخمسين جنديا من

---

(١) يذكر الكابتن ف. ترنش فى كتابه عن المسألة الروسية الهندية :
F. Trench. The Russo - Indian Question. London 1869, p 81.
أن هذا الزحف وقع فى ٣٠ ابريل ، ولعل هذا التاريخ هو بحساب التقويم الروسى ، وفيما عدا ذلك فهو يختلف عما ورد بالمصادر الاخرى بما لا سبيل الى تعليله .

القوزاق ، فكانوا فى مجموعهم ثمانية آلاف رجل استعدوا لخوض غمار الحرب ، وقد بدأوا بعبور زرفشان تحت سمع العدو وبصره . وقضى رجال الجناح الأيسر ، يقودهم الماجور جولوفاتشف ، ربع الساعة يخوضون فى الماء الى صدورهم ، غير مكترثين بنيران مدفعية العدو ، حتى استطاعوا آخر الأمر أن يبلغوا موضعا صالحا فى الأراضى التى تكتنفها المستنقعات فصعدوا عنده الى الشاطىء المقابل .

وحاول الجيش الأوزبكى ، وكان يتفوق عليهم فى العدد بخمسة أضعاف أو ستة ، أن يعوق عبورهم النهر فى مواضع متعددة ، ولكن جهوده كلها باءت بالفشل .

وما ان تم عبور الروس حتى تخلى الأوزبك عن مواقعهم الممتازة بالمرتفعات وولوا هاربين تاركين من ورائهم كل مدافعهم .

وقد وقع هذا كله غير بعيد من سمرقند . وخاف أهل المدينة مغبة الفوضى التى قد تحل ببلدهم على أيدى مواطنيهم أكثر مما خافوا من الاحتلال النصرانى ، وعلى هذا فقد أغلقوا أبواب مدينتهم فى وجه اللاجئين من جيشهم ، وبعثوا بوفد من كبار الشيوخ والأعيان يدعو العدو الى دخول المدينة . وسار فى اليوم التالى قسم من الجيش الروسى الى سمرقند ، ودخلها الجنرال كاوفمان على رأس حاشية كبيرة كان فيها الأمير الأفغانى سكندر خان ابن صاحب هراة . ويقال ان هذا الأمير كان قد قدم أولا لشد أزر « بخارى الشريفة » فى دفاعها عن الاسلام ، حتى اذا لم يتمكن القوم من أن يدفعوا له ما إتفقوا عليه من المال نظير خدماته مضى الى خدمة الصليب المزدوج بعد أن قرأ الفاتحة على روحه .

وعلى هذه الصورة استولى الروس النصارى فى ١٤ من مايو عام ١٨٦٨ على سمرقند التى كانت يوما حاضرة تيمور الفخمة والتى ولد فيها وثوى كثير من مشاهير الرجال الذين جرى ذكرهم فى التاريخ الاسلامى ، والتى كانت تعد مركزا ممتازا من مراكز الثقافة الاسلامية القديمة . وبسقوطها انتقل احسن أجزاء بلاد ما وراء النهر من أيدى أسرة المنغيتيين الأوزبكية الى بيت رومانوف .

وأول من فتـــح هذا الاقليم ، على ما نعلم ، هــو الاســكندر « المقدونى » وآخرهم هو الاسكندر « الثانى الروسى » .

فقبل ألفى عام كانت سمرقند تدفع الجزية لدولة صغيرة فى جنوب أوربا ، وها هى اليوم تحكم من عاصمة شمالية فى القارة نفسها (١) . وحين نستعرض ما شهدته ســمرقند ابان صراع الأسر المختلفــة التى حكمتها ، من يونان وعرب وترك ومغول وأوزبك ، فاننا لا نجد بالكاد أرضا أخرى فى آسيا عرفت تاريخــا فيه الأيام السعيدة وفيه الأوقات العاصفة كذلك الذى عرفته هذه البلاد . ولقد صار كثير من بلاد الشرق البعيدة معروفا لنا خلال القرن الماضى ، حتى لم تعد أقصى أركان ختاى ، بلاد خطا ، وزيبانغو يخفى أمرها على الباحثين والمستكشفين الغربيين . ومع هــذا كله فقد بقيت ســمرقند بلاد الأقاصيص حتى يومنا هذا فى الغالب .

وعلى هذا فقد كان سقوطها موضع الدهشة والعجب فى أوربا. وقد قضى فتح هذا الاقليم على كل مسارح الخيال التى كان الناس يحلقون فيها حين كانوا يفكرون فى تقاليد آسيا فى العصور الوسطى .

وعلى اثر سقوط سمرقند انطلق الأمير هاربا الى كرمينية لا يلوى على شىء . أما ابنه وولى عهده ، عبد الملك ميرزا ، وكان شابا فى التاسعة عشرة من عمره ، فكان قد فر أثناء المعركة الى بخارى .

وبلغ الذعر بالناس الى درجة أن هجرت جموع بأكملها من السكان المسالمين دورها وموطنها فى ميــان كل وهربت بطــريق قارشى فعبرت جيحون الى ميمنة وأندخوى . أما الروس فكان أول ما شرعوا فيــه هناك هو تأمين مراكزهم . فعمدوا الى تحصين الربوة الصغيرة التى تقوم القلعة عليها ، وواصلوا فى الوقت نفسه زحفهم فى طريق بخارى ليطاردوا الأمير من جهة وليؤمنوا المواضع التى تحيط بهم من جهة أخرى .

---

(١) طالما أتيح لبعض حكام بلاد ما وراء النهر وأمراء القبيلة الذهبية التوغل فى الروسيا بدورهم حتى دخلوا موسكو نفسها مرات متكررة ، على ما يشير اليه مؤلف هذا الكتاب نفسه . والثابت كذلك أن دوق موسكو ظل سنين طويلة لا يعين الا على مشيئتهم على جزية سنوية يدفعها لهــا (**المترجم**) .

وزحف الماجور جنرال جولوتشيف أولا الى حصن كته كورجان ، على زرفشان ومعه أربع عشرة فصيلة من المشاة وثمانية مدافع وثلاث سرايا من القوزاق .

وكنت قد مررت بهذا الحصن من قبـل ، فقيل لى اذ ذاك انه يستعصى على أى فاتح . والواقع أن استحكاماته الخارجية كانت على شيء من القوة ، ومع هذا فان حاميتـه برغم كثرة عددها ما لبثت أن فتحت أبوابه مستسلمة دون ابداء أدنى مقاومة .

والغالب أن الأمير كان قد مضى بجهد يجمع شتات ما بقى عنده من القوات ، واتخذ لذلك من مير (١) مقرا لقيادته ، ومنها أخذ يبعث ببعض قواته من الخيالة الخفيفة لمناوشة الروس عند كته كورجان ، حتى ضاق الجنرال كاوفمان آخر الأمر ذرعا بهذه المضايقات المستمرة وان لم تكن ذات بال ، فعزم على المضى الى بخارى والقضاء على بقايا الجيش الأوزبكى هنـاك . وكان البخـاريون لا يزالون على غرورهم حتى استعد الأمير للمقاومة من جديد . ولا ندرى أفعل ذلك من تلقاء نفسـه أم بتحريض جموع المتحمسين ، ثم خرج من بعد ذلك لحرب الروس .

وعند سرپول وقعت الموقعـة الحاسـمة بين أسرة المنغيتيين وبيت رومانوف على تاج بلاد ما وراء النهر ، فى نفس المـكان ونفس الفصل من السنة ، بل ولعله كذلك فى نفس اليوم من الاسبوع ، الذى تحارب فيه شيبانى خان وبابر فى الموقعة الحاسمة من أجل أسرتيهما ، وكان ذلك لثلثمائة وتسعة وسبعين عاما خلت .

وجاءت النتيجة فى غير صالح الأوزبك الى أبعد حد ، فقد انطلق الروس بشجاعتهم المعروفة يقتحمون من كل جانب مرتفعـات الطريق الذى كان يحتله الأوزبك ، حتى بلغ الاضطراب والفوضى بالعدو الى حد أن صار الطريق حتى كرمينية تغطيه الأسلحة التى كان الفارون يلقون بها وهم يولون الأدبار . وفى هذه الكارثة الشاملة انتهى مظفر الدين الى أقسى مصير .

---

(١) هى قرية صغيرة فى الطريق من بخارى الى سمرقند وتتوسط ما بين كرمينية وكته كورجان ، انظر كتابى Travels in Central Asia p. 200

ذلك انه لم يجرؤ على العودة الى بخارى ، اذ كان ابنــه ، وكان على الدوام ثائرا عنيدا ، قد تزعم المتحمسين النــاقمين وعمــل على أن يسلب أباه بقايا عرشه المنكود . ولكنه لم يجسر بدوره على التقدم بقواته .

ذلك أن الروس كانوا ، على ما يبدو ، قد حزموا أمرهم هذه المرة على أن يمضوا قدما براية النسر الأسود حتى يبلغوا « بخارى الشريفة » .

وبذلت محاولات غادرة لمهاجمة سمرقند فى غياب الجنرال كاوفمان ولكنها باءت بالفشل بفضل شجاعة الروس (١) .

وبهذا لم يكن للامير بد من عقد الصلح مع عدوه المنتصر، فيحتفظ بذلك بظل الملك ما بقى له من سنين ، على أن يدفع غرامة حربية قدرها مائة وخمسة وعشرون ألف تيل (نصف المليون تالر) ، ولم ينص الروس صراحة على أنها جزية محافظة منهم على شعوره .

وفى معاهدة الصلح هذه تعهد الأمير بما يأتى :

أولا : أن يسمح للرعايا الروس بممارسة التجارة فى حرية تامة بكل أجزاء الخانية بصرف النظر عن عقائدهم ، وأن يؤمنهم على ممتلكاتهم وحياتهم .

---

(١) حين ترك الجنرال كاوفمان وقوة جيشه الرئيسية سمرقند من ورائهم ، هاجم خمسة وعشرون الفا من الاوزبك والسمرقنديين قلعــة المدينة غدرا قادمين من شهر سبز حتى دق مركزها . وكانت الحاميــة فيها يقودها الماجور البارون فون شــمــر، V. Stemp c., وكان قوامهــا ٦٨٥ رجلا بما فيهم المرضى وغير المحاربين . وقد أبدى هؤلاء من البطولة ما يستحق كل ثناء وتقدير ، وكان فيهم من نهض من فراشه وشارك فى الدفاع . وقد استمرت هذه المعركة ستة أيام كاملة من ١٢ يونية الى ١٨ منه ، وكلفت الروس ٤٩ قتيلا و ١٤٢ جريحا . وركز العدو نيرانه علــى أحد الأبواب وأفلح فى احداث ثغرة فيه ولكن ذلك لم يفده شيئا . وظلت طوابير المهاجمين تتدفق على الأسوار وهم يصيحون كصياح الجن . وظل الروس يطيرون من موضع الى آخر وهم يردون عنهم ، فى ثبــات ، ذلك العدو المتعطش للدماء وينزلون به الخسائر حتى بلغ الخبر آخــر الأمر الجنرال كاوفمان بعد مضى وقت طويل ، فأسرع بالعودة فى زحف شــاق وخلص بذلك رجاله من موقفهم المهلك . وهذه الفترة من الحرب الروسية البخارية فيها أوضح مثال على وهن شعوب آسيا الوسطى مع ما هم عليه من مكر .

ثانيا : أن يسمح للتجار الروس بأن يقيموا وكلاء تجاريين لهم فى حرية تامة بكل أجزاء الخانية .

ثالثا : أن يحدد الضريبة على الواردات الروسية باثنين ونصف بالمائة من قيمتها الاسمية .

رابعا : أن يسمح للتجار الروس بحرية المرور فى أراضى الخانية حين يقصدون الى ما يجاورها من البلاد .

عقد مظفر الدين هذا الصلح مع روسيا ليجد أنه انما قد جلب بذلك على نفسه عداوة شعبه وكراهيته المريرة له . ذلك أن كل ما نزل بهم من الهزائم وما حاق بهم من الكوارث وما ضاع منهم من الحصون وما هلك منهم من الأنفس ، هذه كلها لم يكن لها أدنى أثر فى أن تجعل شيوخ بخارى المتعصبين ، الذين طار لبهم شعاعا لذلك ، يدركون واقع الأشياء ادراكا صحيحا . فأولئك الذين كانوا لسنين قليلة خلت يعتقدون اعتقادا جازما بأن بخارى ، بقوة جيشها وصحة اسلامها الأكيد ، هى ند لسلطان القسطنطينية نفسه ، وناهيك بالنصارى ، عليهم أن يدركوا الآن أن حفنة من كفار النصارى قد غلبوا جيشا للمسلمين يفوقهم فى عدده بعشرة أمثال أو خمسة عشر مثلا ، وأن مخترعات أوربا الشيطانية، فى فن الحرب ، كانت أشد فعالية من دعوات الصالحين وأنفاسهم المباركة . ولم يكن أحد من هؤلاء المسلمين المتحمسين يدرك هذه الحقيقة .

وكان من سوء الطالع أن اتهموا زعيمهم بالخيانة . ولم تجرؤ جموع الثائرين هؤلاء على مهاجمة الروس فسقطت على أميرها وألبت الجماهير عليه وسعت لاجلاس ولى العهد على العرش .

وفضلا عما كان لولى العهد هذا من حزب قوى فى بخارى فقد كان يؤيده كذلك جورى باى وبابر باى فى شهر سبز ، وتميل الى صفه المناطق الشمالية فى غجديوان ونوداته وخاطرجه .

وهو حين انفصل عن أبيه وارتد الى قارشى نادى بنفسه سلطانا

من فوره ، وعلى هذا دخل فى تحالف مع خان خيوه . وازداد تأييد الناس له حتى وجد نفسه بعد وقت قصير جدا على رأس جيش قوامه ما يقرب من عشرة آلاف رجل . ولم يكن مظفر الدين ليقف موقف المتفرج ازاء ذلك . فجمع بدوره ما تبقى له من قوات ضئيلة وزحف بها الى قارشى ليكبح جماح ابنه . حتى اذا ما بلغ منتصف طريقه الى هناك علم كذلك بقيام الثورة عليه فى القسم الشمالى من الخانية ، وذلك بتدبير فى السر من ولى العهد ، على ما يحتمل ، وأن صادق باى زعيم الثوار فى تلك النواحى يزحف فى طريقه الى كرمينيه .

وأدى ظهور ذلك العدو فجأة فى الشمال ، مع ما لاح من ازدياد الخطر فى تلك النواحى ، الى أن أصدر الأمير أوامره بالرجوع وجد فى السير الى عاصمته . وتشجع ولى العهد بارتداد أبيه هذا فعزم على مطاردته . وكان من الممكن أن ينجح فى خطته هذه لو لم يتدخل الروس بطلب من الأمير .

ولم تكن هذه الاضطرابات لترضيهم ، فى الغالب ، والأحوال لم تستقر بعد فى الولاية التى دانت لهم حديثا . فرصدوا لذلك قوة صغيرة (١) بقيادة الكولونيل ابراموف Abramoff استطاعت أن توقف تقدم ولى العهد عند جام .

هذا كما تمكن مظفر الدين فى الوقت نفسه من أن يتخلص من صادق باى فى النواحى الشمالية الشرقية اذ أنزل به هزيمة تامة ، ثم ذهب من بعد ذلك ينشد تعاون الروس معه حتى يستطيع بذلك أن يقر الأمور فى الجنوب حيث شهر سيز التى ثارت فى وجهه ، وابنه الذى خرج عليه .

وأجابه هؤلاء الى ما طلب ، فسار الكولونيل أبراموف من جام مع فرقة استطلاعية لهذا الغرض . وسبق هذا القائد الأمير فى زحفه

---

(١) كانت هذه القوة تتكون من سبع فصائل من المشاة وسريتين من القوزاق وستة مدافع خفيفة ومثلها ثقيلة .

بأميال قليلة ، فالتقى بقوات ولى العهد فى اكتوبر (وفى نوفمبر فى رواية أخرى) فهزمها وشتت شملها . واستولى الروس على قارشى ، ثانى مدن الخانية ، ثم أخلوها من بعد ذلك بيومين وسلموها الى الأمير هى وقلعتها وكل ما كان بمخازنها من أسلحة ، والدهشة تعقد لسان أهلها من هذا الصنيع . وارتأى مظفر الدين أن يفيد كذلك من الروس فى حرب مع شهر سبز . وكان يرمى من وراء ذلك الى القضاء على جورا باى دون ابنه الذى كان يعده مجرد مخلب قط لخصمه هذا .

على أن الجنرال كاوفمان لم يكن يفكر على كل حال بأن عليه أن يصنع للامير أكثر مما صنع ليدلل بذلك على صداقته لحليفه الجديد هذا . فما ان أخلى قارشى حتى بعث بجنده الى معسكرهم الشتوى فى جام .

ولم يكن ولى العهد ليهدأ له بال وهو يطمع فى العرش ، حتى أقلقت مغامراته مضاجع أبيه كما أقلقت الروس والبريطانيين كذلك . فكنت تراه مع عصابته من تركمان الأرسارى أو التكه ، وكانوا يناصرونه جميعا ، يقدم فجأة من السهوب فيظهر من جديد بهذا الجزء أو ذاك من الخانية ، أو يتحالف مع خيوه ، لتأتى الأخبار بعد ذلك بوجوده فى كابل يحاول عبثا أن يحمل أميرها شيرعلى خان على محاربة الأمير .

وقد لقى ولى العهد كل الترحيب والعطف فى كابل ، حتى زوجه شير على خان من ابنته ، ومع هذا فان أحدا لم يجرؤ على شد أزره أو مساندته فى تحقيق أغراضه ، حتى لقى حتفه ، غيلة فى الغالب ، وهو فى تجواله بخيوه (١) .

وبتخلص الأمير من هذا الكابوس المخيف عاد السلام يخيم على ربوع ذلك القسم من بخارى الذى سمح له الروس بأن يدعيه لنفسه كرما منهم ، وقد تعلم ، بدافع الضرورة ، كيف يلائم بين نفسه وبين ما

(١) لا يزال هذا الأمير ، على ما سمعت حديثا ، على قيد الحياة فى ضيافة يعقوب قوشيجى فى كاشغر .

صار اليه من مصير شاق . وصارت أقساط الغرامة الحربية تؤدى الى سمرقند فى مواظبة نسبية ، وان كان كاهل القوم قد أثقل بها .

واتنظمت الصلة بين حصن بخارى وقلعة مدينـة تيمور ، وما غدا الأمير ، اظهارا لولائه ، أن أوفد الى بطرسبرج وفدا من قبله وعليـه عبد الفتاح ميرزا أصغر أبنائه وأحبهم الى نفسه ، وكان اذ ذاك فتى فى الثانية عشرة من عمره . وكان مظفر الدين قد نادى بابنه الرابع هذا خلفا له وسعى جهده فى أن ينال فى ذلك التأييد على ضفاف نيفا .

وكان هذا بالطبع أمرا مشكوكا فيه . فلئن كان القيصر نيقولا قد أفصح فى السابق لشاه ايران افصاحا عمليا عن حب روسيا لبلاده حين دلله فى طفولته وأجلسه على ركبتيه فى تفليس ، فان الاسكندر الثانى لم يكن يريد أن يتعرض لمثل ما لقيه سلفه من المتاعب فى هذا الصدد ، كما لم يكن بطبيعته مستعدا لأن يقوم بالوصاية على عبد الفتاح هذا . وقوبلت البعثة القادمة من شواطىء زرفشان البعيدة بكل حفاوة واحترام بالبلاط الروسى ، فى ٣ نوفمبر من عام ١٨٦٩ . ولم يأل القيصر جهـدا فى الاعراب عما يكنه من الصداقة « لأخيه الطيب » بتركستان ، وكان الأجدر به بحق أن يقول عنه انه تابعه . وتلقى بصـحبة الامبـراطورة هدايا الأمير وبيانها كالآتى :

١ — خاتم له حجر ضخم من الماس .

٢ — عمامة للسيدات مرصعة بالحجارة الكريمة .

٣ — مجموعة من أطقم الخيل من الفضة المرصـعة باليواقيت ، وهى خاصة بالخيول الكريمة الأربعة التى بعث بها من تركستان .

٤ — أربعة معاطف من جلود الخيل سوداء ومخططة بالكشمير .

٥ — ثلاثة معاطف من صوف الأغنـام رمادية اللون ومخططـة بالنسيج البخارى الذى يعرف باسم « شالى » .

٦ — كسوتان من الكشمير .

٧ — قطعة من الكشمير النادر الجميل .

٨ — ثمانى عشرة قطعة من الحرير المنسوج هناك .

٩ — ثمانى عشرة قطعة من النسيج المعروف باسم « اترس » ، وهو مزيج من الحرير والصوف (١) .

وكانت هذه الهدايا تسعة فى عددها على رسم الأمم التركية التتارية . وقد رد القيصر على هذه الهدايا بهدايا أخرى مناسبة . وأدى تبادل الهدايا هذا الى قيام قدر من التفاهم الطيب بين الطرفين بطبيعة الحال ، ان لم يكن قد قام دليلا على حسن نواياهم .

والواقع أن مظفر الدين كان قد كف عن اظهار العداء لروسيا منذ أن استولى الجنرال كاوفمان على سمرقند . على أنه ليس من المستبعد أبدا أن يكون هذا الأمير قد حاول سرا التحالف مع أمير تركستان الشرقية القوى ، وأن ثمة جهودا أخرى كان يبذلها من وقت لآخر للغرض نفسه فى القسطنطينية وكلكتا . ذلك أن أمير بخارى لم يكن ، على قدر ما نعلم ، قد يأس بعد من امكان استرداده لملكه السابق . ولكن محاولاته كلها لم تثمر شيئا . ولم يبد من روسيا بدورها كذلك ما يفصح عن نيتها فى الجلاء عن أى جزء من آسيا . وعلى هذا فقد شاء القدر أن يكون مظفر الدين هو آخر بنى جلدته وآخر أولئك الأمراء الذين حكموا كأمراء مستقلين ببلاد ما وراء النهر منذ أيام السامانيين حتى وقتنا هذا .

عند هذا الحد ينتهى تاريخى لبخارى ، وقد أخذ هذا القطر الآسيوى القديم القصى يمضى فى طريق العالم الحديث ويأخذ بالأفكار الحديثة منذ اللحظة التى أخذ العلم الروسى فيها يرفرف فوق قلعة سمرقند . فالمدن والأقاليم التى كان سكان أوربا لا يعرفون عنها شيئا قد فتحت أبوابها ، والأماكن التى كان الرحالة الأوربيون لا يستطيعون أن يلجوها ، الا مغامرين بحياتهم متعرضين للهلاك ، لم تصبح اليوم حرة آمنة فحسب ، بل ويقوم على شئون حكومتها مسيحيون كذلك ،

---

(١) هذا البيان نقلا عن مقال لهلوالد فى مجلة "Ausland" الألمانية بتاريخ ١١ مارس ١٨٧٢ ، وعنوانه «اكتشافات جديدة فى آسيا الوسطى»

ففتحت الكنائس والنوادي فى طشقند وخجند وسمرقنـــد ، بل وظهر كذلك فى طشقند صـــحيفة هى Turestanskia Wjedomosti أى أخبـــار تركستان ، وصارت أجراس الكنائس اليونانية تختلط أجراســـها بأذان المؤمنين . وكانت هذه الدقات أشد وقعا فى آذان المسلمين من طلقـــات المدافع .

وصار القساوسة والجند والتجار يمشون بخطى الفاتحين مزهوين فى طرق بخارى حيث لم يجرؤ مؤلف هذا الكتاب لسنين خلت هناك الا على انشاد الترانيم الاسلامية . وأقيم دار للشفاء ومخزن فى قصر تيمور الذى كان يوما ما مضرب المثـــل فى الفخامة ، حيث كانت تقـــدم وفود آسيا ليفصحوا عن ولائهم لصاحبه ويقدموا له هداياهم ، وحيث بعث ملك قشتالة المتكبر نفسه برسله ليســـعوا فى خضـــوع الى كسب ود تيمور ، وحيث كان يقدم أحفاد التورانيين فيلمسون بجباههم فى خشوع « الحجر الأزرق » قاعدة عرش تيمور .

أما مدى ما سوف يسهم به هذا الانقلاب فى فلاح سكان آسيا الوسطى فهو موضوع أبعد ما يكون فى صلته بأهداف هذا الكتـــاب ، فأحيل القارىء ، فى ذلك ، على آرائى التى أبديتهـــا فى هذا الشـــأن بمنشورات أخرى (١) .

على انه لابد لى من أن أشير هنا الى حادث بالغ الأهمية ، وهو أن ما أحرزته روسيا من النجاح فى آسيا الوسطى قد أنزل بالاسلام أشد ضربة تعرض لها على أيدى المسيحية خلال الألف عام التى كان يقـــوم فيها الصراع بينهما (٢) .

---

(١) انظر هامش رقم ١ ص ٤٣٦ من هذا الكتاب .

(٢) مارس الروس من بعد ذلك حرب ابادة سقط فيها الوف عديدة من سكان هذه البلاد الذين انطلقوا يقاومونهم بدورهم فى ثورات مسلحة متلاحقة أشهرها ثورة الشيخ شامل فى القرن الماضى ثم ثورة « البصمجى » فى أواخر الربع الأول من القرن الحالي . هذا عدا الوف كثيرة منهم هاجروا بدينهم الى مختلف الأقطار الاسلامية . وتجد تفصيلات كثيرة فى ذلك فى كتاب Baymirza Hayit, Turkestan im X X Jahrhundert, Darmstadt 1956 (المترجم) .

وفى أيامنا هذه تغلغل نفوذ أوربا المسيحية القــوى فى كل أجزاء آسيا الاسلامية الغربية وسادها ، ولم تقف مكة والمدينة نفساهما بنجوة من التأثر بالتيارات الحديثة السائدة فى هذا العصر .

على أن الاسلام فى تلك الأجزاء النائية من آسيا الوسطى قد ظل يزدهر لا يعوقه فى ذلك شىء ، ما حرص أصحابه على المحافظــة على أصوله الأولى سليمة نقية . وعلى هــذا فقد صارت بخارى فى الواقع — لا مكة — هى مركز الاسلام الروحى ، واليها قدم الزهاد والأتقياء ورجال الدين المخلصون من كل حدب وصوب . وما من شــك فى أن المســلمين الغيورين فى كل أجزاء الدولة العثمــانية ، فى مصر وفارس ومراكش ، كانوا يتلقون عن تلك البلاد ما يذكى فيهم الحمية الدينية وان لم تذع تلك الحقيقة فى الناس (١) . وما من شك كذلك فى أن صيرورة تلك البلاد الى أيدى الكفار ، أشد من أن يحتمله المؤمنون فى العــالم الاسلامى . وسيظل التراب الذى أثاره سقوط أعظم أساطين الاسلام ، على ما كانت تعرف به بخارى ، يغيم كسحابة سوداء معتمة فى آفاق آمال الاسلام المستقبلة لزمن طويل ان لم يكن الى الأبد .

---

(١) أذكر فى ذلك الخانقاهات البخارية ، وكان ينزل فيها فى الواقــع الدراويش والحجاج من أهل آسيا اواسطى بالقسطنطينية ، وينفق عليها أتقياء آيا صوفيا . وبمناسبة ذكر الصلات الروحية مع مسلمى الغرب ، فقد لاحظت أن هناك عددا ملحوظا من الترك كانوا من بين مريدى شيوخ بخارى . وقد زودنى شخصيا ترك من القسطنطينية وأنقــره وارضروم برسائل توصية الى هؤلاء الشيوخ .

بخارى الكبرى
(بلاد ما وراء النهر)
قبل الاحتلال الروسى

صفر ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ كيلومتر

الروسيا
التركستان
التركستان الشرقية
إيران
بلاد الأفغان
كشمير
البنجاب
خراسان
تركمان التكه
إمارة بخارى
خانية خوقند
بخارى
خوقند
سمرقند
قراقول
قلزان
كاشغر
عشق آباد
آق تبه
نغماق
امسك

هذه الخريطة من وضع المترجم .

فهــرس أبجدى عام

ب

ت

ث

ج

ح

ن

و

(مطابع شركة الاعلانات الشرقية)